المسلمون وتجارة الرقيق

خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة

أطروحة دكتوراه الدولة

1

توفيق بن عامر

مبرز في اللغة والآداب العربية

الجامعة التونسية

المسلمون وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة

محمد الطالبي
11 نهج طهران - 2000 باردو
الهاتف : 511.582

توطئة

توطئة

أ. ميدان البحث

ان الغرض الذي نرمي اليه بانجاز هذه الدراسة هو محاولة رفع النقاب عن جانب من جوانب الحضارة الاسلامية الوسيطة قد ظلّ مجهولا الى حدّ الآن لانه لم يحظ بعد بما يليق به من دراسات رغم ما يكتسيه من اهمية . فأول ما يلاحظه الباحث في هذا الميدان هو ندرة الدراسات الخاصة بمعالجة قضايا الرق التي يطرحها التاريخ الاسلامي قديمه وحديثه بالرغم من كونها تمثل ركنا اساسيا من اركان ذلك التاريخ . واننا لنتساءل كيف يتسنى لنا البحث في اوضاع المسلمين الاجتماعية او الاقتصادية او الثقافية او السياسية او العسكرية دون اهتمام باوضاع الرقيق ودوره في شتى تلك الاوضاع الحضارية خصوصا اذا علمنا ان المجتمع الاسلامي قد كان كغيره من المجتمعات القديمة والوسيطة استرقاقيا وان فئة العبيد قد كانت تعتبر جزءا منه لا يتجزاء وعاملا من عوامل تكوينه الاساسية .

واذا ما حاسبنا انفسنا عن الخطوات التي خطاها البحث العلمي في هذا المجال ادركنا اننا في بداية الطريق والفينا امامنا نقط استفهام ضخمة فماذا نعلم عن دور الرقيق في الاسرة الاسلامية ودوره في الحياة الثقافية والفنية ومشاركته في الميدان السياسي والبناء الاقتصادي وعلاقته بغيره من ابناء الفئات الاجتماعية الاخرى وظروف معاشه ومستواه ؟ وماذا نعرف عن أثره في ظاهرة تلاقح الحضارات وعطية تمازج الاجناس وفي طبيعة التمدن الاسلامي بطابع خاص؟ حقا اننا لا نعلم الشيء الكثير! ومادمنا مقصرين في فك هذه الالغاز لن يكون من حقنا ان نعتقد اننا قادرون على فهم تاريخ المسلمين الحضاري فهما كاملا.

وقد تساءل CL. Cahen ((كلود كاهان)) قبلنا نفس التساؤل (1) وعبر عن وجود هذه الثغرة

---

1) كلود كاهان CL cahen - الشعوب الاسلامية في التاريخ الوسيط « Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale - Institut français de Damas ص: 222 Damas - 1977 - »

— راجع ايضا لنفس المؤلف مقالا بعنوان : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاسلامي الوسيط - « L'Histoire Economique et Sociale de L'Orient musulman médiéval - Studia Islamica - 1955 - III - pp - 93 - 115

فـي ميـدان البحـث وهـذه الحلقـة المفقـودة في سلسلـة
الدراسـات الخاصـة بالتـاريـخ الاسلامـي الوسيط فقـال:
((كلنـا يعلـم ان المجتمـع الاسلامـي في القـرون الوسطـى
وخاصـة في المدن هـو مجتمـع قـائـم على العبيـد .
اليـس من العجيب اذن ان ننتظـر اول نشـرة لـدائـرة المعارف
الاسلاميـة الجـديـدة لكـي نجـد مستشرقـا يجـرؤ
على كتـابـة شيء حـول الاسترقـاق ؟ بينمـا
كـانت الدراسـات الجـديـة الوحيـدة هـي
دراسـات ((م . فرلنـدن)) verLinden
الذي لا يعتبـر مستشـرقـا)) (1) ومـن الجلـي ان صـاحب
هـذه القـولـة يشيـر الى المقـال الذي كتبـه الاستاذ
((برنشفيـك)) Brunschvig في دائـرة المعـارف
الاسلاميـة بعنـوان ((عبـد)) (2) وتنـاول فيـه ظاهـرة الرق فـي
الحضارة الاسلامية من ابرز جوانبها التشريعية والتاريخية بايجـاز
تحتمـه حـدود المقـال .

---

1) المـرجـع نفسـه -
2) برنشفيك Brunschvig . دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 25-41

ب : الموضوع

ولسنا هنا في مقام تقييم شامل للدراسات التي كان لها مساس من قريب او بعيد بمسألة الرق في الحضارة الاسلامية وانما اردنا الاشارة فقط الى ندرة الدراسات الجدية والمتعمقة في هذا المجال والى ضرورة المساهمة في سد هذه الثغرة ولذلك جعلنا محط انظارنا الاقدام على دراسة قضية اساسية من قضايا الرق في التاريخ الاسلامي الوسيط تتناول وجها من وجوهه الاقتصادية وتبحث في تجارة الرقيق عند المسلمين خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ولست بحاجة الى بيان قيمة هذه المسألة التي ستكون موضوعا لبحثنا هذا اذ يكفي للدلالة على اهميتها التذكير بأنها كفيلة بكشف الحجاب عن مصدر هام من مصادر مادة الرقيق في تاريخ المسلمين الى جانب مصدري الحرب والولادة في الرق وتكفي الاشارة ايضا الى انها صورة معبرة عن ناحية خطيرة من نواحي الحياة الاقتصادية الاسلامية لاسيما اذا علمنا ان الرقيق فضلا عن كونه مادة تجارية وبضاعة لها مكانتها في الدورة الاقتصادية قد كان يشكل وسيلة هامة من وسائل الانتاج في المجتمع الاسلامي والمصدر الذي يستمد منه هذا المجتمع الايدي العاملة

للنهوض بشؤونه الاقتصادية بصفة عامة وهو بعبارة اخرى المحرك الاساسي للاقتصاد والدولاب الذي لم يكن بدونه لتتجمع الثروات الطائلة التي قامت على اساسها المدنية الاسلامية" وقد شعر كل من ((كلود كاهان)) cl. cahen و ((برنشفيك)) Brunschvig باهمية هذا الجانب الاقتصادي من مسألة الرق وعبرا عن آمالهما في ان توضع فيه دراسة في يوم من الايام .

يقول الاستاذ ((كاهان)) cl.cahen معلقا على مقال الاستاذ ((برنشفيك)) بدائرة المعارف للاسلامية" ما يلي : ((لست في حاجة الى مدح هذا المقال الذي سيكون في المستقبل قاعدة للبحث . ومن الواضح ان مقالا بموسوعة لا يمكن ان يحيط بكل الجوانب وعلينا في المستقبل ان نتعمق خاصة في جوانب الاسترقاق الاقتصادية)) (1) قد وضع

---

1) كلود كاهان cl.cahen - الشعوب الاسلامية" - ص 222
احالة رقم : 2

((برنشفيك)) BRUNSCHVIG بالفعل حجر الزاوية الذي يحسن بنا ان نبني على اساسه وقد عبر هو نفسه عن نوع الاتجاه الذي يرتئيه لهذا البناء فنبه في سياق مقاله الى ضرورة البحث عن نقاط بقيت مجهولة كمسألة مكانة الرقيق في المعاملات التجارية وكامكان المقارنة بين أثمان الرقيق وأثمان المواد التجارية الأخرى حتى يمكن التعرف على مستوى اسعار هذه البضاعة (1).

فلعل فيما سبق ما يحث على شحذ الهمة وعقد العزم على محاولة تكملة هذا النقص واختيار تجارة الرقيق عند المسلمين موضوعا لاطروحتنا وقد كان من حسن حظنا ان شجعنا على طرقه استاذنا الدكتور محمد الطالبي بحماسه المعهود وتفانيه في خدمه البحث العلمي واهتمامه المتزايد بالحضارة الاسلامية الوسيطة

---

1) برنشفيك - BRUNSCHVIG - دائرة المعارف الاسلامية ((مقال عبد)) ج 1 ص 33

فشد من ازرنا ووجهنا الى تركيز الاهتمام على
القرنين الثالث والرابع للهجرة لتميز هذه
الفترة عن غيرها بازدهار التجارة الاسلامية
برا وبحرا وتألق المدنية الاسلامية شرقا
ومغربا مما سمح للمسلمين بالسيطرة على
الطرق والمسالك والقيام بدور الوسيط التجاري والحضاري
عموما بين انحاء المعمورة وفي كل ذلك ما يدعو
الى التساؤل عن الدور الذي لعبته تجارة الرقيق
على صعيد حضارة هذا العصر .

ح : الصعوبات

وتعترض الباحث في الجواب عن هذا السؤال جملة
من الصعوبات من اهمها ما نلاحظه بصورة عامة
في شتى الحضارات من ان الرقيق الذين كانوا يمثلون
طبقة متميزة عن غيرها من الطبقات لها آمالها
وآلامها الخاصة وقامت على كواهلها ضروب من المدنيات
لم يحدثونا عن انفسهم بالسنتهم ولم يكتبوا تاريخهم
باقلامهم وانما ظلوا الصمت أو الزموا به فجهلنا بصمتهم

ذاك الكثير من احوالهم . ولعل جل ما نعرفه عنهم قد وافانا عن طريق فئة اجتماعية اخرى هي المالكة لرقابهم فلا يجوز والحاله تلك ان نطمئن الى ما تنقله عنهم كل الاطمئنان (1).

واذا ما تأملنا في التاريخ الاسلامي الوسيط جابهتنا صعوبة اخرى ليست اقل اعاقة للباحث من السابقة وهي ما درج عليه الاخباريون والمؤرخون المسلمون من تركيز الاهتمام على تسجيل الاحداث السياسيه او العسكرية وحصر التاريخ في دائرة الاسر الحاكمة دون التفات الى سائر فئات الامة الا غرارا واضطرارا وما حرص عليه كتاب التراجم ومؤلفو كتب الطبقات من اعتناء بشؤون الخاصة دون العامة فارخوا لرجال السياسة والدين والعلم والادب واهملوا اصحاب المهن والصنائع والتجار وغيرهم . وما من شك في انهم قد كانوا خاضعين اذاك لاعتقاد سائد في مجتمعهم يعلي من شأن اصحاب السيف والقلم ويعتبر غيرهم من ارباب الحرف في مرتبة ثانية .

---

1) موريس لنجلي M Lengellé - الرق - ص 44 45
L'esclavage - « Que sais-je ? » - P U F - Paris . 1955
N: 667 - P 44 45

د ـ المصادر

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على خمسة اصناف من المصادر منها مؤلفات الاخباريين والمؤرخين وهي مؤلفات قد احتوت على معلومات متفرقة يواجه الباحث في جمعها عسرا كبيرا ذلك لانها لم تهتم بهذه القضية في حد ذاتها وانما اشارت الى بعض متعلقاتها في غضون حديثها عن تاريخ الدول والملوك . ويمكن ان نعتبر من هذا الصنف ايضا كتب الطبقات بشتى انواعها اما الصنف الثاني فهو كتب الرحلة او مؤلفات ((المسالك والممالك)) التي وضعها الرحالة والجغرافيون المسلمون وقد كانت الاستفادة منها اكثر وايسر لاهتمامها بشؤون المبادلات والطرق التجارية ولتعرضها الى موضوعنا بصورة مباشرة ووصفها لعمليات توريد الرقيق بمختلف اجناسه وتحديدها لمكانته بين سائر البضائع الرائجة في نطاق التجارة الخارجية الاسلامية .

ويتمثل الصنف الثالث في كتب الحسبة المتضمنة لاحكام السوق وهي مؤلفات قد اعتنى اصحابها من المحتسبين بسلامة الاسواق مما يضر بمصالح الناس فنبهوا الى حيل التجار وغشهم وميّزوا بين الجيّد والرديء من البضائع على اساس الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وحرصوا على سير المعاملات وفق مقتضيات الشرع . وقد خصصوا في كتبهم ابوابا لاسواق الرقيق وصفوا خلالها عدة جوانب من نشاطها وتقاليدها مما يتصل اتصالا وثيقا بموضوعنا وخاصة ما يتصل منه باوضاع التجارة الداخلية . والملاحظ ان هذه المؤلفات قد وجد بينها تشابه كبير في سياق عرض عيوب البضاعة ومحاسنها وتعداد حيل التجار ونجد عهم ذلك راجع الى نقل المؤلفين عن بعضهم بعضا والى استمرار الظاهرة الواحدة ايضا عبر فترات متلاحقة ويتصل بهذا الصنف المركز على ((نعوت)) البضاعة و ((عيوبها)) بعض الرسائل الخاصة بالرقيق مثل رسالة ابن بطلان (1) وبعض رسائل الجاحظ(2).

1) ابن بطلان . رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد - نوادر المخطوطات عدد 4 - القاهرة ١٩٥٤
2) الجاحظ - الرسائل - تحقيق - عبد السلام هارون - ط . القاهرة . 1964 - 1965

اما الصنف الرابع فهو المؤلفات الادبية التي نظرنا اليها باعتبارها وثيقة تاريخية فحسب وكانت استفادتنا منها متصلة خاصة باثار تجارة الرقيق في المجتمع وانعكاساتها على الحياة الثقافية والفنية والحضارية عموما وهذه ناحية قد برزت ابعادها في ادب هذا العصر بشكل واضح وارتسمت في الموسوعات الادبية ككتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني (1) ونشوار المحاضرة للتنوخي (2) وغيرهما . ولم تخل دواوين الشعرا يضا في هذه الفترة من قرائن مفيدة بالنسبة الى موضوعنا فاعتمدنا بعضها من وجهة نظر وثائقية دائما وكان اعتمادنا على هذا النوع من المصادر مفيدا خاصة في تحليل العوامل النفسية والاجتماعية التي كان لها دور هام في رواج تجارة الرقيق خلال هذا العصر .

واعتمدنا صنفا خامسا من المصادر لا يقل اهمية عن الاصناف السابقة الذكر ونعني به الاحكام الفقهية المتصلة

---

1) الاصفهاني - كتاب الاغاني - ط بيروت - ١٩٦٢ - ١٩٦٤
2) التنوخي - نشوار المحاضرة - ط . بيروت - دار صادر - ١٩٧١ - ١٩٧٣

بتجارة الرقيق يقيننا منا ان فهمنا
لاوضاع تلك التجارة رهين بالاطلاع على الأطر القانونية
التي تنظمها وان هذه المادة الفقهية لم تكن دائما
مجرد احكام نظرية و منفصلة عن الممارسة التاريخية
بل هي متصلة بالواقع الاسلامي رغم حرص الفقهاء
على ربطها بالمبادئ الشرعية بشكل من الاشكال
وقد اعتبرنا ان ذلك الاتصال بالواقع ذو طابع جدلي
يتخذ احيانا مظهر الايجاب واحيانا اخرى مظهر السلب
وان اغلب الفتاوي التي اصدرها الفقهاء قد كانت نتيجة
اصطدام التشريع بتجدد الاحداث الاجتماعية وتطورها
فلاغنى للمؤرخ عن النظر في التراث الفقهي والاستفادة منه
لانه يضم العديد من الاشارات الى مشاكل الحياة
الاسلامية وهي اشارات لانظفر بها إلا غرارا
في غضون انواع التراث الاخرى فكثيرا ما يجنح الفقيه
الى ذكر الحادث الذي استوجب اصدار فتوى من الفتاوي
فيكشف لنا عن هذه الصلة المتينة بين الصيغ القانونية والاحداث

اليومية . فلا مراء اذن في ان تكون المادة الفقهية اداة صالحة بيد المؤرخ اذا ما احسن استعمالها ومدخلا يشرف منه على بعض المظاهر التطبيقية مادامت مزيجا من النظر الحدثي والملاحظة الواقعية (1).

ومما زادنا تأكدا من سلامة هذا المنهج بالنسبة إلى موضوعنا وشجعنا على توخيه ان القرنين الثالث والرابع للهجرة كانا يمثلان اهم نقطة فاصلة في تاريخ التشريع الاسلامي ففيهما اختمرت هذه المادة وأتت اجتهادات الفقهاء اكلها وبرزت اشهر المذاهب معنى ذلك ان حركة التقليد والجمود لم تظهر بعد وان استنباط الاحكام الصالحة للعصر قد كان في اوجه والنظر التشريعي على اشده اما بعد هذا العصر فقد خمدت جذوة الابتكار وفرض الحجر على الاراء الجديدة وصار الفقهاء يجترون غالبا ما استقر في عصور الازدهار من احكام . وقد وصف لنا آدم متز A-MEZ هذا الانتقال ابتداء من القرن الرابع للهجرة فقال (كان القرن الرابع اهم نقطة فاصلة في تاريخ التشريع الاسلامي فيقال انه في هذا القرن وقف التكوين المستقل للتشريع الاسلامي المبني على الاجتهاد المطلق

---

1) كلود كاهان - Cl Cahen - الشعوب الاسلامية - ص 348. 349.

وطى الحكم بالرأي في فهم القرآن والحديث ومضى عصر الابتكار في التشريع واعتبر العلماء الاولون كالمعصومين وأصبح الفقيه لا يستطيع اصدار حكمه الخاص الا في المسائل الصغيرة . وهذا يشبه ما حدث عند اليهود من مجيء الربانيين الذين كان قصاراهم التناقش في اراء القدماء وذلك بعد مضي عهد علماء الكتاب الذين يعلمون الكتاب ويحق لهم الاجتهاد) (1) .

لقد وجدت اذن مواكبة تاريخية في هذه الفترة التي ندرسها بين المجهودات التشريعية والاوضاع الحضارية . فاعتمدنا على اجتهادات الفقهاء الذين عاشوا في هذه الحقبة من الزمن ولم نجد اي حرج في الاعتماد على مؤلفات فقهية اخرى متأخرة زمنيا لانها تحتوي كما قلنا على نفس المادة تقريبا بحكم سنة الاخذ عن السلف والمحافظة على احكام الائمة الاوائل . كما اننا لم نعدم في مواقف كثيرة من هذه التآليف الوقوف على بعض الفتاوي الشخصية التي ترسم لنا اتجاها جديدا حتمته الظروف



---

1) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 387

ومما يضاف من جدوى هذه المادة الفقهية بالنسبة الى موضوعنا انه بامكاننا ان نعلم المناطق الجغرافية التي انتشرت بها شتى المذاهب وبذلك يتسنى لنا ان ندرك تنوع المعاملات بتنوع الاقاليم الاسلامية وتشريعاتها .

هـ ـ المنهج

وتجدر الاشارة بخصوص تصميم البحث الى اننا لم نتوخ الفصل في المنهج الذي اتبعناه بين القرنيين الثالث والرابع للهجرة ولا بين المشرق والمغرب الاسلاميين للاستمرار الذي لاحظناه على المستوى الزمني والتشابه الواضح على الصعيد المكاني بشأن القضية التي ندرسها واكتفينا بالاشارة من حين لاخر الى الفروق الطفيفة التي قد توجد في ملابسات فترة دون اخرى او اقليم دون اخر وقد سمحنا لانفسنا استنادا الى هذه الاعتبارات وحرصا على ابراز ظاهرة التطور في مسألتنا بان نولي التفاتة الى ما سبق هذه الفترة الزمنية ولحقها لان الفصل الصارم في هذا المضمار بين العصر الذي نهتم به وما سبقه وما تلاه مباشرة قد يضيق زاوية النظر خاصة اذ ادركنا ان مثل هذه الظاهرة التاريخية التي ندرسها لا يمكن ان يتغير وجهها بين يوم وليلة . وهذا ما دعانا الى الاستفادة من مصادر تعرضت الى الموضوع في عصر لاحق او سابق ولكنها تتصف مع ذلك واقعاله صلة متينة بهذا العصر .

وهكذا يعتبر اهتمامنا بالنصف الثاني من القرن الثاني او النصف الاول من القرن الخامس للهجرة جزءا من اهتمامنا بالقرنين الثالث والرابع للهجرة وذلك لان المنعرج الذي حدث في تجارة الرقيق قبل القرن الثالث وبعد القرن الرابع والذي اعتبرنا من اجله هذه الفترة ذات خصائص مميزة في هذا المجال قد استغرق ما لا يقل عن نصف قرن قبل وبعد. كما سمحنا لانفسنا ايضا بان نجتزئ ببعض الامثلة على الخاصية الواحدة ولم نذهب مذهب الاستقصاء للامثلة من شتى اوضاع الدول التابعة للعالم الاسلامي اذ ان لان فيه اثقالا لكاهل بحثنا بما لا يؤكد الا حقيقة واحدة الا في بعض حالات استثنائية نشير اليها. ونحن لا نزعم اننا في بحثنا هذا تمكنا من الاجابة عن كل الاسئلة التي يطرحها هذا الموضوع الخطير بل اننا لموقنون بان الغموض لا يزال يكتنف بعض جوانبه وان المصادر التي بين ايدينا قد صمتت عن عدة حقائق الا انه من المفيد ان نلفت الانتباه اليها وان يكون بحثنا معالم على الطريق الموصلة الى كشفها في المستقبل.

وقد قسمنا بحثنا هذا الى ثلاثة اقسام تناولنا في القسم الاول منه بيان اهم خصائص تجارة الرقيق قبل القرن الثالث للهجرة في بابين تعرضنا خلالهما الى ملامح هذه التجارة عند الامم السابقة للاسلام وخاصة منها الامة العربية ثم شرحنا موقف الاسلام منها ومظاهر تطورها بانتشار الفتوحات خلال القرن الاول للهجرة كما اشرنا الى ما حدث من تغير في اوضاع هذه التجارة خلال القرن الثاني للهجرة وقد ركزنا في كل ذلك على قضية اساسية

هي قضية التزود ببضاعة الرقيق خلال مختلف هذه الفترات التاريخية
امّا القسم الثاني والاساسي من البحث فقد تناولنا فيه بالتحليل
خصائص هذه التجارة في القرنين الثالث والرابع للهجرة في ستة ابواب درسنا فيها
قضايا العرض والطلب وحركة توريد الرقيق الى العالم الاسلامي كما
تعرضنا الى مختلف اجناس الرقيق الرائجة في هذا العصر ثم
تطرقنا الى الحديث عن الاسواق الرقيق وما تميزت به من اساليب
في المعاملات وتناولنا اثر ذلك بيان خصائص تجارة كلّ
صنف من اصناف الرقيق من مذكر ومؤنث وفحل وخصي ومجلوب
ومولد ففصلنا القول في تجارة الجواري والغلمان واولينا اهتماما
لتجارة القيان والمغنين . وتطرقنا فيما بعد الى ما يخص المعاملات
المالية من مكوس واسعار وما يتعلق بتجار الرقيق وشراته . وامّا
القسم الثالث والاخير فقد جعلناه في بابين ركزنا اهتمامنا خلالهما
على آثار تجارة الرقيق في المجتمع الاسلامي وختمنا بالقاء بعض الاضواء
على مآل هذه التجارة بعد القرن الرابع للهجرة . وقد ذيلنا هذه الدراسة
بقائمة مصادر ومراجع وفهرس ابجدي عام لاسماء الاعلام والمدن والدول
والاماكن والاقاليم والاجناس والقبائل والامم والمصطلحات
وفهرس لمواضيع البحث والله ولي التوفيق .

القسم الاول

تجارة الرقيق

قبل القرنين الثالث والرابع للهجرة

البـــــــــــــاب الاول

تجـارة الـرقيـــــــق قبـل الاسلام

الفصل الاول

عند الامم السابقة للاسلام

1) - نشأة تجارة الرقيق

انه بوسع الباحث ان يحدد بالاعتماد على طبيعة الرق وعوامل نشأته تاريخ ظهور تجارة الرقيق في المجتمعات البشرية وان يؤرخ لنشأة هذه الظاهرة منذ اقدم عصور التاريخ ، ويتسنى لنا القول بان البحث عن منشأ هذه التجارة يوقفنا على حقيقة ثابتة وهي انها لم تظهر الا عندما ظهرت الحضارات الانسانية القديمة اي عندما بدأ الانسان ياخذ باسباب التمدن وتعمير الارض ، فالمجتمعات البدائية لم تعرف هذه التجارة لانها لم تكن في حاجة اليها بل ان الانسان المتوحش الذي عاش في العصر الحجري وكان يكافح الطبيعة ويصارعها من اجل الحصول على القوت لم يعرف الرق تماما ، ولدينا صورة عن هذا الانسان ايضا في الشعوب الهمجية المعاصرة مثل سكان استراليا الاصليين وشعوب الاسكيمو وقبائل حوض نهر الامازون وفي وسط افريقيا وجزر المحيط الهندي (1)

1) وسترماك — مصدر الآراء الاخلاقية وتطورها — ج 1 ص 668

L'Origine et le dévelop. des idées morales./ Westermarck

عبد السلام الترمانيني — الرق ماضيه وحاضره — سلسلة عالم المعرفة نوفمبر 1979 ص 15

انما كان يتعاون من ابناء جنسه لصيد الحيوان واكل لحومه اوللبحث عن النباتات الطبيعية حتى يقتات منها فاذا قلت موارد هذا القوت اعتدى على الضعيف تلبية لغريزة البقاء فنرى الضعفاء في هذا الصراع يقتلون حتى يفسحوا المجال لمن هم اقوى ساعدا لان قانون الغاب هو الذي كان سائدا في تلك العهود ، وكان القوى في هذا الطور من التاريخ البشري اذا انتصر في محاربته للضعيف قتله وربما اكله اذ لم يكن بوسعه ان يسترقه بما ان الاسترقاق يكلفه تحمل مؤونة الاحتفاظ بالرقيق وسدّ حاجته الحيوية وهي مؤونة يعجزعن تحملها ما دام يجد عسرا في توفير قوته الشخصي كما انه لم يشعر بالحاجة الى هذا الاسترقاق نظرا لبساطة معاشه ولوضعه البدائي الذي لا يستدعي كثرة في السواعد لتنمية الثروة فكانت الحاجة الاساسية بالنسبة اليه ازاحة هذا المنافس باعدامه والانتفاع به بصورة وحشية هي اكله ولذلك عرف هذا الطور من حياة الانسان بطور " الادامة " او اكل لحوم البشر او " الانشروبوفاجيا " (1) .

---

1) موريس لنجلي ـ الرق ـ ص 64
Maurice Lengellé - L'esclavage -
Que Sais-je N° 667 - Presses Universitaires de France - Paris - 1955 -

ثم ان هذا الانسان المتوحش قد غير عبر التاريخ من نمط عيشه وصار لا يكتفي بما يجده في الطبيعة من موارد بسيطة وجاهزة فادرك ضرورة العمل و السعي لاعداد القوت وصار يسهر على تربية الماشية ورعي الاغنام وصنع الات الصيد والقنص ونتج من هذا التغير في معاشه تغير في علاقاته الاجتماعية بغيره وامسى اذا ما اعتدى على الغرباء والمنافسين له على رزقه وحاربهم يفضل استبقاءهم على قتلهم ويشعر بالحاجة الى الاستعانة بهم على انجاز عمله فادرك منفعة استخدام الاسرى في الحروب ، وقد كان هذا التغير في صالح الاسرى كذلك اذ هو ينقذهم من الموت ويخفف من مصيرهم وحدث شبه تكافل بين الغالب والمغلوب هذا ينقذه من الموت ويسد حاجته الى الغذاء وذاك يقدم له في مقابل ذلك خدمة من الخدمات ،فقد حدث اذن تطور في تاريخ البشرية حل فيه استغلال القوي للضعيف محل القتل وظهرت فيه ظاهرة الرق لاول مرة في التاريخ .

وقد صاحب ظهور الرق في هذا الطور ظهور المتاجرة بالرقيق وخضوعه لقانون المعاملات التجارية من بيع وشراء ورهن ومؤاجرة وغيرها لان الرقيق متاع يملك وتصرف فيه مالكه كما يتصرف في سائر ممتلكاته

لكن تجارة الرقيق في هذا الطور لم تبلغ من الازدهار شأوا كبيرا ولـــم تتسع فيها رقعة التوريد والتصدير والعرض والطلب كما ظهر ذلك فيمــا بعد عند بروز الحضارات القديمــة ، وذلك لان الانسان في هذا الطور رغم استفادتــه من استغلال اسراه لم يكن في حاجــة الى اكثر ممــا تزوده بــه حروبــه واعتداءاتــه لان اوضاعــه الاقتصادية لم تعد بعد البساطة ولم تتجاوز حاجتــه اليوميــة والشخصيــة الى القوت واكتفــاءه بالضروري منــه ثم انــه انسان غير مستقر في مكان بل هو مترحل يرتاد مواطن المرعى والقنص ولم يعهد بعد حياة الاستقرار والحضارة والتمدن فلم يكن اذن في حاجــة الى طاقات بشريــة كبيرة تدفعــه الى التزود المستمر برقيق الشراء وربما اتفق له ان باع لجاره عبدا او اشترى منه امــة ولكن ذلك لاسباب ذاتيــة وفي نطاق محدود لا يعدو المبــادلات المحدودة ،كل هذه المعطيات تدعونا الى القول بان هذا الطور قــد عاصر نشأة هذه التجارة ولم يشهد ازدهارها والسيد كان يشارك عبده العمل وكانا يستفيدان معا من ثمرة ذلك العمل ويكتفيان به ولم يكـن الهدف ابعد من هذه الغاية الراميــة الى التغلب على الطبيعة والتحصيل على القوت.

وكان لا بد ان ننتظر ظهور عهد ثالث من تاريخ الانسان القديم لكي نشهد فيه نشأة هذه التجارة وشعورا بالحاجة اليها وهذا العهد هو الذي اكتشف فيه هذا الانسان نمطا اقتصاديا جديدا عماده الاستقرار بالارض وتعميرها بالزراعة وتشييد البنيان وهو عهد ادى الى ظهور المدينة والى بروز الملكية الفردية واذاك دعت الحاجة الى تنمية هذه الملكية فصار الانسان لا ينتج لنفسه فحسب وانما ينتج لغيره ايضا وبذلك امسى في حاجة الى طاقات عمل كبرى تتجاوز طاقة الافراد ، فاذا نشبت الحروب استعمل الاسرى في خدمة تلك الملكية وربما صار من دواعي الحرب توفير هذه اليد العاملة ايضا ،وشهد هذا العهد ظهور نوع جديد من الرق مختلف عن الاول ويمكن ان نسميه بالرق الاستغلالي الذي تستخدم فيه جماعات العبيد لتنمية ثروات طبقة الاحرار المالكين فلم يعد السادة اذاك مكتفين بما توفره لهم الحرب من سواعد بل راحوا يبحثون عن مصادر اخرى للرق فراحوا يشترون باموالهم هذه الالات الضرورية للانتاج .

كما شهدت هذه المدينة القديمة بروز الصناعات واقامة الهياكل العظيمة وكان لا بد في ذلك من الات تقتنى بالاموال وهذه الالات كانت افواج العبيد وقد واجهت الحضارات القديمة انجاز مشاريعها هذه باسرى الحروب ولكن الحرب لم تكن دائما الحل المناسب ولم تكن ظروف هذه المدنيات تسمح بشنها في كل حين وفي الوقت المطلوب فكان لا بد من مواجهة الامر برصد الاموال لشراء الالات البشرية ويكفي ان نقول ان المنجزات الضخمة التي اقامتها الحضارات الغابرة من معابد وهياكل وطرقات ومقالع ومناجم وآبار قد قامت على كواهل الرقيق وان هذا الرقيق لم يكن دائما مؤلفا من اسرى الحروب بل ان نسبة كبيرة منه كانت ثمرة حركة تجارية.

2) مع الحضارات السابقة للاسلام

لقد عرفت الحضارات القديمة ان اسواقا رائجة للرقيق فكانت الدولة المنتصرة تعقد اسوقا لبيع اسرى الدولة المغلوبة لكن الامر لم يكن مقتصرا على هذا الصنف من الاسواق المرتبط باوقات الغزو والحرب بل وجدت فى القديم اسواق تارة يباع فيها الرقيق المجلوب عن طريق التجارة وقد عرفت فى القديم اسواق من الصنف الاول فى حضارة ((سومر)) و ((عيلام)) و ((بابل)) و ((اشور)) و ((مصر)) و ((الصين)) و ((الهند)) كما نجد هذا الصنف من الاسواق في ((اثينا)) و ((اسبارطة)) و ((قرطاجة)) و ((روما)) اما رواج الصنف الثاني من الاسواق فيبدو متأخرا من حيث الزمن وذلك عند ما زادت الحاجة الى الرقيق وصار يجلب عن طريق التجارة الخارجية (1).

وبامكاننا ان نقدم صورا خاطفة عن هذه التجارة فى بعض الحضارات القديمة السابقة لظهور الاسلام ففي عهد الفراعنة

---

1) عبد السلام الترمانيني - الرق ماضيه وحاضره -
ص 87

بمصر شلا كان الرقيق ملكا للدولة أو العائلة المالكة تقتنيه للقيام على شؤونها وكذلك لتعهد الهياكل والمعابد ولم يكن البابليون يبالون ان يكون الرقيق منهم اومن غيرهم فكان الاب يبيع الابن او المتهنى اذ اجرم احدهما فى حقه كما كان الزوج يبيع زوجته المشاكسة وحتى الاسرى كانوا يعاملون عندهم معاملة العبيد (1) وفي اول مملكة ببابل كان العبد يوسم ويشترى ويباع وكان ثمنه فى عهد حمورابي يساوي ثمن الحمار (2). ولقد كانت عادة الاسترقاق عريقة في مملكة الاشوريين وكانت قصورهم تعج بما يقتنونه من اماء وغلمان ابتغاء الجمال والزينة (3) وكانوا مولعين باقتناء الخصيان شأنهم في ذلك شأن ملوك الفرس ويفضلون تكليفهم بالمهام الكبرى لعدم وجود عصبية لديهم ولحرمانهم من الاهل والولد مما يجعلهم

---

1) آدم متـز - A MEZ - الحضارة الاسلامية ج -1- ص 316
2) لاروس Larousse - الموسوعة ج 4 ص 671
3) احمد شفيق باشا . الرق في الاسلام : رد مسلم على الكارديناl لافيجري - تعريب احمد زكي باشا . طبعة مصر الطبعة 2 بدون تاريخ ص 12 . 31

اقل محاباة من غيرهم واقل طموحا (1).

وكانت بضاعة الرقيق معدودة عند العبرانيين منذ القديم من اصول الثروة واسباب الغنى ومستعطة اداة من أدوات الخدمة او متاعا للمتعة والزينة وقد جاء في التوراة ما يدل على شرعية هذه التجارة والحث عليها ومن ذلك هذه الآية الواردة في الاصحاح الخامس والعشرين من العهد القديم ((واما عبيدك واماؤك الذين يكون لك فمن الشعوب الذين حولكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلد ونهم في ارضكم فيكونون ملكا لكم تستملكونهم لابنائكم من بعدكم ميراث ملك تستعبد ونهم الى الدهر))(2) وعديدة هي الايات التي تنص على الرقيق ((الذي يشترى بالمال)) للتمييز بينه وبين ما ((يولد في البيت))(3) فضلا عن مصادر الرق الاخرى عندهم مثل الدين والجريمة والحرب (4) والتي كانت موردا ثرا لهذه البضاعة وعاملا من عوامل رواجها

1) لاروس الموسوعة ج 4 ص 800
2) العهد القديم ـ الاصحاح 25 الاية 44
3) راجع الاصحاح 20 من العهد القديم
4) محمود محمد سيد ـ الاسلام يحارب التفرقة العنصرية القاهرة 1962 ص 11 . 12

وقد اتخذ الفرس من الامم التي تغلبوا عليها وخاصة الاتراك مورداً من موارد جلب الرقيق الذي كانوا في حاجة اليه سواء للزينة او الرعي والفلح اولخدمة معابدهم وهياكلهم مثل معبد الاله (اناهيد) او (اناتيس) بارمينية ومثل هيكل مدينة ((كومانة)) (1) وكان الفرس يشترون الرقيق التركي ويبيعونهم ويتهادونهم مع الملوك الروم ويعتبرون ابناء الامراء منهم من انفس اصناف الرقيق فمن ذلك ما ذكره المسعودي من ان ((ابرويز)) ملك الفرس اهدى الى ((موريقس)) ملك الروم مائة غلام من ابناء الاتراك على غاية من الجمال في اذانهم اقراط الذهب فما كان من ملك الروم الا ان اهدى له مقابل ذلك عشرين جارية من بنات ملوك برجان والجلالقة والصقالبة وغيرهن من بنات الشعوب المجاورة المملكة الرومانية (2).

وكانت لتجارة الرقيق مكانة في الحضارة اليونانية اذ كان اليونانيون فضلا عن استعبادهم للشعوب المغلوبة وغارات قراصنتهم على السواحل يستخدمون رقيق البيع والشراء وقد كانت المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى اسواقا عظيمة لبيع العبيد وشرائه وكانت

---

1) احمد شفيق باشا ــ الرق في الاسلام ص 12- 31
2) المسعودي ــ مروج الذهب ــ طبعة مصر (في جزاين)
1304 هـ ــ ج 1 ص 119

لاثينا نفسها سوق يقف فيها العبيد مجردين ليقع فحصهم وهي من اهم هذه الاسواق لا يزاحمها في ذلك مزاحم لقربها من موارد الرقيق مثل جزيرة قبرص - Chypre - وساموس - samos - وصاقس - saxe . وقد قيل ان سكان جزيرة صاقس - saxe . هم اول من اتجر بالرقيق . وقد ظهرت اسواق اخرى في الجزر اليونانية مثل كريت - Crète - ورودس Rhodes وكانت جزيرة ديلوس - Délos - من اشهر هذه الاسواق (1) اذ كانت خلال القرن الثاني قبل المسيح تصدر عشرة الاف عبد يوميا نحو بلاد الغرب (2). وكانت الدولة تشتري فريقا من الارقاء لخدمة شؤونها كحفظ الامن وخفارة المدينة بينما يستخدم الناس الرقيق في شتى شؤونهم ويتاجرون فيه ويرهنون ويرتهنون كما يصنعون مع غيره من البضائع وقد انعكس هذا التصرف في اراء فلاسفة اليونان مثل افلاطون وارسطو الذين يعتبران الرق مظهرا طبيعيا في حياة البشر بل عطية ضرورية للاقتصاد والعمران

---

1) عبد السلام ترمانيني - الرق ماضيه وحاضره - راجع خاصة - ص87

2) لاروس الكبير - الموسوعة ج 4 ص 671

اذ لاحضارة عندهما بدون آلة تعمير والرقيق ((الة ذات روح او متاع قائمة به الحياة)) une machine animée (1) عليه المعول في الحرف والمهن لان الاحرار كانوا يرون الاعمال اليدوية تحط من قدرهم وتمنعهم من التفرغ للمشاغل السياسية (2).

وقد عرف الرومان تجارة الرقيق منذ اقدم عهودهم بروما وقد ازدهرت هذه التجارة خاصة منذ بداية التوسع الروماني اي منذ القرن الثالث قبل الميلاد اذ تدفقت افواج الرقيق بسبب تغلبهم على الشعوب المجاورة لهم وتضاعف الطلب على هذه البضاعة لاستعمالها في خدمة الحقول الشاسعة ولم يكن مصدر هذا الرقيق الحرب فحسب بل وجدت مصادر اخرى مثل الوراثة والزواج والاختطاف والدين وغير ذلك مما زاد في تكاثر هذا الرقيق

---

1) احمد شفيق باشا - الرق في الاسلام - رد مسلم على الكاردينال لافيجيري - تعريب احمد زكي باشا طبعة 2 مطبعة الاعتماد بمصر بدون تاريخ ص 12 - 31

2) محمود محمد سيد - الاسلام يحارب التفرقة العنصرية القاهرة 1962 ص 15 - ارسطو - كتاب السياسة - ترجمة احمد لطفي السيد - القاهرة 1947 ص 102 افلاطون - الجمهورية - ترجمة الدكتور فؤاد زكريا - القاهرة 1968 - الفقرة 433 - 434

حتى كان عددهم بروما في عهد ((تراجان)) Trajan (98-117 م) اربعمائة الف راس كما تدل ثوراتهم سنة (185 ق.م) باتروريا Etrurie وسنة (131 ق.م) بصقلية وسنة (78 ق.م) بقيادة سبرطاكوس Sparracus على كثرة عددهم (1)

وهكذا نشط هذا النوع من التجارة عندهم فكانت الاف الاسرى تباع باثمان بخسة عند الانتصارات العظيمة واكتسب النخاسون ثروات كبيرة وارباحا طائلة وان كانت تجارتهم مخلة بالشرف وكانت العادة برومة تقتضي ان يباع الرقيق بالمزاد في الاسواق حيث يوقف العبد او الامة على حجر مرتفع حتى يتسنى لكل مار ان يراه ويمسه بيده ولو لم يكن راغبا في الشراء وقد يطلب المشتري رؤية الارقاء عراة تماما احتياطا من وجوه الغرر التي كان النخاسون يستعملونها ، وكان الرقيق المتعلم والجميل اثمن انواع الرقيق لاستعمال النوع الأول في اغراض ثقافية مثل تشخيص الروايات والثاني في تجارة البغاء (2).

---

1) لاروس الكبير الموسوعة Grand Larousse ج 4 ص 671

2) احمد شفيق باشا - الرق في الاسلام ص 12 - 31

الفصل الثاني

عند العرب قبل الاسلام

العرب وتجارة الرقيــــق قبل الاســــلام

ان كثيرا من شؤون الحياة العربيــة قبل الاسلام لا تزال طــي الغموض وما نعرفــه منها لا يتعدى بعض الجوانب المحددة في الزمــان والمكان ولا نكاد نتبين التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في هذه العهـــد على وجــه التحقيق واذا ما كان هذا الاعتبار صحيحا بصورة اجماليـــة لقلــة المصادر المعاصرة للحياة الجاهليــة فاننــا نزداد تاكدا من صحته بالنسبــة الى تجارة الرقيــق على وجــه الخصوص ، ولعل اكثر المعلومات التي لدينــا حول هذه النقطــة لا تعدو ان تكون بعض الدلائل والقرائـــن الخاصة بالناحيــة الغربيــة والجنوبيــة من الجزيرة العربيــة اى الحجـــاز واليمن وبعض الامارات الشماليــة التي كانت تابعــة لبني لخم المناذرة بالحيرة وبني جفنــة الغساسنــة وهي جميعا مناطق حضريــة بالجزيرة تختلف بلا ريب عن المناطق الاخرى البدويــة التي نجهل عنها كل شيء تقريبــا فعلينــا لذلك ان نتحاشى تعميم احكامنــا على كامل شعوب هذه المنطقة من ناحيــة وان نتجنب اطلاق هذه الاحكام على شتى العهود التي مرت بها بلاد العرب قبل الاسلام لوجود اختلافات نوعيــة بينها على صعيــــد الزمان والمكان وينبغي ان ننتبــه منذ الان الى اننا نركز اهتمامنــا علـــى فترة قصيرة نسبيــا وهي العهد السابق مباشرة لظهور الدعوة

الاسلامية وهي فترة لا يمكن ان تتجاوز القرن او القرن ونصف ونحصر معلوماتنا في حيز جغرافي محدد هو بجنوب الجزيرة وغربها وشمالها .

ومن الحقائق المسلم بها بادئ ذي بدء هي ان المجتمع الجاهلي مجتمع استرقاقي كسائر المجتمعات القديمة المعاصرة له اذ كان فيه استخدام الرقيق في العديد من شؤون الحياة وخاصة منها الحرف والمهن التي كان العرب يستنكفون من ممارستها ويشتقون اسماءها من المهانة كما يدل على ذلك الاصل اللغوي فكان من هؤلاء العبيد من يشتغل لحاما او حجاما او حدادا كما كانوا يستعملونهم في حراسة قوافلهم التجارية في طريقها من اليمن الى الحجاز الى الشام فكان هذا الرقيق كثيرا في المدن والمراكز التجارية التي تزدهر فيها الصنائع والاشغال اما مصدر هذا الرقيق فقد كان يتمثل في استعباد الاسرى الذين تسفر عنهم غارات القبائل على جيرانها وعلى بعضها بعضا وهم اسرى كانوا يباعون في الاسواق رقيقا . كما يتمثل هذا المصدر في استيراد الرقيق عن طريق القوافل من ناحيتين على الاقل وهما ~~xxxxx~~ الشمال والشرق فقد كانت هذه القوافل تستورد العبيد من الشام ومصر في جملة ما تستورده من بضائع الى الحجاز وكانت هذه العادة قديمة يرجع عهدها الى قصة يوسف المذكورة

في الكتب المقدسة (1) كما كانت العلاقات التجارية بين غرب الجزيرة وجنوبها وسواحل شرق افريقيا متينة منذ عهد المعينيين والسبئيين والحميريين مما سمح بتبادل تجاري بين اليمن والحجاز وبلاد الحبشة وما حولها من بلاد السودان (2) ويبدو ان الامارات العربية التي نشات في شمال الجزيرة كامارة المناذرة وامارة الغساسنة قد اخذت بطرف من هذه التجارة كما سوف نرى .

وفي الجملة يعتبر اهتمام العرب بالتجارة واضطلاعهم بدور الوسيط التجاري عاملا من العوامل التي لعبت دورا في نشاط تجارة الرقيق عندهم اذ من المعلوم انهم اشتهروا بانواع التجارات وقد وصفت كتب اليونان والرومان غنى بلادهم وثرواتها واموالها المتاتية من هذه التجارات فقد كانوا يقصدون غزة وهي اذاك مركز تجاري كبير ويحملون اليها بضائعهم وبضائع الهند وافريقيا ويشترون مايرد على غزة من حاملات اليونان وايطاليا ومصر (3).

---

1) عبد السلام ترمانيني ــ الرق ماضيه وحاضره - ص 50
2) السيد عبد العزيز سالم ــ تاريخ الدولة العربية ــ دار النهضة العربية ــ بيروت 1971 ص 47 ــ 64
3) جواد علي - تاريخ العرب قبل الاسلام - ج 3 ص 326 - 328

واذا ما كان عرب الجنوب قد عرفوا بهذا النشاط واسسوا المدن التجارية كمدينة يثرب لتكون احدى محطات القوافل الذاهبة نحو الشمال (1) فان عرب الحجاز لم يكونوا اقل نشاطا في هذا الميدان وخاصة منهم اهل مكة الذين اشار القرآن الى تجاراتهم (2) فبعد ان انحسر سلطان عرب اليمن عن غرب الجزيرة امكن لقريش ابراز مواهبها التجارية والقيام بمهمة الوسيط التجاري بين اليمن وبلاد الشام مرورا باهم المراكز التجارية مثل ((بصرى)) وهو ما كان مشهورا عندهم برحلتي الشتاء والصيف (3) وقد ذاع صيت عائلات تجارية عندهم مثل اسرة بني عبد مناف المعروفين باصحاب الايلاف وهم اربعة اخوة انتشروا في الاقاليم من اجل التجارة ومنهم هاشم الذي ارتحل الى الشام ليتاجر مع الغساسنة وعبد شمس الذي استقر بالحبشة ليسهر على تجارتها مع العرب والمطلب الذي تاجر مع اليمن ونوفل الذي عرف بتجارته مع الفرس (4).

---

1) يستفاد ذلك من كتابات المسند
2) القرآن — سورة: قريش - آية - 1-2
3) لامنس H.Lammens-مكة قبيل الهجرة ص 26
4) السيد عبد العزيز سالم — تاريخ الدولة العربية ص 249 — 253

٨) تجارة الرقيق الابيض :

كان العرب قبل الاسلام يمارسون تجارة الرقيق بنوعيه الابيض والاسود وكان الرقيق الابيض عندهم مختلف الاجناس وان كان اقل اهمية من حيث العدد من الرقيق الاسود (1) وترجع المتاجرة بالرقيق الابيض عندهم الى عهود قديمة اذ يبدو من خلال التوراة ان السبئيين قد كانوا يشترون السبي من العبرانيين ويستوردونه من فلسطين ثم ينقلونه الى بلادهم للاستفادة منه فيتخذون الاماء الجميلات زوجات لهم والقويات للخدمة ويكلفون الذكور من هذا الرقيق بالاعمال المختلفة التي تحتاج الى قوة وذكاء ومهارة وفن و اتقان (2) وقد ورد في الاصحاح الثالث من الايات ما يشير الى هذا النشاط التجاري ومنها هذه الآية : " وابيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهوذا ليبيعوهم للسبئيين لامة بعيدة لان الرب قد تكلم " (3).

وكانت قوافل الحجاز التجارية تقصد بلاد الشام والعراق وتؤوب من المقاطعات الخاضعة للروم والفرس بجملة من الاسارى البيض من

1) برنشفيك Brunschvig مقال عبد ــ دائرة المعارف الاسلامية. ج ١ ص 25
2) جواد علي ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص 109 و ص 120
3) التوراة ــ الاصحاح الثالث ــ الآية 8 (يوئيل)

اصل فارسي او رومي لتبيعهم بعد ذلك ببلاد العرب وكانت هـذه العمليات التجارية يمارسها تجار الرقيق منذ قصة يوسف التي رواها الانجيل ثم القرآن (1) وتواصلت الى الفترة السابقة مباشرة لظهور الاسلام وقد ساعد على نشاطها دور قريش التجاري وهو دور الوسيط بين البلدان الواقعة شمالي الجزيرة وعرب الجنوب (2) كما يبدو ان الامارات العربية القائمة بشمال الجزيرة والموالية للسلطة الفارسية والرومية كامارة الغساسنة وامارة المناذرة لم تكن بمعزل عن المشاركة في هذه التجارة واقتناء ما تحتاج اليه من رقيق كما سوف نرى (3).

ولم يكن الرقيق الابيض عند العرب قبل الاسلام من اصل اعجمي فحسب بل كان لديهم رقيق عربي الاصل ناشئ عن غارات القبائل على بعضها بعضا وقد يكون لهذا الرقيق مصادر اخرى غير الغارات الا انه لا حجة لدينا على وجود استرقاق بسبب الديون او على بيع الاطفال من قبل عائلاتهم سوى بعض الاخبار التي اوردها صاحب الاغاني والتي لا يمكن اعتبارها مستندا قطعيا لانه يوردها في سياق المعاملات التي كانت تعتبر مستكرهة (4).

1) برنشفيك Brunschvig مقال عبد . دائرة المعارف الاسلامية . ج 1 ص 25

2) السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ص 249 ـ 253 ـ لامنس H. Lammens مكة قبيل الهجرة ص 26

3) السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ص 157 وص 216

4) برنشفيك Brunschvig مقال عبد ـ دائرة المعارف الاسلامية . ج 1 ص 25

ويمكننا ضرب بعض الامثلة على وجود كل صنف من هذه الاصناف فنحن نجد عند العرب الرقيق الفارسي وفي قصة اسر سلمان وبيعه ما يدل على هذا الجانب اذ يروي ان سلمان كان من اهل اصبهان وان اباه كان دهان قريته وتذكر الروايات انه انتقل الى الشام ثم اتصل بنفر من بني كلب كانوا تجارا فاعطاهم بقره وغنمه على ان يحملوه الى بلاد العرب فلما وصلوا به الى وادي القرى ظلموه وباعوه من يهودي من بني قريظة فاشتراه منهم وحمله الى المدينة (1) ومما يروي ايضا ان سالما مولى ابي حذيفة بن عتبة اصله من اصطخر وكان مملوكا لبثينة امرأة ابي حذيفة (2) وكان للمناذرة بالحيرة حظ من هذا الرقيق وكان منه في قصورهم مغنون ومغنيات يجلبونهم ويغالون في اثمانهم (3).

ونجد عند العرب رقيقا من اصل رومي فقد ذكر البلاذري من بينهم الازرق والد نافع بن الازرق الخارجي وقد كان عبدا روميا حدادا كما ذكر عبدا روميا بالطائف يقال له عبيد تزوج سمية امة الحارث

---

1) ابن هشام — السيرة - ط.مصر- 1334 هـ/ 1914م - ج 1 ص 142 وما بعدها
2) جرجي زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي — ج 4 ص 21 — ابن قتيبة — المعارف مصر 1300 هـ ص 92
3) السيد عبد العزيز سالم — تاريخ الدولة العربية ص 216

ابن كلدة الثقفي طبيب العرب (1) واورد ابن هشام اسم غلام لعتبة وشيبة ابني ربيعة يقال له عداس وكان نصرانيا من نينوى (2) وتشير المصادر الى رواج القيان الروميات في بلاط الغساسنة وقد وصف حسان بن ثابت مجلسا من مجالس جبلة بن الايهم ايام كان اميرا الغساسنة فقال " لقد رايت عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء اهل الحيرة اهداهن اليه اياس بن قبيصة وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها " (3) .

وكان بمكة جالية من تجار الروم والاقباط يجلبون اليها عدة بضائع ومنها الرقيق وكانت قريش تفرض عليهم الضرائب والعشور (4) وقد اتخذ بعض هؤلاء الروم موالي من اشراف مكة مثل نسطاس مولى صفوان بن امية (5) ويوحنا مولى صهيب الرومي وكان صهيب نفسه قد اسر بارض الروم فاشترى منهم ثم اسلم (6) وتدل اخباره على وجود امثاله من اسرى الروم عند العرب وعلى طريقة اقتنائهم لهم ويروي ان الرسول قال عنه انه " سابق الروم" كما قال عن

---

1) البلاذري ــ انساب الاشراف ص 489ــ490 ـ راجع أيضا = فتوح البلدان ج 1 ص 65
2) ابن هشام ــ السيرة ــ ج 1 ص 262
3) الاصفهاني ــ الاغاني ج 16 ص 26 ـ طبعة بيروت 1956
4) الازرقي ــ اخبار مكة ج 1 ص 101 طبعة مكة 1352 هـ ـ قطب الدين النهروالي ــ الاعلام باعلام بيت الله الحرام ــ تحقيق وستنفلد Wüstenfeld . ليبزج Leipzig 1857 ص 50
5) الاصفهاني ــ الاغاني ج 4 ص 76 طبعة بيروت 1956
6) ابن هشام ــ السيرة ج 1 ص 280 طبعة القاهرة ــ 1946 ــ 1955 .

بلال " سابق الحبشة " وكان صهيب مولى لعبد الله بن جدعان حسب ما تذكره بعض الروايات (1) وكان رجلا احمر شديد الحمرة (2) اشترته قبيلة كلب ثم باعته بمكة، ولدينا مثال آخر على وجود رقيق اعجمي من اصل تركي وهو مثال سمية ام عمار بن ياسر التي كانت مولاة لابي حذيفة بن المغيرة عم ابي جهل وقد قتلها ابو جهل بعد الاسلام فاعتبرت اول شهيدة (3) ومما يذكر عنها انها تركية الاصل وقعت في الاسر خلال الحروب التي دارت بين الترك والفرس ثم طوحت بها الانتقالات الى الطائف (4) ولم يكن الجنس العربي مستثنى من بين اجناس الرقيق التي كان العرب القدامى يتاجرون فيها فقد كان استرقاق العربي نتيجة الاسر الذي تسفر عنه غارات القبائل على بعضها بعضا وذلك بالرغم مما عرف عن العرب من تبادل للاسرى

---

1) نجد رواية اخرى تذكر انه من النمر بن قاسط اسر بارض الروم ثم اشتري منهم:
ابن هشام - السيرة - مصر - 1332هـ/1914م - ج 1 ص 160
2) الذهبي - سير اعلام النبلاء ج2 ص 10-16 يقول شمس الدين الذهبي في سير اعلام النبلاء " هو ابو يحيى النمري من النمر ابن قاسط ويعرف بالرومي لانه اقام في الروم مدة وهو من اهل الجزيرة سبي من قرية نينوى من اعمال الموصل "
3) السهيلي - (ابو القاسم) - الروض الانف - ج 1 ص 203
4) البلاذري - الانساب - ج 1 ص 489 - .
كتابجي (زكريا) - الترك في مؤلفات الجاحظ - ص 97-98

اثر الغزو ، فكثيرا ما يقتل الجاهليون اسراهم بعد الغارة بعيدا عن مواطنهم ثم يؤمون بهم الاسواق فيبيعونهم كما تباع سائر البضائع ، وتذكر كتب السيرة بيتا من الشعر يصف بيع الاسرى بعد الحرب وهو بيت قيل على لسان احد المسلمين اثر غزوة احد يقول :

فلولا الحارثية اصبحوا   يباعون في الاسواق بيع الجلابب (1)

ومن الادلة الساطعة على وجود هذا الجنس من الرقيق عندهم قصة زيد بن حارثة الكلبي اذ تتفق كتب السيرة على ان ام زيد وهي سعدى بنت ثعلبة احدى نساء قبيلة طيء قد خرجت به لزيارة اهلها فاصابته خيل من بني القين بن جسر فباعوه بسوق حباشة وهي من اسواق العرب وكان عمر زيد يومئذ ثمانية اعوام (2) وتذكر كتب السيرة ايضا ان حكيم بن حزام بن خويلد اشتراه ثم وهبه لخديجة بنت خويلد فاستوهبه الرسول منها وهي اذاك زوجه ولم يكن الوحي قد نزل عليه بعد ، ويروى ايضا ان حارثة ابا زيد جزع عليه

1) لامنس - H. Lammens - غرب الجزيرة - ص 259

2) السهيلي - الروض الانف ج 1 ص 164 - ابن هشام - السيرة - ط مصر 1334هـ/1916م ج 1 ص 164
((يذكر ابن سعد ان زيدا بيع بسوق عكاظ = الطبقات الكبرى ج - 1 - ص 203))

وقدم على الرسول يريد استرجاعه منه فاختار زيد البقاء ورفض الرجوع مع ابيه (1) ولسنا في مقام احصاء هذا الرقيق العربي لانها عملية متعذرة لكننا نعتبر وجودهم امرا مؤكدا وفي انتساب بعضهم ما يوحي بهذا الاصل مثال انتساب عامر بن فهيرة الذي اعتقه ابو بكر (2) .

ولا يخفي ايضا ان نهي عمر بن الخطاب عند استرقاق العربي بقوله "ليس على عربي ملك" يدل على وجود هذه العادة قبل الاسلام (3) .

ويورد كتاب الاغاني رواية تصف لنا ما يصيب العربي من سبي يؤدي به الى الرق ثم الى البيع ويشرح الظروف التي ادت بعمر الى النهي عن هذه العملية فمن ذلك " ان ابا وجزة لحق اباه عبيدا - وهي صبي - سباء في الجاهلية فبيع بسوق ذي المجاز فابتاعه رجل من سعد واستعبده فضرب عبيد هذا يوما ضرع ناقة لمولاه

---

1) المصدر نفسه

2) السهيلي - الروض الانف ج 1ص 203 (استشهد ابن فهيرة بدرا واحدا ومات في بئر معونة شهيدا = ابن هشام - السيرة - ط - مصر 1355هـ/ 1936 م - ج 1ص 144))

3) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد - ج 1 ص 25 - وهبة زحيلي - آثار الحرب - ص 441

فادماه فلطم المولى وجه العبد فخرج عبيد الى عمر مستعديا فلما قدم عليه قال : " يا امير المؤمنين انا رجل من بني سليم ثم بني ظفر اصابني سباء في الجاهلية كما يصيب العرب بعضها من بعض وانا معروف النسب وقد كان رجل من بني سعد ابتاعني فاساء الي وضرب وجهي وقد بلغني ان لاسباء في الاسلام"

فما فرغ من كلامه حتى كان مولاه قد اتى عمر على اثره فقال : "يا امير المؤمنين هذا غلام قد ابتعته بذي المجاز وقد كان يقوم في مالي فأساء فضربته ضربة والله ما اعلمني ضربته غيرها قط وان الرجل ليضرب ابنه اشد منها فكيف بعبده وانا اشهدك انه حر لوجه الله " فقال عمر لعبيد " انه لا سباء على عربي وان هذا الرجل قد امتن عليك وقطع عنك مؤونة البينة فان احببت فاقم معه فله عليك منة وان احببت فالحق بقومك " فاقام عبيد مع السعدي وانتسب في بني سعد بن بكر بن هوازن"(1) فاذا اتفقنا

1) الاصفهاني - الاغاني ج 11 ص 75 راجع أيضا - سعيد الافغاني - اسواق العرب ص 351 - 352

الى هذه الادلة ان اغلب المهاجرين عند اضطهاد المسلمين بمكة قد كانوا حسب الروايات اما مولدين او ولدوا رقيقا وانهم كانوا عربا امكننا ان نستنتج ان اغلبية الرقيق الابيض في العصر الجاهلي كانوا من العرب وليسوا من الاجانب (1) ومن المفيد ان نضيف اننا نرجح ان يكون هذا الرقيق العربي المبيع صغير السن اذ لم يكن من السهل عمليا الاحتفاظ باسير ذكر بالغ والانتفاع به لانه كان بامكانه الهروب. اما صغير السن والبعيد عن موطنه او المولود في الرق فيعسر عليه ذلك الا انه ليس هناك ما يمنع بيع الرجل البالغ الراشد والدليل عليه هو بيع بني لحيان بعض اسرى المسلمين لاهل مكة وذلك سنة (ع - 3 هـ/ 624_625م) (2).

لكن شتى هذه الاجناس من العبيد قد كانت قليلة العدد اذ قورنت بالرقيق الاسود الذي كان يمثل اغلبية الرقيق في الجزيرة .

---

1) يرى برنشفيك Brunschvig .(د. م. إ ج 1 ص 25)العكس اذ يرجح ان يكون الرقيق الاجنبي اكثر عددا من العربي ويخالفه وات W. M. Watt - في هذا الراي انظر (محمد بالمدينة ص 357)

2) وات - W M Watt - محمد بالمدينة Mahomet à Médine ص 356 - 360

2) تجارة الرقيق الاسود

لقد وجد الرقيق الاسود عند العرب منذ عصور قديمة فمما يروي عن الملك سيف بن ذي يزن انه تمكن باعانة الفرس من اخراج الاحباش من بلاده واستطاع ان يجعل منهم رقيقا وان يتخذ منهم حرسا وان كان هؤلاء العبيد هم الذين تآمروا عليه وقتلوه (1) يقول حمزة الاصفهاني : " لم يقض سيف بن ذي يزن نهائيا على الاحباش وانما استبقى بقايا منهم بالغ في اضطهادهم واستذلالهم وذكروا انه اتخذ منهم عبيدا حرابة يمشون بين يديه بالحراب اذا ركب واتفق ان اختلوا به يوما في متصيد له فزرقوه بحرابهم فقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال " (2).

وقد كان اهل اليمن منذ عهد الحميريين يمارسون القرصنة بالبحر الاحمر والسواحل الافريقية الشرقية وياسرون ما يقع با يديهم من الافارقة السود فيستعبدونهم وقد امكنهم ان يبسطوا نفوذهم حتى

1) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ـ ج 2 قسم 1 ص 957ـ958 المسعودي ـ مروج الذهب ج 2 ص 87 ـ حمزة الاصفهاني-تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ص 91ـ92 السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ص 89 ـ 95 طبعة بيروت 1975

2) حمزة الاصفهاني - تاريخ سني ملوك الارض والانبياء- ص 90

ساحل عزانيا في افريقيا (1) مما اثار نزاعا اقتصاديا بينهم وبين الحبشة وبينهم وبين الروم.

ولم تكن عمليات العنف هذه المصدر الوحيد لهذا الرقيق الحبشي المؤلف من الاحباش والزنوج الافارقة بل كان للعلاقات التجارية بين اليمن والساحل الافريقي دورا ايضا في توفير هذه البضاعة خصوصا بعد ان استطاع عرب الجنوب التمركز بجزيرة "لامو" (2) و "الزيلع" (3) المطلتين على المحيط الهندي وخليج عدن والانطلاق منهما الى داخل البلاد الافريقية للمتاجرة وشراء الاسرى السود الذين غالبا ما كانت الغارات بين القبائل الافريقية تسفر عنهم (4).

وبذلك اصبحت اليمن حسب قول المقدسي معدن "الرقيق والحبش والخدم" (5) اي سوقا رائجة لهذه التجارة وكانت عدن على وجه الخصوص

---

1) جواد علي – تاريخ العرب قبل الاسلام – ج 3 ص 138 – السيد عبد العزيز سالم – تاريخ الدولة العربية ص 58–64
2) مجموعة جزائر لامو تقع شمال شرق كينيا على الساحل المطل على المحيط الهندي
3) كانت تسمى (سوق قريش) تطل على خليج عدن وقد جاء اليها العرب ومنها انطلقوا نحو الداخل
4) الشاطر بصيلي عبد الجليل – تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط ص 21 و ص 34–35
5) المقدسي – احسن التقاسيم ص 97

تشهد تبادلا تجاريا لهذه البضاعة مع الحبشة والهند فقد وجدت في العهد الذي عاصر ظهور الرسول سفن عربية تنطلق من موانئ اليمن الى الهند محملة بشتى انواع البضائع ومنها رقيق الحبشة لتستبدله بحرائر الهند وخزف الصين واقمشة كشمير ومختلف اصناف التوابل كما كان الهنود ياتون بانفسهم الى شواطئ الجزيرة العربية ليقوموا باستبدال بضائعهم بالعاج والتبر والعبيد وغيرهما مما يجلب من السواحل الافريقية وهكذا كانت عدن مركزا للتجارة الخارجية ومعبرا لبضاعة العبيد من الغرب الى الشرق (1).

وكان لبلاد الحجاز دور في جلب الرقيق الحبشي لا يقل اهمية عن دور اليمن وذلك لقدم العلاقات التجارية بين موانئ الحجاز وبلاد الحبشة ومن بين هذه الموانئ ميناء الجار (2) الذي كان تجار العرب ينطلقون منه نحو سواحل افريقيا الشرقية وقد وصفه ياقوت بقوله : " فرضه ترفأ اليها السفن من ارض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند ... وبحذاء الجار جزيرة في البحر تكون ميلا في ميل لا يعبر اليها الا بالسفن وهي مرسى الحبشة خاصة يقال لها قراف وسكانها

1) جوستاف لوبون . Gustave Lebon . حضارة العرب ص 435 ـ 436

2) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ طبعة دي غوية . M-J-De Goeje المكتبة الجغرافية ج 7 ص 313 ليدن 1891

تجار كنحو اهل الجار " (1) وكانت بالحبشة جالية من التجار العرب استقروا بها قبل الاسلام لاغراض تجارية واذا ما التجأ المهاجرون في عصر الرسول الى الحبشة عندما ضاقت بهم السبل فلان علاقة العرب بتلك البلاد كانت وطيدة ومن مظاهر توطيد تلك العلاقة اطلاقهم اسم (متجر قريش) او (سوق قريش) على جزيرة متاخمة لساحل الحبشة وواقعة بين جيبوتي والزيلع وهي المنطقة التي صارت تسمى في العصور الحديثة بر سعد الدين وتمتد من الساحل الى داخل اثيوبيا وقد كانت ملجأ للمسلمين من موجات الذعر التي صاحبت حروب الردة ومهربا لهم في ازمات اخرى حدثت فيما بعد (2) .

وهكذا كان العرب قبل الاسلام سواءا بجنوب الجزيرة او شرقيها متصلين وثيق الاتصال بسواحل بلاد السودان الممتدة من عيذاب شمالا الى سوفالة جنوبا وكانوا يتاجرون مع الحبشة والصومال وبلاد الزنج المطلة على المحيط الهندي وقد يغامر بعضهم داخل البلاد الافريقية من اجل

---

1) ياقوت ــ معجم البلدان ــ طبعة بيروت 1955ــ مجلد 2 ص 93 مادة الجار

2) الشاطر بصيلي عبد الجليل ــ تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط من القرن 7 م الى القرن 19 م طبعة مصر 1972 ص 34 ــ 35 وص 187

الربح واقتناء البضائع المطلوبة كالعاج والتبر والرقيق (1) فلا غرو اذن اذا ما كان اغلب الرقيق الموجود بمدن الحجاز مثل مكة قبيل الاسلام وفي عصر ظهور الرسول من العبيد السود والاحباش على وجه الخصوص وقد كان لشهرة مكة التجارية يد في نشاط هذه التجارة التي تسببت في ثراء التجار الكبار من قريش مثل عبد الله بن جدعان وابي احيحة والوليد بن المغيرة المخزومي وابي سفيان وغيره (2).

ومن الواضح اذن ان تجارة الرقيق الاسود قد كانت نشيطة باليمن والحجاز الى حين ظهور الاسلام ولعلها كانت اهم بكثير من تجارة انواع الرقيق الاخرى (3) فاغلب الرقيق الموجود بتلك الربوع يتمثل في عبيد من اصل حبشي (4) وقد يكون السر في الاقبال على هذا النوع من العبيد قوة بدنه على العمل ورخص اثمانه (5) وكان اكثرهم مستقرا بالمدن التجارية مثل مكة وفي الجملة لم يكن شريف من اشراف العرب يخلو منزله

---

1) المرجع نفسه ص 20_21
2) السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ص 249_255
3) برنشفيك Brunschvig ـ مقال عبد ـ دائرة المعارف الاسلامية ج 4 ص 25 ـ لامنس H Lammens غرب الجزيرة ـ L'Arabie occidentale ص 256
4) برنشفيك ـ Brunschvig مقال عبد ـ "دائرة المعارف الاسلامية" ـ ج 4 ص 33
5) جواد علي ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ ج 3 ص 138_140.

من عبيد يستعملهم في حاجيات منزله ، فعبد الله بن ابي ربيعة كان له عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن وكان عددهم كثيرا وفيهم من يخرج للحرب (1) ومن هذا الرقيق الاسود على سبيل المثال اسلم (2) ومهجع (3) وكل منهما مولى لعمر بن الخطاب ووحشي بن حرب مولى بني نوفل وجليبيب الذي زوجه الرسول انصارية (4) ومن المرجح ان بعض هؤلاء العبيد قد كانوا معتنقين للمسيحية بحكم جلبهم من الحبشة حيث انتشر هذا الدين (5).

كما اتخذ العرب اماء حبشيات فانجبن لهم عبيدا مثل زبيبة ام عنترة ولعل احسن دليل على وفرة هذه البضاعة عند العرب قبل الاسلام ما يروى من ان ذا الكلاع ملك حمير اصطحب معه عندما وفد على ابي بكر الف عبد (6) وكانت هذه الوفرة سببا من الاسباب التي جعلت كلمة "عبد" العربية تعني في الغالب الرقيق الاسود بعد ان كانت تدل على

---

1) جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 20 - راجع = الاصفهاني - الاغاني ج 1 ص 32 - (طبعة - بولاق - 1285 هـ)
2) سعيد الافغاني - اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ص 352
3) الجاحظ - رسالة فخر السودان على البيضان - ص 180
4) المصدر نفسه ص 180 - 181
5) لامنس H. Lammens - غرب الجزيرة L'Arabie occidentale - ص 291
6) الاصفهاني - الاغاني - ج 3 ص 20 طبعة بولاق 1285 هـ (في عشرين 20 جزءا)
جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 20

كل من وقع تحت نير العبودية فقيل في البداية "عبد اسود" و "عبد حبشي" ثم وقع الاقتصار على كلمة "عبد" للدلالة على المملوك الاسود ونعت المملوك الابيض بنعوت اخرى مثل "آدمي" كما استعملت نعوت اخرى مثل رقيق ومولى (1).

وكانت ابرز مجموعة بمكة من هؤلاء العبيد طائفة من الصنائع والشذاذ عرفوا بعبدان اهل مكة او سودان مكة (2) ومنهم من كان يؤلف نواة الحرس المكي (3) والى هذه المجموعة كان ينتمي بلال الحبشي مؤذن الرسول وهو عبد اشتراه ابو بكر بخمسة اواق (4) او أَعْطَى لسيده امية بن خلف غلاما اسود عوضه حسب رواية اخرى (5) وكان العرب قبل الاسلام يستعملون في حروبهم ما يشترونه من هذا الرقيق فضلا عن استعماله في شتى شؤونهم الاخرى وذلك لما عهدوه فيهم من خصال

---

1) برنشفيك Brunschvig مقال عبد ـ دائرة المعارف الاسلامية - جواد علي ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص 137 - 138

2) لامنس H. Lammens. غرب الجزيرة قبيل الهجرة - L'Arabie occidentale - ص 269 طبعة بيروت 1928 - السيد عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية ص 249 ـ 253 طبعة بيروت 1971

3) برنشفيك Brunschvig مقال عبد ـ دائرة المعارف الاسلامية - ج 1 ص 25 - 26

4) العلي - التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة = - ص 179

5) ابن هشام ـ السيرة ـ طبعة على هامش الروض الانف ج 1 ص 202

حربية ولخبرتهم بهم منذ عهود قديمة سواء باليمن او بالحجاز فصار استعمالهم لهم عادة متبعة اذ نجد صداها في الشعر الجاهلي فقد نقل صاحب الاغاني شعرا هجيت به قريش قديما ومنه قول الشاعر :

فضحتم قريشا بالفرار وانتم تمدون سودا انا عظام المناكب (1)

فمن المعروف ان عرب الحجاز واليمن على الاقل قد استعملوا عبيدهم لهذه الغاية الحربية واتخذوا منهم كذلك خفراء وحماة لقوافلهم فكانوا على حدّ قول لامنس Lammens. اشبه شيء بالمحاربين المرتزقة والدليل على ذلك في نظره تمييز العرب بين " الحلد " من جنسهم المدافعين عن حماهم و " العسكر " الذين يستاجرون للمساهمة في القتال وقد استعملت هذه الكلمة بهذا المعنى في ديوان قيس بن الخطيم (2)

ونحن لا نعدم امثلة على مشاركة الرقيق الاسود في حروب العرب فمن ذلك عنترة الشاعر المشهور الذي استعملته قبيلة عبس

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ ج.15 - ص 144 - راجع - لامنس H. lammens غرب الجزيرة - ص 244 وص 292

2) قيس بن الخطيم الديوان. ص : 33 - راجع - لامنس H. Lammens غرب الجزيرة - ص 250 ـ 251 وص 256

في غزوها ووحشي وصعاب الذان استعانت بهما قريش في غزوة احـد فكان صعاب حامل لوائها حتى قال فيـه حسان بن ثابت :

جعلتم فخركم فيـه لعبـد من الأم من يطا عفر التراب (1)

وكان وحشي قاتل حمزة في هذه الموقعة ، وكان بلال الحبشي يقوم بـدور حراسة الرسول مع اخيه ابي رويحة وكان يمشي شاهرا سيفـه امام الرسول (2) وكان ملوك اليمن وامراؤها وكذلك رؤساء القبائل بالحجاز يتخذون مـن هؤلاء العبيد حرسهم الخاص فقد جاء في طبقات ابن سعد (3) ان رئيس هذيل يمشي وراءه العبيد وكان سيف بن ذي يزن يتخذ في جنده ما تركه ابرهة من الزنج والاحباش بالرغم من غزوة اكسوم الاليمة وهي غزوة الحبشـة للكعبـة (4)

الا ان هذا الرقيق الاسود لم يكن يمثل جندا قارا عند عرب الجاهلية وانما كان يستعمل عند حدوث حادث وسماع الصريخ وهو في سائر الاحـوال رقيق يعمل في صالح الاسياد ويدفع ضريبـة او خراجا يوميا وكانـوا

1) حسان بن ثابت ـ الديوان : ص ـ19ـ لا ملس Lammens . غرب الجزيرة l'Arabe occidentale ص 259
2) ابن الأثيـر ـ اسد الغابة ج 3ص 36
3) ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ج 2ص 36ـ37
4) لا ملس - H. Lammens غرب الجزيرة - L'Arabie occidentale ص 244

عند الحرب يطعمونهم الخزيرة وهي ثريد من دقيق ولحم مدقوق وكانت كل قبيلة تستعمل منه ما تمتلكه من رؤوس (1) ويتضح من خلال الشعر العربي القديم ان العرب كانوا يرون معرة في الاتكال على العبيد في الحرب فيعيرون به بعضهم بعضا كما راينا ذلك فيما سبق ويرونه قادحا في شجاعتهم بالرغم من اقتناعهم بخصال عبيد الحبشة في الحرب وبلائهم فيها واعترافهم بانهم اثبت من البدو بسبب طاعتهم لاسيادهم كما كانوا يعترفون بهذه البسالة حتى لذريتهم والمولدين منهم الذين اختلطت دماؤهم بدماء العرب ولذلك نجد عندهم تمجيدا لاغربة العرب وهم سود الالوان بسبب اصلهم الزنجي (2)

وقد احتفظ الشاعر ابن دعبة وهو شاعر من ثقيف بذكرى قديمة وهي ذكرى الهول الذي نشره الاحباش عند غزوهم للكعبة ونجد هذا الشعر في سيرة ابن هشام وعند الطبري (3)

وقد بقي هذا التخوف راسخا في النفوس وتمثله بعض الاحاديث القائلة بان الكعبة سيحطمها اهل الحبشة (4) وهذه التخوفات لها ما يدعمها ايضا اذ هجم اهل الحبشة على اطراف مكة في عهد الرسول محمد (5)

---

1) المرجع نفسه - راجع : ص 285

2) لامنس H. Lammens - غرب الجزيرة L'Arabie occidentale - 245

3) ابن هشام - السيرة ج 1 ص 48 - ط - مصر 1914 - الطبري - تاريخ الامم والملوك ج 1 ص 927

4) ابو داود - السنن ج 2 ص 133 - انظر ايضا : الازرقي - اخبار مكة طبعة ليبزج - 1858 - ص 193

5) ابن سعد - الطبقات الكبرى - ج 1 - ص 118

فلا مراء اذن في ان العرب قبل الاسلام قد كانوا يستعملون عبيدهم في ميدان القتال كما كانوا يستعملونهم في ميادين اخرى اقتصادية ولعله من المرجع ايضا ان اغلب الرقيق المستعمل في الحرب عندهم هو الرقيق الاسود بسبب وفرة عدده من ناحية وبسالته في الوغى من ناحية اخرى الا انه ليس ثمة ما يدل على انهم قد اتخذوا منه جندا قارا متميزا عن بقية الغزاة من ابناء القبائل والعشائر وانما هو رقيق يتخذ لصالح الاسياد في شتى ميادين العمل .

مصطلح"الاحابيش"

لكن الاب لامنس قد ذهب مذهبا بعيدا في اعتبار مصطلح " الاحابيش " الوارد في اخبار العرب قبل الاسلام دالا على وجود جند قار من الرقيق ومجموعات متميزة من العبيد تعتمد عليها قريش في الدفاع عن نفسها ويبدو ان اطروحته هذه لم تعد حدود الافتراض وذلك لان المصادر التي ورد فيها ذكر الاحابيش لا تبرز بوضوح هوية هؤلاء ولا تسمح بالتسليم بانهم عبيد سود من اصل حبشي وقع استيرادهم من سواحل البحر الاحمر بل اننا لنجد في هذه المصادر من القرائن ما ينفي هذا الزعم

ومايجعلنا نعتبر ان هذا المستشرق قد بالغ في تاويل بعض الاشارات واعتسف بعض الاستنتاجات وهو ما دعا غيره من الباحثين مثل المستشرق وات Watt الى وصفه بالبعد عن الموضوعية والنظر العلمي (1).

فنحن نجد في سيرة ابن هشام ان ابن الدغنة هو سيد الاحابيش وان الاحابيش هم من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ابن الهون بن خزيمة بن مدركة ومن بني المصطلق من خزاعة (2) وان تسميتهم بالاحابيش متأتية من تكوينهم لحلف في واد يسمى الاحبش (3) ويذكر ابن هشام في حديثه عن غزوة احد ان سيد الاحابيش وهو الحليس بن زبان قد عاتب ابا سفيان على تمثيله بجثة حمزة (4) ويرجع ابن هشام الى الحديث عن الحليس بن علقمة او (ابن الزبان) في غزوة الحديبية ليشير من جديد الى انه سيد الاحابيش وانه من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وقد ارسل الى الرسول محمد واقتنع بنوايا المسلمين السلمية فهدد قريشا بالانضمام الى الرسول مع الاحابيش

---

1) و ـ م ـ وات W M. Watt - محمد في مكة ـ طبعة باريس 1958 ذيل "أ" ص 197
2) ابن هشام ـ السيرة ج 1 ص 231 - (طبعة مصر. 1332هـ-1914م)
3) المصدر نفسه - ج 1 ص 231
4) المصدر نفسه - ج 2 ص 140 ..

اذا هم لم يسمحوا لـه باداء فريضة الحج (1) ويقول ابن سعد كذلك في حديثه عن حرب الفجار ان الذين انضموا الى قريش من الاحابيش هم قبيلة الحرث بن عبد مناة بن كنانة وعدل والقارة والمصطلق من خزاعة (2) ويذكر الازرقي ان الاحابيش قد انضموا الى بني بكر بن عبد مناة بن كنانة في الحرب التي دارت بينهم وبين قريش وانهم عقدوا بهذه المناسبة حلفا عند جبل يسمى حبشي وكان تحالفهم ضد قريش ولذلك سموا بالاحابيش (3) ويذكر الطبري ان الاحابيش بمكة عند فتحها قد كانوا من بين الافراد القلائل الذين قاوموا المسلمين (4) فهذه الاخبار تشير جميعا الى ان الاحابيش هم مجموعات من العرب لهم " اسياد " اي رؤساء يتحالفون تارة مع قريش وطورا ضدها وهو ما لا يؤيد نظرية لامنس H. Lammens.

فاذا رجعنا الى الاشتقاق اللغوي لكلمة " احابيش " وجدنا لامنس يدعم رايه بكونها مشتقة من " حبش " الذي يجمع على " احبوش "

---

1) المصدر نفسه ج : ٤ - ص٤٢٢ الطبري - تاريخ الامم والملوك ج -٤- ص 1538 وما بعدها
2) ابن سعد - الطبقات الكبرى ج 1 ص 81 (بعد حديثه عن حرب الفجار)
3) الازرقي - اخبار المكة - طبعة ليبزج 1958 مجلد 1 ص ٤٨
4) الطبري - تاريخ الامم والملوك ج - ٤ - ص 1635

الذي يجمع على احابيش وحبشان اي سكان الحبشة (1) غير معتبر ما اوردنا آنفا عن المصادر من نسبة هذه التسمية الى جبل يسمى " حبشي " او واد يدعى " الاحبش " تحالفت عنده مجموعات من العرب (2) وغير منتبه ايضا الى ان لاشتقاق هذه الكلمة دلالات لغوية اخرى اذ هي كما يقول ابن منظور جمع احبوش او احبوشة بمعنى الفريق من الناس (3) واذا ما رجحنا الاشتقاق الذي اختاره فليس من المستبعد ان تكون كلمة " حبش " اشارة الى اللون الاسود الذي عرف به بعض العرب المتصاهرين مع السود خصوصا ان المصادر تفصل احيانا بين " الاحابيش وعبد ان اهل مكة " (4) وتجمع بين احابيش قريش ومن " اطاعها من قبائل كنانة واهل تهامة " (5) وتشير الى ان الاحابيش يقطنون خارج مكة بينما عبيد قريش كانوا بين ظهرانيها هذا فضلا عن ذكر سادة لهؤلاء الاحابيش كسادة القبائل يتحالفون مع قريش ولهم انساب وعشائر (6) وهذه صعوبات يصطدم بها صاحب النظرية.

---

1) لامنس Lammens. غرب الجزيرة L'Arabie occ. ص 253 ــ الزبيدي ــ تاج العروس - ابن دريد ــ الاشتقاق - انظر ايضا دوزي Dozy ــ ذيل المعاجم العربية Supp. aux Dict. Arabes
2) الازرقي ــ اخبار مكة ج1 ص144 ابن هشام ــ السيرة ج 1 ص 231 -(طبعة مصر 1332هـ-1914م)
3) ابن منظور ــ لسان العرب-
4) ابن هشام ــ السيرة = ج 2 ص 126 (انظر حديثه عن غزوة احد)
5) المصدر نفسه ج 2 ص 127 ــ الطبري تاريخ الامم والملوك ج 2 ص 1384 (وقد ورد ذكر ذلك في معرض الحديث عن غزوة احد)
6) و ــ م ــ وات W.M. Watt ــ محمد في مكة ــ طبعة باريس 1958 ذيل " أ " ص197 وما بعدها

لكن لامنس تجاوز كل ذلك في سبيل الوصول الى هدفه وهو اثبات جبن قريش واعتمادها في الدفاع عن نفسها على جند من العبيد[1] فمضى يحلل اسباب قوة قريش العسكرية وسيادتها على القبائل المجاورة لها فرأى ان هذا التفوق ليس راجعا حسب زعمه لخصال القرشيين الحربية لانهم قوم مشغولون بالتجارة وتكديس الثروات فلم يكن لهم ما للبدو من خبرة باستعمال السلاح ولذلك عيرهم الشعراء البدو بالجبن والضعف في القتال ونعتوا قريش البطاح بالضب لانها تحتمي بالحرم ولا تجرؤ على الخروج منه وهذا الهجاء هو في رايه رد فعل على معاملات الربا التي كان القرشيون يعاملون بها البدو.(2)

وبالرغم من ان السياق هو هجاء ورد فعل كما اقر ذلك بنفسه نجده يستخلص ان هذا الوضع قد احوج قريشا الى اتخاذ جند منظم من المرتزقة السود وهو جند الاحابيش ويتالف هذا الجند من زنوج افارقة في اغلبه ويشرف عليه عناصر من غفار واسلم المجاورين للحرم

---

1) لامنس Lammens - الاحابيش ونظام مكة العسكري في قرن الهجرة — المجلة الاسيوية سنة 1916 ص 425 — 482

2) لامنس Lammens - غرب الجزيرة - L'Arabie Occ - ص 250 — 251

وبعض شذاذ العرب وذؤبانهم الذين كانت قريش تستأجرهم من خليع وصعلوك ومتشيطن وفاتك ومن امثلة هؤلاء البراض وابو الطمحان وغيرهما (1) وكان العنصر القريشي في هذا الجند قليلا للاسباب التي ذكرناها آنفا ولسبب آخر ديموغرافي وهو ان قريشا كانت قليلة العدد تزدحم كلها في الوادي المحيط بالكعبة ولذلك فسر ابن هشام كلمة بكة بانهم يزدحمون فيها (2) كما ان الظروف المحيطة بهم والتي وصفها القرآن بواد غير ذي زرع لم تكن تسمح لهم بالنمو الديموغرافي فازدادت حاجتهم من اجل ذلك الى هذا الجند من المرتزقة (3).

وهكذا يستنتج في النهاية ان الاحابيش هم رقيق اسود من اصل حبشي يقومون بمهمة عسكرية شبيهة بالمهمة التي قام بها السويسريون في بلاطات اوروبا (4) وقد نجحوا في هذه المهمة واعترف لهم العرب بالبسالة حتى ان الرسول عندما اراد غزو هوازن بعد فتح مكة قبل ما اقترحه بعضهم عليه من استعانة بالاحابيش التابعين لبني مخزوم (5) لانهم تسببوا في انتصار قريش في احد وكانت هزيمتهم في بدر بسبب التخلي عن الاستعانة بهم (6)

1) نفس المرجع ص 238 وص 240 وص 241 وص 247
2) ابن هشام — السيرة ج 1 ص 81 -(طبعة مصر. 1332 هـ 1914م)
3) لامنس -Lammens- غرب الجزيرة L'Arabie occidentale ص 247
4) المرجع نفسه ص 245
5) المرجع نفسه ص 263 — 264
6) المرجع نفسه ص 256

ويبدو ان اقرب الآراء الى الاعتدال والتحري في ممارسة النصوص

واستنطاقها وتجنب التاويل للاخبار ان لا نذهب مذهب فلهاوزن Wellhausen

في اعتبار هؤلاء الاحابيش مجرد قبائل عربية متحالفة مع قريش (1)

وان لا نذهب ايضا مذهب لامنس Lammens - في اعتبارهم كتائب من

العبيد المستوردين من الحبشة تستخدمهم قريش في الدفاع عن نفسها

لعجزها الحربي فحتى وصفهم في شعر حسان بن ثابت بكونهم " بلانسب"

لا معول عليه اذ بالامكان ان يكون وصفا يقصد منه التعيير بخمول

النسب لانه وارد في سياق الهجاء (2).

واقصى ما يمكن الاحتفاظ به من تصفحنا لروايات الطبري

وابن هشام وابن سعد والواقدي ان امر هؤلاء الاحابيش لا يخلو من

غموض والارجح انهم فئات مختلطة من العرب الذين لم يكونوا يؤلفون

قبائل بالتمام معنى الكلمة عصبية واضحة مما احوجهم الى التحالف وليس من

المستبعد ان يكونوا قد امتزجوا بالعبيد ايضا مما تسبب في خمول

---

1) و — م وات W.M.Watt محمد في مكة — ص 197

2) حسان بن ثابت — الديوان — ص 103 - (يقول حسان في هجاء قريش : " انتم احابيش جمعتم بلا نسب ائمة الكفر غرّتكم طواغيها ؟ ")

لامنس Lammens. غرب الجزيرة L'Arabie Occid. ص 261

انسابهم واسوداد الوانهم حتى عرف بعضهم باغربة العرب وهذا لا ينفي ان يكون عددهم من الرقيق مثل ما عدد قريش وغيرها من القبائل (1) وبذلك يكون في راي لامنس Lammens - جزء من الحقيقة الا انه بالغ فيه لكي يبين ان المسلمين لم يجدوا عسرا في التغلب على قريش لجبنها ولتخلي الاحابيش عنها في غزوة بدر الكبرى.

ومهما يكن من امر وايا كانت هوية هؤلاء الاحابيش فان الحقيقة التي لا مراء فيها هي وجود رقيق اسود عند اهل مكة والقبائل المجاورة لها وان هذا الرقيق قد ذكرته المصادر متميزا عن مجموعة "الاحابيش" وان مصدره هو التجارة التي كانت رائجة بين غرب الجزيرة العربية وجنوبها من ناحية وبلاد الساحل الافريقي الشرقي وخاصة الحبشة من ناحية اخرى.

---

1) و — م — وات W M. Watt - محمد في مكة ص 197 — 200

3) الاسواق والمعاملات التجارية :

وقد كان للعرب قبل الاسلام عادات تجارية تتعلق بصفقات الرقيق وعمليات بيعه وشرائه . منها انهم كانوا يبيعونه في المواسم بالاسواق وينتظرون بما يجلبونه منه تلك المواسم بحثا عن الربح الوافر (1) وقد اصبحت مكة اكبر سوق للرقيق (2) يعرض بها ما يقع جلبه عن طريق التجارة او ما يتم اسره في الحروب كما كان يعرض بسوق عكاظ رقيق كثير يباع فيها بيع سائر الامتعة التجارية (3) وقد روى ابن عبد ربه ان ام عمرو بن العاص اصابها سباء في الجاهلية فبيعت بعكاظ وهذا نص الرواية " خاطر رجل الى ان يقوم الى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول : ايها الامير من امك ؟ ففعل . فقال له : النابغة بنت عبد الله اصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل فولدت فانجبت فان كانوا جعلوا لك شيئا فخذه " (4).

---

1) جرجي زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 19

2) سعيد الافغاني ــ اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ص 27

3) المرجع نفسه ص 278

4) ابن عبد ربه ــ العقد الفريد ج 1 ص 63 طبعة القاهرة . 1359 هـ/1940

وقد كانت اغلب هذه الاسواق موسمية ومنها سوق ذي المجاز الذي اشترى منه عمر بن الخطاب خادمه " اسلم " (1) وقد روي عن ابي سعيد المقبرى انه قال : " اشترتني امرأة من بني ليث بسوق ذي المجاز بسبعمائة درهم " (2) ووجدت ايضا سوق اخرى تروج فيها بضاعة الرقيق رواجا كبيرا وهي سوق دومة الجندل الواقعة بجوار ديار بني كلب وجديلة وطيء وكانت كلب من اكثر العرب رقيقا فكانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت من شعر يعرضون فيها عبيدهم واماءهم (3) وتذكر لنا المصادر كذلك سوق حباشة التي يروى ان زيد ابن حارثة قد بيع بها وهي صبي لم يتجاوز عمره ثمانية اعوام (4) وبالرغم من هذه الامثلة العديدة على اسواق عربية كان الرقيق يباع بها قبل الاسلام فانه ليس لدينا دليل على وجود سوق قارة خاصة بالرقيق دون سائر البضائع .

1) سعيد الافغاني ــ اسواق العرب ــ ص 350 ــ 352

2) احمد شفيق باشا ــ الرق في الاسلام ــ ص 90ــ98

3) سعيد الافغاني ــ اسواق العرب ص 236 ــ 237

4) ابن هشام ــ السيرة ج 1 ص164 - طبعة مصر- 1332هـ 1914م السهيلي ــ الروض الانف ج 1 ص 164 -(طبعة مصر - 1332هـ - 1914 م)

(يذكر ابن سعد انه بيع بسوق عكاظ - الطبقات الكبرى - ج 4 ص 203)

ومن عادات العرب ومعاملاتهم التجارية قبل الاسلام انهم كانوا اذا اشتروا عبدا وضعوا في عنقه حبلا وقادوه الى منازلهم كما تقاد الدابة (1) وكانوا يميزون بين العبد القن الذي لا يباع ولا يوهب وعبد المملوكة الخاضع لهذه المعاملات (2) وقد كان العبد القن عندهم مرتبطا بالارض لا يباع الا معها وهو في ذلك شبيه بعبيد الارض Les serfs في الامبراطورية الرومانية (3) ثم تغير معنى العبد القن بعد ظهور الاسلام فصار يدل على العبد الذي لسيده عليه سلطة مطلقة (4) .

ويبدو ان عملية بيع الاطفال من قبل عائلاتهم كانت ظاهرة شاذة في المجتمع العربي قبل الاسلام وكذلك الامر بالنسبة الى بيع المدين في شكل رقيق (5) ومن طريف ما يروى في هذا الباب ان مقامرة جرت بين ابي لهب والعاصي بن هشام فقمر الاول الثاني واسترقه واسترعاه ابله (6) الا ان هذه الضروب من التصرف لم يكتب لها الشيوع وكان ينظر

---

1) ابن قتيبة ــ المعارف ــ طبعة مصر 1300 هـ ص 112 جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ص 4 ص 20

2) برنشفيك Brunschvig - مقال عبد ــ دائرة المعارف الاسلامية - ج 1 ص 26

3) جرجي زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ح 4 ص 20 - الجرجاني - التعريفات -

4) برنشفيك Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية ــ مقال عبد - ج 1 ص 26

5) المرجع نفسه

6) جرجي زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 20 ــ الاصفهاني - الاغاني ج 3 ص 100 طبعة - بولاق - 1284 هـ (في 20 جزءا)

اليها نظرة الدون والاسترذال . وما اورده ابو الفرج الاصفهاني من روايات حول هذا النوع من بيع الرقيق انما يقصد منه التشهير والتنديد به (1) الا انه قد كان بامكان العبد اذا كره البقاء عند مولاه ان يستبيع نفسه منه فيبيعه ويصبح ملكا لسيد آخر (2).

وكان للعرب فضلا عن وجوه المتاجرة العادية كالبيع والشراء والرهن والمؤاجرة وجه آخر من وجوه المتاجرة وهو بيع اعراض الاماء واتخاذهن للبغاء جريا وراء الكسب والتمعش بالزنا (3) وكانوا يسمون هذه العملية المساعاة اي توظيف ضريبة على الامة تؤديها بالبغاء (4) فكانوا يقيمون للاماء دورا عليها رايات حمر فعرفن باصحاب الرايات (5) واستمرت هذه العادة حتى جاء الاسلام وكانت الهجرة ونزلت الاية عدد 33 من سورة النور تنهى عن هذا الصنيع (6).

---

1) المصدر نفسه
2) جرجي زيدان – تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 21
3) مندلسن - Mendelsohn. الاسترقاق في الشرق الادنى القديم - Slavery in ancient near East
طبعة نيويورك – 1949 ص 57–58 – برنشفيك Brunschvig. دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد
4) ابن منظور – لسان العرب -
5) الالوسي – بلوغ الارب في معرفة احوال العرب – طبعة القاهرة 1924 ج 2 ص 4
6) القرآن – سورة النور – الاية 33

وقد ذكر المفسرون ان لعبد الله بن ابي سلول جاريتين يقال لهما مسيكة ومعاذة كان يكرههما على الزنا لضريبة ياخذها منهما ، فلما جاء الاسلام قالت معاذة لمسيكة " ان هذا الامر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين فان يك خيرا فقد استكثرنا منه وان يك شرا فقد آن لنا ان ندعه " لكن عبد الله قال لهما " ارجعا فازنيا " فقالتا " والله لانفعل قد جاء الاسلام وحرم الزنا " فاتتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا اليه امرهما فانزل الله هذه الاية "ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا لتبتغوا من الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله بعد اكراههن غفور رحيم " (1) وكان بنو كلب معروفين بممارسة هذا النوع من المتاجرة سعيا وراء الكسب المرذول (2).

---

1) المصدر نفسه - سعيد الافغاني - اسواق العرب ص 58-59
2) المرجع نفسه ص 236 - 237

الباب الثاني

المسلمون وتجارة الرقيق قبل القرن الثالث للهجرة

الفصل الاول

خلال القرن الاول للهجرة

8) الاسلام وتجارة الرقيق

ان تجارة الرقيق التي مارسها العرب لم تتوقف بظهور الاسلام .
فمن المعلوم ان هذا الدين لم يقض على ظاهرة الرق، شأنه في ذلك
شأن الديانات للاخرى كاليهودية والمسيحية (1)، الا انه قد اشتمل على
مبادئ من شأنها ان تلطف من حدة هذه الظاهرة، فاوصى بحسن
معاملة الرقيق، وشجع على تحريره، وحدد مصادر الاسترقاق بالولادة في الرق
او الحرب المشروعة (2)، بعد ان كانت مصادره اكثر تنوعا عند الامم السابقة
لظهوره (3)، فقد منع الاسلام استعباد الاحرار الا في حالتين: حالة الوراثة،
او محاربة الكفار، اما استرقاق الحر المسلم فمحرم اصلا، لكن هذا لا يعني
ان اسلام العبيد يرفع عنهم عبوديتهم (4)، وذلك لان رقهم هو جزاء
لهم لقتالهم للمسلمين قبل اعتناقهم للاسلام، ولو اسلموا بدون قتال
لعصموا انفسهم من العبودية (5) .

---

1) برنشفيك ـ Brunschvig ـ مقال عبد ـ (د.م.إ.) ح 1 ص 26 ـ لاروس ـ G-Larousse
ـ الموسوعة ـ ج 4 ص 671
2) قرآن ـ سورة محمد ـ الاية عدد 4 ـ ابن العربي المالكي ـ
عارضة الاحوذي ـ ج 7 ص 61 . 63 ابن سلام
ـ الاموال ج 1 ص 106 . 120 الماوردي ـ الاحكام
السلطانية ـ الطبعة الثالثة ص 126 . 141 ابن
قدامة ـ المغني ـ ج 10 ص 400
3) قرآن ـ سورة البقرة ـ اية 280 ـ العيني ـ شرح
الكنز ح 1 ص 201 احمد شفيق باشا ـ الرق في الاسلام
ص 61 . 62
4) الشافعي ـ الام ج 4 ص 252 . 253 برنشفيك ـ Brunschvig ـ
دائرة المعارف الاسلامية ـ مقال عبد ـ ج 1 ـ ص 27
5) السرخسي ـ شرح السير الكبير ح 3 ص 1024 . 1041

ومهما يكن من امر فان بضاعة الرقيق قد بقيت متداولة في ظل الدين الجديد وان كانت روح النصوص الدينية ومصادر التشريع لا تنظر في المقام الاول الى القيمة التجارية لهذه البضاعة بقدر ما تعتبر الجانب الانساني والعقائدي في علاقة السيد بعبده . فهي لا تهتم بظاهرة البيع والشراء للرقيق ولا تشجع عليها بل تعلقها بحالات اضطرارية وتعتبرها اخف الاضرار اذا تعذر العدول عنها . فمن ذلك تفضيل بيع العبد على تعذيبه (1) وبيع الامة الزانية ولو بظفير طبقا لما ورد في الحديث الشريف (2) وكذلك بيع العبد الذي استباع نفسه (3) وهي كلها اوضاع شاذة يقع الالتجاء اليها اما رفقا بالعبيد او محافظة على الاخلاق العامة وليست هادفة الى مقاصد تجارية . ولذلك نحن لا نجد في القرآن والسنة ما يمكن ان يعتبر باعثا على ما ظهر في التاريخ الاسلامي من رواج لتجارة الرقيق (4) بل اننا لنجد في الحديث النبوي ان ((شر الناس من باع الناس)) (5) .

1) الغزالي - احياء علوم الدين ج 6 ص 1033 - البغوي - مصابيح السنة ج 2 ص 32 . 33
2) البخاري - صحيح ج 3 ص 298 . 299
3) الحبيشي - البركة ص 99
4) زحيلي - آثار الحرب - ص 441
5) آدم متز A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 295

لكن الفقهاء بحكم نظرهم في المعاملات واجتهادهم في الملاءمة بين الواقع الحضاري ومقتضيات الشرع قد اهتموا بالصالح التجارية في هذا المجال وتناولوا ظاهرة الرق من جانبها الاقتصادي فاضحى من المقدمات المسلم بها عندهم ان كل مملوك ابيح الانتفاع به جاز بيعه الا ما استثناه الشرع من المحرمات (1) وبما ان العبد مملوك منتفع به جاز بيعه ولهذا نراهم لا يجوزون بيع الحر و ما ليس بمملوك اعتمادا على قول الرسول (قال الله عز وجل : ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة : رجل اعطى بي ثم غدر و رجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه ولم يوفه اجره)) (2) اما ما توفرت فيه الملكية كالرقيق فانهم قد جوزوا التصرف فيه بالبيع والشراء والرهن والمؤاجرة والاعارة والهبة والارث والوصية كسائر الامتعة التي تمتلك (3) وبذلك وجدت تجارة الرقيق مستندا شرعيا في الاحكام الفقهية اتاح لها ان تروج وان تصبح مصدرا ثالثا يزود العالم الاسلامي بهذه البضاعة الى جانب المصدر الوراثي والحربي .

---

1) ابن قدامة ـ المغني ج 4 ص 256

2) البغوي مصابيح السنة ـ ج ـ 2 ـ ص 32 - 33

3) مالك بن أنس ـ المدونة الكبرى ـ ج 14 ص 35

ع) تجارة الرقيق الاسود

لم تتوقف اذن تجارة الرقيق التي مارسها العرب بظهور الاسلام . فقد تواصلت العلاقات بين الحبشة وجزيرة العرب وتمثلت بهجرة المسلمين الى ارض النجاشي في حياة الرسول (1) وصارت جزيرة ((متجر قريش)) الواقعة بين جيبوتي والزيلع مأوى للتجار والمسلمين الهاربين من الذعر الذي صحب حروب الردة في عهد الخليفة ابي بكر (11 - 13هـ/632 - 634م) (2) ويمكن القول بان الجالية العربية الاسلامية قد تزايد عددها ببلاد اثيوبيا وامكنها ان تستقر بها وان تمارس نشاطا تجاريا . فكل هذه الدلائل تشير الى ان كل ما كان من معاملات بين العرب وجيرانهم الافارقة قبل الاسلام قد استمر ومن بين تلك المعاملات تجارة الرقيق الاسود طبعا .

وما فتئ العرب المسلمون يتخذون ساحل افريقيا الشرقي ملجأ لهم عند الشدة حتى في العصور الموالية ولا يخفى ان لجوءهم ذاك يدل على وجود جالية من بني جنسهم

---

1) ابن هشام _ السيرة - طبعة مصر -1332هـ/1914م . ج 1 ص204

2) الشاطر بصيلي . تاريخ وحضارات السودان .ص 187

وديننهم بذلك المكان وهي جالية تكونت نواتها منذ عهد قديم وكانت الغاية منها تجارية اساسا . ففي ظل الحكم الاموي هربت جماعات من جنوب الجزيرة العربية ومن العراق من سطوة ذلك الحكم وقهره والتجأت الى شرق افريقيا واستقرت بجزيرة ((الامو)) الواقعة على الشاطيء جنوب الحدود الرابطة بين صوماليا الحالية وكينيا وكان استقرارها في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (65 هـ ــ 86 هـ) (685م ــ 705 م) . وقد طاردت قوات عبد الملك الهاربين الى بر الزنج واحتلت جزيرة الامو واقامت بها وذلك حوالي سنة (75 هـ/ 695 م).(1)

وهكذا توطدت العلاقة بين شرقي افريقيا وبلاد الاسلام ولم يعد الامر مقتصرا على ((سوق قريش)) فقط بل ظهر مركز ((الامو)) كما ستظهر امارة اسلامية اخرى هي امارة ((الدجن)) التي كانت تخدم الموانيء العربية على الساحل الغربي للبحر الاحمر ويحكمها حاكم عربي مسلم يعينه ملك ((علوة)) المسيحي وقد امكن للمسلمين ان يؤسسوا انطلاقا من هذه المراكز ولايات على الطراز الاسلامي فى شكل نظام الجمهوريه التجارية التى كانت قائمة فى الحجاز بالجزيرة العربية (2)

---

1) المرجع نفسه ص 19، و 25 و 133

2) المرجع نفسه ص 35

لقد كان نشاط هذه الجمهوريات تجاريا كما قلنا وكان وجودها على الساحل عاملا من عوامل حماية العلميات التجارية ومراقبة طرق القوافل . وكانت تجارة الرقيق الاسود من بين التجارات الهامة التى اشرف عليها التجار العرب القاطنون بتلك الربوع . وذلك ان حروبا كانت تنشأ بين الزعماء المحليين للقبائل الافريقية المتساكنة هناك وكان الاسرى الواقعون في يد الغالب يباعون عن طريق المقايضة مقابل بضاعة او سلاح فكان التجار العرب يوفرون تلك البضاعة المطلوبة ويتسلمون رؤوسا من الرقيق . وقد استفادوا من هذه المعاملات وتسنى لهم ان يتخذوا مزارع وان يستخدموا فيها بعض الرقيق وان يصدروا جزءا من تلك البضاعة الى موانئ الجزيرة العربية

وكان الزنج يجلبون من افريقيا الى جنوب العراق منذ القرن الاول للهجرة وكان الهدف من جلبهم الى هذه المنطقة استصلاح الأراضي الزراعية المعروفة بالسباخ وهي اراض يعلوها الطح وتسوخ فيها الاقدام (1) فكان العبيد اي الزنوج يكسحون تلك

1) ابن منظور - لسان العرب - مادة : سبخ

السباخ ويصلحون التربة لتقل املاحها وتصير صالحة للاستغلال وكان عملهم هذا شاقا اذ كانوا يخدمون الارض بالسخرة دون ان يتقاضوا اجرا وكان طعامهم يتمثل في قليل من الخبز والتمر والسويق وقد كانت (كسوح الزنوج معروفة بالبصرة كالجبال وكان في انهار البصرة منهم عشرات الالوف يعذبون بهذه الخدمة (1)) .

ومما يدل على وجود تجارة الزنوج هذه منذ القرن الاول للهجرة ما احدثوه في تاريخ الدولة الاموية من اضطراب احتجاجا على وضعهم السيء اذ نجدهم يثورون في آخر ايام مصعب بن الزبير فتصدى لهم والي البصرة خالد بن عبد الله القسري . وفرق جموعهم . واعادوا الكرة ابان ثورة عبد الله بن الجارود على الحجاج فثاروا بقيادة (شير الزنجي) وهو رجل يدعى ((رباح)) ويلقب (باسد الزنج) فامر الحجاج واليه على شرطة البصرة زياد بن عمرو بقتالهم فجهز لهم جيشا بقيادة ابنه حفص بن زياد لكنه انهزم امامهم فكان أن جهز زياد جيشا آخر وقضى على ثورتهم سنة (75هـ/ 695 م) (2).

---

1) عشر ثورات في الاسلام ص 183 - علي حسني الخربوطلي

2) ابن الاثير - الكامل- ج 4 - ص 388

وهؤلاء الزنج العاملون في السباخ هم الذين سيثورون ثورتهم الكبرى في القرن الثالث للهجرة سنة (255 هـ/ 869م) وهي الثورة المشهورة بثورة الزنج . ثم ان اندلاع هذه الثورة بعد مرور قرن ونصف على ثورتهم على الحجاج يشير الى ان جنوب العراق كان في حاجة مستمرة الى هؤلاء الزنوج لازالة طبقة الاملاح عن الارض وان جلبهم عن طريق التجارة قد تواصل الى القرن الثالث للهجرة

3) تجارة الرقيق الابيض

اما بخصوص الرقيق الابيض فاننا نلاحظ ان تجارة الرقيق العربي قد اخذت طريقها نحو الاضمحلال منذ صدر الاسلام ولم تستمر الا فترة وجيزة بعد ظهور الاسلام اي في عهد الرسول وأبي بكر وجزء من خلافة عمر . فقد اضطر عمر الى اعادة النظر في التشريع الخاص بالاسر والسبي منذ ان وجد العرب انفسهم وجها لوجه مع خصومهم الاعاجم وذلك ان تغير الظرف ونوع الخصم قد أحوج الى اجتهاد في الاحكام فوقع التمييز بين العرب وغيرهم في حكم الاسترقاق (1) لان الدولة كانت في حاجة الى التعويل

1) البخاري - صحيح - ج 3 ص 294 - 296
الشافعي - الام - ج 4 - ص 271 - 272
بلتاجي (عمود) - منهج عمر - ص 496
زحيلي (وهبة) - آثار الحرب - ص : 441

على اصحاب الدين الجديد لمقاومة الامم الاعجمية . وقد قدم لنا ابن سلام صورة عن هذا التشريع الجديد الذي يفصل فيه العربي عن الاعجمي . (1)

وقد امكن للمسلمين منذ القرن الاول للهجرة وخاصة منذ فتحهم للأقاليم التابعة للامبراطورية البيزنطية ان يتصلوا بتيار تجاري آخر كان يزود تلك البلاد بالرقيق الاوربي منذ عهد قديم . ذلك ان تجارة الرقيق كانت شائعة باوروبا قبل الاسلام ومن اسباب رواجها ان قبائل ((السلاف)) الروسيين نزلوا في اوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر ((الطونة)) « Don » ثم اخذوا من النزوح الى الجنوب الغربي نحو اواسط اوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعد ئذ بقبائل ((السلاف)) او ((السكلاف)) - SKLaves - ((والسرب)) - Serbes - و ((البوهيم)) - Bohême - و ((الدلمات)) « Dalmates » وغيرهم . وكان من عادات تلك العصور ان يبيع المتغلبون اسراهم بيع الرقيق وقد اضطرت تلك القبائل وهي نازحة ان تحارب الشعوب التي في طريقها مثل ((السكسون)) - saxons - و ((الهون)) « Huns » وغيرهم فباعت اسراها بيع الرقيق

---

1) ابن سلام - الأموال - ج 1 ص 106 - 121 - وج 2 - ص 124 - 134

فتألفت لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق ايطاليا وفرنسا واسبانيا الى افريقية ومنها الى الشام ومصر . فلما وقعت هذه البلاد في ايدي المسلمين صاروا على اتصال بهذا التيار التجاري (1) وقد لعبت ((البندقية)) دورا هاما في تصدير هذا الرقيق الى البلاد الواقعة على الضفة الجنوبية من البحر الابيض المتوسط خلال النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (2) . ولذلك نجد في بعض المصادر العربية (3) ذكرا لرقيق صقلبي منذ هذا العهد الا ان هذا الجنس من الرقيق لم ينتشر في بلاد الاسلام اذاك انتشاره في العصور الموالية عندما ستزدهر تجارة الرقيق الصقلبي على ايدي اليهود الرهادنة .

هذا كل من نجده من عمليات تزويد للرقيق عن طريق التجارة الخارجية في عهد الراشدين والامويين اي طيلة القرن الاول وبداية القرن الثاني للهجرة . لكن هذه الروافد التجارية التي كان

1) جورجي زيدان – تاريخ التمدن ج - 4 - ص 194 - 195

2) ارشيبالد لويس - A. Lewis - السيادة الاسلامية - ص 79 - 81

3) الاصفهاني – الاغاني – ج ص 228 (طبعة بيروت - 1955-1964)

بامكانها ان تكفي حاجة العرب الى الرقيق قبل الاسلام لم تكن لتكفي حاجتهم عندما نشأت الامبراطورية الاسلامية وتوسعت رقعتها وتضخمت هياكلها الاقتصادية والاجتماعية . فتغير الاوضاع الجغرافية والسياسية قد حتم تغيرا في المعاش وولد حاجات جديدة لم تكن موجودة من قبل . فكان لا بد من مصدر جديد للطاقة المنتجة والمحركة لدواليب المجتمع المختلفة ولا مناص من معين جديد يزود العالم الاسلامي بهذه المادة الضرورية لحياته وهي الرقيق .

لن يكون هذا المعين جلبا من الاسواق الخارجية اذ اقتصرت عملية الجلب على ما ذكرناه من استمرار تيار قديم اتصل به العرب مباشرة من سواحل افريقيا الشرقية او بطريقة غير مباشرة عن طريق الاقاليم الواقعة شمالي الجزيرة العربية والتي كانت خاضعة للدولة البيزنطية . ولكنه سيكون معينا من نوع آخر يتصل وثيق الاتصال بنشأة الامبراطورية الاسلامية وبظروف تكونها وامتدادها السياسي والعسكري ونعني به معين الفتوحات . فسيكون الغزو هو المزود الاساسي في هذا العصر بانواع الرقيق الناتجة عن عمليات الاسر والسبي لشعوب البلاد المفتوحة وسوف لن يحتل المصدر التجاري سوى مرتبة ثانوية بالقياس الى مصدر الجهاد الذي يحتل الصدارة .

4) الفتح الاسلامي وتجارة الرقيق

لقد كانت تجارة الرقيق منذ فجر الاسلام الى اواسط القرن الثاني للهجرة تقوم اساسا على رقيق الفتوحات . فالفتوح الاسلامية كانت على اشدها فى هذا العصر وكانت تمثل المصدر الرئيسي الذي يزود الاسواق الداخلية بهذه المادة التجارية . فقد كان الغزاة الفاتحون يعتبرون البلاد المفتوحة عنوة غنيمة من الغنائم فيأسرون الرجال ويسبون النساء والاطفال ويوزعونهم على الغانمين اقساطا بعد تخصيص الخمس من الغنيمة لبيت المال (1) وقد يباع ذلك السبي بعد انتهاء الفتح وتوزع اثمانه بنفس النسب المذكورة ثم يتناقل التجار هذه البضاعة عبر المدن والاقاليم الاسلامية . واذا علمنا ان هذه الفترة من الزمن قد شهدت اتساعا فى رقعة الفتح الاسلامي واشتدادا فى قوة المسلمين الحربية وغزوأ هم البقاع التي استقر بها الاسلام فى العصور الموالية اضحى من اليسير علينا ان نفهم ان هذه الاوضاع قد كانت كفيلة بسد حاجة المجتمع الاسلامي اذاك الى بضاعة الرقيق .

---

1) الماوردي ـ الاحكام السلطانية ـ ص 126 . 141

أ- انتشار الفتوحات

لقد اسفرت الفتوحات الاسلامية عن مجموعات غفيرة من الرقيق متنوعة الاجناس والجنسيات لان هذا العصر قد كان عهد ازدهار الفتح الاسلامي وقوة المسلمين الحربية في حين كانت الامم المجاورة والابراطوريات المتاخمة مهددة باسباب الضعف والانحلال . فوجد الغزو الاسلامي فرصا سانحة وعدة كافية وحافزا ايديولوجيا قويا لاحتلال ممتلكات البيزنطيين في الشرق والغرب وتحطيم الابراطورية الفارسية تحطيما كاملا . فنقد بدات عمليات الفتح في حياة الرسول (570م / 11 هـ / -632- م) مع غزوة تبوك (-9- هـ / 629 م) ودومة الجندل (-5-هـ / 626 م) وظهر التوسع في عهد الخليفة أبي بكر (11-13هـ / 632 - 634 م) فوجهت الضربة القاضية في وقعة القادسية الى الفرس ثم قبل موته بشهر فتحت فلسطين . وبعد تولي عمر بن الخطاب (- 13 - هـ / 634 م) بسنة فتحت سوريا بوقعة اليرموك (- 14- هـ / 635 - م) وفتحت القدس بعد ذلك بعامين . وبمجرد ضم سوريا استطاعت الجيوش الاسلامية بقيادة عمرو بن العاص ان تفتح مصر (-18- هـ / 639 م) ثم الاسكندرية (- 21 - هـ / 642 م)

وأمست الطريق مفتوحة امام غزو المغرب وإثر صراع طويل خضعت قرطاج لحسان سنة (79هـ/ 698 م) وتم ضم اسبانيا الى هذه الرقعة الممتدة من اواسط آسيا الى المحيط الاطلسي . وقد بلغت قوة المسلمين الحربية درجة امكنتهم معها تهديد عاصمة الامبراطورية البيزنطية نفسها فارتادوا آسيا الصغرى الى البوسفور عن طريق البر وتلقوا اسطولهم هناك عن طريق البحر وشددوا الحصار على بيزنطة في ايام قسطنطين الرابع (47 - 65هـ/ 668-685م) . (1)

فهذا العصر اذن هو عصر ازدهار الفتح الاسلامي بدون منازع وفيه حددت بصورة تكاد تكون نهائية رقعة العالم الاسلامي ولن تحدث في العصور الموالية سوى بعض الامتدادات الطفيفة والفتوحات القليلة الاهمية . فسوف تتكسر انطلاقة الفتح بعد هذا العهد وطي

---

1) فازيليف Vasiliev - العرب والروم - ص 9

وجه التحديد فى اواسط القرن الثاني للهجرة .(1) من البديهي اذن أن تتدفق على العالم الاسلامي انواج من الاسارى والسبايا من شتى انحاء البلاد المفتوحة ذات اجناس متنوعة بتنوع الاقاليم والبلدان والشعوب المنتمية اليها وطبيعي ان تجد الاسواق الاسلامية المادة الكافية والصالحة لنشاطها والقدرة على ترويج هذه البضاعة وتزويد المجتمع الاسلامي بما يحتاجه منها .

---

1) محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ـ ص 382

ب - الجهاد والاسترقاق.

واذا ما تأملنا في الاحكام المتعلقة بالجهاد والتي كانت نشأتها مواكبة اذاك لعمليات الفتح وخاصة منها ما يتصل بمعاملة الفاتحين للاسر والسبي لاحظنا انها تقر بشرعية استرقاق العدو وتجعل من الحرب مصدرا شرعيا للرق وفرصة سانحة امام الغانمين للحصول على ملك اليمين. فالامام مخير في الاسرى بين قتلهم او فدائهم او المنّ عليهم او استرقاقهم لان كل هذه التصرفات قد صدرت عن الرسول ونص عليها القرآن وليس له ان يخضع في اختياره لاحد هذه المواقف الا لمصلحة المسلمين الراهنة (1).

فما هي مصلحة المسلمين اذاك ؟ انه من الطبيعي ان تتغير المصالح فما كان من باب المصلحة في حياة الرسول ليس من الضروري ان يكون من بابها بعد حياته . وبالرغم من المحافظة على احكام الاسر المذكورة حدث اجتهاد على صعيد التطبيق فرضه الواقع الاسلامي الجديد . فالرسول كان يحارب العرب واليهود خاصة وكان يريد توحيد امة والقضاء على الخلاف ولذلك

---

2) ابن سلام الاموال ج 1ص 106. وما بعدها

نراه يغلب سياسة القتل والفداء والمنّ على سياسة الاسترقاق فقتل بعض زعماء العرب وكثيرا من اليهود وفدى اسرى بدر بالمال والرجال ومنّ على سبي هوازن وسبي بني المصطلق وسبي حنين وقلما استرق (1) لان المصلحة كانت تقتضي تأليف القلوب والتمكين للدعوة في النفوس وقد تغير الامر في عهد الخلفاء بتغير المصلحة وتغير الواقع وظهر اتجاه نحو تغليب سياسة الاسترقاق على غيرها من اساليب القتل والمن والفداء.

فبالنسبة الى القتل مثلا لم يكن الامام يلجأ اليه الا غرارا ولم يكن ينفذه الا في بعض الافراد الذين اشتهروا بخطرهم وعدائهم للاسلام واقتضت المصلحة ان يقتلوا نكاية في العدو وارهابا له (2) وكان الغزاة يفضلون الاحتفاظ باسراهم في الغالب على قتلهم والمتتبع لسيرة الخلفاء يلاحظ انهم لم يشتغلوا بابادة المجموعات ولم يأمروا الا بقتل بعض الاسرى الذين اشتدت مناوءتهم للعرب (3) وقد كان بامكان الاسير ايضا

1) بلاذري ــ فتوح البلدان ص 34 . 70
ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ــ ج 2ص 11 . 27
الطبري ــ جامع البيان ـ ج 14 ص 58 . 77
وات. Watt - محمد في المدينة Mahomet à Medine - ص 356 - 360
باشميل - غزوة بدر الكبرى ص 223 . 247

2) وهبة زحيلي - آثار الحرب - ص 430 - 445
3) ابن سلام ـ الاموال ـ ج 2 ص 124 . 134

ان يعصم دمه باسلامه (1) واذا ما كان للمن على الاسير معنى في عصر الرسول بسبب محاربته لبني جنسه من العرب ورغبته في توحيد القلوب وصلة الارحام فان المسلمين في حربهم للعجم لم يروا فيه دائما وجها من وجوه المصلحة اذ فيه تقوية لصف العدو وقلما نراهم يمنون على قائد او امير لمنعته في قومه وليس من باب الصدف ان ظهرت احكام في هذا العصر تميز بين العرب والعجم وتعفي العرب من الرق وذلك منذ عهد الخليفة عمر (2) فقد ظهر اذن واقع جديد حتم سياسة جديدة. فلم يعد هنالك منّ على مجموعات من الاسرى كما كان يفعل في عصر الدعوة بل انه ليروى عن عمر انه كان لا يعدو القتل او البيع في معاملته لاسرى العجم كما يروى عن ابن العاص انه قال في قبط مصر ((ان شئت قتلت وان شئت بعت وان شئت خمست)) فكانه طرح من اعتباره سياسة المن او الفداء وحصر الامر في القتل او الاسترقاق (3).

---

1) المصدر نفسه ج 2 ص 140. 142

2) ابن سلام - الاموال ج 2 ص 124 ومابعدها - وهبة زحيلي - ص 441 - آثار الحرب - ص 404-406

3) ابن سلام - الاموال ح 2 ص 128. 142

اما سياسة الفداء فقد كانت على ضربين : فداء بالمال وآخر بالرجال (1) ووجه المصلحة فيه ان يكون المسلمون في حاجة الى المال او الى مبادل الاسرى لانقاذ المسلمين من قبضة العدو ولم يكن المسلمون في هذا العهد في حاجة ماسة الى هذه السياسة لان موقفهم كان اذاك موقف قوة وكانت انتصاراتهم متتالية فلم تقع بين ايدي اعدائهم جماعات كثيرة من رجالهم بينما حصلوا على مجموعات غفيرة من اسارى العدو ولهذا السبب لانلاحظ لديهم اهتماما بالافدية كالتي حدث في العصور الموالية (2).

لم يبق اذن امام الامام الا تغليب سياسة الاسترقاق لا سيما ان اسلام الاسير لم يكن ليعصمه من الرق كما كان يعصمه من القتل (3) وقد كانت مصلحة الامة فضلا عن ذلك تقتضي الاحتفاظ بالاسرى في شكل رقيق يوزع على الغانمين يستعين به المسلمون في مجابهة شؤونهم الحربية والاقتصادية والاجتماعية وليقووا به على عدوهم .

---

1) الماوردي - الاحكام السلطانية - ص 126 - 141

2) المسعودي - التنبيه والاشراف - تقديم دي ساسي De Sacy - ذيل مروج الذهب ج 9 ص 356 - 362

3) ابن سلام - الاموال ج 2 ص 124 . 142

الماوردي - الاحكام السلطانية ص 126 . 141

وقد كان السبي المتكون من النساء والاطفال اكثر تعرضا للاسترقاق من الاسرى اذ يتفق الفقهاء على عدم جواز القتل فيه لان الرسول نهى عن قتل النسوة والصبيان (1) ويرى الشافعية ان من قتلهم ضمن قيمتهم لانهم بمثابة المتاع الذي صار للغانمين حق فيه بمشاركتهم في القتال . ولم يوافق الحنفية على قتله حتى عند اشتراكه في الحرب (2) وقد ضيق الفقهاء من نطاق المن على السبي فبينما يجيزه المالكية في بعض الحالات نرى الحنابلة والشافعية يشترطون فيه استطابة نفوس الغانمين بالمال وتمنعه الحنفية منعا باتا حتى لا ينقلب ذلك السبي حربا على المسلمين بعد ذلك . واذا ما جوز المالكية والشافعية فداء السبي فان الحنابلة والحنفية قد منعوه بصورة قطعية (3) هذا بالاضافة الى ما سبق ان قلناه بخصوص الاسرى من ان المسلمين كانوا في موقف قوة ولم ينظموا في هذا العصر عمليات فداء واسعة

---

1) الماوردي - الاحكام السلطانية - ص 126 . 141
2) وهبه زحيلي - آثار الحرب - ص 440 - ومابعدها
3) المرجع نفسه

النطاق فالاقبال كل الاقبال كان على استرقاق السبي لان مصلحة المسلمين كانت تحتمه (1) فالنساء بتوالدهن والصبيان ببلوغهم يشكلون خطرا على الاسلام اذا ارجعوا الى دار الحرب كما ان استرقاقهم يعتبر تعزيزا لصف المسلمين وتلبية لرغبة الغانمين في التمتع بما افاء الله عليهم وسد لحاجة المجتمع الى مادة الرقيق الضرورية لتوازنه .

ح - سلوك الغزاة

واذا ما تتبعنا سلوك الفاتحين مع الامم المغلوبة طوال الخلافة الراشدية ودولة بين امية لا حظنا ان الامويين قد كانوا اكثر استرقاقا في فتوحاتهم من الغزاة في صدر الاسلام اذ كانت العادة الغالبة ان لا يسترق الفاتحون الا من حاربهم واسروه وهم في الاغلب من الجند والحامية من الروم والفرس وغيرهم وكان اهل البلاد من العوام يعتبرون مظلومين وكان من بينهم رقيق يعمل في الارض وينتقل

1) الماوردي – الاحكام السلطانية – ص 126 . 141

معهـا من ملك الى ملك الى ان جاء الفتح فمن اسلم منهم وقع تحريره ومن احتفظ بدينه صار ذمة . فكان الفاتحون الذين يسترقون الاحرار من الجند في الغالب لكن بني امية ولا سيما بعض امرائهم كانوا يرون استعباد اهل البلاد المفتوحة عنوة (1)

والملاحظ ان الفداء كان قليلا في عهد الامويين فقد كانوا يفتدون النفر بعد النفر في سواحل الشام والاسكندرية وملطية وسائر الثغور ولم يكن بينهم وبين الروم فداء منظم (2) ولعل السر في ذلك ان الاسرى المسلمين كانوا افرادا قلائل بالقياس الى ما كان الفاتحون يسبون من عدوهم كما ان المسلمين كانوا هم المهاجمون في الغالب وكانت لهم اليد العليا في هذه الحلبة وكان من واجب الامام فداء اسرى المسلمين بالمال والرجال فلو كان هؤلاء الاسرى كثيرين لوقع تنظيم لفداء في هذا العهد (3) اما اسرى الروم فقد كانوا كثيرين وهم الذين

1) جرجي زيدان-تاريخ التمدن الاسلامي ج 3ص 22 . 23
2) للسعودي -التنبيه والاشراف - تقديم دي ساسي De Sacy - ذيل مروج الذهب -ج 9 ص356-362
3) ابن سلام الاموال ج 2 ص142 وما بعدها

كانوا يشكلون جزءا من مادة الرقيق المنتشرة في العالم الاسلامي . وهي مادة بقيت متوفرة اذ لم يقع استنزافها بعملية الفداء فلم يكن المسلمون في عهد قوتهم العسكرية في حاجة الى هذه العملية الا في اوقات قليلة . اما الطرف المقابل اي الروم فلم يكن امامهم الا ان يفدوا اسراهم بالمال اذ ليس لهم اسرى كثيرون يمكنهم استعمالهم في التبادل فهل اقدموا على هذا الفداء بالمال وهل قبله المسلمون أم رفضوه ؟ ان المسلمين كانوا يفضلون الاحتفاظ بهذا الرقيق على استبداله بالاموال فكثيرا ما كانوا يأبون المال بدل الاسرى ولنا مثال على ذلك في الدولة الفاطمية اذ لم يعرف عنها انها فادت اسيرا من الافرنج بمال (1) كما ان الروم لم يكونوا متحمسين لهذا النوع من الفداء خصوصا ان الاسرى والسبي كانوا لفيفا في الغالب مؤلفا من الرعايا او الغرباء المأجورين وليسوا من الروم انفسهم فاذا تعلق الامر بتبادل الاسرى بالاسرى فعلوا اما الاموال فلم يستعملوها الا لفداء بعض الافراد من وجوه اسراهم هذه العوامل كلها تعتبر من جملة البواعث على ازدياد كميات الرقيق بالبلاد الاسلامية في هذه الفترة من الزمن (2)

1) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 25.28
2) المرجع نفسه.

ولم يقتصر الامر في تزويد الاسواق الاسلامية بالرقيق على ما يؤسر ويسبى خلال الحروب وعلى ما ينتزع بقوة السلاح وعنف العداء وانما ظهرت صيغة جديدة صاحبة لعقود الصلح التي ابرمها الفاتحون مع حكام البلاد المعادية .
وهي صيغة سلمية تتمثل في دفع ضريبة من الرقيق في شكل جزية او خراج (1) وتدل على ان المسلمين قد جنحوا الى هذه الصيغة لحاجاتهم المتزايدة الى الرقيق ولانها توفر لهم ما يريدون دون ان يتكبدوا خسارة في الانفس والاموال . وبذلك تصبح هذه العطية قريبة من العطيات التجارية وارهاصا لما سيظهر في العهود الموالية من نشاط في حركة توريد الرقيق وجلبه من الاصقاع الاجنبية (2).

وقد توخى المسلمون هذا الاسلوب في مناطق من دار الحرب مثل تركستان وشمال افريقيا والنوبة وارمينية (3) ولم يبالوا بتناقضها مع تعاليم الشريعة المتعلقة بمفهومي الجزية والخراج ولعل في تجاوزهم لهذه الحدود الشرعية ما يدل على وجود ضغوط

---

1) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 44 - 46

2) برنشفيك Brunschvig مقال عبد ـ دائرة المعارف الاسلامية ج اص 33

3) بلاذري ـ فتوح البلدان ص 209-210 وص 225-227 وص 237-239

اجتماعية واقتصادية جعلت حاجاتهم الى هذه البضاعة الآدمية في تزايد مستمر وعلى ان الفتوحات لم يكن بامكانها ان تشكل مصدارا قارا لهذه البضاعة خصوصا اذا علمنا ان انطلاقة الفتح قد بدأ يدركها الفتور والتقلص منذ اواسط القرن الاول للهجرة .

د- توفر مادة الرقيق

ليس غريبا اذن ان يصبح الاسر خلال الفتوحات اكبر مصدر للرقيق في هذا العصر فقد خول الفتح للمسلمين الحصول على مجموعات وفيرة من هذه المادة التجارية لانهم كانوا اذا غلبوا جندا او فتحوا بلدا اسروا الرجال و سبوا النساء والاطفال واقتسموا الاسرى والسبي فربما زاد عددهم في المعركة الواحدة على عشرات الالوف (1) فتختم اعناقهم ويقسمون على الاسهم فيكون في سهم الفارس من المقاتلة مائة اسير او جارية في المعركة الواحدة فيحصل عند بعضهم بتوالي الوقائع الف عبد او اكثر (2) وقد يقضي الفاتحون عدة اشهر في بيع ما بايديهم من الرقيق اثر فراغهم من المعارك (3) وقد اثرت هذه الوفرة احيانا في اثمان

1) جرجي زيدان – تاريخ التمدن الاسلامي – ج 4 ص 44
2) ابن الاثير – الكامل ج 4 ص 147
3) المقري – نفح الطيب ج 1 ص 213

تلك البضاعة فروي ان الاسير قد بيع بدرهم وبيع السيف بنصف درهم في احدى الوقائع (4).

وقد تكاثر الرقيق منذ عهد الخلافة الراشدية اي منذ بداية عصر الفتوحات الاسلامية وقد امتلك الخلفاء الراشدون انفسهم اعدادا وفيرة منه حتى روي ان الخليفة عثمان قد كان عنده الف عبد (2). وبما ان عملية الاحصاء تعتبر في هذا الباب ضربا من المحال فالمعتقد صورة. عن كثرة الرقيق ببعض الاقاليم الاسلامية في هذا العصر. فقد ذكر الطبري ان بالكوفة قبيل موقعة صفين (- 37 - هـ/ - 658 - م) خمسة وسبعون الف 57,000 من المماليك وثمانية آلاف من الموالي وقد اشتركوا جميعا في تلك الموقعة (3) فهم يبلغون حوالى ثمن 8/1 سكان تلك المدينة اذاك. وقد كانت هذه النسبة موجودة بمدينة البصرة ايضا (4) ومن الأدلة على كثرة الموالي والعبيد من عهد بني امية ان عددهم في جند المختار بن ابي عبيد

1) المصدر نفسه ج 1 ص 209
2) الدميري ـ حياة الحيوان الكبرى ج 1 ص 49
3) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج 6 ص 83 (ط - مصر - 1326هـ)
4) ابن الاثير ـ الكامل ج 4 ص 121 زيدان -
تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 87

الذي قام بالعراق للمطالبة بدم الحسين وبالخلافة لمحمد بن الحنفية سنة (66هـ/-685م) قد كان اكثر من عدد الاحرار فقد بلغ عدد قتلاهم سنة (67هـ/-686م) ستة الاف ليس فيهم من الاحرار سوى سبعمائة 700 (1) وهنالك دلائل اخرى على وفرة هذا الرقيق نستنتجها من بعض احكام الفقهاء في تلك الفترة فهم يؤكدون على ان يكون لكل عائلة خادم فيخولون للمطلقة ان تطلب من زوجها خادما ايام العدة (2) ونحن لا نشك في ان بعض العائلات الفقيرة لم يكن بوسعها اتخاذ خادم للقيام بشؤونها لكننا واثقون من ان العائلات الغنية كانت تستخدم اكثر من خادم واحد . فالمهم هو توفر هذه البضاعة الآدمية بقطع النظر عن كيفية توزيعها . فمما يروى عن عبد الله الاصفهاني مثلا انه كان يملك اربعمائة 400 عبد حاربوا معه الحجاج (3) . فهذه الارقام تدل كلها على وفرة الرقيق بالرغم من انها لم تشمل العبيد المستخدمين خارج المدن اي في اراضي الفلح والزراعة .

---

1) ابن الاثير – الكامل – ج 4 ص 121 – زيدان – تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 87

2) فنسنك – Wensinck – مفتاح كنوز السنة ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي – مادة ((خادم))

3) البلاذري – فتوح البلدان ص 367 – انساب الاشراف – ج 5 ص 136 ابن الاثير – الكامل ج 3 ص 173 – زيدان تاريخ التمدن الاسلامي – ج 4 ص 87

وقد استخدم المسلمون فى هذا العصر رقيقهم في توسيع نطاق الجيوش واعداد الحملات الضرورية لمواصلة الفتح ووجدوا فيه خير اداة لمواجهة حاجاتهم العسكرية فلم يكونوا يسهمون لهم بعد الحرب وانما كانوا يرضخون لهم اي يعطونهم اجرا (1) فمنذ ايام الخليفة علي بن أبي طالب (34 - 39هـ / 655 - 660م) كانت نسبة الموالي والعبيد الى الاحرار في الجند كنسبة واحد الى خمسة كما استخدموا فريقا منهم فى اشغال التعمير كحفر الترع والقنوات وتشييد الأبنية العامة او فى شؤون اجتماعية كالخدمة فى البيوت والاشتغال بالمهن والحرف خصوصا ان العرب فى هذا العصر كانوا يترفعون عن هذه الاهتمامات واشباهها من الاعمال اليدوية ويميلون الى التفرغ لاعمال الفكر والسياسة والحرب وكانوا يكلون شؤونهم الصناعية والتجارية لهؤلاء الرقيق لانها فى نظرهم خليقة بمنزلتهم (2).

---

1) **العلي - التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة - ص 72**

2) المرجع نفسه

5) اجناس رقيق الفتح

هكذا تجمعت اصناف شتى من الرقيق من فارسي ورومي وبربري وقبطي وديلمي وهندي وافرنجي ونوبي وتركي وقوطي الى غير ذلك من الاجناس التى اسرها الفاتحون والقوابها الى الاسواق الاسلامية الداخلية" (1) وبامكاننا ان نقدم صورة عن اهم هذه الاجناس التى وقعت بين ايدي الفاتحين الغزاة وكونت المادة التجارية الاساسية فى هذه الفترة من الزمن .

أ- الرقيق الفارسي

ان من اهم انواع الرقيق التى تداولتها الاسواق الاسلامية واغزرها عددا اذان الرقيق الفارسي فنحن نعتقد ان هذا النوع قد كان اكثر الاصناف رواجا خصوصا فى القرن الأول للهجرة وانه كان يكون طبقة اجتماعية ذات وزن كبير فى نطاق المجتمع الاسلامي .
وبالرغم من ان عطيات الاحصاء تتعذر فى هذا المجال يجوز لنا ان نقول ان ما حصل بين ايدي الغزاة من رقيق فارسي قد كان اضعاف

1) جرجي زيدان – تاريخ التمدن الاسلامي ج 4ص87

ما حصلوا عليه من الرقيق الرومي او المنتمي الى الولايات البيزنطية المفتوحة . ومما يبرر قولنا هذا ما نعرفه من ان الحروب بالعراق وفارس قد كانت اشد ضراوة ودواما منها بسوريا و مصر ثم ان احتلال العرب الكامل للامبراطورية الفارسية وزوال تلك الامبراطورية قد الغى امكانية فداء اسراها بينما تمكن الروم بفضل بقاء الامبراطورية البيزنطية من فداء اسراهم كلما اتيحت لهم فرصة الفداء (1).

فالموالي الذين اشتهر امرهم بالعراق قد كانوا يمثلون طبقة اجتماعية باسرها وكان الكثير منهم رقيقا فى بداية الامر اعتقوا فصاروا موالي وان كان بعضهم الاخر خاضعا لولاء الموالاة الخاص بالاحرار . وعلى كل فان هذه الفئات الكبيرة التى اشتهرت خاصة فى اواخر القرن الاول وكامل القرن الثاني للهجرة واحدثت رجّات وانقلابات فى صلب الحياة الاجتماعية ورفعت لواء الشعوبية وناوأت الحكم الاموي ورفعت شعار آل البيت قد كانت قبل ذلك فى شكل رقيق وكانت تمثل عبيد العراق في ظل بني امية طليه القرن الاول للهجرة (2)

---

1) كلود كاهان Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية ص 176

2) المرجع نفسه : ص 176

ويلاحظ المتتبع لاخبار الفتح ان المسلمين قد تمكنوا من استرقاق حاميات المدن الفارسية كحاميات ((ميسان)) و ((تستر)) و ((مناذر)) و ((السوس)) و ((سجستان)) واستطاعوا ان يغنموا من ((سجستان)) وحدها اربعين الف راس . 40.000 من الرقيق وذلك في حملات الربيع بن زياد الحارثي التي استغرقت ثلاثين شهرا . وفرض المسلمون فضلا عن هذا الغنم الف عبد تدفعها ((سجستان)) سنويا مع الجزية (1) وقد فتحت مدن اخرى عنوة مثل ((سوق الاهواز)) و ((رامهرمز)) و ((الشيبان)) و ((سابور)) و ((اصطخر)) و ((ارد شير خره)) و ((جيرفت)) وهي مدن لا نملك اخبارا عن حامياتها المقهورة ولكننا نعلم مايستتبعه الفتح عنوة من اسر وسبي (2) هذا بالاضافة الى ما أحرزه الفاتحون من رقيق كان ملكا للاسياد الساسانيين انفسهم فلما تقهقروا امام هجمة الغزاة تركوا عبيدهم غنيمة للغالب (3) .

---

1) البلاذري – فتوح البلدان – ص 370 وما بعدها
2) المصدر نفسه .
3) العلي – التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة – ص ٦٤

ب - الرقيق الرومي

اما الرقيق الرومي فقد انتجته فتوح الشام وفلسطين ومصر و سائر البلاد التي كانت خاضعة للسلطة البيزنطية . فمنذ وقعة تبوك (9 هـ / 629 م) في عهد الرسول ووقعة اليرموك (15 هـ / 636 م) في عهد عمر بن الخطاب (13 - 23 هـ / 634 - 644 م) كان المسلمون يأسرون الحاميات الرومية ويسترقون افرادها فيقعون في المقاسم ويباعون بالاسواق . وبالرغم من ان هذا النوع من الرقيق كان فيما يبدو اذاك دون الرقيق الفارسي كثرة لان عملية الفداء كانت ممكنة ولان العديد من المدن الخاضعة للروم قد فتحها المسلمون صلحا مثل مدن الشام ومصر (1) فان هذا الرقيق قد توفر وتزودت به الاسواق الاسلامية .

---

1) البلاذري - فتوح البلدان - ص 115 - 143 وص 215 - 223 ابن الاثير - الكامل ج 2 ص 279

ومن اشهر الامثلة على ما انتجه الفتح من رقيق رومي ما يروى من ان معاوية (35 - 54 هـ / 661 - 680 م) قد ارسل اربعة آلاف راس من سبي قيسارية بارض فلسطين الى عمر بن الخطاب وكانت قيسارية قد فتحت عنوة بعد حصار دام سبع سنوات ذلك سنة (19 هـ/ - 640 م) (1). وكما اسفرت فتوح المشرق عن رقيق رومي اسفرت فتوح المغرب عن هذا النوع من الرقيق لان الهيمنة البيزنطية كانت ممتدة الاطراف على سواحل البحر الابيض المتوسط شرقيه وغربيه . فقد واجه المسلمون الروم في شتى مستعمراتهم بشمال افريقيا والاندلس وجنوب ايطاليا كما واجهوهم في مستعمراتهم بآسيا فحصل بين ايديهم نتيجة لتلك المواجهة المستمرة رقيق رومي زود الاسواق الاسلامية في هذا العصر .

---

1) البلاذري - فتوح البلدان - ص 147 - 148

ج - الرقيق التركي

وقد وفرت فتوح بلاد ما وراء النهر اعدادا من الرقيق التركي للاسواق الاسلامية .
ولم يكن للعرب معرفة مباشرة بالترك قبل زمن الفتح لبلادهم في خلافة عمر بن الخطاب (13 - 23 هـ/ 634-644م) فقد عرفوا - كما راينا - انواعا من الرقيق قبل الاسلام من فرس وروم وحبش الا انهم لم يتصلوا بهذا الجنس الا بعد الاسلام وابان تجاوز الغزو حدود خرسان فى زمن الخليفة عمر على انه من المفروض ان يكون المسلمون قد اتصلوا ببعض الاتراك عن طريق فتحهم للامبراطورية الفارسية فعرفوا الترك عن طريق الفرس وصادفوا عند بني ساسان شيئا من رقيق ما وراء النهر بسبب ما كان بين الاتراك والفرس من صدام فى بعض الاحيان . وهذا الجاحظ يحدثنا عن غلمان الاتراك ومنزلتهم عند ملوك الفرس فيقول .

((ان ابرويز انفذ رسولا بهدية لم يسمع السامعون بمثلها الى ملك الروم بعقب محاربة ((بهرام جوبين)) يستنجده . وبعث اليه مائة غلام من ابناء الاتراك مختارين من صوهم فى آذانهم اقراط الذهب معلق فيها حب الدر على مراكب بسروج الذهب منظمة باليواقيت والزمرد . ووصل رسل ابرويز الى ملك الروم بهذه الهدية فانجده وارسل اليه عشرين الف فارس بالسلاح وبعث اليه بالفي الف دينار لارزاق جنده والف ثوب منسوج وعشرين جارية من بنات ملوك الصقالبة باقبية الديباج المطير فى آذانهم اقراط الذهب المزينة بالدر والياقوت وعلى رؤوسهن اكلة الجوهر)) (1) .

وتذكر الروايات العربية ان سمية ام عمار بن ياسر تركية الاصل وقعت فى الاسر خلال الحروب التى دارت بين الترك والفرس ثم ادت بها التنقلات الى الطائف (2) كما يروي صاحب

1) الجاحظ - المحاسن والاضداد - ص 369

2) بلاذري - انساب الاشراف - ج 1 ص 489

الذخائر والتحف ان الفاتحين قد ظفروا عند فتحهم لبعض مدائن فارس بسيف ((خاقان)) ودرعه فارسلوهما الى الخليفة عمر (1). فلا شك اذن في ان فتح المسلمين لفارس قد جلب لهم في الغنائم رقيقا تركيا . وان المسلمون قد احرزوا منذ اوائل الخلافة الراشدة شيئا من رقيق الترك وان قليلا وكانوا اذا ظفروا به اهدوه الى اكابر رجال الدولة لندرته ونفاسته .

كان للعرب اذن اتصال اولي وغير مباشر بهذا الجنس وسمعوا عنه الكثير عن طريق العنصر الفارسي المجاور لاقاليم التركستان ولعل الفكرة الاساسية التي رسخت في عقول القادة العرب منذ ذلك الوقت المبكر هي قوة بأس الاتراك وشدتهم.وعلى ضوء هذه الفكرة يمكننا ان نفهم احتراز الخليفة عمر من عبور نهر جيحون وتقدم الفتوح في بلاد الاتراك (2) . الا انه لا يمكننا

---

1) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 159

2) الطبري - تاريخ الامم والملوك ج - 4 - ص ١٦٤ (ط . المطبعة الحسينية - مصر)

الجاحظ - فضائل الاتراك - الرسائل ج 1 ص 53

الحديث عن مصدر قار للرقيق التركي كفيل بتزويد الاسواق الاسلامية الا ابتداءا من عبور الغزاة لنهر جيحون انطلاقا من اقليم خراسان في ظل خلافة عثمان بن عفان (٢٣-٣٤هـ 644-655م) سنة (22هـ/ 642م) ومنذ ذلك التاريخ بدأ فتح بلاد الاتراك وطالت مدته بسبب ما عرف به اهل تلك الاقاليم من شدة بأس وقوة مراس في الحرب فلم يتمكن المسلمون من التغلغل في بلادهم الا بعد فترة طويلة من الزمن كانت الحروب فيها بين مد وجزر وكان الفتح خلالها على مراحل متعاقبة . وقد اسفرت تلك المصادمات المتوالية عبر القرن الاول وبداية القرن الثاني للهجرة عن مقادير وفيرة من الرقيق التركي شكلت رصيدا هاما قامت على اساسه المعاملات التجارية بعد ذلك وسدت حاجة المجتمع الاسلامي في ذلك العصر الى هذه المادة الاساسية .

واذا ما تأملنا في مراحل هذه الفتوحات تبينا وفرة ما كانت تدره على الفاتحين من غنائم واسرى

وسهي شراء هذا المعين ببضاعه الرقيق .

ففي المرحلة الاولى تمكن الاحنف بن قيس من عبور نهر جيحون في عهد عثمان (23 - 34 هـ/644-655م) ومن فتح عدة مناطق صلحا مرة وعنوة اخرى وامر عليها قيس بن الهيثم (1) وأثر ركود الفتح بسبب الفتنة المندلعة بعد مقتل عثمان بدات المرحلة الثانية على يد معاوية (41 - 61 هـ/661-680م) وابنه يزيد (61-64هـ/680-683م) وكان ولاة خراسان هم المطلعون بعمليات الغزو لصاقتهم ولايتهم لدار الحرب . فقام اولئك الولاة مثل عبد الله بن زياد وسعيد بن عثمان ابن عفان بدور هام في هذا الفتح وتمكنوا من فتح سمرقند . اما المرحلة الثالثة فقد انجزت على يد الحجاج الذي ولى قتيبة ابن مسلم الباهلي خراسان سنة (86هـ/ -705 م) وكلفه بمهمة الفتح وكان ذلك زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (86 هـ/ 705م - 97 هـ/ -715 م) اكبر الفاتحين (2)

---

1) بلاذري - فتوح البلدان ص575

2) زكريا كتابجي - الترك في مؤلفات الجاحظ - ص 54 . 74

بعد الخلفاء الراشدين ثم تواصل الفتح في زمن سليمان بن عبد الملك (97 - 99 هـ/715-717م) وهشام بن عبد الملك (105 - 125 هـ/ 724-743 م) الى ان توقف سنة 125 هـ بظهور الثورة العباسية هكذا كان فتح ما وراء النهر على مراحل شأنه فى ذلك شأن فتوح افريقية والمغرب لتشابه في الاسباب. فبالاضافة الى ما احدثته الفتنة من تأخير لموعد الغزو كان هناك تشابه بين البربر والترك فى مقاومة الغزاة وفي ضراوة النزال كما كانت تلك الضراوة والقسوة سببا في تكاثر الأسرى والسبي من الاتراك والبربر.

وما كانا ان نقدم صورة مختصرة عن مقادير الرقيق التي دخلت بلاد الاسلام من جراء غزو ما وراء النهر وليس غرضنا منها الاحصاء لانه متعذر ولكننا نكتفي بالامثلة المشهورة للدلالة على غزارة الرقيق التركي في هذه الفترة من الزمن فمما يروى مثلا عن سعيد بن عثمان والي خراسان في عهد معاوية انه عبر نهر جيحون سنة (54 - 55 هـ / 674 - 675 م) وصالح

ملكة بخارى على ان تخلي له طريق سمرقند واخذ منها ثلاثين غلاما من ابناء الملوك رهائن على الوفاء فسهلت له الطريق ومضى الى سمرقند وسبى ثلاثين الف راس 30.000 ثم رجع الى بخارى فطلبت منه الملكة ارجاع الرهائن فما طلها الى ان عبر النهر ولم يردهم عليها ومضى الى المدينة فجعل من اولئك الرهائن فلاحين في نخل وحرث بها (1).

ومما يروى عن قتيبة بن مسلم انه حاصر مدينة بخارى اربعة اشهر ثم فتحها وسبى منها خمسين الف راس 50.000 (2) وكان ذلك سنة (90هـ/ - 708 م) كما سبى الكثير في فتحه لبيكند ومدن اقليم خوارزم الاخرى. ثم انتقل الى اقليم الصغد فحاصر سمرقند ثم صالحها على ان يعطي اهلها فى تلك السنة ثلاثين الف راس 30.000 ثم ذهب الى الشاش (طشقند اليوم) وفتحها سنة (95 هـ/ 713 م) ولما مات الحجاج فى تلك

1) البلاذري - فتوح البلدان ص 579 - ابن حبيب - اسماء المغتالين - نوادر المخطوطات ج 2 ص 166

2) ياقوت - معجم البلدان ج 3 ص 356

السنة لم يبال بموته هجم على اقليم فرغانة بجوار الصين (1) وقد بلغ ظلم ولاة بني امية حدا صاروا معه يغزون البلاد التي فتحت صلحا فيلغون صلحها ويعيدون فتحها عنوة طمعا في الغنيمة مثلما حدث لسمرقند التي صالح أهلها سعيد بن عثمان على مال يؤدونه الى الخليفة ثم جاء قتيبة ففتح بلادهم قهرا ولذلك نراهم يشكون لعمر بن عبد العزيز (99 - ١٠٢ هـ/ 717 - 720 م) هذا التصرف عندما لاحظوا عدله فارجع بلادهم الى الصلح (2).

وقد كثر سبي الغزاة في بلاد الاتراك على يد يزيد بن المهلب فبلغت مقاديره ارقاما ضخمة تعد بالالاف وقد كان فتحه لجرجان سببا في تدفق افواج الرقيق على بلاد الاسلام وقد كان يزيد هذا ينافس قتيبة في فتوحاته ويغار منه إذا امتدحه الخليفة

1) شكري فيصل - حركة الفتح الاسلامي - ص 169

2) الطبري - تاريخ الامم والملوك ج 8 - ص 134 - 138 (ط. المطبعة الحسينية - مصر)

سليمان بن عبد الملك (97 - 99 هـ / 715 - 717 م) بحضرته فكان يجيب الخليفة دائما بان الفتح الكبير هو فتح جرجان (1) فلما اضطلع يزيد بغزو هذه المنطقة أظهر من الاستبسال جانبا كبيرا واوسع في الترك قتلا وسبيا وكان عدد اسراه اثني عشر الفا 12.000 حسب قول ابن الاثير - يقول صاحب كتاب الكامل واصفا هذا الفتح ((لما صالح يزيد اصبهبد طبرستان سار الى جرجان وعاهد الله تعالى لئن ظفر بهم لا يرفع السيف حتى يطحن بدمائهم ويأكل من ذلك الطحين فاتاها وحصر اهلها ... فانقطعوا جميعا الى حصنهم وركبهم المسلمون فاعطوا بايديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم وصلبهم فرسخين الى يمين الطريق ويساره وقاد منهم اثني عشر الفا الى وادي جرجان وقال من طلبهم بثأر فليقتل ...))(2).. وقد تمكن يزيد هذا عند توليه لخراسان من ان يفتح حصن قهستان

---

1) ابن الاثير - الكامل - ج 5 ص 11

2) المصدر نفسه - ج 5 ص 14

سنة (98هـ/ -716- م) وهي نفس السنة التي غزا فيها جرجان واحرز من السبي كميات كبيرة ايضا (1).

تلك صورة موجزة عما وفرته الفتوحات من الرقيق التركي وما من شك في ان المسلمين قد وجدوا فيه تلبية لحاجاتهم الاجتماعية والاقتصادية والحربية فنحن نجد الرقيق التركي في الجيش الاسلامي منذ عهد معاوية . فقد اتخذهم سعيد بن عثمان في جيشه بعد فتحه لسمرقند (2) كما لا يستبعد ان يكون قتيبة بن مسلم قد جند بعضهم اذ لم يكن بجيشه من الاعاجم بعد فتح بخارى سوى 7.000 من الديلم على 47.000 من العرب (3) واذا ما سلمنا بما رواه الطبري من ان قتيبة قد طلب من اهالي بخارى ان يمدوه بجنود من الجيوش المحلية ادركنا حاجته الى تدعيم جيشه ورجحنا اعتماده على ما حصل بين يديه من رقيق تركي (4) وقد ذكر ياقوت في معجمه ان ولاة الامويين كانوا ينقلون العبيد الاتراك الى سكة بالبصرة

---

1) المصدر نفسه ج 5 ص 12
2) حسن ابراهيم حسن – تاريخ الاسلام ج 1 ص 301
3) المرجع نفسه
4) الطبري – تاريخ الامم والملوك ج - 8 - ص 67 وما بعدها (ط المطبعة الحسينية - مصر)

تدعى البخارية نسبة الى مدينة بخارى التي نقلوا منها . وكانوا يتدربون هناك على حمل السلاح وفن القتال وكانوا يجيدون الرمي بالنشاب (1) كما اتخذ الخلفاء الامويون حرسا خاصا من هذا الرقيق في قصورهم منذ عهد عبد الملك بن مروان (65هـ/ - 685م) (86هـ/ -705- م) الذي كان يستعملهم في قمع بعض الثورات كالتي قام بها الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي ويروي ابن كثير انه كان من بين هذا الحرس التركي فرقة من اهل فرغانة (2) كما سد هذا النوع من الرقيق حاجات اخرى في المجتمع الاسلامي آنذاك وقد سبق ان اشرنا الى ان سعيد بن عثمان قد استعمل غلمانا اتراكا في فلاحة نخل وحرث بالمدينة (3).

1) ياقوت.معجم البلدان ج 3ص 356 ـ ابن عبد ربه .العقد الفريد ج 1 ص 191.الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج 6ص 167

2) ابن كثير ـ البداية والنهاية ج 9 ص 27

3) البلاذري ـ فتوح ـ ص 579

د - الرقيـــق السنـــدي

ومـن الرقيـق الـذي راج في الاسـواق الاسلاميـة
في عصـر الفتـوحات الرقيـق السنـدي الذي وفـره غـزو
المسلميـن لاقليـم السنـد منذ سنـة (38هـ/ 658م)
من خـلافـة علي بن ابي طـالب (35 - 40هـ/ 655-660م) وكـان
الفـاتح في عهـده الحارث بن مـرة العبـدي الـذي
روي عنـه انـه سبى وقسـم من يـوم واحـد الف راس(1). فقـد
اسفـر فتـح مـدن هـذا الاقليـم مثـل ((مكـاران)) و ((الديبـل))
و ((البيـرون)) و ((مهـران)) عـن عـدد كبيـر من الرقيـق
ومما يـروى في هـذا الصدد ان مـدينـة ((راور)) لما فتحهـا
محمد بن القاسم عنـوة كان بها امراة لداهـر ملـك
السنـد فخـافت ان تـؤخـذ فاحرقت نفسهـا وجواريهـا وجميـع
مـا لهـا (2) فتصـرفهـا هـذا يـدل على ان عمليـات السبي كـانت
مرافقـة لهجـومـات الفـاتحيـن اذاك . ومن احسـن الامثلـة
على كثـرة ما وقـع في يـد فاتح السنـد محمـد بن القاسـم
من الرقيـق مـا يـذكـره ابن الاثيـر في تاريخـه لغـزو مـدينـة الملتان

1) البلاذري - فتـوح البلـدان . ص421
2) ابن الاثيـر - الكـامل - ج 4 ص220،221

سنة (89هـ/ 708م) يقول ((ثم قطع نهر بياس الى الملتان فقاتله اهلها وانهزموا فحصرهم محمد فجاء انسان ودله على قطع الماء الذي يدخل المدينة فقطعه فعطشوا فالقوا بايديهم ونزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية وسدنة البدّ وهم ستة الاف)) (1). وفعل محمد ابن القاسم بمدينة كيرج مثل فعله بمدينة الملتان فقتل اميرها ((دوهر)) وسبى اهلها وكان ذلك سنة (95هـ/ 713م) (2) ومن اشهر سبايا محمد بن القاسم سبيه للاميرة سيتا بنت الملك داهر (3) وقد واصل يزيد بن ابي كبشة في عهد سليمان بن عبد الملك (97-99هـ/ 715 - 717م) وعمرو بن مسلم الباهلي في عهد عمر بن عبد العزيز (99 - 102 هـ/ 717 - 720م) والجنيد بن عبد الرحمن في عهد هشام بن عبد الملك (105- 125 هـ/ 724 - 743م) ما بداه محمد بن القاسم في عهد الوليد بن عبد الملك (86 - 97 هـ/ 705 - 715م) (4).

---

1) المصدر نفسه ـ ج 4 ص 221 محمد عبد الغني حسن بطل السند ص 49

2) المصدر نفسه ج 4 ص 240 ياقوت. معجم البلدان ج 5 ص 227 228 دار صادر بيروت (1376هـ/ 1957م)

3) محمد عبد الغني حسن ـ بطل السند ـ دار المعارف بمصر الطبعة الثانية عشرة ـ 1972 ـ ص 45

4) المصدر نفسه ج 4 ص 241

وهكـــذا دخـل رقيــق الهنـد بـلاد العـرب فـــي شكـل اســرى وسبــايـا فكـان علي ابن ابي طالب (34 - 39 هـ/655-660م) اول من تـزوج هنـديـة من سبي الهنـد تـدعـي ((خـولـة)) وانجـب منهـا ابنـه الشهيـر محمـد بن الحنفيـة وكـذلـك كـانـت سـلافـة ام زيـن العـابـدين سنـديـة قـال ابن قتيبـة في المعـارف . ((واما علي بن حسين الاصغـر فليـس للحسيـن عقـب الا منهـا ويقـال ان امـه سنـديـة يقـال لهـا سـلافـة ويقـال غـزالـة خلـف عليهـا بعـد الحسيـن زيـن العـابـديـن مولـى الحسيـن فـولـدت لـه عبـد اللـه ابن زيـد فهـو اخـو علي بن الحسين لامـه)) وكـانت حبابـة جاريـة يـزيـد ابن عبـد الملـك (102-106هـ/ 720 - 724م) سنـديـة وكـان يحبهـا كـابنتـه حتى كـانت تنـاديـه بالاب فزوجهـا يـزيـد من عمـر بن هبيرة الفزاري فانجبت لـه يـزيـد بن عمر بن هبيرة الذي ولاه يزيد بن عبد الملك امارة العـراق(1) وقد كثر الرقيق السنـدي والهندي في هذه الفترة من الزمن وبلغ الامر بفاتح السند ان ارسل الى الحجاج بجماعة من الزط فبعثهم الحجاج الى الخليفة الوليد بن عبد الملـك فنقلهـم الى انطـاكيـة (2).

---

1) ابن قتيبة - المعارف - ط 1960 - ص369 محمد اسماعيل الندوي - تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ص45 . 47

2) محمد عبد الغني حسن - بطل السند ص54

الرقيـــق البربـــري

وقد تزودت الاسواق الاسلامية برقيق كثير خلال فتح بلاد المغرب والاندلس وقد اشتهر من هذا الرقيق البربري خاصة. ويمكننا ان نقدم صورة موجهة من الاعداد الوفيرة من الرؤوس التي كان يرسلها الغزاة في هذه الفترة الى مركز الخلافة بدمشق . فقد ذكر المؤرخون لفتوح البلدان ارقاما ضخمة لانشك في انها لم تسلم احيانا من المبالغة والتضارب ولكننا نعتقد انها ذات دلالات رمزية على المقادير العظيمة التي تزودت بها الاسواق بالمغرب والمشرق من هذا النوع من الرقيق . فما يروى في هذا المضمار ان عقبة بن نافع قد احرز على حوالي ثمانين الف راس 80.000 (1) ويروى المالكي في ((رياض النفوس)) ان حسان ابن النعمان قد ارسل الى المشرق خمسا وثلاثين الف 35.000 راس من الرقيق (2) ويذكر ابن عذاري في حديثه عن فتوحات موسى بن نصير انه قد وقع بين يديه ثلاثمائة الف عبد 300.000

---

1) جورج مرسي G-Marçais - بلاد البربر - طبعة باريس 1946 - ص 24

2) المالكي - رياض النفوس - القاهرة - 1951 ج 1 ص 38

ارسل منهم الى الخليفة الخمس 5/1 اي ستين الفا 60.000 حسب ما تقتضيه احكام الغنيمة ثم اضاف اليهم الفا 1.000 مجاملة وتقربا لامير المؤمنين .

يقول صاحب ((البيان المغرب)) في هذا الصدد ((وكان الخمس يومئذ ستين الفا فكتب موسى الى عبد العزيز يعلمه بالفتح ويعلمه ان الخمس بلغ ثلاثين الفا وكان ذلك وهما من الكاتب : كتب ثلاثين الفا بدلا من ستين الفا فلما قرا عبد العزيز بن مروان الكتاب وان الخمس من السبي ثلاثون الفا استكثر ذلك وراى انه وهم من الكتاب لكثرته فكتب الى موسى يقول له ((انه بلغني كتابك تذكر ان خمس ما افاء الله عليك ثلاثون الف راس فاستكثرت ذلك وظننته وهما من الكاتب فاكتب بالحقيقة !)) فكتب اليه موسى ((قد كان ذلك وهما من الكاتب على ما ظنه الامير والخمس ايها الامير ستون الف راس ثابتا بلاوهم)) فلما بلغه الكتاب عجب كل العجب وامتلا سرورا . وقد كان عبد الملك كتب الى اخيه عبد العزيز ((قد سلم امير المؤمنين ما كان من رايك في عزل حسان وتولية موسى وقد امضى لك امير المؤمنين ما كان من رايك وولاية من وليت)) فكتب عبد العزيز

الى اخيه يعلمه بالفتح وبكتاب موسى ثم وجه عبد الملك رجلا الى موسى ليتبصر ذلك منه على ما ذكر . فدفع اليه موسى مثل ذلك وزاد السفا)) (1) وفي رواية اخرى نقلها البكري عن ابن ابي حسان ((ان موسى لما فتح ((سقوما)) كتب الى الوليد بن عبد الملك ان صار اليك يا امير المؤمنين من سبي ((سقوما)) مائة الف راس فكتب اليه الوليد : ويحك اظنها من بعض كذباتك فان كنت صادقا فهذا محشر الامم !)) (2).

وتصف المصادر ((ابن نصير)) في غمرة الانتصار يوزع السبايا بين رجاله ويامر لكل من خرج معه للغزو بوصيف اووصيفة (3) ويقول لاصحابه ((اصبحت اليوم في ثلاث نعم : منها كتاب امير المؤمنين بالشكر والثناء (ثم وصف ما اجرى الله على يديه من فتوحات) ثم كتاب

---

1) ابن عذاري – البيان المغرب – 40 . 41 ابن عبد الحكم فتوح افريقية والاندلس ص 87 والاحالة رقم 120 ((يذكر ابن عبد الحكم ارقاما اخرى مخالفة لما يذكره ابن عذاري))

2) البكري – المغرب – ص 117 . 118

3) ابن عذاري – البيان المغرب – ج 1 ص 44

ابنى عبد العزيز يصف ما فتح الله عليه في الاندلس
بحمد الله تعالى (فقاموا اليه فهنؤوه) واما الثالثة
فانا اريكموها ؟ وقام فامر برفع ستر فاذا فيه
جوار مختلفات كانهن البدور الطوالع من بنات ملوك الروم
والبربر عليهن الحلي والحلل فهنئ ايضا بذلك . فقال
علي بن رباح اللخمي : ((ايها الامير انا انصح الناس اليك
ما من شئ انتهى الا ورجع فارجع قبل ان يرجع اليك))
قال : فانكسر موسى وفرق جواريه من حينه الى الناس))(1)

وكان شأن موسى في هذا المجال شأن غيره من غزاة بلاد
المغرب في الظفر بافواج الرقيق وارسالها الى المشرق
حتى عرفت بلاد المغرب في هذا العصر بكونها ولاية مصدرة
للرقيق (2) وارض غنيمة واسترقاق ومستودعا يزود الاسواق
الاسلامية بهذه البضاعة الثمينة واسمى الرقيق
البربري يعتبر من ارفع انواع الرقيق واجودها وقد
اشتهرت منه خاصة الجواري البربريات اللائي كن

1) المصدر نفسه

2) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص 25 - 33

ضرب المثل في الجمال وقيل فيهن ((كأنهن البدور الطوالع)) (1) وقد بلغت اصداء هذا الجمال المسلمين بالمشرق فاشتدت رغبتهم في هذا الرقيق الجميل وكانوا يقولون عن البربر ((تزوجوا نساءهم ولا تؤاخوا رجالهم)) (2) وقد شاهد الشاعر ((ابو محجن نصيب)) بعض ما كان يرسله حسان ابن النعمان الى عبد العزيز بن مروان والي مصر من السبايا البربريات فقال ((ما رايت قط وجوها احسن من وجوههم)) (3) ولم يكن ((نصيب)) معبرا بقوله عن راي فردي فقد راجت حسب قول ياقوت اشعار سائرة تشهد باعجاب اهل المشرق بالجواري البربريات (4) .

وكان من نتائج هذا الاعجاب ان احتلت البربريات مكانة مرموقة في حريم الخلفاء والامراء نذكر منهن على سبيل

1) ابن عذاري - البيان المغرب ج 1 ص 44
2) ياقوت الحموي - معجم البلدان - طبعة بيروت 1955 ج 5 - راجع - مادة : بربر
3) بلاذري - فتوح البلدان - ص 231
4) ياقوت الحموي - معجم البلدان ج 5 مادة : بربر

الشمال ((راح)) اصيلة ((نفزة)) ام عبد الرحمان الداخل (138 - 172هـ/756-788م) الذي استعان باخواله البربر على انشاء حكم الامويين بالاندلس كما تذكر الجارية ((سلامة)) ام ابي جعفر المنصور (136 - 158 هـ/754-775م) و ((قراطيس)) ام الخليفة الواثق (227-232هـ/842-847م) و ((قتول)) التي انجبت الخليفة القاهر ((320-322هـ/932-934)) وغيرهن كثيرات (1) ولا غرابة بعد هذا اذا كان السبي البربري من الرقيق الثمين فقد ذكر النويري ان الجارية البربرية الواحدة كانت تباع بالمشرق اذات بالف قطعة من الذهب (2) ولعل هذا الخبر هو الذي نجده عند البكري باكثر دقة عند ما تعرض الى فتح عقبة بن نافع لمدينة ((ايجلي)) بين ((اغمات)) والسوس وقال ((اخرج منها سبيا لم ير مثله حسنا وتماما كانت تباع الجارية الواحدة منهن بالف دينار واكثر))(3).

---

1) ابو العرب _ الطبقات _ ص - 25 - محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص43- 44

2) جورج مارسي George . Marçais - بلاد البربر ص 24

3) البكري _ المغرب _ ص 162

وكان للرقيق المذكر سوق رائجة ايضا اذ اقتناه المسلمون للقيام بعديد المهام كتكوين الحرس الخاص بالخلفاء او للاستخدام في المهام العسكرية او لاستعماله في شؤون الفلاحة (1) ونبغ منه كثيرون في ميدان العلوم والمعارف فهذا ((الشعبي)) احد التابعين ومحدث الكوفة وراوية مغازي الرسول كان ابن بربرية قد اسرت في ((جلولاء)) (2) وكان ((عكرمة)) مولى ابن عباس واحد علماء التفسير بربريا ويروى انه قدم الى افريقية ونشر العلم بها وكانت له حلقة وراء مسجد القيروان غربي الصومعة على حد قول المالكي (3) كل هذه امثلة وشواهد على اهمية الرقيق البربري في هذا العهد وانتشاره خارج حدود بلاد المغرب . وقد تواصل دور تزويد المغرب للمشرق بالرقيق مدة طويلة من الزمن لان فتوح المغرب قد تكررت طوال ثلاث وخمسين سنة وقد واجه العرب فيها من الصعوبات ما لم يواجهوه في فتوحاتهم الاخرى فكان الصدام عنيفا وحملات الاسر والسبي متواصلة

---

1) جورج مارسي G. Marçais - بلاد البربر ص 24
2) ابن خلكان - وفيات الاعيان - طبعة القاهرة 1948 ج 2 ص 227 . 229
3) المالكي - رياض النفوس - ج 1 ص 92 . 93 ابو نعيم الاصفهاني - حلية الاولياء - طبعة القاهرة - 1933 ج 3 ص 245 - 326

وكان يكفي الخلفاء بالمشرق ان يكاتبوا ولاتهم بمصر وافريقية لكي يحصلوا على ما شاؤوا من الرقيق الى ان انتشر الاسلام بربوع المغرب خلال القرن الثاني للهجرة واذات بدأ هذا المعين ينضب شيئا فشيئا (1).

و - رقيق فتوح بلاد السودان

وقد انتجت الفتوحات جزءا هاما من الرقيق الاسود الافريقي ودلك منذ ان قرر الغزاة الفاتحون تجاوز حدود مصر نحو الجنوب. ففي سنة 20 او 21 للهجرة وجه عمرو بن العاص والي مصر اول هجوم على بلاد النوبة بقيادة عبد الله بن سعد امير الصعيد الا على حسب ابن عبد الحكم (2) والمقريزي (3) او بقيادة عقبة بن نافع حسب قول البلاذري (4) وابن الاثير (5) وابن خلدون (6) وقد هزم المسلمون في هذه الغزوة لكنهم واصلوا بعد ذلك الغنا وشات شلما كانوا يفعلون مع البزنطيين (7) ولما تولى عبد الله بن سعد مكان عمرو بن العاص قاد حملة اخرى بنفسه سنة (31 هـ / 652 م) واستطاع الوصول الى ((دنقلة)) ووقع ابرام معاهدة بين الطرفين ......

1) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص 25 - 33
2) ابن عبد الحكم - فتوح مصر - ص 173
3) المقريزي - الخطط - طبعات - G. Wiet - ج 3 ص 290
4) البلاذري - فتوح البلدان ص 237
5) ابن الاثير - الكامل - ج 2 ص 443
6) ابن خلدون - العبر - ج 2 ص 115
7) ابن عبد الحكم - فتوح مصر ص 169 . 170

ضبطت العلاقة بينهما مدة طويلة (1) وفي سنة (46هـ/666م) وقعت محاولة غزو اخرى بقيادة عقبة بن نافع في منطقة ((الكوار)) جنوب ((فزان)) واستطاع المسلمون خلالها ان يصلوا الى ((زويلة)) (2) وان يفتحوا كورا من كور السودان (3) وكما دخل الفاتحون الى شرقي افريقيا دخلوا الى غربيها وذلك عند فتحهم للسوس سنة (116هـ/734م) فقد ذكر ابن عبد الحكم ان عبيد الله بن الحبحاب ارسل سرية لفتح ((السوس)) وارض السودان تحت قيادة حبيب بن ابي عبيدة الفهري حفيد عقبة بن نافع فانتصر ورجع بغنائم وفيرة وكان من بين الاسرى جارية او جاريتان من جنس يسمى عند البربر ((اجان)) وهو جنس من النساء ليس لهن الا ثدي واحد (4) وقد ذكر البلاذري هذه القصة ايضا وكذلك ابن الاثير (5). ويروي ابن الفقيه في كتاب البلدان عن ابي الخطاب المشتري بن الاسود انه غزا عشرين مرة بلاد ((انبية)) انطلاقا من السوس الاقصى (6)

---

1) يوسف فضل حسن - العرب والسودان -
the Arabs and the Sudan ص 24 - 28

2) ابن عبد الحكم - فتوح افريقية - ص 63 . 65
مؤلف كتاب الاستبصار - ص 61 . 62 - (ترجمة أ. فانيان E. Fagnan)

3) ابن الاثير - الكامل - ج - 3 - ص 351 (ط. طورنبرج Tornberg 1851 - 1876)

4) ابن عبد الحكم - فتوح افريقية والاندلس - ص 122

5) البلاذري - فتوح البلدان - ص 230 ومابعدها - ابن الاثير - الكامل - ج - 5 - ص 141 - (ط - طورنبرج - Tornberg 1851 - 1876)

6) ابن الفقيه - كتاب البلدان - ص 64

ومهما كان اتساع رقعة الفتح لبلاد السودان في هذا العصر فانه من الثابت ان المسلمين لم ينجزوا فتوحا ضخمة بها ولم يوجهوا انظارهم الى غزو تلك البلاد بصورة مطردة وجدية وانما كانت انظارهم موجهة في الغالب الى الشمال والى العدو البيزنطي . ولهذه الاسباب لم يسفر الغزو عن اعداد كبيرة من الاسرى والسبي مثلما كان الشان بالنسبة لفتح الاقاليم الاخرى بالمشرق والمغرب فهل معنى ذلك ان الاسواق الاسلامية في هذه الفترة قد كانت مفتقرة الى هذا النوع من الرقيق ؟ ان الجواب عن هذا السؤال يكون بالنفي طبعا لان صيغة اخرى من صيغ التزود بالرقيق الاسود الافريقي قد وجدت انذاك بالاضافة الى توفره بالمناوشات من حين لاخر .

وتتمثل تلك الصيغة في معاهدة سلمية ابرمت بين المسلمين والنوبة سنة (31هـ/652م) واثر الحملة التي قادها عبد الله بن سعد على بلاد النوبة انطلاقا من مصر وتنص المعاهدة على الهدنة والسماح بالعبور من احد البلدين الى الاخر وضمان سلامة المسافرين . وتفرض تلك المعاهدة على اهل النوبة ان يرجعوا الى المسلمين الرقيق

الذي يأبق اليهم وان يدفعوا سنويا 360 راسا من الرقيق لبيت المال واربعين راسا للوالي بالفسطاط لخدمته الخاصة فى منزله وان يتلقوا مقابل ذلك انواعا من الاغذية (1) ويرى المقريزي الذي حلل لنا محتوى هذه المعاهدة ان المسلمين كانوا يقدمون الاغذية للنوبة فى شكل هبة وان الاربعين عبدا المقدمين للوالي الفسطاط يمثلون استمرارا لدفع ضريبة كانت تدفع قبل ذلك اي قبل الحطمة سنة (31هـ/ - 652 - م) وقد كان عمر ورفض ان يقبل هذا ((البقط)) الذي ارسل اليه كما كانت العادة اعترافا بسيادة المسلمين على مصر وذلك لان عمروا كان ينوي غزو النوبة (2) لكنه عدل عن نيته وقبل هذا ((البقط)). ولم يكن هذا الاتفاق في شكل جزية كما يقول البلاذري لان النوبة لم تفتح حسب قوله(3) .

وهكذا نفهم ان ما كان يدفع من ((بقط)) في شكل رقيق هو ((Pactum)) الاغريقي الروماني (4) و ان

---

1) المقريزي ـ خطط ـ ج 3 ص 290 ـ ط . ميات G wiet - القاهرة - 27-1911
2) المقريزي ـ خطط ـ ج 3 ص 292 ـ ط . ميات G wiet - القاهرة - 27-1911
3) بلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص 237
4) الطالبي ـ الامارة الاغلبية ص 25 - 33

النوبة كانوا قد اعتادوا دفعه وانهم كان يشترطون مقابله الاغذية الثمينة والعزيزة المنال فى بلادهم اما الرقيق المدفوع فكانوا يحصلون عليه من غارات كانوا يشنونها على بعضهم بعضا او على جيرانهم فلا غرابة ان يكون الجيش العربي قد لاحظ فقر البلاد فرأى من الاصلح قبول ((البقط)) والجنوح الى السلم واخذ البضاعة الوحيدة الموجودة بالبلاد وهي العبيد . وسوف يمتد عمر هذه المعاهدة ويتجدد عبر العصور وسيكون مصدرا خصبا من مصادر الرقيق الاسود الافريقي (1).

بامكاننا ان نلاحظ اذن ان صيغة شبه تجارية كان موجودة الى جانب عمليات الغزوالتى اشرنا اليها وان هذه الصيغة السلمية قد قامت مقام الصيغة الحربية فى تزويد المسلمين بالرقيق الاسود ولعلنا لا نعد والصواب

---

1) جان كلود جارسين - Jean Claude Garcin
مركز اسلامي بمصر العليا الوسيطة : قوص -
ص 41 - 42

اذا قلنا ان هذه العطية قد كانت شكلا اوليا من الاشكال التى سيتخذها توريد الرقيق فيما بعد وارهاصا لما سيظهر في القرنين الثالث والرابع من ازدهار تجارة الرقيق الاسود بين بلاد السودان والعالم الاسلامي - بل انها نواة لهذه التجارة منذ هذا العهد اذ تنص المعاهدة المذكورة على السماح للعرب بدخول النوبة لاشتراء الرقيق ولم تمنع الا انتزاع هؤلاء التجار للعبيد بانفسهم وهو بند لم يقع احترامه دائما حسب ما نعطه من الاخبار الواردة فى تاريخ البطاركة (1).

---

1) المقريزي - خطط ج 3 ص 293

6) تعدد الاجناس

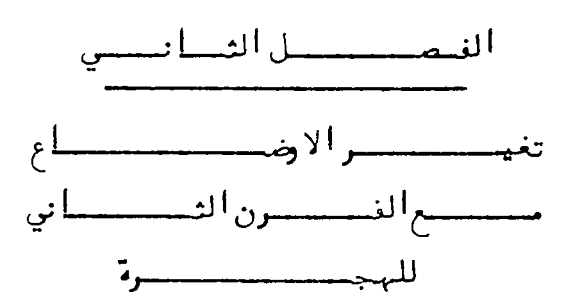
وقد تنوعت اجناس هذا الرقيق بتنوع البلاد المفتوحة فنحن نجد من بين اجناس رقيق الفتح ايضا العنصر الصيني اذ وصل المسلمون في عهد الوليد بن عبد الملك (85-96 هـ/ 705-715م) الى حدود الصين وتمكن القائد قتيبة بن مسلم من ان ينطلق من سمرقند سنة (96هـ / - 714- م) الى ادنى مدائن الصين وهي ((كاشغر)) ((فغنم وسبى سبيا فختم اعناقهم)) (1) لكن قتيبة عدل عن التوغل في التراب الصيني بعد مفاوضة مع ملك الصين واختيار مسالمته فلايمكن لنا ان نتصور في هذا الرقيق الصيني كثرة نظرا لعدم توغل الغزاة في تلك المنطقة .

---

1) ابن الاثير - الكامل - ج 5 ص 2

وربما كانت اجناس رقيق الفتح اكثر تنوعا من البلاد المفتوحة لان تلك البلاد كثيرا ما كانت تضم رقيقا من غير جنس اهلها مثلما كان الشأن بالنسبة الى ما وجده المسلمون من رقيق بايدي الفرس فقد روي انهم قد استولوا يوم فتحهم للمدائن على جوار ((من جواري كسرى جيء بهن من الافاق فكن تصنعن له)) (1) وقد تكون البلاد المفتوحة ايضا خاضعة لمتغلب من جنس مغاير لجنس ابنائها كما كان الشان بالنسبة الى اقباط مصر الخاضعين للروم فمن الطبيعي ان يسفر فتحها عن رقيق رومي وقبطي فى آن واحد (2) وقس على ذلك أيضا القوط والاسبان الذين كانوا خاضعين للهيمنة البيزنطية .

1) بلاذري - فتوح البلدان - ص 263
2) المصدر نفسه - ص 217 - 220 ابن الاثير - الكامل - ج 2 ص 279



الفصل الثاني

تغير الاوضاع
مع القرن الثاني
للهجرة

تغيـــر الاوضـــاع

مـــع القـــرن الثاني للهجـرة

لئن كان رقيق الفتحوات اهم مزود للسوق الاسلامية خلال القرن الاول للهجرة ممّا صارت معه روافد التوريد التجارية في منزلة ثانية بسبب توفر البضاعة عن طريق الفتح فان الاوضاع بدات تتغير شيئا فشيئا ابتداءا من المنصف الاول من القرن الثاني للهجرة بسبب تزايد الطلب وتفاقم الحاجة من ناحية وانتشار الاسلام بين الشعوب المغلوبة من ناحية اخرى وهكذا بدات بوادر الخلل بين العرض والطلب تظهر وتنبئ بوجود ازمة في عملية التزود بالرقيق لم يكن بالامكان الخروج منها الا بتقوية روافد التوريد التي كانت ذات دور ثانوي في الفترة السابقة وقد انتجت هذه الاوضاع المتأزمة منذ نهاية القرن الاول بعض التوترات في صلب المجتمع الاسلامي كما سنرى .

1) تفاقم الحاجة وازدياد الطلـــب

ذلك لان المعين الاكبر وهو رقيق الاسر والغنيمة بدأ يضعف فقد انتشر الاسلام في انحاء البلاد المفتوحة انتشارا لم يعد يسمح للفاتحين باسر اهلها واسترقاقهم لان الاسلام كما نعلم يعصم الحر في دمه وماله ورقبته . وهكذا انخرم التوازن بين العرض والطلب بشان بضاعة الرقيق وصارت البلاد الاسلامية في حاجة ملحة الى صرورة التزود من هذه البضاعة التي امست عنصرا اساسيا في دورتها الاقتصادية ووسيلة هامة من وسائل الانتاج كما كانت هياكل الدولة وشؤون البلاط تتطلب المزيد من هذه المادة الضرورية لا بهيتها وبذخها لان عادة اجتماعية قد تغلغلت واسلوبا في الحياة قد استقر وكلاهما يحتم وجود هذه الفئة حتى ينتظم سير المجتمع في شتى مجالاته الحيوية وقد الجأت هذه الحال بعض الخلفاء والولاة والعمال الى نوع من التصرف الشاذ والمتعارض مع مبادئ الشرع في قضية الاسترقاق و .. حرصا منهم على التـــزود

بكميات اوفر من رؤوس الرقيق الا ان هذا التصرف لم يكن شاملا لبلاد الاسلام بل وجد في بعض الولايات فحسب وخاصة منها تلك التي عرفت منذ بداية الفتوحات مصدرا ثرا ومعينا خصبا يدر على مركز الخلافة كميات ضخمة من الرقيق وتمثل هذا التصرف في استخلاص الجزية الموظفة على المعاهدين في شكل رقيق بدل المال وقد حدث ذلك بالنسبة الى افريقية على يد عمرو بن العاص والي مصر ، ولدينا روايات اوردها البلاذري في هذا الصدد يدل جميعها على هذه الظاهرة وان اختلفت في صيغها ونحن نستعرضها هنا قبل التعليق عليها :

" حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن شرحبيل بن أبى عون عن عبد الله بن هبيرة قال : لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية سار في جنده يريد المغرب حتى قدم برقة وهي مدينة انطابلس فصالح اهلها على الجزية وهي ثلاثة عشر الف دينار يبيعون فيها من ابنائهم من احبوا بيعه "

" حدثني بكر بن الهيثم قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن سهيل بن عقيل عن عبد الله بن هبيرة قال : صالح عمرو بن العاصي اهل اطابلس ومدينتها برقة وهي بين مصر وافريقية بعد ان حاصرهم وقاتلهم على الجزية على ان يبيعوا من ابنائهم من ارادوا في جزيتهم وكتب لهم بذلك كتبا " .

" حدثنا ابوعبيد القاسم بن سلام قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن يزيد بن ابي حبيب ان عمرو بن العاصي كتب في شرطه على اهل لواتة من البربر من اهل برقة ان عليكم ان تبيعوا ابناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية ، قال الليث : فلوكانوا عبيدا ما حل ذلك منهم "

" وحدثني بكر بن الهيثم قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن ابي لهيعة عن يزيد بن ابي حبيب ان عمر بن عبد العزيز كتب في اللواتيات : ان من كانت عنده لواتية فليخطبها الى ابيها او فليردها الى اهلها : قال : ولواتة قرية من البربر كان لهم عهد "(1)

1) البلاذري ـ فتوح البلدان ص 225ـ227

تلك هي الروايات التي اوردها البلاذري ونحن نجدها ايضا عند ابن عبد الحكم (1) وابن الاثير (2) والبكري (3) مع بعض الاختلافات الجزئية وهي كلها تتعلق بقبيلة لواتة من البربر ببرقة ، وتنص على أن الجزية استخلصت منهم في شكل رقيق وهي طريقة في الاستخلاص تتنافى مع ما قرره جمهور الفقهاء بخصوص هذه الضريبة ، اذ اجمعوا على انها ضريبة شخصية ونقدية تقدر بدينار يطلب من القادر على دفعه . واذا ما كنا نجد من بينهم من يقبل مثل الامام الشافعي ان تدفع الجزية عينا اي متاعا او قواتا اعتمادا على ان الرسول صالح اهل نجران على عدد من الحلل (4) فاننا لم نرهم صرحوا بان هذا المتاع يمكن ان يكون رقيقا ولهذا الغرض اعتبر هذا التصرف انحرافا في عهد عمر بن عبد العزيز فامر بارجاع اللواتيات الى اهلهن او حمل مالكيهن على خطبتهن ونكاحهن ولو كان وجه ذلك التصرف طبيعيا لما نهى عنه هذا الخليفة المعروف

---

1) ابن عبد الحكم — فتوح افريقية والاندلس - ص 35_36
2) ابن الاثير — الكامل - ترجمة - أ. نانيان - E Fagnan - ص 7
3) البكري — المسالك والممالك ص 14 — المغرب ص 4_5
4) الشافعي — الام — ج 4 ص 190 ابو يوسف — كتاب الخراج ص 69_72

بعدلـه وتقـواه (1) فهذه الاحداث كما يتضح لنـا اذن قـد أدّى اليها تصرف بعض القـادة استكثارا من الرقيـق دون مبالاة بما حدده الشرع في شان الجزيـة ولا يمكن لنا ان نستنتج منها ان هذا التصرف قد شاع في شتى الانحاء وشمل كل البلاد المفتوحـة او جلها وليـس لدينـا ايضا دليل على انها امست القاعـدة بالنسبـة الى البربر كلهـم كما يبدو من خلال كلام فلهوزن (2) عن هـذه الاحداث اذ راى فيها قـاعـدة بالنسبـة الى الجزيـة الموظفـة على البربـر ، وقد بـين الاستـاذ الطالبي ضعف هذا الراي بنقـده لتلك الروايات وابرز ان جزيـة فـي شكـل رقيـق قد وجدت فعلا دون ان نستطيع التأكيـد بان جميـع البربر قد خضعوا لها بصفـة منتظمـة او في منطقـة كاملـة (3) فهـو اذن تصرف شاذ احوجت اليـه ظروف معينـة هي الرغبـة في الاستكثار من الرقيـق وقد اعتبرت هذه الحوادث رغـم شذوذهـا سـابقـــة

1) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص 227
2) فلهوزن - . wellhausen تاريخ الدولة العربية-تعريب أبي ريدة وحمؤنس ص 235_296
3) الطالبي ـ الامارة الاغلبيـة ص 25 وما بعدهـا .

استند اليهـا بعض الفقهـاء فيما بعد فـي جدالهم الفقهـي واجتهاداتهـم المختلفـة لكـي يجـوز احدهـم وهو الليث بن سعـد استخلاص الجزيـة فـي هذا الشكل لان التعاقـد قـد حدث مـع الاحرار فيجوز قبول ما صالحوا عليـه وهذا معـنى قولـه " فلو كانوا عبيـدا ما حل ذلك منهم " لكن هـذه المجادلات نظرية يفصلهـا عـن الواقـع التاريخـي الـذي تصفـه فاصـل زمن طويـل اذ د رات فـي النصف الثـانـي فـي القـرن الثانـي للهجرة كمـا يعتـبر راي الليث شـاذا ايضـا بالقيـاس الـى موقف جمهـور الفقهـاء (1)

لكن الحقيقـة الـتي تـبرز من خلال هـذه الاوضـاع هي ان تلك الظواهر الشـاذة قد اعتبرت من قبل بعض المنظريـن من الفقهـاء خاصـة فـي العصور المواليـة حين تزايدت الحاجة الـى الرقيـق سابقـة ومستنـدا لتبرير ضرب من الاجتهاد في الاحكـام

1) برنشفيك Brunschvig - مقال حول نزاع الليث ومالك - مجلـة الاندلس 1950 - المجلد الخامس عشر - 15 - سفر 2 ص 377 - 337

يلائم تلك الحاجة المتزايدة ويقرر اساليب جديدة لسدها
ويمكن ان نقول ان ما حدث بشان الجزية وتوسيع مفهومها
قد حدث ايضا بالنسبة الى الخراج فليس اذن من باب الصدفة
ان يستخلص الخراج في بعض الاقاليم في شكل بعض الرؤوس
من الرقيق فقد روى لنا المقريزي ان العمال في تركستان
ومصر كانوا يؤدون بعض خراج اعمالهم من الرقيق (1) وما ذلك الاجراء
في الواقع الا نتيجة الطلب المتزايد على هذه البضاعة والشعور
بالحاجة اليها .

ولدينا امثلة اخرى تدل على ان المسلمين قد استعملوا
طرقا مماثلة للاستكثار من الرقيق منها هذه الطريقة في المصالحة
على عدد من الرؤوس في مهادنتهم لبلاد الاتراك ومن ذلك ما صالح
عليه يزيد بن المهلب الاصبهبد صاحب طبرستان سنة (98هـ/ 716 م)
اذ صالحه على " اربعمائة رجل على كل رجل منهم ترس وطيلسان

1) المقريزي ـ الخطط ـ ج 1 ص 313

ومع كل رجل جام من فضة وخرقة حرير وكموة " (1) وقد تم هذا الصلح على يد رجل يقال له حيان النبطي ثم ارسل يزيد من قبض ما صالحهم عليه .

وشبيه ايضا بهذا الصلح ما قام به والي خراسان في عهد يزيد بن عبد الملك وهو سعيد بن عمرو الحرشي (2) في حروبه مع اهل الصغد اذ روى ابن الاثير ان هذا الوالي قد سار سنة اربع ومائة (104هـ/ - 723 - م) الى "كش" فصالح اهلها على " عشرة الاف راس " (3).

وقد تواصلت سنة اخذ الضرائب في شكل رقيق الى زمن الرشيد (170-193هـ/786-790م) فكان وارد خراسان يبلغ 28 مليون درهم والف نقرة فضة واربعة الاف برذون والف راس من الرقيق وسبعة وعشرين الف ثوب وثلاثمائة رطل اهليلج (4) ولعل هذا الخراج هو الذي وجده المقدسي مسجلا ببعض الكتب (5)

---

1) ابن الاثير - الكامل ج 5 ص 13 (ط - مصر 1357 هـ)
2) هو من بني الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة (ابن الاثير الكامل ج 5 ص 42)
3) الكامل لابن الاثير ج 5 ص 44 (ط - مصر 1357 هـ)
4) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص 283 ـ 284 الدوري ـ نظام الضرائب ـ مجلة المجمع العلمي العراقي ص 79
5) المقدسي ـ احسن التقاسيم ص 340

ويحدثنا المؤرخون عن منطقة اخرى استعمل فيها الفاتحون
هذا الاسلوب في استخلاص الجزية وهي بلاد ارمينية اذ فرض جند
المسلمين في عهد هشام بن عبد الملك ويزيد بن الوليد(127هـ/744م)
جزية رقيق وا متعة وا قوات على اهل البلاد وتوخوا هذه الطريقة
اكثر من مرة في احتلالهم لمعاقل هذه الناحية وقد اورد لنا البلاذري
نصا يروي لنا هذه الوقائع كما يلي :(ثم ان مروان (1) دخل ارض
السرير فاوقع باهلها وفتح قلاعا فيها ودان له ملك السرير
واطاعه فصالحه على الف راس خمسمائة غلام وخمسمائة جارية
سود الشعور والحواجب وهدب الاشفار في كل سنة وعلى مائة الف
مدى تصب في اهراء الباب واخذ منه الرهن وصالح مروان اهل تومان
على مائة راس خمسين جارية وخمسين غلاما خماسيين سود الشعور
والحواجب وهدب الاشفار وعشرين الف مدى للاهراء في كل سنة ثم
دخل ارض زريكران فصالحه ملكها على خمسين راسا وعشرة الاف مدى
للاهراء في كل سنة ثم اتى ارض حمزين فابى حمزين ان يصالحه
فافتتح حصنهم بعد ان حاصرهم فيه شهرا فاحرق واخرب وكان صلحه

1) هو مروان بن محمد قائد الجند اذاك وقد ولاه هشام بن عبد الملك بعد سعيد الحرشي ومسلمة بن عبد الملك (بلاذري ـ فتوح البلدان ص 209)

اياه على خمسمائة راس يؤدونها دفعة واحدة ثم لا يكون عليه سبيل فيما يستقبل وعلى ان يحمل في كل سنة الى امراء الباب خمسة الاف مدى) (1).

ومن الواضح ان هذه الاساليب قد كانت اول مظهر من مظاهر توفير الرقيق بطرق سلمية واقرب المعاملات الى الصبغة التجارية بعد انتهاء عهد الصدام والعنف . فكان الولاة يبعثون بالمآت والالوف من الرقيق الى البلاط بدلا من الخراج (2) وكان الخليفة يفرق ذلك في اهل بطانته او قواده وهؤلاء يفرقونه فيمن حولهم ويبيعونه فينتقل الى الناس على اختلاف طبقاتهم (3).

وكما احوجت هذه الظروف الى التصرف والتوسع في مفهوم الجزية احيانا ادى كذلك في اقليم آخر هو اقليم النوبة الى تبني شكل قديم من اشكال الضرائب يطلق عليه اسم البقط من اللاتينية Pactum ويدفعه اهل النوبة في شكل رقيق وقد ذكر البلاذري ان هذه الضريبة تختلف صبغتها عن الجزية وهي اقرب

---

1) البلاذري - فتوح البلدان - ص 210
2) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ح 4 ص 86 - المسعودي - مروج الذهب - ج 2 ص 354 (ط. مصر 1304 هـ)
3) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ح 4 ص 86

الى صيغة " الهدية " منها الى صيغة الضريبة فقد تعاقد اهل النوبة على ان يقدموا الى المسلمين سنويا عددا معينا من رؤوس الرقيق مقابل اطعمة واقوات يزودهم بها المسلمون واليك ما يروي البلاذري في هذا الصدد (.... فلم يزالوا على ذلك (اهل النوبة : رماة الحدق) حتى ولي مصر عبد الله بن سعد ابن ابي سرح فسالوه الصلح والموادعة فاجابهم الى ذلك على غير جزية لكن على هدية ثلاثمائة 300 راس في كل سنة وعلى ان يهدي المسلمون اليهم طعاما بقدر ذلك) (1).

ويورد البلاذري رواية اخرى في هذا المقام يفهم منها ان هذا العقد كان يعتبر نوعا من الشراء وليس جزية ولا هدية يقول :

(حدثنا ابوعبيد القاسم بن سلام قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن ابي حبيب قال : ليس بيننا وبين الاساود عهد ولا ميثاق انما هي هدنة بيننا وبينهم على ان نعطيهم شيئا من قمح وعدس ويعطونا رقيقا فلا باس بشراء رقيقهم منهم اومن غيرهم) (2).

---

1) البلاذري - فتوح البلدان 238
2) البلاذري - فتوح البلدان ص 239

ويروي لنا رواية اخرى عن الليث بن سعد لها نفس المدلول هـــذا نصهـــا :

(حدثنا ابو عبيد عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد قال : انما الصلح بيننا وبين النوبة على ان لا نقاتلهم ولا يقاتلونا وان يعطونا رقيقا ونعطيهم بقدر ذلك طعاما فان باعوا نساءهم وابناءهم لم ار بذلك باسا ان يشترى) (1) .

ومن الواضح ان هذه الروايات تهدف الى تبرير موقف الجند الاسلامي وتبحث له عن الجانب القانوني لتصرفاته وما من شك في ان قواد الجند لم يكونوا يفكرون في هذه الشرعية الفقهية (2) لان ظروفهم لا تسمح لهم بذلك (3) فليس من المعقول ان نعتبر هذا العقد من باب الهدية او الشراء وانما الدلائل تشير الى ضرب قديم من التعاقد كان معمولا به قبل الاسلام وحافظ عليه الغزاة لانه صادف رغبة في نفوسهم وملاءمة لمصالحهم وكان يدعى البقط من اللاتينية Pactum (4)

---

1) المصدر نفسه ص 239
2) برنشفيك Brunschvig . مقال: ابن عبد الحكم وفتح العرب لشمال افريقيا حوليات معهد الدراسات الشرقية - AIEO - مجلد 6-1942-1947 ص 108 . 155
3) الخمر مثلا بقيت مباحة بافريقية الى سنة 100 هـ حتى ارسل عمر عبد العزيز رسلا لاعلامهم بتحريمها (ابن عذاري البيان المغرب 1 ص 48)
4) برنشفيك Brunschvig. مقال عهد - دائرة المعارف 1 ص 33

كما ذكرنا وتواصل العمل به في العهود الموالية اذ نجد له ذكرا في عهد المهدي(158 - 169هـ/775 - 785م)وكذلك في عهد الخليفة المتوكل(232-247هـ/847-861م)سنرى في الفصول القادمة.

لقد دعت الحاجة اذن الى توفير مقادير من الرقيق والى استعمال مثل هذه الاساليب رغم غرابتها عما اقره الشرع وتوخاه السلف في فتوحاتهم وقد وجد المسلمون في واقع المعاملات مع الشعوب المحيطة بهم ما يدفعهم الى النسج على المنوال والمعاملة بالمثل اذ صادف ذلك موافقة لمصالحهم وتلبية لرغباتهم. ومما شجع رجال السلطة وقادة الجند على الخروج عن سنن الاحكام الفقهية المتعلقة بالفتح في بعض الحالات احتكاكهم بالدول المتاخمة لهم والتي كانوا في حرب معها ، فكان لا بد لهم من ان يعاملوها بمثل ما تعاملهم به وان يقاوموها بسلاحها ، فقد ذكر المؤرخون ان الروم كانوا قد فرضوا على بعض الخلفاء الامويين دفع مقادير من الرقيق في صلحهم معهم فلا غرابة اذا ما كان هؤلاء الخلفاء لا يستنكفون من رد الفعل اذا ما اتيحت لهم الفرصة حتى يحدث التوازن بين الخصمين. فمما تذكره المصادر في هذا المجال ان معاوية(35-60هـ/654-680م)لما اخفق في محاولته فتح القسطنطينية بالرغم

من حصاره لها طيلة اربع سنوات من سنة (- 54 - هـ/ 673م) الى سنة(- 58-هـ/ 677م) بسبب استعمال الروم لسلاح النار الاغريقية التي ادخلت الذعر في نفوس العرب اذاك اضطار الى طلب الصلح من العدو فاقره الروم عليه لثلاثين سنة شرط ان يدفع لهم ثلاثة الاف قطعة من الذهب وخمسين عبدا وخمسين جوادا عربيا عن كل سنة فقبل (1) ولسنا نرى غرابة في هذا الخبر خصوصا اذا ادركنا ان هذه المطالب يهدف جميعها الى اضعاف الخصم والاستحواذ على معداته بغية استنزافه وكان الرقيق يعد من اسباب القوة اذاك ــ ولم تكن هذه المناسبة هي الوحيدة التي اجبر فيها العرب المسلمون على دفع الرقيق اذ تذكر الروايات ان قسطنطين الرابع (48-65هـ/668-685م)استغل الوضع الذي تلا موت يزيد ابن معاوية (61-64هـ/680-683م)وخلع معاوية الثاني (64 هـ/ 683م) لنفسه من الخلافة وتولي مروان بن الحكم (64-66هـ/683-685م)فزحف بجيشه عبر الحدود الجنوبية من الشام فدك حصون ملطية واجلى العرب عن

---

1) اسد رستم ــ الروم في سياستهم ـ ط 1 بيروت 1956 ج 1 ص 262ــ 263

مرعش وذلك سنة (-63 هـ/ 683م) فاضطر عبد الملك بن مروان(66-86هـ/685-705م)

بعد وفاة ابيه الى مفاوضة الروم على الصلح واجبر على ان يدفع لهم

اكثر مما كان يدفعه معاوية(41-60هـ/661-680م)من الرقيق وكان تاريخ هذا

الصلح في السابع من تموز سنة (-65 هـ/ 685م) (1) وعندما مات

قسطنطين الرابع(Constantin)بداء الزحار في سنة (-65 هـ/ 685م)

تولى بعده يوستيانوس الثاني Justinian II Rhinotmetus (65- 75 هـ/ 685_695م)

وهو ابنه ويدعى الاشرم وعمره 16 ستعشرة سنة وكان مشبعا بحب

العظمة والمجد فأراد ان يقتدي بسميه يوستيانوس الكبير فنقض

معاهدة سنة (-65 -هـ/ 685) وكان عبد الملك لا يزال مشغولا بتدعيم

دعائم خلافته ضد منافسين اقوياء فاعاد الصلح مع الروم سنة

(-79 -هـ/ 699م) وقبل ان يدفع ليوستنيانوس ثلاثمائة وستين 360 عبدا(2).

وقد واصل الروم البيزنطيون هذا التصرف مع الحرب المسلمين

في العصور الموالية اذ ذكر ابن مسكويه ان نقفور فوقاس Nicephorus II Phocas

---

1) اسد رستم ـ الروم في سياستهم ج 1 ص 263_ 264

2) المرجع نفسه -

عندما حاصر حلب سنة (351هـ/962م) اقترح الامان على اهلها على ان يسلموا اليه ثلاثة الاف صبي وصبية (1) .

ان كل هذه الاحداث تشير الى نوع خاص من العلاقات الحربية او السلمية كانت تربط المسلمين باعدائهم ويبدو انهم اضطروا في بعض الظروف الى اتباع سنة دولية والخضوع لها بالرغم من ان التشريع الداخلي لا يحبذهما اذ حدد الفقهاء شروط المهادنة ولم يجوزوا تسليم رقيق المسلمين الى عدوهم لكن الواقع قد تجاوز في بعض الاحيان هذه النظريات لان حالة الضعف تجعل الضعيف خاضعا لشروط القوي وبما ان الصلات الحربية تحتم ان يعامل الفريقان بعضهما نفس المعاملة لا نستبعد ان يكون المسلمون في فترات قوتهم قد سمحوا لانفسهم باستخلاص رؤوس من الرقيق في شكل ضريبة كما فعل بهم عدوهم لكنهم لم يجعلوا من ذلك قاعدة ثابتة لان التشريع الفقهي كان يكبح جماحهم ويجبرهم على احترام تعاليم الدين (2) فكانوا يبحثون

---

1) ابن مسكويه - تجارب الامم (نخب تاريخية ص 151)

2) برنشفيك Brunschvig - مقال عبد - طالحديدة لدائرة المعارف ص 27 (مصدران شرعيان الرق هما الاسر والولادة فى الرق فقط)

عن صيغ جديدة ليسبغوا عليها لون الشرعية حتى يمكنهم مواجهة بعض مشاكلهم الاقتصادية والحربية .

ويجدر بنا ان نلاحظ ان هذه المحاولات التي قام بها القادة و الساسة المسلمون لحل مشاكلهم الحربية والاقتصادية ولمواجهة حاجتهم الى بضاعة الرقيق كانت تستهدف في مرحلتها الاولى الشعوب التي قاومت الاسلام ورفضت الانضواء تحت لوائه وقبلت دفع ضريبة مقابل المحافظة على كيانها واستقلالها ، ومن ذلك ما رواه ياقوت عن غزو منطقة كوار جنوب فزان اذ روى ان عقبة بن عامر قد غزا هذه المنطقة وفرض على ملكها جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة وستون 360 عبدا (1).

2) بوادر الخلل بين العرض والطلب

الا ان المسلمين لم يقفوا عند هذه المرحلة من المحاولات وراحوا يلتمسون سد حاجتهم من الرقيق من رعايا المسلمين انفسهم فادى بهم الامر الى سوء معاملة رعاياهم واثارة سخطهم خصوصا ان هذا التصرف ينافي المبادىء الاسلامية ، ولنا مثال على

1) ياقوت الحموي- معجم البلدان - مادة كوار

هذا التصرف حدث بالمغرب ونجد صداه عن ابن عذاري صاحب كتاب البيان المغرب اذ يصف لنا ما لجأ اليه بعض العمال من ظلم وقهر وتجاوز لحدود الشرع المتعلقة باحكام السبي والغنائم فيذكر لنا ان عمر بن عبد الله المرادي الذي كان اذاك والي طنجة ومنطقتها قد اساء التصرف وتجاوز حكم الشريعة فيما يخص الصدقات والعشور واراد ان يخمس البربر زاعما انهم فيء للمسلمين وهو عمل لم يجرو عليه اي وال قبله اذ كان الولاة فيما قبل يخمسون من امتنع عن اعتناق الاسلام فقط وقد جرت هذه الاحداث التي يذكرها صاحب البيان سنة (123هـ/ 740 م) وهذا نص الرواية كما اوردها «ثم ان عمر بن عبد الله المرادي عامل طنجة وماوالاها اساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر واراد تخميس البربر وزعم انهم فيء للمسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله وانما كانت الولاة يخمسون من لم يجب للاسلام فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية الى كثير القتل في العباد نعوذ بالله من الظالم الذي هو وبال على اهله . فلما علم البربر خروج حبيب بن ابي عبده الى بلاد الروم لغزوا الطاعة لعبيد الله ابن الحبحاب طاعة واطمعهم وتداعت برابر المغرب باسره فثارت البربر

بالمغرب الاقصى فكانت اول ثورة فيه وفي افريقية في الاسلام»(1).

من الواضح ان معنى التخميس في هذا الخبر لا يتعلق بالغنائم وانما يتعلق بالبشر واذا سلمنا بجواز اخذ الخمس من السكان الرافضين للدين الجديد في نظر بعض الفقهاء وكما يفهم من سياق هذه الرواية ويدعمه راي الليث فان تعميم هذا التخميس على المسلمين يعتبر تجاوزا لحدود الاحكام الشرعية وارهاقا للرعية وظلما ، والظاهر ان التعميم قد احوجت اليه سياسة العمال الراغبين في الاستجابة لرغبات السلطة بدمشق والحرص على الاحتفاظ بكميات الرقيق المطلوبة رغم تبدل الاحوال والظروف وانتشار الاسلام فوقع تجريد عملية التخميس من مفهومها الديني وتطوير مدلولها استجابة للظرف الراهن ، ونحن لا نشك في ان هذا التصرف فردي صادر عن بعض العمال وليس قاعدة متبعة من قبل سائرهم ولذلك يعتبر شاذا ودالا على الاحوال الاستثنائية التي فرضها نقصان مقادير الرقيق في المجتمع الاسلامي .

1) ابن عذاري - البيان - ج 1 ص 52 — ابن خلدون - العبر - ط بيروت 1958 ج 4 ص 408

ويوجد شبه كبير في ما حدث من انحراف في معنى الخمس

بالمغرب في هذه الفترة من الزمن وماحدث بالمشرق من انحراف في معنى

الجزية والخراج (1) اذ جزدهما بعض الولاة من الاعتبار الديني

ووظفوهما في بعض الاقاليم وفي فترة من الزمن محدودة على المسلمين

خوفا من تناقص الواردات وقد وقع هذا التوظيف في خراسان و ما وراء

النهر (2) وتسبب كذلك في ثورات وانتفاضات متوالية الى ان قام عمر

ابن عبد العزيز (98-101هـ/717-720م) بارجاع الامر الى نصابه ووضع هذه

الضريبة عن المسلمين انتصارا للمبادئ الدينية بالرغم مما احدثه انتشار

الاسلام بين الرعايا الجدد في البلاد المفتوحة من تناقص في الجبايات

من ازمة اقتصادية. فالتشابه واضح بين هذين العمليتين اذن اذ لهما

علاقة بانتشار الاسلام من ناحية وبظهور ازمة في الوارد سواء اكان هذا

الوارد مالا او رقيقا او اقواتا وامتعة..

لقد ضاعفت اذن هذه الازمة من استبداد الولاة فامسى

بعضهم جباة ومسترقين اكثر مما كانوا رعاة لمصالح مرؤوسيهم واطنب ابن عذاري

في الحديث عن هذا التصرف وما نتج عنه من قلاقل (3)

---

1) الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 25-33

2) الدوري (عبد العزيز). نظام الضرائب في خراسان في صدر الاسلام - مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد 11 - 1384هـ/ 1964م - ص 83-85

3) ابن عذاري - البيان المغرب.. ج 1 ص 52

لامراء اذن في ان تزايد الحاجة الى الرقيق (1) وايذان مصادره بالنضوب او بعبارة اخرى انخرام التوازن بين العرض والطلب في مادة الرقيق بازدياد الطلب ونقصان العرض قد افضى بالمسلمين في حالات معينة واماكن معلومة الى تجاوز الشرعية الفقهية واتخاذ الذرائع الكفيلة بسد حاجتهم الى تلك البضاعة البشرية ، وان ادى بهم الامر الى سوء معاملة اولئك الرعايا الجدد الذين دخلوا في الدين الجديد ، وما من شك ايضا في ان هذه الظروف قد دعت بعض العمال في الولايات الاسلامية الى التنافس في توفير اكبر كميات من الرقيق لرؤسائهم من الامراء والخلفاء طمعا في رضاهم وعربونا لوفائهم لهم مرهقين بذلك كواهل رعاياهم ومساقين وراء ضروب من التطرف تؤول احيانا الى القهر والظلم وتتسبب في سخط الرعية على عمالها وتمردها عليهم، ومما زاد الطين بلة ان المسألة لم تعد بمرور الايام واستفحال ازمة الرقيق مجرد تنافس بين الولاة في هذا الشان بل اتخذ الامر صورة الضغط على هؤلاء الولاة احيانا من قبل مركز الخلافة ، فقد كان الخلفاء يحلمون بعهد الفتوحات الكبرى الذي كان يدر عليهم سيلا من السبايا الجميلات

---

1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد ـــ دائرة المعارف الاسلامية - ج 1 - ص 34

وغاب عنهم ان الظروف قد تغيرت بانتشار الاسلام وتوقف الفتوح فتمادوا في طلب الهدايا من الرقيق وشددوا في الطلب غير مدركين ان موقفهم هذا لم يكن سليم العواقب ولا خاليا من الاخطار ، وقد احتفظ لنا الاصفهاني برسالة بعثها الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك الى عامله بافريقية طالبا منه ان يرسل اليه طرائف المغرب ومن بينها الجواري وهي تدل على مبلغ الحاح الخلفاء في طلبهم ذاك ومدى ولعهم بهذه البضاعة التي اصبحت نادرة في ذلك الوقت (1).

بقي علينا ان نعرف الان موقف المرؤوسين الذين يتلقون مثل هذه الرسائل وتبلغهم مثل هذه الطلبات في وقت لم يكن بامكانهم فيه ان يشنوا الغارات وان يسبوا فتيات البربر بدون حق ، ان ابن عذاري يعيننا على فهم بعض هذه المواقف اذ وصف لنا تصرف احد الولاة وهو ابن الحبحاب فذكر انه استجاب لتلك المطالب ووعد اصحابها بوعود تتجاوز طاقة البلاد ومواردها والجأه هذا الموقف الحرج الى

---

1) النص لابي الفرج الاصفهاني من كتاب النساء ذكره التيجاني (ابو عبد الله محمد) صاحب الرحلة في كتابه ـ تحفة العروس (الطالبي ـ الامارة ـ ص 68ـ69) واشار اليه كذلك اشارة عابرة ابن عذاري في البيان ج 1 ص 52 ـ نشرة ـ كولين ـ Colin وبروفنسال ـ Provençal ـ 1948

استعمال وسائل العنف لاحراز ما ترغب السلطة المركزية فيه من سبايا فما كان من الرعايا البربر الا ان ثاروا على هذه السياسة وتمردوا لها فقتلوا عاملهم وتمردوا على ابن الحبحاب ، يقول صاحب البيان المغرب في هذا الشان (وكان السبب في ثورة البربر وقيام ميسرة انها انكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فيها الى عامل افريقية فيبعثون لهم البربريات السنيات فلما افضى الامر الى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم او كلفوه اكثر مما كان فاضطر الى التعسف وسوء السيرة : فحينئذ عدت البرابر على عاملهم فقتلوه وثاروا باجمعهم على ابن الحبحاب) (1) ثم يقول متحدثا عن هذه الثورة (وفي سنة 122 كانت ثورة البربر بالمغرب فخرج ميسرة المدغري وقام على عمر بن عبد الله المرادي بطنجة فقتله وثارت البرابر كلها مع اميرهم ميسرة الحقير ، ثم خلف ميسرة على طنجة عبد الاعلى بن حديج وزحف الى اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب الى السوس فقتله ثم كانت وقائع كثيرة بين اهل المغرب الاقصى واهل افريقية

---

1) ابن عذاري -البيان ج 1 ص 52

يطول ذكرها ، وكان بالمغرب حينئذ قوم ظهرت فيهم الخوارج ولهم عدد كثير وشوكة كبيرة وهم برغواطة)(1).

لقد كانت قضية الحاجة الى الرقيق اذن من اهم قضايا المجتمع الاسلامي اذاك اذ امست كما راينا عاملا اساسيا من عوامل الاضطراب والامن ومشكلة هامة من مشاكل السياسة الداخلية في البلاد وسببا رئيسيا من اسباب ظهور حزب معارضة للسلطة القائمة فقد استغل الخوارج ظروف السخط هذه لابراز الفرق بين مبادئهم الدينية العادلة وغطرسة عمال بني امية فنجحوا في ضم الغاضبين الى صفوفهم واستطاعوا ان يعلنوا الثورة التي اشار اليها ابن عذاري في نصه السابق الذكر وهي غزوة الاشراف سنة 122 هـ وقد هزم فيها البربر العرب هزيمة نكراء.

وقد كان لهذه الثورة صداها البعيد في نفوس ولاة افريقية فيما بعد فغيروا اسلوب سياستهم ازاء مركز الخلافة ووقف بعضهم في وجه هذا الاستغلال حرصا على استتباب الامور واستقرارها داخل

---

1) المصدر نفسه

ولايتهم (1) وعلى ضوء هذه الاوضاع الجديدة يمكن لنا ان نفهم موقف الوالي عبد الرحمن بن حبيب (127ـ 137هـ/ 744 - 754 م) من الخليفة ابي جعفر المنصور(136-158هـ/754-775م)حين طالبه بالهدايا فقد اجابه بان اهل افريقية قد اسلموا جميعا وانه لا يمكن الحصول فيها على سبي واكتفى بان ارسل له انواعا من البوازي والكلاب(2) وهذا يدل على ان هذا الوالي قد ادرك الخطر المنجر عن استغلال المشرق للمغرب واعتباره مجرد مستودع للرقيق فاراد ان يتعامل مع الاهالي محاولا قدر الطاقة الاستقلال عن السلطة المركزية (3).

ويرى الاستاذ الطالبي(4)ان موقف هذا الوالي يبشر بعهد جديد في افريقية، قد وضع حدا للاستغلال وظهرت فيه بوادر الاستقلال عن مركز الخلافة ، فلم يعد بالامكان التعويل على جلب رقيق من افريقية وامسى الخلفاء منذ اواخر حكم هشام بن عبد الملك (- ١٢٦ هـ/ 743م) يعتبرون هذه الولاية ثقلا على الخلافة ومصدر قلق بعد ان كانت

---

1) الطالبي - الامارة الاغلبية ص 33ـ37
2) جورج مارسي GeorGe Marçais - بلاد البربر = La Berbérie ص 26
3) ابن عذاري - البيان ج 1 ص 55و 67
4) الطالبي - الامارة الاغلبية ص 33ـ37

مصدر منفعة وربح (1) وسوف تقوم هذه الخلافة بعد نصف قرن من التمرد والثورات التى لا طائل وراءها بمد يد المساعدة لمن يستطيع ان يضمن السلم في هذه المنطقة وان يحافظ على خراج معقول لا علاقة له بالاستغلال ، وبذلك انتهى سبي البربريات بغير حق واذا ما وجدنا خلال اواسط القرن الثالث الهجري بعض الافريقيات يرسلن الى حريم بغداد فان ذلك راجع الى احداث نادرة وشاذة متصلة ببعض الثورات وراجع ايضا الى ولاة عرفوا بالقسوة والى تلك الحاجة المتجددة الى هذه البضاعة والتي تشتد احيانا فتلجىء اصحابها الى تجاوز تعاليم الشرع وفرض الرق على ابناء الدين الواحد والجنس الواحد بمناسبة ثورة من الثورات او غارة من الغارات مثلما حدث ذلك في عصور موالية ابان ثورة القويبع (236هـ/ -850 -م) في عهد الامير محمد بن الاغلب (226_242هـ/ 841 - 856 - م) عندما سبى جند الاميرالحرائر العربيات وباعوهن الى تجار الرقيق مما اثار غضب القاضي سحنون ودفعه الى الوقوف في وجه السلطة والانتصار لاوامر الشرع (2)

---

1) ~~ابن عذا~~ جورج مارسي - بلاد البربر - George-Marçais - La Berberie - ص 58

2) ابن عذاري – البيان المغرب – ج 1 ص 110 – ابن ناجي – معالم الايمان – طبعة تونس (1320هـ/ 1902م) ص 58 – الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 243_248

وهكذا يتضح لنا ان عملية العرض والطلب المتصلة بالرقيق قد لعبت دورا كبيرا في تقويم مصير بعض الولايات الاسلامية و التبست بملابسات سياسية واجتماعية معقدة وفي كل ذلك اكبر دليل على ازمة عاشها المجتمع الاسلامي بسبب نضوب الموارد التى كانت تدر عليه بضاعة لم يعد بامكانه الاستغناء عنها فكان لا بد له اذن لحل الازمة من البحث عن موارد اخرى تسد حاجته الملحة الى الرقيق .

3) تنشيط روافد التوريد

لم يكن بد اذن ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة من تنشيط روافد توريد بضاعة الرقيق واعتماد الوسيلة التجارية التى ستحتل شيئا فشيئا وخاصة مع القرنين الثالث والرابع المرتبة الاولى في تزويد الاسواق الاسلامية بهذه البضاعة الضرورية لمجتمع ذلك العصر . فمنذ منتصف القرن الثامن الميلادي بدات اوروبا الكارولنجية تتزود بمواد الشرق وبضائعه مستوردة اياها من ايطاليا وهي مواد كانت تصل الى اوروبا عن طريق صقلية ونابلي - Napoli الملفي Amalfi والبندقية Venise وكانت افريقية تقوم بدور الوسيط الاساسي في نقل بضائع الشرق الى ايطاليا (1) وكان دور البندقية في هذه المعاملات التجارية هاما حدا اذ نعلم من احداث سنة (- 132 - هـ / 750 م) ان تجارها كانوا يذهبون الى روما لشراء الرقيق حتى يبيعوه بعد ذلك في افريقية .(2) فقد وجد اذن تيار

1) دوهارد - R. Dœhaerd - البحر المتوسط والاقتصاد الغربي - كراسات التاريخ العالمي - سنة 1954 عدد 1 ص 583 .
Méditerranée et Economie occidentale pendant le Haut Moyen Age Cahiers d'Histoire Mondiale - I. 1954 - p 583

2) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق في العصر الوسيط ج 1 ص 95 . 96

تجاري يستعمل فيه الرقيق في صورة عملة صالحة للمبادلات. ومما يؤكد وجود هذا التيار التجاري ان الوفد الذي ارسله الادارسة لعقد هدنة مع البطريق جرجير - Grégoire - في صقلية سنة (-198- هـ/ 813 م) قد سافر في بواخر البندقية . وقد جاءت الاشارة الى ذلك في الرسالة التي ارسلها البابا ليون الثالث Léon III (816-795/م200-179) الى شرلمان (165 - 199 هـ/ 768 - 814 م) في نفس السنة (1) وهذه العملة من الرقيق كانت مستعملة بين ايطاليا والمغرب الاسلامي وكان هنالك تجار مسيحيون ومسلمون على الضفتين المتقابلتين (2) يسهرون على تبادل البضائع لتنتشر اثر ذلك داخل اوربا والعالم الاسلامي .

وكما نشط تزويد الرقيق الاوربي ازدادت صلات المسلمين التجارية ببلاد السودان متانة ولوحظ منذ اواسط القرن الثاني اقبال على جلب الرقيق الاسود عن طريق مصر وبلاد المغرب وجنوب الجزيرة العربية وموانئ الخليج الفارسي . الا ان هذا النشاط التجاري لن يتسع مداه ويكون له رواج كبير الا مع القرنين الثالث والرابع للهجرة عندما سينضب رقيق الفتح بصورة تكاد تكون نهائية وسيصبح جلب الرقيق عن طريق التجارة الحل الامثل لتزويد العالم الاسلامي بهذه البضاعة .

---

1) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص 396 وما بعدها

2) المرجع نفسه -

القسم الثاني

تجارة الرقيق

خلال القرنين الثالث والرابع

للهجرة

الباب الاول

الطلب وتجدد الحاجة الى الرقيق

الفصل الأوّل

نقاد الرصيد
منذ القرن الثاني للهجرة

لقد راينا كيف واجه مسلمو القرنين الاول والثاني للهجرة مشكلة التزود بالرقيق الضروري لاوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية وكيف وجدوا في رقيق الفتوحات الحل الامثل لتلك المشكلة.
وقد اتضح لنا من تحليلنا السابق ان حركة الفتح قد كانت اكثر نشاطا ونجاعة من حركة التوريد في مواجهة مسألة التزويد للاسواق الداخلية. لكن هذه الحلول لم تكن صالحة طبعا الا لعصرها الذي ظهرت فيه ولا ينبغي ان ننتظر منها ان تكون ناجعة بالنسبة الى العصور الموالية. فلكل عصر مشاكله الاقتصادية والاجتماعية والحلول المناسبة لها. وقد راينا كيف اختلفت اوضاع العرب قبل الاسلام في هذا المجال عن اوضاعهم بعده. وكيف كانت معالجتهم لهذه القضية مختلفة عن معالجة المسلمين لها خلال القرنين الاول والثاني للهجرة.

فلا غرابة اذن اذا ما عرفت تجارة الرقيق منعرجا جديدا مع اوضاع القرنين الثالث والرابع للهجرة. بل ان هذا المنعرج قد ظهرت علاماته منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. ذلك عندما بدات ازمة التزود بالرقيق تظهر من جديد بسبب توقف الفتح

الاسلامي . اذ صار المعين الذي كان يزود الاسواق الاسلامية بالرقيق مهددا بالنضوب . وفعلا لقد شهدت هذه الفترة هدوءا يكاد يكون شاملا وسلسلة من المهادنات بين دار الاسلام ودار الحرب كان لها اثر حتمي في تعطيل عملية التزود بأرصدة جديدة من الرقيق .

4) توقف الفتح

لقد ولى عهد الفتوحات الكبرى مع دولة الراشدين والدولة الاموية العربية ولم يعد هنالك ما يدل على ان العباسيين كانوا كالامويين يهدفون الى القضاء على دولة الروم (1) بل انهم لم يستطيعوا ان يشكلوا خطرا كسابقيهم على عاصمة الامبراطورية الرومية . ولم يتمكنوا من تحقيق سوى بعض الفتوح القليلة الاهمية . وما من شك من ان لظاهرة تراجع الفتح اسبابا عديدة تعسر الاحاطة بها واسرارا بقيت الى الان في حاجة الى تفسير. الا اننا نشير الى بعض الاسباب الهامة التي كسرت انطلاقة الفتح في هذه الفترة من الزمن (2).

1) فازيلياف - Vasiliev - العرب والروم - ص 10 - 12
2) الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 384 - وص 389 - 396

لقد ذهب بعض الباحثين مثل لوباز - R-S. Lopez (1)
وفازيليف - Vasiliev - (2) الى ان توقف الفتوحات
قد كان نتيجة هزيمة المسلمين في بعض المعارك الحاسمة
مثل معركة بواتي Poitiers (113هـ 732 م) ومعركة تهرص (130 هـ 747 م) لكن
هذه الهزائم مهما كانت حاسمة لا يعقل ان تكون قاضية
على قوى المسلمين الحربية . وعلينا ان نبحث عن اسباب اعمق
واكثر مساسا باوضاع كل من المسلمين والروم اذاك . فمن الحقائق
الثابتة ان الخلافة الاسلامية قد بدات اذاك تتدرج نحو الضعف
والانحلال وصارت فريسة تطاحن العناصر الفارسية
والتركية والعربية ونتج هذا الضعف انقسام الامبراطورية
الاسلامية الى دويلات وطوائف مستقلة استقلالا يكاد يكون
تاما عن السلطة المركزية . بينما اخذت الامبراطورية الرومية تسترجع
قوتها وتوحد صفوفها امام صولات العدو بعد ان كان كيانها
في الميزان في العهود السابقة (3)

---

1) لوباز - R-S Lopez - ميلاد أوروبا - ج 1 . ص 84

2) فازيلياف - Vasiliev - العرب والروم - ص - 9 - 12

3) الطالبي - الامارة الأغلبية - ص389 - 396

لقد كانت القلاقل الداخلية تشغل اهتمام السلطة الاسلامية عن الالتفات الى التوسع عن طريق الفتح فأمسى موقفها دفاعيا بعد ان كان في ما مضى موقفا هجوميا وصارت المبادرة في الحرب للروم بعد ان كانت للعرب . واكتفى الخلفاء بتفويض مهمة الدفاع لحكام الحدود اما الصوائف والشواتي التي كانوا ينظمونها فلم تكن حروب فتح كالتي قام بها الامويون والعباسيون الاولون وانما كان الدافع الى القيام بها هو القيام بواجب الجهاد ورد هجومات البزنطيين التي صارت متعاقبة (1).

وقد كان وراء هذا التقهقر اسباب اقتصادية ايضا اذ كان المسلمون يتكبدون في هذه الفترة تكاليف باهضة لحماية الثغور الواقعة على حدود بلاد الروم وصارت الصوائف والشواتي تكلفهم اعتمادات كبيرة تفوق خراج تلك المناطق الواقعة على تخوم بلاد الاسلام فقد ذكر قدامة ان هذه التكاليف تصل الى ضعف الخراج او اكثر من ذلك بالنسبة الى الثغور الواقعة

---

1) فازيلياف - vasiliev - العرب والروم - ص 10 - 12

شمالي الشام مثل طرسوس واذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وغيرها اذ يقول عن هذه الثغور ((وارتفاعها نحو المائة الف دينار ينفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها وهي المراقب والحرس والفواشير (1) والركاضة (2) والموكلين بالدروب والمخائض والحصون وغير ذلك مما جانسه من الامور والاحوال ويحتاج الى شحنتها من الجند والصعاليك . وراتب مغازيها الصوائف والشواتي في البر والبحر في السنة على التقريب مائتي ((كذا))الف دينار وعلى المبالغة وهي ان يتسع ثلاثمائة الف دينار)) (3).

هكذا كان الشان بالنسبة الى ثغور الشام وقس على ذلك الجزيرة ايضا وكذلك ثغور ديار بكر فخراج الثغور البكرية في السنة ((الف الف وثلاثمائة الف درهم تحتاج نفقاتها في مصالحها وحصونها وارزاق شحنها الى هذا المقدار وزيادة الف الف وسبع مائة الف درهم)) (4) اما الثغور الجزرية

1) جمع فاشور وهو الجاسوس والمكلف بالاطلاع على ارض العدو واكتشافها -

2) جمع ركاض وهو عون البريد

3) قدامة - كتاب الخراج - طبعة دي غوية De Goeje. المكتبة الجغرافية العربية - BGA - 1889
ص 252 - 255

4) المصدر نفسه

فبلغ ارتفاعها ((سبعون الف دينار يصرف منها في مصالحها اربعون الف دينار ويبقى ثلاثون الف دينار ويحتاج لنفقة الاولياء والصعاليك على التجزئة (1) مائة الف وعشرون الف دينار تنضاف الى البقية وعلى المبالغة مائة وسبعون الف دينار تنضاف اليها تتمة مائتي الف دينار سوى نفقات المغازي في اوقاتها))(2).

لقد كان تحصن الثغور من طرسوس الى ملطية يكلف الدولة باهضا كما راينا وكان خراج الجند اقل بكثير من النفقات التي تنفق عليه (3) فلم يكن بقدرة المسلمين اذن الا محاولة حماية الامبراطورية ورد الهجومات ولم تعد الفرص متاحة لمزيد التوسع على حساب الغير . وهكذا آلت العمليات الحربية في الغالب الى صراع على الحدود وتنازع الثغور مع العدو دفاعا عن دار الاسلام .

1) بمعنى على اقل تقدير ويقال ايضا على التقريب وعكسه على المبالغة اي على اقصى تقدير - المصدر نفسه ص 210

2) المصدر نفسه ص 252 . 255

3) فازيلياف - vasiliev - العرب والروم ص 86 وما بعدها

أ- سلسلة الافدية

وكانت سلسلة الافدية التي نظمها المسلمون والبيزنطيون في هذه الفترة من الزمن دالة على كثرة اسرى المسلمين الواقعين في ايدي الروم وعلى ظهور نظام في صفوف الجيوش البيزنطية مما مكنها من الصمود في وجه الغزو الاسلامي ووضع حد له . كما تدل هذه الافدية على ان اسرى الروم الواقعين في ايدي المسلمين كانوا يستعطون غالبا في المفاداة ولم يتح لهم ان يكونوا دائما مادة تجارية للاسواق كما كان الشأن من ذي قبل . فقد كان اول فداء نظمه المسلمون في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد(170-193 هـ/ 786-790 م) وذلك سنة (189هـ/805م) وهو الفداء المسمى باسم مولى الخليفة ابي سليم فرج الذي كلف باعادة بناء طرسوس سنة (171 هـ/ 787 م) وقد تم بثغر (لميس) على ضفاف البحر الابيض المتوسط وهي النقطة التي وقعت بها افدية كثيرة بعد ذلك . ولعل في تاريخ هذا الفداء الاول ما يدعم ما ذهبنا اليه من ان نهاية القرن الثاني للهجرة هي اعلان عن تراجع الفتوحات (1)

1) كليمان هوار - Cl. Huart - تاريخ العرب ج ص118 ، 122

ويؤكد المؤرخون على ان المسلمين لم يعرفوا قبل هذا التاريخ فداءا منظما بل كانوا يفدون افرادا قلائل بين الفينة والاخرى كما كان يحدث في عهد عمر بن عبد العزيز (98 - 102 هـ/ 717 - 720 م) اذ يروى عنه اهتمام بهذا الجانب لتقواه وحرصه على ان لا يبقى بايدي الكفار مسلمون مهما قل عددهم وشمل فداء ((نقاش الانطاكي)) في عهد الخليفة المهدي (158 - 169 هـ/ 775 - 785 م) فحدث هذا الفداء المنظم اذن في عهد الرشيد يفيد ان المسلمين كانوا يشعرون بالاضطرار اليه لكثرة ما بأيدي العدو من رجالهم فقد فدوا خلال اثني عشر يوما ثلاثة الاف وسبعمائة 3700 من اسراهم

ومنذ ذلك التاريخ توالت حلقات الافدية في فترات الهدنة . نعد منها المسعودي اثني عشر بينما اعتبرها المقريزي ثلاث عشرة وجميعها يتراوح بين سنتي (189 هـ/ 805 م) و (335 هـ/ 946 م) . فكان منها فداء اكثر من خمسمائة والفي 2500 اسير في عهد الرشيد

سنة (192 هـ/ 808 م) وفداء اكثر من اربعة الاف 4000 مسلم في عهد الواثق (227 - 232 هـ/842-847 م) سنة (231 هـ/ 845 م) وفداء نحو ذلك في عهد المتوكل (232 - 247 هـ/ 847 - 861 م) سنة (241 هـ/ 856 م) وسنة (246 هـ/860 م) وفداء حوالى ثلاثة الاف 3000 اسير في عهد المعتضد (279 - 289 هـ/892 - 902 م) سنة (283 هـ/ 896 م) وفداء الف ومائة 1100 مسلم في عهد المكتفي (289 - 295 هـ/902 - 908 م) سنة (292 هـ/ 905 م) وهو المسمى بفداء ((الغدر)) وفداء حوالي ثلاثة الاف 3000 اسير سنة (295 هـ/ 908 م) وهو المسمى بفداء ((التمام)) (1).

ولسنا في مقام احصاء ولكن المهم ان نلاحظ ان المسلمين كانوا يفدون اسراهم بما سقط في ايديهم من اسرى العدو اي بعطية تبادل الاسرى واذا كانوا

1) المسعودي-التنبيه والاشراف - الطبعة الفرنسية - ترجمه كارادي فو - B. Carra.de.vaux - 1897 - ص255 . 262 مروج الذهب - ج 9 ص356 - 362 (وقد ترجم دي ساسي - S. de. Sacy. الفصل الوارد في التنبيه والاشراف وادرجه في ترجمته لمروج الذهب بالجزء المشار اليه) المقريزي - خطط ج 2 ص191 وما بعدها .

قد تمكنوا في الافدية التي اشرنا اليها من القيام بعملية التبادل فاننا نراهم قد اضطروا بعد ذلك وفي الافدية المالية الى مفاداة اسراهم بالاموال لنفاد ما بين ايديهم من اسرى العدو وكما حدث ذلك في الفداء التاسع في عهد المقتدر (295-320هـ/ 908-932م) سنة (305هـ/ 917م) وفي الفداء العاشر سنة (313هـ/ 925م) وفي الفداء الحادي عشر الذي حدث في عهد الخليفة الراضي (322-329هـ/934-940م) سنة (326هـ/ 938م). ذلك الفداء الذي دل على تكاثر اسرى المسلمين بيد الروم اذ بلغوا زهاء ثلاثمائة وستة الاف 6300 اسير كان فداؤهم بالمال وبقي منهم ثمانمائة 800 بيد الروم لان فداءهم لم يتم في الابان مما احوج الى تمديد فترة الهدنة بستة اشهر اما الفداء الثاني عشر الذي حدث سنة (335هـ/ 946م) في عهد الخليفة المطيع (334-363هـ/ 946-974م) فقد بذل المسلمون فيه ثلاثين الف دينار لفداء اكثر من الفي 2000 اسير مسلم – ويشهد تاريخ هذا العصر بوجود

افدية اخرى لم يعتبرها المؤرخون من الافدية الرسمية الاثني عشرا والثلاثة عشر الواردة في قائمتي المسعودي والمقريزي مثل فداء سنة (247هـ/ 861م) او فداء سنة (253هـ/872م) وغيرهما وهي كلها دليل على تناقص رقيق الفتح في هذا العهد (1).

ب- معاهدات الهدنة

وقد تكررت معاهدات الهدنة بين المسلمين واعدائهم في هذه الظروف مما استتبعت معه فترات الهدوء منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ويكفي ان نستعرض بعض الامثلة على هذه المعاهدات فمن ذلك مثلا ان افريقية قد اعلنت المهادنة مع الروم منذ ولاية محمد بن مقاتل العكي (181 - 184هـ / 796 - 799 م) والواقع ان الهدوء قد شمل اذاك كامل حوض البحر الابيض المتوسط (2) والدليل على ذلك ما ذكره ابن الاثير في الكامل من ان حملة بحرية واحدة نظمها الخليفة وقادها الغمر بن العباس سنة (161هـ/ - 778 م) (3) ثم تواصلت بعد ذلك المهادنات وطالت فتراتها خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة مثلما حدث بين البطريق جرجير Grégoire (ق-3-هـ/ ق-9-م) والادارسة سنة (198هـ / 813م)(4) وبين احمد بن طولون (254-270هـ/ 868 - 884 م)

1) المصدر نفسه
2) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص389. 396
3) ابن الاثير - الكامل - ح 5 ص60
4) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية - ص389.396

وطنت الروم سنة (265هـ/ - 279 م) وقد سعى في الهدنة بينهما عبد الله بن رشيد بن كاوس(1) وبين الراضي بالله (322-329هـ/ 934-940م) ورومانوس Romanus Lecapenus (308-334هـ/ 920.944 م) سنة (326هـ/ - 938م) (2) وبين المقتدر (295 - 320 هـ/ 908 -932م) وقسطنطين السابع (301 - 307هـ/913 - 919م) سنة (305هـ/ -917 - م) (3) الى غير ذلك من معاهدات الهدنة التي صحبت عمليات الفداء المذكورة سابقا مما يدل على تعاقب فترات الهدوء تعاقبا لم تقطعه الا بعض الفتوحات النادرة من حين لاخر ولا يشجع الا على العلاقات السلمية كالمبادلات التجارية كما سوف نرى (4).

لكن توقف الفتوحات ليس السبب الوحيد لنقصان مادة الرقيق في العالم الاسلامي خلال هذه الفترة وذلك لان الرصيد نفسه قد كان عرضة للتزيف والاستهلاك بسبب عوامل متنوعة منها ما يختص باوضاع هذا العصر ومنها ما يتصل باوضاع بضاعة الرقيق عند المسلمين عموما . ومن هذه العوامل ظاهرة العتق والاباق والفتن والثورات وهي كلها كما سنرى قد تسببت في استنزاف هذه البضاعة واحوجت الى البحث عن بديل او وسيلة تعويض

1) البلوي ـ سيرة احمد بن طولون ص109
2) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ص 65.60
3) المصدر نفسه ص 139.130
4) كلود كاهان - Cl Cahen - الشعوب الاسلامية - ص 357.349

2) ـ العتق وظاهرة استنزاف الرصيد

أ ـ العتق واحكامه

ان مادة الرقيق في المجتمع الاسلامي لم تكن ذات مقادير قارة بل انها كانت دوما معرضة للنفاد فكانت الحاجة اليها تبعا لذلك دائمة التجدد ، ومن اهم عوامل نفاد هذه المادة اقبال المسلمين في شتى عصورهم ولاسباب مختلفة على عتق رقيقهم وتحريره ويكتسي هذا العامل اهمية كبرى لصلته بعقيدة المسلمين وشريعتهم التي شرعت للعتق احكاما صار معها تحرير الرقيق بابا مفتوحا على مصراعيه فلهذه الظاهرة علاقة متينة بنظرية الاسترقاق في الاسلام وهي نظرية لا تعتبر الرق نظاما طبيعيا كما ذهب اليه فلاسفة اليونان ولا نظاما الهيا كما ذهب اليه رجال الكنيسة (1) وانما تعتبره وضعا استثنائيا وحالة طارئة ومؤقتة استدعتها ظروف اجتماعية هي ظروف الحرب ولا يمكن ان تكون ابدية كما تعتبر ان الاصل في الانسان هو الحرية ولذلك حثت المسلمين على العتق وحددت لهم مصادر الرق فضيقت بذلك اسباب العبودية ووسعت في منافذ الحرية ....

---

1) عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ص 75

لقد وجدت اذن في المجتمع الاسلامي عوامل عقائدية جعلت الارصدة من الرقيق مهددة بالنقصان ولا يتسنى لنا ان ندرك مدى اهمية هذه العوامل وآثارها في استنزاف الرصيد العبودي الا اذا ما اوضحنا موقف العقيدة الاسلامية من قضية تحرير العبيد ولهذا الغرض راينا من الصالح ان نحدد ابعاد هذا العتق وحدوده وان نرسم الصورة التي كانت له في هذا الفترة من تاريخ المسلمين

اننا نجد في الاسلام تشريعا واسع الافاق لتحرير العبيد فقد شجعت هذه الشريعة على عتق الرقاب وجعلت ثواب العتق اقتحام العقبة بين الجنة والنار قال تعالى (فلا اقتحم العقبة وما ادراك ما العقبة فك رقبة أواطعام في يوم ذي مسغبة) (1) وجاء في الحديث (ايما رجل اعتق امرءا مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا من النار)(2) واعتبر الرسول ان افضل العتق هو تحرير احسن انواع الرقيق واغلاه ثمنا (3) وحث الناس على المساهمة بالمال في عتق العبيد كما فعلت

---

1) القرآن ـ سورة البلد ـ آية 11-12-13-14
2) البخاري ـ صحيح ـ ج 3 ص 237
3) المصدر نفسه

عائشة مع بريرة (1) وكما تصرف النبي نفسه في عتق سلمان الفارسي (2) وفي هذا دليل على ان الشرع يعتبر ان الاصل في الانسان هو الحرية (3) وهو ما ادى بالفقهاء الى الحكم في شان اللقيط المجهول الاصل بانه حر (4) والى اعتبار اقرار الانسان على نفسه بالرق غير مقبول وغير كاف لسلبه حريته (5)

وقد وفر المشرع العديد من الفرص المتيحة لتحرير العبيد فاعلن ان هذا التحرير عبادة وتقوى وتكفير عن ذنوب كثيرة فهو كفارة الحنث في اليمين قال تعالى (لايؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم او كسوتهم او تحرير رقبة) (6) وكفارة القتل الخطأ قال تعالى (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله) (7).

---

1) العسقلاني — فتح الباري — ج 5 ص 185 - بهلوي — الجامع ج 2 ص 240 وما بعدها
2) ابن هشام — السيرة — ج 2 ص 142
3) وهبة زحيلي - اثار الحرب في الفقه الاسلامي. ص 441
4) راجع احكام اللقيط في شتى المصادر الفقهية
5) عبد الرحمان الكواكبي — مجلة المنار — المجلد 8 ج 22 يناير 1905 وذي القعدة 1323 هـ نشر في مجموعة الاعمال الكاملة للكواكبي بيروت 1975 ص 379
6) القرآن — سورة المائدة — آية 91 — مالك بن انس — الموطأ — ج 2 ص 479—480
7) القرآن — سورة النساء — آية - 91

وهو كذلك كفارة عن الظهار كما جاء في الاية الكريمة (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة) (1) وكفارة عن الافطار العمد اذ روي ان الرسول قال لمن سأله عن الافطار عمدا : " اعتق رقبة " (2) كما امر الرسول بالعتاقة عند الخسوف والكسوف (3).

هذه بعض الصور التي اتاح فيها المشرع العتق للرقاب وهي صور لا تقيد بحدود دينية او عرقية كما كان ذلك شانها عند اليونان او الرومان وعند اليهود والمسيحيين (4) ولا نرى في الشرع الاسلامي اشتراط الايمان في العبد المعتق الا في بعض الحالات بل اننا نجد الامام مالك يعتبر عتق الرقبة الكافرة افضل اذا كانت اغلى ثمنا (5) كما يعتبر ابو حنيفة ان الايمان ليس شرطا في العبد لان يعتق كفارة عن الظهار (6) وقد روي عن الرسول انه قال لحكيم بن حزام

---

1) القرآن — سورة المجادلة — آية 3
2) الكاشاني — بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع -القاهرة- 1910 ج 4 ص 51 -الزرقاني- شرح الموطأ ج 3 ص 226
3) البخاري — صحيح — ج 3 ص 288
4) عبد السلام ترمانيني — الرق ماضيه وحاضره — ص 71 — 74
ر — سالومون - R. Salomon - الرق من خلال المقارنة بين القانون اليهودي واليوناني L'esclavage en droit comparé juif et Romain طبعة باريس 1931 ص 107 — 108
5) الشوكاني — نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار- طبعة القاهرة 1961 ج 6 ص 86
6) الزرقاني — شرح الموطأ ج 3 ص 226

الـذي اعتق عبيده المشركين (اسلمت على ما اسلفت من خير) (1) واذا ما وكل المشرع امر العتق في هاته الحالات المذكورة الى الافراد والى صـدق ايمانهم وتقواهم ولم يعتبر عتق العبيد ولو مسلمين امرا اجباريا وانما صيغـة من صيغ التقرب الى الله (2) فانه ربط حالات اخرى من العتق بمشيئـة الحاكم وجعلها امرا مفروضا كوجوب عتق العبد الذي قطع سيده احد اعضائه اوضربه ضربا مبرحا (3) وقد نفذ الرسول وكذلك الخليفة عمر من بعده هذا النوع من العتق (4) وتعهد الشرع بكفالة المعتوق العاجز اذا اعتق بالرغم من مولاه بسبب مثلة او غيرها كما حدث بالنسبة الى غلام زنباع الذي اطلق عليه الرسول لقب مولى الله ورسوله واجرى عليه النبي وابوبكر وعمر عطاءا من بيت المال .(5) ومن صور التحرير ايضا عتق العبد الذي له بمولاه صلـة قربى وذلك تنفيذا لقول الرسول (من ملك ذا رحم محرم عتق عليه) وقولـه (لايجزي ولد والده الا ان يجده مملوكا فيشتريه ثم يعتقه (6) وكذلك عتـق

---

1) البخاري — صحيح — ج 3 ص 293 — 294
2) م وات - W.M. Watt - محمد في المدينة ص 356-360
3) البغوي — مصابيح السنة ج 2 ص 32—33
4) ابن قدامـة - المغني — ج 7 ص 601 — 5) احمد شفيق باشا - الرق في الاسلام ص 71—87
6) البهلوي — الجامع — ج 2 ص 249

العبد الذي هرب من دار الحرب الى دار الاسلام ثم اسلم (1) واذا ما حدث ان رفض العبد الحرية كان على الحاكم ان يحرره غصبا عنه .

ويذهب الفقهاء الى ان مجرد تلفظ السيد بالعتق ولو على سبيل الهزل يسقط الرق عن العبد ويلزم سيده بتحريره لانه في نظرهم عقد لا تشترط فيه النية (2) وحتى اذا قضى الحاكم بعتق رقبة ظلما لصاحبها جاز عتقه في نظرهم (3) ومن قبيل تكليف المشرع لأولي الامر بمسالة العتق تخصيص سهم من الزكاة الواجبة لفك الرقاب بصريح القرآن وتكوين رصيد في بيت مال المسلمين لتحرير العبيد قال تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليهم حكيم) (4) وقد اجاز الاسلام ان يدفع المسلم زكاته في شكل عتق رقبة ان كان عنده رقيق فمن كان عنده رقبة اعتق منها بقدر نصابه من الزكاة ومن لم يكن عنده رقبة اشترى بنصيبه من الزكاة رقيقا واعتقه (5)

---

1) الشيباني — شرح السير الكبير ج 5 ص - 289
2) الاوزجندي — الفتاوى الهندية ج 5 ص 55—61 برنشفيك Brunschvig دائرة المعارف الاسلامية ج 1 مقال عبد ص 30
3) عبد الرحمن الكواكبي — مجلة المنار — مجد 8 ج 22 في 11 يناير 1905 وذي القعدة 1323 هـ ونشر في المجموعة الكاملة لاعمال عبد الرحمن الكواكبي بيروت 1975 ص 379
4) القرآن — سورة التوبة — آية 60
5) ابن سلام — الاموال — القاهرة 1358 هـ ص 607

وقد اقر الفقهاء مراعاة لمقصد الشريعة في هذا الباب مبدا السراية في العتق بالنسبة الى العبد المبعض اي الذي اعتق سيده جزءا منه فقالوا بوجوب انجاز العتق - واذا كان ابو حنيفة قد شذ عن بقية الفقهاء فلم يقل بانجازه فان تلاميذه قد خالفوه (1) وقد اقر هذا المبدأ ايضا بالنسبة الى العبد المشترك الذي اعتقه احد الشركاء فالمعتق مجبر في هاته الحالة على انجاز العتق كاملا (2) ان كان له مال والا استسعى العبد "غير مشقوق عليه" كما جاء في الحديث (من اعتق نصيبا او شقيصا في مملوك فخلاصه عليه في ماله ان كان له مال والا قوم عليه فاستسعى به غير مشقوق عليه) (3) وتكون السراية ايضا في ابناء الامة العتيقة ومن عتقت حبلى كان جنينها بمنزلتها (4) .

وقد اكد المشرع على احترام قرار العتق وقرر عدم التراجع فيه فمن حرر لا يسترق ثانية وان كان عتقه ممنوعا بسبب دين مثلا ففي مثل هاته الحال يجيز القاضي قرار العتق ويلتفت بعد ذلك

---

1) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد ص 30
2) الشافعي - الام ج 4 ص 117 - بهلوي - الجامع - ج 2 ص 240 - 242
3) البخاري - صحيح - المطبعة المنيرية بمصر - بدون تاريخ - ج 3 ص 290
4) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 30

الى جبر الضرر بالنسبة الى المتضرر (1) وذلك لان العتق على حد قول الرسول احد ثلاث "ليس فيهن لعب النكاح والطلاق والعتق " (2) وقد ظل احترام قرار العتق راسخا حتى انعكس في امثال المسلمين السائرة كقولهم " هيهات غل يدا مطلقها واسترق نفسا معتقها "(3) فالعتق عقد من العقود استحب الفقهاء ان يكون مكتوبا وان يشهد عليه شهود توثقا وصيانة عند التجاحد والتنازع فيه (4) ويختلف الشرع الاسلامي في موقفه هذا من العتق عما كان معمولا به في حضارات اخرى كحضارة الرومان فمن العادات الرومانية القديمة ان العبد المعتق اذا قصر في احترام سيده كان لمولاه ان يتراجع في عتقه ويعيده الى الرق (5).

ولم يكد الفقهاء يعترفون باي مانع من موانع العتق باستثناء الدين الذي يخول للغرماء تسلم العبد في مقابل دينهم او بيعه واستخلاص

---

1) البهلوي ـ الجامع ـ ج 2 ص240ـ242 ـ الاوزجندي ـ الفتاوى الهندية ج 5ص55ـ61 برنشفيك Brunschvig. دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 30

2) الزرقاني ـ شرح الموطا ـ ج 3 ص 146

3) البلوي ـ سيرة احمد بن طولون ـ ص 307

4) الاوزجندي ـ الفتاوى الهندية ـ باب العتق ج 5 ص 55 وما بعدها

5) ر ـ مونيي ـ مبادئ القانون الروماني R. Monier _ Manuel elementaire de droit Romain باريس 1947 (في جزأين) ج 1 ص240 ـ 242

حقهم (1) وفي ما عدا هاته الحال نراهم يعملون على تبسيط وسائله حتى ذهبوا في ذلك الى تجويز العتق بالوكالة (2)

ومن الامور المشجعة على العتق ان احكامه لم تكن تفصم العلاقة نهائيا بين العبيد والسادة بل يبقى العبد في منزلة وسطى بين الحرية والعبودية ويصبح مولى لسيده وهذا شبيه بما وجد في الدولة الرومانية من عبيد محررين يسمون" لبرتين" Libertines (3) ويتمثل الولاء في عقد يخول للعبد حماية سيده بعد العتق اذ يضطلع بدفع العقل عنه في الجنايات والجراحات ويكون للسيد مقابل ذلك ان يرثه اذا مات وبذلك يكون للسيد دائما نصيب في مال عبده المعتق ولهذا السبب استكره الفقهاء عتق السائبة وهو الذي نفصم فيه العلاقة نهائيا ولا يكون فيه ولاء للسيد المعتق وقد حدث ذلك كثيرا في الجاهلية وكان الاسلام مستكرها له ومن امثلته عتق سالم مولى ابي حذيفة بن عتبة وقد كان مملوكا لبثينة امراة ابي حذيفة فاعتقته سائبة(4).

---

1) الاوزجندي ـ الفتاوى الهندية ـ باب العتق ج5ص 55 ومابعدها
2) البهلوي ـ الجامع ـ ج 2 ص 243
3) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 21ـ 23
4) ابن قتيبة ـ المعارف ص 92 مصر 1300 هـ

لكن هذا النوع من العتق الذي يتنازل فيه السيد عن الولاء وجد في الاسلام رغم ذلك ولم يمنع على وجه التحريم ولم يكن وجوده معطلا للعتق لانه معلق باختيار السيد فاذا اعتق السيد عبده وتنازل عن ولائه لم يكن له الحق في ارثه اذا لم يكن له وارث وفي هاته الحال يصير ميراث العبد المعتق الى بيت المال وكانت السنة التي سنها عمر بن الخطاب في هاته الحالة ان يشترى بذلك المال عبيد ثم يعتقون (1) وهكذا نرى ان وجود الولاء وعدم وجوده كلاهما مشجع على العتق .

بامكاننا اذن ان نستنتج من كل ما سبق ان الاسلام لا يعتبر عبودية الرقيق مؤبدة بل اننا نجد في الحديث ما يشير الى كونها ظرفية زائلة (2) فضلا عن الاسباب العديدة التي وفرها الشرع للقضاء على الرق بصورة تدريجية . ولا مجال هنا للتمادي في تفصيل القول في قضية العتق في الاسلام ويمكن ان نوجه القارئ الى كل الابواب التي ادرجها الفقهاء في كتبهم حول هذه المسالة لكي يجد فيها اضعاف ما ذكرنا من صور العتق الموصى بها شرعا .

---

1) ابن قدامة ـ المغني ـ ج 6 ص 410 ـ 413
2) احمد شفيق باشا ـ الرق في الاسلام ـ ص 72 وهبة زحيلي ـ آثار الحرب ـ ص 441-

ولا غرو بعد هذا اذا ما راينا المسلمين يقبلون على عتق الرؤوس العديدة من الرقيق الذي درت عليهم الفتوحات والذي كانوا يقتنون عن طريق الشراء . فقد كان هذا العتق الذي كنا بصدد تحليله يمثل اهم الاسباب في نقصان مقادير الرقيق بالمجتمع الاسلامي نقصانا مستمرا بالرغم من وجود مصادر لتزويده بكميات جديدة ويمكننا ان نعتقد في يقين انه بقدر اتساع عملية التحرير هذه بقدر نفاد بضاعة الرقيق .

ب - المسلمون والعتق :

* الدوافع العقائدية

لقد كان لهذه التعاليم اذن اثرها في نقصان رصيد المجتمع الاسلامي من الرقيق ولا يجب ان نظن انها قد بقيت مجرد احكام نظرية لا صلة لها بالممارسة التاريخية بل انها صادفت مجالا واسعا للتطبيق في واقع الحياة الاسلامية ووضعت موضع التنفيذ في شتى عهود الاسلام فمنذ حياة الرسول كانت جذوة الايمان المتقدة في نفوس المسلمين تحثهم على المسارعة الى عتق رقيقهم احتذاء بسلوك النبي الذي اعتق قبل موته جميع ما كان بحوزته من رقيق (1) وصحابته الذين نحوا

1) الكتاني ـ التراتيب الادارية ح 1 . ص 27 - 29

على منوالـه اذ كان ابو بكر يشتري العبيد من ساداتهم القرشيين ثم يعتقهم (1) وفعل فعله غيره من الصحابة والتابعين تقربا الى اللـه وعملا بما اوصاهم به دينهم وندبتهم اليه شريعتهم.

ولعل من اشهر اخبار العتق في عهود الاسلام الاولى تصرف المسلمين مع اسرى "عين التمر" الذين اسرهم خالد بن الوليد عند فتحها فقد كانوا اربعين اسيرا اعتقهم بعد ذلك مواليهم ونبغ من اولادهم جماعة كانوا عونا كبيرا للمسلمين في السياسة والحرب والعلم والدين "منهم موسى بن نصير فاتح المغرب والاندلس فان اباه من اولئك الاربعين وكذلك محمد بن سيرين صاحب تعبير الرؤيا فان اباه منهم وحمران مولى عثمان بن عفان وايضا محمد بن اسحق صاحب المغاني والسير فان جده يسار منهم وقس على ذلك سائر مشاهير الموالي الذين اصلهم من السبي في اثناء الفتح او بعده ، فابو صفر من سبي دبا في ايام ابي بكر وحماد الراوية اصل ابيه ديلمي من سبي مكنف بن زيد الخيل وسائب خاثر اصله من فيء كسرى ومروان بن ابي حفصة الشاعر الشهير اصله يهودي من سبي اصطخر والهروي اللغوي

---

1) ابن هشام ـ السيرة ـ ج - 1 - ص202 - 203

المشهور اسير وقع في سهم عرب نشؤوا في البادية وابن الاعرابي سندي الاصل وابو دلامة كوفي اسود كان عبدا لرجل من بني اسد فاعتقه وقس على ذلك سائر مشاهير الموالي الذين اصلهم من السبي " (1)

كذلك كان شان المسلمين مع رقيقهم منذ صدر الاسلام فهذا عبد الله بن عمر اذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه الى الله وكان اذا لاحظ احدا من رقيقه مواضبا على الصلاة في المسجد اعتقه فيقول له اصحابه : " يا ابا عبد الرحمن ما بهم الا ان يخدعوك " فيقول " ما خدعنا احد بالله الا انخدعنا له " وقيل انه اعتق على هذه الصورة الفا من عبيده (2) وقد سار المسلمون على هذا السنن في تحرير عبيدهم فمما وصلنا من اخبار الشاعر عمر بن ابي ربيعة انه لما تقدمت به السن اقسم الا يقول شعرا الا اعتق رقبة وقد نظم مرات بعد ذلك وبر بقسمه غير مرة (3) كما يروى ان عبيد الله بن ابي بكرة الثقفي الذي تولى ولاية سجستان اواخر القرن الاول للهجرة (4) كان يعتق في كل عيد مائة عبد (5) ومما يذكر ايضا

1) زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 3 ص 49 وج 4 ص 47ــ48
2) ابن خلكان ــ وفيات الاعيان ــ القاهرة 1948 ج 3ص 30 ــ زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 4ص 45
3) الاصفهاني ــ الاغاني ــ ج 1 ص 149
4) تولى ولاية سجستان سنة 75 هـ
5) ابن تغري بردي ــ النجوم الزاهرة ــ ج 1 ص 202 القاهره 1932 م

عن محمد بن سليمان بن علي العباسي زوج العباسة بنت المهدي انه قد كان له خمسون الف عبد اعتق منهم عشرين الفا (1).

وكثيرة هي الاخبار التي تصف لنا عتق السادة لعبيدهم في مناسبات معروفة مثل الموت وهو من المناسبات التي يوصي فيها المسلم عادة بعتق ما ملكت يمينه وكذلك مناسبات المسرة كالاعياد وحفلات الختان والزفاف وغيرها ، ومن احسن الامثلة على ذلك تصدق الخليفة المهدي عن ولده ابراهيم المعروف بابن شكلة بعتق خمسمائة عبد حين بلغ في قراءته للقرآن سورة البلد (2) وقد رسخت هذه العادات والتقاليد في المجتمع الاسلامي وتسببت في تحرير عدد كبير من الرقيق .

وقد كان انتشار الاسلام بين الرقيق باختلاف اجناسهم وملهم عاملا هاما من عوامل عتقهم ايضا لان الشرع الذي اوصى المسلمين بتحرير الرقاب عموما قد اكد خاصة على فك الرقاب المؤمنة هذا بالاضافة الى ان العتق تعقبه علاقة اجتماعية معينة بين العتيق وسيده وهي علاقة الموالاة التي يشترط فيها الاسلام طبقا لما ينص عليه الآي القرآني كقوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين" (3).

---

1) المصدر نفسه ح 2ص 75 وتذكر روايات اخرى ان جملة ما اعتقه سبعون الف راس انظر — زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ح 4 ص 45

2) ابن الزبير — الذخائر والتحف — ص 112

3) القرآن — سورة النساء — آية 143

وقوله : " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض " (1).

وما من شك ايضا في ان الاغلبية الساحقة من رقيق الفتوحات قد دخلت في الاسلام بحكم توقها الى التحرر وملابستها لحياة المسلمين مما تسبب في نقصان مقادير هذا الرقيق . ويكفي ان نرجع الى المصادر التاريخية والادبية التي تحدثنا عن اوضاع العالم الاسلامي في القرنين الاول والثاني للهجرة لكي نرى وضعها لطبقة الموالي من الفرس والصقالبة والبربر وغيرهم ممن استرقوا زمن الفتوحات او طوحت بهم ظروف التجارة الى الاسواق الاسلامية ثم اعتقهم ساداتهم فصاروا يكونون جزءا هاما من طبقة الموالي في المجتمع الاسلامي الى جانب نوع آخر من الاعاجم الذين ارتبطوا بعناصر العرب عن طريق ولاء خاص بالاحرار كان يدعى ولاء الموالاة (2).

تلك صورة موجزة عن الحوافز العقائدية التي شجعت على تحرير الرقيق وتسببت في نقصان هذه الجماعة بصورة دورية ومنتظمة جعلت المجتمع الاسلامي في حاجة متجددة الى التزود بارصدة جديدة . ولم تكن العبيد فقط هي وحدها المتسببة في وجود هذا المزيد بل ان لتجدد عوامل اجتماعية اخرى كان لها نفس الاثر .

---

1) القرآن - سورة التوبة = آية 72

2) كلود كاهان - Cl Cahen - الشعوب الاسلامية - ص 176

* الدوافع الاجتماعية

لقد كانت الدوافع المشجعة على العتق عديدة بالاضافة الى الدافع الشرعي والدافع الانساني وقد سبق ان راينا ان بعض التقاليد التى رسخت في المجتمع الاسلامي كانت حافزا عليه ومن تلك التقاليد ان ابناء هذا المجتمع كانوا يحررون العبد اذا بلغ مستوى معين من التفوق في اي ميدان من ميادين الحياة اونبغ في فن من الفنون اوصناعة من الصنائع خصوصا اذا كان ذلك الفن او تلك الصناعة على جانب كبير من الرواج في ذلك المجتمع ولذلك نجد نبوغ بعض العبيد في قرض الشعر مثلا اوفي رواية الحديث والتفقه في الدين اوفي ميدان الغناء والطرب عاملا من العوامل المشجعة على عتقه .

فمن ذلك ما يروى في كتاب الاغاني عن اعجاب عبد العزيز بن مروان بشاعرية نصيب اعجابا دعاه الى ابتياعه من مواليه ثم عتقه (1). وقد صار نصيب بعد ذلك يتقرب بالشعر لعبد العزيز بن مروان ويمدحه لكي يعتق اخته امامة وامه سلامه وهم جميعا من عبيد النوبة (2)

1) الاصفهاني - الاغاني - ج 1 ص 311

2) المصدر نفسه ج 1 ص 305.306

وشبيه بذلك ما يروى عن مخارق حين غنى بحضرة الرشيد (170-193هـ/786-790م) فقد اعجب هذا الخليفة بغنائه واعتقه (1) كما ادى به اعجابه بعزف جارية " زلزل " الضارب الى تحريرها (2).

واذا ما كان هذا العامل من نوع ثقافي فان العامل المذهبي السياسي قد لعب دوره ايضا في دفع الرقيق نحو الحرية فقد اعلن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (341-365هـ/952-975م) انه مقر العزم على منح الحرية لكل العبيد الذين اعتنقوا المذهب الشيعي (3) ولكننا لا نعلم هل طبقت هذه الفتوى في عهده ام لم تطبق وان كان روجي ادريس Roger Idris قد اكد ان العمل بها لم يتم في عهد الصنهاجيين (4).

وغالبا ما كانت مصالح السادة تبحثهم على تحرير رقيقهم اذا ما بدت علامات النجابة عليهم والسر في ذلك ان تحريرهم يخول لهم ان يخدموا شؤون مالكيهم بصورة انجع اذ يطلق ايديهم في التصرف ويتيح لهم الاشراف

---

1) المصدر نفسه ج 3 ص 67

2) المصدر نفسه ج 5 ص 206_207

3) حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف . المعز لدين الله _ دراسة تعتمد المجالس والمسايرات للقاضي ابي حنيفة النعمان - طبعة القاهرة 1367هـ 1948م ص 133

4) روجي ادريس - Roger . Idris . بلاد البربر La Berbérie ج 2 ص 575

علــى اعمـــال يتعذر عليهم مباشرتها في حالة الرق التي تحجر عليهـــم العديد من التصرفات في نظر القانون ، فالعبد محجور عليــه في نظـــر الفقــه الاسلامي ومحروم من الاضطلاع بالمسؤوليات المدنيــة كالولايـــات لشتى المهام والشهادات امام القضـــاء وغير ذلك مما يقدر عليــه الاحرار (1) فاذا ما اعتق وصار مولــى تمكن من ممارســة اعمال الاحرار وصار بذلـــك اكثر نفعـــا واجدى سعيا بالنسبــة الى مولاه .

وتروي لنا كتب التاريخ والسير روايات كثيرة عن هؤلاء الموالي الذيــن قدموا جليل الاعمال وحملوا السلاح وانخرطوا في سلك الجيش ووصلوا الـــى مكانــة عاليــة فيــه او تقلدوا الوظائف الهامــة في الادارة او اشرفوا على شؤون التجارة في الاسواق نيابــة عن مواليهم وكانت الدولة تصنع صنيـــع الافراد برقيقها فكثيرا ما كانت تعتقــه لتكلفــه بشتى المهام الاداريـــة والعسكرية ولتفوض له السلطــة وتمكنــه من الحريــة الضروريــة للاشراف على هذه المهمات وهكذا ينقلب اولائك الرقيق الى فئــة من الموالــي يخدمــون ركاب الدولــة .

---

1) الشربيني الخطيب ــ مغني المحتاج ــ ج 2 ص 93 - مالك بن انس ــ المدونة ج 13 ص 4
برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 29

وقد كان من عادات المسلمين العسكرية ان يحرروا عبيدهم اذا حاربوا معهم وابلوا في الحرب بلاءا حسنا وانتصروا على عدوهم وكانهم في ذلك يقتدون بما فعله الرسول عندما حرر عبيد الطائف الذين نزلوا اليه من الحصن وحاربوا معه (1) وقد تواصل العمل بهذه العادة عند مسلمي العصور الموالية ويبدو انها عادة قديمة ورثها العرب عن العهد الجاهلي اذ كان الجاهليون يحررون عبيدهم اذا ظهر تفوقهم في الحرب ومن اشهر الامثلة ما ترجم عنه القصص الشعبي الذي حيك حول شخصية عنترة العبسي فقد روي فيه ان سيده وعده بان يحرره اذا احسن الكر في احدى الغارات (2).

وقد حافظ العرب بعد الاسلام على هذه العادة في فتوحاتهم وقد روى الطبري ان الجنيد بن عبد الرحمن المري لما التقى مع خاقان الترك عام (112هـ/ - 730 م) في معركة الشعب غرب سمرقند في زمن هشام بن عبد الملك (105 - 125هـ/ 724 -743م) قال للعبيد المقاتلين معه

---

1) ابن هشام — السيرة — القاهرة 1955 ج 2 ص 290 ابن قتيبة — المعارف — ص97 زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 45.

2) لامنس Lammens - محمد الاسلام - ط. رومة 1914 - ص 249
برنشفيك Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد - ج 1 ص 26

" اي عبد قاتل فهو حر " فاستبسلوا في النزال وانهزم العدو فحررهم الجديد (1) وقد روى القزويني ايضا ان الروم غزوا مالطة وطلبوا من المسلمين النساء والاموال فجمع المسلمون شملهم ووحدوا صفوفهم وجندوا العبيد وقالوا لهم ان انتصرنا فانهم احرار فظافر المسلمون واجلوا الروم وتحرر العبيد (2).

فواضح اذن ان الغاية من هذه السياسة الحربية اغراء العبيد بحسن القتال رغبة في النصر وقد كان المسلمون يفون بوعودهم ويحررون عبيدهم بعد الحرب لان احكام العتق في الاسلام تفرض على السادة الوفاء به كما راينا وان كانوا هازلين وما من شك في ان اعدادا وفيرة من الرقيق قد حررت في هذه المناسبات الحربية ولم يكن الامر مجرد وعد لا يتم انجازه مثلما فعل بعض الاباطرة الرومان وهو ميشيل الثاني(204-213هـ/ 820-829م)الذي جند الاسرى العرب في حربه مع توماس الثاني (206-208هـ/ 822م ــ 824م) ووعدهم بالحرية اذا انتصر عليه لكنه لم يف بوعده ولم يطلق سراحهم (3).

---

1) الطبري ــ تاريخ الامم والملوك ــ ج 7 ص 97 ابن الاثير ــ الكامل ــ ج 5 ص 73 زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 45

2) القزويني ــ آثار البلاد واخبار العباد ــ بيروت 1960 ص 557

3) فازيلياف - vasiliev - العرب والروم ــ ترجمة عبد الهادي عبلة ص 50

وكثيـــرة هـي الاخبـار التي تـروي لنـا استماتـة عبيـد المسلمين في القتـال واستقتـالهـم بين ايـدي مـواليهـم طموحا الى الحرية واعترافا بالجميـــل لساداتهم ومن هـذه الاخبـــار على سبيل المثال لا الحصر ما يروى من احداث الفتنـــة بين الامين (193 - 198 هـ / 790 - 813 م) والمأمـون (198 - 218 هـ / 813 - 833 م) فمن ذلك ان محمد بن يـزيـد المهلبـي كـان من حـزب الامين واراد ان يرد هجـــوم طاهر بن الحسين قائد جند المـامـون عن الاهـواز فباغتـه طاهر بجنده قبل ان يستعـد ويتحصن وضيق عليـه الخناق فالتفت المهلبي الى مـواليـه وقـال لهـم : " ما رايكم ... انـي ارى من معي قـد انهـزم ولست آمن خذ لانهـم ولا ارجـو رجعتهـم وقـد عـزمت على النـزول والقتـال بنفســي حتى يقضي الله بمـا احب فمـن اراد الانصراف فلينصـرف فـوالله لان تبقـوا احـالى من ان تمـوتـوا " فقالوا : " والله ما انصفنـــاك اذا تكـون قـد اعتقتنـــا من الـرق ورفعتـــا مـــن الضعـــة واغنيتنــــــا بعـد القلـــة ثـــم نخـــذ لـك على هـذا الحـــال فلعـــــن اللـــــه الـــدنيــا والعيــش بعــدك " ثــــم نـــزلـــوا فعـــرقبـوا دوابهــــم واستقتلـــوا بيـــــن يـــديـــــه (1).

---

1) ابن الاثيـــر - الكـامـل - ج 6 ص 106

زيدان - تاريـخ التمـدن الاسلامـي - ج 4 ص 49

ج - عقـــود التحريـــــر

ولم يكن العتق هو الباب الوحيد الذي كان مفتوحا في وجـه الرقيق للخروج من حيز العبوديـة الى مجال الحريـة بل وجـــدت صيغ وعقـود اخرى طبقت فـي المجتمع الاسلامـي وينص عليها تشريعه الفقهي وكان مآلها التحرير ايضا وانقاص رصيـد المجتمع من مـــادة الرقيق .

*** امومـة الـولـد :**

ومن اشهر هذه العقود عقـد التسي الذي يسمح للسيـد بوط ء مملوكتـه واستيلادها ، فمن الاحكام المعمول بها في هـــذا العقد ان السريـة بمجرد انجابهـــا من سيدهـــا تصبح " ام ولد " وترتفـع منزلتهـــا عن منزلـة الامـاء فيمنـع بيعـها (1) وبذلك تفقـد قيمتها الماليـة او التجاريـة وتسترجـع مكانتهـــا الآدميـة والاجتماعية وهكذا يصبح السراري بانتقالهن من وضع الامـاء الـى وضع امهـــات الاولاد خاضعـــات لاطار قانونـي جديـد يصبحن بموجبـه في صيغـة

---

1) يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية ــ الترجمة العربية ــ مقال ام ولد ج 2 ص 640ــ641

ابن قدامـة ــ المغني ــ ج 9 ص 530

مالك بن انس ــ المدونـة ــ ج - 8 - ص 23 - 54

البضاعة المجمدة بخروجها من دائرة المعاملات التجارية من بيع وشراء - يقول ابن قدامة في ام الولد : " لا يجوز بيعها ولا التصرف فيها بما ينقل الملك من الهبة والوقف ولا ما يراد للبيع وهو الرهن ولا تورث لانها تعتق بموت السيد ويزول الملك عنها . روي هذا عن عمر وعثمان وعائشة وعامة الفقهاء . . . " (1)

وليس هذا موقف الحنابلة فقط فالراي السائد عند الفقهاء هو منع بيعها وهبتها بالرغم من وجود بعض المواقف التي يرى اصحابها ان النهي عن بيعها هو نهي تاديب وليس نهي تحريم مستشهدين في ذلك ببيع بعض الصحابة مثل علي بن ابي طالب لامهات اولادهم (2) وهو راي خالف به الظاهرية والامامية والمعتزلة (3) جمهور الفقهاء الذين يرون ان قرار عمر بن الخطاب

---

1) ابن قدامة - المغني - ج 9 ص 531

2) بهلوي - الجامع - ج 2 ص 240 - 258 يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال - ام ولد - ص 639 -
ابن قدامة - المغني - ج 9 ص 530 - 531

3) يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال ام ولد - ص 639
بهلوي - الجامع - ج 2 ص 240 - 258

بمنع البيع قد حسم الخلاف (1) وقد استقر هذا التشريع فعلا منذ عهد عمر ووضع موضع التنفيذ في المجتمع الاسلامي فصارت كل امة انجبت ولدا من سيدها ولو بعد وفاته تعتبر ام ولد وان كانت غير مسلمة ولمولاها وطؤها واستخدامها وتزويجها وليس له بيعها (2) وذلك استنادا الى ما روي عن النبي (ص) من نهي عن بيع امهات الاولاد في قوله : " لا يبعن ولا يوهبن يستمتع بها السيد ما دام حيا واذا مات فهي حرة " (3) ولم يكف هذا التشريع باخراج ام الولد من دائرة المعاملات التجارية بل قرر عتقها بعد موت سيدها فتصير حرة لا تصل اليها ايدي الورثة. وان كان على سيدها دين يستخلص من ميراثه ولا تعتبر جزءا من ثلث التركة الذي تجوز الوصية فيه فهي اذن تعتق حتما بمجرد موته (4) وفقا لما

---

1) المرجع نفسه -

2) العيني ــ شرح الكنز ــ ج 1 ص 201 ــ 202 ــ النفراوي ــ الفواكه الدواني ج 2 ص 154
ابن قدامة - المغني ج 9 ص 530 ــ 531

3) الشوكاني ــ نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار ــ القاهرة 1961 ج 6 ص 89

4) يوسف شاخت .. J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال ام لود ص 640

قاله الرسول في مارية عندما ولدت ابراهيم " اعتقها ولدها " وكذلك طبقا للحديث : " من وطئ امة فولدت له فهي معتقة عن دبر منه " (1).

ولم يكن النسل الذي يسفرعنه عقد التسري بين الاحرار والاماء ليزود الاسواق الاسلامية بشيء من الرقيق اذ يتفق الفقهاء على ان ابناء السرية من سيدها يولدون احرارا ، خلافا لما كان عليه الامر قبل الاسلام (2) ويرثون آباهم ويكفي لثبوت نسبهم في نظر المالكية والشافعية والحنابلة مجرد الوطء. وليس للسيد جحدهم وان ادعى العزل عن سريته لانهم يرون الاقرار بالوطء كافيا للاسترقاق (3) ولو كان حسب قولهم في الدبر وان كان الشافعي يراه في الدبر ضعيفا (4) بينما يولي الحنفية اهتماما باعتراف السيد بابنه ويخولون له حق انكاره لكنهم يقيدون هذا الحق بشروط كأن تكون مدة التسري دون المدة الضرورية للحمل او ان

---

1) العيني — شرح الكنز — ج 1 ص 201—202 الشوكاني - نيل الاوطار ج 6 ص 103
ابن قدامة — المغني — ج 9 ص 527

2) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد - ج 1 . ص 26

3) الزرقاني — شرح الموطأ — ج 3 ص 146—229 العيني. شرح الكنز ج 1 ص 201—202
يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية ام ولد ص 640

4) العيني — شرح الكنز — ج 1 ص 201—202
ابن قدامة — المغني — ج 9 ص 530

يقسم انه استبرأ جاريته ستة اشهر على الاقل قبل وضع الحمل وفيماعدا هذه الحالات وما دام الجنين قد وضع في ملك السيد وعلى فراشه فليس له جحده (1).

وخلاصة القول ان لا خلاف بين المسلمين على ان الولد الذي يولد للرجل من امته حر متى ثبتت ابوته له . وجميع الابناء الذين تلدهم ام الولد من غير سيدها بعد حملها منه يعتبرون احرارا شرعيين كانواأوغير شرعيين (2) وذلك وفقا للحديث الشريف " الولد للفراش وللعاهر الحجر " (3) واذا ما كانت الامة ملكا لرجلين وحدث ان وطئاها في طهر واحد او انتقلت من ملك الى آخر دون استبراء مما يعسر معه التثبت في نسبة الجنين يترك الفقهاء الامر للقائف لكن الحنفية ترفض هذا الحل وتجعل للولد ابوين في نفس الوقت وتمكن الابن من اختيار احدهما عند بلوغه الحلم (4)

---

1) آدم متز A. METZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 296
برنشفيك Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد - ج 1 - ص 29
2) يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال ام ولد ص 641
3) ابن قدامة - المغني - ج 9 ص 529
4) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد - ج 1 - ص 29
يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال ام ولد ص641
العيني - شرح الكنز - ج 1 ص 201-202

من الجلي اذن ان هذا التناسل عن طريق التسري لم يكن ليزود الاسواق الاسلامية بزاد من الرقيق لانه كان ينتج نسلا حرا ويتسبب في حريـة امهات الاولاد ، واذا ما كان زواج الاحرار بالاماء سببـا من اسباب رق الولد فمن المرجح ان عقود التسري بالامـاء قد كانت اكثر رواجـا في المجتمع الاسلامـي من عقود الزواج بـين الاحرار والرقيق لماسنبينـه فيمـا بعد من تشـدد المشرع في هذا الزواج ولما يستكرهـه الازواج من عبوديـة نسلهم " ففي الفقـه الاسلامي تفرقـة دقيقـة بين الزواج والتسري تبلغ من الدقـة درجـة يستحيل معها ان يتزوج السيد من امـة " (1) فكان المسلم يفضـل شراء السريـة على الزواج بالامـة لهذه الاعتبارات التي ذكرناهـا وهكذا كان المحول اذن في انجاب الرقيق على الزواج بين العبيد والاماء اكثر منه على ما يحدث من علاقات تناسليـة بين الاحرار والعبيد .

واذا ما علمنـا ان قسمـا كبيرا من الرقيق المؤنث كان يقتنى للتسري وانجاب الولد وان الاحكام الفقهيـة لا تفرض على السادة عددا

---

1) يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال ام ولد ص 641

معينا من السراري لا يمكنهم تجاوزه ادركنا الثغرة الكبيرة التي تحدثها امومة الولد وما يدجرعنها من الحاق الابناء بنسب ابيهم في طبقة الرقيق بالمجتمع الاسلامي فقد اختلطت دماء الاحرار بالاماء في هذا العصر وكثر نسل السراري حتى الخلفاء انفسهم كانوا اذاك من نسل الجواري.

* التدبير :

ومن العقود التي ساهم تطبيقها في انخفاض عدد الرقيق واستمرار الحاجة اليه عقد التدبير وهو اسلوب من اساليب تحرير السادة لعبيدهم ومعناه لغة النظر في عاقبة الامور واصطلاحا تعليق العتق بالموت (2) وان يقول السيد لعبده : انت حر عن دبر مني (3) اي ان يعلق عتقه بموته فيصبح حرا بعد موت سيده (4) وقد يضاف الى شرط الموت شرط آخر فيسمى تدبيرا مقيدا (5) ومن

---

1) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 29
2) الميداني - اللباب - شرح مختصر القدوري - ج2 ص105 - 107 الرصاع - شرح حدود ابن عرفة ص 522 -
3) أبو بكر بن علي العبادي - الجوهرة النيرة ج 2 ص 105 - 107
4) الرصاع - شرح حدود ابن عرفة ص 522
برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 31
5) الميداني - اللباب - ج 2 ص 105 - 107

ادق التعريفات للتدبير ما جاء في حدود ابن عرفة وهو قولـــه :

"عقد يوجب عتق مملوك في ثلث مالكه بعد موته بعتق لازم " (1)

ويفهم من هذا التحديد ان المدبر يعتق من ثلث مال سيده بعد موته لان حكمه حكم الوصية التي تنفذ بعد الموت وتكون في الثلث فان لم يسعه الثلث او لم يكن للسيد مال غيره عتق ثلثه وسعى للورثة في ثلثيه (2).

وقد اتخذ هذا النوع من العقود شكلا من اشكال اعمال البر اذ كان الحافز عليه انسانيا يتمثل في اعتراف السيد بجميل عبده الذي خدمه طوال حياته واستحق الحرية بما قدمه من حسن خدمة وامتثال وطاعة، وقد فسح المشرع مجال التدبير ولم يقيده الا بشرط واحد وهو الا يكون على السيد دين يستغرق ثمن العبد لان الدين يتنافى مع الوصية (3) ولان حق الغرماء اولى بالاعتبار من التبرع بعتق المدبر، وبالرغم من وجود هذا الشرط نرى الفقهاء

---

1) الرصاع — شرح حدود ابن عرفة — ص 522
2) الشافعي — الام — ج 4 ص 116
3) ابن قدامة — المغني — ج 4 ص 340

يوجدون مخرجا لهذا المدبر الذي يستغرقه الدين فافتوا بتكليفه بالسعي للغرماء في قيمته كاملة او في ثلثيه حتى يحرز على حريته .

ويفقد المدبر شان ام الولد قيمته التجارية في حالة تدبيره ، وقبل عتقه بموت سيده اذ لم يعد بامكان سيده ان يبيعه لارتباطه بعقد التدبير ، فيذهب الامام مالك مثلا الى ان العبد المدبر اذا سبق فيه بيع على وجه الخطأ لم يكن لبائعه مطلق التصرف في ثمنه لانه ليس عبدا كسائر العبيد . واذا حدث ان مات عند المشتري كان على بائعه ان يحتفظ بقدر قيمته في حالة التدبير ثم يشتري بما بقي رقبة يدبرها او يعين به على تدبير رقبة اخرى او تحريرها اذا كان المبلغ لا يفي بالحاجة . اما اذا اعتقه المشتري او قتل عنده او كان مدبرة وطئها وحملت منه واصبحت ام ولد ، فان الثمن يخلص له كاملا لان ذمته قد برئت بتحقيق مبدأ التحرير او لان ماله قد تلف بقتل العبد فصار الثمن بمثابة الغرم ، وقد بنى مالك كل هذه الاحكام على اساس عدم جواز بيع المدبر (1)

---

1) مالك بن انس — المدونة الكبرى — ج 8 ص 11 — 13

واذا ما كان المالكية وكذلك الشافعية والحنابلة يجوزون بيع المدبر في حالة استثنائية واحدة هي تعلق الدين بذمة السيد اعتمادا على ان الرسول (ص) باع مدبرا لنعيم بن عبد الله عندما احتاج نعيم الى المال (1) وعلى ان الدين يمنع الوصية وبالتالي التدبير (2) فان الحنفية تمنع بيع المدبر مطلقا وكذلك رهنه وهبته وافتت بان كل ما لا يجوز في الحر لا يجوز في المدبر (3) وقد استندت في حكمها هذا الى خبر رد عمر لبيع مدبر بمحضر الصحابة والى قول الرسول " ان المدبر لا يباع ولا يوهب ولا يورث وهو حر من الثلث" (4) وفندت مستندات المذاهب الاخرى بقولها ان المدبر الذي باعه الرسول لا يعتبر حجة لانه ربما كان مدبرا مقيدا بشرط آخر فضلا عن موت السيد ولان المؤاجرة تسمى بيعا بلغة اهل اليمن ، ولانه من المحتمل ان يكون قد باعه في وقت كان الحر فيه يباع بالديون حتى نسخ القرآن ذلك بقوله تعالى " واذ كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة " (5)

---

1) العيني ــ رمز الحقائق ــ شرح الكنز ــ ج 1 ص200 ــ 201 مالك بن انس ــ المدونة الكبرى ج 8ص6
2) ابن قدامة ــ المغني ــ ج 4ص340 ــ البهلوي ــ الجامع ــ ج 2 ص 246
3) أبوبكر العبادي ـ الجوهرة النيرة ــ ج 2ص105 ــ 107 الميداني ــ اللباب ــ ج 2 ص 105 ــ 107
4) المصدر نفسه
5) القرآن سورة البقرة - آية 280

ومهما يكن من امر هذا الخلاف فاننا نرى فيه دليلا على ان المدبر لم يكن ليعرض في اسواق الرقيق الا عند الضرورة القصوى التي لا مناص منها كتلف حقوق الغرماء. وفيما عدا ذلك فهو اوفر حظا من سائر العبيد واقدر منهم على احراز نفسه وماله بل ان ذريته لتنتفع من عقد تدبيره فيصبح اولاد الامة المدبرة مدبرين مثلها. وفي هاته الفقرة التي نقتبسها من المدونة الكبرى لمالك بن انس ما يدل على ذلك : " قلت : ارايت المدبرة اذا دبرت وفي بطنها ولد وولدت بعد التدبير اهم بمنزلتها يعتقون بعتقها في قول مالك ؟ قال نعم ، قال : وقال مالك كل امة مدبرة او ام ولد او معتقة الى اجل او مخدمة الى سنين وليس فيها عتق فولدها بمنزلتها. قلت : والعبد المدبر او المعتق الى سنين اذا اشترى جارية فوطئها فولدت منه ايكون ولده بمنزلته في قول مالك ؟ قال : قال مالك لي : نعم ولده بمنزلته في هذا الموضع قال : وقال مالك : كل ولد ولدته بعد التدبير قبل موت السيد او بعد موت السيد فانه يقوم معها فيعتق منها ومن جميع ولدها ما حمل الثلث ولا يقرع بينهم "(1)

1) مالك بن انس ــ المدونة الكبرى ــ ج 8 ص 6

لقد كان لهذا النوع من العقود اثره اذن في نسل الرقيق وبذلك يتجاوز الامر الافراد الى الجماعات ويعجل بنضوب هذه البضاعة واستهلاكها ونزداد يقينا بان تشريع الاحكام الفقهية في هذا الخصوص لم يكن ليخدم مصالح التجارة وانما كان خاضعا لمبادئ شرعية اخرى تتنافى مع تجارة الرقيق وتحدث فيها نزيفا قويا وقد لا نشعر بقوة هذا النزيف الا بعد ان ننظر في عقد آخر من عقود تحرير الرقيق المعمول بها في المجتمع الاسلامي ونعني به عقد المكاتبة .

★**المكاتبة :**

ولم يكن عقد المكاتبة بين الاحرار والعبيد اقل تاثيرا في استنزاف مادة الرقيق واتلافها من بين ايدي مالكيها من عقود التدبير و امومة الولد ، بل انه ليلوح لنا اذا ما تاملنا في اركان هذا العقد انه كان يشكل عاملا اقوى من غيره على اخراج الرقيق من طور العبودية الى طور الموالاة وخطرا اكبر على رواج هذه البضاعة في اسواق النخاسة .

فالمكاتبة عقد يبرم بين السيد وعبده ويلتزم السيد بموجبه عتقه مقابل مبلغ مالي يجتهد العبد في توفيره ويسمى بدل المكاتبة(1) فهي اذن بعبارة اخرى صيغة قانونية تخول للعبد ان يشتري حريته بالمال ، واذا كان من المرجح ان هذا الاجراء قد وقع العمل به قبل الاسلام (2) فان القرآن قد زاده تنظيما وتدعيما وشجع عليه ، كما ورد في الآية الكريمة، باشكال مختلفة . (والذين يبغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) (3) ومما يروى عن الرسول انه اعان سلمان الفارسي على اداء بدل كتابته (4) وكما فعلت عائشة مع بريرة (5)

---

1) الا وزجلدي — الفتاوى الهندية ج 5 ص 2 — 3
2) شاخت - Schacht - اصول الفقه الاسلامي. (The origins of Muhammadan jurisprudence) اوكسفورد 1950 ص 279 280
وات - W. M. Watt - محمد في المدينة - ص 356-360
برلشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 31

3) القرآن — سورة - النور - عدد 24 — آية 33
4) ابن هشام — السيرة - ط - مصر - 1332هـ/1914 - ج 1 ص 142
5) البخاري — صحيح = ج 3 ص 293

ويفهم من هذه المستندات الشرعية ان العتق بالنسبة الى عقد المكاتبة لم يعد مجرد تبرع من السيد واريحية من جانبه كما هو الحال في عقد التدبير ولا مرتبطا بظروف قاهرة كظروف الاستيلاد مثلما هو الشان في عقد التسري بالاماء وانما صار العبد بمحض اختياره قادرا على استرجاع حريته والتفاوض مع مالكه فيها واصبح طرفا من الاطراف في هذا التعاقد وله فيه دور محدد ، ولم يقيد المشرع عملية المكاتبة الا بشرط واحد وهو ان يكون العبد عاقلا راشدا قادرا على توفير المال امينا ولا ضرر على المسلمين من عتقه (1) ولا عبرة بعد ذلك بدينه (2) بينما فرض المشرع على السيد الوفاء بالعقد ومنعه من التراجع في مكاتبته لعبده اعتمادا على قوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود ") (3) فالمكاتبة عقد لازم لا يملك المولى فسخه دون رضى العبد المكاتب وهو يتخذ شكل الجبر احيانا اذ يرى بعض الفقهاء مثل عطاء ان السيد مجبر على مكاتبة عبده اذا طلبها منه (4) وان للامام ان يجبر السيد على قبول مكاتبة عبده اذا عرف بالصلاح .

---

1) الاوزجندي — الفتاوى الهندية — ج 5 ص 2 و ص4
2) المصدر نفسه ج 4 ص 2
3) القرآن — سورة المائدة — عدد 4 آية 1
4) احمد شفيق باشا — الرق في الاسلام ص 90—98

فبامكاننا الجزم اذن بان عقد المكاتبة قد توفرت فيه ضمانات كثيرة لتحرير الرقاب تضاف اليها تسهيلات اخرى لانجاز العتق من بينها تنجيم بدل المكاتبة تسيرا على العبد وتمكينه من ان يدفع المال اقساطا ومنها حث المشرع السادة على اعانتهم مكاتبيهم بالمال اذا عجزوا عن الدفع وفقا لقوله تعالى (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب) (1) وقوله في سورة النور (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) (2) وقد خصص الفقهاء بناء على هذه الايات نسبة من بدل المكاتبة سموها الايتاء وجعلوا دفعها مناطا بالسيد (3)

من الجلي اذن ان هذه الاحكام كفيلة بان تخرج الكثير من الرقيق الى عالم الحرية وهي تخول للمكاتب فضلا عن ذلك حظا كبيرا من حرية التصرف في نفسه قبل حلول موعد عتقه اي منذ تحرير

---

1) القرآن ـ سورة البقرة ـ عدد 2 اية 176
2) القرآن ـ سورة النور ـ عدد 24 ـ اية 33
3) ابن قدامة ـ المغني ـ ج 9 ص 424 ـ 425 - ابن حزم - المحلى ج 9 ص 246 ـ 247

عقد المكاتبة الى ان يتم دفع البدل ، فتزول عنه تلك الصفة التجارية التي كان يعتبر بسببها نوعا من البضاعة ويمنع سيده من بيعه واستخدامه ويترك له حرية العمل لكسبه الخاص حتى يمكن له جمع المال الضروري لتحرير رقبته ولذلك يعرف بعضهم المكاتبة بانها " تحرير يد في الحال ورقبة في المآل " (1)

واذا تعلق الامر بامة مكاتبة لم يكن لمولاها حق وطئها لان استيلادها يؤخر موعد عتقها (2) في حين يجوز لها ان ترتبط معه بعقد التدبير بالاضافة الى عقد الكتابة لان في ذلك اضافة لضمان آخر لتحريرها (3).

وفي الجملة يعتبر المكاتب اقرب الى الحرية منه الى العبودية حتى اذا حان موعد دفع بدله احرز على حريته كاملة. وقد كان لهذا النوع من التعاقد انتشار واسع على صعيد التطبيق والسر في اقبال الاحرار والعبيد عليه هو ما يوفره من ضمانات لمصالح الطرفين اذ فيه تعويض خسارة بالنسبة الى السيد وتمكين العبد من استخلاص

---

1) الاوزجندي ـ الفتاوى الهندية ج 5 ص 2
2) المصدر نفسه ج 5 ص 2 ـ 4
3) العيني ـ شرح الكنز ـ ج 2 ص 163ـ165
السرخسي ـ المبسوط ـ ج 7 ص 166

حريته وهكذا يتم العتق بعد تسوية المشاكل الاقتصادية والاجتماعية كما ان مسالة عقيدة العبد لا تثار في هذا العقد مما زاد في الاقبال عليه (1) واذا ما اعتبر الفقهاء المكاتبة عقدا شخصيا لا يشمل نسله (2) فان الحنفية جوزوا للعبد المكاتب ان يكاتب غيره من العبيد او ان يعين على دفع مكاتباتهم (3) وبذلك تتسع رقعة التطبيق فضلا عن ان المكاتب بامكانه بعد تحريره عتق ذوي قرباه .

وفي واقع الحياة الاسلامية ما يدل على ان المسلمين قد اتبعوا هذا المنهج في العتق منذ عهود الاسلام الاولى (4) وكان بعض اولي الامر يتدخلون في هذا الموضوع فيرغمون السادة على مكاتبة عبيدهم اذا رفضوها مثلما فعل الخليفة عمر بن الخطاب مع انس بن مالك عندما رفض ان يكاتب عبده سيرين فقد روي انه لما ابى ضربه بالدرة وقال له : " كاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا " وحلف عليه ليكاتبنه (5)

---

1) الاوزجندي — الفتاوى الهندية — ج 5 ص 2
2) ابو بكر العبادي - الجوهرة النيرة ج 2 ص 105 — 107
3) السرخسي — المبسوط — ج 7 ص 213
4) البخاري — صحيح — ج 3 ص 293 ابن هشام — السيرة — = ج 1 ص 142
5) ابن كثير - تفسير القرآن - الآية 33 من سورة النور - الجصاص - أحكام القرآن - ج 3 ص 321

وعندما كان ابو موسى الاشعري واليا على الكوفة اتاه مكاتب وهو يخطب في الناس يوم الجمعة طالبا منه ان يحث الناس على ان يعينوه في مال مكاتبته ففعل فالقى الناس عليه عمامات وملاءات وخواتيم حتى القوا عليه متاعا كبيرا فجمعه ابو موسى وباعه ودفع منه مكاتبة العبد ثم جعل البقية لرقاب اخرى (1).

*عقد الزواج :

ومن العقود المشجعة على العتق زواج الاحرار بالعبيد وذلك لان المشرع الذي سمح للحر بان يتزوج امة غيره قد قيد هذا الزواج بعدة شروط ثقيلة وفرض على الحر ان لا يتزوج بها الا عند الضرورة القصوى وهي عجزه عن الزواج بحرة وخوفه على نفسه العنت كما حرم عليه ايضا ان ينكح الامة بعد زواجه بالحرة اي ان يجمع بينهما واشترط كذلك ان تكون الامة مسلمة ، قال النووي في المنهاج

1) ابن كثير - تفسير القرآن - ج 4 - ص 317 (ط.بيروت 1966)

" لا ينكح . . . الحر امـة غيره الا بشروط ان لا يكون تحتـه حـرة تصلح لاستمتاع . قيل : ولا غير صالحة . وان يعجز عن حرة تصلح . قيل : اولا تصلح فلو قـدر على غائبـة حلت لـه امـة ان لحقـه مشقـة ظاهرة في قصدها او خاف زنى مدتـه ولو وجد حرة بمؤجل او بدون مهر مثل فالاصح حل امـة في الاولى دون الثانيـة وان يخاف زنى فان امكنـه تسر فلا خوف في الاصح ، واسلامها " (1) وقـد استنبط الفقهاء هذه الاحكام من قولـه تعالى " ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت ايمانكم من فتياتكـم المؤمنات " (2) وقولـه : " ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولامـة مؤمنة خير من مشركـة ولو اعجبتكـم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبـد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكـم " (3).

ومن الطبيعي ان تبعث هذه القيود معظم الراغبين في نكاح الاماء على السعيَ الى تحريرهن قبل الزواج منهن وبذلك يصبحون في حل من تلك الشروط فاذا كانت الامـة كتابيـة مثلا تحذر زواج الحر

---

1) ابو زكريا يحيى النووي ـ المنهاج ج 3 ص 183 ـ 186
2) القـرآن سـورة النساء ـ ايـة 25
3) القـرآن سـورة البقـرة ـ ايـة 220

المسلم منها الا بعد تحريرها لان الزواج من الحرة الكتابيــة جائز شرعا اضف الى ذلك ان النسل الذي ينتج عن زواج الحر بالامــة محكوم عليــه بالــرق ولم يكن الاحرار يرغبون طبعا في رق ابنائهم ، فكانت كل هذه العوامل تدفع الناس الى تحرير الامــاء قبل زواجهن وبذلك تتحقق الغايــة التي من اجلها وضع المشرع ما وضع من احكام في هذا المجــال .
وقد جاء في الحديث النبوي ما يشــرح تلك الغايــة ويحددها ، فقــد روى البخاري في صحيحــه ان الرسول قال : " ايما رجل اعتق امــة ثم تزوجها بمهر جديد فلــه اجران " (1)

هذه صورة مــوجــزة من العقود التي كانت تحدث في المجتمع الاسلامي بين الارقاء والاحرار وهي كما لاحظنا تفتح امام الرقيق مجالات واسعة للتحرر وتنقص من البضاعــة التي تحتاج اليها الاسواق اذاك لمجابهة الطلب المتزايد وتضطر المجتمع الى تجديد رصيــده من الرقيق لمواجهة شؤونــه الاجتماعيــة والاقتصاديــة وقد كان تظافر هذه العقود او اضافتها الى بعضها بعضا امرا مشروعا فيمكن للسيد ان يعقد مــع عبده أو امتــه اكثر من عقد واحد اذا ساعد ذلك على التعجيل بتحريره (2)

---

1) البخاري ــ صحيح ــ ج 3 ص 296
2) العيني ــ شرح الكنز ــ ج 2 ص 167 ــ 165 السرخسي ــ المبسوط ــ ج 7 ص 166

فيمكن للسيد ان يتسرى بمدبرته وان يستولدها لانها تضمن بصيرورتها ام ولد عتقها من راس مال سيدها بعد ان كانت لا تعتق الا من ثلث التركة وهي مدبرة ، كما يمكن لسيدها ان يكاتبها اذ بدفعها لبدل المكاتبة تتمكن من تعجيل عتقها. وكذلك الامر بالنسبة لام الولد التي يسمح المشرع بمكاتبتها. ولا يخفى ان الجمع بين هذه العقود قد روعي فيه هدف التحرير اذ لا يجوز الفقهاء اضافة التدبير الى المكاتبة وامومة الولد ولا اضافة امومة الولد الى المكاتبة لان فيها تاخيرا لساعة الخلاص من الرق.(1) وينطبق مبدا السراية في العتق على كل هذه الاساليب عند اغلب الفقهاء فالولد تابع لامه في التدبير والمكاتبة والعتق كما يتبعها في الرق (2) وقد يتبع الولد اباه في كل هذه الاساليب اذا كانت امه مملوكة لابيه فولد المدبر من امته التي يملكها بمنزلته في التدبير (3).

وقد يطول الحديث عن المنافذ المفتوحة امام هذه البضاعة البشرية لكي تلتحق بصف الادميين وتنزع عنها صبغتها المادية

---

1) المصدر نفسه
2) أبو بكر العبادي - الجوهرة النيرة - ج 2 ص 105-107
3) مالك بن انس - المدونة الكبرى ج 8 ص 8

وقيمتهما التجارية فقد صنف الفقهاء انماطا اخرى من عقود التحرير نقتصر هنا على ذكرها دون تحليلها منها العتق الى الاجل والوصية والعتق في المرض وغيرها وحسبنا ان نتاكد ان هذا الضرب من التشريع قد كان يمثل الطاقة المستهلكة لما امكن للفتوحات والتجارة ان توفره من رقيق للمجتمع الاسلامي .

لعله قد اتضح اذن مما سبق ان ظاهرة تحرير الرقيق قد كانت عاملا من العوامل الاساسيه التى تسببت في نقصان هذه المادة التجارية وتجدد الحاجة اليها وقد راينا كيف تنوعت البواعث من انسانية وعقائدية واخرى اجتماعية واقتصادية اساسها المصالح المشتركة بين السادة والعبيد على ترسيخ تلك الظاهرة وجعلها من الاسباب الدائمة لحدوث النزيف في رصيد الرقيق سواء بالنسبة الى هذا العصر او غيره من العصور. الا ان هذا السبب الدائم الذي كان له اثره في هاته الفترة من الزمن قد تظافرت معه اسباب اخرى ظرفية وخاصة بهذا العصر على توسيع رقعة النزيف والتعجيل بنقصان الرصيد ومن هذه الاسباب استفحال ظاهرة الاباق واستشراء الفتن والاضطرابات .

3)- ظـــاهــرة الابـــاق

ومــن اسبـــاب تــزايــد الطلب وتجــدد الحاجة الى الرقيق خـلال هـذا العصــر وجــود نــزيف فــى هــذه البضــاعـة احــوج اصحابها الى التزود منها باستمرار ونعني بهذا الزيف ظاهـــرة الابـــاق وهــي ظاهـرة فـرار العبيـد من اسيادهـم وهروبهـم من مواطنهـم الى اقاليـم اخـرى مما يتعـذر معـه على المالكيـن لرقـابهـم استرجاعهـم ويضطـرهـم الى اقتناء رقيـق جـديـد . وقــد كـــان اغلـب الفقهــاء لا يجيــزون بيـع الابـق لانـه بيـع بضـاعـــة ضـائعـة لم تبـق على ملك بـائعهـا فيعتبـر بيعهـا نـوعـا من بيــع الغـرر وهـم يقيســون حكـم الابق من الرقيـق على حكـم ((البعيـر الشارد والفرس العـائــر)) (1) وبـذلـك تخـرج بضـاعـة العبيـد الابـــاق مـن الــدورة الاقتصـاديـة وتشكـل نزيفـا فى مـــادة تجـــارة الــرقيـــق .

وقـد كثـر العبيـد الابـاق فى هـذا العصــر تحـدوهـم الرغبـة في التخلـص مـن ربقـة الرق وابتغــاء العمـل والربح لحسابهـم الخـاص

---

1) ابن قدامـة ـ المغني ـ ج 4 ص 200 ـ عبد الوهاب البغـدادي ـ الانصاف ـ ص 277 ـ 278 ـ نجـــاة بـــاشـــا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ـ ص 161 ـ 164

واميرالاسياد يتذمرون الى السلطة من هذه الظاهرة وصار الخلفاء والملوك والولاة عند توليهم يعدون رعاياهم بارجاع عبيدهم اليهم ويكتبون الى عمالهم فى هذا الشأن فيوصونهم بتعقب الاباق وايقافهم الى ان يقع النظر من امرهم واعادتهم الى مالكيهم (1) وقد وجدت هذه الظاهرة صداها في الفقه الاسلامي منذ القرن الثاني للهجرة واهتم بها فقهاء العصر فخصصوا في فتاويهم ومصنفاتهم بابا للعبد الابق فصلوا فيه احكامه من الوجهة الشرعية (2) وقد اورد القاضي ابو يوسف يعقوب صاحب الامام ابن حنيفة وصية الى رجال السلطة برفع امر العبيد الاباق الى الولاة وتدوين اسمائهم واسماء مواليهم واوطانهم وتاريخ اباقهم في دفتر ثم بوضعهم في الحبس الى ان يطلبهم طالب والا آلت قيمتهم الى بيت مال المسلمين (3) .

---

1) آدم متز A.Mez الحضارة الاسلامية ج 1 ص314

2) خليل بن اسحق ـ المختصر ج ٤ ص 431 ـ 432

3) ابو يوسف ـ كتاب الخراج ـ ص184 ـ 185

وفي القرنين الثالث والرابع للهجرة كانت الاقاليم الاسلامية تعج بهؤلاء العبيد الاباق (1) وخاصة منهم من كانوا يشتغلون في الاعمال الفلاحية (2) ففي العهد الاخشيدي كانت مصر غاصة بهم شأنها في ذلك شأن اغلب ديار الاسلام وكان معظمهم يشتغل في الزراعة (3) ومن الادلة على كثرتهم بالشام في القرن الرابع للهجرة ذكرهم في نص الهدنة المبرمة بين الحمدانيين والبيزنطيين عند احتلال الروم لا جزاء من الامارة الحمدانية (سنة (359هـ/ 969 م) بعد موت الامير سيف الدولة الحمداني (333-356هـ/ 944-967م) وقد نقل لنا نص هذه الهدنة كمال الدين بن العديم الحلبي في كتابه ((زبدة الحلب)) وقد جاء فيه ((ومتى هرب عبد مسلم او نصراني ذكرا كان او انثى من غير الاعمال المذكورة (4) اليها لا يستره المسلمون ويظهرونه ويعطي صاحبه ثمنه عن الرجل ستة وثلاثون دينارا وعن المرأة عشرون دينارا رومية

---

1) برنشفيك Brunschvic دائرة المعارف الاسلامية - مقال : عبد - ج 1 ص 34

2) آدم متز A.Mez الحضارة الاسلامية - ج 1 ص 312

3) سيدة اسماعيل كاشف - مصر في عهد الاخشيديين ص 256

4) اي التي احتلها الروم

وعن الصبي والصبية خمسة عشر دينارا فان لم يكن له ما يشتريه به اخذ الامير من مولاه (1) ثلاثة دنانير وسلمه اليه فان كان الهارب معمدا فليس للمسكين ان يمسكه بل يأخذ الامير حقه من مولاه ويسلمه اليه)) (2) .

تلك بعض الامثلة على انتشار ظاهرة الاباق فى عدة نواح من العالم الاسلامي واذا ما كانت هذه هي اوضاع الرقيق في هذا العصر فان كثرة اباقهم قد كانت تحوج ساداتهم الى طلبهم والسعي وراءهم ولكن هذا السعي لم يكن مجديا دائما وكان الاسياد يعوضون رقيقهم الابق برقيق آخر يقتنونه من الاسواق فصارت عملية الاباق داعيا طبيعيا الى تنشيط تجارة الرقيق وازدياد الطلب على الاسواق خصوصا اذا ما كانت تكاليف البحث عن العبد الابق تعادل او تفوق تكاليف الاقتناء لغيره وتوفر على سيده مؤونة البحث والتعقب له فى المدن والامصار ثم ان اهتمام السلطة

---

1) نلاحظ هنا التمييز بين صاحب العبد الابق وهو ممسكه ومولاه وهو سيده ومالكه

2) ابن العديم الحلبي - زبدة الحلب في تاريخ حلب مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1666 ص 43 - عن نخب تاريخية - ص 422

بهدء الظاهرة وتصديها لها لم يكن ناجعا دائما لانه في حاجة الى تنسيق بين الولايات والاقاليم ويتطلب وقتا طويلا تضيع معه مصالح السيد فيضطر الى البحث عن بديل من سوق الرقيق .

4)- الثورات والفتن

ومن العوامل التي كان لها تأثير في انخفاض عدد العبيد ونفاد مادته الثورات والفتن الداخلية ذلك لان من عادة اصحاب الفتن والثورات ان يحرروا العبيد الهاربين اليهم والموازرين لدعوتهم تماما على ما كان يفعله الرسول مع الرقيق الهارب من دار الكفر الى دار الاسلام وقد تسبب ظلم الامويين وتعصبهم على الاجناس غير العربية في قيام العديد من الثورات التي التف حولها الرقيق رغبة في الانعتاق وفروا من سلطة اسيادهم مما تناقص معه عددهم تناقصا مستمرا في المجتمع الاسلامي واحوج هذا المجتمع الى تجديد الايدي العاملة المستعبدة واقتناء مقادير اخرى من العبيد تقتضيها الضرورة الاجتماعية والاقتصادية .

ومن اشهر الثورات التي اتاحت للرقيق التخلص من ربقة الرق ثورة المختار بن ابي عبيد الثقفي (ت- 67هـ/ - 686 - م) الذي قاوم ما استشرى في ظل بني امية من نزعة نحو التفرقة العنصرية ودعا الى المساواة بين الاجناس مذكرا بتعاليم الدين المواخية بين البشر ......

والتي تقوم على مبدأ ان لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى (1) وقد انضم الى هذه الثورة التي اندلعت بالعراق العديد من الموالي والعبيد الناقمين على سياسة الامويين المتعصبين للجنس العربي والمزدرين لغيره من الاجناس الاخرى وقد وجدوا في هذه الثورة ما يحقق آمالهم في الحرية والمساواة كما وجدوا في زعيمها الضامن لما يطمحون اليه من العتاق .

وفعلا فقد وصف بعض الباحثين المختار الثقفي بكونه محرر العبيد فقال : "ولا نعتبر (ابراهام لنكولن) (Abraham Lincoln) محرر العبيد في امريكا الا صورة مكررة من المختار الذي عمل دائما على تحرير الموالي والرقيق في الدولة العربية الاسلامية " (2) حقا كان المختار من دعاة المساواة والحرية والاخاء ومن اعداء العبودية والعنصرية فقد روي عنه انه كان في ثورته يطلق سراح الاسرى الذين يقعون في قبضته بعد انتصاره عليهم مكتفيا بان يتعهدوا له بان لا يناصبوه العداء كما شجع المسلمين على تحرير عبيدهم وجعل نفسه قدوة لهم

1) البخاري-صحيح - ج 3 ص296-299
2) علي حسني الخربوطلي — عشر ثورات في الاسلام — ص 126

فاعتق كثيرا من مواليه الذين كانوا يعملون في ضيعته قرب الكوفة وكان المختار يعاقب اعداءه ايضا بان يحرر رقيقهم ويلحقهم بجيشه بعد تحريرهم ويساويهم بالاحرار في الرزق والعطاء ويمنحهم حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية واشتهر بتصرفه هذا فهرع الرقيق اليه من كل صوب وقصدوا الكوفة ليلتحقوا بثورته (1).

وقد واصلت ثورة عبد الرحمن بن الاشعث المندلعة سنة (80 هـ/ 699 م) ما بداته ثورة المختار من محاربة للتفرقة العنصرية ونشر لمبادىء المساواة بين الاجناس وتحرير العديد من الارقاء وكان من اسباب قيام هذه الثورة ايضا استفحال النظام الاقطاعي ببلاد العراق وذلك لان ارض السواد التي رفض الخليفة عمر بن الخطاب (13-23هـ/634-644م) قسمتها على الفاتحين واقر اهلها عليها مقابل دفع ضريبة الخارج قد ملكها الامويون منذ زمن عثمان (23-34هـ/644-655م) وصارت في عهد الخلافة الاموية "بستان قريش" تستخدم فيه آلاف الايدي العاملة من الرقيق والموالي بالقوة وتحرم من شتى الحقوق (2).

---

1) المرجع نفسه ص 127 وص 138 - 139
2) المرجع نفسه ص 143

لقد كانت هذه الثورات اذن طاقة مستهلكة لارصدة الرقيق منذ القرن الاول للهجرة وقد ظل شانها كذلك في القرن الثاني ايضا ولدينا مثال على ما فعله ابو مسلم الخراساني زعيم الثورة العباسية ابان ثورته على السلطة الاموية مع الرقيق المناصر لدعوته فقد جاء في كتاب اخبار الدولة العباسية انه قال لرؤساء الشيعة ووجوههم بمناسبة انضمام غلام عاصم بن عمرو السمرقندي لصفه ما يلي : " ان الله جعل دعوتكم امنا وعزا لمن لجأ اليها فمن دخلها من حر او عبد فقد وجب حقه عليكم اذ صارت يده مع ايديكم وصحت حرمته ، وان هذا الرجل ذكر انه عبد لعاصم اقبل اليكم ناصرا لكم راغبا في دعوتكم فقد وجب حقه بذلك عليكم وقد اعتقه الله الذي هو اولى به من عاصم وايما عبد اتانا راغبا في امرنا قبلناه وكان له ما لنا وعليه ما علينا " (1)

وقد كثر نزوع العبيد الى ابي مسلم فصير لهم موضعا في خندقه بالماخون وهي قرية من قرى مرو (2) وولى عليهم داود بن كراز (3) وكانوا

---

1) مؤلف مجهول من القرن الثالث للهجرة ـ اخبار الدولة العباسية ـ ص 290 ـ 291 وص 294
2) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ج 5 ص 33
3) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج 2 ص 1963 ـ 1969

اول جند بعث بـه الى ابيورد ونسا وكثرت في تلك الاثناء شكاوى مـن هروب العبيد الى ابي مسلم فامر المنادي بان ينادي بان يرجع العبيد الى مواليهم فاحتج قائدهم قائلا : " ان المنادي نادى بان ترجع العبيد الى مواليهم وكيف يرجعون اليهم وقد خالفوهم واسخطوهم في حب آل محمد قال الله عز وجل : " النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم " (1) وانتهى الامر بان رجع العبيد الى خدقهم (2) وكان امر هؤلاء العبيد موضوع مراسلة بين ابي مسلم ونصر بن سيار لاهميتـه فقـد كان نصر يؤاخذ ابا مسلـم بما فعله من فصل العبيد عن مواليهم فاجابـه ابومسلم: " اما العبيـد فلسنا نكره احدا منهم فمن اراد مولاه فشانـه وان انفذتم احكامنا حكمنـا بينهم وبين مواليهم بالحق " (3) .

اما اكثر الثورات استنزافا لمادة الرقيق في المجتمع الاسلامي فهي ثورة الزنج التي قامت سنة(249هـ/863م)على النظام الاقطاعية بالعراق ومـا تسببت فيه من استغلال وعبوديـة ، فقد كان الاتراك الذين سيطروا على

---

1) القرآن - سورة : الاحـزاب - آيـة : 6

2) مؤلف مجهول من القرن الثالث للهجرة ص ـــ اخبار الدولة العباسية ـــ ص230 ـــ 231

3) المصدر نفســه ص 234

الدولة العباسية قد امتلكوا الضيعات الواسعة وتوخوا في فلاحتها نظما اقطاعية جائرة وسخروا الرقيق من مختلف الاجناس لخدمتها وكان الزنوج المجلوبون من سواحل افريقيا الشمالية يمثلون جانبا كبيرا من هذا الرقيق لما اشتهروا به من قوة ابدانهم بالاضافة الى قلة اثمانهم وكان هؤلاء الزنوج يعملون بالسخرة في ظروف اجتماعية وصحية قاسية ويتمثل عملهم في استصلاح بطائع البصرة وكسح الاملاح التي تغشيها دون ان يتقاضوا اجورا ملائمة لمجهودهم فاعلنوا التمرد والثورة وانضمت اليهم جماعات من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة فرارا من المظالم كما انضمت اليهم الفرقة السودانية التابعة للجيش العباسي وقد ساعد على اندلاع هذه الثورة انتشار مبادئ الخوارج الديمقراطية بالعراق اذاك ، وهي مبادئ تدعو الى المساواة والعدالة الاجتماعية وتقد تبنى علي بن محمد الملقب بصاحب الزنج هذه المبادئ وسعى الى تحقيق آمال الرقيق .

وقد دعا هذا الزعيم الى تحرير العبيد في بلاد العراق فهرع معظمهم اليه وفروا من اسيادهم الى البصرة منتظرين ساعة خلاصهم من مهانة الرق خصوصا ان هذا الزعيم كان قد اعلن ان عهد العبودية قد انتهى

واستشهد بالآيات الكريمة التالية : " ان اللــه اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليـه حقـا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشـروا ببيعكم الذي بايعتم بـه وذلك هو الفوز العظيم " (1) و فسر الزعيـــم هذه الايات تفسيرا سياسيا فقال : ان المؤمنين قد اشتروا انفسهم اي لم يعودوا بعد عرضـة للرق والعبوديـة (2).

واذا ما علمنـا ان ثورة الزنج قد دامت حوالي عشرين سنـة اي من سنة (249هـ/ -863-م) الى سنة (270هـ/ -884-م)(3) وانهـا قد شملت رقعـة جغرافيـة واسعـة بالشرق الاسلامي اذ استولت على العديد من مدن العراق وخوزستان و البحرين وتاهبت للهجوم على بغداد ادركنـا ان مقادير من الرقيق قد افلتت من ايدي المسلمين وان الاسياد قد خسروا الكثير من الايدي العاملة المشرفـة على شؤونهم الاقتصادية بسبب اباق الرقيق اوعتقـه او هلاكه فقد قدر المؤرخ السيوطي عدد القتلى في هاته الثورة بمليون ونصف (4) بينما قدره المؤرخ ابن طباطبا بمليونين من النفوس (5)

---

1) القرآن سورة التوبـة - عدد 9 - آية 112
2) علي حسني الخربوطلي ــ عشر ثورات في الاسلام ص 185
3) ابن الاثير ــ الكامل ــ ج 7 ص 111 ــ 140
4) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ــ ص 242
5) ابن طباطبا ــ الفخري ــ ص 227

ولسنا نعتزم في هذا السياق ان نحيط بشتى الثورات التي اندلعت في المجتمع الاسلامي وانما هدفنا التدليل على حقيقتين نراهما اساسيتين اولهما ان هذه الثورات قد كانت تمثل نزيفا في بضاعة الرقيق المتداولة اذاك وان هذا النزيف قد كان باعثا من جملة البواعث على تجدد الحاجة الى هذه البضاعة وجلبها لتعويض ما حدث من نقص.وثانيهما ان هذا النزيف الذي حدث في القرنين الاول والثاني للهجرة ومهد لازدهار تجارة الرقيق في القرون الموالية لم يكن مقصورا على هذه الفترة من تاريخ المسلمين بل تواصل خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين وليس ادل على ذلك من كثرة الانتفاضات والشغب الذي حدث في ذلك العصر وبذلك صار المجتمع الاسلامي حتى في عهد ازدهار تجارة الرقيق مهددا دوما بتلف هذه المادة التجارية مما دعاه الى البحث المستمر عن بديل لها بصورة متواصلة وفي ذلك تفسير لاستمرار الطلب لهذه البضاعة.

وهكذا يتضح لنا الان ان دائرة التحرير قد اتسعت اتساعا صار معه الحفاظ على رصيد المجتمع من الايدي العاملة المسترقة امرا متعذرا ومما زاد في اتساعها تظافر العوامل الشرعية العقائدية والتقاليد والمصالح الاجتماعية على نقل الرقيق من حيز العبودية الى حيز الحرية. ويتسنى لنا ان نتصور تفاقم هذه الحال اذا ادركنا ان العبيد الذين احرزوا على انعتاقهم كانوا يهرعون غالبا الى عتق ذوي قرباهم وشراء رقابهم بالاموال وكان لهم في تعاليم الدين ما يشجعهم على ذلك ، فمما رواه صاحب الاغاني في ترجمة نصيب الشاعر انه لما اعتق ظل يمدح عبد العزيز بن مروان حتى حصل منه على مال اعتق به بعد ذلك امه وجدته لامه اذ اشتراهما به وفعل مثل ذلك بابن خالته سحيم وهذا نص الخبر كما اورده ابو الفرج الاصفهاني :

" اخبرني الحسين بن يحيى قال : اخبرنا حماد بن اسحق عن ابيه عن ايوب بن عباية قال : اصاب نصيب من عبد العزيز بن مروان معروفا فكتمه ورجع المدينة في هيئة بذة فقالوا : لم يصب بمدحه شيئا فمكث مدة ثم ساوم بامه فابتاعها واعتقها ثم ابتاع امامه ضعف

ما ابتاع بـه امـه فاعتقها وجاءه ابن خالة له اسمـه سحيم فسالـه ان يعتقـه فقال لـه : ما معي والله شيء ولكني اذا خرجت اخرجتك معي لعل اللـه ان يعتقك فلما اراد الخروج دفع غلاما لـه الى مولى سحيم يرعى ابلـه واخرجـه معـه فسال في ثمنـه فاعطاه واعتقـه فمر بـه يوما وهو يزفن (يرقص) ويزمر مع السودان فانكر ذلك عليـه وزجره . فقال له : ان كنت اعتقتني لاكون كما تريد فهذا والله مالا يكون ابدا وان كنت اعتقتني لتصل رحمي وتقضي حقي فهذا والله الذي افعلـه هو الذي اريـده " (1).

لسنا اذن في حاجة الى مزيد التاكيد على ان عمليـة العتق قـد كانت من التقاليد التي استقرت في المجتمع الاسلامي ومارسها المسلمون على نطاق واسع بسبب صلتها المتينـة بالاحكام الشرعيـة وبوجوه من المصلحـة قد بيناها آنفا . ولم يكن تصرفهم هذا مقصورا على القرنين الاول والثاني للهجرة ، بل نواصل هذا التصرف خلال القرون المواليـة اي في القرنين الثالث والرابع للهجرة اذ ما برحت عادة العتق تعتبر من اعمال البـر والصنيع المحمود ولان التقوى لم تكن وقفا على عصر دون آخر فغالبـا

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ ج 1ص 318 ـ 319

ما كان السيد الفاضل يعتق العديـد من عبيـده مرضـاة لربـــه او تكفيرا عن بعض ذنوبـه .

فمن ذلك مثلا ما يقال عن عتق محمد بن علي الماذرائـــي احد وزراء مصر لمائـة الف مملوك في حياتـه (1) ولا يخفى ما في هذه الروايـة من مبالغة واضحـة ولكنها تشهد باقبال هذا الوزيرعلى مرضـاة ربـه بمثل هذا العمل الخير وتدل على ان التقوى قد كانت في كـل العصور حافزا من اهـم الحوافز على عتق الرقيق ومن امثلـة العتـــق المشهورة ايضا في القرن الثالث للهجرة وصيـة الخليفـة المعتصم(218-227ھ/833-842م) عند موتـه بعتق ثمانيـة الاف من مماليكه (2) كما اعتق المتوكل علـــى اللـه(232-247ھ/847-861م)بمناسبة اعذار ابنـه المعتز بالله(252-255ھ/866-869م) الفا من عبيـده (3) ويروى ايضا ان ام الخليفـة الراضي(322-329ھ/934-940م) قد اعتقت عند موتـه سنـة(329 ھ/940م)جواريـه ومنهن رباب وفرحـــة وغيرهما (4) ولا نعتزم ان نسترسل هنا في ضرب الامثلـة على هـــذا

---

1) ابن سعيد ــ المغرب ــ ص 162 سيدة اسماعيل كاشف ــ مصر في عهد الاخشيديين ص 255ــ256 الماذرائيون تولوا مصر بعد الطولونيين وقبل الاخشيديين وهم من اصل فارسي
2) آدم متز - A. Mez - الحضارة الاسلامية ج - 1 - ص 308
3) ابن الزبير ــ الذخائر والتحف ــ ص 115
4) المصدر نفسـه ص 190

السلوك ولكن حسبنا ان نقول ان كثرة عتق الخلفاء واولي الامر والجاه لرقيقهم قد كانت ضرب الشغل في تلك العصور وان ظاهرة تحرير الرقيق لاسباب شتى قد تواصلت خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة مما جعل هذه البضاعة مهددة دوما بالنقصان ومما تسبب في تجدد الحاجة اليها باستمرار .

لعله قد اتضح اذن مما اسلفنا ان منعرجا قد حدث في مسألة التزود بالرقيق منذ القرن الثاني للهجرة وتواصل امره خلال القرنين الثالث والرابع ويتمثل هذا المنعرج فيما طرأ من تغيير على مصادر التزويد من ناحية وما اعترى الرصيد من ناحية اخرى من نقصان مستمر بسبب عدة عوامل كنا بصدد شرحها .وكانت نتيجة كل ذلك ان حدث الخلل بين العرض والطلب وازداد حدة بسبب تضاعف الطلب لهذه البضاعة كما سنبينه فيما يلي .

الفصل الثاني

تجدد الحاجة الى الرقيق مع القرنين الثالث والرابع للهجرة

لقد راينا فيما سبق كيف كان رصيد الرقيق في المجتمع الاسلامي مهددا بالنفاد منذ القرن الثاني للهجرة بسبب توقف الفتوحات وكيف تظافرت مجموعة من العوامل لاحداث النزيف في ذلك الرصيد بصورة مستمرة ودائمة من اجل بروز ظواهر اجتماعية مساعدة على استنزاف بضاعة الرقيق فضلا عن بعض الدوافع الشرعية التي كان لها نفس الاثر مما سيضطر معه مسلمو القرنين الثالث والرابع للهجرة الى البحث عن حلول جديدة لهذه الازمة والتزود من جديد بهذه البضاعة .

لكن ما كان يهدد الرصيد من نزيف او نفاد لم يكن وحده الدافع الى معالجة الوضع بل لابد من الاشارة الى الضغط الحضاري الذي كان مسلطا على مجتمع ذلك العصر والذي تسبب في مضاعفة الطلب لهذه المادة . فقد اقتضت الاوضاع الحضارية ابتداء من القرن الثالث للهجرة ارصدة اوفر من الرقيق لمواجهة ضرورات الحياة في شتى الميادين خصوصا عندما استبحرت العواصم والاقاليم الاسلامية في الحضارة وازدادت حاجياتها بازدياد عمرانها . فنشأت لذلك دواع سياسية واقتصادية واجتماعية خاصة بهذا العصر وباعثة على ترويج تجارة الرقيق كما سوف نرى .

1) الحاجة السياسية والعسكرية

من مظاهر الطلب الكبير الذي استدعى البحث عن أسواق خارجية لجلب الرقيق وعمل على تنشيط تجارته في هذا العصر اقبال الخلفاء والملوك على تجنيد الارقاء وتأليف جيوش نظامية منهم واتخاذ بعض اجناس الرقيق حرسا للبلاط الخلافي او القصر الملكي. وكان السبب الرئيسي الذي دفع رجال السلطة الى سلوك هذه السياسة العسكرية ضعف ثقتهم بالجند المؤلف من القبائل العربية لان مرتزقة كانت في صراع مستمر بسبب تطاحن العصبيات وتنافسها. وقد كان هذا التناحر العصبي قديما بينها يرجع عهده الى ما قبل الاسلام وقد انتقل معها حيثما انتقلت. ومن ابرز انواع النزاع القبلي ما استقر بين القيسية واليمنية في كل مكان حلوا به اذ نجد عرب نقلوا نزاعهم هذا من الجزيرة الى ربوع الشام في عهد الامويين وعندما دخلوا الى الاندلس والمغرب احدثوا بها فتنا عديدة وكانوا دائما يعيشون على ذكرى حزازات ومشاجر بعيدة (1).

وهكذا عرف الجند العربي بعدم الامتثال لا سيما انه لم يكن يمثل جندا موحدا الا في الظاهر وكان بحكم تكوينه منقسما الى اقسام بعضهم بعضا الى بعض فكان الجند يمثل

---

1) ابن خلدون المقدمة ص 116 - 117

المقري نفح الطيب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الكتاب العربي بيروت 1949

ج 1 ص 274

متصلة بالنسبة الى الدولة الاسلامية طيلة حكم بني امية وكان الامراء مجبرين في كثير من الاحيان على الخضوع لارادة الجند. وكان الولاة بافريقية في القرن الاول للهجرة مثار رعب عند الارادة فاذا راموا الاستقلال بقراراتهم عنها كان مصيرهم العزل والحبس واحتقار تصدي الحكام الامويين الى محاربة هذا النزاع العصبي ونمو الكراهية فيه للمتغلب منهما وقد ادى كذلك النزاع لحروب العصبيات بعضها ببعض وخير شاهد على ذلك سياسة هشام بن عبد الملك في افريقية والمغرب(1)

لكن السبب الكبير الذي كان يهدد السلطة هو تطاول هذا البلد على كرسي الحكم اذا آنس من نفسه قوة تمكنه من ثورة قد تؤدي الى شق عصا الطاعة والتمرد على حكم قائم منادينا بتوريث جديد للعرش ومشعلا لحروب اهلية دامية . وكان الحافز على هذه الانتفاضات طموح العصبيات العربية الى المساهمة في الحكم لانها تعتبره حقا من حقوقها رغم شعورها بانها مسؤولة عن مصير الامة لان العرب هم اصحاب الدين الجديد وهم الذين فتحوا الامصار بالاضافة الى اعتقادهم الفضل على الاجناس الاخرى الداخلية في الاسلام .

لقد عملت سياسة هذه الاعتبارات على عدم ازاحة الخلفاء والطبقة الحاكمة ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة عن الاعتماد على الجند العربي والبربري وعدم ثقتهم

---

1) ابن خلدون – المقدمة ص 117 ؛ ابراهيم احمد العدوي – المسلمون والجرمان – الطبعة الاولى – دار المعرفة 1960 ص 154–165 – بروفنسال Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ص 34–53 جودة الركابي – في الادب الاندلسي – دار المعارف بمصر 1966 الطبعة الثانية ص 62

في اهل عصبيتهم واستشعروا الخوف على مناصبهم من تواثب انصار تلك العصبية كما تخلوا عن مواليهم من الفرس فراموا البحث عن عناصر جديدة للاعتماد عليها في جيوشهم هي اذاك اكثر انصياعا بحكم وضعها الاجتماعي واصدق طاعة واخلاصا من العرب والفرس والبربر فوجدوا ضالتهم في اصناف الارقاء

وهكذا جرت عادة الخلفاء والملوك والامراء في هذا العصر بجلب الرقيق التركي والصقلبي ورقيق السودان لاتخاذه حرسا وجندا يحميهم من ويلات العصبيات المحيطة بهم (1) وقد وصف لنا الطبري كيف دحر الخليفة المعتصم (218-227هـ/833-842م) العصبية الفارسية بالرقيق التركي . فذكر انه لما تولى الخلافة كان الخراسانيون اهم عنصر في الجند وهم الذين قامت الدولة على كواهلهم منذ النصف الاول من القرن الثاني للهجرة اي منذ قيام الدولة العباسية فكانوا يكونون حرس الخليفة وجنده ويمثلون عصبية اقوى من العصبية العربية التي قل شأنها اذاك فلما توفي المأمون (-218- هـ/ - 833 - م) نادوا بأبنه العباس خليفة بدل اخيه المعتصم لأن ام المأمون فارسية فلما تولى المعتصم احدثوا هرجا بعاصمة الخلافة ولم يهدأ امرهم الا بعد ان اعلن العباس مرغما مبايعة عمه ومنذ ذلك التاريخ توجس الخليفة خوفا منهم فدبر موامرة لقتل العباس وعزز صفوف حرسه وجنده بالاتراك (2)

---

1) فازيلياف-vasiliev-العرب والروم — 10 — 12

برنشفيك Brunschvig-دائرة المعارف الاسلامية

مقال عبد — ص 33

2) الطبري — تاريخ الامم والملوك ج 10ص 304

وكان شأن اولي الامر مع العرب والبربر بمصر والمغرب والاندلس شبيها بذلك مما احوج الاغالبة بافريقية والامويين بالاندلس وغيرهم من الاسر الحاكمة بالمغرب الاسلامي الى عقد صفقات عظيمة من الرقيق الابيض والاسود ليعتمدوا عليه فى ادارة شؤون الدولة. وقد يحدث ان يستبد هذا الرقيق ويعلن العصيان فيسارع رجال السلطة بدحره واخضاعه وذلك بتجديد صفقات اخرى من العبيد الموالين لهم وقد حدث ذلك مرارا عند استبداد الصقالبة بالمغرب والاتراك بالمشرق. ومن الملاحظ ايضا ان هذا الرقيق المستورد الذى صارت شؤون القصر بيده قد اعتمد هو الاخر على امثاله من العناصر المسترقة فاتسعت بذلك رقعة شراء هذه البضاعة وراجت سوقها.

ويعتبر ابن خلدون من احسن من حلل هذه الظاهرة السياسية العسكرية التى احوجت الدول الاسلامية الى اتخاذ الرقيق " موالي ومصطنعين " فقد انطلق هذا العلامة من كون الدولة تمر فى حياتها بأطوار اولها طور التغلب بالعصبية ويكون المتغلب فى هذا الطور متدرعا بأبناء عشيرته ومعتصما بعصبية قومه لكنه فى الطور الثاني ينزع الى الانفراد بالسلطان دونهم والاستئثار بالمجد فيقلب لقومه ظهر المجن ويكافحهم بالموالي والصنائع من غير عصبيته وهذا الطور هو فعلا المرحلة التى احتاج فيها ملوك المسلمين وخلفاؤهم الى مجموعات عظيمة من الرقيق ليصطنعوهم في شؤون

السيف وغيرها من الشؤون وليتخذوا منهم درعا صد المتشوقين عنهم ومنافسيهم يقول ابن خلدون في ذلك :

((........ الطور الاول طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من ايدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء لان ذلك هو مقتضى العصبية التى وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها . والطور الثاني طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة . ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع والاستكثار من ذلك لجدع انوف اهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصدهم عن موارده ويردهم على اعقابهم ان يخلصوا اليه حتى يقر الامر في نصابه ويفرد اهل بيته بما يبني من مجده فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الاولون في طلب الامر او اشد لان الاولين دافعوا الاجانب فكان ظهراؤهم على مدافعتهم اهل العصبية باجمعهم وهذا يدافع الاقارب لا يظاهره على مدافعتهم الا الاقل من الاباعد فيركب صعبا من الامر)) (1)

1) ابن خلدون ـ المقدمة ص 125

وقد تعرض ابن خلدون الى هذه الظاهرة بالتحليل في مواطن عديدة من المقدمة لانه يعتبرها من اسس نظريته حول نشأة الدول وتطورها. وهو يستمد هذه النظرية من ملاحظاته وتأملاته في التاريخ الاسلامي السابق والمعاصر له. ومن الواضح ان "الطور الثاني" الذي تحدث عنه في عمر الدول له صلة متينة بهذه الفترة التي ندرسها كما ان استعماله لكلمة "موالي" و"صنائع" شامل في مدلوله لعناصر الرقيق المصطنعة في الدولة الاسلامية سواء منها التي نالها العتق او التي بقيت على حال العبودية.

ويوجد اعتبار آخر عمل على هذا التحول ايضا وهو عامل عسكري متصل بالعامل السياسي الذي كنا بصدد ذكره وذلك ان رجال السلطة قد شعروا نظرا للاعتبارات السابقة بحاجة الى جند نظامي دائم له ارزاق ثابتة ولا يخضع لنظام التطوع الذي كان الجند العربي خاضعا له ولا يرتبط نشاطه الحربي بمناسبات كما لا يعيش فقط على ما يحصل عليه من غنائم. فقد كان الجند العربي خاضعا لنظام التطوع من الغالب وكانت فرقه تتكون في مناسبات معينة هي حالات الحرب فاذا مرت هذه المناسبات تفرق الجند ورجعت القبائل الى مواطنها ومعها حظوظها من الغنيمة وكان لها ايضا نصيبها من العطاء. لكن هذا النوع من الجند لم يعد يستجيب لحاجات الدولة

العسكرية لانه اذا ما كان قادرا على اداء دوره في الفتوحات من صوائف وشواتي فانه لم يكن يؤدي دورا ما في حالة السلم سوى الاستسلام للشغب الذى كنا بصدد ذكره . وهكذا شعر اصحاب السلطان بحاجة الى جند يكون درعا للنظام للقائم فى حالة السلم ايضا ويستمر مرابطا فى غير حالات الحرب ومتقاضيا لرواتب قارة بقطع النظر عن استمرار الفتح او توقفه ودون اعتبار لوجود غنائم او انعدامها - وكانت احدى غايات هذا التحول بلاشك حماية العائلة المالكة في الداخل والخارج معا وقهر العصبية العربية بعصبيات اخرى اجنبية.فظهر جند نظامي تتكون نواته من الارقاء الطبيعيين الذين لا تخشى منا وأتهم لانعدام عصبيتهم وعدم طمعهم فى الحكم والذين يمكثون فى خدمة الدولة وفي استعداد عسكري دائم.وهو دوام لم تكن القبائل العربية تقبله فى حالة السلم لانها كانت تتحفز للحرب دوما بحكم طبيعة تكوينها القبلي - ولم تقض الدولة مع ذلك على المطوعة من العرب او المرتزقة من الموالي ولكن اعتمادها عليهم كان ظرفيا كما اسلفنا .

ومما شجع على هذا التحول ايضا ان الخلفاء والملوك قد اكتشفوا فى بعض اجناس الرقيق خصالا حربية ممتازة ودراية بفنون القتال لم لم يكن للعرب خبرة بها خصوصا ان العرب كانوا يعرفون من الحرب الكرّ والفرّ وهو فنّ لم يعد يتلاءم مع متطلبات الظروف الحربية الجديدة .

وكانت الحياة الاقتصادية من عمل في المزارع والمناجم والمصانع والمتاجر تفرض تشغيلا متزايدا للطاقة المستمدّة من عمل بني الانسان وبما انّ الحلّ الذي كان متداولا في حضارة تلك العصور لازمة الشغل يتمثل في استعمال الرقيق وحب توفير ما يكفي من الايدي العاملة المسترقة وتوريد العبيد لمواجهة الحاجيات المتزايدة في ميدان الاقتصاد (1) وقد كثر الطلب لهذه البضاعة بموجب تطور المجتمع الاسلامي اقتصاديا. ففي هذا العصر عرف الميدان الاقتصادي ازدهارا كبيرا في شتى القطاعات ففي قطاع الصنائع والحرف رسخت التقاليد والتنظيمات المهنية في الاسواق الاسلامية وصارت تستدعي سواعد للقيام بها وفي القطاع الفلاحي شهد العمل في الحقول والمزارع ابعادا جديدة أيضا تستلزم المزيد من الايدي العاملة وفي القطاع التجاري كان هذا العصر العهد الذهبي للتجارة الاسلامية بفضل سيطرة المسلمين على الاسواق العالمية وطرقها وتوفر الثروات العظيمة بايدي التجار وتصرفهم في شتى البضائع الرائجة بالشرق والغرب .

---

(1) جاة باشا — التجارة في المغرب الاسلامي — ص 114 — 116 وص 118 — 19

واذا تأملنا في الاوضاع الفلاحية خلال هذا العصر لاحظنا ازدياد الطلب لليد العاملة الفلاحية من أجل الاصطلاح باحياء الاراضي وزراعتها خصوصا عند بروز ظاهرة الاقطاع فقد تسبب هذا النظام الفلاحي في جلب اعداد وفيرة من اليد العاملة المسترقة . فاذا ما كان المسلمون الاولون يستخدمون العبيد في فلح الارض فان ذلك الاستعمال قد كان على المستوى الفردي وفي نطاق محدود لايكاد يخرج عن حدود العمل الذي يقوم به العبد في ملك سيده وعلى الارض التابعة لاسرته . كما نعرف أن الاسلام قد عمل على محاربة نظام الاقطاع وما ينجر عنه من وضع طبقي استغلالي وكان له دور في تحرير العبيد العاملين بالاراضي المفتوحة . الآن الحضارة الاسلامية قد احتفظت بالرغم من هذا الموقف بالرّقيق الذين كانوا يسمّون بالاقنان وهم الذين يعيشون في القرى والأرياف ويعتبرون جزءا من الأرض وعندما تنتقل ملكية الأراضي التي يشتغلون عليها بالفتح أو البيع والشراء يبقون على الأرض ويعتبرهم السادة الجدد جزءا من ملكيتهم الجديدة ويعاملون معاملة العبيد (1) .

---

(1) الـدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 77 - 79 - زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 44 - 46

وقد ادى تطور الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية الاسلامية الى بروز نوع من الاقطاع الفلاحي المختلف في نمطه عن الاقطاع الشائع في حضارة الفرس والروم وقد استعملت فيه الايدي العاملة من الرقيق وان لم تكن مرتبطة به في الغالب.وقد كان في بداية نشأته محدودا ومقتصرا على الاراضي التي لم تكن ملكا لأحد أي التي تستولي عليها الدولة لأن أهلها ماتوا عنها أو التي ليس لها مالكون أو التي تخلى أصحابها عنها وهاجروا الى بلد أجنبي وهي أراضي مهما كثرت قليلة وكانت الدولة تعمرها وتحييها وتجعل ريعها الى بيت المال أو تؤجرها للفلاحين أو تقطعها لبعض المسلمين (1) وقد ذكر الماوردي ان الاقطاع نوعان : اقطاع تمليك واقطاع استغلال ويشتمل النوع الأول على الارض الموات التي يملكها من يحييها وعلى الارض العامرة والارض التي يوجد بها بعض المعادن وأما النوع الثاني فيقع استغلاله مقابل دفع العشر أو الخراج وهو استغلال لايورث ويمنح جباة الخراج هذا النوع من الاقطاع بدلا من منحهم المرتبات الثابتة . وتعود هذه الاقطاعات الى الدولة اذا أهملها القائمون بفلاحتها (2) .

---

(1) ابن آدم - كتاب الخراج - ج 1 ص 8

(2) الماوردي - الاحكام السلطانية - ص 181

وقد كان الرقيق مستعملا لخدمة هذا الاقطاع منذ العصر الأموي وتدل على ذلك ثورة المختار الثقفي التي التف حولها الرقيق بسبب اوضاعه العسيرة في عمله الفلاحي وقد ضرب المختار المثل بجعله العرب من انصاره يعملون جنبا الى جنب مع العبيد في فلاحة الارض في عصر كانت العصبية العربية فيه تأبى النزول من عليائها الى خدمة الارض وترى نفسها احدر بأمور السياسة والجهاد وتدل كذلك ثورة عبد الرحمان بن الأشعث في وجه الحجاج بن يوسف سنة (80 هـ/ 699 م) على الاعداد الوفيرة من الرقيق المضطهد في اقطاعات الأمويين بالعراق (1) .

وقد تطورت الاوضاع الفلاحية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة مما أحوج الى المزيد من اليد العاملة لاحياء الاراضي الشاسعة ومن ذلك مشاريع استصلاح السباخ المحيطة بالبصرة من بلاد العراق مما دعا الى جلب اعداد وفيرة من رقيق الزنج من شرق افريقيا (2) .

(1) علي حسن الخربوطلي – 10 ثورات في الاسلام – دار الآداب بيروت الطبعة الأولى – 1968 – ص72

(2) الطبري – تاريخ الامم والملوك – نشرة دي غوية Degoeje – ليدن 1901 (في 15 مجلدا) ج 3 ص1742 .

وقد وجد في هذا العصر رقيق مرتبط بالارض

اذ أشار أبو القاسم البغدادي الى ما أسماه "انباط القرى وعبيدها " (1) كما نقل الطبري مواقف بعض الفقهاء من "أهل السواد " بالعراق وهي مواقف تعتبرهم ارقاء (2)

وقد تحدث ربيعة الرأي عن العبيد الذين كانوا يشتغلون في فلاحة الأرض ويعاملون كالماشية (3)

كما استخدم الرقيق في اعمال الرعي الى جانب استخدامه في الفلاحة (4) ويصف اليعقوبي في أواخر القرن الثالث هجري أرض المعدن ويتحدث عن منجم وادي "علاقي " فيقول ان وادي "علاقي " شبيه بمدينة عظمى كثيرة السكان من كل جنس عرب وغير عرب وكلهم يبحث عن الذهب وهي مدينة تجارية وبها أسواق وكان أهلها سواء أكانوا من التجار أو لم يكونوا يتخذون عبيدا سودا يعملون لفائدتهم في استخراج المعدن (5) وهذا يدل على حاجة العمل المنجمي الى يد عاملة من الرقيق .

---

(1) ابو القاسم البغدادي — الحكاية — طبعة متز METZ . ص101
(2) الطبري — اختلاف الفقهاء — طبعة شاخت . Schacht - ليدن 1935 ص 222
(3) ربيعة الرأي هلال — احكام الوقف — حيدر آباد الدكن 1356 — هـ ص 17
(4) البيهقي — المحاسن والمساوي — ص 613 — الدوري — تاريخ العرق الاقتصادي — ص 77 — 79 .
(5) اليعقوبي — كتاب البلدان — ترجمة فيات Wiet — القاهرة — 1937 — ص 188 و ص 190 — غرسين Garcin — مدينة قوص أحد المراكز الاسلامية — ص 48 .

وقد تعقدت اوضاع الاقطاع في هذا العصر خصوصا عندما استولى العنصر التركي على دواليب السلطة اذ امتلك الاتراك الضيعات الواسعة المشتملة على عدّة أفدنة والتجأوا الى شراء آلاف الرؤوس من الرقيق ليسخروهم في خدمتها وفلحها وكان هؤلاء الاتراك في بداية الامر ارقاء اشتراهم العباسيون من أسواق النخاسة ثم اعتقوهم وولوهم مناصب سياسية وادارية وعسكرية فسعوا الى ترسيخ نظام الاقطاع وامتلكوا بدورهم اجناسا مختلفة من الرقيق يستعملونها في أملاكهم الفلاحية (1) وقد عمدوا الى الزيادة في الخراج المفروض على صغار الملاكين فلجأ هؤلاء الى حماية كبار الملاكين وسميت هذه العملية بالالجاء أو التلجئة ممّا وسّع في رقعة الاقطاع وأحوج الى يد عاملة مستقرة ودائمة (2) .

---

(1) حسن ابراهيم - النظم الاسلامية - ص 273

(2) المرجع نفسه

وقد كان لظاهرة الاقطاع شأن ايضا في عهد البويهيين وحدث شبيه بذلك في نواح اخرى من العالم الاسلامي (1) الآانه من الضروري أن نقول ان المسلمين قلما عرفوا في تاريخهم استخدام المجموعات الضخمة من الرقيق في فلاحة الاراضي الشاسعة ولذلك افضت المحاولة التي حدثت بالعراق في استصلاح البطائح المجاورة للبصرة الى ثورة الزنج المسخرين لتطهير المستنقعات.فأغلب الرقيق قد أعفي من اعمال السخرة الجماعية القاسية ولكن هذا لا يعني انهم كانوا قليلي العدد في الحقول والمزارع أو انهم كانوا جميعا في حالة حسنة والدليل عليه كثرة العبيد الاباق في هذا العصر واغلبهم من العبيد العاملين في الميدان الفلاحي (2) .

---

(1) كلود كاهان – = C. Cahen - الشعوب الاسلامية ص210

(2) برنشفيك Brunsch_vig – دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 34 – سيدة اسماعيل كاشف – مصر في عهد الاخشيديين ص 256 .

وكان في اوضاع التجارة خلال هذا العصر ما شجع ايضا على تنشيط تجارة الرقيق - فقد عرفت التجارة الاسلامية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ازدهارا كبيرا صارت معه الركن الاساسي للاقتصاد الاسلامي وذلك بفضل سيطرة المسلمين على الطرق التجارية البحرية والبرية . فقد آلت اليهم في هذه الفترة السيادة على البحر وكانت لهم الاساطيل القوية في عهد الطولونيين والاخشيديين وفي عهد الاغالبة والفاطميين وكان للامويين بالاندلس اساطيلهم ايضا هذا فضلا عن الوحدات البحرية واعيان القرصنة المستقلة مما سمح بالسيطرة على الجزر والموانئ والتغلب على اساطيل البيزنطيين (1) وقد وصف ابن خلدون هذه الاوضاع البحرية التي مكنت المسلمين من مراقبة المسالك التجارية البحرية بقوله " قد تغلب المسلمون على كثير من لجة هذا البحر وسارت اساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البرّ الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتثخن في ممالكهم ... واساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الاسد على فريسته وقد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدّة وعددا واختلفت في طرقه سلما وحربا فلم تسبح للنصرانية فيه الواح " (2).

---

1) ارشيبالد لويس A. Lewis ص 61/62 - نشاطات التجارة في المغرب الاسلامي - ص 103/ محمد الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 382/384/ عبد العزيز سالم واحمد مختار العبادي تاريخ البحرية الاسلامية ص 120/130 و 127/131

2) ابن خلدون - المقدمة - ص 254 - (ط. بيروت)

وقد مكنت هذه الاوضاع التجار المسلمين من الاتصال بموانئ البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي والبحر الاحمر وبحر قزوين والخليج الفارسي وان ينشئوا بها محطات تجارية وجاليات من وكلاء التجارة باوربا وآسيا وافريقيا (1) وكان المسلمون قد سيطروا ايضا من هذا العصر على الطرق التجارية البرية فتمكنوا من التوغل ببلاد السودان وبلاد التركستان وصعدوا الى "الفلجا" "VOLGA" الى بلاد البلغار والصقالبة والروس كما جابوا طرقا برية نحو الهند والصين وقد دلت القطع النقدية التي عثر عليها ببعض انحاء المعمورة على الطرق التجارية التي سلكوها وعلى الشعوب التي اتصلوا بها وتعاملوا معها تعاملا تجاريا (2).

وهكذا امكن للمسلمين ان يكونوا وسيطا تجاريا بين الشرق والغرب وان يعوضوا الازدهار التجاري الذي اضطلعت به الامبراطورية البيزنطية قبل ظهور الاسلام على عكس ما يزعمه بيران H. Pirenne (3) فكان لمسلمي الشرق تجارة مباشرة مع اوربا الشرقية وكان لمسلمي المغرب تجارة مع اوربا الغربية كما كان للمسلمين مشرقا ومغربا اتصال بتجارة الصين والهند وافريقيا - وكان العالم الاسلامي ملتقى كل هذه التجارات وحلقة تجمع بين شتى الاطراف وتضطلع بمهمة التجارة العالمية في ذلك العصر (4)

1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 145-150
2) المرجع نفسه ص 150-154
3) بيران Pirenne. محمد وشرلمان ص 114 نقلا عن بابنا - التجارة في المغرب الاسلامي ص 114-115
4) كلود كاهن C. Cahen - التجارة في العالم الاسلامي ص 36
نقلا عن بابنا - التجارة في المغرب الاسلامي ص 114-115

وبذلك كان من الطبيعي أن تزدهر تجارة الرقيق بازدهار التجارة الاسلامية عموما لانها شعبة منها تتناول ترويج احدى البضائع التى كانت رائجة فى الاسواق الاسلامية اذاك . هذا فضلا عن الدور الاساسي الذي لعبه الرقيق فى الدورة الدموية للحياة التجارية الاسلامية اذ ساهم في الاضطلاع بمهام التجارة لصالح اسياده ولصالحه الخاص ايضا .كما استعمل احيانا فى صورة شكل من اشكال العملة على صعيد التجارة الخارجية خاصة اذ جرى به تبادل البضائع مع البلاد غير الاسلامية كما سوف نرى . وقد وصف الجاحظ جوانب من نشاط بعض الاجناس من الرقيق في الميدان التجاري والمصرفي على وجه التحديد وذلك من خلال حديثه عن رقيق السند المشهورين بمهارتهم في شؤون الصرف (1) وهو ما يدل على ان من بين الرقيق المجلوب الى العالم الاسلامي من كان له اختصاصات اقتصادية وطاقات فنية احتاج المسلمون الى استخدامها وساهمت فى النهوض بحضارتهم على المستوى الاقتصادي . وكان لظهور طبقة راسمالية تمتلك رؤوس اموال كبيرة وتشجع الصيرفة ووسائل الائتمان وانشاء المصارف (2) دور فى ايجاد الحاجة الى يد عاملة مسترقة لتسيير مشاريعها التجارية ويتكون افراد هذه الطبقة من الموظفين الكبار كالوزراء والقواد ورؤساء الكتاب وقد ارتفعت رواتبهم عما كانت عليه فى العهود السابقة كما تتكون من التجار الاثرياء مثل ابن الجصاص الذي ذاعت شهرته بالمشرق الاسلامي (3).

---

1) الجاحظ ــ فخر السودان على البيضان
الرسائل ــ ج 1 ص 224 ــ 225

2) الدوري ــ تاريخ العراق الاقتصادي ص 77 ــ 79
3) المــــرجع نفسه ـ

وقد دعت الحاجة الى يد عاملة في قطاع التجارة الى تركيز تشريع فقهي خاص بعبيد التجارة فاهتم الفقهاء بسن الاحكام المتصلة بالعبد "المأذون" والمحددة لشروط "الاذن" وقواعده . ومفهوم الاذن عموما هو فك "الحجر" المضروب على الرقيق والمانع له من ممارسة تصرفات الاحرار لانه معتبر فى حكم القاصر عن تحمل المسؤولية بحكم فقدانه للحرية .

لكن هذا المفهوم العام للاذن اتخذ مدلولا اصطلاحيا اكثر تركيزا ورسوخا لاسباب اقتصادية وتجارية على وجه الخصوص (1) فاضحى مفهوم الاذن تجاريا فى جوهره وصار العبد المأذون هو المسموح له لكفاءته بممارسة التجارة لحساب سيده. ولا يخفى ان من الاسباب الجوهرية لهذا التخصيص دور التجارة في الاقتصاد الاسلامي في هذا العصر وتفاقم الحاجة الى يد عاملة من الرقيق لتتولى الشؤون التجارية لفائدة الاسياد . ويمكن ان نقدم مثالا على ما يشرعه الفقهاء فى هذا الباب من احكام تتصل بتصرف العبد الماذون وحريته في المعاملات من بيع وشراء وما ينشأ عنهما من اجراءات مع الملاحظة ان المذاهب الفقهية تختلف في حدود هذا التصرف التجاري وابعاده (2) وان كانوا

---

1) الاوز جندي — الفتاوي الهندية ج5 ص54—64

2) مالك بن انس — المدونة الكبرى ج 3 ص92 ح 14

ص33 — برنشفيك Brunschvig — دائرة المعارف الاسلامية — مقال عبد — ص 29

جميعا ينطلقون من مبدأ واحد اساسه ما جاء في حديث الرسول من ان العبد راع في مال سيده (1) .

يقول الاوزجندي (2)((للمأذون ان يبيع ويشتري بمثل القيمة وبنقصان لا يتغابن الناس فيه عند ابي حنيفة رحمه الله تعالى وبنقصان يسير اجماعا ولا يجوز عندهما بالغبن الفاحش ... وله ان يسلم ويقبل السلم كذا في الكافي وللعبد ان يوكل غيره للبيع والشراء بنقد او نسيئة كذا في المغني ...)) وورد في المدونة الكبرى حول العبد المأذون ما يلي :

((قلت لعبد الرحمان بن القاسم : أرأيت ان اذنت لعبدي في نوع من انواع التجارة أيكون له ان يتجر في غير ذلك النوع؟ قال : ما سمعت من مالك فيه شيئا الا انه اذا خلى بينه وبين الشراء والبيع فهذا يلزمه ما داين الناس به من جميع انواع التجارات في ذمته ... قلت : أرأيت ان اقعده قصارا او امره ان يعمل القصارة ايكون مأذونا له في التجارة في جميع التجارات ؟ قال : ليس بمأذون له ...))

---

1) البخاري – صحيح – ج 3 ص 300
2) الا وزجندي – العتاوي الهندية
ج 5 ص 08
3) مالك بن انس – المدونة الكبرى ج 13 ص 92

3) الحاجة الاجتماعية"

وقد أدّى استبحار المجتمع الاسلامي في الحضارة ابتداءا من اواسط القرن الثاني للهجرة بحكم تطور أوضاعه المادّية واحتكاكه بحضارات عريقة كالفارسية والروسية وتشبهه بتقاليد الشعوب المغلوبة عموما الى الاستزادة من الطاقة والقوة المحرّكة لهذه الحضارة في شتى الميادين الاجتماعية والاقتصادية . وكانت هذه الطاقة تقوم على عضلات العبيد شأنها في ذلك شأن الحضارات الاسترقاقية القديمة (1) .

أ ـ الخدم

فكان لابدّ من توفّر الرقيق لمواجهة العديد من الشؤون والخدمات الاجتماعية التي كانت تتطور وتتعقد بتطور وتعقد المدنية الاسلامية . ففي نطاق الأسرة كانت الحاجة ملحّة الى الرقيق للقيام بشؤونها وكان المعوّل على "الخدم" في الكثير من أمورها الخاصة والعامة اذ انتقلت الاسرة العربية الاسلامية من الطور الفطري الذي كانت عليه خلال القرن الاول للهجرة وعند سيطرة التقاليد العربية الى طور آخر من التمدّن في ظلّ الحضارة الحديدة ممّا زاد في حاجياتها ولوازمها . وقد ساهم استخدام الرقيق في تفتح هذه الأسرة على تقاليد وعادات مستحدثة يقول ابن خلدون (2) :

(1) موريس لمبار M. Lombard الاسلام في عظمته الاولى .ص194 . 204
(2) ابن خلدون ـ المقدّمة ـ ص123

" ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة فقد حكي أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحا وأمثال ذلك فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في امثال ذلك والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بتطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثي وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الأعراس فأتوا من ذلك وراء الغاية " .

وهكذا قلبت الحضارة الكماليات الى ضروريات وأمسى اتخاذ الخدم أو "عبيد الخدمة" من الأمور الضرورية التي تحرص الأسر على اقتنائها وتتحرى في اختيارها وقد نظر المنطورن في هذا العصر لهذه الوظيفة الاجتماعية ووضعوا

شروطا لها ومقاييس للتمييز بين الجودة والرداءة فيها ووضعوا نموذجا للخادم بيّنوا فيه صفاته الخلقية والخلقية ومن الأمثلة على ذلك قول الجاحظ في الزنج "ليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعمّ منهم فيها وان الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء" (1) .

وقد دعا الاهتمام بوظيفة الخدم الى بيان خصائص الرقيق المضطلع بها والاشارة الى نوع السلوك الذي ينبغي اتخاذه مع العبد الخادم فقالوا مثلا في العبيد من الأرمن انهم "عبيد كدّ وخدمة متى نهنهت العبد ساعة بغير شغل لم يدعه خاطره الى خير لا يصلحون الا على العصا والمخافة وليس فيهم فضيلة غير تحمل العناء والاعمال الثقيلة والواحد منهم اذا رأيته كسلانا فذلك لعله (خبث النفس) فيه ليس عن عجز قوة فدونك والعصا وكن مع ضربه وانقياده لما تريده منه على حذر فان هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلا عن الغضب" (2) وقد نشأ أدب كثير وأقوال مأثورة حول هؤلاء العبيد منها قولهم : "العبد اذا جاع سرق واذا شبع زنى" ومنها قول المتنبّي :

(1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص 195 .
(2) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ تحقيق - عبد السلام هارون
سلسلة نفائس المخطوطات عدد - 4 - طبعة - القاهرة - 1954

لا تشتر العبد الا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد (1)

وكما بينوا عيوب الخادم بينوا محاسنه الجسدية والاخلاقية وما ذلك الا لاهمية الوظيفة التي يقوم بها داخل الاسرة وخارجها ولحاجة المجتمع الملحة الى هذه الوظيفة حتى راجت سوق الخدم في هذا العصر سواء بالبيع والشراء او حتى بالاستئجار كما سنرى ذلك في الفصول القادمة . وقد كانت حاجة القصور والبلاطات في العالم الاسلامي الى هذه البضاعة اكثر الحاحا منها في سائر الاسر الخاصة وذلك بسبب حرص الاسر الحاكمة على التحلي بعظمة الملك والسلطان ومحاكاة ملوك الاعاجم من الفرس والروم وغيرهم في الابهة والرياش والترف . فقد اتخذ البلاط الاسلامي من الرقيق خدما للاضطلاع بعديد الوظائف فكان منهم الفراشون والطباخون والخزانون والملاحون في القوارب وسواس الخيل وانشاء الكتبات وحراس الحريم (2)

---

1) المتنبي - الديوان - ص-486 -

2) انظر - الأزدي - الحكاية - نشر متز MEZ - ص 101

وكان منهم الوصائف لخدمة حظايا الخليفة أو الأمير (1) بل كانوا يتخذونهم ايضا للقيام بأعمال الجوسسة ؛ مثلما نجد ذلك في اخبار المامون (198 - 218 هـ / 813 - 833 م) والمعتضد (279 - 289 هـ / 892 - 902 م) (2) وذاك ما دعا المشترين للرقيق الى الاحتراز من خادم من خدم رجال السلطان (3) .

فقد كانت اذن حاجة الدولة الى هؤلاء الخدم كبيرة بسبب كثرة الخدمات التي يستدعيها البلاط للقيام بشؤونه اليومية وقد ازدادت وظيفة الخادم أهمية لتصرفه في أمور صاحب السلطة واطلاعه على خفايا أسراره فكان الظفر بالخادم الأمين من باب الغنم الكبير واعتبر عاملا من عوامل فشل سيّده أو نجاحه لأنه أقدر الناس على معرفة عوراته وحفظها أو خيانة صاحبه فيها .

---

(1) سيدة اسماعيل كاشف - مصر في عهد الاخشيديين - ص 255 - 256

(2) صلاح الدين المنجد - بين الخلفاء والخلعاء - ص 62 - 74 وص 86 - 100

(3) ابن بطلان - رسالة في شري الرفيق ص 366 وما بعدها .

وقد استوجبت هذه الأهمية التي أولاها الخواص الى الخدم ضروبا من التحريات في اختيار الخادم وفي وجوه التعامل معه، ومن النصوص الأدبية ما يتضمن صورة نموذجية لما يجب أن يكون عليه الخادم ولطريقة تصرف سيده معه ومن أجودها نص ورد في رسائل لسان الدين ابن الخطيب (1) يدل دلالة واضحة على أهمية وظيفة الخادم وان كان من النصوص المتأخرة زمنيا عن هذا العصر وقد جاء فيه مايلي :

((واما الخدم فانهم بمنزلة الجوارح التي تعرق بها وتحمع وتبصر وتسمع فرضهم بالصدق والامانة وصنهم صون الجمانة .... واحذر منهم من قويت شهواته وضاقت عن هواه لهواته ... واستخلص منهم لسرك من فك من الاشياء ذنوبه وكان أصبر على ما ينوبه ولودائعك من كانت رغبته في وظيفة لسانك اكثر من رغبته في احسانك ... ولخدمتك في ليلك ونهارك من لانت طباعه وامتد في حسن السجية باعه وامن كيده وعذره وسلم من الحقد صدره ....))

---

(1) المقري - نفح الطيب - ج 4 ص 216

ب- ظاهرة التسري بالاماء

وكانت ظاهرة الانتفاع بجمال الرقيق المؤنث مثل ظاهرة استغلال قوة الرقيق المذكر عادة قديمة مارستها المجتمعات الاسترقاقية منذ ظهور الرق ، فكان الاماء يشترين للمتعة واللذة الجنسية ويستعملن للبغاء ايضا (1) وقد انتشرت هذه العادة عند اليونانيين فاقبلوا على اللهو بالجواري واتخذوا منهن خليلات عرفن عندهم بالخليلات الملهمات "Les.maitresses.inspiratrices" وكانوا يسمونهن " الهيتار" - Hitaire - كما اشتهرت عندهم عاهرات ماهرات في العزف على القيثارة ، فتهافتوا عليهن (2) واعرضوا عن الحرائر فقبعن في بيوتهن وانعزلن عن الرجال مما شجع على تفشي مرض السحاق بينهن وقد تحدث الشاعر اليوناني ارسطو فان عن امرأة تدعى سافو -sapho- قد اسست في جزيرة " لسبوس " - Lesbos - مدرسة لتعليم النساء الحرائر المساحقة (3) فصارت الى هذه الجزيرة تعني ممارسة السحاق ومن هذا المعنى اشتق اللفظ الفرنسي - Lesbiennes.

ومنذ القرن الاول للميلاد كان الرومان ابان مجدهم وقوتهم مولعين بالجواري والاماء متخلين عن الحرائر والزواج بهن مما احدث خللا في الاسرة والمجتمع

1) موريس لنجلي - Maurice Lengellé - الرق - ص 46
2) ول ديورانت - W. Durant - قصة الحضارة - تعريب زكي نجيب محمود ومحمد بدران - القاهرة 1956 ج 2 ص 104 - 105
3) المرجع نفسه ج 1 ص 281

ودفع الحرائر الى عقد علاقات مع العبيد (1) وهو ما دعا الامبراطور اغسطس AUGUSTE (63ق.م/-14م) الى اتخاذ جملة من التدابير لحفظ الاسرة الرومانية فمنع الحرائر من الخروج الى الاستعراضات الرياضية ومنع الاحداث من ارتياد دور اللهو وفرض عقوبات على الزنا وفرض الزواج على الرجال والنساء و اعفى من الضريبة كل من انجب ثلاثة اولاد وغير ذلك من التدابير ، لكن هذا الامبراطور لم يكن في سيرته قدوة للناس بل كان صاحب مغامرات جنونية وفيه يقول الكاتب الروماني الشهير "بلين" - PLINE - "ليس من المهم ان تامر لكن من المهم ان تكون قدوة حسنة لما تامر به " (2).

وكذلك كان الامر بالنسبة لسائر الحضارات القديمة السابقة للاسلام اذ كانت شعوبها تقتني الرقيق المؤنث لهذه الغاية وتروّج تجارة الجواري تلبية لرغبة المولعين بهن وخاصة الاثرياء واهل البذخ منهم ، وقد كان العرب قبل الاسلام يتخذون رقيقهم المؤنث للمتعة ويتاجرون باعراض امائهم ويكرهون جواريهم على البغاء ونحن نتاكد من وجود هذه العادة عندهم من خلال تشدد القرآن في النهي عن هذه التقاليد (3)

---

1) المرجع نفسه - ج 2 ص 29 و ص 317

2) ك - جرنبرج - K. Grimberg - التاريخ العالمي - Histoire universelle - الترجمة الفرنسية في 12 جزءا - طبعة باريس - 1963 ج 3 ص 134
عبد السلام ترمانيني - الرق ماضيه وحاضره - ص 81

3) القرآن سورة - النور - عدد 24 - آية 33
برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد - ج 1 ص 26

ج- الاسلام والتسري

وقد اقر الاسلام ظاهرة تسري الاحرار بالاماء وان كان قد ادخل عليها جملة من التنظيمات قصد المحافظة على الاخلاق العامة من ناحية وعلى حقوق الطرفين الشخصية من ناحية اخرى ، فخول للحر ان يتخذ "سرية " اي جارية ليتمتع ويتسرى بها وجعل من المنافع التي يبيحها ملك الرقاب تسري الاحرار بالرقيق المؤنث.فملك الامة يخول لمالكها وطأها بعقد الملكية وهذا العقد هو الحد الفاصل بين الوطء المحرم وهو الزنا (1) وبين الوطء الحلال وهو التسري (2) ومجرد شبهة الملكية يمكن ان تدرأ الحد عن الواطىء (3) وقد ثبتت شرعية التسري بصريح القرآن في قوله تعالى "والذين هم لفورجهم حافظون الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين " (4) وكذلك ما ورد بالآية عدد 30 من سورة المعارج وبالآية عدد 24 من سورة النساء كما ثبتت بسيرة الرسول واقواله في سبي اوطاس (5) وكذلك في قوله " عليكم بالسراري فانهن طيبات الارحام " (6).

1) القرآن - سورة - النور - 24 آية 33 وفيها نهي عن اكراه الرقيق على الزنا
2) الشافعي - الام ج -2- ص 269 - 270
3) المصدر نفسه
4) القرآن - سورة " المؤمنون " عدد 23 - آية 5 - 6
5) الشافعي - الام ج -2- ص 270
6) العيني (أبو محمد بدر الدين) عمدة القاري - ج 20 ص 79

وتبني اباحة التسري على مبدأ فك العصمة الذي فرضه الاسلام على السبي الواقع في الغنيمة والذي تصبح المسبيات بموجبه في حل من ازواجهن فيصرن مباحات لمالكهن (1).

وللتسري نظام يحدد شرعيته ويضبط مسؤولياته واول قواعده الملكية الكاملة فليس للمرء التسري بجارية غيره ولو كانت جارية زوجته (2) او ابيه او ابنه اذا ما وطئها (3) وليس له وطء امة لا يملك الا خدمتها اوسبق له ان اعتقها او اعتق جزءا منها او كاتبها (4) ولا يحل له الاشتراك مع غيره في وطء جارية (5) وثاني هذه القواعد تجنب المحرمات من النساء لان من حرم منهن في النكاح حرم في التسري فاذا اجتمع في ملكه اختان لا يطأ احداهما الا بعد تحريم الاخرى بعتق اوبيع او نكاح او كتابة وما اشبه ذلك (6) وكذلك اذا اجتمعت الام وبنتها في ملكه اولم تجتمعا

---

1) الشافعي ـ الام ج 3 ص 193 ـ 194
2) برنشفيك Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 28 (يمنع السيد من وطء جارية زوجته وان سمحت له بذلك خلافا لما نجده في الانجيل)
3) المحقق الحلي ـ شرائع الاسلام ج 2 ص 314 ـ 315
4) العيني ـ شرح الكنز ج 2 ص 211
5) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 296
6) الزرقاني ـ شرح الموطأ ـ ج 3 ص 146 ـ 229 ـ العيني ـ شرح الكنز ج 2 ص 211
الشافعي ـ الام ـ ج -٤- ص 273 ـ 274

لان تحريم وطئهما معا مطلق في الجمع والتفريق (1) وليس له التسري بأمته المتزوجة ولوكانت في عصمة عبده (2) وقس على ذلك سائر المحرمات من النساء الا ان للسيد الجمع بين اكثر من اربع اماء بينما ليس له الجمع بين اكثر من اربع زوجات (3).

وثالث قواعد هذا النظام النظر في عقيدة المتسرى بها فلا يجوز وطء المجوسية (4) بينما يحل له التسري بالمسلمات او الكتابيات ويصوغ الفقهاء هذا المعنى في مقولة هي ان "كل من جاز وطء حرائرهم بالنكاح جاز وطء امائهم بالملك وكل من حرم وطء حرائرهم بالنكاح حرم وطء امائهم بالملك" (5) واستندوا في ذلك الى الآية التي تخصص التسري ب " الفتيات المؤمنات " (6) وهذه نقطة اخرى مشتركة بين النكاح والتسري وتعتبر دواعي الوطء بمثابة الوطء في التحريم بالنسبة الى الوجوه المذكورة كلها (7).

1) العيني ـ شرح الكنز ـ ج 2 ص 211
2) المصدر نفسه
3) الشافعي ـ الام ـ ج -٥- ص 273 ـ 274
4) المصدر نفسه ج -٥- ص 272
5) الزرقاني ـ شرح الموطأ ج 3 ص 246 ـ 229
6) القرآن ـ سورة النساء- عدد ٤ -آية 25
7) العيني ـ شرح الكنز ـ ج 2 ص 211

ولا يكون التسري الا بعد استبراء الجارية ـ وهو رابع قواعده ـ ومعناه طلب براءة الرحم من الحمل وهو بمثابة العدة في النكاح ويكون لازما عند انتقال الجارية من ملك الى ملك بشراء او هبة او وصية او ميراث او خلع او غيرها من وجوه الملكية (1) ويتم بوضع الحمل عند الحامل او بحيضة ان كانت من ذوات الحيض اوبمضي شهر ان كانت آيسة ، هذا عند الحنفية (2) والشافعية.(3) اما المالكية (4) وبعض الشافعية (5) فيجعلون استبراء الآيسة ثلاثة اشهر ، وقد اعتمد الفقهاء في سن حكم الاستبراء على قول الرسول في سبايا اوطاس " الا لا تو طأ الحبالى حتى يضعن حملهن ولا الحيالى حتى يسبرئن بحيضة " (5) ويدل قانون الاستبراء على ان الغاية منه هو تمييز نسب عن آخر والفصل بين ملك وملك وكذلك البت في حرية الجنين او عبوديته وربما ايضا في حرية امه او رقها.

واذا احترم السيد كل هذه الحدود صار وطؤه لسريته حقا من حقوقه وقد مارس المسلمون هذا الحق الشرعي واقتنوا اصناف الجواري لغرض المتعة والتسري كما سوف نرى .

---

1) المصدر نفسه (ويكون الاستبراء ايضا عند انتقال الجارية من العبودية الى الحرية وعند زواجها او طلاقها)
2) المصدر نفسه
3) الشافعي ـ الام ـ ج -٤- ص 273
4) النفراوي ـ الفواكه الدواني ج 2 ص 225 ـ 226
5) الشافعي ـ الام ـ ج -٤- ص 273
6) بهلوي ـ الجامع ـ ج 2 ص 240 ـ 241 ـ العيني ـ شرح الكنز ـ ج 2ص 211
الشافعي ـ الام ـ ج -٤- ص 269 ـ 270

د - المسلمون و اقتناء السراري

كان المسلمون الاولون اذن يتخذون الجواري للتسري ويمارسون هذه العادة في غير حرج لان دينهم يبيح لهم ذلك بنص القرآن وتعتبر هذه العادة استمرارا لنفس الظاهرة التي وجدت عند العرب قبل الاسلام كما كانت شائعة عند الرومانيين والفرس وغيرهم من الشعوب وقد سمحت وفرة الرقيق المؤنث التي تسبب فيها الفتح بتلبية هذه الرغبة وسد تلك الحاجة الاجتماعية فاشتهر كثير من الصحابة والتابعين بكثرة اقبالهم على السراري وقيل ان الامام عليّ توفي عن سبع عشرة 17 جارية سرية (1).

لكن المسلمين الاولين رغم اقبالهم على ممارسة هذه العادة كانوا يرون بعض الحرج في استيلاد الجواري ويعتبرون السرية احط منزلة من الزوجة بالرغم من ان علاقتها مع السيد كانت شرعية فهذا عبد الله بن رواحة مثلا يتحرج من ان يصيب جارية له وعندما يصيبها يتعرض لتهديد زوجته فقد امسكت زوجته بسكين وقالت :

---

1) يوسف البلوي ـ الف باء ـ طبعة مصر 1287 هـ
ج 2 ص 347

(افعلتها يابن رواحة؟فقال :ما فعلت شيئا. فقالت لتقرأن قرآنا

والا بعجتك بها. قال: ففكرت في قراءة القرآن وانا جنب فهبت ذلك

وهي امرأة غيراء فيبدها شفرة لا آمن ان تاتي بما قالت فقلت :

" وفينا رسول الله يتلو كتابه اذا انشق معروف من الصبح ساطع
ارانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات ان ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه اذا استثقلت بالكافرين المضاجع "

قال: فالقت السكين من يدها وقالت :آمنت بالله وكذبت البصر قال:

فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فاخبرته بذلك فضحك واعجبه ما صنعت(1)

وكان المجتمع الاسلامي الاول يحتقر ابناء الجواري ولذلك وجد بعض الحرج في استيلاد الاماء وليس لهذا الحرج اية علاقة بالدين وانما هو صدى لما استقر في المجتمع من عادات قديمة استمر وجودها حتى بعد تغير التشريع وظهور المجتمع الاسلامي الجديد ،وكانت نظرة المجتمع الروماني شبيهة بهذه النظرة اذ كانت الامة فيه دون الزوجة منزلة كما كان العرب قبل الاسلام لا يعترفون بنسب ابناء الاماء الا في حالات شاذة كأن يظهروا النجابة مثلا ولنا في حياة عنترة العبسي ابن الجارية زبيبة دليل على ذلك (2)

---

1) ابن القيم(الجوزية)- اخبار النساء - ص 74 - 75
2) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بولاق 1285 ج 7 ص 148

لكن الدين الاسلامي قد عمل على محو هذه النفسيات وازالة هذه الاعتبارات بتشريع جديد يجعل ابناء الاماء احرارا ينتسبون الى ابيهم ويمنح امهات الاولاد حقوقا تقربهن من منزلة الزوجات الحرائر ، الا ان هذا التشريع الجديد لم يتغلغل دفعة واحدة في نفوس المسلمين فمكثوا ردحا من الزمن يتحاشون استيلاد الاماء واتخاذهن زوجات وسوف لن يغيروا نظرتهم هذه الا بصورة تدريجية وبعد ان ازدادوا مخالطة للشعوب الاخرى. وقد ذكر ابن خلكان ان العرب كانوا يحتقرون ابناء الجواري حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال امهاتهم من بنات يزدجرد (1) فرغب الناس اذاك في التسري .

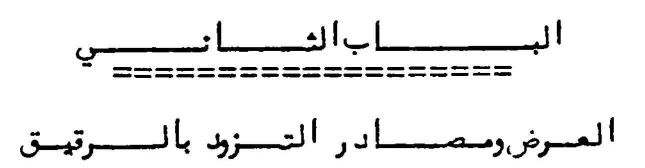
وهكذا ازدادت الرغبة في التسري شيئا فشيئا بارتفاع هذا الحرج وزوال تلك النظرة العنصرية وانصهار العنصرين العربي والاعجمي فاصبح اكثر ابناء الخلفاء من اولاد الجواري (2) واكثر نساء اهل الدولة منهن واقتدى بهم سائر الوجهاء والاغنياء فعمد الناس الى اقتناء

---

1) ابن خلكان — وفيات الاعيان — ج 1 ص 320

2) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي — ج 4 ص 153 وج 5 ص 117

السراري وازدادت بذلك الحاجة الى هذا النوع من الرقيق ،
وكثر طلبه بعد ان كان خاضعا في اتخاذه الى شيء
من الاحتشام فبلغت السراري عند بعض الخلفاء عدة الاف
واعتبروهن من انفس المتاع والهدايا فراح الامراء والوزراء
يتقربون بهن الى الملوك والخلفاء.



الباب الثاني

العرض ومصادر التزود بالرقيق

الفصل الاول

رقيق الاسر والوراثة

ان تناقص رقيق الاسر للعوامل السياسية والعسكرية التي حللناها لا يعني اضمحلاله نهائيا . وذلك لان عملية الصراع والمد والجزر بين بلاد الاسلام وبلاد الكفر قد كانت تتمخض من حين لاخر عن اعداد وان قليلة من الرقيق . ومن هذا القبيل ما اسفر عنه الصراع بين العرب والروم في عهد الخليفة المأمون (198-218هـ/ 813-833م) والامبراطور تيوفيل = Theophilus ((213 - 227 هـ/829-842م) وذلك سنة (-215- هـ/ 830م) وسنة (- 216 - هـ/ 831 م) اذ تمكن جيش المأمون من احتلال جند الطاميير واخذ قرة واسترجاع هرقلة كما احتل في حملاته تلك حصونا عديدة من اقليم كباد وكيا واسر كثيرا من الروم (1) وفي عهد المتوكل (232-247هـ/847-861م) اغتنم المسلمون فرصة هجوم الروس على القسطنطينية سنة (246 هـ/ 860م) فهجموا على ارض الروم واسروا سبعة الاف اسير (2) . وهكذا كان الكر والفر بين الامبراطوريتين طيلة القرن الثالث للهجرة يتيح بعض الفرص السانحة للاسترقاق وان كانت فرصا باهضة

---

1) فازيلياف - vasiliev - العرب والروم - ص 101

2) المرجع نفسه ص190 . 225

الثمن اذ تتيح للروم ايضا ان ياسروا كثيرا من المسلمين مما يجعل ميزان القوى متعادلا بين الطرفين .

وما من شك ايضا في ان الحمدانيين قد تمكنوا في صراعهم الطويل مع الروم في القرن الرابع للهجرة من الحصول على مقادير معينة من الرقيق وقد اتفقت لهم بعض الانتصارات التي اسروا فيها كثيرا من جند الروم . فقد استطاع سيف الدولة الحمداني (333-356هـ/944-967م) ان يظهر على الروم في وقائع متتالية تتراوح بين سنة (337هـ/948م) وسنة (345هـ/ 956م) وقد سجل المتنبي احداث هذه الفترة فكان شعره وثيقة اهم من كتب المؤرخين (1) اذ نجد فيها انباء الحروب التي وقعت بين الامير الحمداني والد مستق بردا س فوقاس (351-358هـ/963-969م)(2) والاستراتيج يوحنا شمشقيق (358-365هـ/969-976م) ومن هذه الانباء ان الامير سيف الدولة قد رجع من غزواته بجموع من الاسرى . ففي غزوة تل البطريق (345هـ/ 956م) وصف لنا الشاعر السبي محمولا على السفن في عرضها لارسنة متجهة الى بلاد

1) ماريوس كانار - M-canard - المسلمون وبيزنطة فصل 6 . ص99 ــ 113

2) المتنبي - الديوان - ص 242 - 431

الاسلام حيث يباع السبايا في الاسواق (1) وقد جرى ذكر الاسرى ايضا في معركة اللوقان (سنة 339هـ/ 950 م) (2) وفي وقعة سنة (343هـ/ -954- م) امام الحدث فوق جبل الاحيدب (3) ولعل اعظم غزوة غزاها سيف الدولة هي التي حدثت سنة (342هـ/953م) وهجم فيها على النواحي الواقعة بين ملطية وزبطرة وعرقة وهزم خلالها الدمستق بمرعش وجرحه واسر ابنه قسطنطين وقد ذكر المتنبي الاسرى في هذه الغزوة ايضا فصور السبيات يبكين ويمزقن ثيابهن ((بعرقة)) (4) وقد انبهر المتنبي امام هذه الاحداث والهمته شعره الملحمي . وهي اهم المواطن التي ورد فيها ذكر للاسرى والسبي في ديوان الشاعر .

---

1) المتنبي - الديوان - ص 594 - بيت 23 - وص 600 - بيت 33

2) المصدر نفسه - ص 451 بيت 27

3) المصدر نفسه - ص 600 بيت 21 - 24

4) المصدر نفسه - ص 514 - بيت 23

ولم تمنع ظاهرة تراجع الفتوحات ايضا من احتلال بعض الاقاليم التابعة للبيزنطيين مثل صقلية وجنوب ايطاليا وجزيرة اقريطش وهو احتلال قد انتج رقيقا زود الاسواق ردحا من الزمن . فقد تمكن المسلمون احيانا رغم هزائمهم المتكررة ومواقفهم الدفاعية من تحقيق بعض الانتصارات المؤقتة ومن احراز شيء من الرقيق الرومي كما تدل على ذلك الاخبار المتعلقة بفتح عمورية مثلا .

فقد كان فتح المعتصم (218 - 227 هـ / 833 - 842 م) لعمورية موطن الاسرة الرومية الحاكمة سنة (223 هـ/ 837 م) مناسبة لاسر كثير من النساء والاطفال فكان السبي قد بلغ اكثر من الف عذراء قسمن على موالي الترك والمغاربة وكان الاسرى من الرجال عديدين ايضا فقسموا على القواد بعد تمييز الاشراف والاغنياء منهم عن سائرهم وبيع البعض وقتل البعض الاخر . ولما جاء اليوم المعين لبيع النساء والاطفال والعبيد رؤي تعجيل البيع فكان المنادي ينادي على الاسرى لمن زاد ثلاثة اصوات وينادي عليهم خمسة خمسة وعشرة عشرة لكثرتهم (1) .

وكان الامر شبيها بذلك عندما فتح العرب جزيرة كريت في القرن الثالث للهجرة فمن اخبار هذا الفتح الذي تم سنة (-211 - أو -212 هـ/ 1827و 828 م) ان المسلمين لم يجدوا بالجزيرة اي مقاومة وانهم استطاعوا ان ياسروا سكان 29 مدينة وان يسترقوا اهاليها ولم يكتفوا بذلك حتى هاجموا الجزر الرومية الاخرى مثل جزيرة ايجير « EGINE » واستعبدوا كثيرا من اهلها . وقد بقيت جزر الارخبيل خرابا منذ ان وقعت في ايديهم الى اوائل القرن الرابع للهجرة (2)

---

1) فازيلياف - vasiliev - العرب والروم - ص 113 . 156

2) المرجع نفسه - ص 55 . 61

ولاول مرة في هذا العصر عزم المسلمون بصورة جديه على فتح صقلية بعد ان كانوا يقومون بمجرد هجومات هدفها الغنيمة ومناوشة العدو فمنذ ان غزا اسد بن الفرات تلك الجزيرة (211 هـ827 م) بامر من زيادة الله الاغلبي الى ان تم فتحها واحتلال مدينة بلرم والمسلمون ياسرون ويسبون حتى انقلبت الجزيرة موردا هاما من موارد الرقيق وعاملا فعالا في تنشيط تجارته بالمغرب الاسلامي خاصة . ومما يروى عن غزوات امير بلرم ابي الاغلب في منطقة ((اثنا)) ((La Région de l'Etna)) خارج بلرم سنة (222 هـ/ 836 م) انه حقق انتصارات باهرة وحصل على كميات كبيرة من الاسرى حتى صار العبيد يباعون في عهده بثمن بخس(1).

الا ان هذا الرقيق الحاصل من الصراع القائم بين المسلمين واعدائهم او من فتح بعض المناطق الجديدة لم يكن كافيا لسد حاجات المجتمع الاسلامي اذاك ولم تكن مقاديره تقاس بما احرز عليه المسلمون خلال فتوحاتهم الكبرى في القرنين السابقين . ولا يجب ان نتصور ان بعض العمليات الحربية الطرفية والمؤقتة بوسعها ان تقوم بسد المزود لاسواق كانت في امس الحاجة الى تزويد مطرد . ولا ينبغي ان ننسى ايضا ان الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالقرنين الثالث والرابع للهجرة قد كانت اكثر طلبا لمادة الرقيق من اوضاع القرنين السابقين فقد اتسعت دائرة المعاملات التجارية ورسخت التقاليد

1) المرجع نفسه ـ ص 121 ـ محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ص 213 ـ 214 وص 435 ـ 440

الصناعية في هذا العصر فكان لا بد من ان يتضاعف طلب الايدي العاملة المسترقة . فهذا العصر هو الذي اتجهت فيه الحضارة الاسلامية نحو التعمير والاعتماد على الموارد الداخلية من فلاحة و تجارة وصناعة واستخراج المناجم بعد ان اشتغلت في العصر السابق بتدعيم اركان الامبراطورية وتوسيع رقعتها وعولت طويلا على ما تدره الحرب من غنيمة لتزويد خزينة الدولة او بيت المال . انه عصر الحضارة الاسلامية الذهبي بسيطرته على سبل التجارة العالمية وبعظمته النقدية وبازدهار صنائعه وعلومه بعد ان كان العصر الماضي عصرا ذهبيا بقوة المسلمين العسكرية والايديولوجية .

لم يضمحل رقيق الاسر اذن اضمحلالا كاملا في هذا العصر . وكل ما في الامر انه لم يعد يمثل المصدر الاساسي المزود للاسواق كما كان شأنه خلال القرن الاول ومعظم القرن الثاني للهجرة فقد عكست الاية . وصار لهذا النوع من الرقيق دور ثانوي بينما برزت الى الوجود مصادر تزويد اخرى احتلت الصدارة وميزت تجارة الرقيق في هذا العصر . ومن اهم هذه المصادر الجديدة نشاط القرصنة الاسلامية التي عوضت بشكل من الاشكال القوى العسكرية الرسمية وكذلك نشاط حركة التوريد التجارية . كما سنحلل ذلك في الفصول القادمة .

الا انه لا بد من الاشارة قبل تحليل هذه المصادر الى ان رقيق الوراثة قد استمر وجوده في هذا العصر مثل رقيق الاسر وذلك بالرغم من نقصان الرصيد لكنهما لم يكونا ليفيا بحاجة المسلمين المتزايدة الى الرقيق كما سبق ان اوضحنا . ولا يمكن ان يقاسا من حيث الكم بما ستوفره مصادر القرصنة والتجارة .

الفصل الثاني

رتيق القرصنة

القرصنة وتجارة الرقيق

1) القرصنة والاسترقاق

ان من اهم المصادر المزودة بالرقيق في هذا العصر القرصنة البحرية التي كان يمارسها المسلمون خصوصا في البحر الابيض المتوسط وكانت تجلب الى الاسواق الاسلامية رؤوسا وفيرة من الاسرى او الرهائن المختطفة على سواحل البلدان الاجنبية.

ولم يكن المسلمون اول من مارس هذا النشاط التجاري البحري والتفع بما يجر عليه من ثروات وخاصة منها الرقيق ، فالقرصنة قديمة قدم الابحار.ومنذ عصور الانسانية الاولى كان سلوك البحارة في البحر لا يختلف عن سلوك المسافرين في البر من حيث تعرضهم للاخطار وقطع الطريق ، فقد كان القوي يهجم على الضعيف هنا وهناك ، ويبتز منه النفس والنفيس (1).

وكان استعمال القرصنة وسيلة للحصول على الرقيق ظاهرة معروفة في الحضارات القديمة ، وكان اليونان والفينيقيون من اسبق

---

1) موريس لنجلي M. Lengellé - الرق- ص : 32

الامم الى تعاطي القرصنة والهجوم على السواحل الامنة وسبي النساء والاطفال واختطاف الرهائن من الرجال وبيعهم في اسواق الرقيق فمنذ القرن الثاني قبل الميلاد كانت جزيرتا " لمنوس " Lemnos و " ديلوس " Délos في بحر " ايجة " Egée مستودعات للرقيق المجلوب عن طريق القرصنة (1) وكان الاغريق بحكم طبيعة بلادهم الجغرافية وتوسطها في عرض البحر وكثرة سواحلها يقطعون طريق التجار الفنيقيين وقد اكد " مونتسكيو " Montesquieu ان اليونان الاولين كانوا كلهم قراصنة (2) كما روى لنا " فيليب جوس " Ph. Gosse في كتابه حول تاريخ القرصنة كيف كان الفينيقيون ينتقمون من قراصنة الاغريق فذكر انهم يحلون باحد موانئ الاغريق متنكرين في زي تجار ثم يعرضون بضاعتهم التي يقبل عليها النساء خاصة وعندما يكثر عدد النسوة الحريفات على متن بواخرهم التي يعرضون فيها البضاعة يهجمون عليهن ويصبحن هن بانفسهن بضاعة

---

1) موريس لنجلي M.Lengellé - الرق ص : 33 - لاروس الكبير G.Larousse - الموسوعة ج 3 ص 671
2) ج — ايلول - تاريخ المؤسسات . ص 40
ELLUL (J) - Histoire des Institutions de l'Antiquité
P.U.F. Paris 1961 - p40

للبيع (1) ويرجع " جانال " J-Jeannel - اسباب الحروب البونيقية بين قرطاج وروما الى العنف الذي كان يمارسه القراصنة بين هذين الدولتين (2).

ويمكن ان نقول بصورة عامة ان كل شعوب البحر الابيض المتوسط قد مارست القرصنة واتخذتها مصدرا للاسترقاق لان هذا البحر قد كان مهد الملاحة منذ القديم وهو يمثل مناخا ملائما وفرصا ثمينة للقراصنة بما يتميز به وضعه الجغرافي الغني بالجزر والخلجان ومواطن الكمون والترصد التي تساعد على ممارسة نشاط القرصنة . وها هو ذا احد كبار المطاردين لقراصنة الشرق وهو " هنري كبل " Henry - Keppel - يقول واصفا علاقة البحر بالقرصنة (لقد ظهر القراصنة في كل الامكنة التي تكثر فيها الجزر حيث توجد خلجان صغيرة وشواطئ ومناطق نائية في البحر وصخور وجلاميد وهي باختصار مواطن تمكن بسهولة من الترصد والمباغتة والهجوم والفرار) (6)

---

1) كواندرو _ R-Goindreau - قراصنة - ص 43 - 22
2) فيليب جوس PH.Gosse - تاريخ القرصنة" ص 365
3) ن _ جانال - J Jeannel - القرصنة" ص 23
4) ف _ جوس PH. Gosse تاريخ القرصنة ص 13

اما في خصوص الفترة التي تهمنا فقد عرفت القرصنة بهذا البحر نشاط كبيرا على سواحل اوروبا وذلك منذ تداعي الامبراطورية الرومانية الغربية فقد كان النرمان يمارسونها في الشمال ومارسها المجوس من " الفيكيك "- WiKinGs - في بحر المانش La-Manche وفي البحر الشمالي - La mer du Nord - وكان العرب يتعاطونها على السواحل الاوروبية الجنوبية وازدهرت على ايديهم في هذه الحقبة ازدهارا كبيرا وذلك لان حالة الحرب بين البلاد الاسلامية والممالك الاوروبية المسيحية قد اسبغت على القرصنة حماسا خاصا يضاف الى جشع القراصنة ورغبتهم في الغنيمة ولان الحمية الدينية قد ضاعفت من حدة القرصنة وجعلتها احيانا كثيرة ذات طابع جهادي شبه رسمي .

2) القرصنة والتجارة

ولا جدال في ان تاريخ القرصنة يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ التجارة في البحر (1) فلا غرو اذا ما كان القراصنة المسلمون قد لعبوا دورا اساسيا في الحركة التجارية في هذا العهد بل ان اغلب القراصنة قد كانوا من التجار الذين فضلوا المغامرة على المعاملات التجارية السلمية (2) وكانت بضاعة الرقيق من اهم البضائع التي تتعرض لاختطافهم ويجنون منها الاموال اما عن طريق الفداء او البيع في الاسواق الاسلامية المختلفة. وقد كانت لهؤلاء القراصنة علاقات بتجار الموانىء الاسلامية مثل الاسكندرية وبلرم وسرقسطة وطرابلس او بعض الموانىء المسيحية مثل نابولي وكانوا يبيعون لهم ما تدره عليهم غزواتهم البحرية المثمرة من رقيق وامتعة ، وكانت السلط الرسمية تعاملهم معاملة التجار عند ارسائهم بتلك الموانىء فقد وظف عليهم الفاطميون بافريقية ضريبة حكومية تبلغ العشر على اعمال

---

1) ر. كواندرو - R.Coindreau - قراصنة - ص 13

2) نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي ص 98 _ 103

الحملات التي يقومون بها (1) وقد صور ارشبالد لويس معاملات هؤلاء القراصنة مع تجار المواني بقوله (اما علاقة اولائك القراصنة بالتجار المسلمين الطيبين التابعين لبلرم والاسكدرية وطرابلس وسرقسطة او حتى بتجار نابولي المسيحيين فتشبه علاقة دريك وهو كنز بتجار بلايموث وبرستول او علاقة بلاكبيرد بتجار مواني كاروليدا في امريكا الشمالية) . (2) .

وقد كان لنشاط القرصنة التجاري انعكاس على ازدهار الاوضاع الاقتصادية في البلاد الاسلامية لانه اضاف الى ثرواتها البرية ثروة بحرية فقد انتفعت افريقيا الشمالية واسبانيا ومصر وسوريا وسائر بلاد الشرق الاسلامي بما يودعه القراصنة في شواطئها من ثروات (3) كما قام هؤلاء القراصنة في كثير من الاحيان باعفاء التجار المسلمين من تكبد مشاق السفر الى

1) جورج مارسيه G.Marçais - بلاد البربر ص 142 _ 143
2) ارشيبالد لويس A. Lewis - السيادة الاسلامية ص 53
3) المرجع نفسه _ ص 65 - 66

المناطق الاوروبية لاغراض تجارية ، فقليلا ما تاجر مسلمو شمال افريقيا والاندلس مثلا مع الغرب اللاتيني وكانوا يستنفدون طاقاتهم في مسالك تجارية اخرى نحو الشرق او الصحراء الافريقية لانهم وجدوا من يكفيهم مؤونة المتاجرة مع اوروبا الغربية ومن يقوم بدور النيابة عنهم ومن بين هؤلاء القراصنة طبعا (1)

هكذا كانت القرصنة والتجارة اذن امرين متكاملين وليس من باب الصدفة ان جعل اليونان الها واحدا للسرقة والتجارة فقد استطاع القراصنة المسلمون ان يعوضوا التجار خاصة في فترات العداء مع الممالك المسيحية وان يقوموا بنفس الدور الذي يقوم به التجار في اوقات الهدنة والسلم وان ينظموا عمليات تقوم احيانا على اساس شركات الغرض منها التكتل لمجابهة الخطر ثم جمع رؤوس الاموال الضرورية لشن الغارات. كما انقلب التجار انفسهم الى قراصنة عند الحاجة اذا تعذر عليهم ممارسة عملهم بسبب

---

1) المرجع نفسه — ص 82 — 83

تـوتـر العلاقـات السياسيـة وبذلك يصبح الحد الفاصل غير واضح بـين التجـارة والقرصنـة ويؤولان الى مجرد عمليتين تهدفـان الـى ترويـج انـواع من البضاعـة عن طريـق البحر (1) ولعل من ادل الامثلـة علـى تكامل هاتين العملتين في هـذا العهـد ما اخبرنا بـه المالكـي وابو العرب عن رجل مشهور فـي عصـر الاغالبـة بافريقيـة يقـال لـه يزيـد بن محمـد الجمحـي ، فقـد ذكـر انـه كان يمـارس القرصنـة وقـد مـات خلال هجـوم وقـع القيـام بـه ضـد المصيصـة اذ قتلـه الاعـداء الصقليـون فـي البحر حسب قولهمـا وكان يلقب بتاجر اللـه فليس من الغريب ان يكون لهـذا اللقب علاقـة بممارسـة لهـذا الـنوع من التجـارة (2) .

---

1) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 413 _ 414
2) ابو العرب - طبقات علماء افريقية - ص 85 _ 86 _ المالكي - رياض النفوس ج 1 ص 162

3) القرصنة والسيادة البحرية

وقد كان لسيادة المسلمين البحرية في هذا العصر وعلى وجه التحديد بين عام (-212- هـ/ 827م) وعام (-350- هـ/ 960 م) علاقة بنشاط القرصنة وتتمثل هذه السيادة في ظهور قوات بحرية واساطيل منظمة اهمها تلك القوة التي ظهرت في عهد الاغالبة بشمال افريقيا وصقلية وتواصل اشرافهم عليها الى سنة (-296- هـ/ 909م) ثم انتقل الاشراف عليها الى خلفائهم الفاطميين (1) يقول ارشبالد لويس (كان لعالم البحر الابيض المتوسط الاسلامي نظام بحري افضل يتسم بطابع اثبت وانظم وينطبق ذلك بصورة خاصة على بني الاغلب والفاطميين في شمال افريقيا من القرن التاسع وصاعدا وعلى صقلية في القرن الذي يتلوه على الاقل . فهناك كانت تبنى الاساطيل باحواض سفن نظامية وتجهز بالسلاح والبحارة عن طريق الحكومة ويسيرها بحارة محترفون من امراء البحر حتى الربابنة كما كانت قادرة على مواجهة الاسطول البيزنطي الامبراطوري في المعارك البحرية الحامية الوطيس.فان الانتصارات

---

1) ارشبالد لويس A.Lewis - السيادة ..... ص 61

التي سجلتها العمارات البحرية التابعة لصقلية وشمال افريقيا بالقرب من صقلية خلال العامين (245 هـ/ 859م) (274 هـ/ 888م) والتي قضت على آمال البيزنطيين في التمسك بهذه الجزيرة انما قامت بها قوات بحرية منظمة) (1).

وقد ظهرت في المغرب الاسلامي قوة بحرية اخرى عظيمة تتمثل في اساطيل الامويين باسبانيا وكانت في القرن الثالث للهجرة تتالف من اسطول للحدود بقيادة امير سرقسطة ثم اتسع نطاقها وصارت في القرن الرابع في عهد الخليفة عبد الرحمان الثالث(300-350هـ/912-961م) بديعة التنظيم حتى تمكنت من السيطرة على جزر الباليار وسواحل فرنسا الجنوبية واصبحت محل احترام واهتمام من قبل الفاطميين بافريقية وصقلية (2) .

وقد وجدت في المشرق الاسلامي قوة بحرية تتالف من الاساطيل الطرسوسية والسورية والمصرية وقد اتحدت هذه الاساطيل

---

1) المرجع نفسه — = ص 53
2) المرجع نفسه — = ص 51 وص 61

مريس تحت الحكم الطولوني والاخشيدي وهذا المركز هو احد هذه المراكز وابعدها عن التبلور والتحديد (1) الا ان الفاطميين قد دعموا قوتهم البحرية خاصة في عهد المعز (341-365هـ/ 952-975م) وانشأوا اسطولا كبيرا لعب دوره في حروبهم مع البيزنطيين سنة (360هـ/ 971م) وسنة (367هـ/ 978م) (2).

وبالرغم من تعاظم هذه القوة الاسلامية البحرية الا ان وجود شعوب ... متنازعة وزعماء طامعين جعل ... في كسر شوكة سائرها كما فعل الفاطميون في بداية القرن الرابع للهجرة عندما هاجموا اعداءهم المسلمين شرقا وغربا فان المسلمين قد استطاعوا ان يسيطروا على قواعد البحر المتوسط مثل بجاية وطرطوشة وتونس وطرابلس والاسكندرية وان يحتلوا جزرا مثل صقلية ومالطة والباليار وغيرها وان يطلعوا بدورهم في حركة المبادلات التجارية (3) وايضا ... في التعبير عن هذا الدور ... ب

1) المرجع نفسه ص 61
2) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريه وبلاد العرب ص 302 - 305
3) جوان جيرسيط ... عربي اسباني لغة الحرائد ... ص 73 - 74 - ارشيبالد لويس A Lewis: القوى البحرية ... الاسلامية ص 61 وما بعدها

ابن خلدون له في مقدمته (1) ولم يكتف العرب بفرض هيمنتهم على مسالك البحر المتوسط بل ضمنوا لانفسهم كذلك حرية الملاحة في المحيط الهندي مرورا بالبحر الاحمر والخليج الفارسي فالبحران اللذان ورد اسمهما في القرآن (2) قد سيطر عليهما العرب تماما في هذا العصر وامكنهم ربط الصلة بينهما (3) .

---

1) ابن خلدون ـ المقدمة ص 254 . (ط . بيروت)

2) قرآن ـ سورة 55 اية 19

3) خوان بيزليط - هل هناك ... ص 73 ـ 76

4) القراصنة المسلمين وتجارة الرقيق :

ولقد كان من نتائج هذه السيادة البحرية ان نشطت حركة القرصنة وامكنها احتلال مراكز امامية والسيطرة على مواقع استراتيجية واتخاذها قواعد يمكن منها الهجوم على سواحل بلاد العدو ، ويمكن ان نقول اجمالا ان اعمال القرصنة قد كانت على اشدها خاصة في البحر الابيض المتوسط واتيح لها ان تمتد من سواحل سوريا الى فرنسا وكانت اغلب جزر هذا البحر حصونا ومعاقل بالنسبة الى القراصنة ، فقد اغلقت اقريطش بحرايجة وموت جاريجليانو بحر ترهانيا وجزر البليار و فركسينتوم خليج ليونيز اما سردينيا وقبرص فلم تشغلهما هذه الاحداث وكانتا في حياد عنها ولم تلعبا سوى دور صغير وفي فترات قصيرة (1) .

وسوف نحاول قبل تحليل دور هذه القرصنة في تنشيط تجارة الرقيق ان نعرف بهؤلاء القراصنة وان نحدد مراكزهم ، ففي البحر المتوسط كان لهم ثلاثة مراكز اساسية احدها في الحوض

---

1) ارشبالد لويس ص 40 _ 50 وص 59 _ 60

الغربي من هذا البحر وثانيهما في الحوض الشرقي منه وثالثهما بينهما اي في وسط هذا البحر ، كما كان بالخليج الفارسي نشاط لبعض القراصنة قرب ميناء سيراف وبجوار مصب نهر الفرات ولذلك كانت السفن التجارية الصينية التي تجوب هذا الخليج لا تصل الى تلك المنطقة خوفا منهم (1) كما يذكر الادريسي ان (صاحب جزيرة كيش في بحر عمان يغزو بمراكبه بلاد الزنج فيسبي منها خلقا كثيرا) (2) واذا ما كانت معلوماتنا قليلة حول نشاط القرصنة بهذه المنطقة فانه بامكاننا ان نعرف بهذا النشاط في البحر الابيض المتوسط

1) كليمان هوار cl.Huart - تاريخ العرب - ج 2 ص 102
2) الادريسي - نزهة المشتاق — طبعة رومة - 1970 - المجلد الاول - ص 61

أ- عش القرصنة المشرقي :

اما مركز القرصنة المشرقي فيتألف من قوتين احداهما بطرابلس والثانية بجزيرة اقريطش وقد كان يتزعم الاولى ليو ءاحاكم طرابلس (273-300هـ/ 886م ـ 912م) وكان يوجه حملاته ضد السواحل البيزنطية ويساهم باسطوله مع اسطول طرسوس في تضييقهما الخناق على الروم والانقضاض على تجاراتهم وجزرهم حتى هجر الروم الجزر وفر سكان سواحل بحر ايجة الى داخل بلدانهم (1) وقد تواصل نشاط هؤلاء القراصنة الى ان تمكنت القوات البيزنطية من تحطيم اسطول ليو عام (-311 - هـ/ 923 م)

وكان العش القرصني الثاني يتكون من اندلسيين ثاروا بقرطبة على الحكم بن عبد الرحمن سنة (-199- هـ/ 814 م) فطردهم منها فذهب خمسة عشر الفا منهم الى ارض مصر واحتلوا الاسكندرية سنة (-200- هـ/ 816 م) ومكثوا بها يمارسون القرصنة في شواطئها

---

1) اسد رستم - الروم في سياستهم ... 2 ص 19
2) ارشبالد لويس ص 38 ـ 40

الى ان طردهم منها عبد الله بن طاهر بامر من المأمون العباسي (1) وكانوا منذ ذلك الوقت يهجمون على جزيرة اقريطش الى نزلوا بها سنة (212 هـ 213هـ/ 827 _ 828 م) بقيادة زعيمهم ابي حفص عمر بن شعيب البلوطي المعروف بابن الغليظ او الغليظ من اهل قرية بطروج من عمل فحص البلوط المجاور لمدينة قرطبة (2) وعجز فوتيوس Photius استراتيج اناطوليك عن حمايتها وامكنهم افتكاكها منه وكان ذلك في الفترة التي ضعفت فيها القوة البيزنطية بسبب ثورة توماس Tomas فاسسوا بها مدينة الخندق واستقروا فيها يمارسون القرصنة قرنا من الزمان على مراكب الروم وجزرهم وشواطئهم وتواصل نشاطهم الى ايام الامبراطور رومان الثاني(348-351هـ/959-963م)حتى فتحها القائد نقفور فوقاس في عهده سنة (350 هـ/ 961 م) (3) وقد كانت هذه الاعشاش القرصنية المشرقية مرتبطة ببعضها الى حد ما وقد حدث بينها تعاون عندما هاجم ليو حاكم طرابلس على تسالونيك اذ نجد في قوته البحرية بعض المراكب من اقريطش (4)

---

1) اسد رستم - الروم في سياستهم... ج 1 ص 322 فازيلياف - العرب والروم ص 55 _ 61 المقري - نفح الطيب - ج 4 ص 157 _

2) فازيلياف - العرب والروم - ص 55 _ 61 و ص 85 و ص 58

3) فازيلياف - العرب والروم - ص 58

4) ارشبالد لويس - ص 37

كما كان القضاء على واحدة منها ايذانا بالقضاء على الاخرى فعندما انتصر اسطول رومانوس ليكابان سنة (- 311 - هـ/ 923 م) على اسطول ليو حاكم طرابلس قرب ليمنوس سهل على الروم القضاء على القرصنة بالخندق سنة (350 هـ/ 961م) (1).

يقول ارشبالد لويس (والواقع ان خطر كريت المهدد لامن بيزنطة البحري لم يكن الا عام 923 م لما انتصر اسطول رومانوس ليكابينوس المجدد بالقرب من ليمنوس على اسطول القرصنة التابع لليو امير طرابلس) (2).

---

1) ارشبالد لويس ص 38
2) ارشبالد لويس ص 38 ـ 40

وقد قام عش القرصنة المشرقي بدوره في تزويد الاسواق الاسلامية بالرقيق بفضل ما كان يشنه من هجومات على سواحل الامبراطورية البيزنطية. فقد كان القراصنة الاندلسيون منذ استقرارهم بالاسكندرية يقومون بهجومات على اقريطش كهجومهم عليها سنة (211 - 212 هـ/ 826م و 827م و 828م) . وكانوا يؤوبون من حملاتهم تلك بالاسرى والغنائم وقد استطاعوا ان ياسروا سكان 29 مدينة وان يسترقوهم ولم يجدوا اذاك اي مقاومة . وعندما استقروا بالجزيرة صاروا في موقع استراتيجي هام وانطلقوا لغزو جزر الروم الاخرى فهجموا على جزيرة ايجين واسروا كثيرا من اهلها وقد بقيت تلك الجزر خرابا الى اوائل القرن الرابع للهجرة .

وقد غزا عرب اقريطش شواطيء آسيا الصغرى بمجرد موت الامبراطور ميشيل (- 213 - هـ/ 829 م) وحربوا الجزء البحري من جند ((تراسيرياں)) واثر ذلك اقتادوا اهل الناحية اسرى الى ان هاجمهم حاكم الجند في البر وهو ((قسطنطين كنتوميت)) (C.-Kondo mytès) وهزمهم بعد ان كانوا توغلوا الى جبل ((لاتراس)) (Lathrace) وهاجموا اديرته وقتلوا رهبانها (1) .

---

1) فازيلياف - Vasiliev. العرب والروم ص 55/ 1 6و س 85

وقد امكن لهؤلاء الرواد ان يقيموا علاقات

تجارية منذ عصر في عهد الطولونيين والاخشيديين

وان يثبتوا اسماءهم با مواقعها وقد اشار النويري السكندري

لهذه العلاقات التجارية في "الالمام" (1) . وكان من القرصنة

من رابطة ... بعد النويري وغير الرومي عن طرسوس

العباسي ... سنة (291 هـ/ 904 م) ... ليو ...

... رابطة ... واسع النطاق على سالونيك واسر ... اثنين

وعشرين الفا من سكان المدينة وبيعوا في شكل رقيق بالخندق

و... رابطة ... (2) يقول ارشيبالد لويس (اما الضربة العظمى فقد انزلت

عام 904م ... ان ليو حاكم طرابلس تؤيده بعض السفن الكريتية

هاجم سالونيك على نطاق واسع وهي ثاني مدينة في الامبراطورية ،

وكانت في طليعة هذا الهجوم سفن تستخدم العبيد الا ... وقد

تكلل الهجوم بالنجاح التام واسر 22 الفا من سكان المدينة حملوا

ارقاء الى البلاد الاسلامية) (3) .

---

1) عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية ، ص 13 - 150
2) الكندي : الولاة ، ص 245 ، الطبري ، ج 3 ، ص 2250 المسعودي :
مروج الذهب ، ج 1 ، ص 282 و ج 2 ، ص 319 ماريوس كانار ، بيزنطة ... ،
ج 1 ، ص 54 ، 55
3) ارشيبالد لويس ، ص 37

وفي هذا المثال دليل على ان هجمات القراصنة قد كانت تبلغ مستوى الحملات القوية التي تسفر عن عدد كبير من الاسرى وعلى جراة هؤلاء القراصنة اذ تذكر الروايات الواردة في صلة تيوفان -Théophanes- ان ليو حاكم طرابلس قد سعى في هذه المناسبة الى الهجوم على القسطنطينية نفسها فدخل الدردنيل باشرعته السوداء واحابيشه ثم انثنى من تلقاء نفسه وانقض على تسالونيك اكبر مدن الروم بعد القسطنطينية (1) وقد كان لهذا الحدث انعكاسات على تبادل الاسرى بين الروم والعرب سنة (292هـ/ 905م) ووقع ايقاف هذا التبادل ورجع الروم باسرى المسلمين فسمي ذلك الفداء بفداء الغدر وقد كتب "نيكولا" المتصوف رسالة الى امبراطوريط ... في شان اولائك الاسرى ثم وقع استئناف التبادل سنة (294- 295هـ/ 906-907م) وسمي بفداء التمام (2).

---

1) تيوفان Théophanes continuatus ص366-371- اسد رستم - الروم في سياستهم ج2 ص19

2) ماريوس كانار - بيزنطة - ص ج1 ص54-55

وقد رد الروم الفعل على هذه الهجمة سنة (294 هـ/ 906 م) ثم حملوا على اقريطش سنة (-297 - هـ/ 910م) ولكنهم فشلوا وقد جرت هذه الاحداث كلها في عهد ليون السادس الحكيم (-272 - هـ/ 886م -330 - هـ/ 912م) (1)

ب - **عش القرصنة الاوسط**

اما المركز الاوسط للقرصنة الاسلامية بالبحر المتوسط فيتكون من عش القراصنة بباري Bari ومونت جاريجليانو Mont-Garigliano وقد تمكن هذا العش من غلق بحر ترهانيا ، واذا ما كانت باري تبدو معتمدة على اقريطش وافريقية فان مونت جاريجليانو تستند الى جوار صقلية وقد استطاعت اساطيل هؤلاء القراصنة ان تكون من قوات الاغالبة والفاطميين البحرية بشمال افريقيا هيمنة على طرق التجارة بالحوض الاوسط من البحر المتوسط (2) .

وكان دور هؤلاء القراصنة هاما ايضا في تروين بضاعة الرقيق و توفيرها ولقد استغلوا الحلف الذين عقده مسلمو صقلية

1) المرجع نفسه .

2) ارشبالد - لويس - السيادة ص 52 و ص 59 - 60

من مدن "كامبانيا" مثل "نابولي" و"امالفي" ليجدوا المجال فسيحا امام غاراتهم على اخواتها من المدن الايطالية الاخرى وسبي اهاليها ثم القيام بحمل النخاسين في الموانىء الاسلامية الكائنة بالجنوب (1) .

وقد تواصل تزويد افريقية في القرن الرابع للهجرة برقيق من الروم على يد هؤلاء القراصنة واستمرت عملياتهم تلك الى ما بعد هاته الفترة ، ففي عهد الدولة الصنهاجية اصدر الفقهاء فتاوى دالة على توارد الرقيق الرومي على البلاد بواسطة القرصنة وكان من بين هذه الفتاوى فتوى للفقيه اللخمي (ت 478 هـ / 1085م) يعرض فيها الى شرعية استرقاق اولائك الاسرى ومناقشتها بسبب ما عرف به القراصنة من طرق خاصة بهم في اقتسام الغنائم (2) .

ج - عش القرصنة المغربي :

اما المركز الغربي فيتكون من القرصنة الاندلسية ، ونحن لا نجد اخبارا كثيرة عنها عند الاخباريين المسلمين لان اهتمامهم

1) خوان بيرنيط - هل هناك ... ص 73 _ 76 ارشبالد لويس _ ص 79 _ 80
2) البرزلي - الحاوي ج 2 ص 263 _ المختصر ص 82

بها لم يكن كافيا بالرغم من المعلومات التي وفرها ابن حيان وكذلك البكري الجغرافي الاندلسي (1) لكننا نعلم انه منذ عهد الحكم الاول (180-206 هـ/ 796_822م) اي منذ نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة قد وجد مغامرون اندلسيون يتعاطون القرصنة في البحر المتوسط كما ساهم بعد ذلك بقليل بحارة اندلسيون في فتح صقلية على يد الاغالبة (2) ، وكان هؤلاء القراصنة من اصل اسباني اما من المولدين او من المسيحيين كما هو الشان بالنسبة الى اتحاد البحارة بمدينة بجاية في اواخر القرن الثالث الهجري وقلما كانوا من العرب او البربر وكانوا لا يتكلمون الا بلهجتهم **الرومية** (3) .

---

1) ل ـ بروفنسال ج 1 ص 244 و 249 و 355 ـ ج 2 ص 153 ـ (اما في القرن الرابع عشر للميلاد فنجد معلومات ضافية عن القرصنة بالمغرب في تاريخ ابن خلدون ج 3 ص 117 الطبعة الفرنسية كما تحدث " سيمونيي " في كتابه حول " وصف ملك غرناطة " عن نفس الموضوع ص 136_137 137_136 - طبعة 1872)

2) محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية - ص 389 - 396

3) ل ـ بروفنسال ـ شبه الجزيرة الايبيرية ـ ص 45 رقم 7 ـ وتاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 153 - خوان بيرنيط - ص 73 _ 76

وقد كان نشاط هؤلاء القراصنة كبيرا وقد مكنتهم طبيعة بلادهم واحتكاكهم بدول اوروبا من ان يكونوا ملاحين ماهرين عارفين بالشواطئ ومواطن الضعف في السواحل وكانوا يتخذون لهم مراكز ساحلية من شرق الاندلس تمتد ما بين طرطوشة وبلنسية وكان يتزعمهم امير سرقسطة ويستخدمهم ضد الكارولنجيين في وقت لم يكن فيه بالاندلس اسطول منظم الى سنة (230هـ/845م)

وكان شغل هؤلاء القراصنة يتمثل من الغارة والسطو على السفن والموانئ واحتجاز الرهائن واختطاف الاسرى ثم بيعهم في الاسواق الاسلامية ومن اهم المناطق التي كانت تستهدف لهجوماتهم جزر البحر وسواحله الشمالية مثل سواحل ايطاليا وافرنجة وغيرها من شطآن اوروبا الجنوبية (2)

ومن امثلة غارات هؤلاء القراصنة على الجزر واسرهم لاهلها ثم بيعهم رقيقا للمسلمين هجومهم سنة (191هـ/806م) على جزيرة قورشقة (كورسيكا) وقد تصدت لهم بيبين بن شارلمان(781-810م)

---

1) عبد العزيز سالم - تاريخ البحرية الاسلامية - ص173 - 191 - بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 2 ص153 - 164
2) عبد العزيز - سالم - تاريخ الاسكندرية ص 135 - 136

ملك ايطاليا فتقهقروا الى قواعدهم بالاندلس فتعقبهم اثناء تقهقرهم " آدمر " قومس جنوة باسطوله فاشتبكوا معه وهزموه واسروا ستين راهبا باعوهم بالاندلس (1) .

ولم يكونوا يكتفون احيانا بما يغنمونه من هجماتهم السريعة فيتوغلون داخل البلاد اما عن طريق الانهار كما يفعل النرمان او يحتلون مكانا يختارونه مسبقا ثم يوجهون حملاتهم منه ويبدو ان الطريقة النرمانية لم تستعمل عندهم الا نادرا وتدل " حوليات القديس برتان " "Annales de saint Bertin" ان قراصنة من العرب قد صعدوا نهر الرون Rhône خلال الثلث الثاني من القرن الثالث للهجرة ووصلوا سنة (227هـ/ 842م) قرب مدينة آرلس - Arles - واستقروا باحدى ضفتي النهر ثم استسلموا للنهب والسلب ، واعاد قراصنة آخرون الكرة سنة (236 هـ 850م) حول المدينة نفسها لكن الريح منعتهم من الرجوع فقتلوا على آخرهم وفي سنة (- 255 - هـ/ 869 م) استطاع فريق آخر من القراصنة

---

1) ارشبالد لويس ص 229 _ 230

الاندلسين التمركز بكامارك Camargue وتمكن من اسر الاسقف بمدينة آرلس Arles وهو المسمى رولان "Roland" (Rotlandus) وقد حاول هذا الاسقف مطاردتهم على راس فرقة من الحرس لكنه مات على سفينتهم رغم ذلك ولم يفرطوا في فدائه بل اوهموا انه حي والبسوه ثياب الاسقفية واجلسوه ليراه من سعى لفدائه من اهل آرلس Arles (1) .

وكان من عادة فريق من هؤلاء القراصنة ان يلجؤوا بعد احراز سبيهم واسراهم الى مياه الاسكندرية فيبيعون بها بضاعتهم ويشترون منها ما يحتاجون اليه من زاد وامتعة فكانت الاسكندرية سوقا للرقيق المجلوب عن طريق هذه القرصنة خلال هذا العهد وقد وصف الكندي متاجرتهم مع اهل الاسكندرية فقال (قد قفلوا من غزوهم فنزلوا الاسكندرية ليبتاعوا ما يصلحهم وكذلك كانوا على الزمان وكان الامراء لا تمكنهم من دخول الاسكندرية وانما كان الناس يخرجون اليهم فيبايعونهم) (2)

---

1) ل - بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 153 - 162 .

2) الكندي - الولاة - ص 158

وقد امكن لهم ان يستولوا على الاسكندرية وان يحدثوا بها الفوضى وان يذكوا نار النزاع السياسي المندلع فيها الى ان قرر المامون اخراجهم منها صلحا وخرجوا منها سنة (212 هـ/827 - 828 م) (1). ويبدو انهم لم يكونوا يتورعون من ممارسة الاختطاف حتى في السواحل الاسلامية ولذلك نرى عبد الله بن طاهر عندما امره المامون باخراجهم يشترط عليهم الا ياخذوا في مراكبهم احدا من الاهالي ولا عبدا ولا ابقا (2) .

لكن هذه النواة التي تكونت من القراصنة الاندلسيين لم تقو شوكتها ولم تصبح عشا قوي الكيان الا في العقد الاخير من القرن الثالث للهجرة وذلك عندما ظهر قراصنة فركسينتوم Fraxintum ونحن مدينون باهم المعلومات التي لدينا عنهم للتاريخ المسمى " انتبودوزيس" " Antapodosis " الذي الفه " ليوتبراند Liutprand " اسقف " كريمونة Crémone "

---

1) الطبري-الامم والملوك ج 3 ص 1092 _ ابن الاثير- الكامل ج 4 ص 212
2) المصدر نفسه

ولعل اول من حاول التعريف بهذا العش من اعشاش القرصنة الاسلامية هو الباحث " رينو " Reinaud سنة 1836 ثم ظهرت دراسات اخرى في السنوات الاولى من القرن العشرين (1).

ففي فترة ما بين سنة (278 هـ/ 891م) وسنة (281 هـ/ 894م) استقر قراصنة اندلسيون في ظروف بقيت غامضة في سواحل جنوب فرنسا اي شواطئ بروفانس Provence بخليج "سانت تروبيز" Saint-tropez واحتلوا "فركسينتوم" Fraxintum وهي المدينة المحصنة بجبل مجاور لها والتي يدعوها الفرنسيون " قارد فريني " Garde-Freinet ويرى "ف لوط" F. Lot في كتابه "غزوات البرابرة" انهم لم يقتصروا على احتلال هذه المدينة

1) من بين هذه الدراسات نذكر على سبيل المثال :
ر ـ بوبردان : مملكة بروفانس في ظل الكارولنجيين باريس 1901 - R. Poupardin
ـ مملكة بورجوني .. باريس 1907
ج. بيني دي مانتير : بروفانس من القرن الاول الى القرن الثاني عشر ـ باريس 1908 G. Pinet De Manteyer
وكذلك دراسات (ج ـ كالمات J. Calmette و أ ـ فليش A. Fliche و ف. لوط F. Lot وغيرهما)
راجع ل ـ بروفنسال : تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 153 ـ 162

ومرتفع " ميراماس Miramas " المشرف عليها وانما يسطو نفوذهم على كل المنطقة المجاورة ابتداء من خليج " جريمو " Grimaud كما يشير الى ربض يدعو " راماتوال " Ramatuelle ويرى فيه التسمية العربية " رحمة الله " (1) واياما كانت سعة الرقعة التي احتلوها فقد استطاع هؤلاء القراصنة ان يتخذوا قواعد ثابتة على ساحل بروفانس وجزيرة "كامرج" عند مصب "الرون" وفي "ماجلون" ومنها وجهوا غاراتهم الى داخل البلاد الاوروبية وانتشروا في جبال الالب وتحكموا في الممرات الموصلة بين فرنسا وايطاليا فيما بين "مونت سيني" والبحر المتوسط و اغلقوا خليج "ليونيز" (2) .

وقد كان نشاط عرب فركسينتوم حثيثا طوال القرن الرابع للهجرة ووصلت غاراته حتى سويسرا ولومبارديا وقد استطاع القراصنة ان يتوغلوا في بلاد مرسيليا وان يحطموا دير " القديس فيكتور" saint. victor وان يصعدوا نهر الرون ويهجموا على مناطق

1) ل . بروفنسال — تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 153 — 162
2) ارشبالد لويس — ص 229 — 230 و ص 59 — 60

" الفالانتينوا " valentinois و " الفينوا " le viennois

ووطئت اقدامهم سلسلة جبال الالب واحرقوا اديرة عديدة وسبوا اهلها وتعرضت "ابوليا" و"قلبريا" لنهبهم وقطعوا الطريق المؤدية الى روما بل ان روما نفسها لم تسلم من النهب والسلب، مما اضطر "نابلي" و"امالفي" و"سلرنو" و"جايتا" وغيرها من المدن الايطالية الى عقد تحالف مع المسلمين عند القيام بمشروعات بحرية (1) وذلك لان تجارتها قد كانت تتعرض هي الاخرى لنهب هؤلاء القراصنة.

ولا ريب في ان العديد من الاسرى والرهائن قد وقعوا في ايديهم وبيعوا في قواعدهم او ببعض المدن الاسلامية فقد كان كل حاج يخترق جبال الالب ذهابا الى روما يتعرض الى الوقوع في اسرهم وكل مركب يقلع من موانئ جنوب شرقي فرنسا متجها نحو الشرق يقع في ايديهم قبل ان يتوغل في البحر لان هؤلاء القراصنة يكادون يملكون كل الجزر ويصيرونها اعشاشا للقرصنة وهكذا كان الحجيج الفرنسيون الراغبون في الذهاب الى القدس يفضلون السفر من احدى

---

1) خوان بيرنيط - هل هناك..... ص 78 _ 76 ل ـ بروفانسال ـ تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 2 ص 153 _ 162
ارشبالد لويس ـ ص 47

موانـي ايطاليـا لينجوا من سطوة العرب المسيطرين في الغرب (1)

وقد تواصل عمل هذه القرصنـة الاندلسيـة طوال قرن مـن الزمـان استطاعت خلالـه ان تزود الاسـواق الاسلاميـة بمـا كانـت فـي حاجـة اليـه من اصنـاف الرقيـق. وبالرغـم من ظهور بعـض المحاولات لايقـاف اعمالهم فانهـم تمكنوا من الصمـود لهـا فقـد هاجمهم الاسطول اليونانـي سنـة (931م / -319 - هـ) لكن دون جـدوى اذ هجموا بعد ذلك اي سنـة (-328 - هـ / 939 م) على كنيسـة القديـس غول Saint.Gall طمعا في ثرواتها وجهـزت ضدهـم حملـة اخرى اشترك في تنظيمها " هون " "HuGue" ملك ايطاليا و " روسان ليكابان "R. Lécapène (944-919م/332-307هـ) امبراطور الروم سنة (331هـ/942م) فحققت هـذه الحملـة بعض النجاح اذ اضعفـت تاثيرهم لكنهـا لم تطردهـم نهائيـا من فركسينتوم (2) وفي تلك الاثناء استعملهم " هون " HuGue في محاربـة " برنجار " - Beranger

---

1) هايد - Heyd - = تاريخ تجارة الشرق ج 1 ص 92_93
2) ل - بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 153 - 162

منافسه على عرش ايطاليا (1) وكان لا بد من الانتظار الى سنة 972 م او سنة 973 م وهي الظروف التي توفي فيها " اتون الاكبر" Otton.Le.Grand حتى يطرد اتباع الملك السكسوني القراصنة المسلمين من جنوب فرنسا ومناطق الالب ويحطموا قاعدتهم (1) وبالرغم من ذلك لم تسلم "بيزا" بعد ذلك بقرن رغم قوتها البحرية من التعرض للنهب مرتين في عامي (-395- هـ / 1004 م) و (-401- هـ/ 1011 م) والواقع انه حتى احتلال النورمانديين لصقلية لم تستطع اية دولة ساحلية ان تعيش في امان دون ان تستهدف لغارة اسلامية. وللتخلص من اعتداءات هذه القرصنة اتحدت برشلونة وبيزا في احتلال مدينة " بالما الميورقية " Palma de Mallorca عام (-403- هـ/ 1114 م) وقد كان هذا الاحتلال بالرغم من صبغته الوقتية ايذانا ببداية السيادة المسيحية على الجزء الغربي من البحر المتوسط (2)

---

1) ل ــ بروفنسال ــ تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 2 ص 153 ــ 162

2) خوان بيرنيط ـ م.س ـ ص 73 ــ 76

5) نشاط القرصنة التجاري

هكذا كانت القرصنة الاسلامية اذن تزود الاسواق بكميات وفيرة من الرقيق وتمثل احد مصادره الهامة بالاضافة الى مصدري الجلب والاسر واذا ما كان هذان المصدران الاخيران يتعرضان في بعض الاحيان بسبب ظروف الحرب والسلم الى صعوبات تهدد بتعطيلهما او نضوب معينهما فان هذا المصدر يمتاز بدوامه في حالتي السلم والحرب وبقدرته على تزويد الاسواق في كل الظروف وذلك بالرغم من التشتت في قواعدها وتفرق اعشاشها ، فقد كانت كل مجموعة من هؤلاء القراصنة تعمل لحسابها الخاص ويستقل كل عش منها بذاته عن غيره ولم يكن نشاطها محكم التنظيم وانما كان يشبه نشاط " قراصنة البحر الكاريبي في القرن السابع عشر اكثر من نشاط القوات البحرية المنظمة تمام التنظيم ، فحاكم باري او حتى

.../...

امير كريت او ليو حاكم طرابلس قد عملوا في البحار بطريقة لا تختلف عن الطريقة التي جرى عليها هنري مورجان في بورت روايال بعد ثمانية قرون " (1) .

لكن هذا النشاط رغم ما اتسم به من قلة تنظيم قد امكنه الاستمرار في اوقات توقف فيه نشاط الفتح وتمكن من تزويد اسواق النخاسة في فترات الهدنة التي يتعطل فيها الصدام بين المسلمين واعدائهم اذ لم يكن بوسع الحكومات الاسلامية منع هؤلاء القراصنة من ممارسة نشاطهم وفرض احترام حالة السلام عليهم فقد كانوا يشوشون بل يقطعون فترات المهادنة التي كانت تحدث من حين لاخر بين المسلمين واعدائهم من الممالك النصرانية خاصة ويتدخلون بعملياتهم بين الطرفين ويؤثرون في علاقاتهما السياسية والحربية مثلما فعلوا ذلك مع الاغالبة والكارولنجيين (2) او مع العباسيين

1) ارشبالد لويس ـ ص 52
2) محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ص 403 ـ 414

والبيزنطيين عندما شوشوا عمليات الفداء بين المعسكرين (1) فلم يكونوا يمتثلون لقرارات السلطة المركزية شانهم في ذلك شان كل القراصنة في كل زمان (2) لا تقدر السلطة الشرعية في بلادهم على اخضاعهم لضمان حرية الملاحة وصيانتها. ويجب ان ننتظر القرن الرابع عشر للميلاد لكي تظهر لاول مرة تدابير لحماية الملاحة كتعهد الدول التي ينتمي اليها القراصنة بجبر الخسارة وتعويض الضرر الذي يلحقون بدول اخرى وكفرض رخص مؤقتة للدونية لا يمكن تجاوزها والا اعتبروا قراصنة وتعرضوا للعقاب (3) اما قبل هذا التاريخ فلم تكن الحكومات الرسمية قادرة على التحكم فيهم.

وقد تواصل تزويد القرصنة الاسلامية للاسواق بالرقيق في حالة الحرب ايضا وربما كانت بضائعها او على الاصح

---

1) ماريوس كانار ـ بيزنطة ـ فصل - 12 - ص 54 ـ 55

2) ل ـ بروفنسال ـ L. Provençal ـ ج 2 ص 153 حيث يذكر امثلة من قراصنة اخرين مثل الكاتالانيين وغيرهم وهم لا يخضعون للسلطة المركزية التي يعيشون في ظلها

3) ر ـ كواندرو - قرصنة - ص 13 ـ 22

غنائمها ورهائنها اوفر في مثل هذه الظروف العدائية وذلك لان السلطة الرسمية اذا ما كانت لا تتدخل في شؤونهم ولا تقدر على اخضاعهم في حالة السلم خوفا منهم وعجزا عنهم فانها في حالات الحرب تصمت عن عملياتهم بل تراها مناسبة لانها تستعملهم اذاك لصالحها وتستعين بهم على الحروب البحرية فكم من قرصان قد صار قائدا لقوة بحرية تحت اشراف امير او دولة ذات سيادة وقديما كان قيوم الثاني Guillaume (1087 - 1100م) بانكلترا يستعمل " قراصنة الملك " لحماية المياه الاقليمية (1).

وهكذا بالرغم من ان اعشاش القرصنة الاسلامية قد كانت شبه مستقلة عن الحكومات الرسمية فان هذا الاستقلال يؤول الى اتحاد في مواجهة عدو واحد والى تكامل في المجهودات ابان حالة الحرب ويصبح القراصنة اذاك متلقين

---

1) ج ـ جانال g. geannel ـ القرصنة ص 29 ـ ر ـ كواندرو ـ قراصنة ـ ص 13 ـ 22

[illegible]

— [illegible] [illegible] lo

[illegible]

— Dan [illegible] o v. [illegible]

(min [illegible]) [illegible]

[illegible] 7 5

[illegible] olu

— [illegible]

[illegible]

للدعم من قبل حكوماتهم فباري مثلا تبدو معتمدة على اقريطش وربما على افريقية ايضا الى حد ما وموت جاريجليانو على صقلية وفركسينتوم على اسبانيا في دعمها وشد ازرها والظاهر انه كان دائما لجزيرة اقريطش علاقات متينة مع مصر رغم ما يحدث بينهما من عداء احيانا كما جرى سنة (-291 - هـ/ 904م) وسنة (-323 - هـ/ 935 م) (1) اضف الى ذلك ان القراصنة قد كانوا يبيعون اسراهم وسبيهم بموانئ البلاد الاسلامية ويسمح لهم بالاتجار فيها وهو دليل على المساندة والدعم الذي مكنهم من القيام بنشاط تجاري متواصل في الوقت الذي كانت فيه العمليات التجارية العادية تلاقي بعض الصعوبات بسبب اجواء التوتر في العلاقات الدولية.

ومن الامثلة الشاهدة على مساندة الحكومات الاسلامية لعمليات القرصنة ان حكومة قرطبة قد كانت راضية عن القراصنة

---

1) ارشبالد لويس ــ ص 52 وص 61

الاندلسيين ومشجعة لنشاطهم وإن لم تكن هي التي اشرفت على بعثه وتنظيمه ولم يكن شانها في ذلك مختلفا عن موقف السلط الاسلامية الرسمية الاخرى من اعشاش القرصنة المجاورة لها كما كانت الامارات البحرية في العالم النصراني تتصرف مثل هذا التصرف مع قراصنتها.

ومما يدل على وجود صلة بين حكومة قرطبة في هذا العهد والقرصنة الاندلسية اشتراك العديد من اهل الذمة المقربين الى الخليفة في عملياتها (1) وعندما تتدخل الامبراطور " اتون الاكبر " (Otton Le Grand 936 - 973 م) في منتصف القرن الرابع للهجرة لدى عبد الرحمان الناصر (300-350 هـ/912-961 م) لايقاف عمليات القراصنة الاندلسيين محملا اياه مسؤولية تصرفاتهم رد الناصر على طلبه بان ارسل اليه سنة (-340- هـ/ 950م) مع اسقف من اهل الذمة رسالة حادة اللهجة اثارت استياء الامبراطور وحاشيته فسارع الامبراطور بارسال كتاب اخر الى الناصر بتحرير اخيه " برونو " Bruno رئيس أساقفة كولونيا وكلف راهبا

1) ل ـ بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 2 ص 153 وما بعدها ـ ج ـ مارسي - بلاد البربر ص 225 228

بدير " جورس " Gorze بمقاطعة " لورين " Lorraine يدعى
" يوحنا " Jean بالذهاب الى قرطبة وابلاغ الرسالة
وعند وصوله اعلم الناصر بمحتوى الرسالة وهو حسب ما ورد في
ترجمة " يوحنا دي جورس " طلب معاهدة صلح وسلم تضع حدا
لهجومات القراصنة العرب. فراى الخليفة ذلك تحديا له ورفض
استقبال الرسول (1)

---

1) ل ـ بروفنسال L.Provençal ج 2 ص 153 ـ 162 ـ ر ـ بوبرد ان R-Poupardin ص 95
ومما يروى في هذا الصدد ان الناصر قد اشترط قبول الهدايا التي اصطحبها الرسول معه فقط لكن الرسول رفض ذلك ، وفي هذه الظروف قرر الناصر ان يرسل بنفسه رسولا الى ملك المانيا وقد قبل " روسيموندو " - Recemundo - ان يضطلع بهذه المهمة، و " روسيموندو " هذا هو ربيع بن زيد وهو من اهل الذمة وكان له دراية بالعربية واللاتينية وقد عمل في دواوين الخلافة قبل ان يصبح اسقفا بالبيرة كما شارك في اعداد الرزنامة العربية اللاتينية لسنة (- 350 - هـ/ 961م) وهي المسماة برزنامة قرطبة وقد شارك فيها عريب بن سعد واهديت الى الحكم الثاني (نشر ـ ر ـ دوزي R. DOZY - دراسة حول " روسيموندو " في Z.D.M.G عدد XX سنة 1866 ـ ص 595 ـ 609) وسافر ربيع بن زيد في ربيع سنة (-344- هـ/ 955 م) ووصل الى دير " جورس " Gorze حيث استقبله

رئيس ديرواسقف متز MEZ ثم سافر الى فرانكفورت حيث بلاط الامبراطور وهناك تعرف على " لومبار ليوتبراند " - Lombard . Liutprand - وحثه على كتابة تاريخه " الانتبود وزيس " Antapodosis فكتبه واهداه له واستقبل الامبراطور " اتون الاول " Otton I رسول الناصر استقبالا حسنا وطلب منه ان يرجع الى الخليفة مرفوقا برجل يدعى = " دودون دي فردون " Dudon. de verdun فوصلا الى قرطبة في اوائل شهر جوان سنة (-345 - هـ/ 956 م) وعندما بلغت " يوحنا دي جورس " Jean de Gorze معلومات اخرى من الامبراطور تنازل عن موقفه المتصلب واستقبله الخليفة ولا نعرف نتائج هذه السفارة لان نص ترجمة " يوحنا دي جورس " غير كامل (انظر ل ـ بروفنسال ج 2 ص 153 ـ 162)

وليس هذا هو المثال الوحيد من نوعه في الدلالة على حماية الحكومات الرسمية لمجهودات القراصنة ودعم نشاطهم التجاري. ويجدر بنا ان نقول بصورة عامة ان نشاط القرصنة قد كان يعتبر شرعيا اذا كان موجها ضد العدو ويصبح اذاك القراصنة جنودا رسميين تستخدمهم الدولة التي ينتمون اليها(1) ولئن لم تكن هناك علاقة مباشرة بين القرصنة والجهاد وبين الكنسية والقرصنة النصرانية - لان غاية هؤلاء التجار هي الغنيمة قبل كل شيء - فان القراصنة قد كانوا يضيفون جهودهم بطريقة او باخرى الى جهود ابناء وطنهم في حالات الحرب (2) ، وهكذا اتيحت الفرصة بفضل هذه الملابسات لتنشط اعمال القرصنة الاسلامية ويتسع نطاقها وتقوم بدورها التجاري في ميدان جلب الرقيق وغيره من البضائع حتى اتخذ نشاطها شكل العمليات المنظمة الخاضعة لاحكام الفقه الاسلامي ، فقد اخبرنا

---

1) ر - كراندرو - قرصنة - ص 13 - 22

2) ل - بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 1 - ص 244 - و 249 - و 355 - و ج 2 - ص 153 - وما بعدها

المالكي و ابوالعرب (1) ان فقيهـا مشهورا هو يزيد بن محمـد

الجمحي (ت 212 هـ / 827 م) الملقب بتاجر اللـه

لا يعتبر هـذه العمليات مكروهـة وقد مـات خلال عملية قرصنـة

وقع القيام بها ضد المصيصة وقد قتله الاعداء الصقليون

في البحر ، ويستند المالكي الى هذا الخبر ليؤكد عدم وجود

هدنـة فـي ذلك الوقت بين افريقيـة وصقليـة ، وقـد حفظ لنـا

ابن ابي زيـد القيرواني (ت- 386 هـ/ + 996 م) نصا يتعلـق

باستفتاء وجه الى سحنون (ت 240 هـ/ -854- م) في تاريخ

لا نعلمه بالضبط في شان ثلاثة شركاء اختصموا في قسمة الغنائم

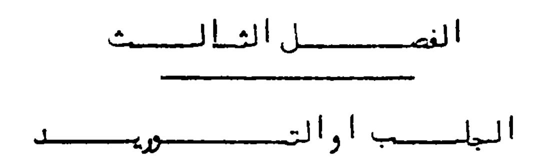
بعد القيام بعملية قرصنة ، وهذا النص يدل على ان القرصنة

صارت عمليـة جاريـة وعاديـة ومنظمـة باحكام فقهيـة (2)

---

1) المالكي- ريـاض ج 1 ص 162 ــ ابو العرب - طبـقـات - ص 85_86

2) محمد الطالبي ــ الامارة الاغلبية ــ ص 413 ــ 414- الكراسات التونسية عدد -45 ص 290 .



الفصل الثالث

الجلب او التوريد

1) - التجارة الخارجية

انّ عملية تزود العالم الاسلامي بمادة الرقيق عن طريق التجارة تتمثل في القيام بجلبها وتوريدها من مناطق غير اسلامية اي من "بلاد الكفر" او من "دار الحرب" بلغة ذلك العصر . فهي اذن عملية تجارية مرتبطة ارتباطا اساسيا بالعلاقات الخارجية التي كانت سائدة بين المسلمين والشعوب المحيطة بهم سواء أكان ذلك في آسيا أو أوروبا او افريقيا . ولايخفى أيضا انّ روح العداء قد كانت في الغالب مسيطرة على هذه العلاقات لأسباب دينية وسياسية ممّا دعا فقهاء المسلمين الى تشريع احكام خاصة بالمعاملات التجارية بين هذين العالمين المتعاديين فوضعوا حدودا وقوانين تنظم نشاط التاجر المسلم في دار الحرب والتاجر الحربي في دار الاسلام كما تعرضوا الى نوع البضائع المتبادلة بين الجانبين ومنها بضاعة الرقيق .

من المفيد اذن أن نتعرف أولا الى الاطار القانوني الذي اراد المشرع الاسلامي أن تندرج في نطاقه المعاملات المتصلة بالتجارة الخارجية وبعملية توريد الرقيق على وجه الخصوص. كما يكون من المفيد أيضا أن نتعرف على موقف الطرف المقابل أي دار الحرب من هذه المعاملات التجارية.

أ- موقف دار الاسلام

ان أول ما نلاحظه في اهتمام الفقهاء بهذا النوع من التشريعات التجارية اقرارهم بجوازها وان حرصوا على بيان الشروط. كما نستنتج من حدالهم الفقهي شهادة غير مباشرة على وجود معاملات تجارية بين المسلمين واعدائهم على صعيد الممارسة وفي حالتي السلم والحرب على حد السواء وان كانت ظروف الهدنة وفترات السلم أكثر تشجيعا على ازدهار هذه التجارة.

وقد كان مسلمو هذا العصر واعين بذلك ويمكن أن نذكر على سبيل المثال بما جاء في الرسائل التي تبادلها الخليفة المأمون (198-218 هـ/813-833م) والامبراطور البيزنطي تيوفيل - Theophile (213-227 هـ/829-842م) من ذكر لمنافع السلم التي تسمح باتساع رقعة التجارة بين الطرفين (1) ولم توقف الحروب مع ذلك سير المبادلات مما جعل الفقهاء يقرون جوازها في هاته الحالة ويشترطون وجوب "الأمان" فالتجار المسلمون لا يدخلون دار الحرب إلا بأمان وليس لهم اذاك أن يسرقوا ولو أمة مسلمة أحرزها العدو لأنه غدر والغدر حرام. ويمكن لهم أن يتعاملوا معهم بمعاملاتهم كأن يشتروا الأمة بالخمر والخنزير ولهم أيضا أن يتعاطوا معهم الربا (2) ويمكن للتاجر المسلم أن يحمل معه غلاما أو غلامين الى دار الحرب لخدمته اذا لم يكن منهما بنية بيعهما. (3)

---

(1) فازيلييف - العرب والروم - ص109 م. كانار - M.Canard - المسلمون وبيزنطة : ج 12 ص 62-64

(2) الشيباني - السير الكبير - ج 4 ص 1492

(3) السرخسي - شرح السير الكبير ج 4 ص 1572

لانه من الممنوع على تجار المسلمين بيع شيء من رقيق دار الاسلام للعدو. لأن الرقيق عدّة حربية كالخيل والسلاح فيها منفعة للمشركين وقوة لهم على المسلمين (1) .

ويجوز للتاجر الحربي أن يدخل دار الاسلام بأمان أيضا فتنطبق عليه اذاك احكام "المستأمن". وله ممارسة التجارة في حدود احترام بعض الشروط كالتخلي عن التعامل بالربا والخمر والخنزير في دار الاسلام (2) ومنعه من اخراج الرقيق الى دار الحرب للمتاجرة فيه فاذا ما اشترى عبدا كان عليه أن يبيعه قبل أن ينصرف واذا ما أسلم احد عبيده الذين قدموا معه لم يكن له الحق في الرجوع به. كما لايحل له أن يشتري شيئا من الغنائم ولا ان يستبدل عبدا بآخر ولو كان من جنسه بينما يمكنه بيع ماجلبه معه من رقيق الى دار الاسلام بعد أن يعشره اعشار. والغاية التي يرمي اليها المشرع من وراء هذه الأحكام منع كل مايتسبب في تقوية صف العدو

(3) يقول أبو يوسف :

---

(1) المرجع نفسه - ج 4 ص 1568

(2) المرجع نفسه - ج 4 ص 1492

(3) ابو يوسف - كتاب الخراج - ص 292 - ماريوس كانار - Marius. Canard المسلمون وبيزنطة - فصل × I × ص 35 . 56 - السيباسي - السير الكبير - ج 4 ص 1575 وص 1583 - 1584 .

" فان أراد هذا الرسول رسول الملك أو الذي اعطي الأمان ان يرجع الى دار الحرب فانهم لايتركون ان يخرجوا معهم بسلاح ولاكراع ولا رقيق مما اشتروا من اهل الحرب. فان اشتروا من ذلك شيئا يرد على الذي باعه منهم ورد اولائك الثمن اليهم . فان كان مع هذا الرسول أو الذي اعطي الأمان سلاح جيد فأبدله بسلاح أشر منه او دابة فأبدلها بأشر منها فذلك جائز. ولا بأس بان يترك يخرج بذلك وإن كان أبدله بخير منه رد عليه سلاحه ودابته ورد ذلك الى صاحبه الذي ابدله. ولاينبغي للامام ان يترك احدا من أهل الحرب يدخل بأمان أو رسولا من ملكهم يخرج بشيء من الرقيق أو السلاح او بشيء مما يكون قوة لهم على المسلمين. فأما الثياب والمتاع فهذا وما أشبهه لا يمنعون منه"(1) .

---

(1) ابو يوسف - كتاب الخراج - ص 188

ويذهب الفقهاء الى ان من واجبات الامام السهر على تنفيذ هاته الاحكام واتخاذ التحريات اللازمة باقامة مراكز مراقبة على الحدود تدعى "مسالح" لتفتيش التجار وهي عبارة عن مصالح جمركية تراقب بضائع التجار. فان وجد معهم رقيق أو سلاح وقع رده الى دار الاسلام. يقول المؤلف نفسه: "وينبغي للامام أن تكون له مسالح على المواضع التي تنفذ الى بلاد أهل الشرك من الطرق فيفتشون من مر بهم من التجار فمن كان معه سلاح أخذ منه ورد ومن كان معه رقيق رد .... ولا ينبغي للامام أن يدع واحدا ممن أسر من أهل الحرب وصار في أيدي المسلمين يخرج الى دار الحرب راجعا الا ان يفادى به فاما على غير فداء فلا" (1).

---

(1) المصدر نفسه - ص190

هكذا حدد الفقهاء اطار التعامل التجاري بين دار الاسلام ودار الحرب ولئن كان هذا الاطار يمنع منعا باتا بيع بعض بضائع المسلمين الى العدو كالاسلحة والدواب والرقيق فانه يشجع التجار المسلمين والأجانب على حد السواء على توريد الرقيق وغيره من البضائع الى البلاد الاسلامية (1)

كما تعتبر صيغة "الأمان" التي اجازتها احكام الفقه الاسلامي مجالا فسيحا لتجار التوريد والتصدير. وذلك لأن قانون العداء والمسالمة قانون شخصي يلزم الافراد قبل ان يلزم البلاد التي ينتمون اليها مما يسمح للاجنبي بان يمكث في دار الاسلام طيلة المدة التي يمنحها له الأمان وان كانت بلاده في حرب مع المسلمين. وله أن يرجع الى بلاده في أمن تام مالم يخل بشروط الأمان وهي أن لا يتجسس أو يفشي اسرارا أو يخبر العدو بمواقع المسلمين (2) .

(1) السرخسي - شرح السير الكبير - ج 4 ص 1575
(2) ماريوس كانار - Marius - Canard - المسلمون وبيزنطة - فصل 19 ص 35 . 56 .

أضف الى ذلك أن سكان البلاد المرتبطة بمعاهدة سلم مع المسلمين يمكنهم دخول أرض الاسلام دون اذن خاص كما كان الشأن بالنسبة الى قبرص وارمينية مثلا. كما انه بامكان الأجنبي المنتمي لبلاد ثالثة والمستقر بالبلاد المعاهدة أن يدخل بلاد الاسلام اذا لم تكن بلاده في حرب مع المسلمين. وبذلك يمكن لليوناني القادم من قبرص أو من أرمينية مثلا أن يدخل بلاد الاسلام في أيام الهدنة مع البيزنطيين. وربما كان هذا التشريع مؤسسا على المعاهدة التي عقدها الرسول مع "ايلة" وهي تنص على انها تشمل من كان بها من الشاميين واليمنيين (1) .

---

(1) حميد الله - وثائق حول الدبلوماسية - القاهرة 1941 - ص . 36 - رقم 3
السياسة الاسلامية .. لاهور - 1945 - ص 138 - 140

ويتسم التشريع الفقهي بمرونة واضحة ازاء اقامة التجار الاجانب بدار الاسلام وتبرز هذه المرونة على صعيد التطبيق خاصة.اذ كان هؤلاء التجار يحصلون دائما على "الأمان" (1) وكان تصرّف السلط مع التاجر الداخل دون آمان يتميّز بالتفتح والتسامح اذ بامكانه الرجوع الى بلاده اذا وقع الشك في نواياه ويسمح له بالدخول اذا اتضح أنه تاجر ولم يكن معه سلاح (2) واذا مازعم التاجر أنه دخل بأمان ولم يمكنه اثباته كفاه أن يشهد على ذلك شاهدان مسلمان بأن أحد المسلمين قد منحه الأمان (3)

---

(1) الطبري - اختلاف الفقهاء - ص33

(2) خليل بن اسحق - المختصر - ج 1 ص397 . 398

(3) الطبري - اختلاف الفقهاء - ص33

وذلك لأن لكل مسلم من الناحية المبدئية ان يمنح الأمان. لكن لامير الثغور أن يمنع الخواص من هذا الحق وهذا يعني في الواقع وجود ممثل للخليفة يجب الاسترخاص منه للدخول الى أرض الاسلام والتجارة فيها (1) ومن باب المرونة أيضا تمكين التاجر الذي لم ينه بيع بضاعته أو بقي عليه دين يريد تسديده من تمديد اقامته (2) واذا ما أراد الرجوع وكانت بلاده في حالة حرب مع المسلمين حملته السلطة الى مكان آمن. واذا ما رجع عن طريق البحر ولكن عاصفة ارجعته الى سواحل المسلمين قبل عذره (3) .

---

(1) ماريوس كانار - Marius - Canard - المسلمون وبيزنطة فصل x1x ص 35 . 56

(2) الطبري - اختلاف الفقهاء - ص 36

(3) المصدر نفسه - ص 34

ب - موقف دار الحرب

وقد فرضت ظروف العداء أن يكون لدار الحرب موقف مقابل لموقف التشريع الفقهي بدار الاسلام.

وتعتبر التشريعات البيزنطية واحكام الكنيسة في هذا المجال أوضح تجسيم لهذا الموقف المقابل بسبب الصراع المتواصل بين الاسلام والمسيحية.

فمثلما كان هناك منع من جانب المسلمين لتصدير بعض البضائع والمواد كالاسلحة والرقيق وجد منع أيضا من جانب البيزنطيين لتصدير هذه المواد وغيرها مما يتسبب في تقوية صفوف المسلمين وجيوشهم وأساطيلهم (1) وكان الاباطرة المسيحيون يتخذون الاجراءات الصارمة لعرقلة التبادل التجاري مع العرب المسلمين فمنذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة الثامن للميلاد سعى " شرلمان " Charlemagne (165-199هـ/ 768-814م) الى اتخاذ اجراءات من هذا القبيل وواصل هذا المسعى بعده البابا "زكرياء" Zacharie ثم البابا "آدريان الاول" Adrien 1er (2)

(1) ماريوس كانار - Marius Canard المسلمون وبيزنطة - فصل XIX ص 35.56

(2) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق - ج 1 ص 95

وكان من أهم هذه الاجراءات معارضة الكنيسة ومنعها لبيع المسيحيين في صورة رقيق للعرب المسلمين (1).

وكان هذا الصوت يعلو من حين لآخر منبها الى وجوب تحجير تصدير الرقيق وغيره من المواد الاستراتيجية كالعتاد والخيل والمراكب الى البلاد الاسلامية مذكرا بالعداء القائم بين المسيحية والاسلام ومحذرا من تنمية طاقة العدو الحربية والاقتصادية.

فقد اخذ البابا "جريجوار السابع" Gregoire VII اجراءات من نفس القبيل وعمد دوق "جنوة" و"البندقية" الى تحجير تصدير الرقيق والخشب والسلاح الى العالم الاسلامي (2) وقد منعت بيزنطة مرتين التجارة مع سوريا ومصر وذلك بين عام (199 هـ/ 814 م) وعام (204 هـ/ 820 م)

(1) برنشفيك Brunshvig _ دائرة المعارف الاسلامية _ معان عبد _ 1 ص33

(2) انظر أ. شاري - تاريخ الشعب الروماني ....

2) - A.Schaube - Handelsgeschichte der Romanischen Völker des Mittelmeergebiets bis Zum Ende der Kreuzzüge - Munich - Berlin - 1906 - pp 22 - 23.

وكذلك . أ.أ. سايوز - تجارة الاوروبيين بتونس من القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر - باريس - 1929 - ص 36

- A.E. Sayous - Le commerce des Européens à Tunis depuis le XII è siècle jusqu'à la fin du XVI è - Paris 1929 - p 36.

وكـذلـك فـي عهـد "باسيل الثاني" Basile II (366-416هـ/976-1025م) سنة (405-406هـ/ 1015.1016م). وكانت هناك مراقبة لما يخرجه تجار الشام من القسطنطينية وتحديد لاقامتهم بها بثلاثة أشهر (1) .

لكنّ العلاقات التجارية بين العالمين المسيحي والاسلامي قد وجدت رغم تحريمها رسميا. فقد "كان لطلب الربح ولروح المبادرة من القوة والحتمية ما جعل الاحترازات الدينية والتحفظات غير قادرة على منع المدن البيزنطية بايطاليا ومدينة البندقية من استعمال ملاحتها لتجديد الصلات التي كانت بينها وبين افريقيا والشام وان أصبحت هذه البلدان في يد الكفار ..." (2) كما أن مختلف التحريمات التجارية التي اقرّتها السلط الاسلامية من ناحيتها لم يقع احترامها ولم تنجح في ايقاف النشاط التجاري بين المعسكرين المسيحي والاسلامي (3)

(1) ماريوس كانار Marius Canard المسلمون وبيزنطة ـ فصل XIX ص35-56

(2) بيران H. Pirenne محمد وشرلمان ـ ص14

(3) نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ـ ص118 ـ 119

بل لعل أجراءات المنع المتخذة من كلا الطرفين دليل في حد ذاته على وجود تيار من المبادلات التجارية على صعيد الواقع يصطدم من حين لآخر بعراقيل مبدئية مستوحاة من روح العداء العقائدي والسياسي .
وهكذا فان الواقع التاريخي يدل على وجود علاقات تجارية بين دار الحرب من ناحية والعالم الاسلامي شرقه وغربه من ناحية أخرى كما يدل على ان الرقيق قد كان وسيلة هامة من وسائل هذا التبادل التجاري .

ج - واقع التجارة الخارجية

لعله قد اتضح اذن مما سبق أن ظروف التجارة الخارجية الاسلامية قد كان لها من النشاط في هذا العصر ما سمح لها بالتغلب على العراقيل التي حتمتها اوضاع الحرب وما خول لها تبادل المواد التجارية الضرورية للاقتصاد الاسلامي اذاك ومنها بضاعة الرقيق طبعا .

وقد أمكن ربط علاقات تجارية مع بيزنطة نفسها. وقد تحدث المقدسي عن تجارة المسلمين مع القسطنطينية ورأى أن هذا الواقع التجاري يدعو الى الحديث عن المسالك الموصلة الى هذه المدينة وعن الاماكن التي يقصدها التاجر المسلم بها فقال : "ويجب أن نذكر أسباب القسطنطينية لأن للمسلمين بها دارا يجتمعون فيها ويظهرون الاسلام بها وقد كثر الاختلاف والكذب فيها وأمر البلد ومساحته وبنيانه فرايت ان اصور ذلك للعيون وأوضحه للقلوب واذكر الطرق اليها لحاجة المسلمين الى ذلك وقصدهم في شراء الاسارى والرسالات والغزو والتجارات" (1).

---

(1) المقدسي - احسن التقاسيم - ص147 - 148

فبالرغم من سيطرة المسلمين على البحر لم تكن لهم اية نية لعرض حصار اقتصادي على القسطنطينية فقد كانت "طبرزون " Trébizonde هي البوابة التجارية التي تمر بها البضائع الواردة من بلاد العراق وفارس الاسلامية الى بيزنطة (1) يقول ابن حوقل متحدثا عن تجارة المسلمين مع الروم البيزنطيين عن طريق "طرابزندة " وارمينية مايلي "ولهم مدخل الى بلد الروم يعرف بطرابزندة وهي مدينة يجتمع فيها التجار من بلد الاسلام فيدخلون الى بلد الروم منها للتجارة ويخرج اليها خليج من القسطنطينية الى البحر المحيط ولملك الروم على صاحبه المقيم بأطرابزندة في وقتنا هذا مال جسيم كان في الأول دونه كثيرا ...... واكثر ما يخرج الى بلد الاسلام من الديباج والبزيون (2)

---

(1) الاصطخري - المسالك والممالك - ص 462 - المسعودي - مروج الذهب ج 2 ص 3 - ارشيبالد لويس ص 73 - 74 .

(2) قماش حرير ذو وسم - انظر - اسكندر صايبل A. Seippel - اخبار أمم المجوس ص 57 - احالة رقم 3

وثيـاب الكتـان الـرومـي وثيـاب الصـوف والأكسيـة الـروميـة فمـن أطـرابزنـدة " (1) هـذا فضـلا عـن وجـود منـافـذ اخـرى . وكـانـت هنـاك تجـارة عـن طريـق البـرّ بيـن الشـام وبـلاد الـروم تشهـد بـذلـك المعـاهـدة الـتي ابـرمـت سنـة (-358 هـ/ 969م) بيـن بيزنطـة وامـارة حلـب وتشتمـل هـذه المعـاهـدة على بنـود تجـاريـة تهـم المكـوس وفيهـا ذكـر للبضـائـع ومنهـا البهـائـم الآننـا لا نجـد فيهـا ذكـرا للرقيـق (2) .

وقـد حـدد دور أرمينيـة التجـاري فـي البيـان الـذي ارسلـه الملـك " سنبـاط" Sembat (277 - 302 هـ/890-914م) الـى الافشيـن (ت 309 هـ/ + 921م) (3)

---

(1) ابن حوقـل ـ المسالك والممالك ـ المكتبة الجغرافية العربية ـ طبعة ـ دي غوية De Goeje ـ ليد Leyde 1873 ـ ص245 ـ 248 اسكنـدر صايبـل Alexander Seipel - اخبار أمم المجوس ص55 ـ 60

(2) ماريـوس كانـار = Marius Canard المسلمـون وبيزنطـة ـ فصـل XIX ص35 ـ 56

(3) هو محمد بن ابي الساج كانت امارته على ارمينيـة وادربيجان في عهد الخليفـة المعتضد (279 - 289 هـ/ 892 -902م) اواخـر القرن الثالـث للهجـرة .

والـــي اذربيجـــان وارمينيـــة عنـــد ما لامـه علـــى امضـــاء معاهـــدة مـــع ليـــون الســـادس VI Léon (273-300 هـ/886-912م) وقـــد جـــاء فـــي هـــذه الرســالـة تبريـــر الملـــك لتصرفـــه بأنـــه كـان يـــرمـــي الـــى جلـــب الأشيـــاء الثمينـــة الـــى الخليفـة وتوفير الربـــح للتجـــار المسلمـــين (1) وكـــانـت هناك مبـادلات تجـــاريـــة نشيطـــة أيضـــا بـــين العـــرب وبيزنطـــة عن طـريـــق الخـــزر ولـديـنـا شـــواهـــد عـــديـــدة علـــى وجـــود نشـــاط تجـــاري بـــين بيـزنطـــة ومصـــر عـــن طـريـــق البحـــر وموضـــوع هـاتـــه التجـــارات المنسوجـات الـــتي تصدّرهـــا دميـــاط وتنيـــس وفـــرمـا. وقـد ذكـر نـاصـــر خســـرو الـــذي زار مصـــر سنـــة (439 هـ/ 1048م) أن الامبـراطور البيزيطـــي قـــد منـــح مـائـة مدينـــة مقـابـــل أخـــذ مدينـــة تنيـــس بســـبب جـــودة منســوجـاتهـــا. والمعلـومـات الـتي لدينـا حـــول تجـارة المسلمـــين مـع البيزنطـيين ليس فيهـا تفصيل لنـوع البضـائـع المبـادلـة. ولا نجـد فـي كتـاب الجـاحـــظ (2)

(1) مـاريـوس كـانـار Marius Canard — المسلمون و بيزنطـة — فصل XIX ص 35 — 56

(2) الجـاحـــظ — التبصـــر بالتجـــارة — ط، دار الكتاب الجديد 1966

ذكرا للمواد المستوردة من بيزنطة. وكل ما نعلمه هو أن مادة هذه التجارة كانت تشتمل على استيراد الخشب رغم منعه ونعلم أيضا ان تجارة الرقيق كانت مزدهرة عند كلا الطرفين فهل حدث تجاوز المنع بالنسبة الى الرقيق أيضا ؟ (1)

ومهما يكن من أمر تعطل هاته العلاقات التجارية الرسمية فان تيارا تجاريا غير رسمي قد حل محله ونما تدريجيا حتى أمسى له نشاط كبير (2) ذلك ان التجار الاوروبيين قد كانوا متهافتين على تجارة الترف الشرقية وما تدره موادها من أرباح وكانوا يخرقون تعاليم الكنيسة ويبيعون الرقيق المسيحي للمشرق والمغرب الاسلاميين ويستوردون منهما بضاعة الشرق ومنتوجاته (3)

(1) ماريوس كانار _ Marius Canard المسلمون وبيزنطة _ فصل XIX ص 35 _ 56

(2) نجاة باشا _ التجارة في المغرب الاسلامي _ ص 118 _ 119

(3) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق _ ج 1 ص 95.

كما نعلم عن طريق ابن خرداذبة أنّ اليهود الرهادنة كانوا يمارسون تجارة الرقيق المحرّمة بين العالمين الاسلامي والمسيحي وكانوا عند رجوعهم من الصين يبحرون من فرما امّا الى القسطنطينية أو الى رومة (1)

ولعله لم يكن للنشاط التجاري غير الرسمي أن يستمر ولم تكن السلط السياسة تغض الطرف عن وجوده بل ان هذه السلط قد ساهمت احيانا في تدعيم هذا النشاط التجاري (2) كما تحسم ذلك في التحالف الذي تم بين الجمهوريات الايطالية الصغيرة وهي نابل - Naples وحيتا « Gaëte » وسورنتو - Sorrento - وملف (امالفي) - Amalfi ومسلمين صقلية سنة (215 هـ/ 830م) أو سنة (220 هـ/ 835م)

---

(1) ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك ـ ص = 49 - 50
ـ ماريوس كانار - Marius Canard المسلمون وبيزنطة ـ
فصل XIX ص35 ـ 56

(2) نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ـ
ص118 ـ 119

وقد دام هذا التحالف قرابة خمسين عاما على الرغم من لعنات الكنيسة واحتجاجاتها والسبب في هذا التحالف وعي الجانبين بمصالحهما الاقتصادية المتكاملة وحرصهما على ايقاف حالة الحرب من أجل ذلك كما أن تلك الجمهوريات كانت تريد المحافظة على استقلالها عن امراء (بنغفنت) Benfent المسيطرين اذاك على جنوب ايطاليا وهم من اللومبارديين التابعين للدولة البيزنطية . ولم تكن تلك الجمهوريات تتوقع أي مساعدة من الدول المسيحية لرد اطماع امراء (بنغفنت) Benfent فتحالفت مع المسلمين (1) وكان من نتائج هذا التحالف أن وجدت صلات تجارية متينة بين ايطاليا وصقلية والمغرب الاسلامي وأمكن لتجارة الروم التي كانت تمر صادراتها عن طريق ايطاليا أن تأخذ مجراها الى العالم الاسلامي .

(1) العبادي - تاريخ البحرية الاسلامية - ص 129 و 130

ارسيبالد لويس - Archibald Lewis - السيادة الاسلامية - ص 27 (ويذكر أن التحالف من نابولي - Napoli - كان سنة (- 222 - هـ 837م) .

تلك هي في الجملة الظروف التي كانت تعيشها التجارة الخارجية الاسلامية عموما وتجارة الرقيق على وجه الخصوص وهي ظروف لم تخل من صعوبات اعترضت سبيل التجارة لاسيما بين العالمين الاسلامي والبيزنطي الا ان المصالح الاقتصادية قد استطاعت كما رأينا ان تتغلب عليها حتى في حالات الحرب . اضف الى ذلك ان تجارة الرقيق لم تصادف مثل تلك الموانع والعرقيل في المعاملات مع شعوب اخرى غير مسيحية بافريقيا وآسيا وذلك لاختلاف اوضاع تلك الشعوب حضاريا عن وضع البلاد الخاضعة لبيزنطة ولاختلاف ميزان القوى أيضا بينها وبين العالم الاسلامي بينما كاد ان يكون ذلك الميزان متعادلا في هذا العصر بين الروم والمسلمين - فسر هذا الاختلاف حضاري في جوهره سواء اكان ذلك على صعيد التشريع أو على مستوى واقع المبادلات التجارية .

2) - مصادر الرقيق المجلوب

ان الرقيق المجلوب الذي كان المسلمون يستوردونه من الامم الاجنبية عنهم مختلف المصادر فمنه ما كان يمثل الاسرى الذين يوسرون في غارات الشعوب والقبائل البدائية على بعضها بعضا سواء اكان ذلك بآسيا او اوروبا او افريقيا . وهي شعوب كانت اذاك اقرب الى التوحش واشبه بالبرابرة اذا ما قيست بالعالم المتحضر المتمثل اذاك في العالمين الاسلامي والبيزنطي . فقد كان المتغلب من قبائل تلك الشعوب يبيع اسرى الشعب المغلوب لتجار الرقيق فيعمل هوءلاء على تصديرهم الى المسلمين او البيزنطيين طلبا للارباح . ففي البلاد الاوروبية كان سبب التناحر بين تلك الامم موجات الهجرة التي عرفتها شعوب الشمال في زحفها نحو اواسط اوروبا وجنوبها واكتساحها لسكان تلك المناطق مما احدث تصادما وصراعا متواصلا معها . ونعني بهذه الهجرة نزوح الجرمان ثم النرمان من مواطنهم الاصلية بالشمال الاوروبي واطلاقهم يد النهب والاغارة فيمن اعترض طريق توسعهم من الاجناس الاوروبية الاخرى (1) وقد كان هذا التناحر مصدرا خصبا بالنسبة الى تجارة الرقيق و مزودا هاما للمسلمين بهذه البضاعة .

---

1) العدوي - المسلمون والجرمان - ص 30 - 40

وكانت قبائل السود بافريقيا تغير على بعضها بعضا وتبيع اسراها الى التجار المسلمين. فممّا وصفه البكري نقلا عن هذه الفترة من التاريخ وعلى وجه التدقيق عن منتصف القرن الرابع للهجرة تناحر قبائل السودان وغاراتهم على بعضهم بعضا واستعانتهم في هذا العداء بامير ((اودغست)) الصنهاجي . يقول البكري ((وكان صاحب اودغست في عشر الخمسين والثلاثمائة : تين يورتان بن ويسنو بن نزار رجل من صنهاجة وكان قد دان له ازيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدي اليه الجزية وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها في عمارة يعتد في مائة الف نجيب . واستمده بعربى (؟) ملك ماسين على ملك اوغام فامدّه بخمسين الف نجيب فد خلت بلاد اوغام وعساكره غافلة فغنمت البلد واحرقته فلما نظر اوغام الى ماحل ببلده هان عليه الموت فرمى بدرقته وثنى رجله عن دابتّه وجلس عليها فقتلته اصحاب تين بورتان فلما عاين نساء اوغام اليه قتيلا تردين في الابار وقتلن انفسهن بضروب القتل اسفا عليه وانفة من ان يملكهن البيضان)) (1) ويقول ياقوت عن احد ملوك زغاوة ان ((يده مطلقة في رعاياه يسترق من شاءمنهم ... واكثر رعاياه عراة مؤتزون بالجلود ... وديانتهم عادة ملوكهم يعتقدون انهم الذين يحيون ويميتون ويمرضون ويصحون)) (2) في مثل هذه الرحال كانت قبائل السودان تعيش

---

1) البكري ـ المغرب ـ ص 159

2) الحموي ـ معجم ابلدان ـ طبعة بيروت 1376 هـ/1957م) ح 3 ص 142. 143

وكان البربر يتدخلون فيما ينشب بينهم من نزاع ويؤجوجونه فغالبا ما يسفر على مجموعات غفيرة من الاسرى يباعون في شكل رقيق .

وجرت العادة ايضا بين قبائل آسيا الوسطى وشعوبها ان يغير فيها القوي على الضعيف فيسبى النساء والاطفال ويؤسر الرجال فيبيع الغالب من بيده منهم رقيقا الى التجار (1) . وقد اشار الحموي الى رقيق بلاد التركستان او ما وراء النهر وهو رقيق يحمل الى ذلك الاقليم من الاتراك المحيطة به يقول في ذلك ((واما الرقيق فانه يقع اليهم من الاتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم وينقل الى الافاق وهو خير رقيق بالمشرق كله)) (2) كما ان ولاة العباسيين بخراسان كانوا يغيرون على من لم يسلم من الاتراك ويسترقونهم وقد ذكر البلاذري ان الخليفة المأمون (198 - 218هـ/813 - 833م) كان منذ ولايته على خراسان يسلك هذه السياسة واتبع الولاة بعده نفس السلوك واغرقوا فيه خصوصا منذ خلافة المعتصم (218 - 227هـ/ 833 - 842م) عندما ازدادت الرغبة في جلب الرقيق التركي (3).

---

1) عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ص 46

2) الحموي ـ معجم البلدان ـ طبعة بيروت 1955 ج 1ص 292

3) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص 606 ـ الاصطخري ـ المسالك والممالك ـ ص 291

ولم تكن الحرب وحدها مصدرا للاسترقاق عند هذه الشعوب بل اننا نجد اساليب عدائية اخس غير مشروعة مثل الاختطاف الذي كانت تقوم به عصابات تغير على الاطفال والضعفاء وتهربهم الى اماكن بعيدة لتبيعهم (1) وكان اليهود الرهادنة يختطفون الاطفال في الممالك الاوروبية ويسرقون ابناء النصارى (2) ثم يعملون على خصائهم ويبيعونهم باثمان باهضة في الاندلس (3) وكان بعض التجار المسيحيين لا يتورعون عن بيع مواطنيهم رقيقا لعرب اسبانيا وافريقيا وسوريا (4) وقد ذكر العمري ان سرقة الرقيق الصغير السن كانت موجودة بين القبائل الافريقية وان سراق الرقيق كانوا من التجار وكانوا يحملونهم الى بلدة بالحبشة لخصائهم (5) ويشير الادريسي الى ان اهل الحبشة يسرق بعضهم ابناء بعض ويبيعونهم من التجار فيخرجونهم الى ارض مصر في البر والبحر (6).

---

1) موريس لنجلي - M. Lengellé - الرق - ص 24

2) موسوعة لاروس الكبير Le Grand Larousse مادة : الرق ج 4 ص 671

3) المرجع نفسه ج 4 ص 671

4) هايد Heyd - تاريخ تجارة المشرق . ج 1 ص 125

5) الشاطر بصيلي عبد الجليل - تاريخ وحضارات السودان - ص 509

6) الادريسي - نزهة المشتاق طبعة رومة 1970 السفر 1 ص 46

وقد ساهم التجار المسلمون في هذه السرقات ايضا فمن نشاط تجار البصرة انهم كانوا يحملون التمور الى سواحل افريقيا ويتجرون فيها وكثيرا ما كانوا يخدعون بها الصبيان فيسرقونهم ويرجعون بهم الى بلاد الاسلام (1) يقول الادريسي في ذلك ((وللعرب في قلوب الزنج رعب عظيم ومهابة فلذلك متى عاينوا رجلا من العرب تاجرا او مسافرا سجدوا له وعظموا شأنه وقالوا بكلامهم هنيئا لكم يااهل بلاد التمر وان المسافرين في بلادهم يسرقون ابناء الزنج بالتمر يخدعونهم فينقلونهم من مكان الى مكان حتى يقبضون (كذا) عليهم ويخرجونهم من بلادهم الى البلاد التي يكونون بها ... وصاحب جزيرة كيش من بحر عمان يغزو بمراكبه بلاد الزنج فيسبي منها خلقا كثيرا)) (2).

ولم يكن الاسر والاختطاف المصدر الوحيد الذي يدر على على تجارة الرقيق بضاعة وفيرة وانما كانت قوانين تلك الشعوب التي يستورد منها المسلمون بضاعتهم تسمح للفرد بان يبيع نفسه او احد افراد اسرته اذا الم به الفقر واشتدت به الحاجة . وكانت الامم القديمة تعمل بهذه السنة مثل الامم الاوروبية التى استمرت هذه العادة عندها حتى نهاية القرون الوسطى فظل بيع النفس والاولاد جاريا فى فرنسا حتى القرن الخامس عشر للميلاد (3) وكان بعض التجار اليونانيين

---

1) المصدر نفسه ـ ج 1 ص 41 ـ سليمان العسكري - التجارة والملاحة في الخليج العربي ص 178

2) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ طبعة رومة 1970 ج 1 ص 61

3) ديكوجيس - H.DÉCUGIS - مراحل القانون ـ باريس 1946 ـ ص 17 ـ 18

من النخاسة يشترون ابناء اللومبارديين بايطاليا بسبب خصاصة تدفعهم الى بيع انفسهم (1) كما كان التجار اليهود يشترون ابناء النصارى من آبائهم الفقراء ويبيعونهم للمسلمين باسبانيا (2) وكانت القبائل السلافية بشرق اوروبا وكذلك قبائل التتار المستوطنة بجوار بحر قزوين او بحر الخزر تبيع ابناءها ونساءها من جراء شظف العيش وضيقه (3) وممّا يذكر عن الديلم ان ((الديلمي يخرج من الديلم الى حدود ما بين دار الاسلام والديلم ومعه امراته واخواته وعمّاته فيبيعهن صفقة واحدة ويسلمهن الى المبتاع لا تدمع عينه ولا عين واحدة من عياله)) (4) .

وقد كانت الشعوب الاسيوية لا ترى كذلك باسا باتخاذ هذا السلوك فكانت تبيع النفس والاولاد لمن يشتري قصد التخلص من شبح الفقر والمجاعة . ففي الصين مثلا كان فقراء الفلاحين يبيعون نساءهم واطفالهم لمن يسترقهم (5) وقد روى ابن بطوطة عن رحلته ((ان اهل الصين

---

1) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق ج 1 ص 96
— Cenni - Monumenta Dominationis Pontificiae - I - p. 369

2) موسوعة لاروس الكبير مادة رق ج 4 ص 671
3) الاصطخري — المسالك والممالك - القاهرة - 1961
ص 133 القلقشندي — صبح الاعشي ج 6 ص 474 و
ص 574

4) ابن القيم الجوزية — اخبار النساء — ص 68 . 69
5) ول . ديورانت Well . Durant - قصة الحضارة —
ترجمة زكي نجيب محمود و محمد بدران — القاهرة
1956 ج 4 ص 272

يبيعون اولادهم وليس ذلك عيبا عندهم غير انهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون منه اذا اختاروه)) (1) وكان مصير اللقطاء عند هذه الشعوب شبيها بمصير الاولاد المعروضين للبيع فابناء الزنا عندهم يباعون بيع العبيد (2) اما شعوب افريقيا السوداء فقد كان الفقر مستفحلا في بعضها وكانت حاجتها الى الاقوات ملحة جدا مادفعها الى بيع ابنائها مقابل التزود بالاغذية.فهذه معاهدة ((البقط)) التى عقدها المسلمون مع النوبة تنص على تزويد اهل النوبة باقوات مقابل رؤوس من الرقيق (3) وقد تواصلت عادة بيع النفس والولد عند الافارقة الزنوج الى القرن السادس عشر للميلاد وازدادت استفحالا بتشجيع الاوروبيين لها الاانهم كانوا يهدفون الى شراء اكبر عدد ممكن من العبيد فكانوا يغرون الفقراء ببيع انفسهم (4) وهكذا صار بيع النفس البشرية من جراء الخصاصة عاملا من عوامل ازدهار تجارة الرقيق .

---

1) ابن بطوطة – تحفة النظار – بيروت 1964 ص 632

2) إلول - ELLUL - ج - تاريخ موءسسات العصور القديمة - باريس مطبعة الجامعة الفرنسية (- P.U.F. -) 1961 ص 39

3) برنشفيك Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد – ج 1 ص 33

4) عبد السلام ترمانيني – الرق ماضيه وحاضره – ص 47

ويتصل بهذا المصدر من مصادر الاسترقاق عند الشعوب غير الاسلامية والمصدرة للرقيق الى بلاد الاسلام مصادر اخرى كالدين والجريمة فالدين كان يخول للدائن استرقاق مدينه وبيعه لاستخلاص حقه وترجع هذه العادة الى اقدم العصور اذ نجدها في قانون ((مانو)) بالنسبة الى الامة الهندية كما نجدها في قانون ((حامورابي)) بالنسبة الى حضارة البابليين وهي عادة يمارسها اليهود ايضا . وكان الشعب اليوناني يرى استرقاق المدين حتى تولى صولون = Solon - الحكم سنة (594 ق م) فابطل هذه السنة وحرر المدينين كما مارس الرومان هذه التقاليد باشد قسوة ونص عليها قانونهم فكان للدائن الحق في تقييد مدينه حتى صار يطلق على العاجز عن دفع دينه اسم ((نكسي)) - ((nexi)) - اي المقيد (1) وكان العرب في الجاهلية يتوخون نفس السلوك بالنسبة الى الدين والقمار (2) لكن الاسلام ابطل هذه العادة .

اما الجريمة فقد كانت ايضا مصدرا من مصادر الاسترقاق فكان المجرم يسلم للمتضرر او لاهله فيسترقه وهو امر عرف في بلاد اليونان (3)

---

1) عبد السلام ترمانيني - الرق ماضيه وحاضره ص42

2) الاصفهاني - الاغاني - القاهرة - 1929 ج 3ص 100

3) ديكوجيس - DÉCUGIS - مراحل القانون les Etapes de droit ص 17

ولون - Wallon - تاريخ الرق - Histoire de l'esclavage dans l'antiquité ج 1 ص161

عبد السلام ترمانيني - الرق ماضيه وحاضره ص 44

وفي رومة القديمة (1) وكان عقاب الجاني عند عرب الجاهلية الخلع احيانا اي الفصل من القبيلة فيعرضه ذلك للرق (2) وكذلك اليهود كانوا يعاقبون السارق بالرق (3) ونصت قوانين آشور على ذلك ايضا (4) وكان عقاب المدلس والمحكوم عليه بالاشغال الشاقة والاعدام في ظل الامبراطورية الرومانية العليا استرقاقه وكذلك كان عقاب الحرة المتهمة بمعاشرة مملوك (5) ويقاس على ذلك العقوبة المسلطة على الهارب من الجندية او من دفع الضرائب (6) وقد ذكر البكري ان اهل "صنغانة" و"تكرور" و"سلى" و"قلنبوا" و"ترنقة" وهي مدن ببلاد السودان متاخمة للنيل قد كانوا يخيرون السارق بين البيع والقتل (7)

---

1) مونيي - R - Monier - مبادئ القانون الروماني = - Manuel Elementaire de droit Romain -
باريس 1947 في جزاين ج 2 ص 140 . 141

2) الالوسي - بلوغ الارب في معرفة احوال العرب القاهرة 1924 ج 2 ص 27

3) التوراة - سفر الخروج - 22 . 3

4) كرداسيا - Cardascia - القوانين الاشورية - Les Lois Assyriennes
عن : عبد السلام الترمانيني - الرق ماضيه وحاضره ص 43

5) مونيي - R - Monier - مبادي القانون الروماني Manuel Elementaire de droit Romain
ج 1 ص 214 . 215 وص 311

6) المرجع نفسه ج 1 ص 13

7) البكري - المغرب ص 173

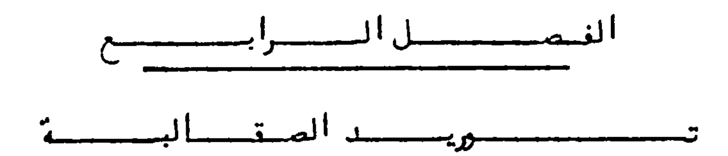
تلك هي الاوضاع التي سمحت بتوفير مادة الرقيق وتصديرها في صورة بضاعة تجارية واتاحت للمسلمين ان يجلبوها الى اسواقهم وان يتزودوا منها بحسب ما تستدعيه حاجتهم . ومن البسيط الباحث ان يتبين مما سبق من تحليل ان المجتمعات المصدّرة للرقيق كانت اكثر انهيارا وتدهورا حضاريا من المستوردة له . وهي شعوب غير موحدة ولا تستطيع حماية انفسها . فكانت علاقتها بالامبراطوريتين الاسلامية والبيزنطية علاقة الضعيف بالقوي والغني بالفقير (1) والتمدن بالتوحش فلم تكن قوانين وشرائع العالم المتحضر كالعالم الاسلامي اذاك تسمح بتلك الاساليب في استرقاق البشر بل نظمت هذه الظاهرة وحصرت مصادر الرق في الاسر في الحرب والولادة في العبودية . امّا في غيرهاتين الحالتين فان الاسلام لم يجز استرقاق الحر لاي سبب من الاسباب وامر الدائن بان يمهل اخاه المدين (2) وجعل نصيبا في بيت المال ((للغارمين)) (3) ولا نجد كذلك في الاسلام علاقة بين الجريمة والاسترقاق . فالعقاب على الجنايات والجراحات لا يتجاوز القصاص والحدّ او التعزير وبذلك ابطلت الشريعة الاسلامية عدّة مصادر للرق تواصل وجودها في حضارات اخرى .

---

1) لومبار -M-Lombard- الاسلام في عظمته الاول L'Islam dans sa première Grandeur
ص 194 : 204

2) قرآن ـ سورة التوبة ـ آية 60 ـ ابن كثير - التفسير -
ج 14 . ص 317 . 318

3) قرآن ـ سورة البقرة : آية 280



الفصل الرابع

توريد الصقالبة

1) **الصقالبـــة :**

الصقالبة جمع مفرده صقلب وصقلبي وصقلابي ونادرا ما يقال صقلاب بفتح الصـــاد اوكسرها وكذلك يبدا الاسم بالسين بدلا عن الصاد . وهي كلمة معربة عن اللفـــظ اليوناني (Σκλαβηνοί, Σκλαβοί) (1) ويطلق المسلمون هذه التسمية على الرقيـق المنتمي الى الجنس السلافي اى الى ذلك الشعب الذى استقرعلى حدود الولايـــات الشرقية التابعة للامبراطورية البيزنطية ونزل الاراضي المجاورة لبلاد الخزر بين القسطنطينية وارض البلغـــار.

ولما كانت كلمة "سلاف" تنطـق عند ابناء هذا الشعب "سكلاف" عربها العـرب صقلبي ثم اتسع مدلولها بحكم الاستعمال ولم يعد مقتصرا على الاشارة الى الجنس السلافـي بل شمل انواعا عديدة من الرقيق الاوربي . وانتقلت الكلمة العربية الى اللغات الاوروبيـــة بهذا المدلول الواسع الذى يعني الرقيق مطلقا واتضح ذلك في كلمة esclave الفرنسيـــة و slave الانقليزية و sklave الجرمانية (2)

(1) بروفنسال - Provençal - مقال صقالبة ــ دائرة المعارف الاسلامية = الطبعة العربية ص 250
بارتولـــد - Barthold - مقال سلاف-نفس المرجع ص 253
(2) جرجي زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 5 ص 26 ــ 28

اتسع اذن مدلول هذا اللفظ عند المسلمين حتى صار يدل على الرقيـــق الاوروبي اجمالا واسس يشمل الاجناس الاوروبية المجاورة للجنس السلافي وهي تلــك الاجناس القاطنة باوروبا الشرقية والوسطى والمجاورة لبلاد الصقالبة (1).

فقد سمى ابن فضلان امير بلغار الفولجا باسم ملك الصقالبة (2) كما يشير حديث الطبرى عن حملة ملك الصقالبة على القسطنطينية سنة (283هـ/896م) الى الحرب الـتي وقعت بين "سمعان" Syméon قيصر بلغار الدانوب (277 - 315 هـ/890م-927 م) والامبراطور ليو السادس - Léo - VI سنة (280هـ/893م)(3) وقد حل اسم "الروس" شيئـــا فشيئا محل اسم الصقالبة الذى كان يطلق على اهل روسيا الجنوبية الحديثة وكان نهــر الدون -Don- الذى ساد الاعتقاد زمنا بانه فرع من فروع نهر الفولجا Volga يطلــق عليه اول الامر نهر الصقالبة ثم اطلق عليه بعد اسم نهر الروس (4).

(1) برنشفيك -Brunschvig- مقال عبد بدائرة المعارف الاسلامية — الطبعة الفرنسية ج 1 ص33

(2) ياقوت معجم البلدان ج 1 ص -723- ابن فضلان — الرسالة ص 113 —
راجع أيضا - بارتولد - Barthold - مقال سلاف . دائرة المعارف الاسلامية - ط . عربية -ص254

(3) الطبرى تاريخ الامم والملوك ج 3 ص2152 — بارتولد Barthold - مقال سلاف - دائرة المعارف الاسلامية — الطبعة العربية —ص254.

(4) ابن خرداذبه — المكتبة الجغرافية العربية - ليد - 1889 - ج 6 ص154 —
بارتولد - Barthold مقال سلاف — . دائرة المعارف الاسلامية - ط - عربية - ص-254-

وازداد لفظ الصقالبة اتساعا حتى شمل شعوب الغرب الاوروبي ويتضح ذلك من خلال ما رواه ياقوت عن ابن الكلبي الذي جعل الصقالبة اخوة للروم والافرنج (1) كما يقول المسعودي في مروج الذهب ان الفرنجة والصقالبة واللومبارديين والاسبان وياجوج وماجوج والترك والخزر والبرجان والجلالقة الاسبان من احفاد يافث (2) وان اليونان والرومان والصقالبة والفرنجة وجيرانهم في الشمال يتكلمون لغة واحدة وتتالف منهم جميعا دولة واحدة (3).

ويذكر الجغرافي ابن حوقل انه في الوقت الذي اجتاز فيه شبه الجزيرة الايبيرية كان الصقالبة هناك لا يفدون من شواطىء البحر الاسود فحسب بل كانوا يفدون ايضا من كالابريا ولومبارديا ومن بلاد الفرنجة وجليقية (4)

1) ياقوت ج 2 ص 416 باتولد - Barthold - مقال سلاف - دائرة المعارف الاسلامية - ط عربية ص 255
2) المسعودي مروج الذهب ج 3 ص 66
3) المسعودي - تنبيه - المكتبة الجغرافية العربية ج 8 ص 83 - بارتولد - Barthold - مقال سلاف دائرة المعارف الاسلامية الطبعة العربية ص 255
4) بروفنسال - Provençal - مقال صقالبة - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية ص 250

هكذا اتسع اذن مدلول الصقالبة واسس يشمل الاجناس الاوروبية المختلفة ومما ساعد على هذا الشمول حرص الجغارفة المسلمين على ارجاع تلك الاجناس الى اصل واحد هو يافث بن نوح ،كما ان كثرة الرقيق الصقلبي الوارد على البلاد الاسلامية جعل اهلها يسمون الرقيق الابيض عموما باسم الصقالبة (1) فحتى الترك والخزر ادرجوا ضمن الصقالبة بوصفهم من احفاد يافث بن نوح (2) فقد كان هذا الاسم يطلق في الاندلس في عهد الرحالة ابن حوقل على جميع الارقاء البيض المجلوبين الذين يستخدمون في الجيش او يعينون في شتى المناصب في الحريم وقصور الخلفاء (3) وقد روى ياقوت عن ابن الاعرابي ان الصقلاب هو الرجل الابيض (4)

1) جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص26 ــ 28
2) الطبري ج 1 ص 211 بارتولد - Barthold - مقال سلاف ــ دائرة المعارف الاسلامية ط عربية ص 254
3) بروفنسال - Provençal - مقال الصقالبة - دائرة المعارف الاسلامية - ط. العربية - ص 240
4) ياقوت - معجم البلدان ج2 ص 416

الا انه بالرغم من اتساع هذا المدلول وشموله فانه يؤكد حقيقة واقعة وهي ان الاغلبية الساحقة من الرقيق المستورد من اوروبا قد كان يتمثل في النوع السلافي المجلوب من بلاد الصقالبة وهو ما يفسر غلبة هذا الاسم على غيره من اسماء الاجناس الاوروبية الاخرى واذ ما حدث ان جرف التيار التجاري عناصر اوروبية غير سلافية كالعناصر الافرنجية والجرمانية وغيرها (1) فان نسبتها قد كانت ضئيلة بالقياس الى ما يستورد من رقيق صقلبي الجنس ، فمن اين يرد هؤلاء الصقالبة اذن على وجه التحديد ؟

1) جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 26 _ 28

ج) بلاد الصقالبة

يحدد الجغرافيون العرب بلاد الصقالبة بالاراضي المجاورة لبلاد الخزر بين القسطنطينية وارض البلغار (1) ولعل ادق المعلومات عن هذه البلاد قد وردت في كتب مسلم بن ابي مسلم الجرمي او الخرمي وهو اسير مسلم وقع في ايدي الروم واراد الواثق بالله(227-232هـ/842-847م)فداءه سنة (231هـ/846م)لكنه ابى الاعتراف بخلق القرآن وعدم رؤية الله في الاخرة فلقي عذابا من اجل ذلك، وقد الف كتبا في تاريخ الروم والاغريق وملوكهم ورؤساء جنودهم ومختلف المسالك المؤدية اليهم والممالك المجاورة لهم مثل البرجان والابار Abares والبلغار والصقالب والخزر وغيرهم وقد قضى ثماني سنين اسيرا لدى الروم ثم اطلق سراحه سنة (230هـ/845م)ونقل عنه ابن خرداذبة ان بلاد الصقالبة تقع غربي مقدونية (2)

1) بروفنسال - Provençal - مقال صقالبة ـ دائرة المعارف الاسلامية - طبعة العربية ص 250
2) دي ساسي - De Sacy - تقديم التنبيه والاشراف - ذيل مروج الذهب ج 9 ص 357_358
ابن خرداذبة ـ المكتبة الجغرافية العربية ج 6 ص 105 س 15
بارتولد - Barthold - مقال السلاف - دائرة المعارف الاسلامية الطبعة العربية ص 255

وقد وضع المسعودي في مروج الذهب "عش " الصقالبة بين

بلاد البرجان وبلاد اليونان (1) وذكر ان قسما كبيرا من

هذا الشعب قد نزل ضفاف الدانوب (2)

ونجد اوفى المعلومات المدونة عن الصقالبة باوروبا في رحلات

اليهودي الاندلسي ابراهيم بن يعقوب سنة (354هـ/965م) وهي

معلومات سجلها البكري وورد فيها ان الصقالبة كانوا يقيمون على

البحر الادرياوي Adriatique وانه كان على حدود اراضي الصقالبة

في الشمال الشرقي بلاد الامير البولندي مشقة (Mieszko)

ما بين سنتي(348-382هـ/960م و 992م) تقريبًا وهو جار الروس والبروسيين (3)

ولا يذكر الادريسي بلادا للصقالبة الا في شبه جزيرة البلقان (4)

اما ياقوت فيذكر في معجمه ان الصقالبة يتاخمون بلاد الخزر

في اعالي جبال الروم وانهم يسكنون المناطق الواقعة بين البلغار والقسطنطينية (4)

1) المسعودي مروج الذهب ج 4 ص 38 وما بعدها بارتولد Barthold - مقال سلاف دائرة المعارف الاسلامية الطبعة العربية ص 255

2) المسعودي - المكتبة الجغرافية العربية ج 8 ص 183 بارتولد Barthold - مقال سلاف دائرة المعارف الاسلامية ص 255

3) البكري الممالك والمسالك ج 1 ص 606 وما بعدها - بارتولد Barthold - مقال - سلاف - دائرة المعارف الاسلامية الطبعة العربية ص 255

4) الادريسي جغرافية الادريسي Geographie d'Edrisi ترجمة A. Jaubert باريس 1836/1840 ج 2 ص 286 - بارتولد Barthold - مقال سلاف - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية ص 255

5) ياقوت — معجم البلدان ج 2 ص 416

وخلاصة القول ان الصقالبة كانوا يجلبون من بلاد الغابات
في اوروبا الوسطى والشرقية وهم اجناس سلافية كانت تحتل في هذا
العصر اى من القرن الثامن ميلادي الى القرن الحادي عشر ميلادي
المناطق الاوروبية التي زحفوا اليها بعد الهجرات الجرمانية نحو
الغرب ، وقد كانت هذه الهجرة في القرنين الثالث والرابع للميلاد
ففي الغرب الاوروبي كان الصقالبة يمتدون الى مناطق الآلب والصال
"L'Elbe et La Saale" وجبال الالب الشرقية واستري "L'Istrie"
ودلماسيا Dalmatie والبلقان "Balkan" وكذلك بلوبونيز "Péloponnèse"
التي اطردوا منها بعد القرن السادس الميلادي ، اما في الشرق الاوروبي
فيحتلون منطقة حدودها الغابة الكبرى الشمالية La Grande Forêt Nordique
اي الدنيبر الاعلى Haut-Dniepr والدون الاعلى Haut-Don والفولجا العليا
Haute Volga مع امتداد قليل نحو السهول التي تلتقي فيها مجموعات
البوليان Polianes مع الدرافليان Drevlianes وتوجد وراء بلاد
الصقالبة الشعوب الفنلندية الى البلطيق وهذه المنطقة ايضا
يعتبرها الجغرافيون العرب ارض الصقالبة .

وقد كان الصقالبة يعيشون حياة غابية ونهرية فيتعاطون الصيد البري والبحري ويعيشون على الثمار وكانوا في قبائل لا وحدة بينها لكن امرهم تغير بعد ذلك في القرن الرابع للهجرة اذ تجمعوا في شكل دول في جهتين الاولى في بوهيميا Bohême والثانية في بولونيا Pologne (2)

1) ادم متز- A. MEZ. الحضارة الاسلامية - الترجمة العربية ج 1 ص 301
نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي - ص 114 _ 115
جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 194
2) موريس لومبار- Maurice Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص194_204

3) الرقيــق الصقلبي قبل القرن الثالث للهجرة

لقد عرف المسلمون الرقيق الصقلبي في اسواقهم الداخلية قبل هذا العصر ومنذ عهود الفتح الاولى. ولا ريب في انهم قد حصلوا على رؤوس من اسرى الصقالبــة خلال فتوحاتهم ، فقد تعرف العرب منذ القرن الاول للهجرة على هــؤلاء الصقالبــة في معاركهم مع الــروم ومما يــروى في هذا المجال ان مسلمــة ابن عبد الملك قد استولى في حملتــه على القسطنطينية (٩٧-٩٩هـ/715م/717م) على مدينــة الصقالبــة بعد اجتيازه حدود الروم كما اتصل العرب ببعــض السلاف وهم يستقرون في مملكــة الخزر بين جبال القوقاز ومجرى الفولجا الاسفل ويقال ان عشرين الف من الصقالبــة قد نقلوا في عهد الخليفــــة هشام بن عبد الملك (105-126هـ/724م/743م) من ارض الخزر الـــــى " خاخيط " نقلهم اليها مروان بن محمد الذي صار بعد ذلك مروان الثاني (127-132هـ/744-750م) لكنهم قتلوا اميرهم وهربوا فلحقهم وقتلهم (1) ومما يعــرف عن هؤلاء الصقالبــة في عهد الخليفــة المنصور (131-158هـ/754م/775م) انهم كانوا من بين المستعمرين الذين نزلوا حدود الروم في قيليقية (2).

1) بارتولد. Barthold. مقال سلاف ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ الترجمة العربية ص 253

2) البلاذري - فتوح البلدان - ص 166 بارتولد - Barthold - مقال سلاف ص 253

لاريب اذن في ان هذه العلاقات قد ادت من قريب او بعيد الى سقوط بعض الاسرى الصقالبة في ايدي الفاتحين والى استرقاقهم وبيعهم في الاسواق الداخلية ، ولا ريب ايضا في ان ارقاء من هذا الجنس قد وافوا البلاد الاسلامية عن طريق الجلب من البلاد الاوروبية فتيار تصدير الصقالبة من اروبا الى موانى المسلمين قد كان سابقا للقرنين الثالث والرابع للهجرة وان كان لم يشهد نشاطا حثيثا الا ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة .وقد سبق ان بينا ان هذا التيار قد كان موجودا قبل الاسلام وانه كان يرتاد بلاد الشرق التابعة اذاك للدولة البيزنطية فلما احتل المسلمون تلك البلاد شهد هذا التيار فتورا بحكم ظروف الفتح واستغناء المسلمين عن توريد هذه البضاعة ، الا انه لم ينقطع بصورة تامة وانما كانت الاعداد من رقيق الصقالبة تستورد بين الفينة والاخرى او تهدى من ملوك اوروبا وبيزنطة الى الخلفاء المسلمين

.../...

وقد اورد صاحب كتاب الاغاني اخبارا تدل على وجود بعض الرقيق الصقلبي بايدي المسلمين منذ العهد الاموي ومن تلك الاخبار ما يروى من ان احد قواد الخليفة هشام بن عبد الملك قد قصد المدينة في موسم الحج مصحوبا بغلامين صقلبيين . (1)

1) الاصفهاني ــ كتاب الاغاني ـ طبعة بيروت ـ 1955 - 1964 ج 4 ص 290 ـ 291

4) تجارة الصقالبة في القرنين الثالث والرابع للهجرة

أ. مصادرها :

ان مصادر هذه التجارة تتمثل في نزوح النرمان او الشعوب الاسكنديناقية من سويديين ودانماركيين ونورفجيين نحو الجنوب والغرب خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة والحروب التي انتجها هذا النزوح بين النرمان والكارولنجيين وهي حروب اسفرت عن انشاء مقاطعة دوقية نورمانديا Normandie وتواصل تسربهم الى ايطاليا وكذلك الحروب بين السويديين والقوط وهي حروب تواصل دوامها الى القرن 13 م وكانت جرمانيا Germanie كذلك مسرحا لهذه الحروب بين تلك الامم النازحة من الشمال والمستقرة في الجنوب الاوروبي (1) .

وقد تسبب نزوح الشعب البلغاري من جنوب روسيا الى اوروبا الشرقية في حروب مع العناصر السلافية اذ نشط زحف البلغار وخصوصا في عهد كروم Kroum (186 هـ/ 802 م) وشمل السلافيين القاطنين بسهل

1) لويس هالفن - L. Halphen - البرابرة Les Barbares ص 300 ـ 320

.../...

تيموك La vallée du Timok وفالاشيا وبنات La valachie et Banat

وكذلك سهل كوروس La vallée du Körös وامكن ايضا لهؤلاء البلغاريين تهديد

القسطنطينية بين سنة (196 هـ / 811م) و(198 هـ / 813م). اما حروب

البلغار والسلاف فقد اشتدت خاصة من سنة (216 هـ / 831 م) الى

سنة (238 هـ / 852م) وقد استهدف السرب والكروات Serbes et Croates

وغيرهم من السلاف لهذه الحروب .

وهكذا تمخضت هذه الوقائع عن نشاة الامبراطورية البلغارية (1)

وكانت هجرة الشعب المجري من مناطق آسيا تحت ضغط العرب

والخزر والبتشناك Les Petchénègues في هذه الفترة ايضا

اي ابتداء من القرن التاسع للميلاد واصطدموا في نزوحهم الى شرق

اوروبا بالعناصر السلافية فدارت بين الشعبين حروب متوالية خصوصا

في القرن العاشر للميلاد. ولعل السلوفاك والموراف Slovaques et Moraves

هم الذين تعرضوا اكثر من غيرهم لهجومات المجريين .

1) المرجع نفسه ص 323 _ 333

.../...

ولم يكتف المجريون بهذه الهجومات وما احرزوا خلالها من غنائم

بل زحفوا على ايطاليا والمانيا ايضا .

ولم يوقفهم في زحفهم هذا الا اتون الاكبر Otton Le Grand

ملك جرمانيا بانتصاره عليهم في معركة لاشفلد Lechfeld (1)

وقد اسفرت هذه الحروب عن اعداد ضخمة من الاسرى فكانت

الجيوش المتغلبة كالجيوش الالمانية والافرنجية وغيرها تبيع اسراها

في الاسواق فيشتريهم النخاسون وينقلونهم الى العالم الاسلامي (1)

ب- طرقها :

كانت تجارة الرقيق الصقلبي تسلك طرقا معينة في اتجاهها

نحو الاسواق الاسلامية وتتفرع .هذه الطرق نحو ثلاثة اتجاهات رئيسية

اتجاه غربي يخترق بلدان اوروبا الغربية نحو الاندلس والمغرب

الاسلامي برا وبحرا واتجاه شرقي ينطلق من اوروبا الشرقية ويمر ببلاد

1) بروفنسال Provençal- مقال صقالبة — دائرة المعارف الاسلامية — الترجمة العربية ص 250 -الاصفهاني -الاغاني -ج 2 هامش صفحة 227

.../...

الخزر وعلى المنطقة السفلى من الفولجا Basse-Volga ويتصل بالشرق الاسلامي. واتجاه ثالث يجتاز جنوب البلاد الاوروبية عن طريق مدن ايطاليا وموانئها ويتصل بحرا بموانئ العالم الاسلامي بافريقية ومصر وسوريا(1) فقد كان الرقيق الصقلبي اذن يصل الى العالم الاسلامي من طرق ثلاث كما كانت هنالك متاجرة بهذا الرقيق داخل العالم الاسلامي وبين اقاليمه الغربية والشرقية وبذلك تغلق الدورة وتتم الحلقة (2) .

- الطريق الاولى :

اما بخصوص الطريق الغربية فقد كان التجار الافرنج وخاصة اليهود ينقلون هذه البضاعة عبر المانيا وفرنسا الى اسبانيا الاسلامية فهم ينطلقون بها من بوهيميا Bohême حيث توجد براغ Prague مركزا للخصاء ويذهبون بها الى راتسبونة Ratisbonne او ينقلونها من الاسواق الجرمانية بالالب والصال L'Elbe et La Saale مرورا بفردن Verdun

1) مروبس لومبار - الاسلام في عظمته الاولى ص 194 ـ 204 ظهر الاسلام ج 1 ص 130 لاحمد امين

2) كلود كاهان - التجارة في العالم الاسلامي في عهده الذهبي - ص 36

Cl. Cahen - Le Commerce dans le Monde Musulman à son Apogée
UNEF. FGEL. Année - 1968-74 - p 36

- الشعوب الاسلامية في التاريخ الوسيط - ص 338

- Les Peuples musulmans dans l'Histoire Médiévale
Damas - 1977 - p 338

.../...

وهي سوق للرقيق ومركز هام للخصاء ايضا. ويعبرون بها اثر ذلك نهري الصاون Sâone والرون Rhône ويجتازون مدينة ليون Lyon حيث يوجد اليهود الرهادنة وقد ذكر الاسقف اجوبارد = AGobard اسقف مدينة ليون ان بعض اليهود كانوا يشترون ابناء الفرنسيين من ابائهم ويبيعونهم للمسلمين في اسبانيا (1) ثم من ليون يمر الرقيق الى آرلس Arles ثم الى نربونة Narbonne وهكذا يخترق اقليم قطلونية الى ان يصل الى ثغر بجانة باسبانيا او ينقل مباشرة عن طريق البحر الى مصر وسوريا (2) .

وقد ذكر الجغرافي ابن حوقل انه في الزمن الذي اجتاز فيه شبه الجزيرة الايبرية اي في القرن الرابع للهجرة كان الصقالبة هناك لا يفدون من شواطيء البحر الاسود فحسب بل كانوا يفدون ايضا من كالابريا ولومبارديا ومن بلاد الفرنجة وجليقية (3)

1) ادم متز-الحضارة الاسلامية ج 1 ص 301 احالة رقم 1
2) موريس لومبار- الاسلام.... ص 194 _ 204 ارشيبالد لويس السيادة ص 82 _ خوان بيرنيط- هل هناك..... ص 73- زيدان - تمدن ج 4 ص 194 _ 195 برنشفيك- Brunschvig - مقال عبد - دائرة المعارف الاسلامية - ج 1 ص 33
3) بروفنسال- د - م-الاسلامية _ الطبعة العربية _ مادة صقالبة _ ص 250

.../...

كما ذكر الحميري في الروض المعطار متحدثا عن افرنجة انها متصلة من ناحية الشرق ببلاد الصقالبة وان الرقيق الصقلبي المجلوب الى الاندلس يمر بها (1)

وكان التجار الناقلون لهذا الرقيق يتبعون طريقا تجارية برية في اوائل القرن الثالث للهجرة وهي التي تجاري وادي الرون مارة بلانجيدوك Languedoc الى الحدود الاسبانية ومن الطريف ان نلاحظ ان الطريق البحرية المؤدية الى اسبانيا لم تستخدم في هذه الحقبة لتجارة الرقيق ولم يقع استعمالها ايضا في منتصف القرن الرابع للهجرة(2)

ويمكننا ان نتصور من خلال وصف ابن خرداذبة للمسالك التجارية التي كان يمر بها اليهود الرهادنة في رحلاتهم من الغرب الى الشرق الطرق التي كانت ينقل بها الرقيق على ايديهم من البلاد الاوروبية الى البلاد الاسلامية ، فقد ذكر هذا الجغرافي انهم لم يكونوا يتوخون طريقا برية فحسب وهي التي تمر من بروفانس الى الاندلس الى طنجة الى المغرب ثم الى الشرق الاسلامي (3) وانما كانت لهم طرق بحرية تصل

1) الحميري - الروض ص 26
2) ارشيبالد لويس - السيادة ... ص 82 _ 83
3) هايد Heyd ج 1 ص 43 _ 44 _ حسن ابراهيم حسن - تاريخ الدولة الفاطمية - ص 608

.../...

بين بروفانس واشهر المواني الاندلسية كميناء المرية (1) كما تتصل بانطاكية ثم تمتد عن طريق الفرات الى بغداد (2) كما كانت سفنهم ترسو بمصر الفاطمية في ميناء الفرما وهي من اهم المواني التجارية في ذلك الحين ومنها يحملون بضاعتهم الى القلزم او الاسكندرية ومنها الى الفسطاط والقاهرة عن طريق النيل (3)

- الطريق الثانية :

وكانت الطريق الثانية التي تسلكها تجارة الرقيق الصقلبي تذهب من غرب البلاد الاوروبية التي كانت كثيرة الانتاج لهذه البضاعة بسبب حروبها مع الالمان وتتجه نحو الشرق مارة بمدينة براغ وبولونيا و روسيا وهذه الطريق هي التي سلكها الربي بتاحيا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وكانت مدينة براغ هي اول هذه الطريق لكنها كانت مركزا لتجارة الرقيق في القرن العاشر الميلادي وقد اضطر. القديس ادالبرت Adalbert بمدينة براغ سنة (380 هـ / 989 م) الى اعتزال

1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد ص 33
2) ابن خرد اذبة. المسالك والممالك ص 154 _ 155 حسن ابراهيم حسن - الدولة الفاطمية ص 608
3) ابن خرد اذبة. المسالك والممالك ص 153 _ حسن ابراهيم حسن. الدولة الفاطمية ص 608
برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد ص 33

.../...

منصبه الاسقفي لانه لم يستطيع ان يعتق جميع المسيحيين الذين

اشتراهم تا جر رقيق يهودي (1)

ويتجه تيار تصدير الرقيق الصقلبي بعد اجتيازه للشرق الاوروبي

نحو بلاد الخزر على المنطقة السفلى من نهر الفولجا الى ان يصل الى

ضفاف بحر قزوين حيث توجد مدينة "اتل" عاصمة الخزر فيباع ذلك

الرقيق باسواقها.

وكانت هذه المدينة تعتبر في ذلك العصر من اكبر اسواق الرقيق

العالمية يقصدها التجار المسلمون والروس والروم والبلغار والخزر واليهود

وبها جاليات مختلفة الاديان من نصارى ويهود ومسلمين. وكانت بها

مقادير كبيرة من الرقيق الصقلبي المجلوب اليها من بلاد الصقالبة على

ايدي الروس والبلغار وغيرهم، وقد ساهمت تجارة الرقيق في ازدهار

هذه المدينة اقتصاديا لان النخاسين كانوا يدفعون بها المكوس على

ما يجلبونه اليها من هذه البضاعة(2)

1) ادم متز A.MEZ-الحضارة الاسلامية ج 1 ص 301 ـ 302 - ف

2) موريس لومبار M.Lombard-الاسلام في عظمته الاولى ص 194 ـ 204

فرحات الدشراوي - الخلافة الفاطمية بالمغرب - ص367- 370

.../...

وقد اشار ابن فضلان الى هذا المركز التجاري الواقع على " نهر اتل "

وقال عنه انه " موضع سوق تقوم في كل مديدة ويباع فيها المتاع الكثير

النفيس " (1) ومن المتاع النفيس الرقيق طبعا ، كما اشار الى الجاليات

المقيمة بها والمشتغلة بالتجارات فقال (ولملك الخزر مدينة عظيمة

على " نهر اتل " وهي جانبان في احد الجانبين المسلمون وفي الجانب الاخر

الملك واصحابه . وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له "خز" وهو

مسلم . واحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين اليهم في التجارات

مردودة الى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في امورهم ولا يقضي بينهم غيره) (2)

وقد ورد وصف هذه المدينة ونشاطها التجاري والجاليات المستوطنة

بها عند كل من المسعودي والمقدسي بصورة دقيقة وقد جاء وصف المسعودي

لها في مروج الذهب مؤرخا بسنة (332هـ/944 م) فقد قال : (وفي مدينة

اتل عاصمة الخزر مسلمون ونصارى ويهود وجاهلية ، فاما اليهود فالملك

وحاشيته والخزر من جنسهم وكان ملك الخزر قد تهود من خلافة الرشيد

وانضاف اليه خلق من اليهود جاؤوا اليه من سائر بلاد المسلمين ومن بلاد

1) ابن فضلان - الرسالة - ص 136
2) المصدر نفسه - ص 172

.../...

الروم وذلك لان ملك الروم في وقتنا هذا لي سنة 332 هـ-وهو ارمنوس-حمل من كان في بلاده من اليهود على اعتناق النصرانية بالقوة ، واما الجاهليـة فاجناس منهم الصقالبـة والروس ... وليس في ملوك الشرق بهذا الصقـع من له جند مرتزقـة غير ملك الخزر ويتكون هذا الجند من عبيد مـن الصقالبـة والروس. وفي اتل خلق من المسلمين تجار وصناع (1) .

كانت اذن هذه المدينة طبقا لشهادات هؤلاء الرحالة المسلمين محطة هامـة من المحطات التي يتجمع بها الرقيق الصقلبي وسوقا تـروج بها هذه البضاعـة قبل موافاتها الى اسواق البلاد الاسلاميـة ونحن نجد عـند المقدسي ايضا ما يدعـم قول المسعودي وابن فضلان ويبرز دور هذه المدينـة في تجارة الرقيـق (2)

وكانت مدينة " اتل " توزع بضاعـة الرقيق في اتجاهين احدهمـا عن طريق الـبر الى مدينـة باب الابواب او دربند Derbend وارمينيـة حيث يوجد مركز لخصاء الرقيق (3) وقد كانت مدينة الباب هذه من اسـواق

1) المسعودي - مروج الذهب — عن = اسكندر صابيل A.Seipel اخبار امم المجوس ص 60_64
2) المقدسي - احسن التقاسيم.عن =اسكندر صابيل A.Seipel اخبار امم المجوس ص 76
3) موريس لومبار-M. Lombard-الاسلام في عظمته الاولى ص 194 _ 204 د-و-ج -صورد ال D.--Scurdel حضارة الاسلام-ص 317 _ 323 .

.../...

الرقيق العالمية ايضا في ذلك العهد وكانت بها جاليات تجارية اسلامية
ويهودية ونصرانية وكانت خاضعة لسلطان الخزر. وقد وصف لنا ابن سعيد
المغربي (610-685هـ/1214-1286م) هذه المدينة واشار الى تخريب الروس لها
فقال (ومدينة الباب هي قاعدة سلطنة الباب وهي ثلاث قطع على نهر اتل
الكبير عند مصبه في نهر طبرستان. فالقطعة الجنوبية كانت للمسلمين
والقطعة الشمالية كانت لليهود والنصارى والمجوس والقطعة التي في الجزيرة
كانت لخاقان الخزر وكان يهوديا ثم خربها الروس وازالوا سلطنة الخزر
منها)(1).

واما ثاني هذين الاتجاهين فيمر عن طريق بحر الخزر الذي شهد
في هذا العهد نشاطا تجاريا كبيرا وكان له دور هام في رواج تجارة الرقيق
بين العالم الاوروبي والعالم الاسلامي وبعد اجتياز هذا البحر تصل بضاعة
الرقيق الى طبرستان ثم الري ثم بغداد (2) .

1) ابن سعد المغربي ـ بسط الارض في طولها والعرض- عن= اسكندر صابيل - A. Seippel
اخبار امم المجوس ص 101
2) موريس لومبار M. Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص 194 ـ 204

.../...

ولم تكن هذه الطريق هي المسلك الوحيد الذي تعبر منه تجارة الرقيق الصقلبي نحو الشرق الاسلامي بل كانت هذه التجارة تعبر مسالك اخرى فتتوخى طريق بلغاريا الكبرى وهي التي تمر ببلغار الكائنة عند ملتقى نهري الفولجا volga والقاما - Kama - والمجاورة لبلاد الصقالبة ويؤدي هذا الطريق الى اقليم جيحون ويعبر الفيافي الى ان يصل الى خوارزم ومناطق آسيا الوسطى حيث توجد اسواق الرقيق السامانية مثل سوق جرجانية urgendj الواقعة جنوبي بحر آرال Aral وسوق سمرقند وبخارى وهما مركزان للخصاء، ثم يصل الرقيق بعد مغادرته لخوارزم عبر آسيا الوسطى الى ايران ثم العراق وهكذا يمر من سوق الى آخر عبر كامل الشرق الاسلامي (1).

وقد كان دور السامانيين هاما جدا في هذه التجارة ويمكننا القول بان تجارة الامارة السامانية كانت اذاك قائمة اساسا على توريد الرقيق وقد وجدت نقود سامانية كثيرة على ضفاف الانهار الروسية وهي نقود

1) موريس لومبار -M.Lombard- الاسلام في عظمته الاولى ص 1943 _ 204 المقدسي - احسن التقاسيم ص336-340- آدم متز - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300 ... د - و - ج صوردال Sourdel - D.Et-J حضارة الاسلام ص 317 _ 323

.../...

قد كانت تصرف على قوافل الرقيق (1) وكانت سمرقند اكبر سوق لهذا الرقيق وهي مشهورة بان خير رقيق ما وراء النهر ما كان من تربيتها وقد وصف ابن حوقل اهل سمرقند بالجمال وحسن التعهد لانفسهم وتفوقهم على اهل خراسان في هذا المجال (2) ولذلك اشتهرت بلادهم بحسن اشرافها على تربية الرقيق وتهذيبه فكان الناس فيها يتخذون من هذه التربية صناعة لهم يعيشون منها مثلما كان يفعل اهل "جنيف" و"لوزان" في عصور متاخرة (3) .

1) موريس لومبار -M. Lombard- الاسلام في عظمته الاولى ص 194 _ 204
2) ابن حوقل - صورة الارض - الترجمة - ج 2 ص 474 آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300
3) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300

.../...

- الطريق الثالثة :

واما الطريق الثالثة فتنطلق من جنوب البلاد الاوربية وتمر عبر مدن ايطاليا وموانئها. فقد كان الايطاليون في شتى عصورهم ملاحين حاذقين وتجارا ماهرين. وكانوا يتاجرون مع العالم البيزنطي والعالم الاسلامي على حد السواء، واذا ما كانت تجارتهم قد تعطلت في فترات بسبب الحروب مع اللومبارديين ومع العرب فانها قد تواصلت في غير هذه الظروف ، بل ان فترات الهدنة العديدة بين المسلمين والروم في جنوب ايطاليا قد مكنت من ازدهار النشاط التجاري بين الطرفين فقد اعلنت افريقية الهدنة مع الروم منذ ولاية محمد بن مقاتل العكي (181 هـ/ -797 م 184 هـ/ - 800 م). وواصل الاغالبة في بداية عهدهم سياسة هذا الوالي في المهادنة رغم غضب الفقهاء وحثهم على قتال الكفرة ، وكان الهدف من هذه السياسة هو المحافظة على المصالح التجارية. وقد واصل الاغالبة هذه السياسة طيلة ربع قرن من الزمان واستطاعوا بفضلها ان يحموا الطريق التجارية التي تربطهم بالكارولنجين من خطر الروم. وقد حلل الاستاذ محمد الطالبي سياستهم هذه احسن تحليل وشرح الاسباب التي حملتهم على عقد مهادنة مع جرجير بطريق صقلية وتجديد مدة هذه المهادنة في عهد ابراهيم الاول ثم في عهد ابي العباس عبد الله الاول (196 هـ/ - 812 - م) (201 هـ/-817 - م) ووصف لنا كيف بقيت هذه المهادنة نافذة المفعول الى سنة (212 هـ / -827 م) وكيف ضمنت تنقلات التجار بين الجانبين المسيحي والاسلامي. كما كان الادارسة في بداية

.../...

القرن الثالث للهجرة مهادنين الروم وقد عقدوا مهادنة مماثلة مع البطريق جرجير سنة (-197- هـ/ 813م) (1).

كانت العلاقات التجارية اذن قائمة في هذا العصر بين العالم الاسلامي وايطاليا ولم تكن الحروب والغزوات لتعطلها الا بصورة مؤقتة فكانت السفن الايطالية ترسو بشمال افريقيا والسواحل الشرقية بسوريا وغيرها من بلاد الاسلام ، ونشطت بفضل ذلك العمليات التجارية ومن بينها تصدير الرقيق.

وترجع ممارسة الايطاليين لهذه التجارة الى اواسط القرن الثاني الهجري اي القرن الثامن الميلادي (2) اذ بدات اوروبا الكارولنجية منذ ذلك الحين تتزود عن طريق ايطاليا ببضائع الشرق وكانت افريقية تقوم بدور الوسيط في نقل تلك البضاعة (3) وتتلقى مقابل ذلك رقيقا من المدن الايطالية وخاصة منها

1) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص 396
المالكي - رياض النفوس ج 1 ص143 _ 144 ابو العرب - طبقات علماء افريقية ص 58 - القاضي عياض - ترجمة البلهلول بن راشد (رقم 4 - من المدارك)
2) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص 396
3) دوهارد - البحر الابيض المتوسط والاقتصاد الغربي .. (3) R. Doehaerd - Mediterranée et économie occidentale pendant le haut Moyen Age - Cahiers d'Histoire mondiale I - 1954 - P. 584

.../...

مدينة البندقية ولدينا وثائق تشهد بان التجار البنادقة كانوا يذهبون الى رومة لشراء الرقيق ثم يبيعونهم بافريقية بعد ذلك (1) هناك اذن تيار تجاري منذ ذلك العهد يستعمل فيه الرقيق عملة صالحة للمعاملات ومما يؤكد وجود هذا التيار التجاري ان الوفد الذي ارسله الادارسة لعقد هدنة مع البطريق جرجير في صقلية سنة (197 هـ/813م) قد سافر في بواخر البندقية وقد جاء ذلك في الرسالة التي ارسلها البابا ليون الثالث الى شارلمان بتاريخ (11 نوفمبر 813 م) فقد كانت هذه العملة من العهود مستعملة بين ايطاليا المزودة لاوروبا ببضائع الشرق والمغرب الاسلامي المستورد للرقيق (2).

كما ادت سيطرة المسلمين على صقلية وعلى العديد من المدن الايطالية في القرن الثالث للهجرة الى مزيد من الازدهار في تجارة الرقيق فقد كان للتحالف الذي عقده مسلمو صقلية مع مدن شاطئ كامبانيا اثره في هذه التجارة ، وذلك ان معظم ايطاليا الجنوبية كان خاضعا

1) هايد W. Heyd - تاريخ تجارة الشرق - ج1 ص 95-96 — L.Duchesne - Liber Pontificalis - p 581

2) الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 396 — C-Cenni - Monumenta Dominationis Pontificiae T.2. p:79

لامراء بنفت BENFENT اللومبارديين في حين قامت في جزء منها جمهوريات

ايطالية صغيرة هي نابولي Napoli وجيتا Goëte وسلرنو - Salerno -

و امالفي Amalfi وكانت هذه الجمهوريات تابعة اسميا للدولة البيزنطية

ولكنها كانت بالفعل مستقلة عنها ولذلك كانت تسعى الى المحافظة

على استقلالها امام مطامع امراء بنفت. ولما كانت هذه الجمهوريات الصغيرة

لا تتوقع ان تقدم لها الدول المسيحية اي مساعدة فقد عمدت الى

التحالف مع المسلمين في صقلية. وكانت نابولي اول جمهورية ايطالية

تتحالف مع مسلمي صقلية في عام (215 هـ/ 830 م) اوعام (220هـ/ 835م)

اوعام (222 هـ/ 837 م) ودام هذا التحالف ما يقرب من خمسين عاما

على الرغم من لعنات الكنيسة واحتجاجاتها. وقد لبى الامير ابو ~~الاغلب~~

الاغلب ابراهيم بن عبد الله والي صقلية نداء اهل نابولي فارسل اليهم

اسطولا لمساعدتهم عندما حاصرهم امير بنفت اللومباردي (سيكاردوس) (1)

Sicardus وهكذا صارت مدن كامبانيا مثل نابولي اوثق اتصالا بحكم هذا

الحلف بجيرانها المسلمين من البندقية. وكان اتحادها معهم اكثر من

انفصالها عنهم ولم يكن هذا الحلف دفاعيا فحسب بل كان تجاريا ايضا

ولذلك ساهمت تلك المدن مساهمة فعالة في القيام بعمل النخاسين

1) عبد العزيز سالم واحمد مختار العبادي- تاريخ البحرية - ص131 _ 135

.../...

وتصدير الرقيق الى المسلمين وتبادلت معهم بضائع اخرى كالمنسوجات المحلية او المستوردة من القسطنطينية لقاء زيت الزيتون وبضائع شرقية متنوعة (1) .

استغلت اذن هذه المدن الواقعة على ساحل البحر التيرابي حريتها وانفصالها عن الهيمنة البيزنطية لتمارس هذه التجارة مع العالم الاسلامي . ففي هذه الفترة كانت سلرنو الخاضعة للامراء اللومارديين وكذلك جمهوريات امالفي ونابولي وجايتا المستقلة عن الامبراطور الروماني تغتنم الفرصة لتتاجر مع العرب اعداء الروم وكانت مثل الامارات اللومباردية تتحالف مع المسلمين المستقرين بجنوب ايطاليا لمصالح تجارية ، فكان تجار نابولي يشترون اللومبارديين ويبيعونهم رقيقا للمسلمين الواقعين على الضفة الجنوبية من البحر المتوسط ويدل على ذلك نص معاهدة السلم التي عقدها امير بنفت المسمى سيكارد Sicard مع مدينة نابولي سنة (221 هـ / 836 م) اذ شرط فيه الامير على اهل نابولي ان لا يشتروا احدا من اللومبارديين

1) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية ص 79 _ 80 وص 27

.../...

والا يبيعوه لبلاد ما وراء البحر ، ولا مجال للشك اذن في ان مدينة نابولي قد كانت اذاك تصدر الرقيق الى العالم الاسلامي وتستورد منه بضائع اخرى من انتاجه (1) .

وكانت مدينة امالفي كذلك متصلة تجاريا بالعرب في شمال افريقيا ومصر اذ نلاحظ حضور تجار هذه المدينة بافريقية في عهد الاغالبة حوالي سنة (256 هـ/ 870م) (2) كما نجدهم يحدثون عقد مبادلات مع مصر بعد ذلك بحوالي مائة سنة اي عام (-362 هـ/ 973م) (3) وكانت هناك ايضا علاقات تجارية بين امالفي وانطاكية ترجع الى القرن الثالث للهجرة اي التاسع للميلاد (4) لكن تجارة امالفي بدات تتدهور منذ نهاية القرن الرابع للهجرة وبداية القرن الخامس اذ فقدت استقلالها واحتلها

1) هايد Heyd ج 1 ص 98_99
2) من هؤلاء التجار فلوروس . Florus وقد كان بافريقية سنة (- 360 هـ/ 871 م) عندما قرر الامير الاغلبي محمد بن احمد غزو مدينة سلرنو Salerno (عن هايد - Heyd - ج 1 ص 99)
3) المرجع نفسه
4) المرجع نفسه ج 1 ص 104 احالة رقم 1

.../...

جيمار الرابع Guaymar IV اميرسلرنو اللومباردي وعندما استنجدت المدينة بالدوق النورماندي روبرت جسكار - Robert Guiscard انتزعت حريتها تماما وانصهرت في المملكة النورماندية واضمحلت تجارتها مع بلاد الشرق (1) .

وكانت مدينة باري Bari تقوم بنفس الدور التجاري مع مسلمي مصر وسوريا وقد ذكر بيير لارميت Pierre L'ermite عند عودته من الحج الى البقاع المقدسة اواخر القرن الرابع للهجرة انه وجد على الساحل السوري سفنا تجارية تابعة لمدينة باري فاستقلها ورجع الى بلاده (2) وقد ازدادت هذه اللحمة متانة بين اهل باري والاسواق الاسلامية عندما خضعت هذه المدينة من سنة (227 ه/ 842م) الى سنة (257 ه/ 871 م) لسلطان المسلمين وقد تسبب خضوعها ذاك في تمتين الصلة بينها وبين العالم الاسلامي فقد كان اميرهايمنح جوازات للتجار ليتاجروا مع الشرق وقد طلب منه حاج فرنسي يدعى الراهب برنارد Bernard جوازا للمتاجرة مع الاسكندرية والقاهرة فمنحه اياه

1) المرجع نفسه ج 1 ص 107 ـ 108
2) كليمان هوار - CL. Huart - تاريخ العرب ـ ج 2 ص 108

وقصد مصر من ميناء طارنت Tarente على متن سفينة عربية
فاذا كانت هذه الحال بالنسبة لاحد الحجيج فما بالك بالتجار
وممارستهم للتجارة مع بلاد المشرق وهي تجارة كانت تدر الارباح
الطائلة على امارة باري اذاك (1) .

فاذا كان هذا شان المدن الايطالية الجنوبية فان اكثر المدن
الايطالية الشمالية تعاطيا لتجارة الرقيق مدينة البندقية (2) ، وقد
راينا كيف نشطت هذه التجارة بها منذ اواسط القرن الثاني للهجرة
وتواصل هذا النشاط بعد ذلك خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة(3)
فقد كانت هذه المدينة بمقتضى موقعها-في جزر جرداء حيث لا يوجد
حتى الماء الصالح للشراب-مضطرة الى ان تعيش على التجارة (4) وكانت
تمثل وسيطا تجاريا بين امبراطوريات غربية وشرقية وكانت تجارتها

1) هايد- Heyd ج 1ص 95_96_97
2) لومبار- M. Lombard ص 194 _ 204
3) ارشبالد لويس A.Lewis ص 79_80
4) ل . برييي L.Bréhier-الحضارة البيزنطية ص 206 — ه . بيران — المدن في القرون الوسطى بروكسل 1927 ص 77 _ 80)

(4) L. Bréhier - Civilisation Byzantine - p 206
H Pirenne - Les villes au Moyen Age - Bruxelles - 1927 - p 77-80

.../...

متصلة بالعالم السلافي واوروبا الغربية والامبراطورية البيزنطية والعالم الاسلامي (1) فقد كان البنادقة يجلبون الرقيق والعسل والخشب والفراء من العالم السلافي الذي يتصلون به عن طريق اسطريا " Istrie " دلماسيا Dalmatie او بصورة غير مباشرة عن طريق جرمانيا Germanie (2) فكانوا يتلقون الرقيق الصقلبي القادم من الدانوب الاعلى Haut Danube وبلاد الرين Pays Rhénan عن طريق ممر جبال الالب (3) كما كانوا يقتنون الرقيق من اسواق روما ويبيعونه باسواق شمال افريقيا ومصر وسوريا (4) ولم يكن الرقيق هو البضاعة الوحيدة التي يصدرونها الى العالم الاسلامي بل كانوا يصدرون بالاضافة الى ذلك الخشب من غابات دلماسيا والاسلحة في معامل الحديد بكورنثيا Corinthie والاقمشة الايطالية والبيزنطية. وعندما منع الامبراطور ليون الخامس الارمني - Léon V (199-204 هـ/820_814 م) هذه العلاقات

1) فيليب براونشتاين -- صورة تاريخية للبندقية - ص 52 - (A)Braunstein(P) Venise - Portrait historique -
2) المرجع نفسه - ل - برييي - L. Bréhier - الحضارة البيزنطية ص 206 - هايد - ج 1 ص 110 و 113
3) م لومبار - M. Lombard ص 194 _ 204 نجاة باشا ص 115 _ 116
4) هايد - تاريخ تجارة الشرق ج 1 ص 95 وص 110

.../...

التجارية مع المسلمين يمتثل البنادقة لاوامره ولذلك نجدهم فيما بعد

اي سنة (211 هـ/ 827 م) اوسنة (212 هـ / 828م) بالاسكندرية (1)

فهم الذين سرقوا حوالي سنة (211 هـ/ 827م) جثة القديس مارك St Marc

بالاسكندرية (2) فقد واصل البنادقة مهمة التصدير والتوريد

بين الشرق والغرب رغم هذه الاوامر وصارت مدينتهم في القرن الرابع

للهجرة سوقا عظمى تعرض فيها بضائع الشرق ويقصدها اللومبارديون

وحتى الفرنسيون وقد هدد الامبراطور يوحنا الشمشقيق Jean Tzimiscès (365-366هـ/969-976م)

سنة 971م بحرق السفن المستعملة في هذه التجارة ولكن دون جدوى (3)

وهكذا استطاعت البندقية ان تزود قصور العالم الاسلامي واسواقه بما

تستحوذ عليه او تقتنيه من الصقالبة ولاشك ان هذه الوساطة

التجارية قد كانت باعثة على ازدهارها واثرائها كما تسببت تجارة

الرقيق السودان في القرن الثامن عشر للميلاد في ثراء الكثيرين ملاحي

فرنسا وانجلترا (4) .

1) المرجع نفسه
2) ل . بريي L. Bréhier الحضارة البيزنطية ص 206 ـ هايد . Heyd ج 1 ص 110
3) المرجع نفسه ص 118 ج 1 كليمان هوار Cl. Huart - تاريخ العرب ج 2 ص 108
4) نجاة باشا. التجارة بالمغرب ص 118

.../...

واذا ما كان الدوق في مدينة البندقية قد حرم سنة (349 هـ/960م)
نقل الرقيق على المراكب فان ذلك التحريم قد كان خاصا بالرقيق المسيحيين
وحدهم .كما كانت المعاهدة التي عقدت بين البندقية والامبراطور اوتون الاكبر
Otton Le Grand سنة (356هـ/ 967م) تحضر على المسيحين الذين في ارض
الامبراطور وحدهم المتاجرة بالرقيق ولا تمثل عرقلة جدية لهـــــذه
التجارة (12)

وقد تنوعت صلات هذه الطريق التجارية الايطالية بالعالم الاسلامي
بتنوع الظروف السياسية وباختلاف الفترات الزمانية فلم تكن لها نفس
الكثافة في كل وقت ، ولا نفس الاتجاه . واذا ما اردنا التدقيق وجب علينا
ان نشير الى ان علاقة المدن الايطالية بشمال افريقيا قد كانت امتن
و اوثق في القرن الثالث والنصف الاول من القرن الرابع للهجرة من علاقتها
ببلدان الشرق الاسلامي .

وكان لابد من ان ننتظر النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة لكي
تنشط العلاقات بين مدن جنوب ايطاليا التجارية وعلى راسها امالفي
والبندقية وبلدان الشرق كمصر وسوريا وان كانت تلك العلاقـــات
موجودة بقلة قبل ذلك. ومن الواضح ان السبب في تغيير مجرى التجارة

1) آدم متز- الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300 احالة رقم 5

.../...

الايطالية هو انتقال الفواطم من تونس الى مصر وعدم ثقتهم في استمرار ولاء افريقية لنظامهم فكانوا يفضلون الاتصال مباشرة بتجارة ايطاليا لتعينهم على تكوين الاسطول وهكذا اتبعت التجارة الايطالية مجرى السياسة الفاطمية وارتبطت بها لكي يكونا معا طريقا تجارية تذهب من الاسكندرية او طرابلس الى البندقية او امالفي وتعوض الشبكة القديمة المركزة على الروابط المحلية بين جنوب ايطاليا وشمال افريقيا المجاور لها ، وزاد في تدعيم هذه الشبكة الجديدة ما ظهر بعد ذلك اي في القرن الخامس الهجري من قرصنة مغربية بسبب كوارث الغزو الهلالي بافريقية بالاضافة الى القرصنة الموجودة في الشمال والمركزة على اسبانيا وجزر الباليار وسرديينا ، فقد كان لهذه العوامل ايضا دور في ميل تجار ايطاليا الى المشرق الاسلامي بعد ان كانوا يكتفون تقريبا بالموانئ الافريقية (1) وصارت جنوة وبيزا بعد ذلك بزمان تلعبان نفس الدور الذي تلعبه امالفي والبندقية في تمتين علاقاتها بالدولة الفاطمية (2)

1) كلود كاهان .Cl. Cahen. الشعوب الاسلامية في التاريخ الوسيط ص 349 _ 357
2) حسن ابراهيم حسن-تاريخ الدولة الفاطمية ص 611
لقد اشتهرت جنوة وبيزا في هذه الفترة بتصدير الرقيق الى الشرق الاسلامي خاصة (راجع آدم متز _ .../...
الحضارة الاسلامية _ ج 1 ص 300 _ 301 _ احالة رقم 5)

5) تصدير الرقيق الاوروبي الى بيزنطة

ولم يكن هذا التيار التجاري المتمثل في تصدير الرقيق الاوروبي موجها نحو العالم الاسلامي فقط بل ان بيزنطة قد كانت تستهلك منه المقدار الضروري لاوضاعها الاقتصادية والاجتماعية شانها في ذلك شان البلدان الاسلامية ، فمنذ القرن السادس للميلاد كان الروم البيزنطيون يتاجرون عن طريق موانيء القرم مع امم الشمال مثل القوط والهوس - Huns - والافار - Avars - ويأتون من عندهم بالرقيق والفراء وعنبر البلطيف وقد استمرت معاملاتهم هذه مع الشعوب الاوروبية الشرقية المتاخمة لهم في هذا العصر. وكانوا يقتنون الرقيق الصقلبي لاعمال شتى كالعمل الفلاحي ، ففي منطقة تسالونيك Thessalonique كان هناك كثير من الصقلب الى جانب الفلاحين الروم (1) .

كما كان التجار البلغار يتاجرون مع القسطنطينية وربما مع سالونيك ايضا مع وجود قيود تتعلق بالجوازات ومدة الاقامة. وكانوا يجلبون اليها هذا النوع من الرقيق ضمن بضائع اخرى. وكان التجار الروس الفارنجيون يتعاملون مع القسطنطينية ايضا. وكانت تشيرسون في القرم الميناء التجاري الذي تدخل منه المنتوجات الروسية

1) لويس برييي - الحضارة البيزنطية ص 168 .

ومنها الرقيق والفرو (1) فمثلما كان الروس يصدرون الرقيق الى العالم
الاسلامي كانوا يصدرونه الى بيزنطة . وتشهد النقود البيزنطية التي
اكتشفت اخيرا بروسيا على ذلك (2) فقد كان بالقسطنطينية جالية من
هؤلاء التجار الروس وقد كانت انظارهم موجهة في هذه الفترة الى
سوق تسا ريكراد Tsarigrad بالقسطنطينية وبالرغم من الهجومات التي
كان الروس يشنونها على الامبراطورية الرومانية مثل هجومهم سنة
(329هـ/ - 940 م) (3) وغيرها من الهجومات التي شنوها من سنة
(252هـ/ 866م) الى (434هـ/ 1043م) (4) فان علاقاتهم
التجارية بها لم تنقطع اذ كانت عهود السلم بعد الحرب تسمح بنشاط
هذه العلاقات مثل عهد السلم الذي ابرم اثر حرب (246هـ/ 26جوان 860م)
وبعد هزيمة الروس (5) والعهد الذي ابرم بين اولغ oleg

1) ارشبالد لويس - السيادة - ص 73 _ 74 هايد . Heyd - ج 1 ص 69
2) ل . برييي L . Bréhier - الحضارة البيزنطية ج 3 ص 202
3) المرجع نفسه . راجع (الهجوم الروسي على القسطنطينية سنة (246هـ/860م) لفازيلياف ص 3 ومابعدها)
صلة تيوفان - Theophanes.con ص 33
4) هايد - تاريخ تجارة الشرق ج 1 ص 69
5) اسكندر سابيل - اخبارامم للعوس ص 100

.../...

وليون السادس سنة (299 هـ/ 911م) وهو يشير الى وجود جالية روسيـــة مستقرة بحي سانت ماماس Saint-Mamas بالقسطنطينيـة (1) ووجدت عهود اخرى تلت هجومات متتابعة وقد عقدت سنة (334 هـ/ 945م) بيـــن رومان ليكابان (306 - 333هـ/ 919 - 944م) وايغـور - IGOr - (330-334هـ/941-945م) وسنة (-360 - هـ/ 971م) بين يوحنا شمشقيـــق Jean Tzimiskès (356- 365هـ/969-976م) وسعياتسلاف Sviatoslav (353 - 361هـ/964-972م) وسنة (-437 - هـ/ 1046م) بين قسطنطين التاسع (433-446هـ/1042-1055م) وايا روسلاف Iaroslav (407-445هـ/1017-1054م) وكل هذه العهود تنص على بنود تجارية.وكان من بين البضائع المتداولة في هـــذا النشاط التجاري بضاعة الرقيق (2) وقد ذكر لنا كل من الاصطخري وابن حوقل هذه العلاقات التجارية بين الروس والامبراطورية الرومانية (3) ولم تكن بيزنطية بالرغـــم من اتصالها بالغرب اللاتيني تستورد الرقيق عن طريق ايطاليا ومدنها التجارية كالبندقية وامالفي مثلمـــا يفعـل المسلمون والسر في ذلك انـه كـان بامكـانهـــا الحصول عليـه بسهـــولة من بروسيـــا (4)

---

1) تذكرها اخبار نسطور ص32 – 150 – هايد -Heyd- ج 1ص69

2) لويس بريي L.Bréhier - الحضارة البيزنطية ج 3 ص202 وما بعدها
هايد - تاريخ تجارة الشرق ج 1 ص71

3) اسكندر صايبل A.Seippel - اخبار امم المجوس ص56

4) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية ص73 – 74

ولم تكن بيزنطة تتزود بالرقيق الصقلبي عن طريق الرهادنة ايضا فاذا سلمنا بكلام ابن خرداذبة علمنا ان الطرق التي يسلكها الرهادنة لا يمر ولو واحد منها بالامبراطورية البيزنطية (1)

وكانت بيزنطة تقدم بديلا تجاريا للشعوب الاوروبية المزودة لها بالرقيق تماما كالعالم الاسلامي. فقد كانت هي الاخرى همزة وصل بين الشرق والغرب في نقل مواد الشرق وبضائع العالم الاسلامي. ونحن نعلم انها كانت ذات علاقات تجارية مع المسلمين رغم عدائها لهم، فالبرغم من ان الفتوحات الاسلامية قد عطلت التجارة مع البيزنطيين والبلاد الواقعة على السواحل الجنوبية للبحر المتوسط وخاصة منها سوريا ومصر فان هذه التجارة ما فتئت ان رجعت الى نشاطها بمجرد مرور عصر الفتوحات. فمنذ بداية القرن الثالث للهجرة نلاحظ اثار هذه التجارة بين الروم من ناحية وسوريا ومصر من ناحية اخرى ، واذا ما قرر ليون الخامس الارمني (201-204هـ/ 817 _ 820م) ان يمنع الروم من الذهاب الى مصر وسوريا فان ذلك القرار يدل على وجود هذه العلاقات (2) .

1) كلود كاهان - CL. Cahen - الشعوب الاسلامية ص 349 _ 357
2) هايد Heyd - تاريخ تجارة الشرق - ج - 1 - ص 52 _ 53

.../...

وقد كانت المهادنات العديدة بين المسلمين والروم في هذا العصر فرصا سانحة لنشاط العلاقات التجارية بين الجانبين . و يمكننا ان نذكر على سبيل المثال نبأ الهدنة الذي ذكره ابن الاثير في تعرضه لحوادث سنة (265هـ/ - 879 - م) وهي هدنة بين ملك الروم واحمد ابن طولون (254 - 270 هـ/ 868 - 884م) وقد سعى بينهما في المهادنة عبد الله بن رشيد بن كاوس(1) والهدنة بين الراضي بالله (322 - 329 هـ/ 934 - 940م) ورومانوس Romanus الذي ملك من سنة (308هـ/ 920م) الى (333هـ/ 944م) وكانت هذه الهدنة سنة (326هـ/ - 937 - م) (2) والهدنة بين المقتدر (295 - 320 هـ/ 908 - 932م) وقسطنطين السابع(300 - 348 هـ/ 913 - 959م) سنة (305هـ/ - 917 - م) (3) والهدنة بين المستنصر بالله الفاطمي (427 - 486 هـ/1036 - 1094م) وقسطنطين التاسع الذي ملك من (434 الى447هـ/) -(1042م 1055م) وقد دامت هذه الهدنة عشر سنوات من (437هـ/ 1046 م) الى (447هـ/ - 1056 - م) (4)

---

1) البلوي = سيرة احمد بن طولون ص109
2) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 60-65
3) المصدر نفسه
4) المصدر نفسه

وهكذا يبدو ان سيطرة المسلمين على البحر لم تسد الطريق امـام التجارة مع الامبراطورية البيزنطيـة واليها. فوضع المسلمين البحري يدل على انـه لم تكن هناك اية نـية لفرض حصار اقتصادي على القسطنطينية وقد بقيت " طرابزون " Trébi onde هي البوابـة التجارية التي تدخـل منها المنتوجات والبضائع الواردة من بلاد العراق وفارس الاسلاميـــة الى بيزنطـة (1) .

وقد ذكر كل من المسعودي والاصطخري وابن حوقل سوق طرابزندة فقال المسعودي ان الشراكسة والارمن ~~والبيزنطيين والاصطخري وابن حوقل~~ والبيزنطيين والمسلمين يلتقون هناك للتجارة في معارض تقام مرارا عديـدة كل عام. وتعرض الاصطخري الى هذه المدينـة ملاحظا تردد التجـــار المسلمين اليها. وهو يعني بلا شك التجار المسلمين الذين يقطنون العراق وفارس وما وراء النهر. اما التجار السوريون والمصريون فلم يكونوا في حاجـة الى الذهاب الى هذه المدينة لان لهم طرقا اخرى للتجارة مع الروم (2)

1) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية ص 72_79 ــ صورد ال - حضارة الاسلام ص 317_323
2) هايد - Heyd - ج 1 ص 48

.../...

كما يذكر ابن حوقل ان مدينة طرابزندة يجتمع بها التجار المسلمون قبل التحول الى بلاد الروم وعاصمتهم بيزنطة للتجارة ثم يخرجون من هذه المدينة نفسها عند رجوعهم ولذلك ياخذ الامبراطور الروماني على عامله على هذا الميناء جبايات كثيرة (1) .

لقد دخل التجار المسلمون اذن الى بيزنطة (2) كما وطئت اقدام الروم الموانيء الاسلامية للتجارة وصارت اسواق انطاكية والاسكندرية اسواقا عالمية مثل القسطنطينية . وتنافس التجار الروم في المتاجرة مع العرب. ومما يذكر في هذا المجال ان الامبراطور تيوفيل قد احرق باخرة الامبراطورة تيودورا Théodora لا لانها تمارس تجارة ممنوعة وانما لانها لا تليق في قيمتها بامبراطورة الروم (3) .

ورغم سوء العلاقات بين مصر الفاطمية والدولة البيزنطية بسبب المنافسة من اجل السيادة على البحر لم تتوقف العلاقات التجارية بين البلدين فقد كانت القسطنطينية في حاجة الى منسوجات تنيس ودمياط وكانت مصر

1) ابن حوقل ح 2 ص336 ــ 337 و 341 ديفريمري ـشعوب القوقاز ج 2 ص 462
2) كلود كاهان ـ الشعوب الاسلامية ص 349 ــ 357 وجد ببيزنطة مسجد في القرن الحادي عشر صورد ال ـ حضارة الاسلام ـ ص 317 ــ 323
3) لويس برييي ـ L. Bréhier ـ الحضارة البيزنطية ص 201 ــ 202

.../...

في حاجة الى الفراء المجلوب من بلاد الروس كما كانت تتقرب من

البيزنطين امعانا في الكيد للعباسين . وكان بالفسطاط حي يقيم فيه

تجار الروم كما كانت مصر تستنجد بالقسطنطينية عند الشدة فترسل اليها

بالغذاء كما حدث سنة (446 هـ / 1055 م) في عهد المستنصر بالله (1)

وهكذا امكن للروم ان يحملوا بضائع المسلمين الى اوروبا اذ كان

الروس الفارنجيون وكذلك البلغار يقصدون بيزنطة للتجارة ويشترون

منها بضائع الشرق ثم يبيعونها بالمراكز التجارية الاوروبية الشمالية

والواقعة على طول الطريق الاسكندنافي مثل مدينتي كييف - Kiev

ونوفوجورد NovoGorod وغيرهما (2) .

ولم يكن الروم يحصلون على البضائع الاسلامية والشرقية عامة بهاته

الصورة التي وصفناها فقط وانما كانت هذه المواد التجارية تصلهم بطرق

اخرى وذلك ان تجارهم كانوا يقصدون اسواقا عالمية تؤخذ منها

تلك البضائع مثل الاسواق الواقعة ببلاد الخزر وبلغار (3)

1) حسن ابراهيم حسن - الدولة الفاطمية ص 612 _ 613

2) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية ص 72_79

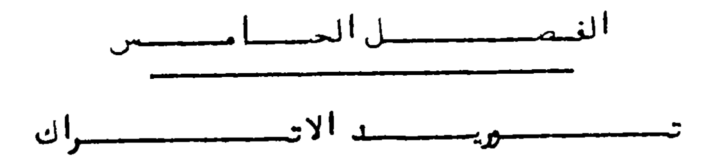
3) لويس بيربيي - الحضارة البيزنطية ص 202

ايك - التجارة المتوسطية - ص 34

3) ECK - Le commerce Mediterranéen après L'invasion arabe - R.S.E (Revue Historique du sud est européen) Bucarest - 1941 - p-34

لعله قد اتضح ادن مما سبق من تحليل ان العلاقات التجارية بين العالم الاسلامي وبيزنطة قد كانت قائمة في هذا العصر وان كلامنهما كان يزود اوروبا ببضائع الشرق.كما ان مادة الرقيق الصقلبي كانت تعدي الاسواق البيزنطية مثلما كانت تغذي الاسواق الاسلامية وان لم تكن الطرق والمسالك واحدة . لكن هذه الاوضاع التجارية التى تسمح لنا بالتعرف على صورة انتشار الرقيق الصقلبي في العالم المتحضر اداك وعلى اصناف البضائع المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين لا تومر لنا الدليل على تبادل لبضاعة الرقيق بين الطرفين.فليس لدينا ما يدل على ان التجار المسلمين قد استوردوا في وقت ما بعض الصقالبة عن طريق بيزنطة.لا سيما اذا ادركنا ما اشرنا اليه سابقا من موانع عقائدية وتشريعية لهذا النوع من التجارة من كلا الجانبين .

تلك اهم ملامح توريد الرقيق الصقلبي في هذا العصر وهو توريد قد نشط خاصة في القرن الثالث للهجرة وبدأ يضعف بصورة تدريجية خلال القرن الرابع الى ان نضب معينه شيئا فشيئا بحكم انتشار المسيحية بين العناصر السلافية.وقد كان لهذا النضوب اثر في تغيير مجرى تجارة الرقيق عند المسلمين خلال القرن الرابع اذ سيزداد اعتمادهم بموجب دلك على اجناس اخرى كان توريدها معاصرا لتوريد الصقالبة ونعني بها خاصة الرقيق التركي ورقيق بلاد السودان وهو ما سنحلله في الفصول القادمة .



الفصل الخامس

توريد الاتراك

تـــوريـد الرقيــق التركـــي

ان من اهـم اجناس الرقيق التي كان المسلمون يجلبونهـا خلال هـــذا العصـــر الرقيـق التركـي الذي نشطت حركـة جلبـه بالشرق الاسلامـــي خاصـة وقـد ازداد اعتمـاد الاسـواق الاسلامية على هـذا الجنـس عنـدمـا آذنت مـوارد الرقيـق الصقلبي بالنضـوب فقـد تواصلت عمليـات توريـده مـدة طويلة من الزمن في الوقت الذي توقف فيـه حركة توريـد الصقالبـة.فما هي اولا هوية هـذا الجنـس من الرقيـــق ؟

1) الاتـــراك :

يطلق المسلمون كلمـة ((ترك)) على شتى القبائـل والاقوام التركيـــه وذلك لانهم وجـدوهـم متشابهين في الوانهـم ولغاتهـم وعاداتهـم.وقـد كـانت هذه التسمية تطلق منذ تاريخ اتصال المسلمين بهـذا الجنـس على قبيلـه بعينهـا من تلك القبائـل (1)ثم تم تعميم الاسم منذ ذلك الحين وخاصـة على الذين اعتنقـوا الدين الاسلامـي فقيـل لهـم ترك او تركمـانيـة ولمـا سميت كـل قبيلـة باسمهـا مثل ((الكماكيـة والخزخـز والتغزغـز والخزلخيـــه))

---

1) دائـرة المعارف الاسلاميـة _ الطبعة الانجليزيه ج 6 ص 901

Encyl of Islam. T.6 p 901

وانما شملتهم كلمة الاتراك جميعا. يقول المروزي في بيان تطور هذه التسمية : " فلما صاقبوا بلاد الاسلام اسلم بعضهم فسموا التركمانية. وصار بينهم وبين من لم يسلم منابذة. ثم كثر المسلمون منهم وحسن اسلامهم وغالبوا الكفرة وطردوهم فتنحوا عن خوارزم الى محال البجناكية وانتشر التركمانية في بلاد الاسلام واحسنوا فيها السيرة حتى ملكوا اكثرها وصاروا ملوكا وسلاطين " (1).

ويرجع المؤرخون القدامى اصل هذا الجنس الى يافث بن نوح كما فعلوا بالصقالبة واهل الصين (3) وكان مرجعهم في ذلك التوراة (4) لكن الثابت هو ان الاتراك امة آسيوية استقرت منذ فجر التاريخ ببوادي آسيا الوسطى بعد انطلاقهم من جبال "تيان شان" (4) وكانوا يتالفون من قبائل عديدة من اشهرها قبائل (القرغز) و (الخرخز) و (كيماك) و (الغز أو الغزية) وهم فروع كثيرة من بينها (التغزغز) ومنهم

1) المروزي ـ طبائع الحيوان ص 18
2) انظر المسعودي- مروج الذهب -ج 1 .ص 286
3) سفر التكوين-الاصحاح الخامس ص 807 ـ (4) بروكلمان-تاريخ الشعوب الاسلامية ج 2 ص 109

تفرع السلاجقة والعثمانيون ومن قبائلهم ايضا (الخرلخية) و (البجناكية)
و (الخزر) و (المجغرية) و (برداس) وغيرها كثير ، وقد عرف الجغرافيون
المسلمون هذه القبائل ونجد لهم الماما بها وتفصيلا لخصائصها منذ
القرن الثالث للهجرة ، فقد تحدثوا عنها وعن نمط معاشها
والنزاعات القائمة بينها (1) .

ع) بلاد الاتراك : ما وراء النهر :

وكان المسلمون يجلبون الرقيق التركي من بلاد ما وراء النهر
بآسيا الوسطى وهو اقليم تحده من الشمال بلاد تركستان
وبلاد الهند ومن الجنوب طخارستان ومن الشمال الغربي خوارزم
ومن الجنوب الغربي خراسان ويفصل بينهما نهر جيحون ، ومن
اشهر نواحي هذا الاقليم بخارى وسمرقند وكش ونخشب وبيكند
والصغانيان و فرغانة والصغد والشاش واشروسنة وخوجندة .

---

1) ان خرداذبة-المسالك والممالك - ص 31 - ياقوت-معجم البلدان ج 1 ص48 - المروزي
طبائع الحيوان ص 18 - اليعقوبي - البلدان ص 295 - ليدن - مطبعة بريل 1891

وقد وصف لنا الجغرافيون المسلمون اقليم ما وراء النهر وبسطوا الكلام في شتى مقاطعاته واعماله فبينوا اوضاع الاتراك وتجاراتهم واهم ما تميزوا به من منتوجات وبضائع ومنها الرقيق ، ونحن نجد هذه التفاصيل عند الحموي والاصطخري وابن خردا ذبه وابن الفقيه وغيرهم من الرحالة والجغرافيين ، وهذه صورة مما ذكره الاصطخري في المسالك والممالك. " واما ما وراء النهر فيحيط به من شرقيه فامر (1) وراشت وما يتاخم الختل من ارض الهند على خط مستقيم وغربيه بلاد الغزية والخرلخية من حد طراز ممتدا على التقويس حتى ينتهي الى فاراب وبيكند وسغد سمرقند ونواحي بخارى الى خوارزم حتى ينتهي الى بحيرتها. وشماليه الترك الخرلخية من اقصى بلد فرغانة الى الطراز على خط مستقيم" (2)

وقد تحدثوا عن تجارات هذا الاقليم ومنتوجاته فلاحظوا ان من اهمها مادة الرقيق حتى ان الحموي يذكر لنا ان هذه المادة متوفرة جدا

---

1) زكريا كتابجي ــ الترك في مؤلفات الجاحظ ص 59
2) الاصطخري ــ المسالك والممالك ــ مطبعة بريل ليدن ـ1927ـ ص 286 ــ 287

بهذا الاقليم وانها تفوق حاجة اهله اليها فيعمدون الى تصديرها الى بلاد الاسلام يقول في ذلك " واما الرقيق فانه يقع اليهم من الاتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم و ينقل الى الافاق وهو خير رقيق بالمشرق كله " (1) وهو ينقل هذه العبارات بحذافيرها عن كتاب المسالك والممالك للاصطخري (2) وقد فصل الاصطخري ما اجمله الحموي فاشار الى المناطق التي يجلب منها رقيق ما وراء النهر مثل منطقة " كران " و " وخان " و " السفيدة " وهي اذاك دار كفر " يقع منها السمك والرقيق " (3) وتحدث عن سعي الخلفاء العباسيين الى جلب هؤلاء الاتراك لما عرفوا به من حسن طاعة لمخدوميهم فقال " وهم من ذلك احسن الناس طاعة لكبرائهم والطفهم خدمة لعظمائهم وفيما بينهم حتى دعا ذلك الخلفاء الى ان استدعوا مما وراء النهر رجالها وكانت الاتراك جيوشهم لفضلهم على سائر الاجناس في البأس والجرأة " (4) .

1) ياقوت ــ معجم البلدان ــ ج٤ - ص ٤٥ - ابن حوقل. صوره الارض ج 2 ص447
2) الاصطخري ــ المسالك والممالك ص 288
3) المصدر نفسه ص 297
4) المصدر نفسه ص 291

ونحن نجد عند ابن حوقل تدعيما وتوضيحا لما سبق كما نجد عنده حرصا على تحديد المنطقة التي يجلب منها الرقيق التركي وهي حسب قوله المناطق المحيطة باقليم ما وراء النهر ومنها " وخان" و" شديقية " المجاورة لمنطقة " الوخش وختال " وهي تصدر رقيقا وفيرا يزيد عن حاجة ذلك الاقليم فينقله التجار الى اقاليم الاسلام الاخرى (1) .

ويفهم من كلام هؤلاء الرحالة الجغرافيين ان سمرقند هي اكبر سوق للرقيق باقليم ما وراء النهر ففيها تتجمع هذه البضاعة قبل توزيعها ببلاد المشرق الاسلامي ومنها يستورد ولاة خراسان وعمالها ما يريدون تقديمه من هدايا لمخدوميهم بعاصمة الخلافة " وقد روي ان طاهر بن عبد الله بن طاهر قال مرة لوكلائه " اذا وجدتم البرذون البخاري والبغل البرذعي والحمار المصري والرقيق السمرقندي فاشتروها ولا تستطلعوا رايا فيها " وذكر الاصطخري ان هذه المدينة قد كانت " مجمع رقيق ما وراء النهر " وان خير الرقيق بهذا الاقليم ما كان من تربيتها (2).

---

1) ابن حوقل ــ صورة الارض ج 2 ص 447 وص 458 وما بعدها
2) الاصطخري ــ المسالك والممالك ــ ص 318 ــ ابن حوقل.صورة الارض ج 2 ص 474

ويصفها المقدسي بقوله " قصبة الصغد ومصر الاقليم بلد سري جليل عتيق ومصر بهي رشيق رخي البال كثير الرقيق ... وفيهم نفـخ وعجب ومرا جيدة الجواري رديـة الغلمان " (1) .

ولم يكن دور خوارزم اقل قيمـة من دور سمرقند في هذا الشـان فقد ذكر الاصطخري ان اكبر قسط من ثروة خوارزم متأت من تجارة الرقيق التركي. وذكر ان هذا الرقيق كان متنوعـا من خزر وغزية وغيرهم فضـلا عن رقيق الصقالبة يقول " ولهم باس على الغزية ومنعة وليس ببلد هـم معادن ذهب ولا فضـة ولا شيء من جواهر الارض.وعامـة يسارهـم من متاجرة الترك واقتناء المواشي. ويقع اليهم اكثر رقيق الصقالبـة والخزر وما والاها مع رقيق الاتراك " (2) ويشبـه المقدسي خـوارزم بسجلماسة في رواج تجارة الرقيق بها ويصفها بانهـا مستودع الغـز والاتراك فيقول " واعلم ان مثل خوارزم في اقليـم المشرق كسجلماسـة في المغرب وطباع خوارزم كالبربر وهي ثمانون في ثمانين متصلـة المنـازل

1) المقدسي - احسن التقاسيم ص 278
2) الاصطخري ــ المسالك والممالك ص 305 ــ ابن حوقل. صورة الارض ج 2 ص 463

غزيرة الانهار معدن السمك والاغنام ومطرح الغز والاتراك (1).

ووصف الاصطخري رواج الرقيق التركي باسواق بخارى ايضا فقال " ولهم داخل الحائط وخارجه اسواق متصلة معلومة في اوقات من الشهر دائرة يجري فيها من الشراء والبيع للثياب والرقيق والمواشي وغير ذلك مما يتسع به اهلها " (2).

ويضيف ابن حوقل ان هذه البضاعة التركية الغزيرة باسواق خوارزم وبخارى وسمرقند كان تنتقل على ايدي التجار من اقليم ما وراء النهر الى بلاد الشرق الاسلامي عن طريق بوابة هي بلاد خراسان ، فاقليم خراسان هو الواسطة التجارية بين ما وراء النهر وبقية العالم الاسلامي. فقد كانت تستورد من هذا الرقيق ما يفي بحاجتها وما يمكن تصديره للاقاليم الاسلامية المجاورة لها (3)

3) **استرقاق الجنس التركي :**

اما الاسباب التي جعلت من هذا الجنس مادة للاسترقاق فهي كامنة في المناخ الاجتماعي والسياسي المتدهور الذي كان الشعب التركي يعيش فيه •

---

1) المقدسي ـ احسن التقاسيم ص 286
2) الاصطخري ـ المسالك والممالك ص 314
3) ابن حوقل ـ صورة الارض ج 2 ص 437

فلقد كان الاتراك في هذه الحقبة ومنذ ان انقرضت دولة

كوك ـــ توركلر -GÖK-TÜRKLER- (1) في النصف الاول من القرن

الثامن ميلادي اي الثاني هجري اي سنة (123 هـ / 745 م) بسبب

القلاقل والثورات التي حاكها لهم جيرانهم الصينيون في الخفاء.

يعيشون في حالة فوضى سياسية وانقسام قبلي وانحلال عسكري

وقد غلب عليهم البداوة وسكنى الفيافي وكانوا اقرب الى وضع التوحش

منهم الى العمران.

يقول صاحب كتاب جامع التواريخ في وصف تبديهم (وحيث

ان الاقوام الموسومين باسم الترك مقامهم وسكنهم في البلاد البعيدة

التي طولها وعرضها من ابتداء طرف ماء جيحون وسيحون الى انتهاء

حدود بلاد الشرق وانتهاء صحراء القبجاق الى غاية نواحي جورجية

والخطا وفي تلك المواضع هم يسكنون الجبال والوهاد والاحام ولم يعتادوا

السكنى في القرى والمدن) (2).

---

1) تاسست هذه الدولة سنة 552 م اي من عصر فجر الاسلام وامتدت حدودها من بلاد المغول وشمال الصين الى البحر الاسود = (Encycl of Islam T 6 p90c

2) رشيد الدين ـــ جامع التواريخ ج 1 ص 212

وقد كانت طبيعة معاشهم ذلك تدفعهم الى الاغارة على بعضهم بعضا وتمكن العداوة بين قبائلهم ولم تكن هناك سلطة مركزية توحد صفوفهم . ولولا بعض المصالح التجارية التي كانت تربط بين اقوام منهم لعمت الفوضى معظم مناطقهم " فقد كانت الولايات في هذه المنطقة تعترف بالخان سيدا لها وتدفع له الجزية . . . وكانت امارة صغديان مقسمة الى ولايات صغيرة مستقلة تقوم بينهما معاداة مرة . . . وكان اقوى ما يصل بينها من رباط انما هو تجارة الحرير مع الصين . . . وقد ارتبطت الولايات فيما عدا ذلك برباط ثان هو سيادة اسرة معينة فيها جميع الاسر الاخرى ولم يكن رباط وثيقا . . . وكان الى جانب هؤلاء الامراء سادة محليون لا تتجاوز سلطة الواحد منهم حدود قراه . . . اما الاراضي الخاضعة للترك والتي كانت تجتاحها القبائل فلم تنشأ فيها حكومة مركزية ومن ثم كانت الحروب والمنازعات ظاهرة ملازمة لها " (1)

ومما زاد اوضاعهم سوءا تنمر جيرانهم لهم في الشرق والغرب ففي الشرق كان الصينيون يهجمون عليهم بين الفينة والاخرى ويمزقون

---

1) شكري فيصل ــ حركة الفتح الاسلامي ص 160

كلمتهم و يزعزعون كيانهم . وفي الغرب كان المسلمون يرهقونهم ايضا بالهجومات المتتالية وهكذا امس كل شيء في هذه الاوضاع التركيـة المتدهورة ، مشجعا على التطاول عليها ونهبها واسترقاق اهلها وفرض انواع الاتاوات عليهـم واتخاذها مصدرا هاما من مصادر جلب الرقيق .

ففي هذا العصر كانت المراكز التي دخلها الاسلام باقلـيم ما وراء النهر تستعمل للغارة على الاتراك الذين لم يدخلوا في هـذا الدين وقد وصف الاصطخري ذلك حين قال " ومستفيض انه ليس في الاسلام دار حرب هم اشد شوكة من الترك فهم ثغر المسلمين في وجه الترك يمنعونـهم من دار الاسلام وجميع ما وراء النهر ثغر يبلغهم نفير العدو " (1) وكانت اهم تلك المراكز خراسان التي داب ولاتها على محاربـة قبائل الـترك يقول اليعقوبي في ذلك " انهم يحيطون بارض خراسان ويحاربون من كل ناحية ويغزون فليس بلد من بلدان خراسان الا وهم يحاربون الترك وتحاربهم الترك من سائر الاجناس " (2)

لقد كانت هذه الاوضاع مناخا ملائما للاسترقاق وذلك لان قبائل الترك كانت تغير على بعضها بعضا وتستعبد اسراها فمما يذكر عن (الخرلخية)

---

1) الاصطخري ـ المسالك والممالك ص 291
2) اليعقوبي ـ البلدان ص 295

مثلا انهم كانوا عبيدا (للتغزغز) ويروى ايضا ان (البَجناك) كانوا يستهدفون لغارات الغزية والخزر اما (بورداس) فكانوا يغيرون على (بلكار) وعلى (البجناكية) (1) وقد وصف لنا اليعقوبي هذه العلاقات العدائية بين قبائل الترك فقال : " والترك عدة اجناس وعدة ممالك فمنها - الخرلخية والتغزغز وتركش وكيماك وغز - ولكل جنس من الترك مملكة منفردة ويحارب بعضهم بعضا " (2) كما ذكر ابن رستة ان الخزر كانوا " يغزون البجاناكية في كل سنة " (3) وقد وصف لنا ياقوت الحموي الاسباب التي ادت الى وقوع الرقيق الخزري في ايدي التجار المسلمين فذكر ان " الذي يقع من رقيق الخزر هم اهل الاوثان الذين يستجيزون بيع اولادهم واسترقاق بعضهم لبعض فاما اليهود والنصارى فانهم يدينون بتحريم استرقاق بعضهم بعضا مثل المسلمين " (4) وشبيه بهذا القول ما ذكره ابن حوقل من ان الخزر وثنيون يسترقون بعضهم

---

1) المروزي ـــ طبائع الحيوان ص 18 و ص 23
2) اليعقوبي ـــ البلدان ص 295 ليدن ـــ مطبعة بريل 1891
3) ابن رستة ـــ الاعلاق النفيسة ص 140 . ليدن ـــ مطبعة بريل ـــ 1891
4) ياقوت ـــ معجم البلدان ج 2 ص 368 بيروت 1956

بعضا ويعتبرون بيع اطفالهم امرا شرعيا (1) ويحدثنا ابن حوقل ايضا عن الرقيق التركي المجلوب من بلاد الغور باقليم خراسان فيقول ان بلاد الغور بلاد كفر تحيط بها بلاد الاسلام مثل هراة وفره ورباط كروان وتخضع لمحمد بن فرغون امير الجوزجان فكان رقيقها يرسل الى هراة وسجستان وماجاورها وقد بقيت هذه البلاد على كفرها رغم انها محاطة بمناطق اسلامية فاستمر جلب الرقيق منها (2) .

ويشير المقدسي الى بعض المناطق الاسيوية التي لم يعمها الاسلام مثل المناطق المتاخمة لارض الصين كفرغانة واشروسنة وبقيت من اجل ذلك مصدرا للرقيق التركي فيذكر لنا ان فرغانة واسبيجاب قد كانتا معدنا للرقيق التركي (3) كما يشير الى ان قسما كبيرا من بلاد الخزر قد بقي على الكفر وان الخليفة المامون كان يغزوهم من الجرجانية وان الروس كانوا يهجمون عليهم ويسترقونهم (4) .

---

1) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ الترجمة الفرنسية ج 2 ص 385
2) المصدر النفسه ج 2 ص 430 ـ بارتولد ـ تركستان ـ Turkistan ـ انظر ص 338
3) المقدسي ـ احسن التقاسيم ص 325
4) المصدر نفسه ـ عن الاسكندر صايبل ـ أخبار امم المجوس ص 76 ـ ابن سعيد المغربي ـ بسط الارض ـ عن صايبل ـ أخبار امم المجوس ص 101

4) المسلمون وتوريد الرقيق التركي :

أ - قبل القرن الثالث للهجرة :

لقد ظهرت حركة توريد الرقيق التركي عن طريق التجارة منذ القرن الثاني للهجرة وذلك منذ ان بدا ينضب معين الفتوحات بما وراء النهر وانتشر الاسلام في اكثر مراكز ذلك الاقليم ، فبعد ان كانت افواج الرقيق تتدفق على البلاد الاسلامية عن طريق الغزوات التي قام بها الخلفاء الراشدون والامويون صار التجار يقومون مقام الغزاة في جلب هذه البضاعة الى الاسواق الاسلامية ، فمنذ ان استقر الامر للخلفاء العباسيين سعوا في اقتناء الرقيق التركي جريا على عادتهم في استعمال الاعاجم للاستغناء بهم عن خدمات العرب ، وقد كان الخليفة المنصور (136 هـ / 158 م) اول من اعتمد عليهم من الخلفاء العباسيين واتخذ منهم حاجبا له ثم اقتدى به الخلفاء من بعده كالمهدي والهادي والرشيد والامين وغيرهم ، يقول الثعالبي في لطائف المعارف " اول من اتخذ الاتراك من الخلفاء المنصور اتخذ حمادا ثم اتخذ المهدي مباركا ثم اقتدى بهما الخلفاء وسائر الناس " (1) .

---

1) الثعالبي ــ لطائف المعارف ص 20

وكـان الخلفـاء العباسيون قـد فضلوا ان يكون حجابهـم من الاتراك لانهم وجـدوا فيهم الخصـال المطلوب في الحجابـة ، لما تميـزوا بـه من جمـال الطلعة وقوة البنيـة. وهي خصال تشيـع هيبة الخليفـة في قلـوب النـاس وتشعـرهـم بـرافتـه ورحمتـه في الان نفسـه . ومـا الحاجـب في راي المسلمين اذاك الا صورة من الخليفـة في رافتـه وغلظتـه يقول الجاحـظ في كتـاب الحجـاب : ((ان الحاجـب احـد وجهـي الملـك يعتبـر عليـه برافتـه ويلحقـه ما كـان في غلظتـه وفضـاضتـه فاتخـذ حاجبـك سهـل الطبيعـة معـروفا بالرافـة مـألـوفا منـه البـر والرحمـة وليكـن جميل الهيئـة حسـن البسطـة)) (1) .

ففـي هـذا التصـور اذن لمهمـة الحاجـب مـا دفـع الخلفـاء الى اقتنـاء حجـابهـم من هـذا الجنـس المعـروف بشـدة البـدن وجماله والى اتباع هـذه السنة بشكـل يكـاد يكون مطردا فقد استحجـب المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م) وصيفـا ثم حماد بن دنفش واتخذ الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م) حاجبـه ايتـاخ ووصيف واستعمـل المنتصـر (٢٤٧-٢٤٨هـ/ ٨٦١-٨٦٢م) حاجبه وصيـف ثم بغـاشـم او تـامـر ....

---

1) الجاحظ _ كتاب الحجاب _ رسائل الجاحظ ج 2ص38_39

واستحجب المستعين (248-252هـ/ 862-866م) اوتامش وكان حاجب المعتز (252-255هـ/ 866-869م) سماح بن صالح بن وصيف وحاجب المهتدي (255-256 هـ/ 869 - 870 م)باكباك وصالح بن وصيف وحاجب المعتمد (256-279هـ/870-892 م) موسى بن بغا وجعفر بن بغا وبكتمر. وكان هؤلاء الحجاب جميعا من الاتراك (1) .

وقد اقتنى الخلفاء العباسيون الاولون الرقيق التركي لغاية اخرى هي استخدامهم في الجند ، فمنذ عهد الخليفة المهدي(158-169هـ/ 775-785م) نجد ذكرا لفرقة من جنود الاتراك بقيادة شاكر التركي (2) . وقد استمر وجودها في عهد الخليفة الهادي (169- 170هـ/785- 786م) بقيادة مبارك التركي الذي ساهم في التنكيل بالحسين بن علي عندما ثار بالمدينة سنة (169 هـ/ -785 م) (3) كما انشاء حصنا بقزوين سمي بمدينة المبارك او المدينة المباركية ونقل اليها كثيرا من الاتراك (4) اما في عهد الخليفة الرشيد (170 -193 هـ/ 786-790م) فقد كان الحرس مكونا

---

1) ابن عبد ربه _ العقد العريد _ج 5ص121_126
2) الجهشياري _ الوزراء والكتاب ص151
3) الطبري _ تاريخ الامم والملوك - المطبعة الحسينية - مصر - ج 10ص 34
4) ياقوت _ معجم البلدان ج 17ص15و ص79

من الرقيق التركي وهذا الحرس هو الذي امر الرشيد بصفه والباسه الحديد بمناسبة استقبال وفد من الهنود (1) كما كان في جيوش هذا الخليفة قواد اتراك مشهورون منهم ابو سليمان التركي الذي تولى قيادة بعض الثغور مثل مدينة عين زربى سنة (190 هـ/805م) وذلك قبل ان يخربها الروم (2) ومنهم كذلك ابو سليم فرج الخادم الذي بنى مدينة طرسوس وعمرها سنة (170 هـ/786م) (3) هذا فضلا عن الرقيق المؤلف من الغلمان والجواري الاتراك الذين كانوا في بلاطه واقتناهن لحاجته الخاصة وقد صار بعض اولائك الجواري امهات اولاده مثل ام المعتصم وام المامون .

وقد وفر لنا بعض الشعراء شهادة بينة على وجود فرق من الجند التركي في جيش الامين العباسي ابان الفتنة التي قامت بينه وبين المأمون أخيه فقد قال الشاعر الخريمي واصفا الاتراك في جند الامين :

والخيل تستن في ازقتها بالترك مسنونة خناجرها (4)

---

1) ابن عبد ربه — العقد الفريد — ج 8 ص 261 — 262
2) ياقوت — معجم البلدان ج 14 ص 177
3) ابن كثير - البداية والنهاية ج 10 ص 161
4) الطبري — تاريخ الامم والملوك - المطبعة الحسينية بمصر - ج 10 - ص 179

ب- خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة :

لكن حركة جلب الرقيق التركي لم تكن في عهد هؤلاء الخلفاء العباسيين الاولين واسعة النطاق لان العباسيين لم يفقدوا بعد كل ثقتهم في مواليهم من الفرس فكانت حاجتهم الى هذا الجنس التركي غير ملحة ، الا انهم سيشعرون شيئا فشيئا بخطر العصبية الفارسية وسيدركون بمرور الزمن ان عليهم ان يعولوا على عنصر جديد يثقون به ويحميهم من المتطاولين عليهم (1) ولعل هذه الاسباب هي التي جعلت حركة توريد الرقيق التركي تشهد نشاطا حثيثا منذ بداية القرن الثالث للهجرة اي في عهد الخليفة المامون (198 هـ ـ 218هـ/ 813 - 833 م) فمنذ ان كان المامون واليا على خراسان وقبل توليه الخلافة كان وثيق الصلة بالاتراك يغزو المناوئين منهم ويكرم المطيعين واستطاع ان يكون منهم جندا خاصا به ، يقول الجاحظ في وصف هذا الجند " رايت في بعض غزوات المامون سماطي خيل على جنبتي الطريق بقرب المنزل مائة فارس من الاتراك في الجانب الايمن

---

1) فازيلياف -vasiliev- العرب والروم ص 10 ـ 12

ومائة من سائر الناس في الجانب الايسر واذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيء المامون وقد انتصف النهار واشتد الحر فورد عليهم وجميع الاتراك جلوس على ظهور خيولهم الا ثلاثة او اربعة)) (1)

وعندما تولى المامون الخلافة كان الولاة يجلبون الى بغداد المماليك والاتراك . ففي سنة (200هـ/ -815 - م) ارسل ابن اسد الصمامي احد عمال المامون بخراسان مجموعة من الرقيق التركي كان من بينهم طولون الذي سيكون لابنائه فضل تاسيس الدولة الطولونية بمصر . وقد قرب المامون طولون هذا وولاه منصب رئاسة حرسه الخاص ولقبه باميرالستر.كما قرب اليه القائد حيدر ابن كاوس الملقب بالافشين واستعمله في اخماد ثورة بمصر (3) وقد بدات فكرة التعويل على الاتراك واستخلاصهم لخدمة الدولة والدفاع عنها وضرب العصبية العربية والفارسية بصولتهم تختمر في عهد المامون.فقد كثرت القلاقل في هذا العهد وتنوع مصدرها واندلعت الثورة بمصر سنة (215/ 217هـ/ 830-832 م) (4) ....

1) الجاحظ ـ رسائل الجاحظ ـ ج 1 ص 61
2) جرجي زيدان ـ تاريخ مصر الحديث ج 1 ص 180
3) كليمان هوار - CL.Huart - تاريخ العرب ج 1 ص 303
4) الكندي ـ الولاة ص 189

وثار اهل بغداد وولوا ابراهيم بن المهدي الخلافــة (1) ونادى الثائر نصر بن شيث بالتعصب للخليفــة الامين واحدث بابك الخرمــي تمــردا كبيرا وصدرت عن العلويين انتفاضات مشابهة (2) كل هذه الاحداث دعت الى التفكير في عنصر جديــد يكفــي الخلافــة هذا الشر المستطير واشعرت بالحاجــة الى جند ممرن على القتــال قوي الشكيمــة صعب المراس في وقت لم يعد بالامكان التعويل فيــه على العرب والفــرس بسبب تشتت اهوائهم وتناحرهــم.

وكانت الانظار موجهة اذاك الى العنصر التركــي الذي لــم يصب بعد بعدوى هذا التناحر والتعصب بحكــم قرب عهـــده بخدمــة الدولــة وباعتناقــه الاسلام والذي اتصف بدربتــه على النــزال وبلائــه في الحرب وبسالتــه فيها، والواقع ان شهرة الاتراك بالشجاعــة قد كانت حافزا على مزيد اقتنائهم واستعمالهم في الحروب ونحن نلمــس صدى هذه الشهرة في ادب هذا العصر وخاصة منــه رسالــة الجاحظ في مناقب الترك فقد ذكر ان لتوحش هؤلاء الاتراك المجلوبين وتعودهم

---

1) الطبري ــ تاريخ الامم والملوك - المطبعة الحسينية - مصر - ج 10 ص 345
2) ابن قتيبــة ــ المعارف ــ ص 391

على سكنى الفيافي يد في تخلقهم باخلاق البدو وشجاعتهم حتى عرفوا بانهم اعراب العجم لم تضعف المدنية باسهم ولا شغلتهم علوم ولا صناعات ولا تجارات عن الغارة والغزو وركوب الخيل والبحث عن الغنيمة. فكانت لذتهم الكبرى في الحرب وبها فخرهم وكان منتهى علمهم علم الفروسية والمعرفة بخصائص الخيل وصنعهم لسيوفهم بايديهم. يقول الجاحظ في وصف ذلك (1) : (ولو حصلت عمر التركي وحسبت ايامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته اكثر من جلوسه على ظهر الارض. والتركي يركب فحلا اورمكة ويخرج غازيا او مسافرا او متباعدا في طلب صيد اوسبب من الاسباب فتتبعه الرمكة وافلاؤها ان اعياه اصطياد الناس اصطاد الوحش . . . والتركي هو الراعي وهو السائس وهو الرائض وهو النخاس وهو البيطار وهو الفارس . . . . . واذا سار التركي في غير عساكر الترك فسار القوم عشرة اميال سار عشرين ميلا لانه ينقطع عن العسكر يمنة ويسرة ويسرع في ذرى الجبال ويستبطن قعور الاودية في طلب الصيد. وهو في ذلك يرمي كل ما دب ودرج وطار ووقع) ويقول في موطن آخر (الترك اصحاب

---

1) الجاحظ. مناقب الترك ــ ص 48 ــ 49

عمـد وسكان فياف وارباب مواش وهـم اعراب العجم كما ان هذيـلا اكراد العرب . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحـة والهندسـة ولا غرس ولا بنيان ولا شق انهار ولا جبايـة غلات ولم يكـن همهم غير الغزو والغارة والصيـد وركوب الخيل ومقارعـة الابطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان وكانت هممهم الى ذلك مصروفـة وكانت لهذه المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولـة بها احكموا ذلك الامر باسره واتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهـم ولذتهـم وفخرهـم وحديثهـم وسمرهـم. فلما كانوا كذلك صاروا فـي الحرب كاليونانيين في الحكمـة واهل الصين في الصناعات والاعراب فيمـا عددنا ونزلنـا وكآل ساسان في الملك والرياسـة) (1) وقد اشـار الجاحظ ايضا الى ميزة اخرى عرف بها الاتراك ورغبت الدولـة العباسيـة في اقتنائهم للمهام العسكريـة ونعني بها مهارتهـم فـي الرمـي بالنشاب.فهم رمـاة نازعون وسلاحهم " نشاب معهم في جعاب كانها ايور الفيلـة ينزعون من قسـي كانها العتل تئط احداهـن

1) المصدر نفسـه ص 70_71

اطيط الزرنوق يمغط احدهم فيها حتى يتفرق شعر ابطيه ثم يرسل نشابة كانها رشاء منقطع فيما بين احدكم وبين ان تفضح عينيه او يصدع قلبه منزلة " (1) ولم يكن الخلفاء غافلين عن هذه الخصائص الحربية التي تميز بها العنصر التركي. بل كانوا يجدون فيها ما يشجعهم على تجديد معداتهم الحربية باسلحة اكثر فتكا وعلى الزيادة في جلب الرقيق التركي ، فثارت مناقشات في المجالس حول موضوع اقتناء الاتراك لهذا الغرض. وكان فيها المحبذون لهذا الاختيار والرافضون له. وقد وصف لنا الجاحظ احد هذه المجالس التي عقدت في قصر الخلافة وحضرها وجهاء رجال الحرب والسياسة مثل القاسم بن سيار ومحمد بن الجهم وثمامة ابن اشرس ويخشاد الصغدي ويحيى بن معاذ وحميد بن عبد الحميد وابو شجاع شبيب بن بخارخداي البلخي وذو اليمينين طاهر بن الحسين وغيرهم من مشاهير القواد والوزراء .

---

1) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 7 ص 174

وكان الخليفة المامون قد احب ان يختبر صحة رايه في بسالة الاتراك وشجاعتهم فوجه لجلسائه السؤال التالي : " ايما احب الى كل قائد منكم اذا كان في عدته من صحبه وثقاته ان يلقى مائة تركي او مائة خارجي ؟" وذلك لان الخوارج كانوا من شجعان العرب ومن المسلمين المستميتين في نشر دعوتهم والمقدمين على الاستشهاد في سبيلها . فاختار المامون ان يقارن بينهم وبين الاتراك حتى يتاكد من بسالة هذا العنصر الجديد ويقف من امرهم على ما يثلج به صدره .

وقد اجاب الجميع عن هذا السؤال بانهم يفضلون لقاء مائة تركي على لقاء مائة خارجي . وفي جوابهم هذا شهادة بتفوق الخوارج على الاتراك في الشجاعة ، لكن احد القواد وهو حميد بن عبد الحميد قد خالف هذا الاجماع . وشهد بفضل التركي على الخارجي واحتج على رايه هذا بحجج منها ان التركي اكثر شدة من الخارجي واحسن رماية وصبرا على السفر وقطع المسافات . وامضى سلاحا واحكم صفوفا واقل اختلافا . ومنها ان الخارجي يستلهم شجاعته

من عقيدته الدينية بينما يستمدها التركي من فطرته وجبلته .

وقد انتهت هذه المناقشات بتصويب راي حميد بن عبد الحميد حتى قال المامون "ليست بالترك حاجة الى حكم حاكم بعد حميد فان حميدا قد مارس الفريقين " (1) .

ولم يكن هذا المجلس هو الوحيد الذي درست فيه هذه القضية في عهد المامون . بل ان هذا الخليفة كان طرحها على بطانته وجلسائه مرارا عديدة . لكن النقاش لم يكن يفضي دائما الى تمجيد الاتراك وتفضيلهم . وذلك لان مجالسه لم تزل تعج بالمتحمسين للعصبية العربية او الفارسية بالرغم من ظهور هذه النزعة الجديدة المتحمسة للعنصر التركي ، فمن الطبيعي اذن الا يقدم المامون على تحقيق فكرته في اصطفاء الاتراك والاعتماد عليهم في شؤون السلم والحروب ما دامت الظروف السياسية والاجتماعية لم تسمح بعد بمثل هذا التصرف . وهكذا يمكننا ان نفهم لماذا كانت عملية توريد الرقيق التركي في عهد المامون محددة بالقياس الى ما سيحدث من جلب لهذه البضاعة في العهود الموالية .

---

1) الجاحظ ـ الرسائل ج ـ 1 ص 40 ـ 56

ج - ازدهار تجارة الرقيق التركي :

وقد تغيرت الاوضاع السياسية والاجتماعية بعد عهد المامون.وكان تغيرها عاملا من عوامل ازدهار تجارة الرقيق التركي ، فقد سمح خلفاء المامون لانفسهم بان يفسحوا المجال امام الاتراك ليلعبوا دورهم في ميادين الحياة السياسية والعسكرية والادارية والاجتماعية ولم يقفوا حيث وقف المامون. بل نسجوا على منواله اول الامر ثم كرسوا كل جهودهم في هذا الاتجاه بعد ذلك .

والواقع ان الخليفة المعتصم (218- 227 هـ/ 833ـ 842م) هو اول من جعل عملية جلب الاتراك سياسة رسمية للدولة .فقد كان منذ خلافة اخيه المامون من المشجعين على هذه السياسة . ويروى عنه انه كتب لاخيه منذ سنة (214 هـ/ -829- م) باتخاذ الاتراك وجلبهم الى عاصمة ملكه (1) فلما تولى الخلافة بذل ما في وسعه لجلب الرقيق التركي من بلاد ما وراء النهر

---

1) ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص 391

الى العاصمة ،وبالغ في شرائهم ودعم بهم اسس الدولة ،وحصن بهم قصره . وقام في هذا المجال بما لم يقم به سابقوه. يقول البلاذري في وصف هذا التصرف " ثم جاءت خلافة المعتصم فكانت رغبته في الترك اكثر من الخلفاء السابقين . وجلب الاتراك من ما وراء النهر والف جيشا كثيفا منهم من اهل الصغد وفرغانة واشروسنة والشاش حتى صار جل شهود عسكره من جند ما وراء النهر " (1) .

وقد كان المعتصم يبذل الاموال لشراء الترك من اسواق الرقيق الداخلية . ولم يكتفي بذلك فصار يكلف ولاته على خراسان بتزويد حاضرة الخلافة بافواج من الرقيق المجلوب من اقاصي بلاد ما وراء النهر ، وقد وصف الاصطخري تصرفه هذا بقوله " بلغني ان المعتصم كتب الى عبد الله بن طاهر كتابا عرض تهدده فيه وانفذ الكتاب الى نوح بن اسد . فكتب اليه ان بما وراء النهر

---

1) البلاذري — فتوح البلدان — ص 606

ثلاث مائة الف قرية ليس فيها من قرية الا خرج منها فارس وراجل لا يبين على اهلها فقدهم... وبلغني ان بالشاش وفرغانة من الاستعداد ما لا يوصف مثله عن ثغر من الثغور وهم مع ذلك احسن الناس لكبرائهم والطفهم خدمة لعظمائهم وفيما بينهم حتى دعا ذلك الخلفاء الى ان استدعوا مما وراء النهر رجالا وكانت الاتراك جيوشهم لفضلهم على سائر الاجناس في الباس والجراة والشجاعة والاقدام وحسن الطاعة والهيئة في الملبس والزي السلطاني فصاروا حاشية الخلافة وثقاتهم ورؤساء عساكرهم مثل الفرغنة والاتراك الذين هم شحنة دار الخلافة " (1) ، وذكر صاحب النجوم الزاهرة ان المعتصم " اشتراهم وبذل فيهم الاموال والبسهم انواع الديباج ومناطق الذهب وامعن في شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية الاف مملوك وقيل ثمانية عشر الفا " (2) ويبدو ان هذا الرقم الاخير هو الارجح (3). اما المسعودي فيذكر انه

1) الاصطخري – المسالك والممالك – ص 291
2) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج 2ص 323 – انظر احمد امين – ظهر الاسلام – ج 1 ص 3 دار الكتاب العربي – بيروت لبنان – الطبعة الخامسة 1388هـ/ 1969م .
3) المرجع نفسه -

كان يحب شراء الاتراك من ايدي مواليه وانه اتخذ منهم مجموعة ميزها بالزي عن سائر جنوده (1) .

وقد وصف ابن خلكان ايضا جلب المعتصم لجماعات كثيرة من فرغانة فقال " وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلب اليه من فرغانة جماعة كثيرة " (2) .

وهكذا توافد الرقيق التركي على بغداد فقدر السيوطي عدد غلمانه منهم ببضعة عشر الف في حين قدر ياقوت جلده منهم بسبعين الف.وقدره ابن تغري بردي بثمانين الف ، وقد اشار بعض شعراء العصر الى هذا العدد فقال علي بن الجهم.

امامي من له سبعون الفا   من الاتراك مسرعة السهام (3)

وقد كانت سياسة الجلب التي تعطاها المعتصم نتيجة دوافع سياسية واجتماعية وظاهرة حتمتها ظروف تاريخية معينة وليست ضربا من القرارات الفردية ، فقد كانت اوضاع الخلافة العباسية

---

1) المسعودي ـ مروج الذهب ح 2 ص 118
2) ابن خلكان ـ وفيات الاعيان ـ ج 4 ص 147
3) الاصفهاني ـ كتاب الاغاني ـ ح ص . فازيلياف ـ العرب والروم 10ـ12

منذ عهد المامون باعثة على سلوك هذه السياسة.فلم يكد يحين عهد المعتصم حتى ازدادت تلك الاوضاع تفاقما وازدادت الثقة في العرب والفرس ضعفا. فقد عمد الفرس الى الاستبداد بالسلطان وذهب العرب الى احداث الشغب دفاعا عن عصبيتهم فصارت الحاجة الى اتخاذ جيش قوي لقهر هاتين العصبيتين ملحة (1) وشعر الخليفة بالخطر المهدد من قبل الثورات الداخليةو هجومات الروم من الخارج وادرك ان انقسام الجنود الفرس والعرب يشكل وبالا على الدولة فرسخ اعتقاده في ان الحل كامن في اصطناع هذا الجنس الممتاز بخصاله الحربية وزاده تمسكا بفكرته تاثره بامه واخواله وقد كانوا اتراكا (2) فلا غرابة بعد هذا اذا كان المعتصم قد مال الى الجنس التركي وتشبه به حتى في اخلاقه ، قال السيوطي :

" كان المعتصم يتشبه بملوك الاعاجم ، اي خواقين الاتراك ويمشي مشيهم " (3) ومن الطبيعي كذلك ان تكون سياسة الجلب للاتراك

---

1) كليمان هوار — تاريخ العرب — ج 1 ص 303
2) الطبري — تاريخ الامم والملوك - المطبعة الحسينية - مصر - ج 10 - ص 360
3) السيوطي — تاريخ الخلفاء ص 232

بين محبذ وناقم عليها حسب الاهواء السياسية والاجتماعية التي كانت تضطرم في افئدة الناس اذاك ، وكان الجاحظ من المحبذين لهذه السياسة ومن المدافعين عنها بقلمه فقد الف رسالة في مناقب الترك اراد تقديمها للمعتصم ليشجعه على جلب الترك واتخاذ الجند منهم (1) اما الشاعر العلوي دعبل الخزاعي المعروف بتعصبه لال البيت فيمثل النزعة المعارضة لهذه السياسة وقد هجا المعتصم بسببها فقال فيه :

وقام امام لم يكن ذا هداية — فليس له دين وليس له لب
ملوك بني العباس في الكتب سبعة — ولم تاتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك اهل الكهف في الكهب سبعة — خيارا اذا عدوا وثامنهم كلب
واني لاعلي كلبهم عنك رفعة — لانك ذو ذنب وليس له ذنب
لقد ضاع أمر الناس اذ ساس ملكهم — وصيف واشناس وقد عظم الكرب
وهمك تركي عليه مهانة — فانت له ام وانت له اب (2)

وقد وصفت لنا المصادر مشاهد جلب الاتراك الى عاصمة الخلافة وما احدثته من سخط بين اهل بغداد.فقد روي ان افواج الرقيق التركي عندما دخلت هذه المدينة احدثت بها الهيجان لانها لم تكن قد تعودت الحياة في المدن والفت حياة التجوال في سهول آسيا الوسطى فكان اولئك الاتراك يركضون جيادهم

---

1) الجاحظ - فضائل الاتراك — رسائل الجاحظ ج 1 ص 5
2) ديوان .دعبل بن علي الخزاعي ص 234

في الاسواق ويتدربون بالسلاح في ساحات العاصمة.وربما داسوا خلال جولاتهم بعض الاطفال والشيوخ وقتلوهم .فولد ذلك الصنيع الحقد في نفوس العرب والفرس خاصة انهم لاحظوا تمييز المعتصم لهم وتكريمهم بالاموال . فكانوا كلما وجدوا تركيا منفردا قتلوه فاشتكى الاتراك للمعتصم وكثر الخصام بين الفريقين .فكان هذا سببا من اسباب انشاء مدينة سامراء .وذلك ان الخليفة قد خشي مغبة العداوة بين اهل بغداد والاتراك المجلوبين فقال لخلصائه " اطلبوا لي موضعا اخرج اليه وابني فيه مدينة واعسكر به فان رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة وكنت قادرا على ان آتيهم في البر و الماء" (1).

يقول المسعودي في وصف هذه الاحداث " كانت الاتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها الخيول في الاسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك .فكان اهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة او شيخ كبير او صبي او ضرير فعزم المعتصم على

1) ابن طباطبا ــ الفخري ــ ص 188

النقلة معهم... فانتهى الى موضع سامراء فاحضر الفعلة والصناع واهل المهن من سائر الامصار، ونقل اليها من سائر البقاع انواع الغروس والاشجار، فجعل للاتراك مواضع متميزة وجاورهم بالفراغنة والاشروسنية.. واقطع اشناس التركي واصحابه من الاتراك الموقع المعروف بكرخ سامرا " (1) . وهكذا وقع الشروع في بناء سامراء سنة (221هـ/ 836 م) ونقل اليها الجنود الاتراك واقطعوا بها القطائع ودامت سامراء موطنا لهم طيلة القرن الثالث الهجري ثم اضمحلت سنة (289هـ/ -902م) عقب خلافة المعتضد العباسي (279-289هـ/ 892-902م) (2)

وهكذا احتل الاتراك المكانة التي كان يحتلها الفرس في الدولة العباسية فبعد ان كانت الامور بيد رجال مثل ابي مسلم الخراساني والبرامكة والحسن بن سهل والفضل بن سهل وعبد الله بن طاهر وامثالهم صارت الدولة تعتمد على رجال من الترك مثل اشناس وايتاخ والافشين وبغا الكبير وبغا الصغير وابن طولون وغيرهم. ومنذ عهد المعتصم نجد الاتراك يحتلون المكانة الكبرى في جلد مصر. فقد كتب هذا الخليفة

---

1) المسعودي — مروج الذهب — ج 7 ص 118 وما بعدها
2) ياقوت — معجم البلدان — ج 10 ص 176

الى واليه على مصر وهو كيدر واسمه نصر بن عبد الله يامره بحذف اسماء العرب من ديوان العطاء. فانجر عن هذا الاجراء خروج يحيى ابن الوزير الجروي في حوالي خمسمائة رجل من لخم وجذام. لكن مظفر ابن كيدر هزمهم واسر يحيى بن الوزير. ومنذ هذه الحادثة صار جند مصر من الموالي والعجم فكان ولاتها يجلبون الغلمان الاتراك ويجندونهم مثلما حدث ذلك في عهد احمد بن طولون(ت270ﻫ/884م)اذجلب منهم مايزيد عن اربعة وعشرين الف غلام (1) اما ولاة مصر فقد صاروا يتخذون من الترك ايضا فمنذ سنة 242 ﻫ وحكام مصر اتراك اي منذ ان تولاها يزيد ابن عبد الله بن دينار التركي. بل كانت هذه الولاية قبل هذا التاريخ بعشرين سنة تمنح لحاكم تركي يقيم في بغداد وينوب عنه امير يقيم بمصر. وقد استمرت هذه السلطة التركية بمصر وبلغت اوجها مع الطولونيين والاخشيديين .

وقد تزايد جلب الاتراك في عهد الخليفة الواثق (228_232ﻫ/ 842 - 847 م)بتزايد الفتن و القلاقل. اذ اندلعت حركات عصيان

1) الكندي _ الولاة _ 194 المقريزي _ الخطط ج 1 ص 94

بين عرب قبائل الحجاز وشمال الجزيرة استدعت تعزيزا للجند التركــــي كي يتمكن من ارجاع الامن الى نصابه . وقد اعتمد الواثق في اخمــاد تلـك الثورات على قواده الاتراك وخاصة منهم بغا (1) ويمكن القول بان ظاهرة اخـرى برزت في هذا العهد وكانت مواكبة لحركة جلب الرقيق التركي ونعني بها تفويض العباسيين السلطة لمماليكهم الاتراك. فمنذ ان تولى الواثق بالله الخلافة نـراه يستخلف على السلطة اشناس التركي ويلبسه وشاحين مجوهرين وتاجا مجوهــرا "وهو اول خليفة استخلف سلطانا بعد ان كثر الترك في ايام ابيه "(2) وقد مضى الواثق شوطا آخر في تقليد الاتراك المناصب السياسية والعسكرية فاسند لاشناس التركي جملة من الاعمال منها الشام ومصر والمغرب والجزيرة. فما ان انتهى عهد الواثق حتى كان بيد الاتراك حظ كبير من النفوذ في الدولة وشعر الخلفــاء العباسيون منذ ذلك الوقت بتدخل هذا العنصر في كل صغيرة وكبيرة وبطموحـه الى الاستبداد بالسلطان .

وازداد تيار جلب الاتراك الى عاصمة الخلافة قوة في عهد المتوكل على الله (232-247 هـ/ 847_861م) اذ بلغ عددهم في الجيش ما ينيف على مائتي الف بعد ان كان عددهم في زمن المعتصم سبعين او ثمانين الف تركي . وقد تكونـت

---

(1) اليعقوبي _ التاريخ _ ج 2 ص 480 _ الطبرى تاريخ الامم والملوك . المطبعة الحسينية ج 11 ص 21

(2) السيوطي _ تاريخ الخلفاء _ ص 236_

فرقة من الجنود الاتراك في صلب الجند وكانت تسمى بالشاكرية.وقد روى الطبري "ان المتوكل وجه زيرك التركي الى محمد بن البعيث بن حلس في مائتي الـــف فارس من الاتراك فلم يصنع شيئا.فوجه اليه المتوكل عمرو بن سيسل بن كـال فــي تسعمائة من الشاكرية فلم يغن شيئا.فوجه اليه بغا الشرابي فى اربعةآلاف مابين تركي وشاكري ومطربي "(1).

وقد كان الخليفةالمتوكل اول من شعر بخطر قوة الاتراك منذ توليه اذ اصبح النفوذ التركي حاسما وصاروا كالحرس البريتورى فى الامبراطورية الرومانيـــة يعزلون ويولون (2) وفعلا فقد لاحظ المتوكل ان وجهاء الاتراك قد حاولوا مبايعة ابن الواثق مكانه رغم صغر سنه .ولما احبطت مساعيهم عزم على الانتقام منهـــم وبدا الصراع منذ ذلك الحين بين الاتراك والخليفة العباسي (3) فقتل المتوكـــل ايتاخ خوفا من نفوذه . اذ كان مشرفا على حشر الاتراك والمغاربه والموالي والبريد والحجابه ودار الخلافه.لكن الدائرة دارت على المتوكل فيما بعد وعلى غيره مـــن خلفاء بني العباس (4) وذلك ان الاتراك بعد قتل المتوكل صار بايديهم الامـــر والنهي .

---

(1) الطبرى ــ تاريخ الامم والملوك - المطبعة الحسينية بمصر - ج 11 ص 33

(2) فازيلياف - Vasiliev - العرب والروم ــ ص 10ــ12

(3) الطبرى ــ تاريخ الامم والملوك . المطبعة الحسينية بمصر - ج 11 ص 23

(4) ابن الاثير ــ الكامل ــ ج 5 ص 282 ــ 302

وقد ازداد الامر استفحالا في عهد المنتصر (247هـ 248هـ/861-862م) والمستعين (248ـ252هـ/ 862 - 866 م) والمعتز (252هـ ـ255هـ/866-869م) والمهتدي(255ـ256هـ/ 869 - 870م) وسيطر الاتراك على الدولة سيطرة عامة وتولوا تقريب بني جنسهم وساعدوا على تنشيط عملية جلبهم من اقاصي ما وراء النهر فضاق الناس باستبداد هذا الجنس حتى صرح بعض الشعراء بانه يفضل ان يغلق عليه بابه حتى لا يرى قرودا ممتطية سروجا (1) وقد انقلب خلفاء بني العباس الى لعب تحركها ايدى الاتراك وتقرر مصيرها. فقد روى ان طباطبا انه "لما جلس المعتز على سريرالخلافة قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . فقالوا له : فكم تقول انه يعيش ولم يهلك ؟ قال : مهما اراد الاتراك. فلم يبق في المجلس الا من ضحك"(2).

وقد كان لسيادة الاتراك هذه علاقة متينة بتجارة الرقيق وذلك ان هـذا الجنس الذى جلب من بلاد ما وراء النهر في شكل رقيق قد سار على هذه الخطة من استيراد الرقيق والتعويل على خدماتهم بمجرد ان آلت السلطة اليه. فاستعمل نفوذه للاستكثار من توريد الرقيق التركي وسلك سياسة اقطاعية تقوم اساسا على الأيدى

---

(1) فازيلياف - vasiliev - العرب والروم ـ ص 10=12
(2) ابن طباطبا ـ الفخرى ـ ص 197ـ

العاملة المسترقة فوسع بذلك من مجال جلب هذه البضاعة وترويج تلك التجارة.فكأن هؤلاء الاتراك الذين كانوا في الاصل ارقاء اشتراهم العباسيون من اسواق النخاسة ثم اعتقوهم وولوهم مناصب سياسية قد تاطت عادة الاسترقاق في نفوسهم واعتبروا الرق نظاما وتقليدا يتبع " فسعوا الى توسيع دائرة الرق وامتلكوا بدورهم الاف الرقيق . واصبح الارقاء بالامس اسيادا يسومون رقيقهم العذاب . وعاش الاتراك في قصور ضخمة فخمة اصبحت في حاجة الى عشرات الغلمان يتوفرون على خدمتهم،وعشرات الجواري والقيان والراقصات لاضفاء جو المرح واللهو على هذه القصور.وتنافس زعماء الاتراك في ميادين السياسة حول السلطة والنفوذ فاصبحوا في حاجة الى عصبية يقوون بها ويستعينون بها في الوصول الى مراكز السلطة.فاشتروا الاف الارقاء اتخذوهم حرسا وجندا واتباعا ، وامتلك هؤلاء ايضا ضيعات واسعة تضم الاف الافدنة واصبحوا في حاجة الى الاف الرقيق يسخرونهم في فلاحة اقطاعياتهم " (1)

1) علي حسني الخربوطلي - 10 ثورات في الاسلام ص 177

وقد كون العباسيون منذ عهد الخليفة المعتضد (279-289هـ 892-902م) فرقة من الغلمان الاتراك سموهم بالغلمان الحجرية لانهم كانوا يسكنون بيوتا تدعى الحجر ، وكلفوهم بحراسة الخليفة وجعلوهم تحت رئاسة خصيان كبار هم الاستاذون (1) وكانوا يشاركون ايضا في الحملات والغزوات . فقد ذكر الطبري انهم شاركوا في الحملة التي جهزها الخليفة لمقاومة وصيف في سيليسيا - Cilicie - سنة (287هـ/ -900- م) (2) و هؤلاء الغلمان هم الذين ذكرهم البغدادي في وصفه لموكب استقبال السفراء البيزنطيين في عهد المقتدر (295 - 320هـ/ 908- 932م) سنة (305 هـ/ -917- م) فاشار الى انهم كانوا اذاك مصطفين باحدى ساحات القصر حاملين السلاح (3) وقد اثار هؤلاء الحجرية الشغب في عهد الخليفة للراضي بالله (322 - 329هـ/ 934-940م) (4) فتخلص منهم بواسطة

1) محمد بن يحي الصولي : اخبار الراضي بالله ج 1ص49
2) الطبري-تاريخ الامم والملوك ج 3 ص2262: 2265
3) الخطيب البغدادي-تاريخ بغداد ج 1 ص104
4) محمد بن يحي الصولي - اخبار الراضي بالله ج 1ص69و86

ابن رائق سنة (325 هـ / -937-) اذ شتت كل من لؤلؤ وبجكم شملهم واوسعا فيهم القتل وصار التعامل بعد ذلك مع البريديين (1) .

وقد اتبع البويهيون عندما استبدوا بالسلطة في العراق سنة جلب الاتراك والتعويل عليهم في المهام العسكرية فكانوا يجلبونهم ويدربونهم على فنون القتال بعد تثقيفهم بالعلوم العربية والاسلامية ، وقد شجعهم على استعمالهم في الجيش طاقتهم الجسدية وبنيتهم الصلبة . فهم كما راينا من البدو الرحل المعروفين بشجاعتهم ولم تكن هذه الخصلة عند البويهيين . كما ارادت السلطة الحاكمة اذاك ان تكبح بهم جماح الفرس فعوض ان يعلم البويهيون ابناء جلدتهم فنون الحرب تخلوا عنهم خوفا من تطاولهم واطماعهم واعتمدوا على العنصر التركي (2)

---

1) المصدر نفسه — ج 1 ص 148 — 149
2) كلود كاهان - Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية ص 491 — 493

وقد تفاقم جلب الاتراك في ظل الدولتين الطولونية والاخشيدية بمصر. اذ كانت هاتان الاسرتان الحاكمتان من اصل تركي . فقد كان للطولونيين حرس خاص يتالف من هذا الرقيق ويبلغ عدده اربعة وعشرين الف حارس 000 24 (1).

واستمر جلب الاتراك بمصر بعد العهدين الطولوني والاخشيدي، اذ نجد الفاطميين يتخذون الغلمان الحجرية من الاتراك كما فعل العباسيون (2) وكان جيشهم يحتوي على طائفة من الرقيق التركي الى جانب الطوائف الاخرى المكونة من المغاربة والسودان (3) وقد اشتهرت فئة الاتراك في هذا الجند بعدائها ومخاصمتها لفئة السودان وكانت الفئتان تعدان خمسين الف جندي (4) كما صار هؤلاء الاتراك يشكلون خطرا بثوراتهم في عهد الحاكم بامر الله(ت 411هـ/1020م)اذبالغ ابن عمار

---

1) موريس لومبار - M. Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص 194 ـ 204
2) ابن خلكان ـ ج 1 ص 469
3) حسن ابراهيم حسن ـ تاريخ الدولة الفاطمية ـ ص 669
4) المرجع نفسه ـ ص 563

في محاباة المغاربة وابطل اعطياتهم مما ادى الى التطاحن بين الفريقين . وكان برجوان التركي ينافس ابن عمار ويعاديه حتى اضطر زعيم المغاربة الى الهرب وحل برجوان زعيم الاتراك محله (1) وقد جاء ذكر هؤلاء الاتراك في وصف ناصر خسرو للاحتفال ببدر الخليج في عهد المستنصر (427-486هـ/1036-1094م) يقول " ان الجند كانوا يسيرون في صفوف منتظمة فصيلة تلو فصيلة فيسير في المقدمة البربر ويليهم المغاربة ويسير خلف هؤلاء واولائك الاتراك والفرس ويطلق عليهم اسم المشرقيين ويتبعهم الحجازيون والسودان وكان يطلق عليهم عبيد الشراء " (2) وقد استكثر الفاطميون من الرقيق التركي المذكر والمؤنث كما جلبوا الخصيان . فمما يروى عن ست الملك اخت الخليفة العزيز (365- 386هـ/ 976- 996م) انها كانت تملك ثمانمائة 800 جارية من المماليك البيض وما من ريب في ان التركيات قد كن يمثلن نسبة كبيرة من هذا العدد (3)

---

1) المرجع نفسه ـ ص 625ـ626
2) المرجع نفسه ـ ص 301
3) المرجع نفسه ـ ص 616

فلم يقتصر الحكـــام المسلمون على جلب الرقيق المذكر من
بلاد ما وراء النهر بل نراهم اولعوا باستيراد جميلات الجواري
التركيات المتسرّي بهن. وقد كان الولاة والعمال بهذا الاقليم
يشترون هذه البضاعة الثمينة ويقدمونها في شكل هدايــــا
للخلفــاء والوزراء وغيرهم من الوجهاء. وكانوا يرسلون اليهــــم
بنات الملوك والامراء الاتراك ، فلا غرو اذا ما تجمع فــــي
البلاط الاسلامي وفي العديد من دور الخواص مجموعــــات
من الجواري التركيات اللائي كان الاقبال عليهن كثـــيرا
لما اشتهرن بــه من جمال ، فهن من صنف الاماء المتخــذات
للفراش وانجاب الولد ، يقول ابن بطلان في ذلك " قد جمعــن
الحسن والبياض، ووجوههن مائلة الى الجهامة وعيونهــن مــع
صغرهــا ذات حلاوة. وقد يوجد فيهن السمراء الاسيلــــة
وقدودهن ما بين الربع والقصير والطول فيهن قليل ، ومليحتهن غاية
وقبيحتهن اية ،وهن كنوز الاولاد ومعادن النسل قل ما يتفق فــــي

اولادهن وحش ولا رديء التركيب ولا حان وفيهن نظافة ولباقة " (1) .

وقد حظيت الجواري التركيات بسبب هذه الميزات بمنزلة عالية في نفوس مقتنيهن فكن يعتبرن من علية الرقيق. وصرن يمثلن الاغلبية الساحقة من امهات الاولاد بالبلاط العباسي . وانجبن العديد من الخلفاء فكان منهن مراجل ام المامون (2) وهي خراسانية تركية . و ماردة ام المعتصم وقد كانت من الصغد (3) والسيدة شجاع ام المتوكل على الله وخالة موسى بن بغا وقد كانت طخارستانية (4) وقطر الندى وهي اسماء بنت خمارويه (270-282هـ/884-896م) تزوجها المعتضد بالله (5) وكان اكثر الخلفاء العباسيين رغبة

1) ابن بطلان - شرى الرقيق – نوادر المخطوطات ج 1 ص 376
2) ابن قتيبة – المعارف – ص 169
3) ابن المعتز – طبقات الشعراء ص 120 – السيوطي – تاريخ الخلفاء ص 231
4) ابن حبيب – المحبر – ص 44 – الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد ج 7 ص 166
5) ابن الزبير – الذخائر والتحف ص 38

في الجواري التركيات وقد حفل بلاطه بالعديد منهن فكان من بينهن جيجك خاتون التي انجبت له ابنه المكتفي بالله (289-295هـ/902-908م) (1) ومنهن ايضا السيدة شعب التي انجبت له المقتدر بالله (295-320هـ/908-932م) (2) ومن جواري الاتراك اللائي اصبحن امهات اولاد الخلفاء الجارية زمرد ام الخليفة الناصر لدين الله (575-622هـ/1180-1225م) وكذلك ام المستنصر بالله (623-640هـ/1226-1242م) ، وبائي خاتون ام المستعين بالله (248-252هـ/862-866م) وكوزل خاتون ام المعتضد بالله العباسي (279-289هـ/892-902م) (3) .

ولعل من اشهر المناسبات التي جلبت خلالها الافواج الغفيرة من الجواري التركيات تلك التي اتيحت في عهد الخليفة المعتصم بالله (218-227هـ/833-842م) فقد كان من اهدافه المحافظة على الدم التركي من الاختلاط بغيره من الدماء فعزل جنوده الاتراك من فراغنة واشروسنية بمدينة سامراء

---

1) السيوطي – تاريخ الخلفاء – ص261
2) جرجي زيدان – تاريخ التمدن الاسلامي ج4ص186
ابن الزبير – الذخائر والتحف ص238
3) السيوطي – تاريخ الخلفاء – ص230 – و 355

ومنعهم من الزواج بغير التركيات خوفا من ان يصاهروا العرب والفرس فتتشتت انسابهم وتضمحل عصبيتهم وتضيع الغاية من اصطناعهم. فعمد الى شراء كميات كبيرة من الجواري والزمهم الزواج منهن. واشرف على زيجات من هذا النوع اشهرها زواج الحسن بن الافشين باترجة بنت اشناس التركي. وقد وصف المسعودي ابتهاج المعتصم بهذا القران فقال " و زوج المعتصم الحسن بن الافشين باترجة بنت اشناس وزفت اليه واقيم لها عرس يجاوز المقدار في البهاء والجمال وكانت توصف بالجمال والكمال. ولما كان من ليلة الزفاف ما عم سروره خواص الناس وكثيرا من عوامهم قال المعتصم ابياتا يصف حسنهما وجمالهما واجتماعهما وهي :

زفت عروس الى عروس ... بنت رئيس الى رئيس
ايهما كان ليت شعري ... اجل في الصدر والنفوس
اصاحب المرهف المحلى ... ام ذو الوشاحين والشموس (1)

1) المسعودي – مروج الذهب – ج 7 ص 133

وقد كان جمال الغلمان الاتراك باعثا على جلبهم ايضا وشدة الشغف بهم فهذا سيف الدولة الحمداني (332-356هـ/944-967م) المشهور بالجد يحزن كثيرا على غلامه التركي ((يماك)) عند موته بحلب سنة (340هـ/951م) وقد عزاه المتنبي عنه بقوله :

لأبقى يماك في حشاي صبابة	الى كل تركي النجار جليب
وما كل وجه ابيض بمبارك	ولا كل جفن ضيق بنجيب (1)

وقد روي ان عز الدولة البويهي (332-367هـ/943-978م) قد اسر له غلام في حرب دارت بينه وبين عضد الدولة (324-372هـ/936-983م) ، فاغتم واحتجب عن الناس وامتنع من الاكل ودفع في فدائه جاريتين بذل له في الواحدة منهما مائة الف وامر رسوله الى عضد الدولة بان يعطي هذا الامير ما اراد اذا ابى ارجاع الغلام (2) وقد نوه بعض الشعراء بجمال الغلمان الاتراك فقال :

1) المتنبي ـ الديوان ـ ص315
2) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص 163

"الله اكبر ليس الحسن في العرب * كم تحت لمة ذا التركي من عجب" (1)

ومن طريف ما يرويه داود الانطاكي في تزيين الاسواق تهديد مهذب الدين الطرابلسي للشريف الرضي بالعدول عن التشيع الى مذهب اهل السنة ان هو لم يرجع اليه غلامه التركي " تتر " وكان قد ارسله اليه بهدايا فظن الشريف انه من جملة الهدية فاخذه ، وقد قال مهذب الدين قصيدة في هذا الموضوع مطلعها :

عذبت طرفي بالسهر   واذبت قلبي بالذكر
ومزجت صفو مودتي   من بعد بعدك بالكدر

الى ان يقول مهددا بالخروج من مذهب الشيعة :

لئن الشريف الموسوي   ابن الشريف ابي مضر
ابدى الجحود ولم يرد   الى مملوكي تتر
واليت آل امية الطهر   الميامين الغرر
وجحدت بيعة حيدر   وعدلت عنه الى عمر (2)

وهكذا كانت قيمة هؤلاء الغلمان رفيعة في نفوس الناس اذ ذاك وكان الاقبال على جلبهم كثيرا فاقبل الخلفاء وسائر الوجهاء والاثرياء على اقتنائهم .

---

1) احمد امين — ظهر الاسلام — ج 1 ص 38
2) داود الانطاكي — تزيين الاسواق — ج 2 ص 21

الفصل السادس

توريد الرقيق الاسود

تجارة الرقيــق الاســـود

1) السـوداں

يطلق العرب القدامى لفظ " السودان " عادة على اجناس متعددة من الرقيق تشترك في سمرة البشرة او سوادها وتجلب من مناطق متنوعة ، ومن القليل النادر ان نجد عندهم تخصيصا لهذه التسمية وحصرا لها في الرقيق الاسود المجلوب من القارة الافريقية فمدلول الكلمة عندهم يشير الى اللون اكثر مما يحدد الجنس، ولذلك نرى الجاحظ يصف لنا انواعا من السودان حين يقول :

" والسودان اكثر من البيضان لان اكثر ما يعد البيضان فارس والجبال وخراسان والروم والصقالبة وفرنجة والابر وشيئا بعد ذلك قليلا غير كثير ، والسودان يعدون الزنج والحبشة وفزان وبربر والقبط والنوبة وزغاوة ومرو والسند والهند والقمار(1) والدبيلا والصين وماصين . والبحر اكثر من البر وجزائر البحر ما بين الصين والزنج مملوءة سودانا كسرنديب وكله (2) وامل وزابج (3)

---

1) بفتح القاف وكسرها - موضع بالهند ينسب اليه العود القماري
2) في معجم البلدان لياقوت : « كله : مرحلة بالهند [illegible] الطريق بين عمان والصين »
3) الزابج لياقوت : « [illegible] الزنج [illegible] الا ان [illegible] »

و جزائرها الى الهند الى الصين الى كابل وتلك السواحل ... "(1)

وفي آثار الجغرافيين العرب ما يدعم شمول هذه النظرة فهم يسمون " السودان " الى اقليم واحد ويثبتون علاقة بين خصائص ذلك الاقليم وسواد البشرة ، فابن حوقل يرى ان بلاد السودان تقع في الاقليم الثاني فتمتد من بلاد غانة الى الهند (2) ، اما الادريسي الذي يجعل السودان من سكان الاقليم الاول فيقول " واهل الاقليم الاول كلهم سمر او سود ، فاما اهل الهند والسند والصين وكل من احتضن منهم البحر فالوانهم سمر واما اهل الصحاري من الزنج والحبشة والنوبة وسائر السودان الذين سبق ذكرهم فلقلة الرطوبة البحرية وتوالي احراق الشمس لهم وممرها عليهم دائما تفلفلت شعورهم واسودت الوانهم ... "(3)

وشبيه بذلك راي العمري عندما يعرف السودان عموما بانهم سكان اقصى الجنوب (4) ولعل هذه النظرة قد بلغت اقصى درجات

---

1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص 215ـ226

2) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ الترجمة الفرنسية ـ ج 2 ص 2[illegible]5

3) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ طبعة رومة 1970 مجلد 1 ص 98 - الترجمة. طبعة دي غوية De Goeje - ودوزي Dozy - ص 161

4) العمري ـ مسالك الابصار - عن كوك - J - Cuoq - منتخبات ص 273

الوضوح والاتساع عند ابن خلدون. فالسودان عنده هم سكان الاقليم الاول والثاني من الشرق الى الغرب وهم يجاورون بلاد البربر بالمغرب وافريقية وبلاد اليمن والحجاز و البصرة وبلاد الهند وقد اسودت الوانهم بسبب حرارة المناخ (1).

فالسودان اذن بهذا المعنى اجناس متنوعة يجمع بينها لون واحد هو السواد . وبذلك نفهم السبب الذي جعل بعضهم مثل ابن النديم والادريسي يعتبر قسما من البربر من السودان ، فاهل " سدراتة " عند الادريسي هم بربر من زغاوة اختلطوا بالسودان فصاروا منهم. وكذلك " بغامة " نوع من البربر قد احرقت الشمس جلودهم حسب قوله (2).

لكن هذه التسمية مهما اتسعت وتنوعت مسمياتها فانها تشير الى نوعين رئيسيين من الرقيق الاسود قد كان لهما رواج كبير في هذه الفترة التي نهتم بدراستها، ونعني بهما الرقيق الاسود

---

1) ابن خلدون ــ العبر ــ ج 6 ص 419 المقدمة - طبعة كاترمار ج 1 ص 148 ــ 155
2) الادريسي ــ نزهة ــ الترجمة - دي غوية . De Goje ص 26 وص 108 ــ 116 ــ
ابن النديم ــ الفهرست ــ طبعة فلوجل Flügel - ليبزج - 1871 ص 19

الافريقي والرقيق الاسود الآسيوي ـ فقد كان الرقيق الهندي او السندي يعرض في الاسواق جنبا الى جنب مع الرقيق الحبشي والزنجي. ولذلك نرى الجاحظ يعتبر السند والهند مع السودان ويجمع في حديثه بينهم وبين الزنج (1) وكذلك يجمع الدمشقي والادريسي وابن النديم بين هذه الاصناف في حديث واحد (2) فلا مناص اذن من ان نتناول بالتحليل عمليات جلب كل من هذين النوعين من الرقيق الاسود ولنبدا بالحديث عن جلب الرقيق الاسود الافريقي

الانه كان اكثر انتشارا في الاسواق الاسلاميه مرجئين الحديث عن غيره الى الفصل القادم

---

2) المسلمون وبلاد السودان

ان عملية جلب الرقيق الاسود الافريقي ترجع الى عهود قديمة وسابقة لهذا العصر ، فقد كان السودان يبيعون ابناء جلدتهم للبيض منذ اقدم العصور وهي عادة عندهم سابقة لظهور الاسلام (3) وقد راينا في الفصول الماضية ان هذا التيار التجاري كان موجودا قبل الاسلام وانه قد تواصل

---

1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ج 1ص 212

2) الدمشقي ـ نخبة الدهر ـ ص 267 ـ الادريسي ـ نزهة ـ رومة 1970 مجلد 1 ص 98 ـ ابن النديم ـ الفهرست ـ ط فلوجل *Flugel* . ـ ص 19

3) اسماعيل حمت ـ موريطانيا السينيغالية ـ ص 35

Ismaël-Hamet - Chroniques Mauritanie-Sénégalaise - p35

بعده . فقد عرف العرب بعض المناطق المجاورة لهم من الساحل الافريقي الشرقي وخاصة منها منطقة الحبشة.وكانت لهم معها علاقات سياسية وتجارية. وعندما خرج العرب من جزيرتهم لنشر دينهم الجديد اتصلوا ببلاد السودان الداخلية عن طريق مصر والمغرب ، ولكن هذه الاتصالات كلها لم تكن كفيلة باطلاع العرب والمسلمين على شعوب السودان اطلاعا كاملا ولم تسمح لهم بمعرفتهم معرفة دقيقة ولا بالتعامل معهم بشكل مستمر. فقبل الاسلام كانت انظار العرب مشدودة الى شمالي بلادهم والى الامارات البيزنطية اكثر مما كانت موجهة نحو افريقيا (1) ولعل هذا هو السبب في اننا لا نجد عندهم ذكرا " السودان " ولا تتجاوز معرفتهم حدود " الاحباش". ثم ان فتح مصر بعد الاسلام هو الذي جعلهم باتصال لاول مرة مع سكان سود مثل النوبة الذين عقدوا معهم معاهدة البقط سنة (31هـ / 651م) (2) وذلك بعد فشل محاولة الغزو التي قام بها عمرو بن العاص سنة (23هـ/ 644م) (3) وفشل محاولة عقبة بن نافع التوغل في منطقة

---

1) يوسف كوك - J- Cuoq منتخبات - المقدمة ص 13 ـ 14
2) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص 278 ـ 240 -
3) المصدر نفسه ـ ص 237

63

كـــوار حنـوب فـزان سنة (46هـ/ 666م) (1) ولم يكونوا قبـل ذلـك يعلمون شيئـا فيمـا يـدوعـن الشعوب التى تسكـن جنوب مصـر والمغـرب . ولكـــن محـاولـة ثالثـة اكثـــر تنظيمـا قـد وقعـت بعـد ذلـك بحـوالـى مـائـــة عام (116هـ/ 734م) انطلاقا من السوس نحـو اودغست . وهي محاولـة سجـــل المـؤرخـون المسلمون نجـاحهـا . لكـن العرب لم يرجعـوا الى تلك المنطقـة ابدا فقـد عـوضهـم البربـر و سيطروا على الطرقـات والاسـواق (2) .

تلك هـي كـل صـلات المسلميـن ببلا د السـودان خـلال القـرن الاول و معظـم القـرن الثــانـي للهجـــــرة .

وقـد لا يكـون من بـاب المجازفـة ان نقـول ان العرب لم يعرفوا بلاد السودان معرفة دقيقـة الا ابتداء ا من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة . فالفـــزاري (النصف الثاني من القرن 2 هـ) هو اول من حاول تحـديـد المناطق التى يقطنهـا السود فيذكر غانة بلاد الذهب (3) ويذكـر سجلمـاسـة التى اسست اذاك منذ قليل والتى سيكون لها علاقة وثيقة بالتجارة بين غربي افرقيا وغربي المغرب . وهكذا كـانت المعرفة بشعوب السودان قليلة والدليل على ذلك قلة المعلومات التي يذكرها ابـــن خرداذبه (-272- هـ/ 885م) رغم مسؤوليته في ميدان البريد وهو لا يتعرض الا لبعض المعلومات التقليدية حول الحبشة والســـــودان .

1) ابن عبد الحكم _ فتوح افرقية والاندلس_ طبعة كاتو A-Gateau ص 122-ابن الاثير-الكامل ح 3-ص351 _ ط- ليد Leyde 1851-1876
2) البكري _ المسالك والممالك _ طبعة دي سلان-1965ص 156_ 158-ابن الاثير _ الكامل ح 8-ص 315 _ ط_ليد Leyde 1851-1876
3) المسعودي _ مروج الذهب ح 4 ص39

ولعله لم يقع التمييز بين شعوب السودان الا مع اليعقوبي في القرن الثالث للهجرة (ت. 278 هـ/ 891م) واول مظاهر هذا التمييز هو ادراك الفرق بين السودان الموجودين جنوبي سجلماسة في منطقة اودغست والسودان الوجودين جنوبي رويلة وبذلك وقعت الاشارة الى البابين الذين ينفذ عبرهما الى بلاد السود وهما سجلماسة وزويلة وكل منهما ملتقى الطرق التجارية الذاهبة نحو المغرب ومصر. كما يشير اليعقوبي الى بلاد السودان الشرقية الواقعة جنوبي مصر وبذلك وقع التفطن الى وجود ثلاث مجموعات من السود (1).

هذه هي الصورة التي حصلت للمسلمين عن بلاد السودان منذ القرن الثاني للهجرة وستزداد وضوحا خلال القرنين الثالث والرابع

1) اليعقوبي _ كتاب البلدان _ طبعة دي غوية - ليد Leyde - 1891

ص 360 و ص 345

للهجرة بعصل الاتصالات المستمرة والعلاقات *
التجارية مع هذه البلاد ولذلك نجد هذه
الصورة عند ابن الفقيه (-290 هـ/ 903م) كما
نجدها بعد نصف قرن عند ابن حوقل
(320 -377 هـ/ 932 - 988م) وسوف يحتفظ المسعودي
الذي تلا هؤلاء في الزمن (355 -356 هـ/ 956 - 957م)
بنفس المعلومات لكننا سنجد اوفى وصف لبلاد السودان في
كتاب البكري الذي الف في القرن الخامس للهجرة
وعند الادريسي في القرن السادس للهجرة فقد فصل كل
من المؤلفين الطرق والمسالك الرابطة بين شعوب السودان
من ناحية وبلاد الاسلام الواقعة شماليها اي مصر وافريقية والمغرب: .

3) اوضاع بلاد السودان :

ان بلاد السودان التي امست من اهم مصادر جلب الرقيق
الاسود منذ اواسط القرن الثاني للهجرة هي تلك المناطق الشاسعة
الواقعة باواسط القارة الافريقية وسواحلها الشرقية والتي تضم
شعوبا وقبائل و ممالك مختلفة من النيل الى المحيط (1) وقد قدر
صاحب ((حدود العالم))

---

1) نجاة باشا _ التجارة في المغرب الاسلامي ص 115_ 116

مساحتها بسبعمائة فرسخ على سبعمائة (1) ويمكن ان تقدر تلك المساحة كما قال "موريس لوبار" بمائتي الف 200،000 مرحلة (2) وهي كامل المنطقة الواقعة جنوبي مصر والمغرب (3) والممتدة شرقا الى الحبشة وسواحل البحر الاحمر وغربا الى المحيط وجنوبا الى الصحراء وشمالا الى بلاد البربر بافريقيا الشمالية (4).

وتنقسم هذه البلاد جغرافيا الى ثلاث مناطق تضم كل واحدة منها اجناسا مختلفة وشعوبا وقبائل متنوعة من السودان وتتميز عن غيرها من المناطق الاخرى بمسالك تجارية خاصة. فمنطقة بلاد السودان الشرقية تقع جنوب مصر وعلى ضفاف النيل الشرقية والغربية وتمتد على الشاطئ الغربي للبحر الاحمر، وهي تضم النوبة والبجة والحبشة وبلاد الزنج . اما منطقة بلاد السودان الوسطى فتقع جنوبي افريقية والمغرب الاوسط ويكون المنطلق اليها من بلاد زويلة والجريد التونسي وهي تضم منطقة كوار ومملكة كانم المتالفة من الزغاوة وكذلك شعب الكاوكاو.

و توجد منطقة بلاد السودان الغربية جنوبي المغرب الاقصى ويكون

---

1) مؤلف فارسي مجهول — حدود العالم - ص165
2) موريس لوبار = Maurice-Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص194 - 204
3) المقدسي البشاري — احسن التقاسيم — ص 231 و 241 و 242
4) القزويني — اثار البلاد واخبار العباد ص 11—38 - يوسف كوك J-Cuoq منتخبات —ص 193—199

المنطلق اليها من السوس ومن مدينة سجلماسة وهي تضم مملكة غانة ومملكة تكرور وما يتصل بهما من قبائل وممالك اخرى كمملكة " ملال " التي ستصبح " مالي " فيما بعد (1).

وقد كانت جل هذه الشعوب تعيش وضعا بدائيا خلال هذه الفترة من الزمن ،مما جعلها مرتعا خصبا من مراتع الاسترقاق.اذ كانت تحيا حياة قبلية قائمة على التناحر ودوس القوي للضعيف شانها في ذلك شان القبائل السلافية والتركية التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة.

وقد اضرب الاصطخري (ت. بعد 340هـ/ 951م) عن تفصيل المقال في بلاد السودان مكتفيا بالحديث عن سجلماسة وزويلة وقربهما من مناجم الذهب لانها بلاد عديمة الحضارة في نظره . يقول في ذلك : " وبلدان السودان بلدان عريضة الا انها قفرة قشفة جدا " (2) وقد كان لابن خلدون نفس الراي تقريبا رغم تاخره في الزمن وان كان يرى علاقة بين حياة السودان البدائية وظروف المناخ والاقليم الذي يعيشعون فيه ،فهم على حد قوله يعيشون في المغاور والغابات ويقتاتون بالاعشاب وهم متوحشون

---

1) اليعقوبي ـ كتاب التاريخ ـ عن يوسف كوك - Cuoq - J - منتخبات ص 11ـ13
2) الاصطخري ـ المسالك والممالك ـ طبعة دي غوية ص 40

لا عهد لهم بالتمدن والعمران. ويدفعهم توحشهم الى اكل بعضهم بعضـــا وهو يشبههم بالصقالبــة والاتراك في جهلهم بالشرائع والعلوم ويرى ان بعد اهل الشمال واهل الجنوب عن المناطق المعتدلة هو الذي تسبب في بعدهم عن الانسانيــة وقربهم من الحيوانيــة (1)

وكثيرة هي الاخبار التي نقلها الرحالة المسلمون حول صفــة التوحش في قبائل السودان ومن بينها تلك الروايات التي تجعلهم من اكلة لحـــوم البشر ، فقد روى لنا العمري (700 هـ/749هـ ـــ 1301م / 1349م) خبرا طريفا حول هذه الظاهرة مفاده ان احد التجار الذين يجلبون الملح الى بلاد السودان اهدى الى بعض ملوكهم شيئا من الملح فاعطاه مقابل تلك الهدية جاريتين من اجمل بنات السودان ثم صادف ان التقيا بعد ذلك فسال الملك عن حاله معهن وسأله هل ذبحهن واكلهن ام لا ونصحــه بان يفعل ذلك شارحا له لذة لحومهن ، فما بين له التاجر ان لحـــم الادمي محرم ساله عن اللحوم التي ياكلها فذكر له لحم البقر والغنـــم فاهدى له بقرا وغنما ، ويشير العمري الى ان اكلة لحم البشر يوجدون بعيدا

---

1) ابن خلدون ـــ المقدمة ـــ طبعة كاترمار -E. Quatremère- = ج1 ص148ـــ155

في اقصى الجنوب ومن اشهرهم بهذا الصنيع الزنوج .كما يبين لنا قدم هذه العادة عندهم. وتعرض الجاحظ (163هـ 780 م/ 255 هـ - 869 م) لها في كتاب البيان والتبين فقد ذكر فيه ان من الزنج من يقلع اسنانه الامامية ومنهم من يشحذها ويحدها، اما الاولون فلانهم ابوا ان يكونوا كالخرفان واما الفريق الثاني فهم اكلة لحوم البشر (1) .

ويصف لنا الرحالة المتاخرون في الزمن استمرار هذه العادة بعد الفترة التي ندرسها ، فيذكر لنا شمس الدين الدمشقي (ت. 727هـ/ 1327م) ان عادات السودان تشابه عادات الحيوانات اذ هم ياكلون كل ما تقع عليه ايديهم. واذا اسروا اسيرا قتلوه واكلوه كما يؤكل الصيد (2) ويشير مؤلف كتاب صور الاقاليم (النصف الاول من القرن الثامن للهجرة 8هـ/ 14 م) الى ان سكان بلاد " انكر " الواقعة غربي النيل الاسود (النيجر) متوحشون عراة الاجساد يهجمون على الاجنبي فيقتلونه وياكلونه (3) كما يقول نجم الدين الحراني في كتابه " جامع الفنون " الذي الفه سنة (732هـ/ 1332م)

---

1) العمري — مسالك الابصار في ممالك الامصار — مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5867 5868 ص -37- قـ5غا
2) الدمشقي — نخبة الدهر في عجائب البر والبحر — ص 88
3) مؤلف فارسي مجهول — صور الاقاليم — اعمال مؤتمر المستشرقين العالمي الرابع عشر ج 3 ص 22 — 27

ان قبائل " الدمدم " هم من اكلة لحم البشر (1) ولعل من اطرف ما حكاه شمس الدين بن بطوطة (703 هـ-756 هـ/ 1304 - 1356 م) ان السودان من غير المسلمين كانوا ياكلون رقيقهم. ولا ياكلون البيض لانهم يعتبرون لحمهم نيئا. ويقولون ان الذ جزء في الجسد الانساني النهود وراحة اليد (2) وقد يصل الامر احيانا الى نسج ما يشبه الخرافة حول هذه الظاهرة عندما نقرا في " آكام المرجان " ما يرويه اسحق بن الحسين (كان حيا سنة 340 هـ/ 950 م) حول السودان. اذ يقول انهم عندما شاركوا في فتح اسبانيا خاف القوط من مشهدهم لانهم كانوا اذا اسروا قوطيا اوهموا انهم ياكلونه فيزداد القوط من ذلك ذعرا (3) وقد وقعت هذه الحادثة حسب قول المؤلف في فتح طارق للاندلس سنة (-93- هـ/ 711م)

لقد كان في تداعي هذه المجتمعات اذن ما اهلها لتكون مصدرا للبضاعة البشرية، اذ لم يكن لاهلها من العقائد ما يمنعهم ما استرقاق بعضهم بعضا. ولم يكن لها من ازدهار العمران ما يعصم كيانها من ان يكون نهبا للامم المجاورة والمتحضرة اذاك. فاغلب شعوب السودان

---

1) الحرابي - جامع الفنون وسلوة المحزون - الفقرة عدد -30- وجه - عن يوسف كمال - ج 4 ص 1126

2) ابن بطوطة - تحفة النظار - طبعة باريس 1859 - 1869 مجلد 4 ص 429 - 430

3) اسحق بن الحسين - آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان - عن كوك ومسنج منتخبات ص 29 - 30

قد كانت على الوثنيـة باستثنـاء بعض المناطق التي دخلتها النصرانيـــة اواليهوديـة او الاسلام . فهذا البكري يقول عن اهل غانـة انهم بقوا علـى الوثنيـة الى ان سقطت مملكتهم تحت ضربات المرابطين سنة (469هـ/1076م) كما يصف لنا وثنيـة بلاد كانم الواقعـة جنوبي صحراء زويلـة (1) ويؤكـد العمري ما ذكره البكري فيقول عن السودان انهم سكان اقصى الجـنوب وانهم عبدة النار والاوثان باستثنـاء من يسكن الجزر ونصارى الحبشـة (2) هكذا كان اغلب السودان على " المجوسية " ولم يكن يوجد بينهم من النصارى الا اهل الحبشة والنوبـة (3) وبعض المجموعات في " بربرة " (4) ومن اليهود فئات من قبائل " اللملم " و " اميمة " وبلاد " قمنورية" (5) ومن المسلمين ما خلفتـه بعض الحملات منذ عصر الفتوحات بمصر والمغرب.وكذلك المناوشات التي حدثت في هذا العصر بين المسلمين وبلاد السودان ومن اشهرهـــا ما جرى باقليم البجـة (6) .

---

1) البكري ــ المسالك والممالك ــ طبعة دي سلان (M-G) De-Slane ص10ــ11ــ كوك ــ منتخبات المقدمة ص 22ــ23

2) العمري ــ مسالك الابصار في ممالك الامصار ــ مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5867و 5868 ص -1- قفا

3) ابن سعيد المغربي ــ بسط الارض في الطول والعرض ــ طبعة تطوان ــ ص 29

4) الزهري ــ كتاب الجغرافية ــ فقرة 339 و 341

5) المصدر نفسه ــ الادريسي ــ نزهة المشتاق ــ ص 17ــ18 و ص 106

6) ابن حوقل ــ صورة الارض ــ طبعة فيات Wiet - الترجمة الفرنسية ج 1 ص 48ــ52

وكانت قبائل السودان علاوة على ذلك في تنازع مستمر. فقد ذكر لنا المسعودي مثلا ان مملكة الزغاوة قد كانت في حرب متواصلة مع مملكة النوبة المجاورة لها. وان قبائل " الدمدم " تغير على بعضها بعضا (1) وكانت الممالك التابعة لاقليم البجة في تناحر ايضا حسب قول اليعقوبي (2) كما حدثنا البكري عن الحروب التي دارت بين اودغست وممالك السودان ومحاولة سيطرة هذه الممالك على بعضها بعضا (3) وقد كان هذا الوضع المضطرب يتسبب في اسر الكثيرين وبيعهم للتجار فيحملهم هؤلاء الى بلاد الاسلام، ولم يكن المسلمون بمنأى دائما عن استغلال هذه الاوضاع بل كانوا يقومون بمناوشات مع شعوب السودان بين الفينة والاخرى كما حدث ذلك مع اقليم البجة (4) كما ان انتشار الاسلام في هذا العصر بين بعض القبائل البربرية المتاخمة لبلاد السودان قد تسبب في هجومات على تلك البلاد.

ومن هذا القبيل ما ذكره ابن خلدون من ان لمتونة البربرية كانت

---

1) المسعودي ـ اخبار الزمان ـ طبعة يوسف كمال - Monumenta ج 3 سفر 2 ص 629

2) اليعقوبي ـ كتاب التاريخ ـ طبعة ليد Leyde - 1883 - كوك ـ منتخبات ص 11ـ13

3) البكري ـ المسالك والممالك ـ طبعة دي سلان - De Slane - (M-G) - ص 159

تعرو في عهد الناصر (300-350هـ/ 912-961م) والحكم المستنصر (350-366هـ/ 961-976م) وفي عهد عبيد الله المهدي (259-322 هـ/ 873-934م) وابنه ابي القاسم (278-334هـ/891-946م) المناطق المجاورة لها من بلاد السودان و تعرض عليها الحرية (1) .

لكن المسلمين قد دخلوا الى بلاد السودان في هذه الفترة تجارا اكثر مما دخلوا غزاة وكانت حالة السلم اكثر فائدة بالنسبة اليهم من حالة الحرب. فهمهم الاكبر هو البحث عن المعدن والحفاظ على مناجم الذهب وكذلك الحرص على التزود بالرقيق . ولذلك نرى العمري يؤكد في القرن الثامن للهجرة ان ارض المعدن قد تركت خارج دار الاسلام بعيدا عن النداء الى الصلاة وبقيت على الوثنية ولم يوظف على اهلها الجزية واعفيت من الغزو وحملات الجهاد حفاظا على مصالح المسلمين بها ومن اهم هذه المصالح المعدن والرقيق (2) .

كل هذه العوامل قد هيأت مناخا ملائما للاسترقاق . بل ان اليعقوبي يروي لنا ان من ملوك السودان من كانوا يبيعون رعاياهم دون سبب ودون وقوع حروب (3) وقد نقل ياقوت في معجمه عن المهلبي (ت380هـ/ 990م) ان الزغاوة كانوا يعبدون ملكهم وكان هذا الملك يسترق منهم من يريد (4) ومن مظاهر الاسترقاق ايضا ما يذكره البكري من ان اهل ((ترنقة)) وهي مدينة ببلاد السودان تجاور مدينة ((ملنبو)) كانوا يبيعون السارق او يقتلونه (5)

---

1) ابن خلدون ـ العبر ـ ط بيروت 1956 ج 6 ص 370 وما بعدها
2) كوك - J. Cuoq - منتخبات المقدمة ص 22/ 23
3) اليعقوبي - البلدان - طبعة دي غوية De Goeje - ليد Leyde - 1891 - ص 360 و 345 و طبعة فيات Wiet العربسية ص 205 و 226
4) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان - مادة . زغاوة
5) البكري ـ المسالك والممالك - طبعة دي سلان - (M. G.) De Slane ـ ص 173

ووصف لنا العمري عادات بقيت راسخة الى عهد متاخر في مملكة مالي ومنها ان من كانت له بنت جميلة اهداها جارية للملك. وتواصل العمل بهذه العادة بين اعيان هذه المملكة حتى بعد اسلامهم واعتناقهم لمذهب مالك (1) وكان التجار يسرقون الاطفال ويخصونهم ويبيعونهم بمصر وكان هنالك من بين السودان من يسرقون ابناء بعضهم بعضا ليبيعوهم للتجار الوافدين عليهم، مثلما كان يحدث بين سودان الزغاوة الموجودين بين النوبة والتنادد حسب ما يفهم من كلام مؤلف حدود العالم (2) ولم تكن هذه الظاهرة مقصورة على هذه الفئة من السودان. بل ان الادريسي ليشير الى انتشارها في شتى مناطق بلاد السودان. فيذكر ان اهل مدن تلك البلاد كانوا يختطفون ليلا اطفال القبائل الرحل بالصحراء ثم يخفونهم عندهم مدة من الزمن ويبيعونهم اثر ذلك للتجار بثمن بخس فيحملون الى بلاد الاسلام بالمغرب. ويضيف الادريسي ان السودان لا يرون ضيرا في هذه العملية التي كانت كثيرة الحدوث في بلادهم (3)

---

1) العمري – مسالك الابصار – مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5867 – 5866 ص 32 – كوك -Cuoq- J
منتخبات ص 273 – 302
2) مؤلف فارسي مجهول – حدود العالم – طبعة جيب Gibb - الترجمة الانكليزية ص 165
3) الادريسي – نزهة المشتاق – ص 110 وما بعدها من طبعة (دوزي Dozy ودي خويه De Goeje) – العربية - ليد Leyde - 1866

4) تجارة الرقيق ببلاد السودان الشرقية

ان عملية جلب الرقيق الاسود من منطقة بلاد السودان الشرقية ترجع الى عهود قديمة سابقة لهذا العصر . فقد رأينا في الفصول الماضية ان هذا التيار التجاري قد كان موجودا قبل الاسلام وانه قد تواصل بعده ورأينا ايضا انه كان مركزا على بعض مناطق الساحل الافريقي دون غيرها .

لكن المسلمين قد اتصلوا بمرور الزمن بقبائل السودان و ممالكهم الواقعة داخل البلاد .فعرفوا النوبة والبجة والحبشة وبلاد الزنج وغيرها من بلاد السودان الشرقية الواقعة جنوبي مصر ، واصبحنا نجد تحديدات واضحة في كتب الرحالة لهذه المنطقة مثل التحديدات التي نلاحظها عند اليعقوبي (1) وابن الفقيه (2) والمقدسي (3) وغيرهم وفيها تعريف لموقعها الجغرافي وللممالك القائمة بها ولعقائد اهلها ومللهم ، وكان البحث عن الذهب والرقيق هو الذي حفز المسلمين على التعرف على هذه البلاد وعلى ربط علاقات معها » . .

---

1) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ ص 334ـ338 ـ ط ـ ليد Leyde ـ 1891

2) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ص 76ـ78 ـ ط ـ ليد Leyde ـ 1886

3) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ 367 دي غوية De Goeje ـ لبد Leyde ـ 1877
ص 231 وص 241

أ- رقيق النوبــة

وقداتخذت العلاقات صيغا مختلفــة منها تلك الصيغة الواردة في معاهـــــد عبد الله بن سعد بن ابي سرح مع النوبــة سنــة (31 هـ/ - 652 - م) والــتي التزم النوبــة بمقتضاها بان يدفعوا للمسلمين ستين وثلاثمائة راس من الرقيق سنويــا في مقابل بعض الاغذيــة والاقوات ، وقد اشتهرت هذه المعاهــدة كما راينا باسم البقط . وذكر كاتب الشونة في مخطوطتــه انــه وقف على بعض بنود هذه المعاهدة فقال "... ولما مات عمر رضي الله عنــه نقض النوبــة الصلح الذي جرى بينهم وبين عبد اللــه بن سعد وكثرت سراياهم الى صعيد مصر فاخربوا وافسدوا . فغزاهم مرة ثانيــة عبد الله بن سعد بن ابي سرح وهو على امارة مصر في خلافــة سيدنا عثمان رضي اللــه عنه سنـــة احدى وثلاثين وحاصرهم بمدينــة دنقلــة حصارا شديدا ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبــة تعرفــه فبهرهم ذلك وطلب ملكهم الصلح فاجابــه عبد الله الى ذلك وقرر معـــه الصلح على ثلاثمائــة وستين راسا من الرقيق كل سنــة وكتب لهم كتابا وقفت على بعضه " (1) وقد سبق ان ذكرنا ايضا ان الاراء تكاد تتفق اليوم على مارجحــه المستشرق "برنشفيك" من ان " البقط "

1) احمد بن الحاج ابو علي كاتب الشونة ـــ مخطوطة كاتب الشونة ـــ تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل ص 125.

الذي عرفه المسلمون في القرن الاول للهجرة هو استمرار لعادة قديمة سابقة للاسلام وان هذه التسمية مشتقة من كلمة "باكتوم" "Pactum" " اللاتينية (1).

لكن الذي يهمنا هنا هو ان هذا البقط قد استمر دفعه مدة طويلة بعد فترة عقده، وكان الاساس الذي قامت عليه العلاقات بين بلاد النوبة وبلاد الاسلام في القرنين الثالث والرابع للهجرة (2) ولذلك نرى العمري عندما غزا اقليم البجة في عهد احمد بن طولون لم يعرض باذية لاهل النوبة وسالمهم " للعهد الذي لهم " (3) فلا مجال للشك اذن في ان البقط قد كان يمثل صيغة من صيغ جلب الرقيق الاسود في هذه الفترة التي نعنى بدراستها، وان كان دفعه قد تعرض لصعوبات احيانا والقطع في فترات معينة تميزت بالعداء بين الطرفين.

فقد ذكر البلاذري ان المسلمين واصلوا في عهد الخليفة المهدي

---

1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد - دائرة المعارف الاسلامية - محمد الطالبي الامارة الاغلبية ص 25 - 33

2) يوسف فضل حسن. العرب والسودان ص 24 - 28
ب . فوراند - P. Forand . العلاقات الاسلامية الاولى مع النوبة ص 114 - 115
جان كلود غارسين - Jean Claude Garcin - مركز اسلامي بصعيد مصر الوسيطة ص 41 - 43

3) البلوي - سيرة احمد بن طولون ص 64 - 65

العباسي (158-169هـ/775-785م) في القرن الثاني للهجرة ارسال الاغذية والاقوات الى النوبة واخذ الرقيق منهم. لكنهم رفضوا ان يعطوا الخمر والملابس والخيل بينما كان اهل النوبة يزعمون انه قد رخص لهم في هذه الفترة نفسها في ان يدفعوا رؤوس الرقيق المتفق عليها مرة كل ثلاث سنوات، لانهم لا يستطيعون ان ياسروا هذا العدد من الرقيق كل سنة. ويعارض البلاذري في كتابه هذا الزعم مع العلم بانه قد كتب رايه هذا في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة (1)

ويفهم من كلام المقريزي ان النوبة قد حصلوا على ترخيص بان يدفعوا الرقيق كل ثلاث سنوات بعد ان كانوا ملزمين بدفعه كل سنة. وقد احرزوا على هذه الرخصة في بداية القرن الثالث وعلى وجه التحديد في عهد الخليفة المعتصم (218-227 هـ/ 833 - 842 م) والسبب في هذا التحوير ان البقط لم يكن يدفع قبل ذلك بصورة منتظمة وانه قد مضت عليه اربع عشرة سنة لم يدفع خلالها مما دعا الى مراجعة النظر فيه والى التساؤل عن طبيعته والبحث عن حقيقته. وقد اشار المقريزي

1) البلاذري - فتوح البلدان ص 238

الى ان هذه المراجعة وقعت منذ سنة(211هـ)وربط بين الرخصة التي وقعت في عهد المعتصم وسفر ابن ملك النوبة الى بغداد. وذلك ان ملك النوبة زكريا zacharie ارسل ابنه جورج للتفاوض في شان البقط عندما طالبت بغداد بدفعه (1) ويرجح فيات G. Wiet ان رفض المسلمين لدفع الخمر في البقط قد وقع في هذه الفترة وربما في اواخر عهد المامون(2) وليس من المستبعد ان يكون المسلمون قد رفضوا اكثر من مرة دون ان يستجيب النوبة لرفضهم اذ كانت الخمر ضرورية للطقوس المسيحية ولغيرها من انواع الاستعمال (3).

وفي القرن الرابع للهجرة يصف لنا المسعودي عملية دفع البقط في صورة الحفل المنظم.وقد تزايد في زمانه عدد الرقيق المدفوع في البقط فاضيف عشرون راسا لعامل اسوان وخمس رؤوس لقاضي البلد واثنا عشر راسا للشهود الاثني عشر الذين يعينون عامل اسوان والقاضي بها على تنظيم

1) المقريزي — خطط — ج 3 ص 294 رقم 6 (طبعة فيات - G.Wiet)
2) المصدر نفسه
3) ب — فوراند- P_ Forand ص 120-جان كلود غارسين Jean claude-Garcin - مركز اسلامي بصعيد مصر الوسيطة ص 41 — 43

عمليــة تسلم البقط وقبضــه (1) فكأن الصعيد قد صار معبرا لهذه البضاعــة البشريــة التي كان المسلمون يرغبون فيها رغبــة كبرى ، وما من شك فــي ان هذا الرقيق النوبــي قد ساهم في تكوين كتائب السود التي وجدت في جيوش الطولونيين والاخشيديين (2).

وقد تواصل دفع البقط في عهد الفاطميين بمصر. اذ كانت علاقاتهم مع النوبــة حسنة في الغالب وان كانت لهم يد فيما يظهر في تشويش العلاقة بين النوبــة والاخشيدين مما عطل عمليات دفع البقط في بعض الاحيــان (3) . اما بعد استقرار الفاطميين بمصر فقد ساد الهدوء تلك العلاقات ووقـــع تجنب القطيعة حتى في اعسر الظروف، ومنها الحملــة التي شنت على المسيحيين في عهد الحاكم بامر اللــه (4) وقد شاهد ناصر خسرو امراء النوبــة يقطنون بالقاهرة (5) وقد ادلى ابن حوقل بنفس الشهادة فذكر ان النوبــة فـــي هدوء تام وان المسلمين يعيشون بينهم في مناطق مختلفــة ويتعاطون التجارة ويسافرون الى مكــة وغيرها (6) وهكذا انتشر الهدوء مما سمح لبعض العلمــاء

---

1) المسعودي ــ مروج الذهب ج 3ص 39 ـ طبعة" باريس - 1861- 1877
2) سيدة اسماعيل كاشف ــ مصر في عهد الاخشيديين ص 358ــ359 القاهرة 1950
3) جان كلود غارسين J-C. Garcin ـ مركز اسلامي بصعيد مصر الوسيطة ص 91ــ92
4) عبد المنعم ماجد ــ ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ــ القاهرة 1968 ص 234
5) س ــ لاين بول S. Lane-Poole ـ تاريخ مصر في القرون الوسطى ص 138
6) ابن حوقل ــ صورة الارض ــ ترجمة فيات G. Wiet ص 54 ــ 56 وص 147

في عهد الحاكم بالتفكير في اصلاح مجرى النيل وتحسين وسائل الري للزيادة في الانتاج(1) وقد كان هذا المناخ السلمي ملائما لاستمرار ورود رقيق البقط فسجل المقريزي هذا الورود سنة (585 هـ/ ١١٩٠ م) وسنة (443هـ/ ١٠٥١ م) ثم سنة (501 هـ/ -١١٠٧ - م) وامكن للمصريين ان يستوردوا ما شاؤوا من رقيق في هذه الفترة بل انهم قد احرزوا هذا الرقيق النوبي في شكل ضريبة حتى في عصور متاخرة عن هذه الفترة. اذ يذكر العمري ان ملوك دنقلة في عصره كانوا يدفعون ضريبة لحكام القاهرة تتمثل في عدد معين من العبيد من الذكور والاناث، وان اكبر هدية كانوا يقدمونها لضيوفهم واصدقائهم هي ان يهدوا اليهم عبدا (2) .

ولم تكن صيغة " البقط " هي الشكل الوحيد الذي اتخذته عملية جلب الرقيق من بلاد النوبة. بل ان معاهدة الصلح التي عقدها معهم عبد الله بن سعد بن ابي سرح سنة (31هـ/ ٦٥٢ - م) لتنص منذ ذلك التاريخ على السماح للمسلمين بالدخول الى النوبة لاشتراء الرقيق ولا تمنعهم الا من القيام بانتزاع العبيد بانفسهم بالقوة (3) وقد تواصل العمل

---

1) ابن ابي اصيبعة-عيون الانباء - ط 1882 ص 90 - 91
2) كوك- Cuoq -ج - منتخبات ص 273 - 302 ارشبالد لويس- السيادة الاسلامية ص 66
3) المقريزي - الخطط - ط - فييت Wiet - القاهرة - ١٩١١ - ١٩٢٧ - ج 1 ص ٣٢٢

بهذه المعاهدة كما راينا خلال القرون الموالية لهذه الفترة،ودل استمراره على وجود جلب للرقيق النوبي الى جانب رقيق البقط ، وقد ازدهر هذا التيار التجاري بمرور الزمن وخاصة في عهد الطولونيين والاخشيديين (1) واسى الصعيد المصري معبرا لهذه البضاعة الآدمية.وفي هذا العصر ظهرت شخصية الجلاب الذي سنجده باستمرار بعد ذلك (2).

لكن هذه الصبغة السلمية لم تكن ملازمة دائما لتجارة الرقيق النوبي اذ يعلمنا تاريخ البطاركة (3) ان العرب لم يحترموا نص المعاهدة الذي يمنع انتزاع التجار للرقيق بالقوة.كما نعلم ان الفترات القليلة التي توقف فيها دفع البقط قد كانت فترات صدام بين الجانبين تمكن المسلمون خلالها من شن هجومات على اهل النوبة وبيعهم في شكل رقيق (4) فقد راينا ان العلاقات مع الامراء النوبيين كانت مقطوعة في بداية القرن الثالث عندما زار المامون مصر.وكان ذلك التوتر استمرارا لاربع عشرة سنة مضت من العداء عقبتها حملات انتقامية مثل حملة سنة (241هـ/ 855 م) وسنة (339هـ/ 951 م) (5) ومن ادل الامثلة على هذه الهجومات ودورها

---

1) سيدة اسماعيل كاشف ــ مصر في عصر الاخشيديين القاهرة 1950 ص 358ــ359

2) جروهمان-اوراق البردى العربية -ج 5-ص 39-احالة رقم 295-
ج-فيات-أنصاب جنائزية-ج 4- عدد 1378
2) A. Grohman- Arabic Papyri in egyptian Library G.V. Caire - 1934-55
G. Wiet- Stèles funéraires - T4 - N: 1378

3) ايفتس - تاريخ البطاركة - ص 145
3) Evetts- Histoire des Patriarches - in Patrologia orientalis - V - p 145

4) المرجع نفسه ــ انظر ايضا: س-لاين-بول - تاريخ مصر-
4) S. Lane-Poole - A History of Egypt in the Middle Ages (in . W.M.F - Petrie - A History of Egypt - T6 . London - 1901)

5) انظر - ج-فيات- مختصر تاريخ مصر- (Précis de l'Histoire d'Egypte) - ج 2 - ص 113
سيدة اسماعيل كاشف ــ مصر في عصر الاخشيديين ص 358ــ359

في انتزاع الرقيق هجوم اهل النوبة سنة (344 هـ/ -955- م) وما تبعه من رد فعل من قبل الاخشيديين اذ تمكن امراء الفسطاط من التوغل الى " ابريم " واسر مائة وخمسين اسيرا وانتزاع عدة رؤوس (1) حملوا بعد ذلك الى العاصمة ، وقد شهدت الاحداث تصاعدا في هذا الاتجاه سنة (345 هـ/ -956- م) وسنة (352 هـ/ -963- م) بسبب الاضطراب الذي احدثه النزاع الفاطمي الاخشيدي (2) وهي الامثلة الدالة على توفر الرقيق النوبي بمناسبة هذه المصادمات ما ذكره البلوي من ان عبد الحميد العمري الذي قام بالصعيد المصري في عهد ابن طولون قد "كان مسالما للنوبة للعهد الذي لهم حتى بداله النوبي الاول الذي بالموضع المعروف بمريس (3) فعطف عليه العمري واجلاه عن دياره وحرق مدائنه وسبى منهم سبيا كثيرا حتى انه كان الرجل من اصحابه يشتري الحاجة من البياع او من البقال بنوبي او بنوبية لكثرتهم في ايدى اصحابه "(4).

1) انظر - احمد بن الحاج ابو علي — مخطوطة كاتب الشونة ص 127

2) جان كلود غراسين - J.C.Garcin - قوص — مركز اسلامي ص 43
Bianquis (Th) - La Prise du Pouvoir par les Fatimides en Egypte (Annales Islamologiques, XI Le Caire - 1972)

3) لعلها المريسة جزيرة في بلاد النوبة كبيرة كما في معجم البلدان لياقوت. ومريسة قرية بمصر وولاية من ناحية الصعيد ينسب اليها بشر بن غياث المريسي العلامة المعتزلي المشهور (محمد كرد علي — سيرة احمد بن طولون — لابي محمد عبد الله البلوي — دمشق 1358هـ ص 65)

4) البلوي — سيرة احمد بن طولون ص 64_65

ب- رقيق البجة

ومن الرقيق الاسود الذي دخل بلاد الاسلام عن طريق جنوب مصر رقيق البجة ، والبجة اقليم يوجد بين النوبة ومصر والحبشة ويحده البحر الاحمر شرقا والنيل غربا وبه مناجم الذهب الممتدة من ارباض اسوان الى قلعة عيذاب (1) وكان اهل هذا الاقليم في سلم مع المسلمين خلال القرن الاول للهجرة فلم يجد المسلمون انفسهم اذاك في حاجة الى عقد معاهدة معهم مثلما فعلوا مع النوبة ، اذ لم تحدث لهم مصادمات مباشرة معهم جديرة بالاهتمام ، فمنذ سنة (31هـ/-652-م) لاقاهم عبد الله بن سعد في رجوعه من حملته على النوبة وسال عن جنسهم ولم يابه لهم (2) ، وفي القرن الثاني للهجرة عند هجوم اهل النوبة بسبب سجن البطريق القبطي شارك البجة في الحملة وفرض عليهم المسلمون معاهدة ، وكان خطرهم يتمثل في انهم ياتون تجارا الى المدن المصرية ويسرقون الماشية ، وقد احتجز احد ممثليهم رهينة باسوان من اجل هذا

---

1) اليعقوبي ــ كتاب التاريخ ــ عن كوك -J-Cuoq- - منتخبات ص 11ــ13
ابن حوقل ــ صورة الارض ــ ترجمة فيات Wiet ج 1 ص 126

2) احمد بن الحاج ابو علي- مخطوطة كاتب الشونة - ص 126

التصرف واجبروا على ارجاع الماشيــة المسروقــة ودفع ثلاثمائة من الابـــل سنويا (1).

وما ان حل القرن الثالث للهجرة حتى دخل البجــة في صراع مع المسلمين وجلب اسراهم في صورة رقيق الى الاسواق الاسلامية عن طريق جنوب مصــر وقد وصف لنا ابن حوقل تحصن بعض المدن المصريــة مثل اسوان وقفــط وقوص بالاسوار من خطـر البجــة وذلك حوالي سنــة (212هـ/ -827 - م)(2) فقد هجموا سنــة (204 هـ/ -820 - م) على مدينــة قفط فخرج اليهـــم الحكم النبيغي واعمل فيهم الاسر والسبي مدة ثلاث سنوات (3) ثـــم تدخلت السلطــة المركزيــة ببغداد وارسل الخليفــة المامون احد ولاتـــه وهو عبد الله بن الجهم الى المنطقــة ، فحدثت له معهم وقائع عديــدة واسر منــه الكثير وفرض عليهم معاهدة لحمايــة طريق الحاج الذي كانـــوا يقطعونــه (4)

---

1) جان كلود غارسين ـ J.C.Garcin ـ قوص ـ ص 51ـ56
2) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ ترجمــة ـ فيات (G) Wiet ـ = ج 1 ص 48 ـ 52
3) المصدر نفســـه
4) احمد بن الحاج ابوعلي ـ مخطوطة كاتب الشونــة ـص 126

وقد عاد البجة الى الصدام مع المسلمين بعد تلك المعاهدة واتيحت فرص عديدة لمقاومتهم واسترقاقهم ،وكان استغلال مناجم الذهب الموجودة بارضهم سببا في هذا الاضطراب ، فقد كثر نزوح العرب في هذه الاثناء الى السواحل المصرية بسبب الاوضاع الرديئة في الجزيرة العربية وبسبب البحث عن الذهب.وكان المسلمون يستخرجون هذا المعدن ويعطون البجة نصيبا منه لان المناجم بارضهم ، وكان البجة مطالبين ايضا بدفع ضريبة على نصيبهم الى الخلافة ، لكن المسلمين لم يكونوا يعطونهم فيما يبدو ما يرضيهم فامتنعوا من دفع الضريبة وهجموا على المناجم سنة (240 هـ/ -854- م) (1) فارسل اليهم الخليفة المتوكل على الله محمد القمّي فهاجمهم وهزمهم وارسل رئيسهم اسيرا الى بغداد ، وفرض عليهم الاتاوة والبقط (2) فهل يعني هذا البقط المضاف الى الاتاوة دفع رؤوس من الرقيق كما كان الشان بالنسبة الى النوبة ؟ ليس لنا دليل على اثبات ذلك ولا على نفيه ايضا . لكن المحقق ان الكثير من رقيق البجة قد جلب الى الاسواق الاسلامية خلال هذه الاحداث ، ولعل من الاخبار المعبرة عن

---

1) جان كلود غارسين - J.-C.- Garcin - قوص ـ ص 51ـ56

2) احمد بن الحاج ابوعلي ـ مخطوطة كاتب الشونة ـ ص 126

ذلك ما ذكره ابن حوقل من ان القمي قد اصطحب رئيس البجة ورئيس النوبة الى بغداد وعرضا هناك على البيع بالمزاد (1)

ويصف البلوي مصادمات اخرى بين المسلمين والبجة في عهد الدولة الطولونية كان الصعيد المصري مسرحا لها. وقد تصدى لهذه الاحداث ابوعبد الرحمن عبدالحميد العمري فخرج اليهم في جيش كثيف واحدث فيهم مقتلة عظيمة حتى ادوا اليه الجزية وما ادوها لاحد قبله (2).

ولكن جلب رقيق البجة لم يكن رهين هذه الاحداث دائما فقد وجدت علاقات تجارية بين هذا الاقليم ومصر واليمن وصفها لنا اليعقوبي (3) ولم تكن مادة هذه التجارة الذهب المستخرج من المناجم فقط بل كانت بضاعة الرقيق تمثل مادة هذه العلاقات التجارية ايضا وقد وصف لنا صاحب كتاب البلدان الاسواق بوادي العلاقي حيث توجد ارض المعدن. فذكر ان المسلمين المشتغلين باستخراج التبر والقادمين خاصة من مصر والجزيرة العربية كانوا يشترون عبيدا سودا ويستعملونهم في الحفر، يقول في ذلك: " ووادي العلاقي كالمدينة العظيمة به خلق

---

1) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ ترجمة ـفيات Wiet (G.) = ج 1 ص 51ـ52
2) البلوي ـ سيرة احمد بن طولون ـ ص 64ـ65
3) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ طبعة دي غويية De Goeje (M.G.) ـ ص 336 ـ 337

من الناس واخلاط من العرب والعجم اصحاب المطالب وبها اسواق وتجارات. . . لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون في الحفر " (1) وقد زار ابن حوقل بلاد البجة في القرن الرابع للهجرة ولاحظ قدوم التجار اليها باصناف البضائع وعقدهم لصفقات تجارية حول مادة الرقيق فاشار الى تصدير رقيق البجة الى مصر على ايدي التجار المصريين او التجار البجة انفسهم(2).

ج - رقيق الحبشة

ان علاقات المسلمين التجارية مع الحبشة قديمة ومتينة كما رأينا سابقا وقد استمرت هذه العلاقات في القرنين الثالث والرابع للهجرة وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه ان العرب كانوا يقصدون سواحل الحبشة للتجارة وخاصة ميناء " دهلك " التجاري (3) كما يشير الادريسي الى ان التجار كانوا يقصدون ميناء " زالغ " الكائن على ساحل بحر القلزم ويستوردون منه الرقيق والفضة ويقول ان الذهب فيه قليل (4).

---

1) المصدر نفسه ص 334
2) ابن حوقل صورة الارض ـ ترجمة فيات Wiet -(G)- = ج 1 ص 51ـ52 وص 161
3) اليعقوبي كتاب التاريخ (ـكوك -Cucq- J- منتخبات ص 11ـ13)
4) الادريسي - نزهة المشتاق ـ طبعة رومة 1970 المجلد الاول ص 44

كان اذن من مواد هذه التجارة الرقيق الذي كان يجلب الى موانـي اليمن ومدنها فضلا عما كان يرسل عن طريق مصر برا وبحرا (1) فقد كـان قسم هام من الرقيق الحبشي يتجـه نحو سواحل الجزيرة العربيـة لمتانـة الروابط بين ضفتي البحر الاحمر وعراقتها ، ومن اشهر الاسواق التي كان الاحباش يجلبون اليها عدن وزبيـد ، وقد اطنب المقدسي في وصف رواج الرقيق الحبشي بعدن وقارن بين هذه المدينـة وعمان واستنتج من مقارنتـه تلك ان عدن تفضل عمان بالحبش والخدم (2) وتشير نصوص اخرى كتلك الـــتي خطها قلم ابن المجاور في كتابــه المستبصر الى ان اغلب اهل عدن اذاك كانوا من " الحبوش والبرابر " وانهم تغلبوا على صنعاء حتى ملكوها " وبقيـت دولتهم فيها في الكفر والاسلام الى ان افناهم علي بن مهدي سنـة اربـع وخمسين وخمسمائة ، وفي عهده انقرضوا وزالت دولتهم مع شدة صولتهم " (3) وقد حدثنا عن الضريبـة التي كانت توظف على بضاعـة الـرقيـق وهي ديناران على الراس الواحد (4) ومما يدل على غزارة هذه البضاعـة المجلوبـة الى اليمن

---

1) زيدان ـ تمدن ج 5 ص 39 ، متز ـ الحضارة الاسلامية ص 157 حدود العالم ص 169 الادريسي ـ طبعة رومة 1970 ـ مجلد 1 ص 46 ـ الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ص 76 ـ 77 جستاف لوبون G.Lebon ـ حضارة العرب ص 438 ـ 439 ـ الزهري ـ كتاب الجغرافية ـ فقرة 333

2) المقدسي احسن التقاسيم ص 97 ـ 98

3) ابن المجاور ـ المستبصر ص 54 و ص 25

4) المصدر نفسـه ص 60

ما يروى من ان حكامها قد فرضوا على " دهلك " سنة (366 هـ/ ٩٧٦ م)
ضريبة تتمثل في دفع خمسمائة وصيف وخمسمائة وصيفة من النوبة والحبش (1)

وكانت مدينة زبيد الواقعة بارض تهامة بين عدن ومكة سوقا للرقيق الحبشي مثل عدن وكانت صلتها بدهلك متينة. وقد ذكر الادريسي ان اهل الحبشة كانوا يجلبون رقيقهم الى " زبيد " حيث يبيعونه وان تجار مصر والحجاز كانوا يقصدون هذه المدينة ايضا شانهم في ذلك شان تجار الحبشة، وانهم كانوا ياتون منها بالافاويه الهندية والمتاع الصيني (2).

وقد عرفت ازدهارا تجاريا خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة تحت حكم بني زياد (٢٠٤ - ٤٠٢ هـ/ 820 ـ 1012م) وقد كان هؤلاء الزياديون يستوردون الاحباش ويعتمدون عليهم في حكمهم لانهم كانوا من الامويين اي من عرب الشمال فلم يكونوا يطمئنون لعرب الجنوب. وقد كثر عدد هؤلاء الاحباش شيئا فشيئا حتى استبدوا بالحكم وتخلصوا من آخر ولاة بني زياد. وعندما تولت اسرة بني نجاح الحكم طيلة قرن ونصف (٤١٢ - ٥٥٤ هـ/ 1021ـ1159) ازدادت العلاقة وثاقة مع الحبشة نظرا لاصلهم الحبشي فقد كانوا ياتون برجالهم

---

(1) ابو مخرمة ـ تاريخ ثغر عدن ـ ج 2 ص 17 ـ (2) الادريسي - نزهة المشتاق ـ المجلد الاول ص 52ـ 53 طبعة رومة 1970

من هناك ليستعملوهم في الحرب ولمقاومة الصلحيين التابعين للفاطميين ، وقد عرفت زبيد في هذا العهد بكثرة جواريها وقيانها اللائي كن يمثلن بضاعة لتجارة تدر ارباحا طائلة. ولعل مما يعبر عن تاثير هذه التجارة في هذه المدينة اننا نجد الى اليوم بها جزءا من السكان السود (1)

د - رقيق الزنج

اما رقيق الزنج فكان يجلب من الصومال وزنجبار والموزنبيق وغيرها من بلاد الزنج الواقعة على الساحل الافريقي وضفاف المحيط الهندي (2) وقد اشار الجاحظ في رسالة " فخر السودان على البيضان " الى مصدر الرقيق الزنجي فقال على لسانهم : " قالوا : وانتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط وانما رايتم السبي يجيء من سواحل قنبلة وغياضها واوديتها ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا ، وليس لاهل قنبلة جمال ولا عقول ، وقنبلة اسم الموضع الذي ترفون منه سفنكم الى ساحله . لان الزنج ضربان : قنبلة ولنجوية كما ان العرب ضربان قحطان وعدنان ، وانتم لم تروا من اهل لنجوية

---

1) انظر - ج . شلهود - مدخل لتاريخ زبيد - أرابكا - 1978 - ج 25 - قسم 1 - ص 48 - 88 -
J- Chelhod - Arabica - T XXV - Fascicule 1 - fevrier - 1978 - pp : 48-88

2) المروني - في الصين والترك والهند - نشر وترجمة وتعليق - مينورسكي - V- Minorsky - لندن 1942 ص 54
الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 76 - 77

احدا قط لا من السواحل ولا من اهل الجوف ولو رايتموهم نسيتم الجمال والكمال" (1)
فالجاحظ يحدد كما ترى نوع الزنج المجلوب ومصدره ، فقنبلة هذه هي
" جزيرة قنبلو " التي ذكرها المسعودي وقال عنها انها متاخمة لبلاد "سفالة"
وغيرها من بلاد الزنج المجاورة لـ " جبل القمر " (2) .

وكان هؤلاء الزنوج يوسقون الى جنوب الجزيرة العربية حيث تزدهر
تجارتهم (3) فقد كانت العلاقات التجارية وثيقة بين اليمن وبلاد الزنج وتسببت
في ازدهار عدن وغيرها من المدن اليمنية . وقد وصف لنا المقدسي هذه
العلاقات عندما زار اليمن فقال : " ولما ركبت بحر اليمن اتفق اجتماعي مع
ابي علي الحافظ المروزي في الجلبة فلما تاكدت المعرفة بيننا قال لي :
قد شغلت والله قلبي قلت : بماذا ؟ قال : اراك رجلا على طريق حسنة
تحب الخير واهله وترغب في جمع العلوم وقد قصدت بلادا قد غرت كثيرا
من الناس وصدتهم عن طريق الورع والقناعة واخشى اذا انت دخلت عدن فسمعت
ان رجلا ذهب بالف درهم فرجع بالف دينار وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة

---

1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان - رسائل الجاحظ ـ ج 1 ص 211
2) المسعودي ـ التنبيه والاشراف - ط - الصاوي - 1357هـ - ص 51
3) صوردال ـ حضارة الاسلام القديم ـ ص 317ـ323

وآخر بكندر فرجع بمثلـه كافورا طلبت نفسك التكاثر ، قلت : ارجو ان يعصم الله فلما دخلتها وسمعت اكثر مما قال غرني والله ما غر القوم وعملت على الذهاب الى ناحية الزنج وآتيت ما ينبغي ان يشترى وتقدمت فيه الى الوكلاء فهرد الله عز اسمه ذلك على قلبي بموت شريك كنت عاقدته وكسرت نفسي بذكر الموت وما بعده " (1)

ويوضح لنا البيروني طريقة تعامل التجار مع الزنج واحترازهم في التعاقد معهم لما عرفوا به من عدم الوفاء بالعقود (2).

وقد وصلت الى عدن عن طريق هذه المعاملات افواج من الرقيق الزنجي الذي كان ينقل الى سائر بلاد الاسلام او يستعمل على عين المكان في شتى المصالح ، ومن هذا القبيل ما رواه ابو مخرمة من ان ابا الحسن علي بن الضحاك الكوفي رغب في سكنى عدن " فاسترق رقيقا زنوجا وجعل العبيد يقطعون له الحجارة من جبال عدن والاماء يحملنه على ظهورهن " (3) .

وكان من بين هؤلاء الزنوج البرابر المجلوبون من " بربرة " وهم الذين يقول فيهم

---

1) المقدسي — احسن التقاسيم — ص 97—98
2) البيروني — الجماهر في معرفة الجواهر — نشر كرنكو — حيدر اباد الدكن 1355هـ ص 239
3) ابن المجاور — المستبصر — طبعة -اوسكار لوفجرين- Oscar-Löfgren- ليدن 1936 ص 54

صاحب كتاب المستبصر ان عددهم بعدن كعدد الاحباش.وان في نسائهم وقاحة(1) وقد تحدث ابن خلدون ايضا عن اهل بربرة واشار الى انهم جنس من السودان يوجدون بخليج عدن قرب الزنج وعلى ضفاف المحيط الهندي (2) وهؤلاء البرابر هم سكان الصومال. وقد ذكر المقدسي ان من الخصيان السود من كانوا يجلبون من (بربرة) الى عدن. ويصفهم بانهم اكثر انواع الخصيان سواد لون (3).

وكان الزنوج يجلبون ايضا الى جنوب العراق منذ عهود الاسلام الاولى كما راينا. وكانت الغاية من شرائهم استعمالهم في كسح طبقة الاملاح من بطائح البصرة لتصبح صالحة للزراعة. وكذلك استخدامهم في فلح اراضي السواد ، وقد احدثوا انتفاضات منذ ذلك العهد بسبب رداءة الظروف التي يعملون فيها (4) وقد تواصل جلب هذا الرقيق في القرن الثالث للهجرة الى هذه المنطقة وشهد اذاك نشاطا كبيرا(5) فكان التجار يعبرون الخليج

---

1) ابن خلدون-العبر — ط بيروت 1956 ج 6 ص 409 — 419

2) المقدسي-احسن التقاسيم ص 231 وص 241 — 242 - هارتمان - R. Hartmann
.. دائرة المعارف الاسلامية-الطبعة الثانية ج 1 ص 1207 — مقال (بربرة)

4) الجاحظ-فخر السودان على البيضان — رسائل الجاحظ ج 1 ص 190

5) صورد ال - Sourdel (D-J) - حضارة الاسلام القديم ص 317 — 323

الفارسي ويذهبون الى سواحل شرق افريقيا فيصلون الى سفالة (الموزنبيق)
ومقديشو وجزر الساحل وبعض المناطق من مدغشقر (1) وكانوا يبحثون عن الذهب
والرقيق (2) وقد سلك المسعودي هذه الطريق البحرية من زنجبار الى عمان
وذلك سنة (304هـ/ 916م) (3).

ومما يدل على كثرة الزنوج المجلوبين الى جنوب العراق ما ذكره الجاحظ
من ان عددهم كان يتزايد بالتوالد، ولولا مغادرة ابنائهم لهذه المنطقة لتغلبوا
عليها. يقول في ذلك " ولو ان الزنجي والزنجية اذا تناكحا بقيت اولادهما
بعد الحيض والاحتلام ببلاد العراق كانوا قد غلبوا على الدار بالعدد والجلد
والعلم والتدبير. ولكن ولد الهندي والهندية والرومي والرومية والخراساني
والخراسانية يبقون فيكم وفي بلادكم كبقاء آبائهم وامهاتهم ولا يبقى ولد الزنجيين
بعد الحيض والاحتلام، على اننا لا نصيب في عشرة الاف واحد (كذا) يبلغ
ما ذكرنا الا ان يغرب الزنجي في غير الزنجيات والزنجية في غير الزنج " (4).

---

1) المسعودي — مروج الذهب . ج 3 ص 6 - جوستاف لوبون - G. Lebon - حضارة العرب ص 438 - 439
الدوري — تاريخ العراق الاقتصادي — ص 145 — 150
2) مؤلف فارسي مجهول — حدود العالم ص 165
3) المسعودي — مروج الذهب ج 3 ص 31 - ط. باريس - 1861 - 1877
6) الجاحظ — فخر السودان على البيضان — رسائل الجاحظ — ج 1 ص 212

وهكـذا تالفت منهم جماعـات كثيرة بمنطقـة البصـرة واعلنت الثورة على الاسيـادالمالكين لهـا سنة (255هـ/ 868م) (1) فقـد كـان هؤلاء الزنـــوج يشتغلون عادة في جماعـات كبيرة تتراوح بين الف وخمسة الاف (2) بل قـد يصـل عـددهم الى اكثـر من هـذا باضعاف . اذ بلــغ عـدد احـدى هـذه الجماعـات في منطقـة دجيـل الاســوار خمســـة عشـر الفا (3) وممـــا زاد في اقبـال المسلمين بالعراق وغيرهـا مـــن بـلاد الاسلام على اقتنـاء هـذا النــوع من الرقيـــق رخص اثمـانــه ويتضـح ذلـك من خـلال العرض الذي قـدمه المالكـون لصاحـب الزنـج ابـان الثـورة . وهـو عـرض يتمثـل في خمسـة دنانيـر مقابـل استرجـاع العبـد الواحـد فاذا نظرنا الى ظـروف هـذا العـرض الذي كـان يستدعـي اغـراء قادة الثـورة فهمنــا ان قيمـة الزنجـــي فـي الظـروف العاديـة قـــد كـانت غيـر مرتفعــــــة (4) .

---

1) ابن خلدون ــ العبر ــ ط بيروت 1956 ج 6ص409، 419

2) لويس ما سينيون - LOUIS- MASSIGNON

مقال زنج ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ الطبعة الفرنسية ج 4 ص1281 - 1282

3) الطبري تاريخ الامم والملوك ج 3 ص 1750 ــ 1751

4) علي حسني الخربوطلي - عشر ثورات في الاسلام ص 53

5) رقيق بلاد السودان الوسطى

وكان المسلمون يستوردون الرقيق من بلاد السودان الوسطى ايضا وهي الواقعة جنوبي افريقية. وقد راينا انهم اتصلوا لاول مرة بهذه المنطقة عندما ولى عمرو بن العاصي ابن خالته عقبة بن نافع افريقية سنة (41هـ/ 661ـ 662م) فقد غزا عقبة اطراف بلاد السودان الواقعة جنوبي برقة وشن حملة على قبائل كوار السود وفرض عليهم جزية مقدارها ثلاثمائة وستون 360 راسا من الرقيق سنويا. كان ذلك سنة (43هـ/ 664ـ 665م) (1) او سنة 46هـ/ 666م) (2) حسب اختلاف الروايات.

لكن جلب الرقيق الاسود من هذه المنطقة قد اتسع مداه واتخذ شكلا تجاريا في العصور الموالية وخاصة في القرنين الثالث والرابع للهجرة. وامكن للتجار المسلمين ان يتوغلوا في اماكن اخرى من بلاد السودان الوسطى لم يكونوا يعرفون عنها شيئا كثيرا في السابق، فقد تجاوزوا حدود

---

1) ابن الاثير ـ الكامل ـ ط. ليدن Leyde ـ 1851 ـ 1876 ـ ج 3 ـ ص 354
2) ابن عبد الحكم ـ فتوح افريقية والاندلس ـ ط. الجزائر 1947 ص 63ـ65

فزان وكوار التي كانت خليطا من السودان والبربر الى قبائل الزغاوة الموجودين بين النوبة والتشاد (1) والذين كانوا يؤلفون مملكة كانم (2) وقد كانت اوضاع السودان بهذه المملكة في حرب مع النوبة في الشرق ومع قبائل الكوكو وملال في الغرب (3) وكانوا ياسرون بعضهم بعضا ويبيعون الاسرى للتجار القادمين لبلادهم (4) كما كانوا يسرقون الاطفال ويبيعونهم رقيقا ايضا (5) ويروي ياقوت في معجمه عن المهلبي انهم كانوا يقدسون ملوكهم ويسمحون لهم باسترقاق من ارادوا من الاهالي (6) ويضيف صاحب كتاب البدء والتاريخ ان كثيرا من الخصيان السود يجلبون من هذه الاماكن و خاصة من الزغاوة. وقد وجد التجار المسلمون الذين كانوا ينطلقون من جنوب افريقية نحو هذه البقاع موردا خصبا للبضاعة الآدمية التي كان يرغبون في توريدها فضلا عما كان يشغل بالهم من بحث عن الذهب.

---

1) كوك .Cuoq.J - منتخبات ص 36_38 ياقوت-معجم البلدان ـ مادة ـ زغاوة
2) اليعقوبي - كتاب التاريخ - عن كوك منتخبات ص 11_13 - ابن سعيد المغربي . بسط الارض ص 26_28 البكري - المسالك والممالك - ص 10_11 - طبعة باريس - 1965
3) المسعودي - اخبار الزمان - Monumenta ج 3 ص 629 - ابن سعيد . بسط الارض - ص 26_28
4) اليعقوبي ـ كتاب البلدان - ص 342 وص 360 -
5) مؤلف فارسي مجهول - حدود العالم ص 165
6) ياقوت معجم البلدان - مادة زغاوة

وكان منطلق هؤلاء التجار من مدينة زويلة الواقعة باقليم فزان (1) فهي المدخل الى بلاد السودان الوسطى (2) وملتقى القوافل القادمة من تلك البلاد . وبها اسواق عظيمة يصدر منها الرقيق الاسود الى افريقية والبلاد المجاورة لها (3) وقد ذكر البكري ان بيع هذا الرقيق كان مقابل قطع قماش حمراء كما اشار العمري الى هذه المعاملات ايضا (4) .
وكانت مدينة زويلة يقطنها مسلمون اباضية يشرفون على هذه التجارة . كما نجد مسلمين ايضا بمناطق اخرى عملوا على تيسير عمليات الجلب لهذا الرقيق ، اذ يذكر اليعقوبي ان بكوار مسلمون من كل الجهات وان اغلبهم من البربر وهم يمارسون هذه التجارة ، ومن المفيد في هذا السياق ان نورد هذا النص الذي تضمنه كتاب البلدان لليعقوبي اذ فيه وصف لاحوال

---

1) ابن سعيد - بسط الارض - ص 61
2) الاصطخري - المسالك والممالك ص 39 - 40 - اليعقوبي - كتاب البلدان ص 360 - 345 البكري - المسالك والممالك - ص 10 - 11 - ط. باريس - 1965
3) البكري - المسالك والممالك - ص 10 - 11 مؤلف كتاب الاستبصار - ترجمة فانيان E Fagnan ص 61 - 62
4) البكري - المسالك والممالك ص 10 - 11 - كوك - J. Cucq - منتخبات ص 273 موريس لومبار - Maurice Lombard - الاسلام في عظمته ص 103 - 120 - المقريزي - خطط - القاهرة 1324 هـ ج 1 ص 312 - 313

هذه التجارة بكل من زويلة وكوار يقول (... ووراء ذلك (ودان) بلد زويلة مما يلي القبلة وهم قوم مسلمون اباضية كلهم يحجون البيت الحرام واكثرهم روابه (كذا) ويخرجون الرقيق السودان من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من اجناس السودان لقربهم منهم وهم يسبونهم. وبلغني ان ملوك السودان يبيعون السودان من غير شيء ولا حرب ومن زويلة الجلود الزويلية وهي ارض نخل ومزدرع ذرة وغيرها. وبها اخلاط من اهل خراسان ومن البصرة والكوفة . ووراء زويلة على خمس عشرة مرحلة مدينة يقال لها كوار بها قوم من المسلمين من سائر الاحياء اكثرهم بربر وهم ياتون بالسودان)(1) وكان ببلاد كانم مسلمون ايضا وربما يعود استقرارهم بتلك الاماكن الى القرن الثاني ، اذ يذكر البكري ان جماعة من الامويين قد قصدوا هذه البلاد عندما طاردهم العباسيون (2).

وهكذا كانت القوافل المتجارة بالرقيق تنطلق من افريقية الى طرابلس مخترقة غدامس الى بلاد كانم الكائنة في صميم بلاد السودان وترجع من هناك عبر المناطق الاباضية محملة بالرقيق الاسود (3).

---

1) اليعقوبي – كتاب البلدان – ص 345

2) البكري – المسالك والممالك ص 10–11 – ط. باريس - 1965

3) روجي ادريس R-IDRIS - بلاد البربر - ج 2 ص 684 (عن البكري - نص عربي ص 10–11 نص فرنسي ص 27–29

وقد وجد مدخل آخر الى بلاد السودان الوسطى علاوة على زويلة والمدن الواقعة جنوبيها من كوار ومدينة اوجيلة التي يذكر الادريسي ان القوافل تمر بها في ذهابها من كوار الى كاوكاو (1) وهذا المدخل الثاني ينطلق من بلاد قسطيلية بالجريد التونسي. ومما يروى في هذا المجال ان كيداد والد ابي يزيد صاحب الحمار قد كان يقطن بطقيوس وهي احدى مدن قسطيلية. وكان يصاحب التجار في ذهابهم الى بلاد السودان فاشترى جارية من تدمكة وهي السوق المشهورة الواقعة شمالي كاوكاو (Gao) وكانت هذه الجارية سوداء تدعى سبيكة وقد انجبت له ابنا اعرج وله نقطة سوداء في لسانه فسماه ابا يزيد (2) فقد كان جلب الرقيق يتم اذن عبر هذه الطريق ايضا على ايدي بعض القبائل البربرية مثل مصراتة التي يقول عنها ابن خلدون انها فرع من هوارة وانها كانت تشتغل بالتجارة بين افريقية وبلاد السودان وتمثل همزة وصل بين الجريد التونسي وتلك البلاد (3) وعرف هذا الجلب نشاطا حثيثا حتى في العصور الموالية

---

1) الادريسي ــ نزهة المشتاق ص 312 - الترجمة - ط - ليد Leyde - 1866

2) ابن حماد ــ اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ــ ص18 من النص العربي وص 33 ــ 34 من الترجمة. انظر ايضا رواية ابن الاثير بالمقارنة مع هذه الرواية ــ الكامل طبعة طورنبرج Tornberg ج 8 ص 315

3) ابن خلدون ــ العبر ــ ط بيروت 1956 ــ ج 6 ص 290

لهذه الفترة من الزمن اذ يذكر ابن سعيد ان مدينة وركلان (ورقلة)Ouargla هي بلاد النخيل والعبيد وعن طريقها يمر الرقيق الذي يصدر الى المغرب الاوسط والى افريقية. ومنها يقع الانطلاق عبر الصحراء الى سائر بلاد السودان (1) والى ان تصل الى عنق نهر النيجر (2)

فمن هذين البابين كان الاغالبة بالقيروان والرستميون بتاهرت يتزودون بالرقيق الاسود ويصدرونه الى البلاد الاسلامية الاخرى . وقد وصف لنا ابن الصغير في كتابه عن الائمة الرستميين نشاط مدينة تاهرت التجاري. وقد كان هو نفسه تاجرا بها. وذكر وثاقة العلاقات التجارية بين هذه المدينة وبلاد السودان. ونص على سفارة في هذا المجال ارسلها الامام افلح بن عبد الوهاب (207- 258هـ/ 823ـ 872م) الى تلك البلاد وكان السفير اذاك محمد بن عرفة (3) وكانت مدينة القيروان سوقا لهذا الرقيق ايضا وكان ياتيها من زويلة بعد ان تجلبه القوافل من اقصى الجنوب كما كان امراء افريقية يتلقون هدايا من ملوك السودان تشتمل على رؤوس من الرقيق. ومن ذلك من رواه ابن عذاري من ان المعز بن باديس تلقى سنة (423هـ/ 1034م) هدية من ملك السودان فيها رقيق كثير (4)

---

1) ابن سعيد . بسط الارض ص 61
2) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية ص-65-66 . - لومبار - Lombard - الاسلام في عظمته الاولى -ص 151
3) ت - لويكي - دولة تاهرت - ص 515 - كراسات الدراسات الافريقية - 8 - سنة 1962
T. Lewicki - L'Etat Nord Africain de Tahert - cahiers d'études Africaines - 8 - 1962 - p 515
4) ابن عذاري ـ البيان المغرب ج 1 ص 275

6) رقيق بلاد السودان الغربيـــة

كان اول اتصال للمسلمين ببلاد السودان الغربيـة في القرن الاول للهجرة وذلك عندما "فتح عقبـة عامـة بلاد البربر الى ان بلغ طنجـة وجال هنالك ولا يقاتلـه احد ولا يعارضـه حتى فتح كورة من كور السودان "(1) سنـة (63 هـ/ 682_683م) وكانت المنطقـة التي هجـم منها على تلك البلاد هي السوس بجنوب المغرب الاقصى (2) لكن الحملـة التي مكنت المسلمين مـن التوغل فعلا في هذه المنطقـة من بلاد السودان واتاحت لهم الحصول علـى رؤوس من الرقيـق الاسود هي تلك التي حدثت سنـة (116هـ/ 734_735م) ففي تلك السنـة جهز عبيـد الله بن الحبحاب والي افريقيـة من قبل هشـــام بن عبد الملك جيشـا بقيـادة حبيب بن ابي عبـدة حفيـد عقبـة بن نافـع الفهري ، فرحل القائد الى السوس الاقصى وتوجـه نحو اودغست وغزا بـــلاد السودان ثم رجع منتصرا وبيـده غنائـم كثيرة وعدد غفير من الاسرى والسبـــي من بينـه جاريتان من ذوات الثدي الواحد (3) يقول ابن عذاري : "وبعـــث (عبيد الله بن الحبحاب) حبيب بن ابي عبدة بن عقبـة بن نافع الفهري غازيـا

---

1) ابن عذاري ـــ البيان المغرب ـــ ج 1 ص 28
2) ابن خلدون ـــ العبر ـــ ج 6 ص 217 - ط. بيروت 1959
3) ابن عبد الحكم - فتوح افريقية والأندلس - ص 122 - ابن الاثير - الكامل - ط. طورنبرج- Tornberg
ج 5 ص 141

الى السوس الاقصى فبلغ ارض السودان ولم يقابله احد الا ظهر عليه.
ولم يدع بالمغرب قبيلة الا دخلها واصاب من السبي امرا عظيما.
ووجد جاريتين ليس لكل واحدة منهما الا ثدي واحد.
ثم رجع سالما ظافرا " (1).

وكان الغزاة العرب منذ ذلك التاريخ يرتادون تلك المناطق بين الفينة والاخرى ويهجمون على قبائل البربر والسودان الموجودة جنوب بلاد السوس. وقد روى ابن الفقيه عن المثنى بن الاسود انه قال : ((غزوت بلاد انبية عشرين غزاة من السوس الاقصى)) (2) وانبية هؤلاء هم بربر ملثمون من صنهاجة يوجدون في الصحراء الفاصلة بين سجلماسة واودغست (3) وهكذا فتح العرب طريقا احرى غربية الى بلاد السودان منذ القرن الثاني للهجرة وكان همهم موجها الى الذهب الموجود هناك. وقد اهتم بفتح هذه الطريق التجارية والي افريقية عبد الرحمن بن حبيب الذي كانت ولايته سنة (127هـ/745م) وقد شجعه على فتحها نجاح الغزوة التي حدثت سنة (116هـ/734م) (4) وقد اشار مؤلف كتاب الاستبصار الى ان الطريق الرابطة

1) ابن عذاري ـ البيان المغرب ج 1 ص 51
2) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ص 64
3) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ص 360
4) ج ديفيس - تدغوست 4) J. Devisse - TedGaoust . 1970 - I . p.109-166 =
(انظر ـ مقالا لنفس المؤلف حول طرق التجارة ـ مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي 1972 ص 41 73 - (- J. Devisse - Revue d'Histoire économique et Sociale 1972 - pp 41-73)

ر- موني -طريق صحراوية ـ نشرية العلاقات الصحراوية 1953 ع 12 ـ دد ص 31/ 41
- R. Mauny - Un itinéraire transsaharien du M.A - Bulletin de liaison Saharienne - 1953 - N° 12 - pp 31-41

بين وادي درعة بالمغرب وبلاد غانة قد احدثها الامويون (1) الا ان العرب سوف لن يرجعوا الى هذه المنطقة وسيعوضهم البربر الذين سيسيطرون على الطرق والاسواق (2).

تعرف المسلمون اذن على ممالك السودان الغربية وعقدوا معها علاقات تجارية منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. وكان الهدف من هذه العلاقات البحث عن الذهب والرقيق، ومن اشهر تلك الممالك مملكة غانة التي يصفها الفزاري بكونها بلاد الذهب (3) وهي مملكة توجد جنوب اودغست وبقيت على الوثنية الى ان سقطت تحت ضربات المرابطين سنة (469هـ/ 1076م) (4) وقد كان اهل غانة يغزون السودان المجاورين لهم ويأسرونهم ويبيعونهم ومن بينهم قبائل " اللملم " و "كوكو" فكان اسرى هذه القبائل يكونون اغلب الرقيق المجلوب الى المغرب (5).

---

1) مؤلف مجهول. الف حوالي 588هـ/ 1192م وهو ناقل عن البكري — الاستبصار. ترجمة أ. فانيان - E. Fagnan - قسنطينة 1900 ص 188-189
2) كوك - J. Cuoq - منتخبات - مقدمة ص 14-15
3) المسعودي — مروج الذهب — ج 4 ص 39 - ط. باريس - 1861 - 1877
4) الزهري - كتاب الجغرافية - فقرة (334-338) كوك - J. Cuoq - منتخبات - مقدمة ص 22-23
5) ابن خلدون - المقدمة - كاترمار - Quatremère - ج 1 ص 95 - ابن سعيد المغربي - بسط الارض ص 24-28، الادريسي - نزهة - ط روما 1970 مجلد 1 ص 19-20

وقد ذكر الزهري ان اهل غانة كانوا يغزون بلاد اميمة ويسترقونهم وبقوا على هذه العادة حتى بعد اسلامهم. وهو يشير الى ان اميمة هذه هي احدى قبائل جناوة وانهم مجوس يسكنون الرمال تحت خيام من نبات الصحراء (1) .

ونحن نجد عند الادريسي بالرغم من تاخره في الزمن صورة عن هذا الوضع ببلاد السودان الغربية وعن الظروف التي جعلت منها مصدرا هاما لجلب الرقيق الاسود الى المغرب. فمما ذكره عن اهل سلا وتكرور وغانة انهم كانوا " يغيرون على بلاد "لملم" ويسبون اهلها ويجلبونهم الى بلادهم فيبيعونهم من التجار الداخلين اليهم فيخرجهم التجار الى سائر الاقطار " (2) فهو يصف لنا النزاع بين الاهالي السود وما يسفر عنه من بيع للرقيق ، ويشير الى ان قبائل " اللملم " كانوا نهبا لجيرانهم المحيطين بهم فاهل غانة يسترقونهم ويبيعونهم في بلادهم عندما يقصدهم التجار (3) وكان سكان مدينة " غيارة" يمتطون الابل ويتزودون بالماء ويسيرون ليلا ثم

1) الزهري ــ كتاب الجغرافية ــ فقرة 334 ــ 338 انظر ايضا ـ كوك Cuoq .J ـ منتخبات ـ ص 92 ــ 102
2) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ طبعة رومة ، 1970 ـ المجلد الاول ـ ص 19
3) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ الترجمة ص 17 ــ 18 طبعة ـ دي غوية De Goeje ـ ليد Leyde ـ 1866

يهجمون عليهم نهارا فياسرون منهم العديد ويرجعون مصطحبين ما انعم الله عليهم به من رقيق اللملم (1) كما يشير المؤلف الى قبائل عديدة من السودان توجد غربي بلاد اللملم وتعيش في وضع بدائي وتتعرض لغزو جيرانها فيؤسر افرادها ويسترقون. لكنه يلاحظ ان اغلب الرقيق المجلوب الى المغرب كان من جنس " اللملم ". وهو رقيق كان يوسم بجرح في الوجه بواسطة الكي ويعتبر ذلك علامة تميزهم عن غيرهم (2)، اما ما بعد بلاد " اللملم " جنوبا فصحاري لا عمارة فيها حسب قوله. وبذلك تكون تلك البلاد هي اقصى البقاع التي تصدر الرقيق في بلاد السودان الغربية (3) ويصف الادريسي ضربا آخر من ضروب استرقاق السود. وذلك ان اهل المدن كان يسرقون اطفال السودان الرحل ثم يخفونهم ويبيعونهم للتجار بثمن زهيد فينقلهم اولئك التجار الى المغرب الاقصى في شكل رقيق (4).

1) المصدر نفسه الترجمة ص 24 ـ وطبعة رومة 1970 المجلد الاول ص 26
2) المصدر نفسه الترجمة ـ ص 20ـ21 وطبعة رومة 1970 المجلد الاول ص 19ـ20
3) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ طبعة رومة 1970 المجلد الاول ص 19ـ20
4) المصدر نفسه ـ الترجمة ـ ص 110

ولم تكن هذه الغارات بين ممالك السودان وقبائلهم فقط. بل ان البربر باودغست كانوا يغيرون عليهم ايضا ويغزونهم على حد قول اليعقوبي (1) كما يصف البكري سيطرة ملك اودغست في القرن الرابع للهجرة وعلى وجه التحديد بين سنة (350هـ/ 961م) وسنة (360هـ/ 971م) على اكثر من عشرين ملكا من ملوك السودان (2) ويذكر لنا ان هذا الملك الذي يدعى " تين يورتان بن وسنو بن نزار " وينتمي الى صنهاجة قد شن حربا على مملكة " اوغام " شرقي غانة واوسع فيهم القتل والسبي حتى كانت نساء " اوغام " يسارعن بالانتحار كي لا يقعن في ايدي البيضان اي البربر (3) كما يذكر نفس المؤلف ان قبائل لمتونة توجد على مسافة عشرة مراحل من بلاد السودان وانهم يقومون بالجهاد تحت رئاسة محمد بن تارسنة او تارشنة (4).

---

1) اليعقوبي – كتاب البلدان – ص 360

2) يصف لنا ابن حوقل وابن ابي زرع نفس الوضع مع اختلاف في التاريخ واسم الملك – راجع : كوك : - J.- Cuoq - منتخبات ص 50–87

3) البكري – المسالك والممالك – طبعة دي سلان . ص 159

4) المصدر نفسه ص 164 وما بعدها ويذكر المؤلف ان ابن تارسنة هذا قد توفي بارض السودان ببلاد تدعى ككارة (ص 164 ومابعدها) وقد تحدث ابن ابن زرع كذلك عن هذه الشخصية في روض القرطاس ص 75 ويرى ف. مونتاي - V. Monteil ان ككارة Gangara هو اسم يطلقه عرب المغرب على جنس "صوننكي" Les Soninké (انظر طبعة 1958 ص 100) وراجع ايضا (كوك - J. Cuoq - ص . 80–87)

وكانت مدينة سجلماسة التي اسست في القرن الثاني للهجرة (1) منطلقا للقوافل التجارية المتوجهة نحو بلاد السودان الغربية. وقد اكتسبت هذه المدينة اهمية تجارية بسبب قربها من تلك البلاد وجلبها للرقيق والذهب من مملكة غانة (2) وقد تحدث الرحالة عن دور هذه المدينة التجاري منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ولم يمض اذاك على تاسيسها الا فترة وجيزة من الزمن ، ولنا فيما نقله المسعودي عن الفزاري ما يشير الى اوضاع هذه المدينة اذاك من الوجهة الاقتصادية والسياسية (3) وقد لاحظ اليعقوبي في القرن الثالث للهجرة هذه الخاصية التي تميزت بها بسبب متاخمتها لبلاد السودان (4) ويدل كلام ابن حوقل عن هذه المدينة التي زارها سنة (340هـ/ 951م) وشاهد بها انواعا من التجار وكثيرا من الثروات على انها احتفظت بمركزها التجاري في القرن الرابع للهجرة . فقد كان التجار

---

1) ابن عذاري ــ البيان المغرب ــ ج 1 ص71 : يقول انها اسست سنة (141 هـ/759م)
وقد اسسها حكام تفليت الرستميون عام 758م (انظر ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية" ص65ـ66
2) الاصطخري ــ المسالك والممالك ص 39ــ40
3) المسعودي ــ مروج الذهب ــ ج 4 ص 39 - ط - باريس - 1861 - 1877
4) اليعقوبي ــ كتاب البلدان ــ ص 360

المشارقة من عراقيين وغيرهم يقصدونها ويعقدون بها صفقات الرقيق ويذكر هذا الرحالة انه شاهد بمدينة "اودغست" وثيقة يعترف فيها احد التجار بدين مبلغه 42،000 دينار لفائدة احد سكان سجلماسة وانه لم يسمع بشيء شبيه بهذا في المشرق، ولما حكى ذلك لاهل العراق وخراسان وفارس اعتبروه امرا غريبا، ولاحظ ابن حوقل ايضا مكوسا توظف بسجلماسة على القوافل المتاجرة مع بلاد السودان وانواعا اخرى من العشور والجبايات على تجارة هذه المدينة مع مدن اخرى بالمغرب مثل فاس واغمات والسوس ومع بلدان اسلامية اخرى مثل افريقية والاندلس، وكان المبلغ الجملي لتلك الجبايات اربعمائة الف دينار 400،000 ويمثل حوالي نصف موارد المغرب من اقصاه الى ادناه حسب قوله (1) ويصف لنا المسعودي صورة المعاملات في هذا العصر بين تجار سجلماسة وسودان بلاد غانة وهي معاملات تقوم خاصة على توريد الرقيق والذهب (2).

---

1) ابن حوقل – صورة الارض – ترجمة – فيات (G). Wiet – ج 1 ص 97
دي لافوس – تاريخ الصحراء – هسبيرس – 1930 – ص 58 Delafosse. Hist du Sahara – Hespéris

2) المسعودي اخبار الزمان – في = Monumenta – ج 3 قسم 2 ص 629

وقد عرفت سجلماسة هذا الازدهار التجاري في ظل بني المنتصر الذين حكموا بها من سنة (-138 - هـ/ 756م) الى سنة (346 هـ/958م)(1) وكانت قبائل البربر هي المشرفة على تجارة الرقيق اذاك والقائمة بدور الوسيط التجاري بين المغرب وبلاد السودان ، وتوجد تلك القبائل في ((صحراء نزار)) جنوب سجلماسة ، وهي صحراء تخترقها القوافل المتجهة نحو غانة طيلة 12أو 14 يوما دون ان تجد بها ماء فكان التجار يتزودون بالماء قبل رحيلهم .وكانوا يسيرون فجرا الى مطلع الشمس ثم ينيخون في القيلولة لشدة الحر ثم يسيرون بعد العصر الى العتمة ثم ينيخون الى الفجر (2) وبهذه " المجابة الكبرى "

1) المسعودي ــ مروج الذهب - ج 4 ص 39 - ابن حوقل -صورة الارض - ترجمة فيات Wiet ج 1 ص 97
ت-لويكي- دولة تاهرت - كراسات الدراسات الافريقية - 1962 -عدد 8- ص517-518
T. Lewicki - L'Etat Nord Africain de Tahert et ses Relations avec le Soudan occidental à la fin du 8e et au 9e siècle -
Cahiers d'Etudes Africaines
1962 - N°8 - pp 517-518

2) الادريسي ــ نزهة المشتاق ــ الترجمة ص 108
ابن سعيد ــ بسط الارض ــ ص 47
الحرائي ــ جامع الفنون - عن يوسف كمال - Monumenta - ج 4 قسم 1ص 1126_1128

على حد تعبير البكري (1) توجد قبائل مسوفة البربرية التي قال عنها ابن حوقل انها كانت تتقاضى في زمانه اموالا على التجارة التي تمر بها (2).

وتمر القوافل التجارية بعد اختراقها لتلك الصحراء وقبل وصولها الى غانة بمدينة " اودغست " (3) وهي محطة تجارية تصلها القوافل بعد مسير اربعين 40 يوما من سجلماسة وتوجد على ابواب بلاد السودان اذ تقع تلك البلاد جنوبيها وشرقيها (4) وكان ملكها يقوم بغزوات في بلاد السودان وله ممالك عديدة (5) وقد زار ابن حوقل هذه المدينة سنة (340هـ/ 951م) وذكر ان سكانها هم بربر صنهاجة وانهم على صلة وثيقة ببلاد غانة اذ كانوا يصدرون اليها الملح ويستوردون منها الرقيق والذهب. وقد عملت هذه العلاقات على خلق ثروات كبيرة باودغست. فقد كان الحمل الواحد من الملح يباع ببلاد

---

1) البكري — المسالك والممالك. ط. De Slane ص 164 وما بعدها
2) ابن حوقل — صورة الارض — ترجمة نيات (G). wiet ج 1 ص 100
3) اليعقوبي — كتاب البلدان ص 360
4) ابو الفداء. كتاب الجغرافية ترجمة. رينو Reinaud (M). ج 2 - ص 174-175
5) اليعقوبي. البلدان. ص 360 — البكري — طبعة دي سلان De Slane (M.G) - ص 159

السودان بمائتين او ثلاثمائة (200 أو 300) دينار (1) وقد قامت بهذه المدينة اسواق رائجة يقصدها التجار من كل صوب. وقد وصفها لنا ياقوت نقلا عن المهلبي (2) وقد اشتهرت اودغست بكثرة رقيقها وجودته. وقد زودنا البكري بمعلومات هامة حول هذه البضاعة فذكر ان بهذه المدينة طباخات ماهرات من السودانيات ثمن الواحدة مائة مثقال من الذهب وازيد. وهو مقدار يمكن اذاك من شراء عشرة حملان. وقد مهرت تلكم الطباخات في صنع الحلويات وخاصة القطائف المصنوعة من الجوز والعسل ، وتوجد باودغست ايضا جوار جميلات رشيقات القوام ضيقات الفروج يخيل لمن وطئهن انهن عذارى (3) وقد روى المؤلف عن محمد بن يوسف عن ابي بكر احمد بن خلوف الفاسي عن ابي رستان احد سكان جبل نفوسة القائمين بالتجارة في اودغست انه شاهد بها جارية مضطجعة على جنبها وابنها يخرج من تحتها بسبب عظم عجزها (4) وكان سكان هذه المدينة اثرياء يملكون العديد

---

1) ابن حوقل صورة الارض ـ ترجمة فيات G. Wiet ج 1 ص 99
2) ياقوت ـ معجم البلدان ـ مادة: اودغست
3) البكري ـ المسالك والممالك ـ طبعة دي سلان De Slane (MG) ص 158
4) المصدر نفسه ص 159

من العبيـد حتى ان الواحد منهم كان يملك اكثر من الف عبد (1) اما المشرفون على هذه التجارة فهم بربر صنهاجـة الذين كانوا يسـتوردون الرقيـق من غانـة ويصدرون اليها الملح المستخرج من المناجم الكائنـة بارضهـم (2).

وهكذا كانت القوافل التجاريـة تمثل الخط الرابط بين اودغسـت وغانـة وتعمل على ازدهار تجارة الرقيـق بهذه المدينـة (3) وكانت مملكة غانـة اذاك من اغنى ممالك السودان واروجها تجارة واكثرهـا عـددا وعـدة ، فالذهب ينبت بها "كالعشب في الرمال "(4) وملكها يسيطر على الكثير من امم السودان. فقد كانت القبائل المجاورة لمملكتـه تتقرب اليه بسبب حاجتها الى الملح المجلوب من بلاد الاسلام (5) ويذكر الادريسي ان تجار المغرب الاقصى يقصدون مدينـة غانـة لما فيها من اسـواق رائجـة لا يؤمها الا التجار المياسير (6) وكان الرقيق الاسود المجلـوب

---

1) المصـدر نفسـه - ص 164_174
2) المصدر نفسـه - ص 163 _
T. Monod - Al-Madjāba al-Kubrā - Dakar - ت. مونود - المجابة الكبرى - دكار - 1958 - ص 128.130
ابن سعيد - بسط الارض ص 48 - القزويني - اثار البلاد _ ص 11_38
3) لقد فقدت اودغست هذه الخاصية في عصر الادريسي اذ يقول عنها انها مدينة صغيرة وقليلة التجار (انظر نزهة المشتاق _ الترجمة ص 109)
4) ابن الفقيـه _ مختصر كتاب البلدان ص 66
5) ابن حوقل صورة الارض _ ترجمة - Wiet - فيات ج 1 ص 99. الادريسي _ نزهة المشتاق _ الترجمة ص 23_25
6) الادريسي _ نزهة _ طبعة رومـة - 1970_ مجلد 1 ص 23

من بلاد السودان الداخلية يتجمع بها فتجلبه القوافل الى بلاد المغرب (1) وبذلك يتم الربط بين بلاد السودان وبلاد المغرب مرورا بهذه المراكز الثلاثة : سجلماسة واودغست وغانة ، وهي جميعا من اشهر اسواق الرقيق الاسود في هذا العصر ، وقد ساهمت مدن اخرى ايضا في تدعيم هذا الخط التجارى نذكر منها خاصة اغمات ودرعة ونول الاقصى التي اشار اليها الادريسي (2) .

7) طرق تسويق الرقيق :

تلك هي المسالك والطرق التي عبرتها تجارة الرقيق الاسود من بلاد السودان الى بلاد الاسلام وخاصة منها مصر وافريقية والمغرب وقد سيطر الطولونيون ثم الاخشيديون بمصر على الطرق الشرقية بينما سيطر الاغالبة ثم الفاطميون على الطرق الوسطى ونظموا القوافل الذاهبة عبر الصحراء نحو بلاد السينغال والنيجر والسودان . وقد كان رستميو تفليت يسيطرون ايضا على طرق القوافل الوسطى والغربية الى منتصف القرن الرابع للهجرة ، وما انجاء عام (346 - هـ 958 م) حتى قضى قائد الفاطميين جوهر على مملكة الرستميين وسيطر حكام تونس

1) الادريسي - نزهة المشتاق - الترجمة ص 17 - 18 - وص 21
2) المصدر نفسه ص 106 - مؤلف كتاب الاستبصار - ترجمة - أ - فانيان -E- Fagnan ص 188 - 189

على اهم تلك الطرق ونظموا قبائل البدو المجاورة لها حتى لا يتعرضوا الى تعطيل هذه التجارة المربحة(1) لكن هذه المسالك الثلاثة التي كنا بصدد تفصيل الحديث عنها لم تكن مستقلة عن بعضها بعضا. بل وجدت طرق تجارية اخرى تربط بينها وتزيد التبادل التجاري نشاطا وخصبا ، فكان بامكان مسلمي مصر مثلا ان يستوردوا الرقيق من غانة ، فمنذ عصر اليعقوبي كانت الطريق الرابطة بين مصر وغانة معروفة وهي طريق تمر بمرندة (في الزايير - zaïr) وتخترق مملكة كوكو (2) وقد ذكرها ابن الفقيه ايضا فقال " اذا جاوزت بلاد غانة الى ارض مصر انتهيت الى امة من السودان يقال لها كوكو ثم الى امة يقال لها مرندة ثم الى امة يقال لها مراوة ثم الى واحات مصر بلسانة " (3) ، فقد كانت هذه الطريق مستعملة اذن في القرن الثالث للهجرة. وكانت القوافل تنطلق من واحات مصر وتخترق ممالك السودان الى غانة ، وبعد نصف قرن من هذا التاريخ يشير ابن حوقل الى هذه

---

1) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية - ص 65_66 _ لومبار - الاسلام في عظمته ص 151
ابن عذاري _ ج 1ص 244 _ ابو العرب - طبقات علماء افريقية ص 235
ابن حوقل _ صورة الارض - ترجمة - فيات - Wiet ج 1 ص 249
2) كوك - Cuoq - J - منتخبات _ المقدمة ص 15 _ 20
3) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان _ ص 68

الطريق الجنوبية الصحراوية فيذكر ان التجار كان يخرجون من الواحات المصرية ويخترقون الصحاري والمسالك المختلفة ليصلوا الى بلاد المغرب وبلاد السودان. وكانوا في رحلتهم تلك يمرون بزويلة وفزان وبرقة. لكن هذا الرحالة يصف لنا عسر هذه الطريق اذ تتعرض القوافل خلالها الى الرياح الهوجاء والعواصف الرملية وقطاع الطرق فتهلك في اغلب الاحيان ، فلما تكررت هذه الحوادث امر ابو العباس احمد بن طولون بالتخلي عن هذه الطريق (1) وقد تعرض مؤلف "حدود العالم" الى صعوبة هذه الطريق ايضا فلاحظ ان التجار كانوا يقضون 80 يوما على ظهر الابل. ولا وجود طوال الطريق الا لمكان واحد به الماء والعلف (2) وقد تحدث بنيامين التطيلي عن نفس الموضوع ايضا (3).

---

1) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ طبعة كريمر - J.H.Kramers - 1938 ج 1 ص 90_103

2) مؤلف فارسي مجهول ـ حدود العالم - طبعة جيب - Gibb الانكليزية ص 165

3) روبرت - ل - هيس - طريق بنيامين التطيلي - Robert-L-Hees- the Itinerary of Benjamen of Tudela : a twelfeth Century jewish description of North est Africa - J.A.H-1964-t 6-pp.15.24

وقع التخلي اذن عن هذه الطريق منذ عهد ابي العباس بن طولون وصارت القوافل تسلك طريقا اخرى اقل صعوبة وهي التي تتوجه نحو سجلماسة مارة بالقيروان ونفزاوة وبلاد قسطيلية ولا يقضي المسافر فيها اكثر من شهرين (1)

ومهما يكن من امر فقد وجد مسلكان رئيسيان تحدث عنهما البكري خلال وصفه للطرق التجارية البرية ببلاد المغرب (2) وهما مسلكان كانا يخترقان البلاد من الشرق الى الغرب ويصلان الشمال الافريقي ببلاد السودان جنوبا، وبمصر وما يليها من بلاد الاسلام شرقا. ويتصل بهذين المسلكين الكبيرين طرق فرعية متجهة نحو السواحل الشمالية من بلاد المغرب ومرتبطة باهم المدن الواقعة داخل البلاد ، ولا يخفى ان سلسلة جبال الاطلس المخترقة لبلاد افريقية والمغرب هي المتسببة في وجود هذين الطريقين الذين يكادان يكونان متوازيين ، فالطريق الاولى تنبعث من جهة الجريد التوسي وتمر بهضاب مرتفعة ملتوية حول جبل الاوراس ولها ثلاثة اتجاهات. الاول نحو الجنوب صوب بسكرة وورقلة

---

1) ابن حوقل — صورة الارض — طبعة كريمر J.H.Kramers - 1938 ج 1 ص 90—103
2) البكري — المغرب — جزء من المسالك — طبعة دي سيلان - De slane - الجزائر 1857 — ص 149 — 163

والثاني نحو الشمال الغربي من بلاد المغرب مرورا بحوض الطرف ويمر الحضنة وبفتحة طازا ، والثالث يسير صوب الشمال الى بجاية ، فهي اذن طريق تخترق بلاد المغرب طولا من الشرق الى الغرب وتتصل جنوبا ببلاد السودان وشمالا بسواحل الشمال الافريقي ومدنه الداخلية اذ كانت القيروان وبلدان الساحل التونسي متصلة بهذه الطريق. وقد اطلق المؤرخون على هذه الطريق اسم طريق الهضاب.

اما الطريق الثانية وهي المسماة بطريق القصور فهي متصلة بمسلك منبعث من مصر ومار ببرقة وطرابلس ومتبعة للجهة الجنوبية من الاطلس الصحراوي متجهة نحو الجنوب الغربي من المغرب الاقصى. وتوجد بين هذين الطريقين الكبيرين سلسلة من الجبال تفصل بينهما. لكن وجود بعض الانهيارات فيها سمحت بظهور بعض المسالك الرابطة بين الطريقين الشمالي والجنوبي وبوجود فتحات ومنخفضات مثل ساحل افريقية ومنخفضات الحضنة ومن مدنها تاهرت ووركلة وسدراتة ومزاب ومثل مضيقات الاطلس المغربي ومن مدنها فاس وسجلماسة واغمات ومراكش والسوس ونول لمطة (1)

---

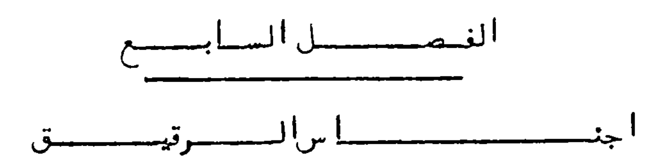
1) نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ـ من ق 4 الى ق8 هـ ـ ص 99 وما بعدها

وما من شك في ان تجارة الرقيق في بلاد السودان قد كانت تسلك هذين الطريقين الرئيسيين وتنطلق من المسالك الرابطة بينهما. وكانت قوافل هذه البضاعة تذهب من الجنوب الشرقي او الغربي لبلاد المغرب ناقلة لتجارتها نحو الشمال او نحو الشرق ، ومن المسالك التجارية ما استعمل لتجارة الرقيق منذ عهد قديم. فقد اشار البكري في كلامه على الطريق الرابطة بين مصر وبرقة الى وجود كنيسة بها رسم على جدرانها تاجر رقيق ومعه رقيقه (1) ويلاحظ موريس لومبار ان الطرقات الكبرى التي سلكتها تجارة الرقيق الاسود هي نفسها التي اتبعتها جحافل الغزاة لبلاد المغرب من اتراك وهلاليين ومرابطين وذلك لان هذه الطرقات قد صارت ممهدة بحكم تاثير الحركة التجارية التي كانت تمر بها .كما كانت مجهزة بمراكز بريد وحواضر متاخمة للمجتمعات البدائية (2) .

---

1) البكري — المسالك والممالك - جزء المغرب — طبع الجزائر 1857 - دي سلان - (M.G) De Slane — ص 3

2) موريس لومبار — M. Lombard — الاسلام في عظمته الاولى - ص : 194 - 204
نجاة باشا — التجارة في المغرب الاسلامي - ص 114 — 115



الفصل السابع

اجناس الرقيق

اجناس الرقيق

ان اجناس الرقيق المتوفرة بالاسواق الاسلامية جد متنوعة وقد اختلفت انواعها وتعددت بتعدد الاقوام التي اتصل بها المسلمون اتصالا سلميا او عدائيا اما عن طريق التجارة او الحرب او القرصنة او حتى عن طريق الجوار وتبادل الهدايا من الرقيق، فضلا عما توارثه المسلمون من رقيق عن الفترة السابقة لهذا العصر ابان انتشار الفتوحات اذ تنوعت اجناس ذلك الرقيق بتنوعها. فكان منه الرقيق الرومي والفارسي والبربري والهندي والارمني والتركي والخزري والافرنجي والصقلبي ورقيق بلاد السودان وغير هذه الانواع. وقد يعسر احصاؤها لامتزاجها واختلاطها احيانا فالرقيق الرومي مثلا يضم عدة اجناس قد تمازجت وكذلك الرقيق الاسود. كما راينا ان لفظ صقالبة استعمل احيانا كثيرة للدلالة على الرقيق الابيض عموما. لكنه من الضروري ان نشير الى ان هذه الانواع لم تكن متوفرة بنفس المقدار في هذا العصر فاكثرها انتشارا وتداولا الرقيق التركي والصقلبي والعبيد السود (1) اما بقية الاجناس فهي متفاوتة المقادير وان كانت عموما دون الاصناف الثلاثة السالفة الذكر. وفيما يلي بعض الامثلة على هذه الاجناس التي وجدت الى جانب الاتراك والسودان والصقالبة وان كان بعضها قليل الانتشار.

---

1) موريس لومبار M. Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص 194 - 204 - أ. متز A. MEZ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300

٨) الرقيق الرومي :

ومن الرقيق الرائج في الاسواق الداخلية الرقيق الرومي وهو في معظمه ناشيء عن الصدام المستمر بين المسلمين والبيزنطيين سواء اكان ذلك الصدام بشرق العالم الاسلامي او بمغربه ، فقد كانت الثغور بالمشرق والمغرب تزود الاسواق بين الفينة والاخرى بهذا الصنف من الرقيق ، ويكفي ان نضرب مثالا على ذلك بثغر طرسوس حيث كان المسلمون يتخذون رقيقهم من السبي الحاصل في ايديهم خلال هجوماتهم على بلاد الروم . وقد ذكر ياقوت الحموي ان الروم عندما احتلوا طرسوس سنة (354هـ/ 955م) احتلوا دور المسلمين بها واستحوذوا على ما فيها . فوجدوا بها امهات اولاد من الروميات واليونانيات وكان منهن من فضلن الانضمام الى اقوامهن على البقاء مع اسيادهن العرب ، يقول ياقوت :

" ودخل الروم الى طرسوس فاخذ كل واحد من الروم دار رجل من المسلمين بما فيها ثم يتوكل ببابها ولا يدع لصاحبها الا حمل الخف . فان رآه قد تجاوز منعه . حتى اذا خرج منها صاحبها دخلها النصراني فاحتوى على ما فيها . وتقاعد بالمسلمين امهات اولادهم لما راين اهاليهن . وقالت : انا الآن حرة لا حاجة

في صحبتك . فمنهن من رمت بولدها على ابيه . ومنهن من منعت الاب من ولده فنشأ نصرانيا . فكان الانسان يجيء الى عسكر الروم فيودع ولده ويبكي ويصرخ وينصرف على اقبح صورة حتى بكى الروم رقة لهم " (1) هذه صورة عن وجود الرقيق الرومي بالثغور وما يقال عن طرسوس في هذا المجال شبيه بما يجري في سائر الثغور بالمشرق والمغرب ، كما كانت اعمال القرصنة التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة توفر اعدادا من هذا الرقيق ، هذا علاوة على ما استقر في المجتمع الاسلامي من بقايا رقيق الروم الذي اسفرت عنه الفتوحات السابقة لهذا العهد .

وكانت عمليات الجلب عن طريق التجارة الخارجية تشتمل على هذا الصنف ايضا ، فبالرغم من عداء البيزنطيين لدار الاسلام وجدت علاقات تجارية بين المسلمين والروم سواء بالمشرق عن طريق طرابزندة واتل عاصمة الخزر وانطاكية والاسكندرية (2) او بالمغرب عن طريق صقلية وجنوب ايطاليا (3) وكانت هذه العلاقات التجارية

---

1) ياقوت الحموي — معجم البلدان — طبعة وستنفلد - F. Wüstenfeld - في 6 مجلدات - ليبزج - Leipzig 1866 — 1870 ج 3 ص 526 — 527 - و ج 4 ص 29 من طبعة دار صادر بيروت 1376هـ/ 1957م
كنارماريوس — canard - M - نخب تاريخية - ص 189.

2) هايد - Heyd - تجارة الشرق ج 1 ص 52 — 53 و ص 44 - لويس بيربيه - الحضارة البيزنطية ص 201 — 202 ايك - التجارة المتوسطية - ص 34

(2) Heyd - Hist du Commerce du levant - T I p 44 - 52 - 53
— Louis - Bréhier - Civilisation Byzantine - pp 201 - 202
— ECK - Le Commerce Méditerranéen après l'Invasion Arabe - R.S.E (Revue historique du Sud est Européen) Bucarest - 1941 - p 34

3) الطالبي — الامارة الاغلبية — ص 396 - 414

تتناول تبادل الرقيق بالرغم من ان الروم كانوا يمنعون بيع مواطنيهم ويحجرون تصدير هذه البضاعة الى بلاد العدو شانهم في ذلك شان المسلمين .كما ان التجار قد تمكنوا احيانا من جلب الرقيق الرومي بطرق غير مبشارة اي بواسطة اعداء البيزنطيين كالروس والبلغار وغيرهم .اذ كان هؤلاء يحاربون الروم وياسرونهم وكان بامكانهم بيعهم للمسلمين ضمن ما يبيعونه لهم من انواع الرقيق الاخرى. ومن الثابت على كل حال ان الموانع وضروب الحجر التي فرضها الروم على عملية تصدير الرقيق الى المسلمين لم تكن محترمة دائما ، ولذلك لا نستغرب اذا ما لاحظنا في المصادر العربية ذكرا لبعض الرقيق الرومي المجلوب . ومن هذا الباب ما رواه صاحب الاغاني من انه " كان بين يدي المامون في يوم الشعانين عشرون وصيفة جلبا روميات مزنرات قد تزين بالديباج الرومي وعلقن في اعناقهن صلبان الذهب وفي ايديهن الخوص والزيتون وقال فيهن شعرا وطلب من احمد بن صدقة ان يغنيه فيه وهو :

"ظباء كالدنانير | ملاح في المقاصير
جلاهن الشعانين | علينا في الزنانير
وقد زرفن اصداغا | كاذناب الزرازير
واقبلن باوساط | كاوساط الزنابير"(1)

لكن هذه الصور من الجلب نادرة بالقياس الى ما يوفره الغزو والقرصنة ، ومهما يكن من امر فقد توفرت مادة الرقيق الرومي بالاسواق الاسلامية. واقبل الناس على اقتنائه واستخدامه في شتى امورهم، حتى بلغ مراتب عالية في خدمة الاسر الحاكمة وفي قيادة الجيوش والاعمال الادارية والاوساط الفنية وقصور الخلفاء والامراء. وعرف انتشارا واسع النطاق بمشرق البلاد الاسلامية ومغربها.

فقد امكن للخلفاء العباسيين ان يستكثروا في بلاطهم من الخدم والمماليك الروم. وكان الخليفة المقتدر من اكثرهم اقبالا على اقتنائهم واصطناعهم (2) لان امه واخواله من الروم. فقد كانت امه "شغب" تباشر شؤون الحكم وتتولى الوصاية على ابنها

1) الاصفهاني _ كتاب الاغاني _ ج 22 ص 217 _ 218 الوشاء _ الظرف والظرفاء - تحقيق كمال مصطفى _ المقدمة _ ص: هـ _ و

2) ابن طباطبا _ الفخري _ طبعة مصر 1317 هـ ص 234 - زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 2 ص 126_127

وتساهم في المناورات السياسية . وكان للمقتدر (295-320هـ/ 908-932م) خال رومي يخاطبه الناس بالامرة ويرهبونه ويتقربون اليه في سبيل الوصول الى ما يريدونه من نعم الخلافة (1) وقد اشتهر بالبلاط العباسي العديد من الروميات اللائي اصبحن امهات للخلفاء . فكان من بينهن زوجة المتوكل (232-247هـ/ 847-861م) وام ولده المنتصر (247-248هـ/ 861-862م) و((قبيحة)) ام المعتز بالله (252-255هـ/ 866-869م) و ((فتيان)) ام المعتمد (256-279هـ/ 870-892 م) كما كانت ام الخليفة المهتدي (255-256هـ/ 869-870م) رومية (2) وقد حفلت دور الخاصة بالعراق بالجواري والغلمان من الروم وكانوا من اجمل اصناف الرقيق وانفسه (3) وجرى البويهيون على عادة العباسيين في اقتنائه واصطناعه (4) .

وكان هذا الصنف من الرقيق متوفرا بالشام في عهد الحمدانيين وخاصة في زمن سيف الدولة الحمداني (333-356هـ/ 944-967م) بسبب تواتر حروبه مع البيزنطيين واسره للعديد من جنودهم في مناسبات مختلفة وتكرر انتصاراته عليهم . فقد تمكن هذا الامير في بعض حملاته على الروم

1) الوشاء ـ الظرف والظرفاء ـ تحقيق كمال مصطفى ـ المقدمة ص: ن، س
2) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ج 4 ص 153ـ154
3) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 376
4) التوحيدي ـ الامتاع والموانسة ج 2 ص 183

من اسر وجوههم مثلما حدث ذلك سنة (343 هـ/954م) اذ اسر صهر الدمستق وابن بنته وعددا من بطارقته (1) فلا غرو اذا ما عجت قصور هذا الامير وغيره من امراء الاسرة الحمدانية بغلمان الروم والجواري الروميات، وقد روى الثعالبي اخبارا حول ولع سيف الدولة بجارية رومية من بنات الملوك كان يهواها " ولا يرى الدنيا الا بها ويشفق من الريح الهابة عليها فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه وازمعن ايقاع مكروه بها من سم او غيره وبلغ سيف الدولة ذلك فامر بنقلها الى بعض الحصون احتياطا على روحها وقال :

راقبتني العيون فيك فاشفقـ ... ت ولم اخل قط من اشفاق
ورايت العذول يحسدني فيـ ... ك مجدّا يا انفس الاعلاق
فتمنيت ان تكوني بعيدا ... والذي بيننا من الودّ باق
رب هجر يكون من خوف هجر ... وفراق يكون خوف فراق " (2)

---

1) ابن الاثير – الكامل – ج 8 ص 193
2) الثعالبي – يتيمة الدهر – ط – دمشق 1303 هـ – 4 مجلدات ج 1 ص 19 – 21 وقد شك ابن خلكان في نسبة هذا الشعر الى سيف الدولة انظر – وفيات الاعيان ج 1 ص 461 – ط بولاق 1299 هـ في مجلدين – كما شك كمال الدين بن العديم في كل ما نسب الى سيف الدولة من شعر الا بيتين ذكرهما في زبدة الحلب – مخطوط المكتبة الوطنية بباريس – رقم 1666 ص 40 – راجع نخب تاريخية ص 402

وكان هذا الامير يشتري الرقيق الرومي ويستعمله في الجند .
وقد خانه منهم جماعة سنة(354هـ/965م)لما كان مشغولا بامر الفداء وانضموا الى بعض القواد الثائرين عليه مثل رشيق النسيمي احد القادة المقيمين بطرسوس ومثل دزبر بن اوينيم الديلمي احد رجال تربيته بحلب وكالحسن بن الاهوازي الذي كان مشرفا على المستغلات بانطاكية(1).

وكان هذا الرقيق الرومي متوفرا بمصر ايضا وقد استخدمه الطولونيون في شؤونهم المختلفة واشتروا منه اعدادا وفيرة واقطعهم احمد بن طولون(254-270هـ/868-884م)قطايعة خاصة بهم (2) وقد تواصل وجودهم بمصر في القرن الرابع اذ نجدهم يختطون لانفسهم حارتين بالقاهرة عند تاسيسها.كما ذكر المقريزي ان الحاكم بامر الله الفاطمي(386-411هـ/996-1020م) قد هدم لهم حارتهم سنة (٣٩٩هـ/-1009-م) (3).

وقد راجت سوق هذا الرقيق بالمغرب ايضا واستعملهم الاغالبة في الاشراف على بعض المهام.واشتهر من بينهم جماعة نذكر من بينهم

---

1) ابن العديم - زبدة الحلب - مخطوط - م - و - بباريس - 1666 ورقة 40 ظا - والمستغلات هي المكوس بانواعها ، راجع نخب تاريخية- ص 401

2) المقريزي - الخطط - ج 1 ص 315

3) المصدر نفسه - الخطط - ج 2 ص 8

" خلف " و " مسرور " و " حسن " وغيرهم (1). وقد احرزوا في غنائم صقلية وجنوب ايطاليا مجموعات كبيرة من هذا الرقيق واهدوا منه الى خلفاء بغداد هدايا سنية. منها ما اهدوه سنة (282 هـ/896م) الى الخليفة المعتضد وهو يتمثل في خمسين جارية ومائة خادم (2) ونحن نجد اشارات عديدة في المصادر الى هذه الفئة من الرقيق بافريقية . ففي رياض النفوس يقع التعرض لزاهد يدعى ابن الرومية (3) وخادم لابن اللباد (ت 333هـ/ 944-5) تدعى مارية (4) ويروى ايضا ان القاضي ابن هاشم كان له سنة (386هـ/ 996م) غلام نصراني (5) كما نجد في فتوى القابسي نقلها الونشريسي في المعيار (6) حديثا عن شراء خادم رومية بالمهدية. ولا تخلو فتاوى المازني

1) جورج مارسي - بلاد البربر الاسلامية وعلاقتها بالمشرق في العصر الوسيط ص 82
1) G. Marçais - La Berbérie - " "
Edition - Montaigne -
Paris. 1946. p 82
2) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 44
3) المالكي - رياض النفوس - ج 1 ص 378 - 379
4) المصدر نفسه
5) المصدر نفسه
6) الونشريسي - المعيار - ج 3 ص 120 - 121 طبعة فاس 1314 هـ/ 1315هـ في 12 مجلد

كذلك من مثل هاته الاشارات. ومنها ذكره لحالة حول وصفة رومية كانت جزءا من صداق (1) وقد كان الوجهاء بافريقية يملكون مجموعات من هذا الرقيق النصراني وقد اشتهر تميم بن المعز(422-501هـ/1031-1108م) بالاستكثار منهم (2).

وقد جعلت عمليات الغزو والقرصنة هذا النوع من الرقيق متوفرا في شتى البلاد الاسلامية المتاخمة للبحر الابيض المتوسط. فلم تكن تخلو منه الاسواق الاندلسية وكان يمثل جزءا من رقيق الاندلس. وقد حدثنا السقطي عن رغبة اهل تلك البلاد في الجواري الروميات وتفضيلهم لهن، خصوصا اذا كن محتفظات بلهجاتهن وعاداتهن الرومية، ولم يخالطن بعد الاهالي ولا عرفن لغتهم وعاداتهم. وقد روى لنا حكاية طريفة تصور انخداع بعض الاندلسيين في شرائه لبعض الجواري الناطقات باللغة الرومية وحسرته عندما اكتشف ان تلك الجارية التي اشتراها لم تكن رومية (3)

---

1) المصدر نفسه ـ ج 2 ص 231 ـ البرزلي ـ جامع مسائل الاحكام ج 2 ص 59 ـ مخطوط ح ح عبد الوهاب (لا نه من الجزء الاول)

2) روجر ادريس ـ اعياد مسيحية ـ المجلة الافريقية سنة 1954 ـ عدد 440 ـ 441 ص 274 احالة رقم 48

(2) H.R. IDRIS - fêtes chrétiennes celébrées en IFRIQUIA à l'époque ziride - p 274 - Note : 48 (Revue Africaine - N° 440-441 - Année 1954 - pp 261-276)

3) السقطي ـ آداب الحسبة ص 51-52

بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 190 ـ 195 و ص 315 ـ 316

ع) الرقيـــــــــو اليونـانـــــــي

وقـد كان الرقيـق الرومي يشتمـل في الواقـع على اجناس اخرى اندمجت في الحضارة الرومانية ويطلق عليهـا المسلمون اسم الروم بصورة عامة . ومن تلـــــك الاجناس الرقيق اليوناني والبلغاري والرومي والارمني . واصناف اخرى من المرتزقـة التي كان الروم يستخدمونها في جيوشهـم و يجلبونها من البـلاد المتاخمــــــة لهـم او ياسرونها من هجوماتهـم وحروبهـم مع الروس والبلغار وغيرهـم. وقـــــد اتسـع مدلول كلمـة ((روم)) عند المسلمين وشمل تلك الاجناس حتى قيـــل ان ((اللان)) هم جنس من الروم . بينمـا يقـول ياقوت عن بـلاد اللان انهـــا بـلاد واسعـة من طرف ارمينيـة قرب باب الابواب . وهم نصارى مجاورون للخـــزر ويجلب منهم عبيـد (1) فلا غـــرو اذن اذ ما وقعـت جملـة من اسرى تلـــك الاجناس في قبضـة المسلمين اثنـاء غـزوهـم للبيزنطييـن وان كـان عـددهـــا قليـلا بالقياس الى الاجناس الاخرى الرائجـة في الاسواق .

لقـد وجـد اذن رقيـق يوناني بالاسـواق الاسلامية (2) وقـد كــــان وجـوده سابقا لهـذا العهـد بحكم قدم الصدام بين المسلمين والبيزنطييـــن فمنذ عهـد معاوية (41 - 61 هـ/661 - 680م) نجـد يونانيا يدعى ((فلو)) استخدم في المفاوضـة بين الخليفـة والامبراطور آنذاك (3) كما حـدث قتـل عـدة اسرى يونانيين في عهـد سليمان بن عبد الملك (96 - 98 هـ/ 715 - 717م) (4) وروي ان النخاس محمـد بن موسى الرازي كان يجلب الجـواري اليونانيات من المشـــرق الى الاميـــر محمـد الاول (238 273هـ/ 852- 886م) بالانـــدلـــس(5) .

1) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 376
2) احمـد امين ـ ظهر الاسلام ج 1 ص 130
3) المسعودي ـ مروج الذهب ـ 2 ص 335
4) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ـ 2 ص 1338
5) بروفنسال Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 502 ـ 503

وكان هناك في عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨ - ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ - ٧٨٥م) ابان الاستيلاء على ((سملو)) ((Semalouos)) جماعة من اليونانيين استقروا في الحي الشمالي ببغداد الشرقية حيث سمي دير وكنيسة باسمهم ولكن ليس لدينا عنهم سوى اخبار ضئيلة (1) .

اما بالنسبة الى هذا العصر فقد اشتهر عدد كبير من رقيق هذا الجنس وخاصة في زمن المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢م) ومنهم الخصي مؤنس القائد العام لجند الخليفة ونصر القشوري حاجبه وقد قام كل منهما بدور المترجم ابان السفارة التي ارسلتها بيزنطة الى بغداد سنة (305 هـ/ 917م) وقد اشتهر قبل هؤلاء الخصي يزمان امير طرسوس (ت - ٢٧٨ هـ/ 891م) وداخ صيت ليون الطرابلسي المعروف عند العرب بغلام زرافة او برشين الوردامي وهو الذي احتل سلونيك thessalonique ودميانة :- Damianos - : - وتراس الاسطول الذي هجم على قبرص ردا على هجوم هيميريوس :- Himérios.

(2) واصل هؤلاء جميعا بما فيهم ((غريب الخال)) خال المقتدر من يونان الاناصون وقد لاحظ الجاحظ ان هذا الجنس من الرقيق كان مرغوبا فيه لانه كان من احسن الخدم العاملين في البيوت وان مالكي الابل كانوا يقتنونهم لانهم يحسنون الاشتغال بها (3) .

1) ياقوت . معجم البلدان . ج 1ص662 ـ 670و ج 3ص416 انظر بصورة عامة المؤرخين العرب تحت سنة 163 هـ و ماريوس كانار- M. Canard- المسلمون وبيزنطة فصل 12ص62

2) فاريلياف - Vasiliev - العرب والروم ج 2ص9 ـ 10و40 ـ 45و38 ماريوس كانار - M. Canard . المسلمون وبيزنطة ـ فصل 9ص44 ـ 45 وفصل 15ص111 ـ 119 احمد أمين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص130

3) الجاحظ ـ كتاب الحيوان ـ ج 3 ص434

3) **الرقيق الروسي :**

وقد اتاحت الظروف الحربية ان يقع بين ايدي المسلمين بعض الرقيق الروسي الاصل . وذلك لان الروس الفارنجيين لم يتصلوا ببيزنطة تجارا فحسب. بل لعلهم لم يستطيعوا النفاذ الى الاسواق البيزنطية الا بعد سلسلة من الهجومات هددوا بها احيانا القسطنطينية ومن امثلة هذا الصدام ما وقع بين الفريقين سنوات (246 هـ/ 860م) و (294 هـ/ 907 م) و (-330 هـ/ 941هـ) و (333 هـ/ 944م) و (-360 - هـ/ 971 م)(1) وكان من نتائجه طبعا وقوع بعض الروس في الاسر واستعمالهم في الجند البيزنطي خلال محاربته للمسلمين ، وقد اشارت المصادر العربية الى وجود جنود روسيين في جيش الروم عندما اشتبك مع جيش الحمدانيين سنة (343هـ/ 954م) اي عندما اراد سيف الدولة الحمداني (332 - 356هـ/ 944 - 967م) اعادة بناء قلعة الحدث ، وقد سجل الشاعر ابو الطيب المتنبي في شعره هذه

---

1) لويس هالفن ــ البرابرة من الغزوات العظمى الى الفتوحات التركية في القرن الحادي عشر ص 320 - 318

(1) Louis. Halphen - Les Barbares des Grandes Invasions aux conquêtes Turques du XIe siècle - p: 318-320

- Louis - Bréhier - Civilisation Byzantine - p: 203

— لويس بيرييه ــ الحضارة البزنطية ص 203

الواقعة ولاحظ وجود الروس في جيش البيزنطيين الى جانب اصناف اخرى من المرتزقة كان مشتملا عليها ، يقول متحدثا عن قلعة الحدث :

" وكيف ترجي الروم والروس هدمها وذا الطعن اساس لها ودعائم " (1)

واذا ما شكك فازيلياف - vasiliev - في الحضور الروسي في هذه الوقعة بالذات (2) فان ذلك لا ينفي هذا الحضور في وقائع اخرى ما دمنا واثقين من استعمال الروم لهذا الجنس من الجند في صفوفهم خلال حروبهم (3) كما لا ينفي ان يكون بعض هؤلاء المرتزقة الروس قد وقعوا في اسر المسلمين و بيعوا في اسواقهم رقيقا .

ولم تكن هذه الصورة هي الوحيدة التي يتضح من خلالها دخول هذا الجنس الى السوق الاسلامية في شكل رقيق ، فقد حدث ان دخل المسلمون في صراع مباشر مع هذا الجنس وذلك عند وقوع

---

1) المتنبي – الديوان – = ص - 376 - – راجع - الاسكندر صايبل – اخبار امم المجوس ص 47 و ص 80

2) - كنار - M. Canard - نخب تاريخية ص 110 احالة رقم 1

3) فازيلياف - vasiliev - الهجوم الروسي على القسطنطينية في عام 860م ص 229

(3) A. vasiliev - the Russian Attack of Constantinople in 860 - Cambridge . 1946 p 229

- Louis Bréhier - Civilisation Byzantine p 85

- Institutions p 382

لويس بيرييه – الحضارة البيزنطية ص 95 - المؤسسات ص 382

غارات روسية ذات اهمية تنامى على الاقاليم الواقعة جنوب بحر قزويـــن (1) وقد امتدت تلك الغارات الى اقليم طبرستان في زمن حسن بن زيد العلــوي (250هـ / 270هـ ــ 864م/ 884م) لهذا الاقليم وخاصة سنة (297 هـ/ 909ــ 910 م) لكن الروس منوا بعد توغلهم بهزيمة في جيلان .ولم تكن هذه محاولة الغزو الوحيدة فحوالي سنة (300 هـ او 301هـ/ 912ــ 913م) يصف لنا المسعودي غاراتهم بالتفصيل (2) وفي عام (332هـ/ 943ــ944م) امكنهم الاستيلاء علــى برذعــة ولم يستطع " نائب المرزبان " ان يصدهــم عنها (3) وهكذا لم يعرف المسلمون الروس تجارا فحسب كما وصفهم لنا ابن خرداذبــه (4) وانما عرفوهم غزاة ايضـــا وكان لهم صــدام معهم في عدة فـــترات من الزمن .وما من شك في ان بعض الرؤوس من الجنس الروسي مهمـــا قل عددها قد دخلت العالم الاسلامي عبر حدوده الشرقية نتيجــة تلك المصادمات .وقد وصف المسلمون ابناء هذا الجنس بانهم شقر الابـــــدان صفر الشعور طوال القامات غريبو اللغة وبانهم شر خلق الله تعالى (5).

---

1) مينورسكي-V.Minorsky-دائرة المعارف الاسلامية ــ الترجمة العربية مقال روس ص 228

2) المسعودي - مروج الذهب ج 2 ص 18 ــ 25

3) الهمداني ــ تكملة تاريخ الطبري ــ ابو الفداء- مختصر تاريخ البشر ــ ابن الاثير ــ الكامل - وعقد الجمان ــ للعيني ــ عن (اخبار امم المجوس ــ لاسكندر صايبل - A. Seipel - ص 84ــ 112)

4) ابن خرداذبه ــ المسالك والممالك ص 154 - الدوري ــ تاريخ العراق الاقتصادي ص 150 ــ 154

5) محمد بن اياس ــ نشق الازهار في عجائب الاقطار ــ عن (الاسكندر صايبل - A. Seipel اخبار امم المجوس ص 113)

ه) **الرقيق البلغاري :**

وكان من بين الرقيق المتداول في الاسواق من كان من اصل بلغاري. وكانت اسباب وقوعه بين ايدي المسلمين مختلفة، منها الاسر اثناء الصدام الاسلامي البيزنطي، لان الروم كانوا يستعملون الجنود البلغار في جيوشهم، وقد اشار الشاعر ابو الطيب المتنبي الى وجود هؤلاء المرتزقة من البلغار في الجيش البيزنطي المحاصر لقلعة الحدث سنة (344هـ/ 6-955م) فقال :

"يجمع الروم والصقالب والبلغار فيها وتجمع الآجالا" (1)

كما اشار الشاعر نفسه الى اجناس اخرى في هذا الجيش كالخزر والصقالبة والارمن وغيرهم. فكان شعره في هذا الباب وثيقة تاريخية هامة (2) وقد تحدث "شلمبرجر" Schlumberger عن تلك الاجناس من المرتزقة في كتابه الذي الفه حول الامبراطور نقفور فوقاس - Nicephorus-Phocas (3).

---

1) المتنبي - الديوان ص - 404 - الاسكندر سايبل - A. Seipel - اخبار امم المجوس ص 67-H

2) ماريوس كانار . M. Canard - المسلمون وبيزنطة - فصل 6 - ص 99 - 113

3) شلمبرجر - نقفور فوقاس امبراطور بيزنطي في القرن العاشر ميلادي - باريس - 1890 ص 46 وما بعدها

(3) Schlumberger - Un Empereur Byzantin au Xe siècle - Nicéphore Phocas Paris - 1890 - p 46-59

ومن هذا الرقيق ما كان يصل الى المسلمين عن طريق الروس الذين كانوا يتجارون مع العالم الاسلامي عبر بحر الخزر ، ويصلون احيانا الى بغداد نفسها ، وذلك لان الروس كانوا يغزون البلغار ويأسرونهم . فقد اجتاحوا سنة (354 هـ / 965 م) منطقة نهر اتل باكملها وخربوها وقد تلقى ابن حوقل (1) عندما كان بجرجان سنة (358 هـ/ 968_969م) اخبار هذه الغزوة التي شنها جنود الارشيدوق سواتوسلاو Swjatoslaw على كل من البلغار والبرطاس والخزر. وذكر انهم الجأوا هذه الشعوب الى الفرار بعد نهبهم واسرهم، ثم عقدوا معهم اتفاقا على ان يعودوا الى اوطانهم وعلى وان يعيشوا تحت سلطان الروس (2) ولا تعتبر هذه الغزوة سوى مثال على عادة التناحر بين هذه الاجناس. تلك العادة

---

1) ابن حوقل _ المسالك والممالك _ طبعة دي غوية - ليد Leyd. 1873 - ص 14_ 281 _ 286 صورة الارض _ ترجمة فيات - Wiet - ج 2 ص 382 _ 383 _ و 393

2) بارتولد - Barthold - دائرة المعارف الاسلامية مقال بلغار ص 97

التي كانت تسفر غالبا عن اسر الغالب للمغلوب وبيعه بالاسواق الاجنبية .وكذلك كان شان الروس عند ظفرهم بعدد من اسرى البلغار (1).

واذا ما كان الحصول على رقيق من بلغار الدانوب والبلقان يتم بطارق غير مباشرة فان المسلمين ،وخاصة منهم اهل خوارزم ، قد كانوا يتعلمون ببلغار الفولجا بصورة مباشرة وباكثر سهولة لاسباب جغرافية ودينية (2) وقد روى لنا ابن حوقل ان اهل خوارزم كانوا يدخلون غالبا بلاد البلغار والصقالبة ويغزونهم ويرجعون باسراهم (3) تلك هي في الجملة طارق الحصول على رقيق من هذا الجنس.ونحن نعتقد انها رغم تنوعها لم تكن توفر اعداد كثيرة من الرقيق لان مصادر التزويد محدودة في الزمان والمكان .

---

1) الاسكندر صايبل - A-Seipel -اخبار امم المجوس ص 77-79

2) بارتولد - B rthold - دائرة المعارف الاسلامية -مقال بلغار -ص 97

3) ابن حوقل -صورة الارض -ترجمة فيات - Wiet - ج 2 ص 232 - 233
الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي -ص 76-77

5) الرقيـــــــق الارمنـــــــي :

وقـد كان بالسوق الاسلامية رقيق ارمني بالمشرق خاصـــة (1) وقـد اقتنـــى منهم البلاط العباســي رؤوسا جعلهـــم في خـدمتـه ، واشتهـر امرهم في قيادة الجيش مثـــل علي الارمني قائد الثغـــور فـــي عهـــد المتوكل العباسي (234- 247هـ/ 847 - 861م) (2) كما اشتهـــرت امهـــات اولاد من الارمنيات مثل ام الخليفة المستضيء العباسي (566 -575 هـ/ 1170- 1180م) وكان هذا الرقيـــق يجلب الى بلاد الاسلام عن طـــريق الاســر خاصـــة وكان للمسلمين عهد به قبل هـذا العصـراي منذ ان قـــام حبيب بن مسلمـــة بفتـــح بعض بلاد ارمينيـة في عهـد عثمـان بـــــن عفـــان (23- 34هـ/644- 655م) وقـد تواصلت هجمات الجنـد الاسلامـــي على ذلك الاقليم في العهود المواليـة . وظلت ارمينية محل نزاع مستمر بين المسلمين والـــروم (4) .

1) ابو محمد البلوي _ سيرة احمد بن طولون _ ص 225
ابن بطلان _ رسالة في شري الرقيق _ ص 377 السقطي _ آداب الحسبة ص49_51
احمد امين - ظهر الاسلام ج 1 ص 130 زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 5ص30
فيليب حتي _ تاريخ العرب _ ص 108 (1) PHILIP - K - HITTI - Histoire des Arabes. p 108 -
(2) CL. Huart - Histoire des Arabes - T2 - pp : 118 - 122
2) كليمان هوار _ تاريخ العرب ج 2 ص 118_ 122
المسعودي _ التنبيه والاشراف _ ترجمة كارادي فو _ ص255 _ 262
B. Carra-de-vaux - Le Livre de l'Avertissement et de la révision - 1897. pp 255-262
3) زيدان _ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص153_ 154
4) ابن الفقيه _ مختصر كتاب البلدان _ ص 292_ 293

لكن تجارة الرقيق الارمني لم تشهد من الرواج في القرن الثالث للهجرة وبداية القرن الرابع ما شهدت تجارة الاجناس الاخرى. وذلك لقلة عدد هذا الرقيق في هذه الفترة. اذ كان للأرمن عهد قديم منذ فتح بلادهم فكانوا ذمة يدفعون الجزية ولم يكن للمسلمين مبدئيا الحق في الهجوم عليهم واسترقاقهم. وقد ذكر ابن حوقل ان رقيقهم لا يباع ببغداد الى سنة (325 هـ/ -937- م) لكن السلاطين المجاورين لارمينية لم يكونوا يراعون العهد الذي عقد لها. فكانوا يهجمون عليها من حين لاخر. ولعل اول من انتهك ذمتهم هو ابو القاسم يوسف بن ابي الساج ، وكانت نتيجة هذا الانتهاك اسر الارمن وبيع رقيقهم في فترات معينة من الزمن. وهذا يدل على ان تحريم بيعهم ببغداد لا يعني منعه في اسواق اسلامية اخرى.

يقول ابن حوقل واصفا هذا الوضع الخاص بالارمن : " . . . كانت ارمينية في قديم الايام لسنباط بن اشوط ملك الارمن ، واجداده ولم تزل في ايدي الكبراء منهم فازالها ابو القاسم يوسف بن ابي الساج عنهم واخرجها من ايديهم. وبايديهم عهود للصدر الاول باقرارهم على حالهم واخذ الجزية منهم على ما جرت به مقاطعتهم ، وكانت بنو امية

وبنو العباس قد اقروهم على سكانهم ويقبضون الرسوم عليها من جباياتهم فتحيّفهم وقصدهم ، فلم يفلح من بعدهم ولا ارتفعت له راية. والغالب على ارمينية النصرانية وللسلطان عليهم كالخراج في كل سنة. وكانهم اليوم في عهد على حسب ما كانوا بغير حقيقة، تطرقهم السلاطين المجاورون لهم فيسبونهم ويؤذونهم وهم في ذمة. وكان رقيقهم لا يباع في بغداد ادركته كذلك الى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ولا يجيزه احد لانهم في بعض ذمة معروفة ومعهم غير عهد " (2).

فالملاحظ ان ابن حوقل يدافع عن ذمة الارمن لكننا نعلم ان هذه الذمة قد انتهكت ابتداء من سنة (315هـ/927م) على

---

2) ابن حوقل — المسالك والممالك — المكتبة الجغرافية العربية — طبعة «دي غويه» ليد *Leyde* - 1873 ص 245 — 248
صورة الارض — طبعة «فيات» الفرنسية ج 2 ص 336 — 337 وص 341

ايدي الحمدانيين (1) اذ تدخلت قواتهم في ارمينية وتنازعت مناطقها مع البيزنطيين واسفر هذا التنازع عن اسرى من الارمن كان مصير الكثير منهم البيع في اسواق النخاسة.

وقد كان الارمن مرتزقة في جيوش البيزنطيين ايضا. تلك الجيوش التي ضمت اجناسا عديدة خلال مواجهتها للجند الاسلامي. وليس ادل على ذلك من هذا الوصف الذي نجده في شعر المتنبي لجند الروم حين يقول :

" تجمع فيه كل لسن وامة فما يفهم الحداث الا التراجم" (2)

وكان من بين هذه الامم التي ضمتها القوات الرومية الارمن فمن بينهم من كان يؤخذ اسيرا بيد المسلمين ويكون مصيره الرق والبيع بالاسواق (3).

---

1) كنار - M. Canard - نخب تاريخية ص 56

2) المتنبي - الديوان - ص 376

3) كنار - M. Canard - نخب تاريخية ص 107

6) **الرقيق الديلمي :**

ومن اجناس الرقيق المعروضة في الاسواق الرقيق الديلمي.
فقد كان الديلم وثنيين ومن ثم تعرضوا لغارات النخاسين الى
ان بايعوا عليهم الحسن بن زيد العلوي سنة (250 هـ/ 864م) (1)
يقول الاصطخري " وقد كان الديلم دار كفر يسبى من رقيقهم
الى ايام الحسن بن زيد فتوسطهم العلوية واسلم بعضهم" (2)
ومن هؤلاء العلويين الذين نشروا فيهم الاسلام الحسن بن علي
الاطروش وذلك سنة (301 هـ/ 913 م) (3) لكن كثيرا من الديلم قد
بقوا على الوثنية الى هذا العصر. فالاصطخري يقول " وفيهم الى يومنا
هذا كفار بالجبال المتصلة بها " (4) وهكذا كان بالامكان استرقاق
اولئك الكفرة عند الحاجة خصوصا انهم كانوا يستجيزون استرقاق
بعضهم ولا يرون فيه ضيرا حتى روي ان " الديلمي يخرج من الديلم
ومعه امراته واخواته وعماته فيبيعهن صفقة واحدة ويحملهن
الى المبتاع لا تدمع عينه ولا عين واحدة من عياله " (5).

---

1) ابن الاثير — الكامل — ج 7ص85 المسعودي- مروج الذهب ج 7ص342 -كليمان هوار - Cl. Huart - دائرة المعارف الاسلامية مقال — ديلم — الطبعة العربية - ص 367
2) الاصطخري — المسالك والممالك — ص 205
3) المسعودي — مروج الذهب — ج 8 ص279 و ج 9 ص5 — كليمان هوار - Cl. Huart - دائرة المعارف الاسلامية — مقال — ديلم — ص
4) الاصطخري — المسالك والممالك — ص 105
5) ابن القيم الجوزية — اخبار النساء — ص 63 — 69

ومن الامثلة الدالة على توفر هذا الرقيق عند المسلمين خلال هذه الفترة من الزمن، ما يذكر من انه كان لمرداويه الديلمي احد قواد الجبل الذين حكموا ايران الغربية بعد موت يوسف بن ابي الساج خمسون الفا من المماليك الديلم. وقد كانوا غاضبين عليه بسبب تفضيله لمماليكه الاتراك عليهم (1) كما يذكر المسعودي ان هذا الرقيق كان يمد الجند العباسي بالمرتزقة ويساهم في بعض الانتفاضات والثورات على الخلفاء العباسيين. ومن ذلك ما دبروه بزعامة احمد بن بويه من خلع للخليفة المستكفي سنة (334هـ/ 946م) (2) وقد وصف الصابي موكب استقبال عظيم الروم " ورد بن منير " المعروف باسم " برذس السقلاروس" الى دار المملكة في عهد صمصام الدولة البويهي سنة (376ه / 986م) فاشار الى وجود عشرة الاف من المرتزقة الديلم في ذلك الموكب (3) وقد ذكر المقدسي ان ارض الديلم كانت معبرا لتجارة الرقيق (4) المجلوب من البلاد المتاخمة لها لكنها فضلا عن هاته المهمة قد كانت تصدر الرقيق الديلمي الذي وصفه اهل العصر باوصاف معينة (4) واشار الاصطخري الى ان الغالب على خلقته " النحافة وخفة الشعر والعجلة وقلة المبالاة "(5) وغير ذلك من الخصائص التي سنتعرض اليها في الفصول القادمة.

---

1) آدم متز - A - MEZ - الحاضرة الاسلامية ج 1 ص 52

2) المسعودي - مروج الذهب - ج 8 ص401 كليمان هوار - CL - Huart - دائرة المعارف الاسلامية مقال " ديلم " - ص367

3) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 380

4) ابن بطلان - رسالة في شرى الرقيق - ص 376

5) الاصطخري - المسالك والممالك - ص 205

7) **الرقيق الخزري :**

ومن اجناس الرقيق الابيض الرقيق الخزري . وكثيرة هي الاخبار التي تدل على توفره بالاسواق الاسلامية في هذه الفترة من الزمن ، فقد كان من بين الهدايا التي ارسلها اسماعيل بن احمد الساماني صاحب ما وراء النهر الى الخليفة المعتضد العباسي سنة (280 هـ/ - 894 - م) عدد كبير من الغلمان الخزر (1) ويروى ان الشاعر ابا تمام حبيب بن اوس كان يعشق غلاما خزريا للحسن بن وهب (2) ويصف اليعقوبي وابن حوقل الخزر نقلا عن ابن فضلان(3) بانهم " لا يشبهون الاتراك وهم سود الشعور وهم صنفان : صنف يسمون قرا خزر وهم سمر يضربون لشدة السمرة الى السواد كانهم صنف من الهند وصنف بيض ظاهرو الجمال والحسن . والذي يقع من رقيق الخزر أهل الاوثان الذي يستجيزون بيع اولادهم واسترقاق بعضهم لبعض فاما اليهود والنصارى فانهم يدينون بتحريم استرقاق بعضهم بعضا مثل المسلمين " (4)

---

1) ابن الزبير — الذخائر والتحف — ص 42
2) الاصفهاني — كتاب الاغاني — ج 22 ص 548 - ط . بيروت 1964 -
3) بارتولد - Barthold - دائرة المعارف الاسلامية مقال " خزر " . ص 309
4) ياقوت الحموي — معجم البلدان — ج 2 ص 368 طبعة بيروت 1375 هـ/ 1956 م . انظر ابن حوقل — صورة الارض . ترجمة فيات - Wiet - ج 2 ص 385 — الاصطخري — المسالك والممالك ص 223 — ابن فضلان — الرسالة ص 172

فقد كان التجار المسلمون اذن يجلبون بعض الرقيق الخزري الجلس ضمن الاجناس الاخرى من الرقيق الذي كانوا يجلبونه عن طريق بلاد الخزر من صقالبة وغيرهم ، فقد كانت تلك البلاد معبرا هاما لتلك البضاعة كما يقول الجاحظ (1) وكان المسلمون يحصلون على الرقيق الخزري بطرق شتى منها الغزو . فقد روى المقدسي ان الخليفة المامون العباسي غزاهم من الجرجانية ودعاهم الى الاسلام (2) كما كان اعداء الخزر من الروس يهجمون عليهم وياسرونهم . وقد سأل ابن حوقل سنة (358هـ/969م) عن مدينة " سمندر " الخزرية الواقعة بين اتل وباب الابواب فاخبر بان الروس قد خربوها (3)

---

1) الجاحظ - كتاب التبصر بالتجارة ص 35

2) المقدسي - احسن التقاسيم - (عن الاسكندر مايبل - اخبار امم المجوس ص 76)
يرى ماركار - Marquarth - ان المقدسي لا يعني بالمامون الخليفة العباسي وانما ابا العباس مامون بن محمد والي جرجانية الذي اصبح فيما بعد عام (385هـ/995م) واليا على جميع خوارزم (راجع دائرة المعارف الاسلامية - مقال : خزر - بقلم بارتولد)
راجع ايضا - المقدسي - احسن التقاسيم - ط - دي غويه - De Goeje - ص 261

3) ابن حوقل - صورة الارض - ترجمة فيات - G. Wiet - ج 2 ص 388

وقد استطاع الروس ان يهددوا عاصمة بلا الخزر وان يزيلوا سلطان الخزر منها مدة من الزمن (1) وقد تواصلت هجوماتهم على هذا الجنس خلال هذا العصر وسقط بين ايديهم العديد من الاسرى (2).

وهكذا كان العداء بين تلك الاجناس من خزر وروس وغيرهم يخدم مصالح تجارة الرقيق الاسلامية لا سيما ان اغلب تلك الشعوب كانت لها علاقات تجارية مع بلاد الاسلام . فكانت تبيع ما يقع في ايديها من اسرى اعدائها وخصومها المسلمين او البيزنطيين على حد السواء . فكما كان الخزر يسترقون الروس والصقالبة ويستخدمونهم ويبيعونهم للمسلمين ، كذلك كان الروس يفعلون بالخزر والبلغار والصقالبة وغيرهم .

---

1) ابن سعيد المغربي – بسط الارض في طولها والعرض – عن الاسكندر صايبل A seipel اخبار امم المجوس – ص 101

2) الوطواط – مناهج الفكر ومباهج العبر – عن الاسكندر صايبل A. Seipel- اخبار امم المجوس – ص 103

8) الرقيق الافرنجي :

لقد راينا في حديثنا عن الرقيق الصقلبي ان مصطلح " الصقالبة " قد اتخذ مدلولا واسعا عند بعض المؤلفين المسلمين مثل ابن حوقل. فكان يشمل اجناسا اخرى يتكون بعضها من مجموع الاسرى الذين اسرهم الاندلسيون في البلاد المجاورة لهم وخاصة فرنسا ويسمونهم الافرنج وهم سكان غسقونية Gascogne ولنكدوك - Languedoc - والثغور الاسبانية (1) وقد ذكر ابن حوقل انه في الزمن الذي اجتاز فيه شبه الجزيرة الايبيرية كان الصقالبة هناك لا يفدون من شواطيء البحر الاسود فحسب بل كانوا يفدون ايضا من كالابريا ولومبارديا ومن بلاد الفرنجة وجليقية (2) ويذكر نفس المؤلف انه لا يوجد شعب

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 179

2) ابن حوقل - صورة الارض - ترجمة فيات - Wiet - ج 1 ص 109
بروفنسال - Provençal - دائرة المعارف الاسلامية مقال - صقالبة - ص 250

من بين شعوب الكفار المتاخمين للاندلس اكثر عددا من الفرنجة. الا ان من يوجدون منهم بجوار المسلمين وعلى حدودهم القريبة، اقل عددا واضعف باسا واقل سلاحا. وعندما يقع اخذهم والفوز بهم يظهرون الطاعة والنصيحة للمسلمين. وهم يتصفون بخصال كثيرة ويتخذ الاندلسيون منهم ازواجا ويفضلونهم على اسرى جليقية لما يعرف به هؤلاء من قوة وخبث وعصيان (1)

هكذا عرف المسلمون الرقيق الافرنجي ضمن اجناس اخرى كانوا ياسرونها عن طريق الثغور الاندلسية مثل اسرى الاسبان وبلاد جليقية. والواقع انهم عرفوا الرقيق الافرنجي قبل هذا العصر اي منذ عهد الفتوحات عندما تمكنوا من الاستقرار بجنوب فرنسا قرونا عديدة (2) وتواصل احرازهم لهذا الرقيق عن طريق القرصنة تارة وطورا عن طريق الهجوم على الممالك الافرنجية التي

---

1) ابن حوقل – صورة الارض – ترجمة فيات - wiet - ج 1 ص 110

2) جوستاف لوبون - Gustave Lebon - حضارة العرب – ص 439

استطاعت الثبات والاستقرار على حدودهم في هذه الفترة من الزمن (1) فلم تكن بلاد الافرنج مجرد معبر لتجارة الرقيق الصقلبي الوارد من اواسط اوروبا. وانما كان لها دورها ايضا في تزويد السوق الاسلامية بهذه المادة التجارية(2) وكان الحكم الاول الاندلسي يستعمل المرتزقة الافرنج في جنده، ويشتريهم من وراء الحدود الاندلسية ويضيف اليهم بعض من اسر في اقليم سبتمانية Septimanie بجنوب فرنسا (3) وقد كانت الافرنجيات المجلوبات من فرنسا وغسقونية وسائر الثغور الاندلسية يحظين برواج كبير في الاندلس بسبب شقرة شعورهن وبياض الوانهن. وكن من احسن الجواري في نظر اهل قرطبة واذا كانت الافرنجية لا تعرف شيئا من لغة مشتريها كانت ابهض ثمنا من سائر الجواري البيض (4) وكان الخلفاء الاندلسيون يختارون جواريهم من هؤلاء الافرنجيات. كما كان الخواص يشترونهن باثمان مرتفعة. وهن في هذا اشبه شيء بالشركسيات في العصور الحديثة. وقد استطاعت الجواري الافرنجية بدخولهن في الحريم وصيرورتهن امهات اولاد ان يسمن المجتمع الاندلسي بطابع خاص وان يحسن اوضاع المراة الى حد ما (5).

---

1) بروفنسال - Provençal - دائرة المعارف الاسلامية مقال "صقالبة" - ص 251

2) موريس لومبار - Maurice Lombard - الاسلام في عظمته الاولى - ص 194-204- الحميري - الروض المعطار - ص = - 26 - ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية ص82 ـ 83 زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 194 ـ 195

3) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 71 ـ 76

4) المرجع نفسه ج 3 ص 314

5) المرجع نفسه ج 3 ص 178 ـ 179

9) **الرقيــق البـربــري :**

وقد استمر وجود الرقيــق البربري في هــذا العصر وان كان عدده قد تناقص بالنسبــة الى ما كان عليــه في عصر الفتوحات . فقد انتشر الاسلام ببلاد البربــر ولم نعــد نسمع شيئــا عن تلك الارساليــات الدوريــة التي كان الغــزاة والولاة بشمــال افريقيــا يبعثونها الى الخلفاء بالمشرق ، ولم تعد افريقيــة مثلا مجرد ولايــة مصــدرة للجواري فــي نظر السلطــة المركزيــة بدمشــق او بغــداد وذلك ابتــداء من القرن الثالث للهجرة ، اذ ظهرت دول محليــة بالمغرب بعضهــا شبــه مستقل كالاغالبــة وبعضهــا الاخر مستقل كالادارســة والرستميين ووضــع ظهور هــذه الامارات حدا لنهب الجنس البربري من قبل عــرب المشرق (1)

لكن هذا التغير في الاوضــاع لا يعــني اضمحلال الرقيــق البربري ، اذ ولــد الكثير من البربــر في الــرق وبقيت بعض المجموعــات البربريــة فــي اقاصــي بلاد المغرب علــى غير الاسلام . فكان الهجــوم والغارة عليهــا موردا من موارد الاسترقاق . وقد اشار ابن حوقل الــى بعض هــذه المجموعات حين روى انــه ان بــدوا من الاشرار المحيطين

---

1) ابن عذاري ــ البيان المغرب ــ ج ـ 1 ـ ص 65-67 ـ محمد الطالبي ـ الامارة الاغالبيــة ص 33 - 37

بقابس قد هجموا على هذه المدينة وحاصروها ونهبوها . وكان اولئك البدو من المشركين . فهجم عليهم زعيم صنهاجة واسرهم وباع العشرة منهم بثوب واحد (1) ويذكر لنا البكري اخبارا شبيهة بهذه عندما يحدثنا عن رقيق بلاد برغواطة قبل ان ينتشر بها الاسلام يقول في ذلك : " ولم تزل برغواطة في بلادها معلنة بدينها وبنو صالح بن طريف ملوكها الى ان قام فيهم الامير تميم اليفرني وذلك بعد عشرين واربعمائة من الهجرة فغلبهم على بلادهم وسباهم وجلا من بقي منهم واستوطن ديارهم وانقطع امرهم وعفى آثارهم ولم يبق لضلالتهم باقية ولا من اواصر كفرهم آصرة . وتميم هذا كان ذا جد وايثار للعدل وهو الذي قتل احد بنيه لاغتصابه جارية من التجار بوادي سلة . وجميع بلاد برغواطة اليوم على ملة الاسلام " (2) ومن مظاهر هذا السبي ايضا ما يرويه نفس المؤلف عن مدينة فاس سنة اربع وعشرين وثلاث مائة " (3) وينوه البكري برقيق

1) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ ترجمة فيات G - wiet ـ ج 1 ص 67
2) البكري ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ـ جزء من كتاب المسالك والممالك ص 141
3) المصدر نفسه ص 155

مدينة البصرة بالمغرب ويشير الى جمال القيان البصريات مستشهدا بشعر لابن الخراز التاهرتي (1) كما يحدثنا عن وفرة هذا الرقيق الابيض بمدينة اودغست وشهرته بالوسامة والجمال (2).

لقد كان الرقيق البربري متوفرا بالمغرب اذن (3) وكان المؤنث منه خاصة يعتبر نفيسا لجماله فالبربريات من احسن انواع الجواري يقول ابن بطلان : " اذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس ان تجلب وهي بنت تسع حجج ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج وبمكة ثلاث حجج ثم جاءت الى العراق ابنة خمس عشرة فكانت بالعراق في الادب ثم ملكت بنت خمس وعشرين سنة فتلك التي جمعت الى جودة الجنس شكل المدنيات (4) وخنث المكيات وآداب العراقيات واستحقت ان تخبأ في الجفون وتوضع على العيون " (5).

ويعد ابن حوقل هذا الصنف من الجواري ضمن صادرات المغرب نحو المشرق ويشير الى ان هؤلاء الجواري الجميلات قد اصبحن حظايا الخلفاء العباسيين وغيرهم من كبار الوجهاء وصرن امهات للخلفاء وانجبن

---

1) المصدر نفسه ص 110
2) المصدر نفسه ص 158 _ 159
3) ابن بطلان-رسالة في شري الرقيق ص 374 السقطي _ آداب الحسبة ص 49_50
ابن القيم الجوزية _ اخبار النساء _ ص 7
4) الشكل بالفتح والكسر : دل المرأة وغزلها
5) ابن بطلان _ رسالة في شري الرقيق ص 374

الامراء فكان منهن سلامة البربرية ام ابي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (136 - 158 هـ/ 754 - 775م) ومثل قراطيس ام ابي جعفر هارون الواثق بن المعتصم (227 - 232هـ/ 842 - 847م) ومثل قتول ام ابي منصور محمد القاهر بن المعتضد (320 - 322 هـ / 932 - 934م) دون اعتبار لغير هؤلاء من امهات الاولاد البربريات (1) وما من شك ايضا في ان هذا الضرب من الرقيق قد كون مادة تلك الهدايا التي كان امراء المغرب وخاصة الاغالبة يهدونها الى الخلفاء بالمشرق مثل هدية زيادة الله بن الاغلب (290 - 296هـ/ 903 - 909م) الى المكتفي (289 - 295هـ/ 902 - 908م) سنة (291 هـ/ 904 - م) وفيها مائة خادم ومائة جارية او هديه المعز بن باديس الصنهاجي (398 - 454هـ/ 1008 - 1062م) الى الملك الظاهر (411 - 427هـ/ 1020 - 1035م) سنة (420 هـ/ - 1029 - م) (2) .

وليس لدينا ما يدل على ان افواج البربر التي تضاعف دخولها الى الجيش الاندلسي منذ القرن الثالث للهجرة ومجموعات الافارقة التي اطلق عليها لقب ((الطنجيون)) ووقع استقدامها الى الاندلس في عهد الخليفة الناصر (300 - 350هـ/ 912 - 961م) ثم في عهد ابنه الحكم الثاني (350 - 366 هـ/ 961 - 976 م) قد كانت مكونة من البربر الاحرار فقط ولم يكن فيها ارقاء بل ان كلام ابن حيان في ((المقتبس)) ليشير الى ان الحكم كان يشتري اعدادا من الافارقة البيض والسود ويجعلهم في حشمه (3) ويمكننا ان نقول مثل ذلك بالنسبة الى افواج البربر التي وجدت في الجيش الفاطمي وكانت تؤلف بعض كتائبه المنافسة لكتائب الاتراك والديلم (4) .

1) ابن حوقل - صورة الارض - ترجمة فيات - Wiet - G - ج 1 ص 95 الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 138 - 141 جورج مارسي Georges Marçais - بلاد البربر الشرقية - La Berbérie musulmane et l'orient ص 25

2) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 47 و ص 69 - 70

3) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 80 - 81 ابن حيان - المقتبس ج 2 ص 121 - وص 141 و ص 147 ابن عذاري - البيان المغرب ج 2 ص 147 - 152

4) المقريزي - الخطط - طبعة بولاق 1270 هـ (في جزايين) ج 2 ص 12 - جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 201 - 203

10) رقيـــق الهنـــد والسنـــد

ومـن اصنـاف الرقيـق الرائجـة في الاسـواق الاسلاميـة في هـذا العصر الرقيـق الهنـدي والسنـدي . وقـد وجـد هـذا النوع من الرقيـق بلا شـك منـذ الفتـح الاسـلامي خـلال القرنيـن الاول والثانـي للهجـرة فمثـلا يـروى عـن علي بن ابي طـالب (34 - 39 هـ/ 655 - 660م) انـه اول من تـزوج هنـديـة من سبـايـا الهنـد هي ((خـولـة)) التي انجبتـه ابنـه الشهيـر محمـد بن الحنفيـة (1) وكـذلـك كـانت ((سـلافـة)) ام زيـن العابـديـن سنـديـة . قـال ابن قتيبـة في كتـاب المعارف ((واما علي بن حسيـن الاصغـر فليـس للحسيـن عقـب الا منهـا. ويقـال ان امـه سنـديـة يقـال لهـا سـلافـة ويقـال غـزالـة خلـف عليهـا بعـد الحسيـن زيـن العابـديـن مـولى الحسيـن فـولـدت لـه عبـد اللـه بن زيـد فهـو اخـو علي بن الحسيـن لامـه)) ونفـس هـذا الكـلام نقـلـه ابن خلكـان ايضـا (2) وكـانت كـذلـك ((حبابـة)) جاريـة يـزيـد بن عبـد الملك (102 - 104 هـ/ 720 - 724م) سنديـة وقـد زوجهـا من عمـر ابن هبيـرة الفـزاري فانجبت لـه يزيـد بن عمر بن هبيرة الذي اسنـد اليـه يزيـد بن عبـد الملك امارة العراق (3) ومـا ان آل الامـر الى العباسييـن خـلال القـرن

1) محمـد اسماعيـل الندوي. تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربيـة ص45 . 50

2) المرجـع نفسـه ـ القاضي اطهـر المباركفوري ـ رجـال الهنـد والسنـد ـ ص138

3) محمـد اسماعيـل الندوي ـ تاريخ الصلات بين الهنـد والبلاد العربيـة ـ ص45 . 50

الثاني للهجرة حتى تدفقت الهنديات من السند ومن ((كجرات)) بجنوب الهند على بلاط الخلفاء ببغداد، واحتلت بهن الاسواق ودخلن بيوت المسلمين سيدات و مربيات للاطفال و مغنيات ومطربات بقصور الملوك والامراء (1) وكان من اشهرهن ((خمار القندهارية)) (2) المغنية الجميلة التي روى لها الاصفهاني في كتابه الاغاني ما انشدت من ابيات (3).

وهكذا تواصل وجود الرقيق الهندي والسندي خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة. فهذا الجاحظ ينوه في رسالة ((فخر السودان على البيضان)) بمهارة الرقيق السندي في الطبخ والصرف والغناء فقال: ((قالوا: ومن مفاخر الزنج حسن الخلق وجودة الصوت وانك لتجد ذلك في القيان اذ اكثرهن من بنات السند ... وخصلة اخرى انه لا يوجد في العبيد اطبخ من السندي هو اطبع على طيب الطبخ كله ... ومن مفاخرهم ان الصيارفة لا يولون اكيستهم وبيوت صروفهم الا السند و اولاد السند لانهم وجدوهم انفذ في امور الصرف واحفظ وآمن ولا يكاد احد ان يجد صاحب كيس صير في ومفاتيحه ابن رومي ولا ابن خراساني وقد بلغ من ثقة التجار بهم ان صيارفة البصرة وبنادرة البربهارات (4) لما رأوا

---

1) المرجع نفسه

2) نسبة الى قندهار وهي مدينة في ولاية بومباي

3) القاضي اطهر المباركبوري - رجال الهند والسند ص95 وما بعدها - محمد اسماعيل الندوي - تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ص45 . 50 وص 47 . 55

4) البنادرة جمع بندار بضم الباء وهم التجار الذين يلزمون المعادن او الذين يخزنون البضائع للغلاء. والبربهار الادوية التي تجلب من الهند من الحشيش والعقاقير والفلوس وغيرها. يقول البحرية واهل البصرة لها البربهار (راجع السمعاني - الانساب ص 71)

ما كسب فرج ابوروح السندي لمولاه (1) من المال والارضين اشترى كل امرئ منهم غلاما سنديا طمعا فيما كسب ابو روح لمولاه)) (2)
ويذكر ابن الزبير في ((الذخائر والتحف)) جارية سندية اهداها ملك الهند الى المأمون (198 - 218 هـ/ 813 - 833 م) وقد وصف جمالها وصفا اسطوريا يرمز الى ما كان يشيع في الاوساط الاسلامية من جمال الجواري الهنديات (3) ومن الجواري اللائي ذكرهن ابن بطلان ((المنصورية)) وهن نسبة الى المنصورة الواقعة بماء النهر وهي ((الملتان)) (4).

فقد وجد اذن في هذا العصر رقيق هندي وسندي بوسائل مختلفة منها الوسيلة التجارية. فهذا المقدسي يشير الى جلب الرقيق من اقليم السند والهند والى المكوس الموظفة عليه. يقول في ذلك ((والخراج يؤخذ من الحمل اذا دخل طوران ستة دراهم وكذلك اذا خرج ومن الرقيق اثنا عشر اذا دخل فحسب وان كان من نحو الهند فعشرون من الحمل وان كان من قبل السند فعلى مقادير القيم)) (5) ومن المعلوم ان تجارة المسلمين مع الهند كانت نشيطة في هذا العصر عن طريق

1) هو محمد بن السكن كما جاء في كتاب الحيوان للجاحظ ج 3 ص 435

2) الجاحظ - فخر السودان على البيضان - الرسائل ج 1 ص 224. 225

3) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 25 الادريسي - نزهة المشتاق - طبعة رومة 1970 ج 1 ص 96

4) ابن بطلان - رسالة في شري الرقيق - الباب الرابع - ص 368 ومابعدها

5) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 485

مـــواسـي الخليج الفارسي وجنوب الجزيرة العربية . فقد كان لسيـــراف ولبلاد عمان وكذلك لعدن علاقات تجارية وثيقة بالهند (1) وقد اشتهر في هذه الفترة تاجران هما التاجر سليمان والتاجر ابو سعيد حسن بما القاه من كتب حول رحلتهما التجارية الى الهند (2) وقد وجدت جاليات من تجار المسلمين بسيلان (3) وفي مقاطعة سيمور قرب مدينة بومباي - « Bombay » - الحالية (4) وقد كانت بضاعة الرقيـــق من اهم البضائع المتداولة في هذا النشاط التجاري . ففي عدن مثلا كان تبادل منتجات الهند والصين بمنتجات بلاد السودان من عبيد النوبة والعاج والتبر امـــــرا جاريا (5) وقد اتسع نطاق التجارة مع الهند في هذا العصر مشرقا ومغربـــا حتى وصلت الى شمال بحر آرال La Mer d'Aral والى مدينة جرجانية المسلمـــة الواقعة جنوب هذا البحر (6) كما اتصلت منذ القرن الرابع للهجرة بالمغرب عـــن طريق عدن و مصر واشتهر تجار منهم المهدوي والقيرواني والنفوسي والطنجي والفاسـي والسجلماسي والمالقي برحلاتهم الى الهند وسيلان (7) وقد اشتهر من هؤلاء التاجر التونسي ابن ياجو الذي قضى معظم حياته بالهند (8) ونحن وان كنا لا نعرف على

وجـــــه ...

---

1) جوان بربيط - هيل هماك ..... ص 70.73 كليمان هوار - Cl. Huart .
تاريخ العرب ج2 ص 102-104 هايد - Heyd - تاريخ
تجارة الشرق ج1 ص 30 المسعودي - مروج الذهب ج1 ص 308.30

2) رينو - Reinaud - روايات اسفار العرب والفرس الى الهند والصين
باريس 1845 (في جزأين) ج1 ص 60.10 و ج1 ص 154.61
« Relations des voyages faits par les Arabes et les Persans dans l'Inde et la chine »
هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق ج1 ص 29

3) المرجع نفسه ج1 ص 33

4) الاصطخري - المسالك ص 82 المسعودي - مروج الذهب ج1 ص 382
و ج2 ص 85 هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق ج1 ص 33

5) جوستاف لوبون - Gustave Le bon - حضارة العرب ص 436

6) الاصطخري - المسالك والممالك ص 127 . 129

7) روجي ادريس - R. Idris - بلاد البربر ج2 ص 572

8) المرجع نفســـه

التحديد دو هذه الحركة التجارية في ترويج هذا النوع من الرقيق بالاسواق الاسلامية فانه لا مجال للشك في انها قد ساهمت في جلبه فضلا عما كانت تسفر عنه غزوات الدولة الغزنوية في الناحية الشمالية الغربية من الهند من اسرى وسبي (1).

تلك في الجملة ابرز اجناس الرقيق التي كانت متداولة في هذا العصر وهي اجناس تختلف قلة وكثرة وتكون في مجموعها مادة اسواق الرقيق في العالم الاسلامي . الا ان هذه الصورة التي رسمناها لتنوع تلك الاجناس لا تكون مكتملة الا اذا اشرنا الى ظاهرة اخرى قد زادت في تنوعها ونعني بها ظاهرة استرقاق الاحرار داخل حدود العالم الاسلامي نفسه

---

1) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق ج 1 ص 34

11) استـــــــرقاق الاحـــــــرار

وقــد توفرت فى السوق الاسلامية من حين لاخـر اجنـــاس اخرى من الرقيـــق مختلفـــة عن الاصناف المجلوبة عــن طريق التجـــارة او المأسورة اثنـاء الصدام بالثغــور او بـدار الحرب،ونعنـــــــي بها تلك التى لم يكن المشرع الاسلامي يجيز استرقاقها،كالاحرار من العرب والمسلمين واهــل الذمة.فلم تكن الظروف التى حادت فيهــا تجارة الرقيق عن السنن الذي سطره لها الفقــه الاسلامي نادرة فى هذا العصـــر. اذ كثيــرا ما عــرض فى اسواق هذه التجارة رقيق من جنس عربــــــي رغــم ما اجمع عليــه الفقهاء من منع لاسترقاق العربي وبيعـــه استنادا الى سيرة السلف من المسلمين منذ حياة الرسول (1) والى ما سنه عمر بـــــن الخطاب (13 -23 هـ/ 634-644م) فى هذا الشأن بقولته المشهورة ((ليس على عربي ملك)) او قوله عنــد موته ((من ادرك وفاتي من سبي العرب فهو حر من مال الله)) (2) ويعني بمال الله الزكاة الواجبة إذ فيـــها سهم تعتق به الرقاب بنص القرآن (3) ولمـا كـان الخروج عن المشروعـة مرتبطا خاصة بفترات القلاقل وظهور الفتـن اتضح لنـا ان هــذه التجارة الممنوعــة قــد عرفت رواجا فى اوقات متعاقبة لكثرة ما اندلع فى هذا العصر من انتفــاضــات وثـــورات

---

1) عبد السلام هارون ـ مقدمة تحقيق رسالة ابن بطلان ـ ص 342 ـ 349

2) محمد بلتاجي ـ منهج عمر بن الخطاب فى التشريع ـ دار الفكر العربي 1970 ـ 496

3) قـــرآن سورة ـ التوبة ـ آيـة ـ 9

فقد فسحت ثورة الزنج بالبصرة المجال لممارسة هذا النوع من التجارة اذ مكن زعماء الثورة العبيد من امتلاك الا حرار وبيعهم في الاسواق واتاحوا لهم فرصة سبي النساء الهاشميات ووطئهن واتخاذهن لخدمة الاماء الزنجيات وقد ذكر المؤرخون ان الجارية كانت تباع بالدرهمين و الثلاثة وينادي عليها النخاس بنسبها قائلا هذه فلانة بنت فلان . وكان فيهن الكثيرات من بنات الحسن والحسين والعباس وغيرهن من نساء قريش (1) يقول المسعودي في ذلك ((وبلغ من امر عسكره انه كان ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وسائر العرب وابناء الناس تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة وينادى عليها بنسبها هذه ابنة فلان الفلاني لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف ولقد استغاثت الى علي بن محمد امرأة من ولد الحسن بن علي بن ابي طالب كانت عند بعض الزنج وسألته ان ينقلها منه الى غيره من الزنج ويعتقها مما هي فيه فقال لها هو مولاك وهو اولى بك من غيره ...))(2).

---

1) ابن الاثير - الكامل ج 7 ص 205- 214 وص 237- 246

2) المسعودي - مروج الذهب ج 3 ص 60-61

وكـــان القرامطة الذين علا شأنهم فى القرن الرابع يعتبرون جميع من خالفهم اهلا للحرمان من الحقوق الشرعية فاجازوا استرقاق من وقع فى ايديهم من اسرى المسلمين فاسروا الكثير من الاحـــــرار من اهل العراق والشام وجزيرة العرب رقيقا لهم وقد اعترضـــوا قافلة الحجيج سنة (312 هـ / 924 م) فاسروا من الرجـــــال الفين ومن النساء زهاء خمسمائة وحملوهم الى هجر.وكان الازهري اللغوي الاديب المتوفى عام (370 هـ / 980 م) من ضمن الاسرى ووقع في سهم قوم من العرب الذين نشأوا بالبادية يتتبعون مساقط الغيث ويتكلمـــون بفصاحتهم البدوية التي لا يخالطها لحن فبقـــي في اسرهم زمانا طويلا واستفاد من لغتهم الفاظا كثيرة ونوادر جمة ضمنهـــا فى مـــؤلفــاتــه (1).

وفي عهد بني الاغلب بافريقية تصدى الامام سحنون الى بيـــوع الرقيق غير الشرعية ومنها استرقاق الاحرار وبيعهـــم ويشير المالكي نقلا عن ابي جعفر الصواف احد تلاميذ سحنـــون الى ان نظام الحسبة لم يكن مستقلا ولم يعرف المحتسبون بافريقيـــة الا بعد حوادث سبي الحرائر بتونس . وتفصيل ذلك ان هـــذا القاضي امر اعوانه بانقاذ هذا السبي من ايدي اصحابه فتظلمـــوا

---

1) ياقوت الحموي - ارشاد الاريب - ج 6 ص 299

آدم متز - A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300

الى الامير محمد بن الاغلب (226-242هـ/ 841-856م) ومنهم حاتم الجزري احد المشاركين في حملة الجند على الثورة التي حدثت بتونس وارسل الامير الى القاضي يامره برد السبي. واجابه بقوله ((انهم احرار ولا سبي عليهم وقد احلفتهم)) ونعت بموقفه العادل رغم توتر العلاقة بينه وبين الامير. ولم يكتف بذلك بل القى حاتم الجزري في السجن . وصار الامير يفكر في الخروج من هذا المأزق ويبحث عن سر تصلب القاضي. واختار في نهاية الامر التراجع في موقفه قائلا ((لما اظن هذا الرجل يريد بنا الاخيرا ونحن لا نعلم. ارسلوا اليه يرسل لنا المحتسبة لنكتب لهم السجلات حتى يذهبوا الى اقصى عطي لياخذوا من يجد ونسه من الحرائر))(1)

وهكذا كتبت بهذه المناسبة سجلات لاناس رشحوا للحسبة. ويشير صاحب رياض النفوس الى ان سحنونا امر احدهم وهو ابو زكريا بالبحث عن هؤلاء الحرائر وطلب كشف براقعهن وسؤالهن عن اوضاعهن وقد تمكن من تخليص نساء كثيرات ووضع خلفهن من تونس محررهن كما حرر مجموعات اخرى من ((جزيرة ابن ربيعة)) ممن وقعن من ايدي الجند او التجار . وبذلك ... القاضي حملة تفتيش عن هؤلاء الحرائر واخذ بيده في تخليصهن ولم يعد

---

1) المالكي - رياض النفوس - 1 ص 281 - 282

الدالبي - الامارة الاغلبية ص 243 - 248

بامكان الامير معارضته او الاستماع الى شكوى المتظلمين بل اكتفى بقوله ((ان سحنونا لم يركب لنا دابة ولا ثقل كمه بصرة فهو لا يخافنا)) (1) ويرى الدكتور محمد الطالبي عن حق ان هذه المناسبة التى وقع فيها استرقاق الاحرار بافريقية ليست وحيدة من نوعها وانما الواقع ان الامراء الاغالبة لم يكونوا يصادفون دائما قاضيا كسحنون ليعترض على تصرفاتهم (2) .

ومن المعروف ان النزاع السياسي بين المسلمين قد جعل انصار كل مذهب يكفرون انصار المذهب المقابل لان هذا النزاع كان دائما ذا خلفية او واجهة مذهبية وعقائدية وقد ادى بهم تكفيرهم لبعضهم بعضا في وقت ما الى استباحة الدماء والحريم فصار كل منتصر يسمح لنفسه باسر المغلوب وسبيه بدعوى انه كافر وقد حدث ذلك مرارا عديدة وكثر بكثرة النزاعات في هذا العصر ومن امثلة ذلك على سبيل الذكر لا الحصر ما ذكره البكري عن مدينة ((وزريعة)) بالمغرب وهي الواقعة بين اغمات وفاس من تعرضها الى حملات الاسر والسبي خلال الصراعات السياسية ومن ذلك ان ميسور الفتى قد ((سبى نساءها بعد زواله عن مدينة فاس سنة اربع وعشرين وثلاثمائة)) (3) ومن هذه الامثلة ايضا ما وقع في ايدي

1) المالكي – رياض النفوس 1 ص 281 – 282 الطالبي الامارة الاغلبية ص 243 - 248

2) المرجع نفسه – موسى لقبال = الحسبة المذهبية – ص 41 – 42

3) البكري – المغرب – ص 155

انتصار الفاطميين بصقلية من احرار خلال هجوماتهم على السواحل الاندلسية سنة (343 هـ/ 954 م) وذلك في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله (386-411هـ/996-1020م) والامثلة كثيرة (1).

وقد تحول المسيحيون الاحرار الى عدد الاسرى الاوروبي ايضا فقد بيع خلال ثورة ابن حفصون بالاندلس العديد من الاحرار المسيحيين بقرطبة. وكان منها الكثير من الاسرى بالجهات التي لم تهدأ ثوراتها الا في زمن متأخر جدا. ولم يكن امام هؤلاء الاحرار المسترقين سوى احد حلين اما ان يشتريهم اهل الذمة الذين لهم الحق في ملك الرقيق واما ان يعتنقوا الاسلام مما يخول لهم ان يتمتعوا في المستقبل بالعتق بفضل شريعة الاسلام (2) وهكذا يتضح مما سبق ان الاسواق الاسلامية قد احتوت في مناسبات عديدة اجناسا مختلفة ممن يمنع استرقاقهم شرعا كالاحرار من العرب والمسلمين والمسيحيين الاحرار

---

1) ارسيبالد لويس - A. Lewis - السيادة الاسلامية - ص 49

2) بروفنسال Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 200 - 214

تلك بعض الامثلة على اجناس الرقيق التي كانت متوفرة في الاسواق الاسلامية . وهي تدل على تعدد هذه الاجناس وتنوعها وامتزاجها مما يصعب معه احيانا التمييز بينها . وما ذكرناه لا يعد وضرب مثال على هذا التعدد وليس من باب الاحصاء. اذ وجدت اجناس اخرى وان كانت قليلة العدد كالعنصر الصيني مثلا. فهذا الجاحظ يحدثنا عن الجواري والخصيان المجلوبين من الصين فيقول ((ويجلب من الصين الفرند والحرير والغضائر والكاغد والمداد والطواويس . . . والجواري وطرائف الشبه والاقفال المحكمة . . . وبناة الرخام والخصيان)) (1) وقد تحدث المسعودي ايضا عن جلب الخصيان من الصين (2) مما يدل على وجود هذا الجنس من الرقيق في الاسواق الاسلامية . ولا يبدو ذلك غريبا اذا علمنا ان التجار المسلمين كانوا على صلة متينة بالصين وانهم كونوا جالية تجارية بمدينة ((كانتن)) canton منذ القرن الثالث للهجرة . وقد ساهموا فيما حل من اضطرابات بها سنة (-١٤٠ - هـ/ 758م) وشاركوا في نهبها (3) هذا فضلا عما يروى عن اهالى الصين اذ ان من بيعهم لانفسهم واولادهم بسبب الاحتياج (4) وقد كانت هناك علاقات سلم وعداء بين السامانيين وملوك الصين في القرن الرابع للهجرة قد اسفرت عن دخول رؤوس من الرقيق الصيني بشكل من الاشكال (5).

---

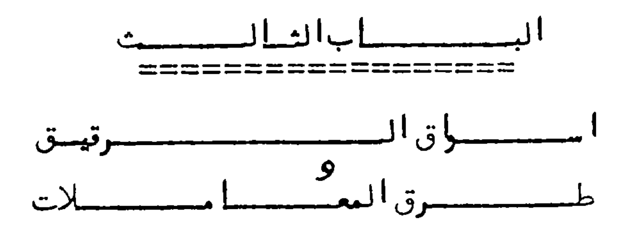
1) الجاحظ - التبصر بالتجارة - ص 33 - 34 راجع ايضا - المقدسي - احسن التقاسيم - ص 97 . 98 - جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 26 . 28

2) المسعودي - مروج الذهب - ج 1 . ص 308-309

3) كليمان هوار - CL. Huart - تاريخ العرب - ج 2 ص 102

4) عبد السلام هارون - مقدمة تحقيق رسالة في شري الرقيق لابن بطلان - نوادر المخطوطات - عدد 4 - القاهرة - 1954 - ص 333 . 342

5) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 139 . 150



الباب الثالث

اسواق الرقيق
و
طرق المعاملات

الفصل الاول

نظام الاسواق ومادتها

4) اسـواق الرقيـق

أ- تنوعها وانتشارها :

كانت اسواق الرقيق في بلاد الاسلام عديدة. ولعلها كانـت متعددة بتعدد اهم العواصم والمدن الكبرى في البلدان الاسلاميـة المنضوية تحت لواء الخلافـة او المنشقة عنها، فقد وجدت هذه الاسواق بمكة والمدينة والطائف ودمشق والقاهرة والاسكندرية وبغداد والبصـرة والكوفـة والقيروان وقرطبة وسمرقند وبخارى وغيرها من المدن الكبرى. وكانت هذه الاسواق على انواع فمنها ما هو محلي يستورد بضاعتـه من اسواق اخرى في البلاد الاسلامية، ويقتصر على بيعها لمن يشـتري، ويمكن ان نسمي هذا النوع بسوق استهلاك. وثمـة نوع آخر اكبر اهمية وهي الاسواق التي تتجمع فيها مادة الرقيق من الاسواق الاجنبيـة وتتولى توزيعها على الاسواق الاقليميـة داخل بلاد الاسلام. ويمكـن ان نسمي هذا النوع باسواق الجلب والتوزيع التي لا تقتصر على الاستهـلاك المحلي، ويوجد اغلبها بالمقاطعات المتخامـة لمصادر جلب الرقيـق مثل اوروبا او بلاد السودان بافريقيـا. واحسن الامثلـة على هـذا النوع سوق سمرقند وسوق عمـان وسوق عدن وغيرها. ففـي عمـان

مثلا كانت تتجمع طوائف الرقيق المجلوب،فتوزع على الاسواق الاسلامية.
وكذلك كان الشان بالنسبة لسوق القيروان التي توزع الرقيق على اسواق المشرق والمغرب والاندلس،وقرطبة التي تصدر الى المغرب والمشرق.

وكذلك كان الامر بالنسبة الى سوق سمرقند التي كانت اكبر سوق لتجارة الرقيق الصقلبي المجلوب من بلاد البلغار.وهو رقيق سلافي الاصل كان يقطن دول نهر الفولجا ويجلب عن طريق التجارة الى سمرقند حيث يتجمع ويربى انواعا خاصة من التربية،ثم يوزع على سائر الممالك الاسلامية (1). ومن هذه الاسواق التي يتجمع فيها الرقيق سوق نهاوند .ومما يروى عن كثرة رقيقها ان بعض ولاتها في عصر المامون قد اقتنى في ظرف اربعة وعشرين شهرا من الخدم والخصيان ما تقدر قيمته بالف وخمسمائة دينار (2).

ولعل من اشهر الاسواق المجمعة للرقيق سوق الري التي يقول عنها ابن الفقيه رواية عن محمد بن اسحق انها (واسطة خراسان وجرجان والعراق وطبرستان . . . واليها تقع تجارات ارمينية

1) آدم متز ــ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300 ــ عبد السلام ترمانيني - الرق ماضيه ص 89
2) البيهقي ــ المحاسن والمساوي ص 163

واذربيجان وخراسان والخزر وبلاد برجان) (1) فهي من الاسواق الـــتي
يتجمع فيها الرقيق المستورد من اوروبا الشرقيـة عن طريق بلاد الخزر
وبحر قزويـن . ويذكر ابن الفقيـه ان تجار الصقالبـة يخرجون من اقصى
" صقلبة" فيركبون البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم ثم يمتطون البحر
الى " سمكوش اليهود " ثم ياتون خليج الخزر ثم يصيرون الى البحـــر
الخراساني فيبيعون بضاعتهم في جرجان فتقع جميع تلك البضاعـــــة
الى الري (2).

كما يذكر صاحب مختصر كتاب البلدان خصائص هذه المدينـة
التجارية مشيرا الى انها ملتقى طرق التجارة البرية والبحرية والـــى
اكتظاظ اسواقها بالاجناس المختلفـة من التجار كما اشار الى ما ســـاد
فيها من انحلال اخلاقـي وفجور نتيجة لذلك الاكتظاظ وهو فساد ناشيء
عن كثرة الرقيق المتداول فيها ايضا .وقد نقل المؤلف بعض الاشعـــار
الدالة على هذا التفسخ الاخلاقي منها قول ابن كربويه الرازي وهـــو
احد اصحاب الحسين بن احمد العلوي بقزوين :

---

1) ابن الفقيـه - مختصر كتاب البلدان ص 270
2) المصدر نفســه ص 271

"كم حل عرصة نصر اباذ قاطبة　　　من ابن زانية محض وكشخان
وكم بسكة ساسان اذا ذكروا　　　من ابن فاجرة نص وقرنان (1) "

ومن الاشعار التي نقلها ايضا ما يدل على اختلاط الاجناس من اعاجم كالترك والديلم وغيرهم بهذه المدينة فاورد قول آدم بن عبد العزيز .

"مالي وللري واكنافها　　　يا قوم بين الترك والديلم
ارض بها الاعجم ذو منطق　　　والمرء ذو المنطق كالاعجم (2)"

وقد كانت عدن سوقا للرقيق الاسود ، وقد وصف المقدسي رواج هذه البضاعة بها في القرن الرابع للهجرة . وذكر انها مستودع الحبش والخدم واهم سوق للرقيق باليمن يقول (واليمن معدن العصائب والعقيق والادم والرقيق . . . وتزيد عدن بالعنبر والشروب والدرق والحبش والخدم) (3) كما ذكر ان تجارة اليمن كانت على اشدها مع بلاد الزنج عبر البحر وان عدن قد كانت متجرا كبيرا ومستقرا لثروات طائلة استهوت العديد من التجار . وقد حاول المقدسي نفسه ان يمارس التجارة مع بلاد الزنج عند ما حل بارض اليمن اذ استهوته تلك الثروات

---

1) المصدر نفسه ص 273
2) المصدر نفسه ص 273
3) المقدسي - احسن التقاسيم ص 97—98

ولكنه عدل عن ذلك اثر نصيحة احد رجال الدين له بالعدول اذا كان راغبا في التقوى وتاركا للغرور بمتاع الدنيا .

ولسنا نعرف على وجه اليقين نوع التجارة التي حاول المقدسي ممارستها. وليس من المستبعد ان يكون الرقيق مادتها لانها من اهم البضائع المستوردة من بلاد الزنج يقول (ولما ركبت بحر اليمن اتفق اجتماعي مع ابي علي الحافظ المروني في الجلبة فلما تاكدت المعرفة بيننا قال لي : قد شغلت والله قلبي قلت : بماذا ؟ قال : اراك رجلا على طريق حسنة تحب الخير واهله وترغب في جمع العلوم وقد قصدت بلادا قد غرت كثيرا من الناس وصدتهم عن طريق الورع والقناعة واخشى اذا انت دخلت عدن فسمعت ان رجلا ذهب بالف درهم فرجع بالف دينار وآخر بمائة فرجع بخمسمائة وآخر بكندر فرجع بمثله كافورا طلبت نفسك التكاثر ، قلت : ارجو ان يعصم الله . فلما دخلتها وسمعت اكثر مما قال غربي والله ما غر القوم وعملت على الذهاب الى ناحية الزنج وآتيت ما ينبغي ان يشترى وتقدمت فيه الى الوكلاء فبرد الله عز اسمه ذلك على قلبي بموت شريك كنت عاقدته وكسرت نفسي بذكر الموت وما بعده) (1) فهل في هذا التجافي والتلوم ما يشير

1) المصدر نفسه ص 97_98

الى ترفع رجل متدين عن ممارسة تجارة تتنافى معاملاتها والمبادئ الخلقية الدينية ؟ ثم ما عسى ان تكون هذه التجارة المستهجنة في بلاد الزنج ان الراجح ان الاشارة خفية الى تجارة الرقيق الاسود .

ويبدو ان بعض الموانئ الاسلامية قد لعبت بصفة عامة دورا اكبر من دور غيرها من المدن في هذه التجارة (1) مثل المرية بالاندلس (2) والسفرط ثم بعد ذلك الاسكندرية بمصر (3) ودربند (باب الابواب) على ساحل بحر الخزر فهي مراكز حدودية لاستقبال افواج الرقيق وقد لعبت دورا مماثلا للمراكز الداخلية الكبرى التي يتجمع فيها الرقيق مثل سمرقند وبخارى (4) .

ويوجد نوع ثالث من الاسواق يعتبر اندر من النوعين السابقين وهو السوق التي تصدر البضاعة الى خارج البلاد الاسلامية او تقوم بدور الوسيط التجاري فما يذكر عن سوق عمان مثلا انها كان تصدر الرقيق المجلوب الى الهند والصين (5) وهذا النوع نادر كما قلنا لانه كان من الممنوع ان يبيع المسلمون ما بايديهم من الرقيق للاجانب خصوصا اذا كانوا من اعداء الاسلام اي من دار الحرب وهذا المثال الذي ذكرناه لانجده يتكرر باسواق اخرى مع بلاد الروم مثلا او بلاد السودان للعداء القائم اذاك بينهم وبين دار الاسلام .

1) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد - ج 1 ص 33

2) السقطي - آداب الحسبة - ص 50 - 52 - بروفنسال Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 309 . 314 - عبد العزيز سالم - تاريخ البحرية ص 173 . 191 - دي فالف - De Vallve - مدينة المرية في العهد الاسلامي - فصلة من كراسات تونس منشورات الجامعة التونسية ج 10 . سنة 1970 عدد 69 . 70 ص 61 . 72

3) عبد العزيز سالم - تاريخ الاسكندرية - ص 202 . 204

4) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 270 . ابن حوقل - صورة الارض - الترجمة الفرنسية ج 2 ص 474

5) سليمان ابراهيم العسكري - التجارة والملاحة في الخليج العربي ص 181

ب-اسواق قارة وموسمية :

تلك اصناف الاسواق من حيث الدور التجاري الذي تلعبه وهي لم تكن كلها اسواقا قارة، بل كان هناك اسواق موسمية للرقيق يقع الاعداد لها وتنظيمها في اوقات معلومة من السنة، ويبدو انها كانت بمثابة المعارض الكبرى التي تتجمع فيها شتى الاجناس ويلتقي خلالها العديد من التجار، ويتخللها نشاط كبير لا يوجد في الاسواق العادية. ومن المرجح ان الاسعار في هذه الاسواق كانت اقل غلاء منها في الاسواق الاخرى، كما ان نوع الرقيق المعروض كان مختلف المستويات. وقد اشار ابن بطلان الى الاسواق التي تعقد في المواسم وحذر المشترين منها لكثرة ما يحدث فيها من الغش (1).

ويفهم ايضا من كلام هذا المؤلف ان التجار كانوا يجمعون في هذه المناسبات مجموعات من الرقيق كسدت تجارتها ولم تنفق في الاسواق الاخرى. وكانوا يستعملون شتى الحيل لاخفاء عيوب بضاعتهم تلك ومن هذه الحيل طبعا الاغراء برخص الاثمان. وكان هؤلاء التجار يستعدون لهذا النوع من المعارض خلال السنة فيجدون الوقت الكافي لاحكام طرق التدليس حتى اذا حل الموسم كانوا على اهبة تامة لتقديم رقيق في احسن الصور حتى يمكنهم بيعه بما يرغبون فيه من ارباح.

---

1) ابن بطلان ـــ الرسالة ـــ ص 355 - 356

وقد اشار القزويني ايضا الى هذه الاسواق (1) فذكر ان السوق الموسمية تقام في عهده كل سنة في اول الربيع. وكانت تدوم اربعين يوما، وكانت تسمى (بيلة). وهي سوق ياتيها الناس حسب قوله من الاصقاع البعيدة من الشرق والغرب والشمال والجنوب. وذكر ايضا ان من العادات المعمول بها في هذا السوق ان من اشترى رقيقا ليس له الحق في رده البتة ، ومن الواضح ان هذه العادة تؤكد لنا ما ذكرناه سابقا من كساد الرقيق المعروض فيها، ومن غش وتدليس كان التجار يستعملونه للتخلص مما بايديهم من بضاعة يعرفون عيوبها ولا يجدون الربح في تجارتها ، وقد روى القزويني قصة مفادها ان احد المشترين اشترى من هذه السوق مملوكا بثمن مرتفع لجمال صورته فلما انصرف بائعه وجده جارية، ومهما يكن من امر فان هذه الاسواق قد كانت بمثابة المعارض الكبرى وهي اذا ما دلت على شيء فانما تدل على رواج تجارة الرقيق داخل بلاد الاسلام وعلى تزايد الطلب لهذه البضاعة ونشاط النخاسة في ممارستهم لهذه التجارة ادراكا منهم لما فيها من ارباح .

---

1) القزويني ــ آثار البلاد واخبار العباد - ص 531 ــ بيروت ــ 1960.

ج. نظام الاسواق :

ان الرقيق يباع في سوق خاص به ولا يخلط بغيره من البضائع في الاسواق العامة ، وسر اختصاص الرقيق بسوق راجع الى سببين اولهما عام وثانيهما خاص. فالسبب العام هو نظام الاسواق في الحضارة الاسلامية الوسيطة ذلك النظام الذي يفرض تصنيف الاسواق وتقسيمها حسب نوع البضائع المعروضة. فكانت كل بضاعة تختص بسوق كسوق العطارين والبزازين والجزارين وغيرهم. ويقع الحرص في هذا التنظيم على معايير صحية مراعاة لسلامة المسلمين من الاذى، فلا يتجاور سوق العطر مثلا مع اسواق البضائع الملوثة كالاطعمة وغيرها.

وكانت هذه الاسواق ترتب ايضا وفقا لمقياس آخر هو قربها او بعدها عن المسجد الجامع الذي يمثل مركز المدينة وقطرها. فكانت البضائع النظيفة تعرض في اسواق قريبة من المسجد. بينما تعرض غيرها في اماكن بعيدة، قد تجاوز احيانا المدينة الى ارباضها، وتعدي سورها لتكون خارجة تجنبا لاذاية المارة بالروائح الكريهة او القاذورات. ومن امثلة هذا النوع اسواق العلف والدواب. ولم يكن هذا التنظيم خاصا بالاسواق التجارية بل كان شاملا ايضا للاسواق الصناعية. وقد قدمت لنا كتب الحسبة نماذج واضحة من هذا النظام يمكن الرجوع اليها في مصادرها (1).

---

1) الشيزري – نهاية الرتبة – ص = 11 وما بعدها – السقطي-آداب الحسبة ص 30-40 الدوري – مقال - بغداد – دائرة المعارف الاسلامية - ط. الجديدة - ج 1 - ص 922-923

اما السبب الخاص الذي فصلت من اجله سوق الرقيق عن غيرها من الاسواق، فهو حاجة هذه البضاعة الى انواع خاصة من المرافق، تستوجب اقامة اسواق على اشكال هندسية معينة ومختلفة عن تصميم الاسواق الاخرى. فالبضاعة المعروضة فيها هي بضاعة آدمية فكان لا بد من وجود اماكن لائقة بهذه البضاعة. بل اننا نلاحظ في بعض هاته الاسواق توفر اقامة للرقيق مجهزة بالمرافق اللازمة ومصممة بطريقة وظيفية تسمح بفصل الرقيق المؤنث عن المذكر مثلا. كما تستجيب لحاجات هذا الرقيق الصحية وتوفر له اقامة مريحة ومرفهة احيانا حتى تحتفظ البضاعة بمظهرها اللائق وتعرض على المشترين في احسن حال، لتدر الارباح على اصحابها.

فقد كانت هذه الاسواق اذن اشبه شيء بالفنادق. وكان مستوى الرفاهة فيها يختلف باختلاف الرقيق المعروض فيها. فاذا تعلق الامر بعرض جميلات الحواري مثلا توقعنا ان يكون مكان هذا العرض ارفه تجهيزا من اماكن عرض العبيد من الزنوج، لان متطلبات عرض الجارية الجميلة المطلوبة للفراش تختلف عن متطلبات عرض العبد المطلوب للخدمة وتستدعي شتى وسائل التجميل والتبرج التي تسمح بابراز مفاتن الجارية.

وقد وصف لنا اليعقوبي سوقا للرقيق في مدينة سامرا في القرن الثالث للهجرة فقال (انها سوق مرتفعة فيها طرق متشعبة وفيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق) (1). ففي قول اليعقوبي ما يدل على ان هذه الاسواق قد كانت كما قلنا اشبه شيء بالفنادق فيها جناح للاقامة وجناح للعرض .

د-الاسواق الخاصة :

لكن الرقيق لم يكن كله يعرض في الاسواق العامة ويباع بالمزاد ، فمنه ما يربأ به اصحابه عن هذه المرتبة. وهذه العادة نجدها كذلك في موقف الفاتحين عند بيعهم للسبايا ، اذ نراهم يفصلون وجيهات السبايا عن غيرهن . فيخص الامير أوالخليفة بالاميرة السبية او بابنة احد ملوك العجم المغلوبين. ومن ذلك ما فعله قتيبة بن مسلم عند ما ظفر بفيروز بن كسرى ، اذ اخذ ابنته شاهين ومعها سفط فبعث بها الى الحجاج فحملها الى الوليد (2) لكن الغاية من هذا التمييز في بيع السبايا تختلف عن الغاية من التمييز في بيع الجواري المجلوبات. فبينما يخص الخليفة بالاميرة لمركزها السياسي وحتى تستعمل وسيلة للضغط على العدو وربما

1) آدم متز-الحضارة الاسلامية ج 1 ص302 اليعقوبي-كتاب البلدان - ص 259
2) المقدسي-احسن التقاسيم ص 257-258

لمفاداة الاسرى المسلمين،نجد التجار يميزون بين الجيدة من الجواري والمتوسطة لغاية تجارية. وذلك لان التجار غالبا ما كانوا يضنون بنفيس بضاعتهم على هاته الاسواق،ويربؤون بها عن ان تبتذل في العروض العامة. وكانت غايتهم من وراء هذا التصرف البحث عن جزيل الربح . فتراهم يختارون اجود انواع الرقيق من بين بضاعة الرقيق المجلوبة من الاسواق الخارجية،ويحتكرونها ليقع بيعها خارج الاسواق العامة،لان البيع بالمزاد لا يوفر لهم الارباح المنتظرة ولان العوام من المشترين لا يبذلون في اقتنائها مبالغ كبيرة . ومن اجود الرقيق الذي كان يباع بهذه الطريقة القيان الجيدات .

وكانت نتيجة هذا الاحتكار ان ظهرت نقاط اخرى لبيع الرقيق الجيد ،هي اسواق خاصة تعقد في منازل التجار وتعرض فيها بضاعة مرصودة لنوع خاص من الحرفاء،هم بلا ريب الاثرياء القادرون على بذل الاموال الطائلة في سبيل الحصول على هذه البضاعة الثمينة.وكان الراغب في شراء جارية جميلة او قينة حاذقة لصناعتها يتصل بالتاجر اتصالا شخصيا ويصف له مطلبه، فياتيه التاجر بما يريد ،على الصورة التي وصفها له ، وتروي لنا كتب الادب والتاريخ كثيرا من المواقف التي يسوق فيها التجار

الجواري الى منازل اهل الثروة لشرائهن. ونذكر على سبيل المثال ما رواه السقطي من بيع الجواري والخدم على هذه الشاكلة (1). دون ان يكلف المشتري مشقة الانتقال الى مكان البيع .

وكان الرقيق المعروض بهذه الطريقة محظوظا، لانه لا يقع الا في ايدي اصحاب الجاه والبذخ والنعيم. وكان التاجر الذي يريد عقاب احد رقيقه الجيد يبيعه في اسواق العرض العام، لانه بذلك يعرضه للابتذال فيقع في يد العوام الذين لا يستحقونه، ولا يمكنهم ان يوفروا له حياة النعيم. وقد ذكر اليعقوبي في جغرافيته هذه الاحوال بقوله: (وكان الرقيق الجيد يباع في منزل خاص او بواسطة تاجر كبير وكان بيعه في سوق عام بمثابة عقوبة وحط من قدره) (2) ويفيدنا قول اليعقوبي بشيء آخر وهو ان الذين كانوا يقومون بهذه العمليات التجارية الخاصة هم كبار التجار دون غيرهم، وذلك لانهم اقدر على القيام بها بمعرفتهم بطبقة الخواص واتصالهم بها. ولعل هذا الجاه هو الذي يخول لهم التصرف على هذه الشاكلة.

---

1) آداب الحسبة ص 48 ـ 49

2) آدم متز ـ الحضارة الاسلامية ـ ج 1 ص 302 اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ ص 259

لقد وجدت اذن اسواق منزلية للرقيق الى جانب اســـواق

الرقيق العامة. كما وجدت صفقات يعقدها التجار بصورة شخصية مـــع

بعض الخواص. وكانت الغاية من وجود هذا الاسلوب في البيع والشـراء

ما ذكرناه آنفا من جري وراء الربح الوفير واحتكار للبضاعـة النفيســة.

ونحن نورد هنا هذه الرواية عن كتاب اخبار النساء وهي تصف ارتيـاد

احد اعوان عبد الله بن طاهر، امير خراسان، لاحدى منازل النخاســة

وعقده لصفقـة هناك تتعلق باحدى الجواري المجيدات لقرض الشعـــر:

(ابوبكر الانباري عن ابي اليسر قال : دخلت منزل نخاس لشراء جاريـة

فسمعت في بيت بازاء البيت جارية تقول :

وكنا كزوج من قـطا في مفــازة لدى خفض عيش معجب مونق رغد
اصابهما ريب الزمان فافـــردا ولم ار شيئا قط اوحش من فـرد

فقلت للنخاس: اعرض علي هذه المنشدة ! فقال: انها حزينة. قلت: ولم ذلك؟

قال اشتريتها من ميراث فهي باكية على مولاها. ثم لم البث ان انشدت :

وكنا كغصني بانـة وسط دوحـة نشم جنى الجنات في عيشـة رغد
فافرد هذا الغصن من ذاك قاطع فيا فردة باتت تحن الى فـــرد

قال ابو السمراء: فكتبت الى عبد الله بن طاهر بخبرها. فكتب الي: ان الـق

عليها هذا البيت فان اجازته فاشترها ولو كانت بخراج خراسان ! والبيت:

قريب صد بعيد وصل جعلت منه لي ملاذا

فقالت بسرعة :

فعاتبوه فزاد شوقا فمات عشقا فكان ماذا

قال ابو السمراء : فاشتريتها بالف دينار وحملتها اليه فماتت في الطريق فكانت احدى الحسرات)(1)

لكننا لا نعلم علم اليقين علاقة هذا الضرب من الاسواق الخاصة بنظام الجباية الموظف على الاسواق العامة فهل كان من غايات هؤلاء التجار الهروب من دفع بعض المكوس ايضا ؟ وهل كان من اهداف هذه المعاملات التخلص من الجباية وتوفير الارباح ؟ .

اننا لا نشك في وجود صفقات شخصية لا يمكن اخضاعها لنظام المكس لانها كانت تعقد في رحاب دور الخواص ،لكننا نلاحظ ان بعض الاسواق المنزلية قد اشتهر امرها كما سوف نرى ،ولعله من المفيد ان نضرب بعض الامثلة على هذين النوعين من الاسواق اي الاسواق الخاصة والاسواق العامة

1) ابن قيم الجوزية -اخبار النساء ص 113 - 114

هـ- مثال السوق الخاصة

والمقصود بالاسواق الخاصة ما يعقده النخاسون في بيوتهم من صفقات. فقد كانوا يحتفظون فيها بانفس الرقيق ليبيعوه الى الوجهاء والاثرياء ورجال الدولة . وكان هؤلاء يكلفون من يثقون بهم من خاصتهم ليتصلوا باشهر النخاسين لاقتناء ما يرغبون فيه من رقيق غير متوفر بالاسواق العامة لعلو شأنه ونفاسته (1) وقد سبق ان اشرنا الى احدى الروايات التي تصف لنا تكليف بعض ولاة خراسان احد مواليه بشراء جارية من بيت نخاس(2) وقد اشتهرت في هذا العصر بيوت كثيرة للنخاسين ببغداد والسبب في شهرتها ما كانت تحتوي عليه من جوار حسان يأوي اليهن الشعراء والادباء . فمنها بيت نخاس يكنى أبا عمير كان له جوار فيان لهن ظرف وكان منهن جارية تسمى عبادة هويها عبد الله محمد بن البواب فقال .

لو تشكى ابو عمير فليلا	لاتيناه من طريق العيادة
فقصينا من العيادة حقا	وظربا في مقلتي عبادة

---

1) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 130
2) راجع صفحة « 581 » - من هذا البحث

ومنها كذلك بيت ابي الخطاب النخاس الذي كان له جارية تعرف ببدات الخال وكان ابراهيم الموصلي يهواها . ومن تلك البيوت ايضا بيت حرب بن عمرو الثقفي الذي كان نخاسا وكانت له جارية مغنية يختلف اليها اهل الادب والشعر لسماع غنائها في منزله وينفقون النفقات الواسعة ويبرونه ويهدون اليه وفيها وفيه يقول اشجع :

اشكو الذي لاقيت من حبها وبغض مولاها الى الرب

من بغض مولاها ومن حبها سقمت بين البغض والحب

تعجل الله شفائي بها وحل السقم الى ((حرب)) (1)

فهذا النوع من الروايات يدل على ما كانت توفره هذه المنازل الخاصة من فرص اختيار للرقيق الجيد لم تكن لتتاح في الاسواق العامة . كما تدل على ان اغلب البضاعة النفيسة في تلك الدور كانت متمثلة في الجواري الجميلات والقيان المثقفات . ولذلك كانت منازل المغنين المشهورين ميدانا لتعليم الجواري الغناء ولبيعهن ايضا . ومن اشهر هذه المنازل منزل ابن رامين الذي تغنى به الشعراء لما حواه من جميلات الجواري المغنيات وقد قال فيه بعضهم :

"هل من شفاء لقلب لج محزون صبا وصب الى رئم ابن رامين

الى ربيحة ان الله فضلها بحسنها وسماع ذي افانين . . ."(2)

وسوف يتجلى امر هذه الدور الخاصة بشكل اوضح عند الحديث عن تجارة الجواري في فصل قادم .

---

1) كمال مصطفى ـ مقدمة تحقيق كتاب المونس ص : د ـ هـ

2) النويري ـ نهاية الارب ج 5 ص 75

و- مثال الاسـواق العامـة :

وقديكون من المفيد ان نقدم صورة مفصلـة عن بعض الاسـواق العامة المشهورة بالمدن والعواصم الكبرى في البلاد الاسلاميـة دون ان نكون مضطرين الى استعراضها جميعا نظرا لكثرتها اولا ،اذ لاتكاد تخلو عاصمـة من العواصم او مدينـة كبرى من سوق للرقيق كما سبـق ان قلنا، ولتشابـه نظامها وطرق معاملاتها ثانيا ،اذ نجد تقاربـا كبيرا بين ما يجري باسواق قرطبـة والقيروان بالمغرب الاسلامي مثـلا وما تسيرعليـه المعاملات باسواق بغداد بالمشرق الاسلامي (1) باستثناء بعض الجزئيات الطفيفـة والظرفيـة التي لا يعتد بها.

فقد ذكرت المصادر رواج تجارة الرقيق ببغداد عاصمـة الخلافـة وشهرة اسواقها، اذ كانت تتجمع بها هذه البضاعـة من كل صوب باعتبارها محط انظار التجار نظرا لكثرة الطلب وازدياد الحاجة الـى الرقيق فيها، وهو امر استدعاه ازدهار عمرانها وولع الخواص والوجهاء فيها باتخاذ الخدم والجواري والغلمان ، فمما يذكر في هذا المجـال

---

1) بورفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية - ج - 3 - ص 314-317
آدم متز - A - MEZ - الحضارة الاسلامية .... - ج - 1 - ص 302-306

انـه منذ عهد ابي جعفر المنصور (136- 158هـ/ 754 - 775 م) اشتهرت " دار الرقيق " وهي ربض كان يجمع فيـه هذا الخليفـة الرقيق الذي يشتريـه من الآفاق.وكان يكلف الربيع مولاه بالاشـراف عليه .فهو اذن مستودع لرقيق الشراء الخاص بالبلاط ، وقد ذكـر اليعقوبي ان بعض الوزراء قدكان له بجوار دار الرقيق قطيعـة لغلمانـه يقيمون فيها.وقد عم اسم " دار الرقيق " على مجموع هـذا المكان ،ولم يكن في بدايـة احداثـه سوقا باتم معنى الكلمـة ، لكـن وضعه قد تغير بعد ذلك واصبح سوقا تواصل نشاطها الى القـرن السابع للهجرة،اذ تحدث عنها ياقوت الحوي وذكر انها سوق قائمة في الفترة التي الف فيها كتابـه (1).

وقد اشتهر امر هذه السوق ببغداد حتى سمي شارع باسمها يقال "شارع دار الرقيق " وهو يقع بالمحلة الحربية على الضفة الغربيـة من نهر دجلة وتصل بين الجسر الاعلى ومدينة المنصور (2) ومما يدل على

---

1) ج . لسترنج Guy-Le-Strange - بغداد في عهد الدولة العباسية ترجمة.بشير يوسف فرنسيس الطبعة الاولى ــ المطبعة العربية ببغداد ــ 1355هـ/ 1936م ص 112
ياقوت الحموي ــ معجم البلدان ــ دار صادر بيروت ــ 1375هـ/ 1956م ج 2ص 420وص516
2) ماريوس كانار -Marius-Canard- نخب تاريخية ص 245 احالة رقم 2

ان محلـة دار الرقيق كانت مستودع هذه البضاعـة قول احد الظرفاء :

" اني بليت بضـــــبي	من الظباء رشيـــــق
رايتـــه يتثـــــنى	بقرب دار الرقيـــــق
فقلت مولا ي زرنـــي	فقد شرقت بريقـــــي
فقال لي رمت امــــرا	اعلى من العيوق " (1)

على ان ببغداد سوقا اخرى للنخاسين تقع في الكرخ بين درب عون وطاق اللعب (2) وقد اشتهرت بالجواري اللائي يجلبـــن اليها من اطراف الدنيا. فكان فيهن الحبشيات والروميات والجرجيـــات والشركسيات والعربيات. ويذكر ابن الجراح ان هذه السوق كان يرتادها عادة الاشراف (3) ويشير المؤرخون الى ان الف راس من الرقيق كانـت ترد على بغداد من اعمال الفرات (4) وان العبيد السود كانوا يجلبون اليها من شرق افريقية (5) كما يفد اليها الغلمان من بلاد الخزر (6)

1) ياقوت الحموي - معجم البلدان - ط بيروت - ج ٤ ص 420
2) الازدي — حكاية ابي القاسم البغدادي - طبعة (هيدلبرج) 1902 م ص 23 — ج — - لسترنج — Guy. Le. Strange — بغداد في عهد الدولة العباسية ص 67
3) الانطاكي - (داود بن عمر) - تزيين الاسواق بتفضيل اشواق العشاق — المطبعة العامرية القاهرة 1291 هـ ج 1 ص 30 / ابن الجراح — الورقة — دار المعارف مصر 1953 م ص 72 حمدان عبد المجيد الكبيسي - اسواق بغداد — دار الحرية للطباعة بغداد 1399 هـ / 1979 م ص 174
4) جميل بن نخلة المدور - حضارة الاسلام في دار السلام — مطبعة المقتطف (مصر 1888) ص 191
6) الجاحظ — التبصر بالتجارة - تحقيق ح — ح عبد الوهاب - طبعة دمشق - 1351 هـ / 1932 م ص 22
5) فيليب حتي — تاريخ العرب — ج 2 ص 379 و 422 - طبعة بيروت 1950

ومن اقليم الابواب (1) والجواري والخصيان من الصين (2) فقد اصبحت تجارتها مع الصين منظمة منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ثم ازدهرت خلال القرن الثالث للهجرة (3) كما كان اليهود الرهادنة ياتونها بالخدم الصقالبة من الغرب (4) ويجلب اليها التجار الروس الرقيق الابيض من بلادهم (5).

وكان هذا الرواج لبضاعة الرقيق باسواق بغداد له شبيه بما يجري بعواصم بلاد الاسلام الاخرى كقرطبة والقيروان والقاهرة وغيرها وانما اخترنا مثالا من عاصمة الخلافة العباسية حتى يكون رمزا لهذا النوع من الاسواق النشيطة، سواء بعاصمة الخلافة الاموية بالاندلس او الفاطمية بمصر، مع اعتبار بعض الفروق في انواع البضاعة .كأن تكون نسبة الرقيق الاسود اكبر باسواق القيروان والقاهرة منها باسواق قرطبة مثلا.

---

1) حمدان عبد المجيد الكبيسي - اسواق بغداد - ص 204

2) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 136 - بدر الدين الصيني - العلاقات بين العرب والصين - الطبعة الاولى - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة 1950 ص 88

3) المرجع نفسه ص 108

4) ابن خرداذبه - المسالك والممالك - ص 153 - 154

5) المصدر نفسه - محمد جمال الدين سرور - تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق - مطبعة دار الثقافة العربية للطباعة - القاهرة - 1965 ص 143

ز - أسواق الرقيق بالثغور

لم يكن افراد الجند يحتفظون دائما بالرقيق الواقع في اسهمهم بل كانوا يبيعونهم في الغالب بعد انتهاء المعارك ويحصلون على اثمانهم، لانهم لم يكونوا قادرين على الاحتفاظ بهم وهم في حالة حرب وقد تثقل عليهم مؤونة معاشهم في تلك الظروف وربما كان امراء الجند اقدر على الاحتفاظ بالأسرى واستبقائهم في حوزتهم عبيدا اذ لهم في ذلك من الامكان ماليس لسائر افراد الجند .

فقد كانت هناك اذن اسواق للرقيق مصاحبة للحروب ومتنقلة بانتقالها. وكان تجار الرقيق ولا شك يقتفون آثر هذه الاسواق ويصاحبون الجند في حله وترحاله حتى يتمكنوا من الحصول على هذه البضاعة في مظانها. فكانت هذه الأسواق كما لاحظنا في خدمة مصالح الطرفين اذ تمكن الغزاة من الانتفاع العاجل بسبيهم اذا أرادوا البيع وتخفف عليهم مؤونة الاستعداد لغزوات أخرى في نفس الحملة. كما توفر للتجار مادة مضمونة لتجارتهم .

كما كان الغزاة في حاجة احيانا كثيرة الى ممارسة نوع من المعاملات مع العدو هي شبيهة بالبيع والشراء وتهم الرقيق الموجود في دار الحرب وكثيرا ماكان الامام في حاجة الى اموال لاخذ ذلك الرقيق بالقيمة من ايدي ممسكيه وقد ضرب لنا ابو يوسف مثالا على هذه الظروف التي نرجح ان التجار قد لعبوا فيها دورا هاما ، فتحدث عن نزول اهل الحصن على حكم رجل من المسلمين وقال : (وان نزلوا على حكم رجل من المسلمين مرضي ونزلوا بالذراري والاموال والرقيق ومعهم اسرى من اسرى المسلمين ورقيق من رقيقهم واموال من اموالهم فمات الرجل المحكم قبل ان يمضي الحكم فسالوا ان يردوا الى حصنهم ومامنهم حتى ينظروا في امورهم ويتخيروا من ينزلون على حكمه خلّي بينهم وبين ذلك كله ما خلا اسارى المسلمين فانهم ينزعون من ايديهم ويبيعون الرقيق من المسلمين ويعطونهم القيمة وكذلك لو كان في ايديهم اهل ذمة من ذمتنا احرار ينزعون من ايديهم وان كان في ايديهم قوم قد اسلموا فسالوا ان يردوا معهم لم يردوا ولنزعوا من ايديهم من قبل ان الحكم لا ينفذ فيما بينهم برد المسلمين الى دار الحرب والشرك ورقيق ذمتنا مثل رقيقنا . ولو كان في ايديهم عبيد لهم قد اسلموا فسالوا ردهم معهم لم يردوا وأخذوا منهم بالقيمة) (1)

---

1) ابو يوسف ـ كتاب الخراج ـ ص 200 ـ 201

فأنت ترى كيف يتحتم على الامام في هذه الحالة أن يتسلّم الرقيق المسلم وغير المسلم من أيدي العدو بعد دفع قيمته لهم لان تركه بايديهم يزيد في قوتهم ولان الرقيق المسلم لا يجوز شرعا أن يبقى بيد الكفار.واذا ماتم استرداد الرقيق المسلم من يد الكفار بعد أن كانوا قد استحوذوا عليه واحرزوه بالحرب فان لمالكيه الاوّلين الحق في استرجاعه.ويكون ذلك الاسترجاع بطريقتين امّا مجانا أو بعملية الشراء حسب الاسلوب الذي استنقذهم به الغزاة من أيدي العدو.فان استنقذوه منهم عنوة فلأصحابه حق استرجاعه مجانا مالم تقع قسمة الغنائم.فاذا وقعت القسمة وكان في سهم المجاهدين اشتراه منهم أصحابه بقيمته . آمّا اذا كان الاستنقاذ لذلك الرقيق عن طريق شرائه من يد العدو ولم يكن لاصحابه حق استرجاعه الا بشرائه من جديد بقيمته .

يقول ابو يوسف (وكلّ ما غلب عليه اهل الحرب من متاع المسلمين من رقيقهم ودوابهم فاصابه المسلمون في غنائمهم فان وجده صاحبه قبل القسمة أخذه بغير قيمة وان وجده بعد القسمة أخذه من الذي صار في سهمه بقيمته.وان اشتراه مشتر من الذي صار في سهمه أو من اهل الحرب فله أن يأخذه بالثمن الذي اشتراه به.فان وهبه أهل الحرب لانسان اخذ منه بقيمته) (1) .

وهكذا تجري عمليات بيع وشراء من نوع خاص ولاسيما في الثغور حيث يتجمع رقيق الأسر . وقد شرع الفقهاء احكاما لتنظيم المتاجرة بهذا الرقيق وميزوا فيها بين ما يجوز ملكه وما لا يجوز وأشاروا بالخصوص الى الأحرار والذميين ممن أسرهم العدو واسترقهم ثم تمكن المسلمون من افتكاكهم من قبضة آسريهم ومسترقيهم فمنعوا مشتريهم من استرقاقهم وامتلاكهم وحرّموا على الجند احرازهم في الأسهم لانهم في نظر المشرّع أحرار .

(1) المصدر نفسه ـ ص 199 ـ 200

وكل ما يحق لمشتريهم المطالبة به هو استرجاع قيمتهم التي اشتراهم بها. واذاك يتعين على هؤلاء الأحرار المسترقين السعي الى تعويض خسارة مشتريهم. ويحترز الفقهاء نفس الاحتراز بالنسبة الى رقيق المسلمين المأسورين فيرون أن ما كان فيه شائبة حرية قبل أسره كأم الولد والمدبر بقي على حالته تلك عند استرجاعه ولا يكون رقيقا عنا كامل العبودية كما كان في دار الحرب وما على مشتريه الآن يطالبه بثمنه بعد عتقه.

يقول أبو يوسف (حدثنا مغيرة عن ابراهيم في الحر أو الحرة المسلمين او الذمية أو الذمي الحرين يأسرهم العدو فيشتريهم الرجل من المسلمين. قال "لايكون واحد منهم رقيقا وعليهم أن يسعوا للرجل في الثمن الذي اشتراهم به حتى يؤدوه اليه" . قال أبو يوسف "وهذا أحسن ما سمعنا في ذلك والله اعلم. وكذلك أم الولد والمدبر لا يملكان ويرجع عليهما بالثمن اذا اعتقا)(1) فامكاننا ان نستنتج من هذه الاحكام أن شراء رقيق الأسر وبيعه يخضعان لبعض التحريمات التي لا تخضع لها صفقات الرقيق المجلوب.

---

(1) المصدر نفسه ـ ص200 ـ 201

٤)- خصائص البضاعة

لقد استقرت بعض الاراء في المجتمع الاسلامي حول خصال الاجناس المختلفة من الرقيق فصار الراى العام يخص كل جنس بوظيفة معينة ويلعته بخصائص محدودة يراه احسن من غيره فيها.وتعتبر هذه الاراء نتيجة تجارب مر بها هذا المجتمع في استعماله لهذه البضاعة واقتنائها،وحصيلة ثقافات موروثة ايضا في هذا الميدان كثيرا ما يرجع فيها الى آراء جالينوس (1)او افلاطون (2) او ارسطو (3) وتضاف اليها بعض الانطباعات والملاحظات الشخصية. وصارت تلك المادة بمرور الزمن محل تدارس ونقاش ومطارحة بين اهل الذكر من المهتمين بتجارة الرقيق من شراة ونخاسين ومحتسبين. ويعتبر النخاس والمحتسب وربما الاطباء ايضا من ادرى الناس بخصال الرقيق وصفاته .كما كان لعامة المشترين تصور معين لتلك الخصائص توجه سلوكهم وتجعلهم يقبلون على نوع من الرقيق دون غيره حسب نوع الحاجة اليه وطبقا للغاية التي يرمون اليها من اقتنائه واستعماله .

---

(1) ابن خلدون - المقدمة - طبعة كاترمار " - Quatremère - " ج 1 ص 155 - 157

(2) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان - ص 330

(3) ابن بطلان - رسالة في شري الرقيق - مقدمة الرسالة - بقلم عبد السلام هارون - ص342-349

فظهر نتيجة لذلك نوع من الادب يعبر عن تقييم خاص لمادة الرقيق بقدر ما يعبر عن نفسية اهل العصر واذواقهم وحاجاتهم وتقاليدهم واسلوب عيشهم وتفكيرهم (1) فقد تناقلوا اقوالا مشهورة فيها دعاية لهذا الجنس دون الآخر وتنويه بخصال نوع من الخدم وتحذير من عيوب نوع ثان . وقد اشار السقطي الى ان التمييز بين اجناس الرقيق وتصنيفها حسب خصائصها واختصاصاتها قد صار فنا من الفنون يتكلم فيه الناس ويطنبون. يقول في ذلك : "وقد تكلم الناس في المماليك واصنافهم وصورهم واخلاقهم وما يصلح له كل نوع منهم وخاضوا في ذلك كل الخوض"(2)..

وكان جمهور الناس ممن يتصلون بتجارة الرقيق من قريب او بعيد يصنفون هذه البضاعة الى اصناف كبرى ويتطلعون الى التعرف على مميزات كل صنف وتفحص دقائق اوصافه. فهم يميزون في النوع بين الرقيق الابيض والاسود والمذكر والمؤنث والمجلوب والمولد والاصيل والخلاسي (3) ويجعلون لكل جنس سمات خاصة ومميزات معينة وميادين محددة يتفوق فيها على غيره . واذا ماكانت آراؤهم تتفق في جملتها

(1) احمد امين – ظهر الاسلام – ج 1 ص 129

(2) السقطي – آداب الحسبة – ص 49 – 50

(3) يحيى بن عمر – احكام السوق – ص 133 – احمد امين – ظهر الاسلام – ج 1 ص 130

على بعض المبادئ الكبرى والاحكام العامة كاعتبار الابيض من الرقيق ارفع قيمة من الاسود والمولّد انفس من الجليب والمذكر اقدر على القيام بالخدمات الشاقة كفلح الارض والبلاء في الحرب وممارسة التجارة والاضطلاع بمهام الدولة.والمؤنث اكثر متعة وانسب في الخدمات العائلية كالطبخ والرضاع وامهر في المجال الفني من موسيقى وغناء (1) فانهم يختلفون احيانا في تقييم الجنس الواحد وتقدير خصاله بل ان منهم من يذكر الحكم وضده مما يوحي بتناقض تلك الاحكام.

ويمكننا ان نضرب مثالا على هذا التضارب بالمقارنة بين ما يؤكده الجاحظ من شبق الروميات (2) وما يصفه ابن بطلان من فتورهن الجنسي (3) وبين ما يصرح به السقطي من صلوحية الزنجية للرضاع وما يشترطه نفس المؤلف من بياض في لون المرضع (4) والتضارب واضح ايضا في وصف الجاحظ للزنجي بحسن الخلق وقلة الاذى(5) ووصف ابن بطلان له بسوء الخلق وكثرة الهرب (6) ويرى ابن الفقيه ان الجنس الصقلبي لا تعرف فيه الشجاعة في حين يرى المسعودى انه معدن القوة والبأس (7) وتعتبر الاماء الارمنيات صالحات لتربية الاطفال وارضاعهم بينما يوصفن في سياقات

1) برنشفيك - دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد - Brunschvic - ج 1 ص 33 - ابن بطلان - رسالة في شرى الرقيق - ص 384-385.
2) الجاحظ - كتاب الحيوان - ج 7 ص 28 وج 4 ص 28 وج 4 ص172 - ماريوس كانار - M. Canard المسلمون وبيزنطة - فصل 15 - ص 111 - 119
3) ابن بطلان - رسالة في شرى الرقيق - ص 376 - 377
4) السقطي - آداب الحسبة - ص 49 = 50 = 51
5) الجاحظ - فخر السودان على البيضان - الرسائل - ج 1 ص 96 1
6) ابن بطلان - رسالة في شرى الرقيق - ص 374 - 375
7) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان - ص 330 - المسعودى - مروج الذهب - ج 3 - ص64.

اخـــرى بســوء الخلـــق وتعكـــر المـزاج (1) واذا مـادل هـذا التصارب في الاقوال على شيء فانمـــا يـدل على انهـا صـادرة احيـــانـا عن مـلاحظــات وانطبـاعـات وتجـارب مختلفـــة وعلى انهـــــا تمثــــل احيانـا اخرى احكامـــا نسبيـة او شخصية وتعكـــس لنـا اختلافـات في العـادات والتقـاليـد المحليـــة وتغيـــرا طفيفــــا في تقييـــم بضاعة الرقيـــق من جيـــل الى جيـــل ومن عصـــــر الى عصــــر . لكن هـذه الظاهرة لا تعني عـدم وجـود اراء مشتركــــة بين اهل العصـر حـول خصائـــص البضاعـة و ميزاتهـــا بـل ان تلـــــك الاراء قـد وجـدت وكان لهـا تاثيـــر مباشـر في تجارة الرقيـــــق . وكـــل مـا في الامـــر انهـا تتعلـق بالحكم على الاغلبيـــة الساحقـــة مـــن افـــراد الجنس الواحـد وتهتم بمـا اشتهر بـه من ميزات وان كـــانـــت موجـودة عنـد غيـره من الاجنـاس . وسـوف نحـاول في هـدا التحليــــل ان نقف على هـذه الاراء بايجـاز لانهـا كـانت مواكبـة لواقـع هـــــذا النوع من التجـــارة الذي نهتـم بـدراستـــــه .

---

1) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ 377 ــ 378
زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 30

أ- خصائص الرقيق الابيض

* **الرقيق المذكر :**

كان الرقيق الابيض المذكر يعتبر ارفع منزلة من العبيد السود بسبب ما تميز به من جمال ووسامة، وما اتصف به من صفات مستطرفة، كشقرة الشعور و زرقة العيون وبضاضة البشرة، وكذلك بسبب ما اشتهر به من فطنة وذكاء ومن قوة وجلادة، وقد عملت هذه الاعتبارات كلهما على ارتفاع اثمانه وازدياد الرغبة في اقتنائه (1) وكان المشهور ان اغلب خصال هذا الرقيق متوفرة في جنسين ممتازين هما الجنس الصقلبي والجنس التركي، وان كان الراي العام يفضل الصقلبي على التركي ولذلك يقول ابوبكر الخوارزمي " ويستخدم التركي عند غيبة الصقلبي " (2).

وقد عرف الصقالبة من الرقيق المذكر بشجاعتهم وبسالتهم فكانوا يقتنون للحرب من اجل ذلك (3) ومما يذكر عنهم انهم كسائر سكان البلاد الشمالية " عراض الصدور شجعان وحشو الاخلاق لكمون الحار دقاق السوق

1) احمد امين ــ ظهر الاسلام ج 1 ص 130

2) الثعالبي ــ يتيمة الدهر ــ طبعة القاهرة ــ 1934 ج 4 ص 116

3) السقطي ــ آداب الحسبة ــ ص 49 ــ 50 ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ص 387 هلال الصابي ــ رسوم دار الخلافة ــ هامش صفحة 8 ــ المسعودي ــ مروج الذهب ج 3 ص 64

لهربه من الاطراف طويلو الاعمار لجودة الهضم "(1) وكان لهم خصال عسكرية لا يشك فيها. فظهر من بينهم قواد مشهورون بالبطولة والاخلاص لنظام الحكم الاموي بالاندلس والفاطمي بمصر. وامتازت من بينهم نخبة عرفت باسم الفتيان الصقالبة (2) نذكر من بينهم بدر بن احمد الذي تولى الحجابة بالاندلس في عهد الخليفة الناصر الى ان توفي (309هـ/ 921م) وقد تمكن بدر من ان يهزم اوردونو الثاني Ordoño II في معركة مدونية Mitonia (Midonia) وقد خلفه في الحجابة بعد موته ابناه عبد الله وعبد الرحمان. وكثيرهم الفتيان الصقالبة الذين كانو يضاهون بدرا في حسن الاضطلاع بالمهام الادارية والعسكرية. فقد ذاع صيت " دري " و " افلح " وطرفة " و " جعفر " وهم جماعة يسميهم الاخباريون بابناء الخلفاء لان الخلفاء قد تبنوهم ونسبوهم الى انفسهم (3)

وكما كان الرقيق الصقلبي مثال الشجاعة والاقدام كان مضرب الامثال في جمال الهيئة حتى صار الرجل الابيض يوصف بانه صقلبي دون ان يكون من جنس

1) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص 372
2) بروفنسال ــ تاريخ اسبانيا المسلمة ــ ج 3 ص 177 ــ 179
3) المرجع نفسه ــ ج 3 ص 193 ــ 194

الصقالبة وذلك لما عرف به هذا الجنس من بياض وحمرة وشقرة كان الذوق العام يستطرفها (1) وكان غلمان الصقالبة يعتبرون زينة المجالس والقصور لوسامتهم. وقلما خلت منهم نفائس الهدايا التي درج الخاصة من الناس على تبادلها. ومن تلك الهدايا المشهورة ما يروى من ان المعز بن باديس قد اهدى الى الملك الظاهر اثني عشر صقلبيا بيضا صبيانا حسان الوجوه والقدود (2) واشباه هذا المثال عديدة يضيق المجال بسردها.

وقد كان هذا الرقيق الوسيم يعتبر صالحا للخدمة ايضا ومن اشهر الخدمات التي كانت تناط بعهدته حراسة الحريم والقيام على شؤونه اذا كان من الخصيان (3) فقد حظي الخصيان البيض من الصقالبة برتبة رفيعة في هذا المجتمع. وكانوا من الرقيق النفيس الذي لا يتسنى امتلاكه لكل الناس. وما من شك في ان الصقالبة قد وقع اقتناؤهم لخدمات اخرى ولكننا لا نهتم هنا الا بالميادين التي يرى اهل العصر انهم امهر فيها من غيرهم واسب لمزاجهم وخصالهم.

1) ياقوت ـ معجم البلدان ج 2 ـ ص416 ـ المسعودي. مروج الذهب. ج 3 ص64 - زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ـ ج 4 ص194 ـ هلال الصابي ـ رسوم دار الخلافة هامش صفحة 8
2) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ـ ص 69 ـ 70
3) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 124 ـ 125

وكان الرقيق التركي كما راينا من احسن اصناف الرقيق الابيض (1) وان كان يدرج في مرتبة ثانية بعد الرقيق الصقلبي (2) ومن مميزات الاتراك الاساسية الشجاعة والاقدام. ويرى ابن بطلان انهم في هذا المجال كالصقالبة وان تجريبهم يكون بافزاعهم (3) وتعتبر رسالة الجاحظ في " مناقب الترك " من احسن النماذج التي تناولت الاشادة بخصال هذا الجنس العسكرية وتفضيله على عدة اجناس اخرى في ميدان البسالة والشجاعة ، واليك مثالا مما يقوله الجاحظ في الحديث عن خصال الترك الحربية : " ولو حصلت عمر التركي وحسبت ايامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته اكثر من جلوسه على الارض... واذا سار التركي في غير عساكر الترك فسار القوم عشرة اميال سار عشرين ميلا ،لانه ينقطع عن العسكر يمنة ويسرة ويسرع في ذرى الجبال ويستبطن قعور الاودية في طلب الصيد وهو في ذلك يرمي كل ما دب ودرج وطار ووقع... والاتراك اذا صافّوا جيشا ان كان في القوم موضع عورة فكلهم قد ابصرها وعرفها ، وان لم تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع وكان الرأي الانصراف

1) الاصطخري — المسالك والممالك — ص 288
2) الثعالبي — يتيمة الدهر — طبعة القاهرة 1934 — ج 4 ص 116
3) ابن بطلان — رسالة في شري الرقيق ص 387 السقطي اداب الحسبة ص 49 — 50

فكلهم قد راى ذلك الراي وعرف الصواب فيه . وخواطرهم واحدة ودواعيهم مستوية باقبالهم معا" (1)

وقد استحق الرقيق التركي منزلته الرفيعة بين سائر انواع الرقيق بميزة اخرى هي وسامة مظهره ، وجماله الجسدي. فمنذ القديم كان الغلمان الاتراك محط شغف من قبل ملوك الفرس والروم. فكانوا يتهادون احسنهم وجوها ويلبسونهم افخر الثياب (2) وقد احتفظ الغلام التركي بهذه المكانة في المجتمع الاسلامي . وكان يمثل احسن هدية تقدم للامراء والسلاطين ففي سنة (280 هـ) اهدى اسماعيل بن احمد الساماني صاحب ما وراء النهر الى الخليفة المعتضد، تسعة واربعين جملا عليها محامل فيها غلمان مرد اتراك وخزر باقبية سمور وقلانس سمور واثنتين وخمسين غلاما اتراكا وخزرا بدوابهم وسلاحهم (3) وهذا مثال من بين عديد الامثلة التي ترويها لنا المصادر حول نفاسة الغلام التركي .

وكان الخصيان يتخذون من الاتراك ايضا، ويستعملون في خدمة الحريم. كما كانوا يستعملون في خدمات اخرى اجتماعية. لكن اتصافهم

1) الجاحظ - مناقب الترك - الرسائل ج 1 ص 48 ـ 49 وص 55
2) الجاحظ ـ المحاسن والاضداد ص 282
3) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 42

بقوة البنيـة وجمال الخلقـة في آن واحد قد جعل المسلمين يفضلون استعمالهم في ميادين دون اخرى .فاستغلوا قوتهم في الحرب ووسامتهم في ابهة القصور وجلال المواكب ووجاهـة المناصب الادارية.وما من شك في ان تاريخ الدولـة العباسية حافل بهؤلاء الاتراك الذين كانوا يمثلون الخدم والحشـم وعظمـة الملك والسلطان .

ويعتبر الرقيق الارمني مشابها للرقيق التركي والصقلبي في ملاحـة المظهر وحسنـه ، فهو من الرقيق الابيض الذي وهب حظا وافرا مـن الجمال (1) لكنـه يختلف عنـه فـي خاصيتين تتصل الاولى بالخدمـة والثانيـة بالخلق والمزاج ، ففي خصوص الخدمـة كان المشهور عن العبـد الارمني انـه لا يعرف العناء والتعب،ولا يشعر بهمـا ولا يعجز عن اي عمل شاق.بل تراه يصبر على الكد ويمكن ان توكل اليـه كل الاعمـال الصعبـة ، وهو في هذا اشبـه ما يكون بالعبد الزنجي الذي يستخدم ليلا نهارا في شتى المهام دون ان يتالـم (2) اما فـي خصوص المـزاج والخلق فالمعروف عن العبد الارمني انـه خبيث النفس قليل الطاعـة

1) ابن رستـة ــ الاعلاق النفيسـة ص 133

2) ان بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ص 377 ــ 378 ــ السقطي -آداب الحسبة ص 49

لا يؤمن شره في حال الرخاء والغضب على حد السواء. ولا مناص لمالكه من حمله على الرضوخ والانصياع بالقوة والترهيب والضرب اذا لزم الامر. يقول ابن بطلان في ذلك : " متى تهدهت العبد ساعة بغير شغل لم يدعه خاطره الى خير. لا يصلحون الا على العصا والمخافة وليس فيهم فضيلة غير تحمل العناء والاعمال الثقيلة. والواحد منهم اذا رايته كسلانا فذاك لعله فيه (1) ليس عن عجز قوة، فدونك والعصا، وكن مع ضربه وانقياده لما تريده منه على حذر، فان هذا الجنس غير مامون عند الرضا فضلا عن الغضب " (2) وهكذا يتضح الفرق بين الارمن وغيرهم من البيض كالاتراك مثلا. وباختلافهم في الاخلاق والعادات تختلف معاملة المالكين لهم. فاذا ما كان الاتراك قوما " لا يعرفون الملق ولا الخلابة ولا النفاق ولا السعاية ولا التصنع ولا النميمة ولا الرياء ولا البذخ على الاولياء ولا البغي على الخلطاء، ولا يعرفون البدع ولم تفسدهم الاهواء " (3) فان الارمن لا يوثق بهم لقلة امانتهم وعفتهم وتفشي سرقاتهم وهم في الجملة " شر البيضان كما ان الزنج شر السودان " (4)

1) العله : خبث النفس
2) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ص 377_378
3) الجاحظ - مناقب الترك ـ الرسائل ج 1 ص 62
4) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ص 377_378

اما الرقيق الرومـي فقد كان لـه هو الاخر حظـه من الجمـال فمن اقوال اهل العصر الماثورة ان " الوجوه في الترك والاجسـام فـي الروم " (1) كما عرف غلمـان الروم بوسامتهم وشغف بهم مالكوهم .فقـد روي عن كل من ابي تمـام والحسن بن وهب والبحتري انهم ولعوا بهذا الصدف من الغلمان وامتلكوهم (2) لكن الرقيق الرومي قد اشتهر خاصـة بذكائـه وحسن تدبيره للاموال حتى قيل انـه لا يعرف في الروم السخاء وان الجود ليس في لغتهم (3) ومما زاد في قيمـة هـذا الصدف مـن الرقيـق معرفتـه بفنون شتى من العمـل لانتمائـه الى مناطق متحضرة من العالم

1) زيدان ــ تاريخ التـمـدن الاسلامي ج 5 ص 30
2) الاصفهاني ــ الاغاني ــ ج 22 ص 548 وج 21 ص 49
3) ابن الفقيـه - مختصر كتاب البلدان ــ ص 330 ابن بطلان .رسالة في شري الرقيق ص 386 الجاحظ ــ البخلاء ترجمة بلا - Ch. Pellat - ص 228 ــ 232 ــ ماريوس كنار M. Canard - المسلمون و بيزنطة ــ فصل - 15 - ص 111 - 119

* الرقيق المؤنث

وكان الرقيق الابيض المؤنث يعتبر من احسن اصناف الرقيق واجودها لما يتمتع به من جمال المظهر.وكان يوصف بالاحمر والاصفر اشارة الى جمال لونه ، فتنعت الجارية الحسناء بكونها حمراء او صفراء (1) وكان الذوق العام يقتضي ان تكون الحسناء بيضاء البشرة وان يكون بياضها مشربا بحمرة اوضاربا الى الصفرة (2) ومن اقوالهم المشهورة ان " احسن النساء الرقيقة البشرة النقية اللون يضرب لونها بالغداة الى الحمرة وبالعشي الى الصفرة" (3) وقد روى الجاحظ عن علي بن الجهم انه قال " كنت في مجلس محمد بن عمرو بن مسعدة فاقبلت جارية كانها البدر ليلة التمام بلون كانه الدر في البياض مع احمرار خدين كشقائق النعمان فسلمت فقال لي محمد : ياابا الحسن هذه الجنة التي كنتم توعدون " (4)

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ ج 1ص294ـ 295 ـ ج 7 ص 280 ج 13ص248 ج 18 ص 14
2) فيليب حتي ـ تاريخ العرب ـ ص 104 Philip-K.Hitti-Hist.des.Arabes.
3) الجاحظ ـ المحاسن والاضداد ـص 168
4) الجاحظ ـ المحاسن والاضداد ـ ص 159

ولذلك حظي هذا النوع من الاماء بمكانة عالية وتميز عن سائر الرقيق ، وقد دعا ذلك الذوق احيانا بعض الاماء الى طلاء اجسامهن بالورس واستعماله في زينتهن (1) فقد روى الحاجظ ان احد جلساء الرشيد شوهد يوما ناحل البدن كاسف البال ولما سئل عن سبب تغيره قال : " قصدت بعض القرابة فالفيت عندهم جارية قد طلت بالورس بدنها ... " (2) وفي هذا الخبر دليل على ان الولع بصفرة اللون كان منتشرا بين الناس منذ عصور سابقة لهذه الفترة. بل ان العرب قد تغنوا به في اشعارهم منذ العصر الجاهلي ومن ذلك قول الشاعر قيس بن الخطيم :

" صفراء اعجلها الشباب لذاتها   موسومة بالحسن غير قطوب" (3)

فلا غرابة اذن ان تصادف الجواري البيض رواجا كبيرا في هذا المجتمع. ومما زاد في الولع بهن امتياز اجناس كثيرة منهن

1) الوشاء .. الظرف والظرفاء ص 220 - 240
2) الحاجظ ــ المحاسن والاضداد ــ ص 25 الورس نبات كالسمسم يصبغ به ولونه اصفر (الثعالبي ــ لطائف المعارف ــ ص 166)
3) قيس بن الخطيم ــ الديوان ص 17 عن زكية عمر العلي - التزيق والحلي ص 89 ــ 90

بصفات جسدية ،يستطرفها العرب المسلمون لانها لم تكن مالوفة عندهم مثل شقرة الشعر او صهوبته وزرقة العيون واحمرار اللون. فلما توفرت لديهم في هذا الرقيق شغفوا به وتهافتوا عليه وراح الشعراء يتغنون بالجواري " الحمر " وصار الحسن في نظرهم احمر اللون كما قال الشاعر:

هجان عليها حمرة في بياضها　　　يروق بها العينين والحسن احمر

كما كان الشعراء يشبهون هذا الحسن بالنار ايضا لاحمرار لونها (1) وهكذا صار هذا النوع الجميل من الاماء من علية الرقيق، اي من الرقيق الارستقراطي الذي يقتني عادة للمتعة وانجاب الولد ويتخذ للحريم لما يتمتع به من وسامة. فهو بضاعة نفيسة يحرص الناس على طلبها وترتفع اثمانها. كما تميزت اصناف من هؤلاء الاماء بمهارة واختصاص في ميدان الخدمة والعمل .

وسوف نحاول رسم جوانب مما شاع عن هذه الاجناس من خصائص وخصال .

1) احمد امين ــ ظهر الاسلام ــ ج 1 ــ ص 136

وبالرغم من انتشار هذه الاوصاف من اجناس عديدة من الرقيق الابيض كان الراي العام يفضل الصقلبيات والتركيات والبربريات ويميزهن عن بقية الاماء بالحسن الفائق والجمال البارع فقد صارت الصقلبيات رمزا للحسان البيض بصورة عامة، واشيد دائما بشعورهن ووجوههن الحمر (1) واصبح جنسهن الصقلبي احسن ممثل للجنس الابيض (2) فكن بسبب ذلك اجود انواع السراري يرغب الناس في اقتنائهن للذة والمتعة (3) وقد نوه ابن الفقيه بجمال الصقلبيات المجلوبات من الاندلس (4) واشاد ابن حوقل بعده بزمان بما تصدره تلك البلاد من جوار حسان الى بلاد الشرق الاسلامي (5) وكان الوجهاء والخاصة بالمغرب والمشرق يتخذون امهات اولادهم من تلكم الجواري . فكان من الخلفاء من كانت امه صقلبية مثل المستعين بالله العباسي (6) وكان العديد من الخلفاء الامويين بالاندلس ابناء حظايا صقلبيات

1) المسعودي ــ مروج الذهب ــ ج 3 ص 133 - بارتولد - دائرة المعارف الاسلامية ط ــ ع مادة - سلاف ص 153
2) زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 194
3) هلال الصابي ــ رسوم دار الخلافة ــ هامش صفحة 8
4) ابن الفقيه ــ مختصر كتاب البلدان ص 252
5) ابن حوقل -صورة الارض ــ الطبعة الفرنسية ــ ج 1 ص 95
6) زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 166

ايضا ، لكن هذا النوع من الاماء ذوات الحسن الفائق لم يكن مشهورا بخصب الارحام وكثرة الانجاب. بل ان ابن بطلان ليذهب الى ان اغلب نساء الصقالبة من العواقر بسبب طبيعة مناخ الاقاليم الشمالية التي يجلب منها الرقيق الصقلبي ، وهو يصف لنا الصقلبيات بانهن قليلا ما " ينقين من دم الحيض " (1) وانهن جواري متعة يصلحن للتسرى بهن اكثر مما يصلحن للولد ، لكن هذه الظاهرة لم تكن لتنقص من قيمتهن في نظر الشراة بل ان المشهور في هذا العصر ان اثمن الهدايا ما كان يتضمن هذا الرقيق النفيس (2).

اما التركيات من الاماء فلم يكنّ دون الصقلبيات شهرة بالجمال . بل ان ابن حوقل ليذهب الى ان اجمل انواع الرقيق ما كان يجلب من بلاد الاتراك وليس في رقيق العالم كله حسب قوله ما يضاهي هذا الجنس في روعة الحسن وارتفاع الثمن (3) ويضرب

1) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص 372
2) ابن الزبير ــ الذخائر والتحف ــ ص 48 - 59 وص 69 - 70
3) ابن حوقل ــ صورة الارض ــ الطبعة الفرنسية ــ ج 2 ص 437

المقدسي مثالا على جمال التركيات بالاماء المجلوبات من فرغانة والشاش فهن في رايه احسن الوانا من اهل اقليم المشرق كلهم (1) كما يشيد بجودة الجواري التركيات المعروضات باسواق سمرقند وبخارى، ويلوه بما تتصف به الوان اهل خوارزم من بياض وحمرة (2) وقد كان هذا الجمال التركي دافعا الى الاقبال على الجواري التركيات وسببا في رواجهن ، فقد دخلن قصور الخلفاء و دور الخاصة في صورة حظايا وصارت لهن مكانة مرموقة بين سائر الاماء . وهذه صورة من جمالهن كما رسمها ابن بطلان يقول : " وقد جمعن الحسن والبياض ووجوههن مائلة الى الجهامة وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة ،وقد يوجد فيهن السمراء الاسيلة ،وقدودهن ما بين الربع والقصير، والطول فيهن قليل ومليحتهن غاية وقبيحتهن آية ... وفيهن نظافة ولباقة .. لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة ولا من لها عجيزة عظيمة " (3) وقد عرفت الجارية التركية علاوة على جمالها بكونها ولودا ،فكانت تتخذ للتسري والانجاب

1) المقدسي ــ احسن التقاسيم ــ ص 336
2) المصدر نفسه ص 278
3) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــص 376

الولـد (1) فلا غرو ان يكون كثير من امهات الخلفاء العباسيين من جواري الاتراك مثل (ماردة) زوجة الرشيد وام المعتصم و (شجاع) جارية المعتصم وام المتوكل و (شغب) زوجة المعتضد وام المقتدر بالله و (زمرد) زوجة المستضيء وأم الناصر لدين الله وغيرهن (2) فالتركيات " هن كنوز الاولاد ومعادن النسل قل ما يتفق في اولادهن وحش ولا رديء التركيب ولا حان " (3).

واما البربريات فيعتبرن من الجواري المرتفعات ايضا (4) لما اشتهرن به من حسن وقد ادرك المسلمون هذه الصفة في الامة البربرية منذ عصور الفتح الاولى لبلاد المغرب فقد روي في هذا الصدد عن بعض الغزاة انه قال في الامة الصنهاجية :

الا لا ابالي اليوم ما فعلت هند	اذا بقيت عندي الحمامة والورد
شديد مناط المنكبين اذا جرى	وبيضاء صنهاجية زانها العقد
فهذا لايام الحروب وهذه	لحاجة نفسي حين ينصرف الجلد (5)

1) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 49ـ50
2) زكريا كتابجي ـ الترك في مؤلفات الجاحظ ـ ص 173 وص 184
3) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 376
4) بروفنسال - Provençal -تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 314 ـ 315
5) ابن قتيبة ـ عيون الاخبار ـ مجلد 3 ج 10 ص 48 ـ 49 ـ الابشيهي ـ المستطرف ط ـ بولاق ـ ج 2 ص 284 ـ الجاحظ ـ المحاسن والاضداد ـ ص : 183

وكان اقبال اهل المشرق على السبايا من البربر كبيرا ، وقد تنافس الخلفاء في اتخاذهن ، والحوا على امراء افريقية في طلبهن (1) حتى صار منهن العديد من امهات الاولاد في قصور الامويين والعباسيين مثل ام ابراهيم الامام وام ابي جعفر المنصور المعروفة بسلامة البربرية (2) وام ابن عيسى بن الرشيد التي كانت من احسن الناس وجها (3) وقراطيس ام الواثق بن المعتصم وقتول ام القاهر بن المعتضد (4) وغيرهن كثير ، وقد استمر الولع بجمال البربريات في هذا العصر واعتبرن من انفس انواع الاماء اللائي يميزن عن وحش الرقيق (5) ، فهذا ابن حوقل ينوه بحسنهن عند حديثه عن رقيق المغرب وينعتهن بجمال الالوان والوسامة وحسن القوام (6) ويصف البكري جواري منهن باودغست فيقول " وبها جوار حسان الوجوه بيض الالوان منثنيات القدود لا تتكسر

1) ابن عذاري ــ البيان المغرب ــ ج -1- ص52-54-الطالبي-الامارة الاغلبية ص 33-37
2) ابن حوقل ــ صورة الارض ــ الطبعة الفرنسية ــ ج 1 ص95 ــ زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 153 ــ 154
3) الاصفهاني ــ الاغاني ــ ج 10 ص 197
4) ابن حوقل ــ صورة الارض ــ الطبعة الفرنسية ج 1 ص95
5) بروفنسال- Provençal -تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 314 ــ 315
6) ابن حوقل ــ صورة الارض -الطبعة الفرنسية ج 1 ص 101

لهن نهود ، لطاف الخصور ضخام الارداف واسعات الاكتاف ضيقة الفروج ، المستمتع باحداهن كانه يتمتع ببكر ابدا ، قال محمد بن يوسف : اخبرني ابو بكر احمد بن خلوف الفاسي شيخ من اهل الحج والخير قال : اخبرني ابو رستم النفوسي وكان من تجار اودغست انه راى منهن امراة راقدة على جنبها وكذلك يفعلن في اكثر حالهن اشفاقا من الجلوس على اردافهن وراى ولدها طفلا يلاعبها فيدخل تحت خصرها وينفذ من الجهة الاخرى من غير ان تتجافى له شيئا لعظم ردفها ولطف خصرها " (1) ويشيد المؤلف نفسه بالجوارى الابكار من بنات برغواطة لما تميزن به من قوة البنية وجمالها فقد " كانت الجارية البكر منهن تلبس ثلاث حمر مصطفة ولا يمس ثوبها شيئا من الحمر ولا تقدر على ذلك ثيب " (2) اما نساء البصرة الواقعة بين طنجة وفاس ففيهن اماء مخصوصات " بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بارض المغرب اجمل منهن ، قال احمد بن فتح المعروف بابن الخراز التاهرتي يمدح ابا العيش بن ابراهيم

1) البكري ــ المغرب - ص 158 ــ 159
2) المصدر نفسه ص 140

ابن القاسم :

قبح الاله اللهو الا قينة بصرية في حمرة وبياض

الخمر في لحظاتها والورد في وجناتها والكشح غير مفاض

في شكل مرجيّ ونسك مهاجر وعفاف سنيّ وسمت اباض" (1)

فلا غرابة بعد هذا ان تتفق آراء اهل العصر على ان من اراد ان يتخذ جارية للذة وانجاب الولد عليه ان يختارها بربرية فيحقق لنفسه بذلك المتعة وجمال النسل (2) اما اذا ما كانت تلك الجارية على جانب وافر من التربية والثقافة فانه يكون بذلك قد احرز احسن انواع الاماء على الاطلاق. يقول السقطي عن ذلك : " والبربريات اطبع الخلق على الطاعة وانشطهم للعمل و اصلحهم للتوليد واللذة واحسنهم للولد . . وحكي عن ابي عثمان رئيس النخاسين بالمشرق والشان اليه هناك لكثرة الخبرة والمداولة على القوم انه كان يقول : اذا وجدت المراة بنت تسع حجج كتامية الام صنهاجية الاب مصمودية المنشأ قد جلبت الى المدينة واقامت بها ثلاث

1) المصدر نفسه ص 110
2) السقطي ــ آداب الحسبة ــ ص 50 ــ ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص 373 374 ابن قيم الجوزية ــ اخبار النساء ص 7

حجج وبالعراق عشر حجج فتلك جمعت حسن الجنس الى كمــال القصد وقليل ان تخفى في اجفان العيون " (1).

ولم يكن الناس يعتقدون ان الجمال منحصر في هذه الاجناس التي ذكرناها من الاماء البيض.فالواقع ان الاجناس الاخرى كالروميـات والارمنيات والافرنجيات والديلميات قد كان لها نصيبها من الحسـن ايضا .وكان الراي العام يعترف لها بذلك،لكن كل ما في الامــر انه يفضل الاجناس السابقـة الذكر لشيوع الجمال فيها اكثـر من غيرها.

وقد كان لجمهور الشراة احكام وانطباعات اخرى لا تتعلق بجسد الامـة هذه المرة وانما تهم اخلاقها ومزاجها. وهي امــور هامـة يحرص المشتري على معرفتها لانـه مقبل على مخالطة مملوكـة يرغب في ان تكون حسنة المخبر كما يريدها جميلة المظهر . فـاذا ما عرفت البربريات كما راينا بالطاعـة لمالكهن (2) فان الديلميـات

1) السقطي ـ آداب الحسبـة ص 49 ـ 50
2) المصدر نفسـه ـ ص 49 ـ 50

والارمنيات عرفن بالرغم من جمالهن بسوء الخلق وعسر الانقياد (1) فالجارية الارمنية لا تعرف النظافة. والعفة فيها قليلة والسرقة فاشية مع غلظ في الطبع واللفظ (2) وفي الجواري التركيات مع حسنهن البارع سماحة في الخلق وقلة وفاء (3) اما الروميات فقد جمعن بين ملاحة الشكل وقلة الشبق (4) فلذلك لا يصلحن للمتعة حسب قول ابن بطلان (5) لكن الجاحظ يدلي براي مناقض لهذا الراي تماما فيرى انهن اكثر النساء شبقا ويعلل ذلك بانهن لم تختتن، كما يشير الى انهن لا يغسلن الاعضاء التناسلية ولهن رائحة كريهة، الا انهن يحملن سهولة (6) فهل يرجع هذا الخلاف الى اختلاف اجناس الروم او الى تضارب الاراء والتجارب الشخصية ؟

1) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 376 ـ 377 ـ ابن رستة الاعلاق النفسية ـ ص 133 السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 50 ـ 51
2) انظر ايضا : ـ ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 377 - 378
3) المصدر نفسه ص 375 ـ 376 ابن الفقيه مختصر كتاب البلدان ص 330
4) الاصفهاني ـ الاغاني ـ ج 22 ص 217 ـ 218 زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 30
5) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 376 ـ 377
6) الجاحظ ـ كتاب الحيوان ـ ج 4 ص 172 و ج 7 ص 28 ماريوس كانار M. Canard المسلمون وبيزنطة - فصل 15 - ص 111 - 119

لكن الخلاف لا يشمل صفات اخرى امتازت بها الروميات ومنهـا الطاعـة والموافقـة والوفاء والمناصحة والثقـة والامانـة (1) .

وقد رسخت في اذهان المشترين آراء حول اختصاصات الاماء المهنيـة لا سيما ان منهن من جلبن من بلاد ذات حاضرة مثل الروميات والافرنجيات وغيرهن ، وهكذا صنفت اجناسهن حسب مهارتهن في فن من الفنون اوصنعة من الصنائع ، فبنـات الروم "يصلحن للخزن لضبطهن وقلـة سماحتهن ،ولا يخلو ان يكن يألفن صنائع دقيقـة" (2) ولذلك يحسن بمقتنيهن ان يستعملهن في تدبير الاموال وحفظها ،وان ينتفع بما طبعن عليـه من قلـة سخاء (3) ولهذا الصنف من الامـاء براعـة فـي الخدمة بصفـة عامـة ، حتى قيل من اراد جاريـة للخدمـة فعليـه ببنـات قيصر (4) وممن اشتهرن بالصبر على الكد ايضا وتحمل الاعمـال

1) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـص376_377 السقطي ـآداب الحسبة ص50_51
2) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص376_377
3) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ـص330 السقطي ـآداب الحسبة ص49_50
4) ابن قيم الجوزية ـ اخبار النساء ص7 ـ زيدان.تاريخ التمدن الاسلامي ج5 ص30

الشاقة الارمنيات لصحة بنيتهن وشدة اسرهن ، وكذلك شأن الديلميات اللائي عرفن بالصبر على الشدة (1) ولا يعدم المشتري في الامة الارمنية خدمات عائلية اخرى كالرضاع مثلا، فهي في ذلك اشبه شيء بالامة الزنجية (2) اما اذا رام جودة الطبيخ ونظافته فانه يظفر بذلك عند التركيات من الجواري خاصة (3)

1) ابن بطلان – رسالة في شري الرقيق ص376_377 السقطي – آداب الحسبة ص50_51
2) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي – ج5 ص30 ابن بطلان – رسالة في شري الرقيق ص 376 _ 377
3) المصدر نفسه

ب - خصائص الرقيق الاسود الافريقي

لقد كان الرقيق الاسود دون الرقيق الابيض قيمة في الجملة وكان معدل اثمانه منخفضا بالنسبة لمعدل اثمان الرقيق الابيض. ويرجع هذا الانخفاض الى اسباب متنوعة منها ما هو تجاري ومنها ما يتصل بالاخلاق والعادات والاذواق ، فقد كانت وفرة هذا الرقيق الاسود ، وكثرة افواجه المتدفقة على البلاد الاسلامية ، عن طريق القوافل التجارية الاتية من الصحراء الافريقية خاصة ، سببا في انخفاض اثمانه (1) كما ان طرق جلبه قد كانت اقل تعقيدا وعسرا من جلب بعض اصناف الرقيق الابيض كالصقالبة مثلا ، هذا فضلا عن عدم وجود وسطاء تجاريين يرغبون في طائل الارباح كما كان التجار اليهود الرهادنة يفعلون .

وكان الرقيق الاسود يعتبر دون الابيض في المنزلة ، لانه لم يكن يتصف في الغالب بحظ وافر من الجمال . بل كان الراي السائد بين الناس ان السود هم سكان (البلاد الجنوبية وهي التي اهلها سكان تحت القطب الجنوبي كالحبشة . واحوالهم ضد احوال البلاد

1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد - دائرة المعارف الاسلامية - ج 1 ص 33 -

الشمالية والوانهم سود ومياههم مالحة كدرة ومعدهم باردة وهضومهم رديئة واخلاقهم هاوية واعمارهم قصيرة وبطونهم لينة لسوء الهضم) (1) ويصفهم صاحب حدود العالم بان نصفهم الاعلى قصير ونصفهم الاسفل طويل وبان جسمهم نحيل وشفاههم غليظة (2) اما شعورهم " فمتفلفلة " واعناقهم قصيرة وانوفهم مفلطحة وعيونهم حمراء ورائحتهم كريهة كرائحة القرون المحروقة (3) فقد (انتنت اعراقهم و تقشفت جلود اقدامهم وتشوهت خلقتهم وقلت معارفهم و فسدت اذهانهم فهم في نهاية الجهالة واقعون ، واليها ينسبون وقلما ابصر منهم عالم او نبيل وانما يكتسب ملوكهم السياسة والعدل ، بالتعليم من اقوام يصلون اليهم من اهل الاقليم الرابع او الثالث ممن قرأ السير واخبار الملوك وقصصها) (4)

1) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 372
2) مؤلف فارسي مجهول ـ حدود العالم ـ طبعة جب Gibb ص 165
3) ابن رستة ـ الاعلاق النفيسة ـ ص 101 ـ ابو حامد الغرناطي ـ تحفة الالباب - المجلة الاسوية 1925 - عن كوك - منتخبات ص 159 - 161
4) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ طبعة رومة 1270 ـ المجلد 1 ص 98

لكن هذه الصورة المرتسمة في اذهان اهل ذلك العصر قد كانت تتعلق باغلب الرقيق الاسود لا بجميعه كما سوف نرى عند التفصيل. فاجناس هذا النوع من الرقيق تتفاوت في درجات الحسن والقبح وتختلف في الخصائص الجسدية والخلقية وفي نوع الاختصاص بعمل من الاعمال ولنبدأ بالحديث عن الرقيق الاسود المذكر .

الرقيق المذكر :

كان المشهور عن هذا الرقيق امتيازه بقوة البدن والصبر على العمل الشاق . فكان يتخذ غالبا في شكل يد عاملة ووسيلة من وسائل الانتاج ، اما بالنسبة الى الاسرة فهو يمثل احسن انواع الرقيق خصوصا اذا كان من الخصيان ، فهو رقيق لا يتصف بالجمال الذي يغري النساء ، وهو بالاضافة الى ذلك قادر على العمل بسبب قوته الجسدية فلذلك كان يرغب فيه للخدمات المنزلية ، وقد تعرض ابن بطلان لخصال الزنوج فذكر مالهم من جلد على الكد ((فالزنجي اذا شبع فصب العذاب عليه صبا فانه لا يتالم له)) (1) وقد نوه الجاحظ بهذه الخاصية في الزنوج فقال : ((وليس في الارض امة في شدة الابدان وقوة الاسر اعم منهم فيها : وان الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الاعراب وغيرهم . وهم شجعاء اشداء الابدان)) (1) .

1) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص375
2) الجاحظ ــ فخر السودان على البيضان ــ الرسائل ــ ج 1ص195

وترتفع قيمة العبد الاسود اذا جمع الى هذه الخصال الوفاء والامانة،مثلما ما هو معروف عن عبيد النوبة الذين يرغب فيهم عادة لحفظ الاموال والنفوس (1) وترتفع اثمانهم بسبب هذا الامتياز. فقد روي ان الصاحب بن عباد بذل في عبد نوبي اربعمائة دينار. وهو مبلغ يندر بذله اذاك في الرقيق الاسود (2) لكن هذه الخصال المعنوية والخلقية لم يكن اهل العصر يرونها متوفرة في سائر اجناس الرقيق الاسود. بل كانوا يرون ان العبد اذا جاع سرق واذا شبع زنا. ولا بد لمالكه من الاحتياط والشدة في معاملته وقد انعكست هذه الصورة في هجاء المتنبي لكافور وخاصة من قوله :

" لا تشتر العبد الا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد " (3)

وكان المتعارف ايضا في العبيد حرارة امزجتهم ونشاطهم الجنسي (4) ولذلك يستحسن في الخادم الاسود ان يكون خصيا.

1) السقطي ــ آداب الحسبة ــ ص 29
2) آدم متز - A - MEZ - الحضارة الاسلامية ج - 1 - ص 297
3) المتنبي ــ الديوان - ص 486
4) الجاحظ ــ فخر السودان على البيضان ــ الرسائل ــ ج 1 ص 212 ــ 215

لكن للعبيد ميزة يعترف بها اهل العصر وكذلك سابقوهم من المسلمين مما يدل على عراقتها وانتشارها بين اصناف الرقيق الاسود ونعني بها صفة الشجاعة والاقدام في الحرب . وكثيرة هي الشواهد في التراث الادبي على بسالة السود وباسهم ،حتى جعل منهما الجاحظ امرا وراثيا اذ يقول ان ابناء الزنجيات ينزعون الى الزنج في البسالة والانفة (1) وقد شجع هذا الاعتقاد على اتخاذ عناصر السودان في الحرس الخلافي وفي كتائب الجند ،وهو ما نعرفه من خلال تاريخ الدول الاسلامية في هذا العصر ، وهكذا كان الرقيق الاسود المذكر يقتنى لغرضين اساسيين هما الخدمة والحرب (2) وهما غرضان يتلاءمان مع خصائصه الجسدية ومع عقائد اهل العصر وتقاليدهم .

1) المصدر نفسه ــ ج 1 ص 192
2) ابو حامد الغرناطي ــ تحفة الالباب ــ عن كوك – Cuoq – ج – منتخبات ص159-161

* **الرقيـق المؤنـث :**

وكان للاناث من الرقيق الاسود خصائص ينفردن بها ايضا.منها ما هو جسدي وخلقي ومنها ما هو مهني صناعي ، اما بالنسبة الى الصفـات الجسدية والخلقيـة فقد كان الغالب على تفكير اهل العصر انهـا دون صفات الامـاء من البيض.فالزنجيات مثلا كن يعتبرن اردأ انواع الامـاء السود (1) لان " مساويهن كثيرة وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن وتحددت اسنانهن وقل الانتفاع بهن وخيفت المضرة منهن والغالب عليهن سوء الاخلاق وكثرة الهرب..... وليـس فيهن متعـة لصنانهن وخشونـة اجسامهن " (2)

واذا كانت الزنجيات بمثل هذه الصفـة فان الزغاويات (3) شر منهن اذ " لا يصلح الرجال لخدمـة ولا النسـاء لمتعـة " (4)

ومهما يكن من امر فان جمهور الناس اذاك قد كانوا يرون ان نسبة الجمال واللطف عند السودانيات قد كانت اقل من نسبتهـا عنـد

1) الابشيهي ـ المستطرف ـ ج 2 ص 77
2) ابن بطلان ـ رسالة في شرى الرقيق ـ ص 374 ـ 375
3) يقول ياقوت عن زغاوة : " هو بلد في جنوبي افريقية بالمغرب وقيل قبيلة من السودان جنوبي المغرب وفيهم يقول ابو العلا المعري : بسبع اماء من زغاوة زوجت من الروم في نعماك سبعة اعبد " ويقول ايضا : " ومملكة الزغاوة مملكة عظيمة من ممالك السودان في حد المشرق منها مملكة النوبة الذين باعلى صعيد مصر .... وهم امم كثيرة " ياقوت-معجم البلدان ـ دار صادر بيروت 1376 هـ 1957م ـ ج 3 ص 142
4) ابن بطلان ـ رسالة في شرى الرقيق ـص 375

الجواري البيض وكان الذوق العام يقتضي ان تكون المراة الحسناء "صفراء" او "حمراء" وان شائبة السواد تضر بالحسن و تنقص منه . وقديما قال الشاعر المصري في اهل اليمن عندما خالطهم الاحباش :

فافسد نسلكم بسواد لون وأير مثل غرمول الحمار (1)

وكثيرة هي الاخبار والاشعار التي ترويها المصادر وخاصة كتاب الاغاني في تعيير السود بلونهم (2) وان كنا نرى ان سبب ذلك التعيير ليس مجرد اسوداد اللون ، وانما دلالته خاصة على رق اصحابه وعبوديتهم . ولذلك كان الاسود لا يعير غالبا بلونه اذا ما اظهر نجابة ونبوغا يسمو به الى درجة الاحرار . وما من شك ايضا ان هذه النظرة الى السود لم تكن مستقرة عند المسلمين بل شهدت تطورا عبر العصور وصارت اقرب الى الاعتبار الجمالي منها الى الاعتبار العنصري .

1) الجاحظ ــ فخر السودان على البيضان ــ الرسائل ــ ج 1 ص 201
2) الاصفهاني ــ كتاب الاغاني ــ ج 8 ــ ص 326 ــ وص ــ 332

فهذه النظرة لم تكن شاملة لكل الرقيق الاسود المؤنث لاننا نجد اعترافا بالجمال والقسامة، لاصناف عديدة من الجواري السود ولم يكن اللون الاسود رمزا للقبح دائما بل اعتبر احيانا مساويا للبياض في الحسن ، ولعل في هذا الاعتراف ما يدل على ان موقف المسلمين من هذا الرقيق لم يكن موقفا عنصريا قائما على اساس اللون . فمنذ عهود سابقة لهذه الفترة اختلط العرب المسلمون بالسود وعاشروهم وصاهروهم ،وكانوا اقرب الاجناس اليهم اذ وجد من بين العرب من كانوا سود الالوان مثل بني سليم بن منصور (1) كما وجد في المبادئ الخلقية التي غرسها الدين ما اضعف الاعتبار العنصري وزاد تلك العشرة لحمة وتآلفا، وقد كان موقف المسلمين من هذا الجنس في تطور مستمر بحكم اتساع دائرة الاختلاط مع السود . وبدات نظرة الاستهجان تضعف بمرور الزمن.كما زال الاعتقاد بان سواد لون السودان هو نتيجة لعنة نوح لا بيهم حام (2) وحلت محله تفسيرات اخرى منذ القرن

1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان . . . الرسائل ـ ج 1 ص 219
2) ابن خلدون ـ المقدمة ـ طبعة كاترمار ـ ج 1 ص 148 ـ 155

الثالث للهجرة نجدها عند ابن رستة (1) وابن سينا (2) والادريسي (3) وهي تفسيرات جغرافية ومناخية قد بلغت اوجها عند ابن خلدون في المقدمة (4) ونحن لا ننفي ان يكون في آثار هذا العصر مواقف استقباح وتحقير لهذا الجنس بلونه الاسود مثلما يبدو ذلك في هجاء المتنبي لكافور. ولكننا نرى ان جل تلك المواقف لم تكن تعدو الصعيد النظري والحالات الشاذة كمناسبات التعبير والهجاء. وهي مناسبات قد يتراجع فيها اصحابها في احوالهم العادية ولم تكن منسجمة مع واقع معاملة المسلمين للسود على الصعيد الاجتماعي والواقعي عموما. فقد مدح المتنبي كافورا بالسواد ايضا عندما سنحت الفرصة. ودل موقفه ذلك على البون الموجود بين بعض التقاليد وسوابق الظن التي كانت في طريق الزوال وحقيقة الممارسة التاريخية للعلاقة بين الجنسين.

1) ابن رستة — الاعلاق النفيسة — طبعة دي غوية - De Goeje - المكتبة الجغرافية العربية ج 7 ص 102
2) ابن خلدون — المقدمة — طبعة كاترمار - Quatremère - ج 1 ص 148 — 155
3) الادريسي — نزهة المشتاق — طبعة رومة 1970 مجلد 1 ص 18
4) ابن خلدون — المقدمة — طبعة كاترمار - Quatremère - ج 1 ص 148 — 159

ومن صور هذا الواقع التاريخي ان المشتري كان يقبل على اقتناء الجارية السوداء للتسري بها فضلا عن اقتنائها للدخمة ، وذلك لما اشتهرت به الجواري السود من جمال ، فقد كانت الزنجيات بالاندلس يتخذن في شكل السراري كالبيض. وكان الاقبال عليهن كثيرا وغالبا ما يستاثر الخواص بهن (1) وقد ذكر السقطي ان الاماء السود بتلك البلاد قد كن يتخذن للفراش والولد . و روى لنا تقليب احد الاثرياء من الخاصة لجارية سوداء جميلة وصفها بائعها بانها " هي الكاملة القد الحالكة البديعة الصورة الحلوة الشكل . . . قد التحفت بكساء ابيض محشى بالاحمر وجود مثلها نادر " (2) وما كان يقع في الاندلس كان يحدث ايضا في سائر البلاد الاسلامية ، ففي الحجاز مثلا كان سكان المدينة مولعين بالجواري السود وكانوا يتخذونهن لانجاب الولد حتى قال شاعرهم :

لا تشتمن امرءا في ان تكون له ... ام من الروم او سوداء عجماء
فانما امهات الناس اوعية ... مستودعات وللاحساب آباء
ورب واضحة ليست بمنجبة ... وربما انجبت للفحل سوداء (3)

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 177 _ 179
2) السقطي _ آداب الحسبة ص 48_49
3) ابن قتيبة _ عيون الاخبار- ج 10 ص 8 _ 9

وقد نقل لنا ابن قتيبة كثيرا من اخبار المدنيين واشعارهم الدالة على تنويههم بجمال الامة السوداء ويمكننا ان نكتفي منها بقول الشاعر :

اشبهك المسك واشبهته ... قائمة في لونه قاعدة
لا شك اذ لونكما واحد ... انكما من طينة واحدة

او قوله :

احب لحبه السودان حتى ... احب لحبها سود الكلاب (1)

ويمكن الرجوع الى الفصل الذي عقده المؤلف في عيون الاخبار حول الاماء للتاكد من منزلة الجواري السودانيات في نفوس المدنيين ، وليست غايتنا هنا ان نسترسل في ذكر الامثلة على اثبات هذه النزعة في سائر انحاء العالم الاسلامي اذاك ،لاننا لا نشك في انتشار هذه التقاليد بين مسلمي ذلك العصر وخاصة في المناطق المتاخمة لمواطن توريد الرقيق الاسود وذلك ما عناه الجاحظ بقوله (ان الشهوات عادات واكثرها تقليد . من ذلك ان اهل البصرة اشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والاغوار ، واليمن اشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات .واهل

1) المصدر نفسه ن 10 ص 43

الشام اشهى النساء عندهم الروميات وبنات الروميات. وكل قوم فانما يشتهون جلبهم وسبيهم الا الشاذ وليس على الشاذ قياس) (1)

وحسبنا ان نقدم نموذجا معبرا عن هذا الاتجاه ننتخبه من ديوان احد شعراء القرن الرابع للهجرة وهو الشريف الرضى الذي اكثر من الغزل بالاماء السود يقول :

احبك يا لون الشباب فانني ... رايتكما في العين والقلب توأما
سواده يود البدر لو كان رقعة ... بجبهته او شق في وجهه فما
سكنت سواد القلب اذ كنت مثله ... فلم ادر من عز من القلب منكما
وما كان سهم العين لولا سواده ... ليبلغ حبات القلوب اذا رمى
اذا كنت تهوى الظبي الفى فلا تلم ... جنوني عن الظبي الذي كله لمى (2)

وقال ايضا مدافعا عن حبه للسواد في لون محبوبه

لاموا ولو وجدوا وجدي لقد عذروا ... وذنب من لام ذنب غير مغتفر
لما تمادوا على عذلي اجبتهمو ... بعز معترف لا ذل معتذر
اهوى السواد براسي ثم امقته ... فكيف يختلف اللونان في نظري ؟

1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص 215
2) الشريف الرضى ـ الديوان ـ ج 2 ـ ص 312

اني علقت سواد اللون بعد كمو	علاقة تشمت الظلماء بالقمر
لو لم يكن فوق لون البيض ما رقمت	صبغ الغرالى على الاجياد والعذر
والليل استر للخالي بلذتــــه	والصبح افضح للساري على غــرر
وللفتى في ضلال الليل معــذرة	ومالــه في الضحى ان ضل من عذر
وكيف يذهب عن قلبي وعن بصري	من كان مثل سواد القلب والبصر (1)

ومما اشتهر به الشاعر ابن سكرة نظمه لعشرة الاف بيت في قينــة سوداء تدعى " خمرة " وكثيرون هم الشعراء الذين تغنوا بجمال الجواري السود في هذا العصر وابدعوا في وصفه كما فعل ابي الرومي (2)

ومن الصفات التي كان الناس يعدونها من خصائص نساء السودان الحافزة على تسريهن واستيلادهن ما اشتهرن بــه من شدة الشهــوة الجنسية وفرط الشبق والغلمة وما يترتب عنها من كثرة الانجــاب (3) فالزنجية مثلا " تلد نحوا من خمسين بطنا في نحو من خمسين عاما في كل بطن اثنين فيكون ذلك اكثر من تسعين"(4) وقد فسروا هذه الظاهرة الجنسية وكثرة الاقبال على الجماع بحرارة الاقلـيم ومخالطتهن للرجـال منذ الصغر وعدم استقرارهن في البيوت (5) فكثر بذلك تناسلهن وكـن

1) المصدر نفســه - ج 1 - ص413 - 418
2) ابن الرومي ــ الديوان - ج.2 - ص762
3) الادريسي نزهة المشتاق-الترجمة-طبعة دي غوية - (M.G).De Goeje ص110 ــ 116
محمد بن عمر التونسي-تشحيذ الاذهان ص 256
4) الجاحظ ــ فخر السودان على البيضان ــ الرسائل ج 1 ص 213
5) محمد بن عمر التونسي ــ تشحيذ الاذهان ــ ص 256

من اخصب النساء ارحاما وان الواحدة منهن لتجرّ وراءها اذا انتقلت ما لا يقل عن اربعة او خمسة اطفال (1) وان كان الجاحظ يرى ان الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجي (2)

وكان الراي السائد في هذا العصر ان الجمال متوفر في اجناس من السودانيات دون اخرى.وان تلك الاجناس متفاوتة في درجة للحسن . وقد تعرض ابن بطلان الى مقياس التفاضل فذكر ان درجة الجمال تقاس بدرجة السواد ،فكلما اشتد سواد هذه الاجناس نقصت محاسنها (3) وقد احتلت النوبيات مرتبة مرموقة في هذا المجال (4) فنوه الادريسي بجمالهن واشاد بقسامة وجوههن ووصف صغر افواههن ورقة شفاههن وبياض اسنانهن . وراى انهن يتميزن بشعورهن المرسلة عن نساء الحبشة والبجة والزنج وغانة . كما اشار الى اقبال اهل مصر على الزواج منهن . واليك ما يقوله في هذا الصدد عن اهل النوبة : "... وفي نسائهم جمال فائق وهن مختتنات ولهن اعراق طيبة ليست من اعراق السودان في شيء

1) الادريسي ــ نزهة المشتاق ــ الترجمة.طبعة دي غوية - De Goeje - ص 110 ــ 116
2) الجاحظ ــ فخر السودان على البيضان ــ الرسائل ج 1 ص 213
3) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص 374 ــ 375
4) المصدر نفسه ص 376

وجميع بلاد ارض النوبة في نسائهم الجمال وكمال المحاسن،وشفاههم رقاق وافواههم صغار و مباسمهم بيض وشعورهم سبطة . وليس في جميع ارض السودان من المقازرة ولا من الغانيين ولا من الكانميين ولا من البجاة ولا من الحبشة والزنج قبيل شعور نسائهم سبطة مرسلة الا من كان منهم من نساء النوبة ، ولا احسن ايضا للجماع منهن وان الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلاثمائة دينار واقل من ذلك . ولهذه الخلال التي فيهن يرغب ملوك ارض مصر فيهن ويتنافسون في اثمانهن ويتخذونهن امهات اولاد لطيب متعتهن ولفاسة حسنهن ، وذكر بعض الرواة انه كان بالاندلس جارية من هؤلاء الجواري المقدم ذكرهن عند الوزير ابي الحسن المعروف بالمصحفي فما ابصرت عيناه قط باكمل منها قدا ولا اصبح خدا ولا احسن مبسما ولا املح اجفانا ولا اتم محاسن . وكان هذا الوزير المذكور مولعا بها بخيلا بمفارقتها ويذكر ان شراءها عليه مئتان وخمسون دينارا من الدنانير المرابطية وكانت هذه الجارية المذكورة مع تمام محاسنها وبديع جمالها اذا تكلمت اسحرت سامعها لعذوبة الفاظها وحلاوة منطقها لانها ربيت بمصر فكانت تامة الصفات " (1)

1) الادريسي. نزهة المشتاق ــ طبعة روما 1970 ــ المجلد 1 ص 30ــ31 وص 37

وقد اشتهر الرقيق المؤنث المجلوب من مملكة غانة بانه اجمل انواع السودان ايضا، وبانه يمتاز بخصال جسدية واخلاقية تفوق التمني من لطافة خصر ونقاء سواد وجمال عينين واستقامة انف وبياض اسنان وطيب رائحة في الافواه كما عرفوا بشعورهم السبطة وذكائهم النادر (1) وكانت " البجاويات " المجلوبات من المنطقة الواقعة بين الحبشة والنوبة " مذهبات الالوان حسنات الوجوه ملس الاجسام ناعمات البشر جواري متعة ان جلبت صغيرة وقد سلمت من ان يتكلك بها فانهن يقورن ويمسح بالموس باعلى فروجهن من اللحم كله حتى يبدو العظم فيصرن شهرة من الشهر" (2) .

ولا يعدم المشتري حظا من الجمال عند الزنجيات ايضا بالرغم مما عرفن به من صفات منفرة ففي بعضهن " جمال وكمال " (3) وقد ذاعت شهرة بعض الزنجيات في الافاق وصار جمالها وعلمها مضرب المثل . وذلك

1) الشريشي ـ الاستقصاء شرح مقامات الحريري ـ ص 99 ـ 100 ابو حامد الغرناطي تحفة الالباب ـ المجلة الاسيوية ـ A-ج - 1925 - عن كوك - C U O 9 - ج - منتخبات - ص 159 - 161

2) ابن بطلان ـ رسالة في شرى الرقيق ـ ص 375 ـ 376

3) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص 211

شان " اشراق السهداء " التي اشتهر امرها في القرن الرابع للهجرة (1) كما كانت الاماء المجلوبات من " بربرة " جميلات رغم سوادهن القاتم (2) وهكذا كان اهل هذا العصر يعترفون للرقيق الاسود الافريقي بنصيب من الجمال الجسدي وان كانوا يحتقرونه وقفا على جنس دون آخر من هذا الرقيق. وقد تواصلت هذه النظرة الى نساء السودان حتى في العصور المتاخرة. فهذا ابن عمر التونسي يرى ان قبائل السودان يكثر في بعضها جمال النساء ويكثر في بعضها الاخر قبحهن وياتي على ذلك بامثلة عديدة (3).

ومن الجواري السودانيات من تميزن بصفات اخلاقية ترغب في اقتنائهن. ومن احسن الامثلة على هذا النوع الحبشيات فهن رغم جمالهن المحدود وبالرغم مما عرفن به من " لين الاجسام وضعفها " قد انفردن بحسن الخلق و " قوة النفوس " وكان فيهن " خيرية ومياسرة وائتمان " (4) ويرى ابن بطلان ان نساء النوبة قد اتصفن بهذه الخصال ايضا

1) لومبار Lombard - الاسلام في عظمته الاولى - ص 194-204
2) ابن بطلان - رسالة في شري الرقيق - ص 374
3) ابن عمر التونسي - تشحيذ الاذهان - ص 264 - 265
4) ابن بطلان - رسالة في شري الرقيق - ص 374

" فالغالب عليهن نعومة الاجسام ولينها وضعفها، يعتادهن السل ولا يصلحن لا للغناء ولا للرقص. دقاق لا يوافقهن غير البلاد التي نشان فيها " ، ولكن مع ذلك على حظ كبير من الرضوخ والاذعان لساداتهن وعلى خلق قويم (1) لكن الغريب ان السقطي يقدم لنا صورة معاكسة عنهن ، فيرى انهن رديئات الخلق والسلوك قد فطرن على العبودية والسرقة وقلة الامانة (2) وان الذكور من رقيق النوبة هم [illegible] الذين اتسموا بهذه السمات واتخذوا لحفظ النفوس والاموال (3).

وكانت الاماء السود ماهرات في الغناء والرقص فضلا عن [illegible] خصالهن السابقة الذكر. وكان فيهن مؤهلات فطرية لهذا الاختصاص ترجع الى طبائعهن وامزجتهن . فالزنجي كما يقول الجاحظ " لا تراه ابدا الا طيب النفس ضحوك السن حسن الظن " (4) واذا ما كانت عجمة الزنجيات تمنعهن من انشاء الشعر فانه يعدل بهن الى الزمر والرقص. فهن جوار " ليس في خلقهن

1) المصدر نفسه ـ ص 376
2) السقطي ـ اداب الحسبة ص 48
3) المصدر نفسه
4) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص 196

النغم والرقص والايقاع فطرة لهن وطبع فيهن... ويقال : لو وقع الزنجي من السماء الى الارض ما وقع الا بالايقاع " (1) وقد ذهب بعض اهل هذا العصر وهو المسعودي الى تفسير هذه الظاهرة بنقص في عقول السود وبخفة في ادمغتهم وطيش في سلوكهم وقلة ذكائهم .وهو في هذا يتابع فكرة قديمة تنسب الى جالينوس.وقد رد ابن خلدون عليهما وبيّن خطأهما وذهب الى تفسير اخر عماده المناخ .فالزنجي في رايه لا يرقص بمجرد سماعه للموسيقى لنمو الروح الحيواني فيه ، تحت تاثير ارتفاع الحرارة ونمو ذلك الروح تحدث النشوة والسرور ويقع الاندفاع الى الغناء والرقص (11)

وقد كان من نتائج هذا الاقبال على الغناء والرقص ان اشتهر العديد من الشبان والراقصات السود في هذا العصر .

وقد عرفت الاماء السود بجودة خدماتها وخاصة منها ما يتصل بخدمة المنزل والاسرة. فقد وصف لنا البكري بمدينة اودغست سودانيات جيدات الطبخ كانت الواحدة منهن تباع باكثر من مائة مثقال من الذهب.كما

1) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 374 ـ 375
2) ابن خلدون ـ المقدمة ـ طبعة كاترمار – Quatremère – ج1ص 155 ـ 157

يصف لنا انواع الطبيخ التي اشتهرن بصنعها ، يقول في ذلك : " ومنها (اودغست) سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال واكثر. تحسن عمل الاطعمة الطيبة من الجوزيناقات والقطائف واصناف الحلوات وغير ذلك .... " (1)

وتتخذ احسن الحواضن والدايات لارضاع الاطفال وتربيتهم من النوبيات او الزنجيات. وذلك لما عرفت به نساء النوبة من رافة وحنان صرن بهما " من احسن الربايات للاطفال " (2) وان كن قد فطرن على السرقة وقلة الامانة (3) اما الزنجيات فيتخذن مرضعات لجودة البانهن واكتمال خصائصها الغذائية ، يقول ابن بطلان في بيان هذه الخصال في النوبيات والزنجيات : " يختار لتربية الاطفال النوبة لانهن من جنس فيه رحمة وحنين على الولد . وليس يلقن الطفل لغة بشعة . ويختار للرضاع الظئر الصحيحة الجسم الحديثة السن المعتدلة المزاج ..... واعتبار اللبن ان تقطر على ظفرك منه فاذا صار كالعدسة لا غليظا مقببا ولا مائعا سيالا وكان طيبا في رائحته ابيض في لونه كان جيدا . وبعض الاطباء اختار الزنج

1) البكري ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ـ نشر دي سلان - De slane - الجزائر 1857 ـ ص 158 ـ 159
2) السقطي ـ اداب الحسبة ـ ص 50
3) المصدر نفسه ص 49

للرضاع لان حرارتهن البارزة نحو الاثداء منضجة للبن ، ولانهن لغلظه اكثر غذاءا ، وقال قوم : ان قياسه قياس لبن الاتن في اللطافة لغلظ اجسامهن " (1) وهكذا ارتفعت منزلة هذا الجنس من الاماء بسبب هذه الخصال ، وصارت لبعضهن اثمان باهضة حتى روى ان احدى النوبيات قد بيعت بثلاثمائة دينار (2)

وبصورة عامة كانت الاماء السود اقدر على القيام بشؤون الاسرة والخدمات المنزلية ، وخاصة منها تلك التي تستدعي الجهد والكد ، من غيرهن من الرقيق المؤنث. فكان الشراة يفضلون استخدام هذا النوع من الخدم في منازلهم لما عرف به من صبر على العمل وتحمل المشاق ، خصوصا اذا كانت الاسرة المخدومة تعيش في البادية ، وقد اشار ابن بطلان الى هذه الخاصية في كلامه عن الزنجيات فقال (فهن جلد على الكد . فالزنجي اذا اشبع فصب العذاب عليه صبا فانه لا يتالم له) (3)

1) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 387
2) ادم متز ـ A. MEZ ـ الحضارة الاسلامية ج 1 ـ ص 297
3) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ص 374ـ 375

ح- خصائص الرقيق الاسود الاسيوي

* الرقيق المذكر

ان الخاصية الغالبة على الرقيق الهندي المذكر هي امتيازه بدرجة من الثقافة والدراية بشؤون المعاملات المالية قليلا ما تتوفر في غيره من اصناف الرقيق ، وقد نقل ابن النديم ما ذكره الجاحظ في كتاب البيان والتبين من ان اغلب امم السودان ليست لها كتابة ولا ابجدية باستثناء الهنود الذين كانوا متقدمين على غيرهم في هذا المجال (1) فهم اكثر تحضرا من غيرهم من امم السودان وقد عرفوا بالمهارة في امور الصرف واشتهروا بالامانة والصدق. فكان الرقيق الهندي يقتنى من اجل هذه الخاصية لحفظ الاموال والنفوس (2)

وكان الرقيق الهندي من اجود الرقيق ثقافة ومهارة في التجارة والصرف، والمعرفة بشؤون الصيدلية والتمييز بين اصناف العقاقير ، يقول الجاحظ في وصفهم : " فاما الهندي صاحب الخربة (3) اذا صار الى البدو وهو طفل خرج افصح من ابي مهدية (4) ومن ابي مطرف الغنوي

1) ابن النديم ــ الفهرست ــ طبعة فلوجل - FLÜGEL ــ ص 19 - الجاحظ - فخر السودان على البيضان ــ الرسائل ــ ج 1 ص 212
2) السقطي ــ اداب الحسبة ص 49 ــ ابن بطلان - رسالة في شرى الرقيق - ص 374
3) الخربة ــ ثقب في شحمة الاذن
4) شاعر جاهلي

ولهم طبيعة في الصرف لا ترى بالبصرة صيرفيا الا وصاحب كيسه سندي ، اشترى محمد بن السكن ابا روح فرجا السندي فكسب المال العظيم ، وكل صيدلاني عندنا الاوله غلام سندي فبلغوا ايضا في البربهار والمعرفة بالعقاقير وصحة المعاملة واجتلاب الحرفاء مبلغا حسنا " (1)

ويطنب الجاحظ في وصف خصال الرقيق السندي ورواجه بمدينة البصرة ويذكر لنا اقتداء الناس بمحمد بن السكن في اتخاذه لابي روح السندي مشرفا على شؤونه التجارية ، وذلك لما لاحظوه من ازدياد في ثروته بفضل حسن تدبير غلامه السندي ، يقول في ذلك : " ومن مفاخرهم (اي العبيد من السند) ان الصيارفة لا يولون اكيستهم وبيوت صروفهم الا السند واولاد السند لانهم وجدوهم انفذ في امور الصرف واحفظ وآمن . ولايكاد احد ان يجد صاحب كيس صيرفي ومفاتيحه ابن رومي ولا ابن خرلساني . وقد بلغ من تبرك التجار بهم ان صيارفة البصرة وبنادرة (2) البربهارات لما راوا ما كسب فرج ابو روح السندي لمولاه (3)

1) الجاحظ . كتاب الحيوان . ج 3 ص 435
2) جمع بندار بضم الباء . وهم التجار الذين يخزنون البضائع للغلاء ، ومنها البربهار وهي الادوية المجلوبة من الهند في صورة حشيش وعقاقير وتطلق على توابل الهند ايضا (راجع الانساب للسمعاني ص 71 وحواشي كتاب الحيوان ج 3 ص 435 . وتاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية لمحمد اسماعيل الندوي ص 49 ــ 50)
3) هو محمد بن السكن كما جاء في كتاب الحيوان ج 3 ص 435

من المال والارضين اشترى كل امرئ منهم غلاما سنديا طمعا فيما كسب ابو روح لمولاه (1) ولئن كانت هذه الخصلة هي احسن ما اشتهر به رقيق الهند في هذا العصر فان ذلك لا يعني انه لم يكن يجيد صناعة اخرى بل المعروف عن اهل العصر "انه لا يوجد في العبيد اطبخ من السندي ." (2)

الرقيق المؤنث

وكانت الجواري الهنديات او السنديات يعتبرون من انفس اصناف الجواري وابدعهن جمالا (3) فكان الشراة يقبلون عليهن ويتخذونهن للمتعة وانجاب الولد ، ويصف لنا ابن بطلان بعض خصائص جمالهن فيلاحظ انهن ينفردن بدقة الخصر وطول الشعر واعتدال القوام وسمرة اللون ، ويقول ان الشيخوخة تسرع اليهن ، كما يشير هذا المؤلف الى الشبه الكبير بين الهنديات والسنديات لقرب المسافة بين بلديهما الاصليين . وهو يضيف الى هذين الصنفين الجواري الزرنجيات المجلوبات من "زرنج" احدى مدن الهند الواقعة على مسيرة شهرين من مدينة "الملتان" ويصف هذا الصنف من الاماء بطيب رائحة عرقهن حتى ليخاله المرء مسكا وبانهن صالحات للمتعة (4) .

كما يتحدث عن الجواري "المنصوريات" المنسوبات الى "المنصورة" وهي مدينة الملتان الواقعة بما وراء الهند وكذلك الجواري "القندهاريات"

1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ج 1 ص224ـ225
2) المصدر نفسه
3) ابن رستة ـ الاعلاق النفيسة ص 135
4) ابن بطلان ـ رسالة في شرى الرقيق ص 373ـ374

المنسوبات الى " قندهار " وهي مدينة صغيرة في ولاية بومباي. ويقول عنهن ان الثيب منهن تعود كالبكر (1)

وقد صار هذا الصنف من الجواري السود عنوانا للحسن والروعة حتى حيكت الاوصاف الاسطورية حوله . فقد روى ان احد ملوك الهند (2) قد اهدى الى الخليفة المامون العباسي جارية سندية طولها سبعة اذرع تسحب شعرها وراءها، حسنة البشرة، لها اربع ضفائر تعقد ضفيرتين على راسها تاجا وترسل ضفيرتين من خلفها فتبلغان الارض. ويبلغ طول كل شفر من اشفار عينيها الاصبع ويصل اذا اطرقت الى نصف خدها وكان بين شفتيها لمعان البرق من بياض اسنانها ولها نهدان وثماني عكن (3).

فنحن وان كنا لا نشك في وجود هذه الهدية وبلوغها الى المامون لما نعرفه من علاقات بين البلاط العباسي وبلاد الهند فاننا نعجب لهذا الوصف الذي لا يمكن ان يكون واقعيا وان كان ذلك على سبيل المبالغة. ويكفي ان نتامل فيه من زاوية الحقيقة والواقع لندرك ان مظهر هذه

1) المصدر نفسه ص 376 وما بعدها

2) يرى محمد حميد الله محقق كتاب " الذخائر والتحف" لابن الزبير ان ملك الهند هو " دهمي " حسب هذا المصدر ولكننا لا نعرف بعد هل هو ملك " بنغال " (شرقي باكستان) الذي اشار اليه سليمان التاجر والمسعودي وابن خرداذبه وغيرهم او هو ملك سومطرة (اندونيسيا) او ملك السند لانه اهدى جارية سندية ولان السند اقرب الى البصرة من بنغال وسومطرة ؟ (انظر الذخائر والتحف ـ هامش صفحة 25)

3) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ص 25

الجارية يبدو مخيفا وان كان صاحب الرواية يرمي الى ابراز جماله الرائع . وكل ما في الامر ان هذا الوصف قد بلغ حدود الاسطورة وصار من الاوصاف النموذجية التي تسند الى هذا الجنس من الجواري . ومما يدعم هذا الراي ، ان ابن الزبير يذكر نفس الاوصاف بالنسبة الى حادثة احرى وقعت في عهد قديم ، وتتمثل في اهداء احد ملوك الهند لجارية سندية الى كسرى ، وهي جارية تطابق نعوتها حرفيا صفات الجارية المهداة الى المامون (1) .

وعلى كل فان لهذا المذهب الذي ذهبت اليه تلك الروايات ما يبرره اذ هو يدعم ما عرف في ذلك العصر من جمال اشتهرت به الهنديات والسنديات من النساء (2) .

وقد عرف الاماء الهنديات ايضا بحسن الصوت وجودة الغناء والطرب فكانت القيان تتخذ منهن وتنفق سوقها في مجالس الخاصة وقصور الملوك والوزراء وقد اشتهرت منهن الكثيرات مثل "خمار القندهارية" التي روى لها صاحب الاغاني ما انشدت من ابيات ومنها :

اذا سرها امر وفيه مساءتي	قضيت لها فيما تريد على نفسي
وما مر يوم ارتجي فيه راحة	فاذكره الا بكيت على امس (3)

وينوه الجاحظ بجودة الصوت عند القيان السنديات فيقول "قالوا : ومن مفاخر الزنج حسن الخلق وجودة الصوت وانك لتجد ذلك في القيان اذا كن من بنات السند" (4)

1) المصدر نفسه ص 4
2) الادريسي - نزهة المشتاق - طبعة رومة 1970 - مجلد 1 ص 76
3) محمد اسماعيل الندوي - تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ص 46/ 47
4) الجاحظ - فخر السودان على البيضان - الرسائل ج 1 ص 224

الفصل الثاني

طرق المعاملات

1) . العـــــرض

كان باعة الرقيــق يتوخون اسلوبا معينا في العرض لبضاعتهــــم في الاسواق. ويتمثل هذا الاسلوب في ابراز البضاعــة للحرفــاء ابرازا يخــول لهم التامل فيها بوضوح. ولعل لهذا التصرف صلــة وثيقــة بتسميــة سوق الرقيــق بالمعرض في بعض الاقالـيم الاسلاميــة كالاندلس (1) ويختلف نمط العرض طبعا في السوق عنــه في المنازل الخاصــة حيث يباع افــراد من الرقيق لافراد من الشراة ، ففي السوق حيث يكثر الزبائن وتتعدد رؤوس الرقيق كان الباعــة يقيمون عبيدهم واماءهم على مصاطب مرتفعــة او منصات لتسهيل رؤيتهم. ومن هذا القبيل ما حدث عند بيع الجارية " عنان " جاريــة الناطفي بباب الكرخ اذ اقيمت على سرير حتى تبرز للناس بمــا فيــه الكفايــة (2) لكن عرض الرقيق في منزل خاص لم يكن يحوج اصحابــه الى هذا النمط من التصرف لانــه يقدم للمشتري في مجلس يحضره قليــل من الناس وتعرض خلالــه رؤوس معدودة.

وكان النخاسون في شتى الظروف يحرصون على عرض بضائعهــــم في احسن الصور حتى تروق لمقتنيها. وهم لا يشذون في ذلك عن ســائر التجار، فاذا عرضوا الجواري المرتفعات اي اللائي يقتنين لجمالهن وللتمتع

---

1) السقطي ـــ آداب الحسبة ـــ ص 48

2) الاصفهاني ـــ الاغاني ج 22ص 529 ـــ 530

بهن ، اجتهدوا في اظهار زينتهن وحملوهن على التبرج والبسوهن من الثياب ما يزيد في اناقتهن ويتلائم مع محاسنهن . وقد وصلوا في ذلك الى غاية الاتقان وكان لهم في عصرهم من فنون الزينة وادواتها ومساحيقها وضروب التزيق المبتكرة ، كاشكال اللباس وانماط حلاقة الشعور وتسريحها وصبغها ، ما ساعدهم على بلوغ هذه الغاية (1).

فمن عادتهم انهم كانوا يطلون اجساد الجواري بالورس لان العرب كانوا يميلون الى هذا اللون اي لون البشرة الضارب الى الصفرة وقد ورد وصف ذلك في الشعر العربي منذ القديم يقول قيس بن الخطيم

" صفراء اعجلها الشباب لذاتها   موسومة بالحسن غير قطوب" (2)

وقد ذكر الجاحظ هذا الطلاء في المحاسن والاضداد ، فروى ان الاصمعي كان يحادث الرشيد يوما فجرى ذكر احد اصحاب الرشيد وقد كان ناحل البدن كاسف البال فسأله الاصمعي عن سبب تغيره فقال : " قصدت بعض القرابة فألفيت عندهم جارية قد طلت بالورس بدنها . . . " (3)

1) زكية عمر العلي - التزيق ص87 ـ 88 ـ 89 ـ 90
2) قيس بن الخطيم - الديوان ص 17
3) زكية عمر العلي - التزيق - ص 89

ومن عاداتهم ايضا قص الطرر والاصداغ باشكال جذابة تتلاءم مع اذواق الناس اذاك وكانوا يصنعون للجارية شوارب خضرا يمدونها فوق شفتيها. وقد ورد وصف لها على السنة بعض الشعراء مثل قول ابي نواس

" اصداغهن معقربات والشوارب من عبير " (1)

والسبب في اتخاذ هذه الزينة مادرج عليه الجواري من تشبه بالغلمان حتى سمين بالغلاميات (2) ، وكان هنالك نوع آخر من الزينة يستعمله النخاسون في عرضهم للجواري وهو الكتابة على الوجوه والجباه والخدود وراحات الايدي والاكف والاقدام. وتشتمل تلك الكتابة عادة على ابيات من الغزل بالاضافة الى عبارات رقيقة اخرى واسماء لبعض الاشخاص والهدف من كل ذلك طبعا هو استمالة القلوب ولفت الانظار.وقد نقشت تلك الكتابة بمواد مختلفة منها المسك والبسك والعنبر والغالية والحناء ، وقد اورد صاحب كتاب الموشى امثلة عديدة من هذه العبارات والاشعار منها ما كتبته جارية عباس بن النديم على راحتيها بالمسك والعنبر فقد كتبت على يمناها

" قالوا تمن وقل فقلت لهم يا ليتها حظي من الدنيا "

وكتب على يسراها

" لا ابتغي سقيا السحاب لها في عبرتي خلف من السقيا " (3)

---

1) ابو نواس ــ الديوان ص 83

2) آدم متز- A-MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 134

3) زكية عمر العلي - التزيق ص 87ــ98

ومن العبارات التي كانوا يخطونها على الجباه : " العشق والكتمان ضدان لا يجتمعان " او " مما عمل في طراز الله فتنة لعباد الله " ، وقد روى الوشاء ما رآه على جبين جارية لنخاس عندما اخرجها للعرض فقال :

(قرأت على جبين جارية لنخاس بغالية وقد اخرجها للعرض :

وشادن احسن خلق الله	في كفه سيف رسول الله
قد كتب الحسن على وجهها	سطرين بالعنبر باسم الله
على يدي رضوان منسوجة	صنعة حسن في طراز الله
انا غريق في بحار الهوى	شبه قتيل في سبيل الله

واخبرني من رأى على جبين جارية نخاس مكتوبا في سطرين

اذا حجبت لم يكفك البدر فقدها	وتكفيك فقد البدر ان حجب البدر
وحسبك من خمر تفوتك ريقها	ووالله ما من ريقها حسبك الخمر) (9)

وكثيرة هي الروايات التي اوردها صاحب الموشى في وصف ما طرزت به اثواب الجواري من اشعار. وقد خصص البابين الثالث والعشرين والرابع والعشرين من كتابه لوصف زينة التكك والنعال والخفاف، والباب الخامس والعشرين لوصف الخواتيم والفصوص التي تتحلى بها الجارية، والباب السادس والعشرين للعطور والطيب ودورها في زينة هذا النوع من الرقيق. كما وصف لنا تدقيق الحواجب وترقيقها ومدها واحداث البلج بالافراج بين الحاجبين لانه من شروط الجمال وكذلك ازالة القرن وهو اتصال الحاجبين والزبب وهو كثرة الشعر في الحاجبين

---

1) الوشاء - الموشى - ص 239_241

والمعط وهو تساقط الشعر من بعض اجزاء الحاجبين ، ولا تقل العناية بالاسنان عن العناية بالحواجب فهي تجلّى بالاراك الذي تتخذ منه الجواري السواك (1) ، ونحن لا نشك في ان النخاسين قد استعملوا اغلب فنون التجميل المتعارفة في زمانهم حتى يعرضوا الجارية في شكل جذاب.

وقد وصفت لنا بعض النصوص طرقا من تفننهم في اختيار الاصباغ والالوان واحداث التناسب بينها في ذوق بديع. فمن وصاياهم لجواريهم (ان يصرفن العناية كلها الى النظافة والطيب والتبرج للمشتري ..... ومن ذلك ما يأخذونهن به في زينتهن شيئان وهما : ما يلزمونهن من تحمير خدودهن بالشاستج وغسل سواريهن بالحصر وخضاب حواجبهن بالرامك واطرافهن ، ان كانت الجارية بيضاء بالخضاب الاحمر وان كانت سوداء بالذهبي والاحمر ، وان كانت صفراء بالاسود) (2) ويعتنون ايضا بالملاءمة بين الوان البشرة والوان الثياب . فاذا كانت الجارية بيضاء البسوها الاكسية الحمراء او السود او الموردة ، وان كانت سوداء القوا عليها الاردية الصفراء او البيضاء المحشاة بالاحمر (3) وكانوا يهدفون بكل ذلك

---

1) كمال مصطفى ـ مقدمة الموشى ـ ص.كـ.ل ـ م
2) ابن بطلان ـ الرسالة ـ ص 383 ـ 384
3) السقطي ـ آداب الحسبة ص 48 ـ 49 ـ 50 ـ 51

الى استهواء القلوب واستدرار الجيوب ويستعملون اغراء الجارية لغايات تجارية حتى تجاوزوا بهذا الصنيع الحدود الشرعية،اذ نراهم يعرضون الاماء في الاسواق العامة في "غلائل" اي ثياب شفافة يرى كامل جسد الجارية من خلالها (1) ولا يبالون بزجر المحتسبين لهم على هذه العادة وبما ذكروهم به من احكام في هذا الصدد كقول بعضهم (من اراد شراء جارية جازله ان ينظر الى وجهها وكفيها) (2) فهمهم الوحيد هو عقد اكثر ما يمكن من صفقات واحراز اوفر الارباح. فلا غرو بعد هذا اذ روي عنهم انهم كانوا يوصون جواريهم باستمالة الحرفاء واظهار التمنع عليهم تارة والتقرب اليهم وملاطفتهم طورا لاثارة احاسيسهم حتى يسلس قيادهم فيدعوهم داعي الشهوة الى اقتناء من راق لهم منهن. يقول السقطي في ذلك: (ومن وصاياهم لهن ان يتبرجن ويختفين للمشتري تارة وتارة ويسلبن المبتاع والنافرين بطبائعهم عن النساء، ويتمشين على الثياب ويكسرن لهم ويتمنعن عليهم فان في ذلك هلاكا للقلوب. ويلبسون الجواري البيض الالوان من الثياب الشفافة والموردة ويلبسون السود الغلائل الحمر والصفر) (3) ويصف ابن بطلان هذا السلوك بنفس العبارات حين يقول (ومن وصاياهم ان يدارين المشائخ والنافري الطباع ويستميلونهم ويتجنون على الشباب ويتمنعون عليهم ليتمكنوا من قلوبهم) (4)

---

1) المصدر نفسه -
2) ابن الاخوة- معالم القربة- 152 — 153
3) السقطي- اداب الحسبة- ص 50—51
4) ابن بطلان — الرسالة — 383—384

ولسنا في حاجة الى التذكير بما تؤول اليه اسواق الرقيق بموجب هذا التصرف من تحد للاخلاق العامة و مجاهرة بالمجون والخلاعة ، وكأن التجار لم يكتفوا بهذا الاعتداء على القيم حتى راحوا يستعملون كل انواع الحيل والخديعة للتدليس على المشترين باخفاء عيوب بضاعتهم كي يتمكنوا من بيعها بالاثمان المرتفعة.

٤) الغش والتدليس

لم يسلم تجار الرقيق كغيرهم من التجار من آفة الغش والتدليس في البضاعة التي يعرضونها في الاسواق. وقد صارت معاملاتهم وبضائعهم تلك مناطا لاهتمام المحتسبين واستهدفت لمراقبتهم، كما خصصوا لها في كتبهم فصولا تدل على حيل النخاسين وخدعهم وتشهد على استفحال الغرر في بيوعاتهم. وقد كانت هذه الظاهرة من اهم الدوافع التي حملت الطبيب النصراني ابن بطلان على وضع " رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد " (1) نبه فيها الغافلين عن مواطن الدلس فيما يقتنونه من رقيق، وافرد بابا منها هو الباب الخامس للكشف عن حيل النخاسين ولفت انتباه الشراة الى الوسائل الكفيلة بالتحرز من مغالطات الباعة ، وقريب من ذلك ايضا ما ادرجه السقطي في رسالته " آداب الحسبة " (2) وابن الاخوة في " معالم القربة في احكام الحسبة "(3) والشيزري في " نهاية الرتبة في طلب الحسبة " (4) وغيرهم ممن مارسوا الاحتساب والفوا فيه .

---

1) ابن بطلان ــ رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد - تحقيق عبد السلام هارون نوادر المخطوطات - المجموعة عدد 4 الطبعة الاولى ــ القاهرة 1954

2) السقطي ــ آدب الحسبة - نشره - بروفنسال وكولن - G S Colin - E.L.Provençal - ط - باريس 1931

3) ابن الاخوة - معالم القربة - نشره - روبن - Reuben-Levy - مطبعة دار الفنون - كمبردج - 1937

4) الشيزري ــ نهاية الرتبة في طلب الحسبة - ط - دار الثقافة - بيروت - د.ت

وان المطالع لهذه الاثار ليشعر بان ظاهرة الغش قد كانت اكثر انتشارا في مجال بيع الرقيق منها في المجالات التجارية الاخرى لطبيعة البضاعة المعروضة ، فقد كانت السوق قاسية وكان البائع يحاول التخلص مما بيده بكل وسيلة (1) وكانت غاية اهل السوق اغتنام الفرص للحصول على اوفر الارباح ، ولذلك نراهم يسعون الى تحسين البضاعة وتزيينها في عين المشتري حتى قال احدهم " ربع درهم حناء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضة " (2) كما ان البضاعة كانت خلابة خصوصا اذا تعلق الامر بالجواري القادرات على الاغراء ، وهنا تتدخل الشهوة لتوقع المشتري في الفخ ، وكان المتحيلون يجدون مرتعا لحيلهم في الاسواق الموسمية خاصة . ففي المواسم يكثر اقبال الشراة وتكثر البضائع المعروضة ويختلط الحابل بالنابل ويمسي الجو ملائما للدلالين والسماسرة كي يطلقوا العنان لمواهبهم وقرائحهم ويبذلوا ما في طاقتهم لترويج البضاعة وتنفيقها (3) ولذلك ينصح المحتسبون باجتناب شراء الرقيق في المواسم (4) .

1) راجع - عبد السلام هارون - تحقيق رسالة ابن بطلان ص 342_349
2) ابن بطلان - الرسالة ص 356
3) المصدر نفسه
4) المصدر نفسه

واذا ما اتيح للحريف ان يرد البضاعة بالعيب في الاسواق اليومية او في الصفقات المباشرة بين الافراد من بائع ومشترومحق من الحقوق التجارية التي تخولها له الاحكام الفقهية فاننا نستبعد ان يكون قادرا على ممارسة هذا الحق فيشرائها من السوق الموسمية. ذلك ان اغلب الروايات التي تصف لنا صفقات من هذا النوع تدل على ان اصحابها قد وقعوا ضحية التحيل والغش ولم يمكنهم ارجاع ما بايديهم. فبانقضاء تلك السوق تنتهي الصفقات ويذهب البائع والمشتري كل في سبيل حاله كأنما كانت المعاملات في هذه المناسبة قائمة على الصيغة القانونية الفقهية المعروفة بالبراءة من العيب او ما يسمى ببيع البراءة. وقد اكد لنا القزويني في عهد متاخر ان هذه السوق يقصدها الناس من الاصقاع البعيدة وليس لهم الحق في رد ما اشتروه من رقيق (1) وقد يكون الغش احيانا لاسباب غير تجارية كدس غلام او جارية في السوق للتجسس على من يشتريها من الوجهاء ورجال الحكم وقد تسبب هذا الدس حسب قول ابن بطلان في هلاك كثير من الملوك والرؤساء (2).

1) القزويني - آثار البلاد واخبار العباد - طبعة بيروت 1960
2) ابن بطلان — الرسالة — ص 357

أ- الغش في الالوان

يتناول الغش تغيير لون البشرة فتقلب درية اللون بيضاء باستعمال غبرة تصنع من باقلاء تقع في ماء البطيخ ستة ايام ثم في لبن حليب سبعة ايام ويحرك اللبن في كل يوم ويطلى به وجه الجارية فتصبح بيضاء. ويتغير لون السمراء فيصير ذهبيا وذلك بغمسها في ماء الكرويا لمدة اربع ساعات ، اما السودان فتدهن وجوههم واطرافهم بدهن البنفسج والطيب فتحسن بذلك الطلاء. ويسعى النخاسون الى تحمير خدود الجارية بغاسول يتركب من خمسة اجزاء من دقيق الباقلاء والكرسنة ومن عروق الزعفران وبورق وحناء من كل واحد ربع جزء. ويعمدون ايضا الى تسويد الشعر بدهن الآس ودهن قشر الجوز الرطب ودهن الشقائق ويغسل من ذلك بطبيخ الاملج. كما يجعدون الشعور بالسدر والآس والزادرخت . ويسعون كذلك الى تحسين مظهر الجارية بتنقية بدنها من الشعر بالنورة ثم ببيض النمل او بدهن قد طبخ فيه ضفادع خضراء اوعظاية او مرارة الارنب ثم يغسل بالشب والبورق والعفص، اما النمش والوشم فيغشونه بغاسول مصنوع من عروق القصب واللوز المر والكرسنة والباقلاء وحب البطيخ معجونا بالعسل

اما الاسنان فيجلونها بالسواك والاشنان والسكر وسحيق الصيني او الفحم او الملح المدقوق ويصيرون العين الزرقاء كحلاء بان يقطر فيها ماء قشر الرمان الحلو (1).

والملاحظ ان هذه العمليات لا يمكن ان نعتبرها جميعا من باب الغش والتدليس الا اذا نظرنا اليها بمنظار فقهي ديني متشدد اذ فيها مايمكن ان نلتمس فيه العذر لهؤلاء التجار اذا راعينا ظروف مهنتهم وذلك لانهم كغيرهم من التجار يسعون الى اظهار بضاعتهم في اليق مظاهرها عند العرض حتى تنفق سوقها. فلا نرى مثلا ضيرا اوغشا في جلاء الاسنان وتنقية البدن من الشعر اذ هي وسائل لا غش فيها وانما يقصد من ورائها الترغيب في اقتناء البضاعة وهي عادة تجارية طبيعية في كل زمان ومكان . لكن هؤلاء النخاسين كثيرا ما يتجاوزون هذه الحدود المعقولة الى ضرب من التزييف كجعلهم الشعور الشقر حالكة السواد والسبطة جعدة واطالة الشعر القصير بشعر من جنسه (2).

---

1) السقطي- آداب الحسبة-ص 50-51

2) ابن بطلان - الرسالة - ص 379 - 382

ب-تغيير الروائح الكريهة

ويعمد النخاسون الى تغيير الروائح الكريهة في رقيقهم بوسيلتين:

الاولى هي حرصهم على نظافة الرقيق ليكون مقبولا عند العرض وهي وسيلة لا نعتبرها من الغش وانما هي اتقان للمهنة واجادة للعرض فيغسلون الابدان مثلا خوف القمل بالبورق وماء السلق ودردي الشراب والصابون ، وهي وسائل كان معمولا بها في اسواق الاندلس. ومنها ازالتهم لروائح الانف الكريهة بسعوط من دهن المرزنجوش والبنفسج والنيلوفر والياسمين، وتطييبهم للجسد بالصندل والورد والمرتك المربّى بماء الورد والبخورات، والثياب بالذرور المطيبة (1) والثانية هي تجاوزهم هذا الحد الطبيعي من اعداد الجارية اعدادا لائقا للبيع الى محاولة الغش والتدليس باخفاء بعض الروائح الكريهة الملازمة لافراد من الرقيق مثل الصنان الذي يخفونه (بان يأخذوا مردا سنجا مبيضا ويعجن بماء الورد ، ويتخذ اقراصا وتدفن في الورد حتى تجف وترفع الى وقت الاستعمال . ويستعملون لذلك ايضا التوتية المغسولة مدقوقة منخولة بماء وملح ثم بماء ورد وكافور وتتخذ ذرورا وتستعمل . ويصنعون لذلك ايضا اقراصا من ورد احمر ومسك وسنبل وسعدى وشب وتستعمل عند الحاجة بماء الورد)(2) .

---

1) السقطي ـ آداب الحسبة ص 50ـ51 ابن بطلان ـ الرسالة ص 379ـ382
2) المصدر نفسه .

ومن هذا القبيل اخفاؤهم للبخر في فم الجارية بمضغ " العود الرطب والكزبرة والفول وقشر الاترج " وتقطع الروائح من الفم كذلك باقراص تصنع من مواد مختلفة هذا تفصيلها (بسباسة ـ منّ ـ سعدى جناح ـ ماء ـ ورد ـ قرنفل ـ من كل واحد جزء وصمغ عربي جزءان يحلّ الصمغ بماء الورد وتلقى الاجزاء المذكورة فيه مسحوقة منخولة ويتخذ حبوبا كحب السعال وتجفف وتمسك في الفم واحدة بعد واحدة وقد نظم ذلك لكي لا يضيع :

منّ وبسباسة وسعدى ... الى جناح وماء ورد
يلفها الصمغ ان تلاه ... قرنفل الهند نظم عقد
اجزاؤها كلها سواء ... والصمغ جزءان لا تعدّ
فيها لذي خفة امان ... اكرام نفس وردّ صدّ) (1)

ج- ستر العيوب والعاهات :

ومن قبيل تضليل المشتري والتمويه عليه حرص النخاسين على اخفاء عيوب الرقيق وعاهاته بشكل مؤقت ريثما يتم بيعه حتى اذا بيع اكتشف المشتري انه خدع واتلف ماله ، فاذا كان بالرقيق برص مثلا فانهم (يغرزون في مواضع البرص بالابرة ويخضبون عليه القلقديس والعفص والزنجار من كل واحد جزءا معجونا بماء ولبن التين اربعة ايام في

---

1) المصدر نفسه .

الشمس فيبقى مصبوغا اربعين يوما. ويغسلون ذلك الخضاب بخل واشنان مغلى او بماء القلي)(1). ويصنعون قريبا من ذلك بالكلف الذي يصيب البدن اذ يزيلونه (بمعجون الشونيز واصل قثاء الحمار وورق الخبازى وبزر الجرجير واصل الكرم والعسل) (2) .

ويخفون ما يصيب سواد العين من بياض بان يقطر فيها لبن اتان حار (3) ويزيلون الشعث من اصول الاظفار بالخل والعسل والمرتق وبدهن الورد واللوز المر (4) وينعّمون الاطراف الخشنة بالدهن والشمع واللوز ولخلخة بماء الورد ودهن البنفسج (5) واذا كان الرقيق يشكو هزالا سمنوا اعضاءه الهزيلة بالدلك بالمناديل الخشنة والادهان الحارة(6) وقد يصل الامر احيانا الى استعمال وسائل لا تخلو من تعذيب لستر بعض علامات المظاهر الجلدية كالبرص مثلا. وذلك ان النخاسين يعمدون الى كي الرقيق المريض لاخفاء اثار العاهة او يتوخون طريقة اخرى هي الوشم (7).

---

1) السقطي ـ آداب الحسبة - ص 50ـ51
2) المصدر نفسه ـ ابن بطلان - الرسالة ص 379 ـ 382
3) المصدر نفسه
4) المصدر نفسه
5) المصدر نفسه
6) المصدر نفسه
7) السقطي ـ آداب الحسبة ص 52

د- الخلط بين الاصناف :

ولم يقتصر النخاسون في غشهم وتدليسهم على تغيير الالوان والروائح وستر العيوب والعاهات بل تجاوزوا هذا الحد الى تزييف نوع الرقيق وجعل الرديء منه في مظهر الجيد. فكانوا يبيعون الثيب على انها بكر وذلك بان يستعملوا (في الثيّب قلوب الرمان الحامض والعفص معجونين بمرارة البقر ويحتملنه فيصرن كالبكر) (1) كما كانوا يبيعون الحامل مع اخفاء حملها والايهام بحيض مصطنع ودم كاذب يصنعونه (من الصمغ ودم الاخوين ان لم يمكن اخذ دم الحيوان)(2) ويوصون الجارية بان تستعمل الشداد لتخفي الحمل وتوهم بالحيض (3) وسبب هذا الغش هو الاستزادة في الربح لان الحمل عيب في الجارية، وبراءة رحمها تزيد في قيمتها ، ومن هذا القبيل بيع الجواري في شكل غلمان والغلمان في شكل جواري (4)

هـ- الخلط بين الاحرار والارقاء :

ومن غرائب الامور ان النخاسين قد تجاوزوا في غشهم وتدليسهم تغيير الالوان والاشكال والروائح والخلط بين اصناف الرقيق، الى نوع آخر من الغش هو بيع الاحرار في صورة رقيق. فكان لهم نسوة حرائر يجيدون

---

1) السقطي ــ آداب الحسبة. ص ابن بطلان الرسالة ص 379 ــ 382
2) المصدر نفسه
3) المصدر نفسه ص 383
4) المصدر نفسه ص 355 ــ 356 ــ القزويني ـ آثار البلاد واخبار العباد ـ ص 531

اللغات الاعجمية والتشبه باخلاق الرقيق المجلوب من بلاد الروم فيبيعونهن على انهن جوار روميات ويغلون في اثمانهن، ثم يقتسمون تلك الاثمان معهن لانهن شريكات لهم في هذا التحيل. ويكون البيع عادة لغرباء عن البلد الذي تتم فيه الصفقة. فاذا نقل المشتري الجارية الى بلاده طلبت منه العتق ثم الزواج، فان لم يتم لها ذلك اعلنت انها حرة واحتكمت في ذلك الى حاكم البلد، وراح المشتري باحثا عن البائع ليسترجع ماله، فيدعي النخاس انه غير عارف بمكانه واليك هذا المثال الذي يرويه السقطي حول هذا الضرب من الغش يقول: (ومن خدعهم المشهورة وحيلهم المذكورة ان لهم نساء شاطرات ذوات حسن فائق وجمال رائق يحكمن اللسان الاعجمي والزي الرومي، فاذا وقع لهم من غير بلدهم من يطلب جارية حسناء قريبة العهد بالجلب من بلاد الروم يعده بقرب وجودها ويطمعه بتاتي قصده فيها ويسوفه في امرها ويشوقه اليها، حتى يحضرها له على انها نضو سفر وحديثة عهد بالجلب. وقد اعد لنفسه مشاركا في حالها يزعم انه مالك رقها و مستوجب حقها اشتراها بالثغر الاعلى واغلى في ثمنها اغتباطا بحدث جلبها وقصد الاغراب بها. فاذا اكملا بيعها اقتسما معها ثمنها وخرج مشتريها بها الى موضع استيطانه . فاذا رات منه ما ترضاه اغتبطت بمكانها منه

وطلب منه ان يعتقها ويتزوجها. وان كان غير ذلك صرحت بالحرية واظهرت عند حاكم البلد التي تكون فيه (كذا) من عقود مسترعاتها وغيرها ما يوجب حريتها. وينصرف المذكور بعقد اشترائه اياها وما حكم عليه به في حقها ليرجع بثمنها على بائعها. فينكر النخاس ان يكون يعرف لبائعها مستقرا ويقول " كان معلوم العين كثير التجارة والجلب للخدم الروميات وغيرهن في فيخفق سعي المذكور ويخسر ماله) (1)

وقد روى لنا السقطي حادثة جرت لرجل من اهل البيرة بالاندلس في شرائه لجارية بمدينة قرطبة. ووصف لنا ما تعرض له المشتري من غش، اذ بيعت له انها اعجمية لا عهد لها بمخالطة الناس فاذا به يكتشف انها متقنة للسان العربي وانها من ربات الفجور. وهذا نص الرواية (اتفق لرجل من اهل مدينة البيرة حلف على ترك التزويج بالاندلس يمينا لم يجد لها مخرجا. فتوجه الى قرطبة وهي اذاك حضرة الاندلس دار الملك وقاعدة العلم، واشترى بها جارية لم يكن يرى الراؤون مثلها بهجة وجمالا، واركبها بغلة له وأوطأها ثوب ديباج والبسها ثوب حرير طرازيّا

---

1) السقطي ـــ آداب الحسبة ص 51

كانت نساء ملوك الاعاجم اذاك تلبسه . وهي لا تُفهم عجمتها الا بواسطة ،
تُعرَف من ترجمتها ارادتُها . وسار بها وغلامه يزجي بغلتها لا تعلو نشزا
ولا وعرا ولا تشتط واديا ولا وهدا الا ويزداد فرحا بها وسرورا بحالها ،
لما يرى من تعجبها مما تراه بالطريق من رفع وخفض وطول وعرض ، حتى
وصل بلده ، واحتاط لدخولها بالنهار ، وانزلها جنة له خارج المدينة الى
ان انسدل جنح الظلام . فادخلها المدينة وقد نهض بفرسه من امامها
يقصد داره المعدة لنزولها ومقامها . وكان بربضها رجل قفاص كانت له
خلطة مشهورة وفتكات مذكورة الى ان تاب وكبر سنه ، وصار مفردا يسكن
حانوته . ولانفراده في مسكنه وضيعة حاله ووطنه ، كان كثيرا ما يسهر
لضوء السراج داخل الحانوت او القمر خارجه . ولحين ما راته حملتها
عادتها معه على الطنزية والتوقيح معه الى ان قالت له " الشيخ السوء
يعيش ! " فرفع راسه اليها وقال لها : " فلانة أو قد جيت ! " وسمع
الغلام ذلك فعجب من فصاحة لسانها وبرع كلامها . ولما وصلوا الى الدار
اخبر مولاه بما اتفق ، فسقط في يده ، واشفق من تلاف ماله وخسارة صفقته .
ووجه من اهل مودته الى القفاص يساله فقال : " وهي الا فلانة الشاطرة
خديئة الخُلطيّين وصاحبة الفُتّاك المنقطعين ! " ولما تقرر ذلك لديه

عظم الامر عليــه ، وجعل يرتاد كيف التخلص منها والزوال عنها . وعندمــا شعرت بما ثبت لديه من امرها ، وتقرر عنده من عادتها وفجورها ، قالت له : " لا عليك مما نُهي اليك ! ان كنت تخاف على مالك احملني الى المريـــة تاخذ الزائد على ماوزنت ! " وكانت المرية اذاك محط السفن ودار التجار والمسافرين ، فاعتمد مقالتها ، ولزمت زيها وحالها ، حتى ورد بها المرية وباعها بازيد مما دفعه ثمنا فيها . ولولا براعة رأيها وكمال حسدها في حالـــتي مسراها ومثواها ، كان المسكين قد خسر ، واعتاض بالايمن من الخطر) (1).

وما كان يفعل مع الجواري في هذا الباب كان يستعمل في بيع الغلمان ايضا . فيتفقون معهم على اقتسام اثمانهم ثم يفرون من مشتريهـم الى بلد آخر حيث يباعون من جديد ، وهكذا دواليك . وكثيرا ما يتـــفـــق النخاسون فيما بينهم على احكام طرق الغش ، ويتواطؤون عليها لتوفير الارباح ومن امثلة ذلك (ان يشتري احدهم من صاحبه بربح يقتسمونه بينهم ، ثم يبيعون ذلك المشترى مرابحة من اجنبي بربح زائد يقتسمونه ايضا بينهـم ويزينون ذلك لمشتريــه ، ويصفون بائعه بالاضطرار الى بيعه ، وانه لولا ذلك لم يكن امر يلحقه اليه لاغتباط مالكه به ، وذلك كله غش ودلس) (2)

1) المصدر نفســه ص 51ــ52
2) المصدر نفســه

و- تزييف الخلق والسلوك :

ويتناول الغش كذلك اخلاق الرقيق وسلوكه . فيوصي النخاس الجارية بتوخي سلوك خاص عند العرض مع الشيوخ ونافري الطباع من الناس.وباتخاذ ضرب آخر من التصرف مع الشباب المقبلين على النساء وذلك بان يتلطفن مع النافرين لتاليف قلوبهم ، وان يتمنعن عن الراغبين للزيادة في رغبتهم وشوقهم، وان يظهرن من الدلال ما تبرز معه فتنتهن واغراؤهن يقول ابن بطلان في ذلك (من وصاياهم لهن ان يصرفن العناية كلها الى النظافة والطيب والتبرج للمشتري تارة ،والاختفاء اخرى.فان هذا باب من التحبب مالك القلوب.ومن وصاياهم لهن ان يظهرن اجمل ما فيهن ويخفين اقبح ما فيهن.ومن وصاياهم ان يدارين المشايخ والنافري الطباع ويستميلونهم ويتجنون على الشباب ويتمنعون عليهم (كذا) ليتمكنوا (كذا) من قلوبهم) (1).

وهكذا يساهم الرقيق نفسه في التدليس والخداع ،وتشترك البضاعة مع بائعها في التمويه على المشتري ، لان هذه البضاعة آدمية وبذلك يصبح الغش في هذه التجارة اكثر منه في التجارات الاخرى ، وقد

1) ابن بطلان ــ الرسالة ــ ص 383 ــ 384

وصف لنا الجاحظ ، تحيل القينة الراغبة في بيع نفسها من احد الشراة. فكشف لنا ما كانت تستعمله من وسائل لتحقيق غايتها خصوصا اذا كانت عاشقة لذلك المشتري يقول: (وربما قادها التمويه الى التصحيح وربما شاركت صاحبها في البلوى، حتى تاتي الى بيته فتمكنه من القبلة فما فوقها، وتفرشه نفسها ان استحل ذلك منها. وربما جحدت الصناعة لترخص عليه ، واظهرت العلة والتاثت على الموالي ، واستباعت من السادة ، وادعت الحرية احتيالا لان يملكها واشفاقا ان يجتاحه كثرة ثمنها، ولا سيما اذا صادفته حلو الشمائل رشيق الاشارة عذب اللفظ دقيق الفهم لطيف الحس خفيف الروح) (1) .

ولهذا السبب نجد ابن بطلان يوصي الشراة بان يتجردوا من الشهوة عند اختيار جارية او غلام من الاسواق، لانها توقع في الخطأ ولان المحتاج — حسب قوله — لا يرى عيب حاجته ، فلا بد له من الاستغناء عنها ليعرف قيمتها الحقيقية. اي ان يحاول النظر الموضوعي الى البضاعة، بالتخلي عن ميوله وعواطفه. كما ينبه هذا المؤلف المقلب للجارية بان لا يثق باول نظرة اليها، لانها سحارة خداعة

---

1) الجاحظ — كتاب القيان — رسائل الجاحظ - ج 2 ص 174

وان عليه ان يكرر النظر.فكل جديد يبدو لذيذا لاول وهلة وان لم يكن كذلك في الحقيقة والواقع.فالعاقل من اتهم نظره فيما استحسنه وارتاب فيما اطمأن اليه ، واساء الظن بمن وثق به ،وهو يحذر ايضا من التاثر باول كلمة تقولها الجارية او يتلفظ بها الغلام ،اذ قد تكون تلك الكلمة نتيجة الصدفة ولا تدل على رجاحة عقل او سلامة طوية وربما كان وراءها مقابح مستورة (1) .

وعديدة هي العيوب الخلقية التي يسترها باعة الرقيق مثل عهر الجارية اوسرقة العبد ،وهي خصال لا يمكن للمشتري الاطلاع عليها ويوكل الامر فيها الى صدق نية التاجر وصراحته.لكن تهافت هذا النوع من التجار على الربح الوفير والسريع قد انساهم الصدق والصراحة وجعلهم يدلسون حتى مهنة الرقيق واختصاصه .فممايذكر عنهم انهم كانوا يسودون انامل العبد بالمداد حتى يظن المشتري انه قادر على الكتابة فيدفع فيه الثمن المرتفع (2) .

فقد شمل الغش اذن ميادين مختلفة لخصها ابن بطلان في

---

1) ابن بطلان ـ الرسالة ـ ص 353 و ص 357
2) ابن قدامة ـ المغني - ج - ٤ - ص ١٤١-١٤٢

قولة نقلها عن القدماء هذا نصها (قالوا : كن على حذر من شري الرقيق في المواسم، ففي مثل تلك الاسواق يتم للنخاسين الحيل. فكم من قضيفة بيعت بخصبة وسمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة وممسوح العجز بثقيل الروادف وبطين بمجدول الحشا وابخر الفم بطيب النكهة. وكم صفروا البياض الحادث عن القروح في العين، والبرص والبهق في الجلد وجعلوا العين الزرقاء كحلاء. وكم من مرة حمروا الخدود المصفرة وسمنوا الوجوه المقعقعة، وكبروا الفقاح الهزيلة، واعدموا الخدود شعر اللحى واكسوا الشعور الشقر حالك السواد، وجعدوا الشعور السبطة وبيضوا الوجوه المسمرة، ودملجوا السيقان المعرقة، ورطلوا الشعور الممرطة واذهبوا آثار الجدري والوشم والنمش والحكة .... وكم من مريض بيع بالصحيح وغلام بجارية. هذا زائد على ما يوصون به الجواري من دل ومجانة على مسافرين شباب قد احل لهم لحم الميتة، سوى ما يفعلنه من من زينتهن بالخضاب والحناء والملابس المصبغة الناعمة • سمعنا بعض النخاسين يقول : " ربع درهم حناء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضة ")(1)

ولم تكن الاجراءات القانونية من رد للرقيق المشتري بالعيب واقرار لبيع الخيار الذي اكد عليه الفقهاء، لتحد من ضرر هذا الغش دائما لاسباب كثيرة منها ما ذكرناه في بداية هذا الفصل، من ان الرقيق قد يشترى من معارض موسمية في اصقاع بعيدة يتعذر على المشتري منها التمسك بذلك الحق. ومنها ايضا تفاقم هذا الدلس مما لا يمكن معه الهروع الى القضاء في كل مناسبة.

---

1) ابن بطلان ــ الرسالة ــ ص 355 ــ 356

3) وسائل كشف الغش

ومن الطبيعي ان يؤدي انتشار الغش في سوق الرقيق واشتهار النخاسة بالتدليس، الى نوع من الاحتياط من قبل جمهور الحرفاء والمشترين والى اهتمام بطرق التمييز بين الزيف والحقيقة في البضاعة التي يريدون اقتناءها. وهكذا كانت تروج في تلك الاوساط اساليب يتداولها الناس ويخبرون بها بعضهم بعضا، وهي تهدف الى حماية المشتري من الانخداع. وما نجده في كتب المحتسبين من نصائح ووصايا تتعلق بهداية مشتري الرقيق وتنبيهه هو صدى لما كان يروج بين الناس في هذا المجال، وان كان يمثل احسن ما وقع الاهتداء اليه، وما صدقته التجارب من تلك الاساليب المستعملة. فمن الطرق التي ينصح بها المحتسب المشتري للتمييز بين الحامل وغير الحامل مثلا، ما ذكره السقطي من ان حمل المرأة يختبر (بان يوضع تحتها بخور او عنبر ويمنع ان يخرج من اردانها او على ثيابها. فان ظهرت الرائحة على فيها فهي حامل. وان لم تظهر فليست بحامل. وقيل امر عجيب ان صح ولا اعلم كيف ذلك، وهو ان يقدر بخيط من وسط سرة المرأة الى وسط الفقارة المحاذية لها من ظهرها، ويعلم المكان بمداد، ويدار القياس الى الجانب الثاني من الموضع الى الموضع فان نقص الخيط من الجانب الايمن عن العلامة فهي حامل بذكر وان طال فهي

حامل بانثى والله اعلم بذلك) (1) وينصح بان بطلان بالتاكد من براءة الجواري من الحبل قبل الشراء والتفطن الى تحيلهن لاخفائه بوضع خرق في فروجهن ملطخة بالدماء. ويوصي بتكليف امراة صالحة صادقة بتفقد ثدي الجارية وجس حشاها (2) ثم يقترح طريقة لكشف التدليس في هذه الحالة هي نفس ما اقترحه السقطي في هذه النقطة. يقول (ومعرفة ذلك يتم بان يوضع تحت المرأة بخور كالعنبر ونحوه ويمنع خروجه من اردانها او فرج اثوابها فان ظهرت الرائحة من فيها فليست حاملا . وبالضد........ وهذا يتبين في الذكر من سرعة الحامل واشراق لونها، وان يقدر بخيط من وسط السرة الى وسط الفقارة المحاذية لها من احد الجوانب ويعلم المكان بمداد، وتديره الى الجانب الاخر فان نقص الخيط عن العلامة من الجانب الايمن فهي حامل بذكر وان طال فبأنثى) (3).

وثمة وسائل يقع بها كشف العيوب في الرقيق ويعرفها المحتسبون عادة ويخبرون بها المشترين حتى لا يقعوا في الغرر وهي

1) السقطي — آداب الحسبة-ص 50—51
2) ابن بطلان — الرسالة — ص 358
3) السقطي — آداب الحسبة -ص 51- 52

في اغلبها مستمدة من سجل الكشوف الطبية .وتشتمل على علامات جملة من الامراض الشائعة،كامراض الكبد والطحال والمعدة وخاصة الامراض البارزة العلامات كالامراض الجلدية، مثل البهق والقوباء.ويحتاط ايضا من التدليس باختفاء هذه العلامات بالوشم او الكي الذين يخفى بهما البرص.فينصح المحتسب بادخال الجارية او العبد الى الحمام، حتى يدلك الوشم والكي ليختبر ان كان حقيقيا او اريد به اخفاء عاهة جلدية. ومن احسن النصوص وصفا لهذه التحريات هذه الفقرة التي ننتخبها من كتاب آداب الحسبة للسقطي والتي يقول فيها ما يلي :

(ويؤخذون (اي النخاسون) بتفقد الوان العبيد فان كان اللون حائلا يدل على علة في الكبد او الطيحال او المعدة او البواسير يرزف منها الدم. ويتفقدون ايضا مواضع البهق من ابدانهم،فان لونه في الابتداء ابيض واسود . وكذلك القوباء فانها خشونة تظهر في الموضع ثم تكبر وتنمي وان كان في موضع من المملوك ما يشبه الشامة والوشم او اثر جرج برء او كي، فيبحث عليه، ويدخل الحمام ويغسل بالماء الحار والبورق والخل ثم يتفقد بعد ذلك.فان كان كيا او وشما ظهر من حينه ، وذلك حذرا من ان يكون ابرص قد كوي عليه ، او وشم وصبغ عليه بذلك،لانه يخاف ظهوره مع تطاول الايام واتساع البرص عن موضع الكي والصباغ) (1).

---

1) المصدر نفسه - ص 383 ـ 384

وما من شك في ان المحتسبين هم اعلم الناس بهذه الكشوف ،
وان المقتنين للرقيق لا يتاح لهم العلم بكل ذلك الا اذا كانوا من ذوي
الاختصاص . وبذلك تتضح لنا رسالة المحتسب المفيدة في هذا الميدان.
ولا يخفى ايضا ان المحتسب في حاجة الى مستوى معين في هذا المجال،
ليتمكن من القيام بدوره احسن قيام. ويبدو ان كلا من النخاس والمحتسب
يشتركان في العلم بهذه الامور بحكم ممارستهما لهذا الاختصاص وملازمتهما
للاسواق. وقد يعمد ايضا الى تحليف النخاس حتى لا يخفي عيبا علمه.
وينصح المحتسبون بوجوب اعتماد هذه الطريقة. ويشير السقطي الى ان
من واجب المحتسب تحليف النخاسين حتى لا يقترفوا الغش فيقول (ويحلفون
بايمان مغلظة عليه ان لا يكتموا عيبا دقيقا ولا جليلا، ولا يخفون مما
يطلعهم البحث عليه، والعلم منهم به كثيرا ولا قليلا. ويحرص في ذلك كله
على ان لا يستعمل للمسلمين الا الخيار، ولا يقلّد في امورهم الا الثقات
الابرار) (1)

---

1) السقطي ـ آداب الحسبة- ص 52

4) التقليب

وكان تقليب الرقيق عند شرائه عادة متبعة في الاسواق وملازمة لهذه التجارة منذ اقدم العصور. وذلك لان الرقيق بضاعة كسائر البضائع يحرص مشتريها على انتقاء الجيد منها، قبل ان يدفع فيها الثمن. وقد نقل ابن بطلان بعض المناهج في تقليب العبيد عن "معلم الاسكندر" وهو ارسطو استاذ اسكندر بن فيليبس ملك مقدونية(1) وفي هذا ما يدل على قدم هذه السنة في تجارة الرقيق. ولسنا هنا في حاجة الى تقديم شواهد على وجودها عند امم اخرى، لان طبيعة المعاملات التجارية تستوجبها. ونكتفي بان نقول بان العرب المسلمين قد كانوا يقلبون الامة او العبد ويفحصونهما قبل اتمام الصفقة. وكانوا يسمون هذا التصرف تقليبا، او اعتراضا، او عرضا. فيقال اعترض الجارية او عرضها قبل الشراء بمعنى قلبها (2) وقد ورد في كتاب الاغاني عبارات بهذا المعنى مثل قول المؤلف نقلا عن بعض الروايات " والله لكأنها تعرض عبدا تشتريه " (3) او قوله عن عبد الله بن محمد الامين انه "يعترض جارية مغنية لبعض نساء بني هاشم فزادت عليه في السوم"(4)

---

1) عبد السلام هارون ـ مقدمة رسالة ابن بطلان ـ ص348ـ349 وخطبة الرسالة
2) الاصفهاني-الاغاني- ج 17 ص 13
3) المصدر نفسه ج 3 ص 11
4) المصدر نفسه ج 10 ص 210

ويعتبر تعدد انواع البضاعة وتنوع اجناسها، وما يحدث فيها من غش ويعتريها من عيوب، او يطرأ عليها من امراض، من اهم الدواعي التي تحوج المشتري الى التقليب، كما ظهرت تآليف في هذا الموضوع تشهد باهميته بالنسبة لتجارة الرقيق في كل الازمنة والعصور، من اشهرها رسالة ابن بطلان في "تقليب العبيد" (1) وكذلك رسالة محمد الغزالي احد مؤلفي القرن الحادي عشر للهجرة وهي بعنوان "هداية المريد في تقليب العبيد" (2).

أصلته بتقليب الدواب

وتشترك تجارة الرقيق في خاصية التقليب مع تجارة الدواب اذ يمارس فيها بطريقة تكاد تكون واحدة، وليس من باب الصدفة ان سميت كل من التجارتين نخاسة واطلق على تاجر الرقيق وتاجر الدواب اسم واحد هو النخاس (3) وكثيرا ما كان هذا النخاس يجمع بين هذين النوعين من التجارة فنحن نجد في فتوى لابن ابي زيد القيرواني ان المضطلع بهما قد كان شخصا واحدا (4)

---

1) ابن بطلان-رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، تحقيق عبد السلام هارون سلسلة-نوادر المخطوطات-المجموعة عدد 4 -الطبعة الاولى-القاهرة 1954

2) محمد الغزالي - هداية المريد في تقليب العبيد-سلسلة نوادر المخطوطات-القاهرة-1951

3) ابن منظور - لسان العرب - مادة-نخس -آدم متز-الحضارة الاسلامية ج - 1 - ص 302

4) ر - ادريس-بلاد البربر الشرقية في عهد بني زيري ج 2 ص684 -ابن ابي زيد القيرواني الرسالة ص 634

ونفهم من كلام ابن الفقيه ايضا ان تجارة الرقيق قد كانت ذات علاقة بتجارة المواشي والسباع وسائر الحيوان.اذ يبدو من خلال كلامه ان هذه الانواع من التجارات متقاربة ، وانها تعتبر من جنس واحد ما دام كل منهما بيعا لحيوان ، وهو كغيره من الجغرافيين العرب يذكر انواع البضائع والسلع الرائجة في الاقاليم ،ويفرد بابا للرقيق ضمن تعداده لاجناس الدواب،فيقول مثلا في حديثه عن انتاج بلاد المغرب (ولاهل المغرب البغال البربرية والجواري الاندلسية والنمور الزنجية) (1).

وليست هذه الوجوه هي الوحيدة التي تشترك فيها نخاسة الدواب مع نخاسة الرقيق.بل نجد التقارب ايضا بين اسعار انواع من الرقيق واصناف من المواشي. ولكننا لسنا هنا بصدد استعراض كل الخصائص التي يشترك فيها هذان النوعان من البيوعات،وانما نريد التركيز خاصة على ظاهرة التقليب التي تجسم بحق التشابه المذكور وتوضح التقارب باكثر جلاء ،اذ يفحص العبد فحصا مماثلا لفحص الدابة خوفا من ان يكون به علة او نقص خفي .

---

1) ابن الفقيه ـ كتاب البلدان ـ ص 252

ولدينا نموذج من تقليب لغلام قد ورد في مقامات بديع الزمان الهمذاني وهو يذكرنا فعلا بتقليب الدابة ، يقول الهمذاني على لسان بطله في المقامة المضيرية مبرزا خصائص غلام اشتراه له " ابو العباس " من النخاس : (وتقدم الغلام فقال : ترى هذا الغلام ؟ انه رومي الاصل عراقي النشيء ، تقدم يا غلام ، واحسر عن راسك وشمر عن ساقك وانض عن ذراعك وافتر عن اسنانك واقبل وادبر ففعل الغلام ذلك) (1) وقد تواصل هذا الاسلوب في التقليب في العصور المتاخرة فقد ذكر ابن بطوطة ان اهل مالي كانوا يقدرون سن العبد ، انطلاقا من قيس قامته . فالخماسي هو الشاب المراهق والسداسي من هو اكبر منه . واما السباعي فهو الرجل الكامل وثمنه اقل من الصغير. وكان العبد عندهم يقاس من اسفل قدمه الى اسفل اذنه (2)

ولعل دقة الفحص واحكامه تتجلى باكثر بيانا فيماذكره السقطي حول تقليب الرقيق. فقد جاء وصفه مفصلا ومصوغا في قالب يمكن ان يكون شاملا للرقيق والحيوان على حد السواء يقول في ذلك (ويختبرون ايضا ذكاء سمعه . . . . وشعر راسه وجلدته وصفاء ها وجرحاته وسعلته ان كانت به ومبلغ حدة نظره وصفاء بياض عينه فان كدرته وظلمته مؤذنة

1) الهمذاني - المقامات - ص 110 - 111
2) ابن بطوطة - تحفة النظار - طبعة باريس 1859 ج 4 ص 436

بالعلة الكبرى، والصفرة علامة علة الكبد، والعروق الحمر الكثيرة في العين هي السبلة فيها. ونقاء اجفانه وسهولة حركتها، وتغمر ماء في عينه فان سال منها رطوبة دلت على ناسور هناك. وحال انفه وفمه ..... وشدة اسنانه وقوتها. وهل فيها حركة او تحفر. وهل في عنقه اثر جرح لئلا تكون خنازير. ويستلقى على ظهره ويجس بطنه ليظهر فيه فتق ان كان معه. ويغمز على موضع كبده وطيحاله هل يتالم ام لا. وتنظر قوة وطئه في المشي وصلابة عصبه في شده ام لا. وتقاس احدى يديه بالاخرى وكذلك رجلاه لئلا تكون احداهما اطول من الاخرى لكسر او فك اصابه قديما) (1).

هذه صورة من التقليب يمكن ان تكون صالحة في شراء العبد او الدابة وهي تتميز بالدقة في النظر والاختبار وطرق التفطن الى العيوب والمحاسن في البضاعة المعروضة، الا ان المتأمل في بعض رسائل الحسبة يلاحظ ان فحص الرقيق كان ادق واعسر من فحص المواشي، اذ ينظر الى سلامة صوته من البحة والى لون بشرته ورائحة فمه (2) وغير ذلك من وجوه الفحص

---

1) السقطي ــ آداب الحسبة ــ 52
2) المصدر نفسه

الدقيقة لان الرقيق بشر يخالط غيره من ابناء جلسه وتنقل امراضه بالعدوى اليهم.

ب. تقليب الجواري :

وكان الجواري يخضعن ايضا لنفس الدقة في التقليب في غير حرج. وتتاح لمقتنيهن فرصة تاملهن واختبارهن سواء أكان ذلك في الاسواق العامة او في المنازل الخاصة، فللمشتري الحق في تفحص الجارية المعروضة للبيع والنظر الى محاسنها قبل شرائها حتى يامن الضرر ويعرف قيمة ما يشتريه. وتنص الاحكام الفقهية على ضرورة رؤية البضاعة في البيوعات عموما لا تستثني من ذلك الرقيق المؤنث.

وقد ذكر الجاحظ ان رؤية الجارية او القينة قبل شرائها ليست منافية للشرع والاخلاق بل اعتبرها احدى ضرورات التجارة ورد على المتحرجين من هذا التقليب ورماهم بالتزمت والمحافظة، جهلا منهم في نظره بطبيعة المساومات والمشارة، فقال (وبعد فان الرقيق تجارة من التجارات تقع عليه المساومات والمشاراة بالثمن، ويحتاج البائع والمبتاع الى ان يستشفّا العلق ويتامـلاه تاملا بينا يجب فيه خيار الرؤية المشترط في جميع البياعات، وان كان لا يعرف مبلغه بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة فقد يعرف بالحسن والقبح) (1).

---

1) الجاحظ ـ كتاب القيان ـ رسائل الجاحظ ج 2 ص 161 ـ 162

لكن التقليب في الاسواق العامة لا يمكن ان يصل الى الدقة التي يكتسيها في المنازل الخاصة لا سيما فيما يتعلق بفحص جسد الجارية . فاذا عرضت الجارية في منزل خاص امكن للمشتري ان يتامل مفاتنها الخفية وان يطلع على عيوبها المستترة ، وقد نقل لنا صاحب كتاب الاغاني صورة موحية عن هذا الفحص يرجع تاريخها الى ما قبل القرن الثالث للهجرة ، اي في عهد هشام بن عبد الملك .وهي تدل على ان هذه العادة كانت متبعة في شتى العصور. فقد روى ان احد قواد هشام بن عبد الملك زار المدينة في موسم الحج واصطحب غلامين له ، ونزل بجوار احد المخنثين المشهورين وهو المسمى بالدلال ، فاعجب هذا المخنث بالغلامين واستوهبه احدهما فوهبه له وعسر عليه الحصول على الثاني ، واغتنم فرصة عزم القائد على شراء جارية على صفة معينة ووعده بان يرشده اليها وشرط عليه تسليم الغلام عند ظفره بالجارية . ثم اقتاده للتقليب عند مولاتها (فلما صار الى المرأة ادخلته فاذا هو بحجلة فيها امرأة على سرير مشرف برزة جميلة . فوضع له كرسي فجلس. فقالت له : امن العرب انت ؟ قال نعم ، قالت : من ايهم ؟ قال : من خزاعة . قالت : مرحبا بك

اهلا اي شيء طلبت ؟ فوصف الصفة : فقالت : اصبتها ، واصغت الى جارية لها فدخلت فمكثت هنيهة ، ثم خرجت فنظرت اليها المرأة فقالت لها : اي حبيبتي اخرجي . فخرجت وصيفة ما راى الراؤون مثلها . فقالت لها : اقبلي ، فاقبلت . ثم قالت لها : ادبري فادبرت ، تملأ العين والنفس فما بقي منها شيء الا وضع يده عليه . فقالت : اتحب ان نؤزّر هالك ؟ قال نعم . قالت : اي حبيبتي ائترزي فضمها الازار وظهرت محاسنها الخفية ، وضرب بيده على عجيزتها وصدرها . ثم قالت ، اتحب ان نجردها لك ؟ قال نعم قالت : اي حبيبتي وضحي . فألقت ازارها فاذا احسن خلق الله كانها سبيكة . فقالت ، يا اخا اهل الشام كيف رايت ؟ قال : منية المتمني ، قال : بكم تقولين ؟ قالت : ليس يوم النظر يوم البيع ولكن تعود غدا حتى نبايعك ولا تنصرف الا على الرضا) (1) .

تلك هي صورة التقليب بما فيها من تفصيل وتدقيق ، وللمشتري كما نلاحظ ان يلمس الجارية وان ينظر الى مفاتنها ، بل له ايضا ان يجردها ما دامت في منزل خاص وان يتامل محاسنها في غير حرج ، ويضع يده على صدرها وعجيزتها .

---

1) الاصفهاني - الاغاني - ج 4 ص 290 — 291 .

وكانت نفس الطرق متبعة في القرن الثالث والقرن الرابع.فهذا الجاحظ يحدثنا عن جواز لمس القينة عند تقليبها.ويقول بجواز الالمام بها لان الله يغفر اللمم.ويرى ان النظر الى مفاتنها عند الشراء حلال.ويشبهه بالنظر الى الزرع والغرس والتفسح في خضرته واستنشاق روائحه دون اخذ شيء منه (1).

ويذهب الجاحظ ابعد من ذلك في تفسير هذا " اللمم " المباح فيرى ان الله يغفر حتى القبلة،ووضع اليد على القينة بشرط ان تكون هناك نية التقليب،وان لا يتجاوز المقلب ذلك الحد الى الخلوة بالجارية يقول في ذلك (وكذلك مكالمة القيان ومفاكهتهن ومغازلتهن ومصافحتهن للسلام،ووضع اليد عليهن للتقليب والنظر حلال،ما لم يشب ذلك ما يحرم وقد استثنى الله تبارك وتعالى اللمم فقال " الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة " (2) قال عبد الله بن مسعود وسئل عن تاويل هذه الآية فقال : اذا دنا الرجل من المرأة فان تقدم ففاحشة وان تاخر فلمم،وقال غيره من الصحابة : القبلة واللمس. وقال آخرون : الاتيان فيما دون الفرج ..... وكذلك قال الاعرابي حين سئل عما نال من عشيقته فقال : ما اقرب ما احل الله مما حرم الله) (3).

---

1) الجاحظ ـ كتاب القيان ـ رسائل الجاحظ ح 2ص 163

2) قرآن-سورة النجم ـ آية 23

3) الجاحظ ـ كتاب القيان ـ رسائل الجاحظ ـ ح 2 ص 163 ـ 164

لكن الاساليب المشروعة التي يسهر المحتسبون على تنفيذها ورجال الدين على احترامها بالنسبة الى تقليب جارية في منزل خاص، كانت تقتضي الا ينفرد المقلب بالجارية في مكان التقليب صيانة لعفافها وللاخلاق العامة. وان يمكن المشتري من رؤية ما يحب من بدن الجارية بمحضر النسوة في المنزل . وبذلك يتم التوفيق بين الغرض المقصود من اختبار البضاعة، والتزام حدود الشرع واحترام القيم الاخلاقية. ولذلك كانت العادة المتبعة بالنسبة الى من اراد ان يبيع جارية، ان يضعها عند امرأة من الثقات ليعترضها الشراة بحضور سيدها. وتدعى هذه المرأة " الامينة " وهي المشرفة على عملية التقليب المتعلقة بجسد الجارية او صناعتها ان كانت من ارباب الصنائع (1) واذا ما اراد المشتري اعتراضها في منزله لم يكن له ذلك الا بحضور نسوة في المنزل ايضا ، فاذا توفر هذا الشرط تسنى له ان يعترض الجارية كما يريد، وان يجردها كما راينا ذلك في الرواية التي اوردها الاصفهاني، وان ينظر الى كل جزء منها باسم التقليب وان كان عورة. الا انه لا يجوز له في صورة تقليب الغلام ان ينظر الى ما بين السرة والركبتين لان الغرض من تقليب جارية يختلف عن الغرض من تقليب غلام في نظر المشرع.

---

1) السقطي - اداب الحسبة ص 52

يقول صاحب معالم القربة مقارنا بين التقليب في الاسواق العامة والتقليب في منزل خاص ومميزا بين اعتراض الجارية والغلام ما يلي (ومن اراد شراء جارية جازله ان ينظر الى وجهها وكفيها. فان طلب استعراضها في منزله والخلوة بها، فلا يمكنه النخاس من ذلك، الا ان يكون عنده نساء في منزله فينظرون جميع بدن الجارية. وان اراد شراء غلام فله ان ينظر الى ما فوق السرة و دون الركبة، هذا كله قبل العقد، واما بعد فله ان ينظر الى جميع بدن الجارية) (1).

واذا ما كانت هذه الاساليب قد احترمت في بعض الظروف و أودع البائع جاريته عند امراة للتقليب كما نفهم ذلك من بعض روايات كتاب الاغاني (2) فانها لم تحترم في سائرها. وتدل التحريات التي تنص عليها كتب الفقه والحسبة، وتجعل من واجب المحتسب الاضطلاع بها على ان الواقع التجاري، قد كان في حاجة الى تعديل وتقويم، وان الامور كانت تجري في الغالب على عكس ما يريده حفظة الشرع والاخلاق، وان قانون الربح هو الذي كان سائدا على غيره من الاعتبارات المبدئية والاخلاقية، خصوصا ان مراقبة الزيغ في هذا المجال من الامور العسيرة، فالتهافت على الربح

1) ابن الاخوة - معالم القربة - ص 152 ـ 153
2) الاصفهاني - الاغاني - ج 17 ص 13

كان يدعو النخاسين الى اغراء المشترين بمفاتن الجارية او الغلام في غير
اكتراث ، بالموانع الدينية . ولم يكن هذا التهافت ليصد النخاس او البائع
لجاريته الخاصة عن الاخلاء بينها وبين المشتري عند التقليب، لاسيما
اذا كان من علية القوم الذين يرجى منهم الثمن الباهض، ويخول لهم الجاه
من التصرف مالا يخوله لغيرهم ، وقد روى لنا السقطي ان النخاسين قد
تجاوزوا قوانين الشريعة في تقليب الجواري ، فسمحوا بارسال الجارية
الى المشتري لتقليبها بنفسه مع الانفراد بها في غرفة بدون رقيب
عليها . وهذه احدى الروايات التي ساقها لنا يقول (حدثني رجل من الصناع
لم ازل اعرضه بخير وانتماء الى دين ، فطلبته يوما في دكانه الذي
كان يلازمه لعمل الصناعة، وكان سراجا ، فاخبرني من كان في الحانوت
انه غاب في ذلك اليوم عند رجل من اهل الثروة ، في عمل الشغل له في
داره ، فلما طلع النهار اختطرت عليه فوجدته في دكانه ، و عرفته بما
اتفق لي في طلبه وما عرّفت به فقال : كان ذلك وعاهدت الله الا اعمل
لاحد عملا بعد يومي هذا الا في دكاني لما رايت . فاشفقت مما سمعت وسالته
عن امره ، فقال لي : اني كنت اعمل في برانية دار الرجل حتى دخل علينا
فلان من مفسدي هذا الصنف المذكور ولم اظنه على ذلك . فقال له صاحب

الدار : اين الخادم التي ساق لك فلان للبيع ؟ فتجاهل له وقال : لا اعرف ما تقول ، فقال له : هي الكاملة القد الحالكة البديعة الصورة الحلوة الشكل . وكيف تجحدها وقد وصفت لي وعرّفت بها ، فقال له : وبعد هذا ما تريد ؟ قال : اريد ان اراها ، ثم قام اليه وساره فسمعته يقول له : خمسة دراهم تعطيني والله وحينئذ اسوقها لك ، واعطاه صاحبه الذي طلب ثم خرج عنا وغاب قليلا وجاء بخادم سوداء على النحو الذي وصف قد التحفت بكساء ابيض محشى بالاحمر وجود مثلها نادر فقال له : هذه ، واشار لها الى غرفة بالبرانية المذكورة فطلعتها وطلع صاحب الدار بعدها وخلى بينهما ومشى لوجهه. فعجبت من فعلها وجمعت اسبابي وخرجت والتزمت ما التزمت) (1)

من الواضح اذن ان عادة اتخاذ "الامية" او اي امرأة اخرى عند التقليب لم تحترم دائما، وان بعض النخاسين قد فرطوا فيها من اجل دريهمات حتى صارت الاساليب التجارية محلا للريبة والتفسخ الاخلاقي ، ولم تكن " الامية" نفسها عند اتخاذها قيّمة على التقليب لتسلم في كثير من الاحيان من الانحراف، والخضوع لسلطان الدينار والدرهم. ومن هذا القبيل ما رواه السقطي

1) السقطي - اداب الحسبة - ص 48-49

ايضا عن امينة باحدى اسواق الرقيق بالاندلس،اذ كانت تحمل الجواري الى ديار من يطلبهن باسم الشراء والتقليب وتتقاضى على ذلك اجرا ، وقد استغل المفسدون هذه الفرصة لاقتراف المحرمات.فكانوا يحصلون على من يروق لهم من الجواري لقاء بعض المال، فيقضون منهن الوطر باسم التقليب ودعوى اشتراء ، وهكذا امسى التفسخ الخلقي ملابسا للمعاملات باسواق الرقيق.وقد ذكر السقطي ان هذه الظاهرة قد بلغت من التفشي حدا يتنزه المرء عن وصفه . يقول في ذلك (ويتوصل المفسدون بمشاركتها (اي الامينة) الى ما لم يكونوا يقدرون عليه دونها. وذلك انها تحمل المرتفعات مزينات معطرات،الى ديار من يطلبهن باسم الشراء ويوهم بارادة التقليب والاختبار،ولاسيما ذوات الصناعات منهن وتقيم يومها بهن لاختبار صنعتها، فيعطيها على وجه الشكر لها والجزاء على تهممها مع ان لها اجرة على البيع والشراء،اذا كان يوضح لها في العطاء بحسب ما ليته وشرهه في ارادته ، ويستعد الطعام والشراب بالاربع والخمس منهن وما تقتضيه الصنعة المطلوبة فيهن، ويقمن على ذلك . ولقد افصح لي احد من فعل معه هذا بشيء يجب التنزه عن ذكره) (1)

---

1) السقطي ــ اداب الحسبة ــ ص 48ــ49

هكذا نرى اذن ان حدود الشريعة لم تحترم في هذا المجال، رغم تخصيص امرأة " امينة" للاشراف على تقليب الاماء. اذ انقلب الامر الى ضرب من التمعش المستتر وراء دعوى الاختبار، ومهما يكن من امر هذا الفساد فانه يدل على ان فرص التثبت من البضاعة قد كانت متاحة، ولولاها لما وجد مرتعا. فقد كان للمشتري ان يتثبت من بضاعته في الاسواق العامة وخارجها، وكان من حقه في بعض الاحوال ان يتمادى في اختباره حتى بعد عقد الصفقة ببضعة ايام. فاذا اكتشف في رقيقه عيبا امكنه رده، واسترجاع ثمنه، او الاحتفاظ به والمطالبة بتعويض النقص وهو نوع من البيوع كان يدعى بيع الخيار. وغالبا ما يتسنى تطبيقه في غير الاسواق الطارئة او الموسمية اي في الصفقات التي تعقد بين الافراد ويكون فيها البائع معلوم الهوية او في الاسواق الدائمة التي يرتادها نخاسون معروفون.

ج- وسائله واهدافه :

فاذا كانت هذه هي مناهج التقليب وكيفيته وما اتسم به من دقة حينا وانحراف حينا آخر، فما هي اغراضه ووسائله ؟ ان مرامي التقليب للرقيق المذكر و المؤنث تتلخص في التاكد من جماله او قوته ثم سلامته من العاهات والآفات واخيرا في امتحان قدرته على عمل من الاعمال او صنعة

من الصنائع ومحاولة التعرف على مزاجـه ، لان احوال الرقيق النفسيـة تهـم المشتري ايضا، وهي غرض هام من اغراض التقليب يهدف من ورائه المشـتري الى التعرف على اخلاق العبد او الامـة حتى يحمي نفسـه وذويه من امراضه النفسيـة والخلقيـة كما يحتمي من امراضـه الجسمانيـة.

ولم تكن هذه المهمة المناطة بعهدة المقلب مهمـة سهلة اذ يتعين ان يكون عارفا بكثير من القواعد والوسائل الصالحة للتقليب.ولا بد له كذلك من تجربـة في هذا الميدان تعصمـه من غوائل الغش في البضاعـة وتكشف له ما يحجبه المظهر الحسن من مخبر سيء سواء أكان ذلك بالنسبـة لحالة الرقيق الجسديـة او النفسيـة.

فاذا كان هدف المقلب التحقق من جمال الجارية كان في حاجة الى معرفة الحسن الطبيعي من المصطنع وادراك اسرار الجمال في كل جزء من جسد الامـة وهو امر لا يتسنى ادراكه لكل العيون على حد قول الجاحظ.وعلى المشتري ايضـا ان يتخير واحدة من بين حسان عديدات بعد المقارنة بينهن وكثيرا ما تعسر المقارنة ،ويكون الاختيار متعذرا ، ويظل المقلب مخدوعا بزي جميل اولفتـة لطيفـة او تبرج متقن .ويتمثل سرّ الصعوبة في معظم الاوقات في تزييف النخاس

او تحسينه لمظهر الجارية.ولولا ذلك التمويه لما وجد اغلب الناس صعوبة في تمييز الجميل من القبيح.وقد كان وجوه الناس في هذا العصر الذي نهتم بدراسته يتفننون في انتقاء حسان القيان، ويكلفون بهذه المهمة من يتوسمون فيه الذوق المرهف والقدرة على ادراك لطائف الحسن واسرار الوسامة في الرقيق المشترى ،يقول الجاحظ مبرزا اهمية هذا الاختيار (وان كان (اي الرقيق) لا يعرف مبلغه بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة فقد يعرف بالحسن والقبح ولا يقف على ذلك ايضا الا الثاقب في نظره الماهر في بصره الطب بصناعته فان امر الحسن ادق و ارق من ان يدركه كل من أبصره) (1).

وقد كان طلاب القيان الحسان في هذا العصر يحرصون على انتقاء اتمّهن خلقا واكملهن حسنا.وكانوا ولعين بتتبع ادق خصائص الجمال واصطياد اخفى مظاهر القبح وكانوا يخضعون في اختبارهم هذا لنموذج في الجمال معين ولمثال اعلى يرغبون في الفوز به ، ومن امثلة هذا الضرب من التمحيص ما حدث عند بيع " عنان " جارية الناطفي.فقد روي ان مالكيها قد طلبوا فيها شيئا يعاب فلم يجدوا فاوقعوا بخنصرها في ظفر رجلها

---

1) الجاحظ ــ كتاب القيان ــ رسائل الجاحظ ــ ح 2 ص 162

عيبا لئلا تصيبها عين حسب اعتقادهم (1) ولا ريب في ان النخاسين قد كانوا اقدر الناس على تمييز الملاحة من السماجة ولذلك كانوا يستشارون ويكل اليهم الاعيان شؤون اختيار ما يرغبون فيه من ضروب الحسان. ومن هذا القبيل ما صنعه أبو جعفر المنصور عندما كلف ابا عوف عبد الرحمن بن صقرن بشراء جارية له من المدينة فقد امره باخذ راي احد المختصين في هذا الشان وهو المسمى ابا نفيس (2) وقد كان صاحب قيان.

د. استخدام العلوم الطبية :

اما بالنسبة لقوة جسد الرقيق وسلامته من العيوب فيحتاج المقلب الى بعض المبادئ الصحية التي تكشف له عن اعراض العلل والامراض الخفية، وما من شك في ان الكثير من هذه المبادئ قد انتشر في اوساط بيع الرقيق وشرائه بصورة من الصور. ولا ريب ايضا في ان جانبا منها لم يكن يعرفه الناس على وجهه الصحيح، وكان عندهم اقرب الى التخمين والوهم، مما دعا اهل الاختصاص من الاطباء مثل الطبيب النصراني ابن بطلان الى تصنيف هذه القواعد الصحية في كتاب متناولا كل اعضاء الجسد عضوا عضوا، ومفصلا لما يعتريها من عاهات. فنبه الشراة الى ضرورة تفقد لون البشرة، فاذا راوه حائلا الى الصفرة مثلا ادركوا انه نتيجة

---

1) الاصفهاني – الاغاني – ج 22 ص 530
2) المصدر نفسه ج 8 ص 120

"ضعف الكبد وغلبة الصفراء" وان كان حائلا الى السواد دلّهم ذلك على "ضعف الطحال ومرض السوداء" فالابيض السليم هو من كان بياضه مشربا بحمرة والاسمر السليم من كانت سرته صافية ،ولتكن البشرة لينة نقية وخالية من البهق والبرص والوشم والكي والثآليل والخيلان وآثار القروح وخاصة القرحة الناشئة عن عضة كلب (1) و يطلب في الاعضاء التناسب في الطول والقصر والعظم والصغر مراعاة لجانب الجمال فيصاحبها ولقدرته على نوع العمل الذي يتعاطاه .

ويطول الحديث عن هذه المبادئ الصحية الضرورية في تقليب الرقيق والتي راج بعضها بين الناس ونبه الاطباء الى بعضها الاخر فمنها ما يختص بالراس والحواس من شم وسمع وذوق ومنها ما يتعلق باللثة واللهاة والنغانغ والازبتين والصدر واليدين والسواعد والحشا والمعدة والكلى والمثانة والانثيين والقضيب والرجلين والرحم وسائر اعضاء البدن وقد اطنب ابن بطلان في وصف احوالها في صورة الصحة والمرض (2) ولعل من اهم ما اورده في هذا الباب حديثه عن عضو ثمين هو العين

---

1) ابن بطلان - الرسالة ص 359 — 360
2) المصدر نفسه - ص 360

فيتحدث عن العينين محذرا المشتري (من حركتهما بان لا تكونا مضطربتين فانهما من علامات الوسواس،لاسيما اذا لم يكن الكلام منتظما . وهذا يعتـــبره العارف بلغة المملوك. ومن لونهما بان لا يكون بهما زرقــة في السواد لم تكن من قبل،لانها من علامات الماء. ولا يكون بياضهما كدرا او اصفر او فيه عروق فانـــه من مقدمات السّبل. ومن شكلها بان لا يكون شكل العيـــن مستديرا لاسيما ان كان الوجه متعجّرا فان ذلك من علامات الجذام.ولا يكون ثقبا الحدقــة سواداهما غير متساويين ولا احدهما اكبر من الاخر وكأنه مشقوق بالطول ، وهذا يعتبر بان يغمض كل واحدة منهما ويرى اشكالا مختلفــة ، ومن مالمأق بان لايكون في المأق ظفرة ولا لحم زائد ولا ناصور وعلامتــه انك اذا عصرت المأق خرج منه مِدّة ، ومن الاجفان بان لا يكون شعرها منتشرا ولا منقلبا ولا تكون الاجفان غليظة) (1) .

ه‍ـاستخدام علم الفراســة :

ولا يقتصر اختبار الرقيق كما سبق ان ذكرنا على الناحية الجسديــة فقط بل يقع التاكد ايضا من سلامتــه النفسيــة والعقلية والخلقية ويحتاج المشتري لبلوغ هذه الغاية الى حظ غير قليل من علم كان متداولا في تلك

1) المصدر نفسه ص 360 ــ 361

العصور وله رجاله المختصون فيه ، ونعني بـه علم الفراسـة .فيستعمل المقلب مبادئ هذا العلم للتامل في كلام العبد ومنطق الامة وتصرفاتهما ويستدل بكل ذلك على اوضاعهما النفسيـة والخلقيـة .فيعتبر بعلامـات الانقباض البادية على الوجـه وصفرة اللون وكره الدعابة ويستنتج منهـا كدرة المزاج وتعكره .كما ينظر الى طلاقـة المحيا وبهاء الطلعة وحسن الدعابة فيكتشف من ورائها اعتدال المزاج وصفاءه . يقول الجاحظ في كتاب التبصر بالتجارة :(وخير الناس السهل الطلق الوجه المتواضع .وفراسة الرجل السوء ان يكون منقبضا غير منشرح ،وان يرى لونـه الى الصفرة والكمود من غير مرض وان يكون طائش القلب،وان يكون للدعابة والمزاح كارها ولهما عائبا ،وان تراه غليظ اللفظ عند المحاورة ، ومن فراسـة الرجل الصالح ان تراه سهلا طلقا ذا منظر بهي وكلام شهي سبط الجبين غير منقبض ولا نزق علق قلـق وغير كاره للدعابة والمزاح يذكر بخير ليّن المحاورة متواضعا) (1) ويقول في وصف نفسيـة الامة الجيدة (وكل امراة او امة اذا كانت اكثر سكونا و اجمـل حالا وانزر طعما و اشكر للناس فهي اصون)(2).

1) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة-ص 48
2) المصدر نفسـه -ص 47

وقد ارجع ابن بطلان فن تطبيق مبادئ هذا العلم في مجال التقليب الى مجموعة من الاصول ذات صبغة عملية. وبين كيفية هذا التطبيق فحذر من الاكتفاء بدليل واحد على خلق معين. وبين ضرورة استقراء مجموعة من العلامات حتى يصح القياس. فاذا اجتمعت دلائل متضادة وقع الحكم باقواها. واقوى هذه الدلائل في رايه ما يبدو على الوجه والعين، اما القاعدة التي تقوم عليها مبادئ هذا الفن فهي المشابهات بين اشخاص الناس وكذلك ما يوجد منها بين الانسان والحيوان، وضرب على ذلك امثلة عديدة منها مثال الشجاعة الذي توجد دلائله عند البشر والحيوانات. وميز هذا المؤلف ايضا بين ما يخص اخلاق الذكور واخلاق الاناث في هذا الميدان. وافرد كذلك فصلا لاخلاق الخصيان ثم مضى يحلل دلائل كل جزء من اجزاء البدن من ملامح واعضاء وحركات وان كان قد اضرب عن ذكر دلائل اعضاء النساء تصونا حسب قوله (1).

وقد كان السبب الذي منح ابن بطلان من اجله هذا الموضوع كل هذه الاهمية هو الخطر الذي يتجسم في اقتناء رقيق رديء الاخلاق لان مولاه يعاني العنت من جراء ذلك ويخشى مغبة اختلاطه بافراد اسرته، وهو على هذه الحال من رداءة السلوك، فعلى المشتري ان يتجنب

1) ابن بطلان - الرسالة - ص 366 - 367

شراء مملوك قد مرن على الضرب والخصومة وعليه ان يسال عن سبب بيعـــه ،
اذ كثيرا ما يكون سوء الخلق هو السبب في البيع (1) ويحسن بنا في هذا
السياق ان نورد امثلة مما ذكره هذا المؤلف حول بعض الدلائل الهامـة ،
ونخص بالذكر منها ما يتصل بالعبد الشجاع .يقول (وهو ان يكون قوي الشعر
خشنه شديد العظام والاطراف والاصابع عظيم الصدر والاكتاف والرقبـة
عريض القص ضامر الورك معرق الجبهة قوي المفاصل منتصب القامة ممسوح
الاليتين بعيد ما بين المنكبين ممدود الحاجبين ازب الصدر والكتف والجبان
بالضد) (2).

ويذكر ابن بطلان ان دلائل الشعر سبعة اشياء، تفصّل كما يلـــي
(اللين منه يدل على الحمق ـ الخشن دليل الشجاعة ـ كثرته على البطن
دليل شبق ـ كثرته على الصلب دليل الشجاعة ايضا ـ كثرته على العنـــق
والكتفين دليل حمق ايضا ، كثرته على الصدر دليل قلة الفطنة ـ قيـام
الشعر دليل جبن) (3)، ومن طريف ما يسوقـه المؤلف في هذا المضمار
مقارنتـه بين اخلاق الاناث والذكور والخصيان فهو يصل من هذه المقارنة
الى ان (الانثى من كل جنس اموت نفسا واقل جلدا واسهل انخداعا واسرع
غرورا وسكونا واشد مكرا واصغر راسا والطف وجها وادق عنقا واضيـق

1) المصدر نفســه ص 357 ـ 358
2) المصدر نفســه ص 365
3) المصدر نفســه ص 365 ـ 366

اكتافا وصدرا واعظم بطنا ووركا والطف كفا وقدما ، واسوأ اخلاقــــا من الذكر في كل جنس ، اخلاق الخصيان كالمشابهة لاخلاق النسـاء ومن ولد بلا خصيتين اوكانتا فيه صغيرتين كان اشر) (1) ومهما يكن من امر صحة هذه الدلالات او خطئها فان الهام بالنسبة الينا هــو ان نعتقد ان نصيبا وافرا منها قد كان حصيلــة تجارب في اوساط تجارة الرقيق قد تناقلها الخلف عن السلف عبر العصور فاكتسبت بحكم هـــذا التداول صبغة علميــة ،وان كانت في اغلب الاحيان ذات صبغة تقريبيـــة وافتراضية لكن وضع الشراة قد كان يحوجهم الى هذا النوع من طرق الفحص لحرج موقفهم عند تقليب العبيد والتحقق من اوضاعه النفسية والخلقية .

و-استعمال الاختبار المهـني :

وتشـمل عمليــة التقليب صحة الرقيق المتخذ للخدمة (2) فاذا كان هذا الرقيق من الاماء ربات الصنائع اي المقتنيات للعمل لا للمتعة كان اختبارهن عند " امينة" ايضا فيضعن عددا من الايام عندها حـتى يقع التثبت من اتقانهن للصنعة (3) وينبغي على المشتري ان يكون على علم

---

1) المصدر نفســه -
2) السقطي - اداب الحسبة -ص 52
3) المصدر نفســه -ص 43-49 و ص 52

باختصاص كل جنس من اجناس الرقيق حتى ينجح في ادراك ضالته .وذلك لان كل جنس من تلك الاجناس قد اشتهر بنوع من تلك الخدمات والصنائع كما يجدر به ان يكون عارفا بتلك الصنائع ووجوه اتقانها وحذقها ليتسنى له اختبار العبد او الامة قبل شرائهما ، وهكذا يتضح لنا ان هذا الباب من ابواب التقليب يستدعي كذلك شيئا من الخبرة التي تسمح للمقتـــني بالحصول على ما يريد ، وتعصمه من ان يقع فريسة لحيل النخاسين ومن ان يخضع لمشيئتهم ،وينفق ماله في التعويل عليهم .وقد ضمن رجال الحسبة رسائلهم بعض النصائح للشراة في هذا المجال ،فبينوا ما يفضل فيه الرقيق المذكر الرقيق المؤنث من اعمال ،وما يتفوق فيه الرقيق المؤنث على المذكر منها وذكر بعضهم ان من طلب رقيقا للطبخ او الغناء فعليه بالاماء دون العبيد لانهن اقدر منهم على هذين الفنين ومن طلب رقيقا لمباشرة الاعمال الشاقة فعليهم بالعبيد دون الاماء لانهم اقدر عليها منهن (1).

ووصف ابن بطلان درجة الجودة في بعض الصناعات ،وبين شروط الاتقان فيها فقال مثلا في الجيد من الغناء ما يلي : (اذا اجتمع للغناء ان يكون مطبوعا سليما من الخروج والنفور وكانت الجارية شحرورية الصوت جيدة الصنعة والضرب صحيحة التادية للشعر ،قد اخذت عن الحذاق وتزيدت من نفسهـا

---

1) ابن بطلان ـ الرسالة ـ ص 385

جودة الطباع فهي الغاية القصوى في هذا الشان . فان اتفق لها مستمع عارف بالطرائق والضرب واللحن ومجرى الاصابع وقائل الشعر وما فيه من العروض والنحو وما في الصوت من ردات وترجيحات وشذرات ونقرات وتشييعات كان اوفر في اللذة وانفق للصناعة) (1). وتخضع ايضا جودة الطبيخ لمجموعة من القواعد يمتحن فيها الرقيق المختصون ،وتتناول عددا من الاكلات الفنية التي لا يتقنها كل الناس والتي تعتبر مقياسا من مقاييس مهارة الطباخين ، وقد ذكر ابن بطلان وصفا موجزا لها في قوله (عمدة الطبيخ على طيب المرق وجودة المزاج . فان اتفق للطباخة مع هذا جودة الصنعة وسرعة العمل فذاك غاية الامل ، وقل ما يتفق ان تكون كاملة في البوارد والشواء والطبيخ والحلواء على اصنافها الثلاثة ، فهذا مما يعجز عنه قدر النساء والذي يمتحنون به الاسفيد باج والديكبراكة (2) اما الاسفيدباج فلان الابازير مطيبة لها وكثرتها يسوّد مرقها واتقنها بياضها فلهذا يتعذر سلامتها ، واما الديكبراكة فلانها لون سهل يتبين في التلطف في ملح سهوكتها (3).

---

1) المصدر نفسه ص 385

2) الاسفيد باج ضرب من الطعام يصنع من اللحم والبصل والحمص والابازير ويقال له ايضا اسفيدبا كما في معجم ستينجاس - Steingass - اما الديكبراكة فالارجح انها من الارامية ومعناها الديك المبارك وهي اكلة مشابهة للسابقة (عبد السلام هارون - تحقيق رسالة ابن بطلان هامش صفحة 386)

3) ابن بطلان - الرسالة ص 386 - 387

ويبسط لنا السقطي منهجا قريبا من هذا في اختبار جودة الطبيخ علي يـــد الطباخات من الاماء ،ويذكر نفس الاكلات التي تنتخب للامتحان مثـــــل الاسفيدباج ويعلل هذا الاختبار بان (ابازيره كثيرة وتسودّ مرقته وحكمـه ان يكون ابيض وشرطها طيب العرف وجودة المزاج فان زاد على ذلك جودة الصنعة وسرعة العمل فهي غاية الامل وقلما يتفق انطباعها في الـــبوارد والشـــواء والطبخ والحلواء واصنافها كثيرة) (1).

وعلى المقلب ان يقوم بنفس التحريات عند اختيار مرضعة لاطفالــه فيختار الصحيحة الجسم وذات الرحمة والحنان والمعتدلة المزاج والخلق حتى تحسن تغذية الرضيع بلبانها وتربيته على السلوك الحسن ولا بد كذلك من النظر الى سلامة لبنها وخصائصـه الغذائية .واليك صورة من صور اختبار لبن المرضعة .يقول ابن بطلان (واعتبار اللبن ان تقطر على ظفرك منــــه فاذا صار كالعدسة لا غليظا مقببا ولا مائعا سيالا ،وكان طيبا في رائحته ابيض في لونه ،كان جيدا .وبعض الاطباء اختار الزنج للرضاع لان حرارتهن البارزة نحو الاثداء منضجة للبن ،ولانهن لغلظه اكثر غذاءا وقال قوم : ان قياسه قياس لبن الاتن في اللطافة لغلظ اجسامهن) (2)

1) السقطي -اداب الحسبة-ص 50-51
2) ابن بطلان -الرسالة-ص 387

تلك هي وجوه تقليب العبيد بصورة مجملة وهي تعكس لنا ما استقر في حياة الناس من تقاليد متصلة بتجارة الرقيق، وتطلعنا على ما تناقلوه من تجارب ومعارف في هذا الميدان، وعلى خطر هذه القضية في المجتمع الاسلامي اذ سخرت العلوم في سبيل مواجهتها. لكننا لا ندعى ان عمليات التقليب هذه قد طبقت دائما على وجهها الصحيح وبشكل متقن وناجح بل الواقع عكس ذلك، لان ظروف الشراة ومستوياتهم لم يتكن واحدة ولا كفيلة ببلوغ تلك الدرجة من النجاعة. ولا مراء في ان كل هذه النصائح التي يسديها اهل الاختصاص ورجال الحسبة على الاسواق الى المشترين تشير الى ان المقتنين لهذه البضاعة قد كانوا في الاغلب مغرورين ومخدوعين في اختيارهم وانهم لم يكونوا دائما ملمين بوسائل الفرز بين الجيد والردي من الرقيق. اضف الى ذلك ما اتسمت به سوق الرقيق من غش يدعو الى الاستغراب من مهارة القائمين به، وتفشل في مواجهته وسائل التحري التي كنا بصدد تفصيلها، ولا يمكننا ان نتصور عسر مهمة المقلب الا اذا ادركنا فداحة التدليس.

5) شـــــروط ابرام الصفقـــــة

أ- عدم التفريق بين ذوي القربى :

و من اهم الاحكام المتعلقة ببيع الرقيق والمسلم بها في هذا الضرب من المعاملات التجارية تجنب التفريق بين الام وولدها في البيع اذا كان صغير السن (1) وسببه مراعاة حاجة الصبي الى امه من الوجهة المادية والروحيـــة. ويقترح الفقهاء في مثل هاته الاحوال ان تباع الام مع ولدها ، يقول ابن الاخوة في باب ما يجب على المحتسب منعه من البيوع الفاسدة (.... وكذا بيـــع ام دون الولد اذا كان الولد صغيرا وكذا بيع الولد دون الام لان تسليمه يفرق بينهما وهو حرام مجمع عليه ولا يصح التفريق بينهما بالبيع دون البلوغ)(2).

وهم يقيسون هذه الاحكام على احكام اخرى تتصل باقتسام السبي وقت الغنيمة في الحروب. ويعتمدون في ذلك على ما روي في الحديث النبوي من قول الرسول (لا توله والدة بولدها) وقوله ايضا (من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين احبته يوم القيامة) (3) كما رووا ان الرسول قد جيء بسبـــي

---

1) ابن الاخوة. معالم القربة ص152_153 ابن ابي زيد القيروان. الرسالة ج 2 ص257_258 السقطي. آداب الحسبة. ص 52

2) ابن الاخوة _ معالم القربة ص 57

3) الماوردي _ الاداب السلطانية_ ص126_141 الشيباني. كتاب السير الكبير ج 5 ص 2071 2074 . مسلم. صحيح ج 12 ص 63_64

فنظر الى امرأة منهن تبكي فقال : ما يبكيك ؟ فقالت ابني بيع في بني عبس فقال الرسول لابي اسيد الانصاري : فرقت بينهما فلترجعن ولتاتين بـــــه ، فرجع فاتى بـــه (1).

وقد اعتبر الفقهاء باسباب هذا النهي عن التفريق ومقاصده ورأوه ممنوعا في التجارة ايضا ،لانه يلحق نفس الضرر بالام والولد .وكان لهم في احداث اخرى جرت في حياة الرسول ما يدعم قياسهم هذا.اذ يروون ان عليا ابن ابي طالب قد فرق بين جارية وابنها الصغير في البيع فنهاه الرسول عن ذلك ورد البيع (2).

لكن الفقهاء رغم اجماعهم على هذا المبدا يختلفون في حـــدوده وابعاده ، فبينما يرى المالكية ان التفريق محرم ،يراه الحنفية مكروهـــا فحسب ، فاولئك يتحدثون عن عدم الجواز وهؤلاء يقولون بالاستكراه ، يقول بعض المالكية (ولا يجوز ان يفرق بين الام العاقلة وولدها في البيع ومـــا شابهه من كل عقد معاوضة) (3) في حين يقول السرخسي (القياس يوجـــب

---

1) الشيباني-كتاب السير الكبير ج 5ص 2071ـ2074 مالك بن انس-المدونة الكبرى ج 10 ض 112ـ113

2) ابن الاخوة -معالم القربة ص57- مسلم.صحيح ج 12 ص 63ـ64

3) ابن ابي زيد القيرواني-الرسالة ج 2 ص 257 احمد النفراوي-الفواكه الدواني ج 2 ص 257

التفريق لان منعه هو منع للمالك عن التصرف في ملكه لكن عرفت الكراهة شرعا ، فقد جاء الشرع بكراهة التفريق بين صغيرين او صغير وكبير من ذي الرحم المحرم ، فان كانوا كبارا جاز القياس ولا شرع فيه. والسبب في عدم تفريق الصغيرين الالفة بينهما لان الصغير لا يحتمل الوحدة) (1).

ولا يشمل هذا الحكم في نظر المالكية الا الام وولدها الصغير (2) ويدققون في هذا الحصر بقولهم " الام الدنية " حتى يقع استثناء الجدات والامهات من الرضاع والاباء ، قال النفراوي (وقيدنا بدنية لانه لا تحرم التفرقة بين الجدة وولد ولدها كما لا تحرم بين الاب وولده ولا بين الام وولدها من الرضاع لان المراد الام من النسب) (3).

لكن هذا الحكم يتجاوز عند الحنفية والحنابلية "الام الدنية " الى كل ذي رحم محرم مثل الاخوين الصغيرين والجدة وحفيدها الصغير والاب وابنه الصبي ، اما من لم يكن بينهم رحم محرم مثل ابناء الاعمام وابناء الاخوال، فيجوز التفريق بينهم. يقول الشيباني محللا لموقف الحنفية (فاما اذا كانت والدة وولد صغير او اخوان صغيران او كبير وصغير او غلام لم يدرك وعمته او خالته صغيرة مثله او كبيرة فليس ينبغي ان يفرق بينهم في

1) الشيباني-كتاب السير الكبير-ج 5 ص 2071_2074
2) مالك بن انس-المدونة الكبرى-ج 10 ص 110
3) النفراوي - الفواكه الدواني-ج 2ص 257 ــ 258

قسمة ولا بيع .... واذا كانا غير ذي الرحم المحرم مثل بني العم او بني الخال وهما صغيران او احدهما كبير والاخر صغير فلا باس بان يفرق بينهما في البيع والقسمة) (1) كما يروي السرخسي ، ان عمر بن الخطاب كتب بألاّ يفرق بين الاخوين اذا كانا صغيرين وبين الام وولدها (2).

ويستشهد الحنابلة على رايهم ايضا بما رواه احمد في مسنده من ان عليا بن ابي طالب قال : (امرني رسول الله بان ابيع غلامين اخوين فبعتهما ففرقت بينهما. فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادركهما فارتجعهما ولا تبعهما الا جميعا) (3).

اما الشافعية فقد توسطوا بين هذين الموقفين فجعلوا منع التفريق محصورا في الوالدين والمولودين مهما تباعدوا ، يقول ابن قدامة مقارنا بين هذه المواقف كلها (ولا يجوز ان يفرق في البيع بين كل ذي رحم محرم وبه قال ابو حنيفة ، وقال مالك : لا يحرم التفريق الا بين الام وولدها ... فدل على الاباحة فيما سواه ، وقال الشافعي : يحرم بين الوالدين والمولودين

1) الشيباني-كتاب السير الكبير- ج 5 ص 2071 ــ 2074
2) المصدر نفسه
3) ابن قدامة ــ المغني ــ ج 4 ص 266 ــ الحبيشي ــ البركة في فضل السعي والحركة ــ ص 99ــ 101

وان سفلوا ولا يحرم بين من عداهم،لان القرابة التي بينهم لا تمنع القصاص ولا شهادة بعضهم لبعض فلم تمنع التفريق في البيع كأبني العم)(1).

وبالرغم من تعميم بعض الفقهاء لهذه الاحكام على ذوي القربى فانهم يشيرون الى انها لا تشمل الازواج من الرقيق.فيستحلون التفريق رغم الرابطة الزوجية.لان العبرة في عدم التفريق هي "وصلة النسب لا السبب" على حد قول السرخسي.واذا ما حدث هذا التفريق لا يبطل النكاح ببيع ولا قسمة في نظره (2).

ثم ان الفقهاء لا يميزون في سنهم لهذا القانون بين انتماءات الرقيق الدينية.فسواء اكانت الام مسلمة او كتابية او مجوسية فان من حقها الاحتفاظ بطفلها عند بيعها (3).

واذا كانت الجارية مع صبي تدعي انه ابنها وقع اثبات البنوة المانعة للتفرقة بالبيّنة او باقرار مالكيها او دعوى الام مع قرينة صدقها ويقبل ذلك منها بالنسبة الى منع التفريق فقط.ولا يقبل في غير ذلك من احكام البنوة من ارث وغيره (4).

---

1) المصدر نفسه
2) الشيباني-كتاب السير الكبير-ج 5 ص 2071 ـ 2074
3) السقطي ـ آداب الحسبة ص 52ـ النفراوي-الفواكه الدواني-ج 2 ص 257ـ258
4) المصدر نفسه-ج 2 ص 258

واذا ما حدثت التفرقة على الوجه الممنوع فسخ البيع واعتبر فاسدا وارتجع البائع بضاعته ، احتذاءا بما فعله الرسول مع علي عندما امره بارتجاع الغلامين الذين فرق بينهما في البيع (1) وكذلك بفسخه لبيع جارية له فصل بينها وبين طفلها (2) ويضيف المالكية ان بائع التفرقة يضرب وكذلك مبتاعها اذا كانا عالمي بحرمتها والاعذرا بالجهل (3).

ويصبح فصل الصبي عن والديه او ذويه الاقربين عند البيع ممكنا اذا صار مدركا. ويتجسم هذا الادراك عند المالكية في الاثغار وهو سقوط رواضع الطفل، ثم نباتها من جديد ،ويكون عادة بعد السن السابعة(4) ويحدده الحنابلة بالبلوغ. يقول ابن قدامة (فان فرق بينهما قبل البلوغ فالبيع باطل ، وبه قال الشافعي فيما دون السبع . . . . وان كان فرق بينهما بعد البلوغ جاز ، وقال ابو الخطاب : فيه روايتان ، احداهما : لا يجوز لعموم النهي. والثانية : يجوز وهي الصحيحة لما روي ان سلمة بن الاكوع اتى ابا بكر بامرأة وابنتها فنفله ابو بكر ابنتها ، فاستوهبها النبي صلى الله عليه وسلم

---

1) ابن قدامة-المغني - ج 4 ص 266

2) مسلم- صحيح - ج 12 ص 63-64 ابن الاخوة - معالم القربة - ص 57

3) نفراوي - الفواكه الدواني - ج 2 ص 258

4) المصدر نفسه - ج 2 ص 257 - مالك بن انس - المدونة الكبرى - ج 1 ص 110

فوهبها له ، وأُهدي الى النبي صلى الله عليه وسلم مارية واختها سيرين فاعطى النبي صلى الله عليه وسلم سيرين لحسان بن ثابت وترك مارية له . ولانه بعد البلوغ يصير مستقلا بنفسه) (1) اما سن البلوغ فقد اختلف في تحديدها بين قائل بثماني سنين وقائل بسبع (2) ، ولدينا من الاخبار ما يدل على احترام هذه الاحكام. فمما يذكر عن هارون الرشيد انه تجنب التفريق بين الاقرباء في اسرى سملوس semalouos عندما حملهم الى بغداد .وقد مدحه بذلك الشاعر ابو تمام (3). الا انه ليس لدينا ما يثبت ان هذا التشريع الانساني الذي يسمو بتجارة الرقيق على غيرها من تجارات البضائع الاخرى قد كان موضع احترام كامل عند التجار. بل المفروض ان مثل هذا التشريع يصطدم مع رغبة بعض الشراة في اقتناء الجارية دون الابن ، ومع ميل التاجر ايضا الى بيعها دون ابنها لاعتبارات اخرى تتصل بترويج بضاعته ، واحراز ما ينتظره من ارباح . وكان الفقهاء قد شعروا بصعوبة تطبيق الاحكام السابقة فراحوا يبحثون عن بعض الجوازات التي تتلاءم مع سير المعاملات التجارية في الواقع. فمن ذلك مثلا افتاء بعضهم بامكان الاكتفاء بالجمع بين الصغير وامه او ذي الرحم

---

1) ابن قدامة - المغني - ج 4 ص 267 — ابو داود - السنن - ج 3 ص 64
2) ابن الاخوة - معالم القربة - ص 57
3) ابو تمام - الديوان - طبعة 1905 — = ص 218 - ماريوس كانار - M. Canard - المسلمون وبيزنطة - فصل -XV- ص 111 — 119

المحرم عليه في حوز واحد ،اذا لم يمكن الجمع بينهما في ملك واحد. وبهذه الطريقة يمكن التفريق بينهما في الشراء والبيع مع تمكينهما من الاتصال ببعضهما او حتى التعايش في مقر واحد (1) ويهرع الفقهاء ايضا الى منفذ آخر لتسهيل عملية التبايع في هذه النقطة. فمنهم من يرى مثل خليل بن اسحق ان عدم التفرقة حق للام، فيمكن في رايه استشارتها في الفصل بينهاوبين ولدها الصبي قبل بلوغه سن الادراك. فان رضيت به جاز وان رفضته منع، ويذهب خليل ايضا الى ان التفرقة على الوجه الممنوع اذا حصلت ومضى زمن الحرمة بان بلغ الصبي ،لا يقع التراجع في البيع (2) ومن المفروض ايضا ان يقع التسامح في مثل هذه الاجراءات خصوصا في الاقاليم التي انتشر فيها المذهب الحنفي لان معتنقيه ،لا يقولون الا بكراهة التفريق وشتان بين الاستكراه والتحريم.

---

1) نفراوي - الفواكه الدواني - ج 2 ص 257_258
2) المصدر نفسه .

ب-استبـــراء الامـــــاء

ومن شروط بيع الاماء اللائي يشترين لغاية الاستمتاع او الاستيلاد ان يقع النظر في براءة ارحامهن من الحمل. وهو ما يسمى بالاستبراء اذ قد تكون الجارية المعروضة للبيع حاملا من سيدها الاول، فلذلك يتعيـــن التثبت مبدئيا من وجود الحمل او انعدامـه، حتى يكون البائع والمشتري على بينـــة من الامر، ولا تكون المعاملات قائمـة على غرر يضر باحدهمـــا وحتى يقع التثبت في انتساب الجنين الى المالك الاول، وربما ادى ذلك الى فسخ البيع تماما في بعض الاحيان، اذ بالحمل تصبح الجاريـــــة ام ولد يمنع بيعها في نظر جمهور الفقهاء. لكن قضية المصلحة التجارية او الاستلحاق النسبي ليست هي المبدا الوحيد المعتبر في وجوب الاستبراء بل ان مبادئ خلقيـة ودينيـة اخرى قد انبنى عليها هذا التشريـــع التجاري. والمرجع فيـه الى النصوص الدينيـة مثلما جاء في الحديث النبوي من قول الرسول (لا يحل لرجلين يؤمنان بالله واليوم الاخر يجتمعان على امراة في طهر واحد) وقوله (لا يحل لامرئ مؤمن بالله واليوم الاخر ان يسقي ما زرع غيره) يعني بذلك اتيان الحبالى ، وقد قاس الفقهـــــاء هذه الاجراءات التي وقعت مراعاتها في انتقال الجارية من ملك الى ملك

آخر بطريق الشراء، على اجراءات مماثلــة تتعلق بانتقال السبي من ايدي الغزاة الفاتحين ، وتنص على ان الجارية اذا وقعت في سهم رجل مـــن الغانمين لا يحل له وطؤها حتى يستبرئها، ليعلم ان كانت حاملا او لا ثم له الوطء ان لم يكن بها حبل .وذلك عملا بنهي الرسول عن وطء الحبالى من سبايا اوطاس حين قال (الا لا توطأ الحبالى حتى يضعن حملهن ولا الحبالى حتى يستبرئن بحيضة) (1).

فالاستبراء اذن لازم عند انتقال الامة من ملك رجل الى ملك آخر باجماع الفقهاء .وهم يرونــه واجبا سواء اكان هذا الملك بشــــراء او هبــة او وصيــة او ميراث او خلع او غير هذه الوجوه . وسواء أكان البائع صبيا او امرأة او مملوكا او من لا تحل له الجارية . وسواء أكانت الجارية بكرا او ثيبا صغيرة او كبيرة . وسواء أكانت من ذوات الحيض او آيسة منــه لصغر او كبر (2) ، وهم يتحرون في ذلك غايــة التحري بسبب

---

1) ابو يوسف -كتاب الخراج -ص 206 العيني-شرح الكنز-ج 2 ص211 -الشافعي -الام -9 269—270 بملوي-الجامع-ج 2 ص 240 — 241

2) العيني- شرح الكنز- ج 2 ص 211 — مالك بن انس-المدونة الكبرى-ج 6 ص 142 —143 — وص 122 — البكري -المغرب - ص 19

ما يترتب عن هذه القضيــة من مشاكل خطيرة تتعلق بمصالح الاحــرار ومنافعهم المادية ،وباوضاع الرقيق الاجتماعية وبصيبهم من العبوديـــة والحرية ،وبحدود الشرع وتحريمـه لنوع من العلاقات الجنسية كالزنـــا ، وبمراعاة للانساب وحفظها كما ذكرنـا .

ويكون استبراء الامة بان تتربص حتى تضع ان كان حملهـا ظاهرا. أو بان تحيض حيضــة واحدة ان كانت من ذوات الحيض أو بمضي شهر ان كانت آيســة ، هذا عند الحنفية. ويرى المالكية ان استبراء الآيسة يكون ثلاثــة اشهر. وافترق الشافعية في الآيســة فمنهم من جعل استبراءها شهرا كالحنفيــة ، ومنهم من جعله ثلاثة اشهر كالمالكية. لكن الاتفـــاق حاصل على الاستبراء بوضع الحمل او بالحيضة بالنسبة لذات الحيض (1).

ويحسن ان نورد في هذا السياق بعض اقوال الفقهاء حول هذا الموضوع. يقول ابن ابي زيد القيرواني :(واستبراء الامة في انتقال الملـــك حيضة. انتقل الملك ببيع او هبة اوسبي او غير ذلك. ومن هي في حيازتــه قد حاضت عنده ثم انه اشتراها ، فلا استبراء عليها ان لم تكن تخـــرج

---

1) الشافعي-الام ص 273 ــ ابن ابي زيد القيرواني-الرسالة ج 2 ص 225ــ226 ــ العيني- شرح الكنز ج 2 ص 211

واستبراء الصغيرة في البيع ان كانت توطأ ثلاثة اشهر. واليائسة من الحيض ثلاثة اشهر. والتي لا توطأ فلا استبراء فيها. ومن ابتاع حاملا من غيره او ملكها بغير البيع فلا يقربها ولا يتلذذ منها بشيء حتى تضع) (1).

ويقول الاوزجندي ، في نفس الموضوع (هو (اي الاستبراء) طلب البراءة مطلقا. وهنا طلب براءة الرحم من ملك امة بشراء اوهبة او ميراث او خلع او كتابة او نحو ذلك. حرم عليه وطؤها ولمسها والنظر الى فرجها بشهوة حتى يستبرئ بان يتركها الى ان تحيض حيضة واحدة، ان كانت من ذوات الحيض، او يمضي عليها شهر واحد، ان كانت آيسة، او الى ان تضع حملها، ان كانت حاملا، لقوله عليه الصلاة والسلام في سبايا اوطاس : "الا لا توطأ الحبالى حتى يضعن حملهن ولا الحيالى حتى يستبرئن بحضية". وهذا يفيد وجوب الاستبراء بسبب احداث الملك واليد، حتى يجب على المشتري من مال الصبي ومن المرأة والمملوك وممن لا يحل له وطؤها الاستبراء. وكذا اذا كانت المشتراة بكرا لم توطأ لتحقق

---

1) ابن ابي زيد القيرواني ـ الرسالة ـ ج 2 ص 225ـ226

السبب.ولا يعتد بالحيضة التي اشتراها في اثنائها ولا بالحيضة التي حاضتها بعد الشراء،اوغيره من اسباب الملك قبل القبض،ولا بالولادة التي حصلت بعد الاسباب قبل القبض)(1).

وهكذا يدقق الفقهاء في تحديدهم للحيضة التي يتم بها الاستبراء فيذكر الشافعية،ان المشتري اذا اقتنى الجارية وهي في اول الحيض او وسطه او آخره،لم تعتبر تلك الحيضة استبراء.وانما عليه ان يستبرئها بحيضة سبقها طهر،وله وطؤها بعد ذلك.الا اذا ما ارتابت المستبرئة.وفي هذه الحال يمتنع الوطء،حتى تذهب الريبة دون تحديد بوقت معين (2) ولايكتفي الحنفية ايضا بالحيضة التي اشتريت فيها الجارية ولا بالحيضة التي حاضتها بعد الشراء وقبل القبض (3) .

الا اننا لا نلاحظ هذه المبالغة في التحري عند المالكية.اذ نراهم يكتفون بالحيضة التي تباع فيها الجارية.يقول عبد الوهاب البغدادي (واذا ابتاع المرء حائضا في اول حيضها اجزأ من الاستبراء خلافا لابي حنيفة والشافعي في قولهما لا بد من حيضة مستانفة،لان الحيض امارة دالة على

1) الأوزجندي- الفتاوى الهندية- ج 4 ص 413
2) الشافعي-الام-ج - 4 - ص 273
3) العيني- شرح الكنز-ج 2 ص 211

براءة الرحم وذلك يحصل بتوالي الدم في ايامها . ولا يؤثر فيه فوات ساعة او يوم ولا يزيل المعنى المقصود منه ...... واذا تقابلا وهي في يد البائع او كانت وديعة عنده فورثها وكانت قد حاضت عنده ، لم يحتج الى استبراء خلافا للشافعي في قوله : لا بد لتجدد الملك من الاستبراء ، لان العلم ببراءة رحمها حاصل ، فجاز وطؤها كما لو استبرأها ، ولان الاستبراء انما حصل ليفصل بين الماءين مع امكان ان يكون هناك ماء فاما مع تحقق عدمه فلا معنى له) (1).

ولعل المالكية يتحرون في جانب آخر من جوانب عملية الاستبراء ، فبينما تكتفي بعض المذاهب بفرضه على المشتري دون البائع (2) نراهم يشركون البائع في هذه المسؤولية مثلما يوصي بذلك بعض الحنفية (3) وهذه صورة من تحري المالكية في هذه النقطة ، وبيان لوجهة نظرهم على لسان احدهم (اذا وطىء المرء امة ثم اراد بيعها ، فعليه ان يستبرئها قبل البيع . وكذلك المشتري يلزمه الاستبراء . فان اتفقا على استبراء واحد جاز . وقال ابو حنيفة والشافعي يجب الاستبراء على المشتري دون البائع

1) عبد الوهاب البغدادي - الانصاف - ج 1 ص 274
2) بهلوي - الجامع - ج 2 ص 240 ـ 258
3) العيني - شرح الكنز ج 2 ص 211

وحكي عن قوم انه يجب على البائع دون المشتري ، ودليلنا على وجوبه على البائع انه اذا وطئها جاز ان تكون حاملا من ذلك الوطء فيكون بائعا لولده ، ومدخلا للشبه على النسب، وقياسا على المشتري بعلة انه احد المتبايعين ولان المشتري انما لزمه الاستبراء لحفظ مائه ، لئلا يدخل ماؤه على ماء غيره . والبائع يلزمه حفظ مائه ، كما يلزم المشتري فيلزمه الاستبراء، ولانه عقد يبيح وطئها (كذا) فوجب على مالكها استبراؤها وهذا يقاس على اصل آخر، وهو اذا اراد ان يزوجها، ودليلنا على وجوبه على المشتري ، قوله صلى الله عليه وسلم: "لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض" وقوله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فلا يسقين ماءه زرع غيره" ولانه يأمن ان تكون حاملا، فيكون بوطئه مدخلا للشبهة في النسب، فلزمه الاستبراء) (1) .

ويتجاوز المالكية هذه الوصية الى اشتراط " المواضعة " اي ان توضع الجارية المتخذة للفراش عند احدى النساء لمعرفتهن بامر الاستبراء، فتمكث عندها المدة اللازمة للتأكد من براءة رحمها. ويطالب كل من البائع والمشتري بهذه المواضعة على حد سواء. فاذا اسفرت المواضعة عن براءة

---

1) عبد الوهاب البغدادي - الانصاف - ج 1 ص 273 _ 274

الرحـم ،وقع اتمام الصفقـة .وان ظهر الحمل على الجارية وكان من سيدها الاول فسد البيع،لانها تصير بذلك الحمل ام ولد يمنع بيعها ،وان كـان الحمل من غير السيد ،كان للمشتري الخيار في ردها او الاحتفاظ بها(1).

ولا يجب ان نفهم من هذه الاجراءات المذكورة آنفـا انهـا تخص كل الاماء المعروضات للبيع .ففي الاماء من يقتنين للخدمة فقط دون الوطء، ولا يكون المشتري في حاجة الى استبرائهن او المواضعة فيهن . وعلى هذا الاساس يميز ابن ابي زيد القيرواني بين الامة العليّة والوخش.فالامـة العليّة او المرتفعة ،كما يدعوها السقطي و ابن الاخوة ،هي الحسناء الـتي تراد للمتعة والولد ويتخيرها المشتري لنطفتـه ، ويكون حملها منقصـا من قيمتـها التجارية. اما الامـة الوخش فهي التيلا تقتنى لجمالها وانمـا لخدمتها . وليس من الضروري استبراؤها ،الا اذا اقر سيدها الاول بوطئها مع العلم بان الحمل يزيد في قيمـة الجارية الوخش بينما ينقص من قيمـة العلية (2).

---

1) ابن ابي زيد القيرواني ــ الرسالة ــ ج 2 ص250ــ256 -احمد النفراوي-الفواكه والدواني ج 2 ص 250 ــ 256 ــ مالك بن انس-المدونة الكبرى ج 6 ص 131

2) ابن ابي زيد القيرواني ــ الرسالة ــ ص 225ــ226 و ص250ــ 256 ــ احمد النفراوي الفواكه والدواني ج 2 ص 225ــ226 وص 250ــ 256 مالك بن انس-المدونة الكبرى ج 6 ص 129 ــ 130

لكن قاعدة الاستبراء المنصوص عليها في التشريع الخاص ببيع الرقيق المؤنث، لم تكن محترمة دائما. ومن اهم الوثائق الدالة على عدم احترامها، ما وصفه السقطي من اهمال لها في اسواق الرقيق الاندلسية بل اننا لنفهم من وصفه لذلك، ان الناس لم يكونوا عارفين جميعا بهذه القاعدة الشرعية، وانهم كانوا يشترون رقيقهم المؤنث ويبيعونه دون مراعاة لها. حتى ان بعضهم ليشتري الجارية في يومه ويجامعها في ليلة ذلك اليوم، دون اعتبار لما يمكن ان يجر من وراء ذلك من وقوع في الزنا واختلاط للانساب وضياع للحقوق .

يقول السقطي في وصف حادثة من هذا القبيل كان فيها شاهد عيان (استدعاني يوما رجل له دنيا وكلفني بداره، كتْبَ عقد جارية من المرتفعات اشتراها . فسألته عن استبرائها، فلم اجده ولا البائع منه يعرف حكم ذلك . فقلت لهما لا بد ان توقف للاستبراء عند ثقة من النساء تتفقان عليها او عند رجل من الثقات اهل الدين والامانة تكون عند اهله، الى ان يتحقق استبراؤها ، فقال المشتري : تقول لي شيئا والله ما سمعته قط ولا عمل معي . وانما عادتي اشتري بالمعرض الخادم وابيت معها ليلة ذلك اليوم فانفصلت وتركتهما) (1)

---

1) السقطي - اداب الحسبة - ص 48 ـ 49

لم يكن اذن اهل الاسواق عارفين في كل الاوقات بهذه القواعد الشرعية لشغلهم عنها بمسائل التجارة، واستعجالهم ارباحها ومنافعها. وربما كان ايضا للمستوى الاخلاقي دخل في هذا التجاهل للمبادىء الشرعية. وقد جرت العادة احيانا بان تكلف امرأة هي " الامينة" بالاشراف على شؤون استبراء الجواري، حسب ما تنص عليه الاحكام الشرعية وما يراعيه المحتسبون على اسواق الرقيق. لكن هذه "الامينة" لم تكن لتسلم من الاغراء بالاموال. فكانت تتغاضى عن تلك الاحكام وتتساهل مع الشراة، بل تقصر في القيام بمهمتها تلبية لرغبة النخاس في تعجيل البيع ولرغبة المشتري في تعجيل الاجتماع بالجارية. وتتقاضى مقابل هذا الاخلال بواجبها مكافأة مالية من المتبايعين (1).

لكن عادة المواضعة في الجواري لم تكن سنة متبعة في بعض الاقاليم الاسلامية. وقد ذكر لنا احمد النفراوي شارح رسالة ابن ابي زيد القيرواني ان المصريين لم يكونوا يستعملونها في بياعاتهم (2). اضف الى ذلك ما كان يستعمله الجواري من تمويه على الشراة بوضع الدماء

1) السقطي - اداب الحسبة - ص 47 -
2) احمد النفراوي - الفواكه الدواني - ج 2 ص 255

الكاذبة في مروجهن ايهاما بالحيض وبراءة الرحم ، حتى يغفل المشتري على شرائهن . وهن يتبعن في ذلك توصيات النخاسين . وقد وصف لنا ابن بطلان هذه الحيل ، ونصح الشراة بالتعويل على امراة لفحص حشا الجارية وتفقد ثديها وشحوب وجهها واشتهائها للطعام المالح ، وهي كلها علامات التوحم بالنسبة الى الحامل (1) .

ح . مكاسب الرقيق

ولقد كانت مكاسب الرقيق المبيع محل اعتبار ايضا عند ابرام الصفقة فبالرغم مما نشأ بين الفقهاء من خلاف حول حظ الرقيق من الملكية ومشروعية الفصل بين ماله ومال سيده (2) فانهم يرجعون في حالة البيع الى قول الرسول " من باع عبدا وله مال فماله للبائع الا ان يشترطه المبتاع " (3) ولذلك نراهم يشترطون في هاته الحالة التمييز بين ما يؤول للبائع وللمشتري من مال الرقيق المعروض للبيع ويصلون في ذلك الى التاكد حتى من الثياب التي يرتديها العبد او الامة عند العرض وما شابه ذلك من حلي وزينة . واذا كانت الصفقة تتناول الرقيق ومكاسبه وجب الاحتياط من الوقوع في الربا ومن بيع المال بالمال ، وتعين تقييم المكاسب وتحديدها والموازنة بينها وبين ثمن البيع ويتضح من هذه الاجراءات كلها ان مكاسب العبد او الامة المعروضين للبيع تعتبر من الاسباب الهامة في الرفع من ثمنهما (4)

---

1) ابن بطلان _ الرسالة _ ص 356 _ 357

2) مالك بن انس _ المدونة الكبرى _ ج 3 ص 217
الشيباني _ السير الكبير _ ج 2 ص 680 _ 690
ابن حزم _ المحلى _ ج 9 ص 52 _ 53

3) الترمذي _ صحيح _ ج 6 ص 2 _ 3

4) ابن قدامة _ المغني _ ج 4 ص 171 _ 173

د-عقـود البيع والشراء :

وللعقود اهميـة كبرى في بيع الرقيق وشرائـه فليس هو من البضائع التي تباع وتشترى بمجرد " المعاطاة " اي تسلم المبيع وانما يعتبر من الممتلكات النفيسـة التي لا يجوز انتقالها من ملك الـى آخر الا بعد امضاء عقـد خاضع لصيغ شرعيـة مضبوطة واعـلان عـن البيع صريح لا لبس فيـه . ومن نفائس المبيعات عند الفقهـاء ورجـال الحسبـة الجواري والعبيـد والعقارات والدواب وهي لا تجوز فيهـا المعاطاة بالاجماع لاهميتها . ولذلك يتعين امضاء العقود فيها حسمـا للخلاف بين المتبايعين . ويكتسي هذا الامر بالنسبة الى الرقيق اهميـة خاصـة تتجاوز مجرد نفاسـة هذه البضاعـة ،الى ما يمكن ان يترتـب عن تسليم الرقيق من مشاكل اخلاقيـة واجتماعيـة خطيرة ،لا مناص مـن تحديد مسؤوليـة المشتري والبائع فيها ، اذ الرقيق جزء من المجتمـع البشري فضلا عن كونـه بضاعـة تبـاع وتشترى ،وفي هذا ما يميـزه عن سائر البضائع .وبذلك ندرك اهمية العقود الخاصة بالمتاجـرة فيـه (1).

---

1) ابن الاخوة ـ معالم القربـة ـ ص 60 ـ 61

كانت صفقات بيع الرقيق وشرائه تتم اذن بكتابة عقود ولدينا شاهد على وجود هذه العقود بالاندلس،اذ اشرف ابوعبد الله محمد بن ابي محمد السقطي المالقي الاندلسي على كتابة عقد من هذا القبيل في دار احد الوجهاء،وكان موضوع العقد شراء احدى الجواري. لكن كتابة هذا العقد لم تتم لان الجارية لم يقع اذاك استبراؤها، وهو امر انكره السقطي لمخالفته للشرع ورفض بسببه ابرام العقد (1).

وقد اورد لنا كل من القيسي (2) والجزيري (3) نماذج من هذه العقود، تتضمن بعض التدقيقات الفنية المتعلقة بهذه التجارة ويستفاد منها ان عقد البيع كان ينبغي ان يشتمل على كل الدقائق والجزئيات المتعلقة بعيوب الجارية او العبد الجسدية،وذلك بعد ان تسجل في تقرير خاص وتضمن في دفتر تحتفظ به " امينة " السوق تحريا مما قد يحدث من غش او تحيل بين البائع والمشتري ، ولم يكن

---

1) السقطي ـ اداب الحسبة ـ ص 47 ـ 49

2) القيسي ـ مخطوط ـ عن بروفنسال ـ Provençal ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ـ ج 3 ص 314-347

3) الجزيري ـ مخطوط ـ عن بروفنسال ـ Provençal ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ـ ج 3 ص 314-347

امضاء العقد او تسجيله الا بعد التاكد من البضاعة وبعد اخذ الاحتياطات اللازمة من قبل المشتري (1).

ومن الامور المشترطة مبدئيا في العقد ضبط هوية البائع للتاكد من مشروعية ملكه للرقيق المبيع واثبات اسمه وصفته في دفتر البيوعات بالسوق. فان تعذر على النخاس معرفة البائع تعين عليه الاتيان بمن يعرفه ليكون ضامنا لمشروعية البيع. وتتخذ هذه التحريات خصوصا مع جلاب العبيد من الغرباء حتى لا يكون الرقيق مسروقا، او حرا متواطئا على الغش، وحتى يمكن للمشتري ان يعلم من البائع حقيقة امر البضاعة وشؤونها الخفية، كأن يكون للامة زوج او ابن، الى غير ذلك من الشؤون من محاسن وعيوب. وحتى يمكن ايضا معرفة الشروط التي يشترطها المتبايعان على بعضهما وهي شروط تسجل عادة في وثيقة حتى يمكن الرجوع اليها عند الحاجة (2).

يقول ابن الاخوة متحدثا عن هذه الاجراءات مقارنا لها بما يحدث من اجراءات بيع الدواب " وينبغي الا يبيع (اي النخاس) لاحد

---

1) ليفي بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314 _ 317 - خليل بن اسحق المختصر ص 7 _ 8

2) ابن الاخوة - معالم القربة _ ص 152

جارية ولا عبدا حتى يعرف البائع او ياتي بمن يعرفه ويثبت اسمه وصفته في دفتره لئلا يكون المبيع حرا او مسروقا ،ويتفقد عهد المماليك المتقدمة في ايدي مواليهم ليعلم منها ما قد شرط على المشتري من ذلك بينهما ..... ويؤخذ على سماسرة الدواب الا يبيعوا دابة حتى يعرفون (كذا) البائع او يعرفون من يعرفه ويكتب اسمه في دفتره لئلا تكون معيبة او مسروقة كما قلنا ويعين عيبها للمشتري وسنها وطرقتها ،ولا ينادي عليها الا من فم التاجر، ويراقب الله تعالى فيما هو بصدده من امر الحيوان " (1).

ويحدثنا السقطي عن التحري في امر البائع وضرورة البحث عن " ضامن بلدي " في صورة غيابه ، ليكون ضامنا في صفة المبيع ومسؤولا عن ظاهرة الغش فيه امام المشتري ، فيقول "ويؤمر النخاسون الا يبيعوا لغير مشهور بالعين والاسم مملوكا او مملوكة الا بان يعطي ضامنا بلديا معروفا بالعين والاسم ،ولا سيما الغرباء الذين يحملون المماليك

---

1) المصدر نفسه ص 152 ـ 153

من البلدان. وان يباحثوا العبيد ويسائلوهم لما يخاف في ذلك كلـــه

من ان يكون العبد مسروقا، اويكون له اهل يمكن هروبـــه اليهم، او يكون

حرا قد استعبد او معدا للموافقة، اويكون للانثى زوج أو ولد، او يكون لواحد

منهم عيب خفيّ يختفي " (1).

ويشترط في بيع الرقيق النفيس الذي يعز وجوده، قبض ثمنـه

مباشرة حال امضاء العقد. ويمنع " السلم " عادة في هاته الحال، لانــه

من العقود الممنوعـة في هذا النوع من الرقيق. فلا يسلم مثلا فـــــي

الجاريـة الحسناء، لان السلم فيها يفوت الربح على بائعهـــــــا

لكن هذا العقد الممنوع في بيع الرقيق النفيس يباح في غير النفيس

منـه، لما فيـه من تسهيل لطرق المبادلات والمعاملات (2).

و للفقهاء احترازات ايضا ازاء عقـود اخرى مثل بيع الجزاف اذا تعلق الامر ببيـع

الرقيق وذلك بسبب ما ينجـر عنه من غرر قائم على اخفاء قيمـة البضاعـــــة

الحقيقيـــــة (3)

---

1) السقطي ــ آداب الحسبة ــ ص 52
2) ابن الاخوة ــ معالم القربـة ــ ص 74
3) ابن قدامة المغني ج 4 ص 131

6) احكام الخيار والرد بالعيب

أ- خيار الشرط او التروي

ولقد سن الفقهاء في تشريعهم للمعاملات التجارية نوعا من البيوع يسمونه بيع الخيار. وهو وان كان شاملا للتجارات كلها، ولم يكن مقصورا على تجارة الرقيق، فانهم يؤكدون على اهميته بالنسبة الى هذا النوع من التجارة. ويظهر ذلك في الامثلة التي يوردونها عند تحليلهم لصيغ هذا البيع اذ يستمدونها في الغالب من المبايعات الخاصة بالرقيق (1) كانهم يشيرون بذلك الى ان هذه التجارة هي احوج التجارات الى بيع الخيار واكثرها ملاءمة له، لان المشترى للرقيق احوج من غيره الى مهلة يتخير فيها بضاعته، ويتاملها ويقلبها، ولان هذه البضاعة في حد ذاتها قد كانت في اكثر الاحيان، مظنة للغش وموضوع تحيل وتدليس، فاذا علمنا ان هذا الخيار هو باب مفتوح امام الشراة لكي يقلبوا العبيد كما يقلب المتاع والحيوان ادركنا السر في الحاح الفقهاء على صلوحيته في المعاملات الخاصة بتجارة الرقيق.

ويتمثل هذا الخيار الذي يدعوه المالكية بخيار التروي (2) ويدعوه الشافعية بخيار التشهي (3) في مهلة من الوقت يتفق عليها المتبايعان

---

1) انظر مثلا : الشافعي - الام - ج 3 ص 4
2) ابن ابي زيد القيرواني - الرسالة ح 2 ص 250 - 256
3) الشربيني الخطيب - مغني المحتاج ح 2ص 43

ويتم خلالها فسح المجال للمشتري حتى يعقد العزم على الشراء بعد تفحص البضاعة، والتاكد من قيمتها، واستشارة من يريد استشارته في خصوصها. فان لم يرتضها امكنه ردها (1) وتتضح لنا صيغة هذا البيع المشروط بالخيار من خلال هذا الحوار الدائر بين الامام سحنون وعبد الرحمان بن القاسم في المدونة الكبرى (قلت لعبد الرحمان بن القاسم: صف لي بيع الخيار في قول مالك. قال: قال مالك: بيع الخيار ان يقول الرجل ابيع منك هذا الثوب او هذه الدار او هذه الجارية او هذه الدابة، وانا عليك فيها بالخيار هذا اليوم او هذه الجمعة او هذا الشهر قال: قال مالك: اما الثوب فلا باس به ان يكون فيه اليوم واليومين وما اشبه ذلك. وما كان اكثر من ذلك فلا خير فيه. والجارية يكون الخيار فيها ابعد من ذلك قليلا الخمسة ايام والجمعة وما اشبه ذلك، فلا باس فيها بالخيار الى ذلك ينظر الى خبرها وهيئتها وعملها... ويختبر العبد بالاستخدام فيعرف بذلك عمله ونفاذه ونشاطه من ضعفه وبلادته وكسله) (2).

---

1) الشافعي-الام ج 3 ص4-5 الشربيني الخطيب.مغني المحتاج-ح 2ص45 النفراوي-الفواكه الدواني ج 2 ص 250-256

2) مالك بن انس-المدونة الكبرى ج 10 ص2-3 انظر ايضا-ابن ابي زيد القرواني-الرسالة ح 2 ص 250-256- والشربيني الخطيب-مغني المحتاج ج 2 ص 43

وقد اجمع الفقهاء على شرعية هذا البيع وعرفوه بنفس الطريقة. وكان السبب في تسميته بخيار الشرط هو تمييزه عن خيار المجلس،لان المشتري لا يكتفي فيه بفرصة المساومة والتعاقد مع البائع، ويشترط فرصة اخرى لمزيد التامل (1) يقول الشافعي في ذلك (وكل متبايعين في سلف الى أجل أودين أوعين أو صرف أو غيره تبايعا وتراضيا ولم يتفرقا عن مقامهما او مجلسهما الذي تبايعا فيه ، فلكل واحد منهما فسخ البيع.وانما يجب على كل واحد منهما البيع حتى لا يكون له رده الا بخيار اوشرط خيار او ما وصفت اذا تبايعا فيه وتراضيا و تفرقا بعد البيع عن مقامهما الذي تبايعا فيه ، او كان بيعهما عن خيار، فان البيع يجب بالتفرق والخيار) (2). ويقدم الحنابلة والحنفية تعريفات لبيع الخيار شبيهة بهذا التعريف، وهم يستندون جميعا في تشريعهم لهذا البيع الى تصرفات الرسول (ص) واقواله فيروون عنه انه كان قد خير بعض المشترين بعد البيع (3) وانه قال (المتبايعان كل واحد منهما على صاحبه بالخيار ما لم يتفرقا الا بيع الخيار) (4).

---

1) النفراوي - الفواكه الدواني ج 2 ص 250_256
2) الشافعي-الام-ج 3 ص4 انظر ايضا-الشربيني الخطيب - مغني المحتاج ج 2 ص 43
3) الشافعي-الام-ج 2 ص 4_5
4) المصدر نفسه -النفراوي - الفواكه الدواني -ج 2 ص 250_256 الشربيني الخطيب-مغني المحتاج ج 2 ص 45 _ ابو غانم الخراساني الاباضي-المدونة الكبرى-ج 2 ص 103

وقد اختلف الفقهاء في مدة خيار الشرط بالنسبة للرقيق، وان كانوا يجمعون على ضرورة التحديد بمدة. فمنهم من جعلها اسبوعا مثلما جاء في قول مالك. ومنهم من زاد على ذلك الى شهر. ومنهم من حددها بثلاثة ايام. لكن الراي السائد عندهم في خيار الرقيق هو ما يسميه بعضهم "بعهدة الثلاثة" اي ثلاثة ايام يخصصها المشتري لتفحص بضاعته والتروي فيها. وهم يهيدون ذلك بما رووه من قول الرسول (ص) (عهدة الرقيق ثلاثة ايام) (1) يقول صاحب الفتاوى الهندية في الخلاف حول المدة وترجيح عهدة الثلاثة (وهو (اي الخيار) على انواع فاسد بالاتفاق، كما اذا قال اشتريت على اني بالخيار اوعلى اني بالخيار اياما اوعلى اني بالخيار ابدا. وجائز بالاتفاق، وهو ان يقول على اني بالخيار ثلاثة ايام فما دونها. ومختلف فيه، وهو ان يقول على اني بالخيار شهرا او شهرين، فانه فاسد عند ابي حنيفة رحمه الله تعالى، جائز عند ابي يوسف ومحمد رحمهما الله تعالى... والصحيح قول الامام) (2).

ولا يخفى ان غرض هذا التحديد هو تمكين المشتري من اختيار البضاعة في حدود زمنية معقولة ومنعه من اطالة المدة حتى لا يغتنم الفرصة

---

1) عبد الوهاب البغدادي- الانصاف - ج 1 ص 278 النفراوي - الفواكه الدواني ج 2 ص 250-256

2) الاوزجندي - الفتاوى الهندية ج 3 ص 38 - انظر ايضا - ابو غانم الخراساني الاباضي - المدونة الكبرى ج 2 ص 103

للانتفاع بها على حساب البائع. ولذلك نرى المشرع يجتهد ايضا في تحديد مسؤولية كل من البائع والمشتري اثناء مدة الخيار ، ولا يخفى كذلك ان صيغة هذا البيع قد كانت جد ملائمة لتجارة الرقيق لانها كانت تمكن المشتري من ان يختبر ويقلب البضاعة ومن ان يمتحن قدرة الرقيق على العمل والخدمة وان يتاكد من اتقانه للصنعة ان كان من ذوي الصناعات .

ب-خيار النقيصة او العيب :

ويخول الفقهاء للمشتري بعد اتمام الصفقة ان يرد ما اشتراه من رقيق ،اذا اكتشف به عيبا قديما لم يكن قد تفطن اليه عند الشراء او عيبا طرأ عليه مدة التقليب التي يسمونها ،بخيار التروي ،او التشهي ، او الشرط، فيكون المشتري في هذه الحال مخيرا بين امساك العبد والرضى به ، رغم عيبه ،او رده على البائع ويعتبر هذا التخيير حقا من حقوقه بعد تسلم البضاعة ودفع الثمن . ويسميه الفقهاء "خيار بالعيب" لان قيمة العبد قد نقصت بعد الشراء عن قيمته زمن البيع .

يقول ابن قدامة في تعريف هذا الخيار:(انه متى علم بالبيع عيبا لم يكن عالما به ، فله الخيار بين الامساك والفسخ ،سواء كان البائع علم العيب وكتمه ، اولم يعلم .لا نعلم بين اهل العلم في هذا خلافا) (1)

---

1) ابن قدامة - المغني-ج 4 ص 143

كما يقول ابن ابي زيد القيرواني في هذا المعنى (ومن ابتاع عبدا فوجد بـه عيبا فله ان يحبسه ولا شيء له اويرده وياخذ ثمنه) (1) ويتعرض النفراوي شارح رسالة ابي زيد،الى تفسير معنى خيار النقيصة،فيستشهد بتحديد ابن عرفـة لهذا المصطلح فيقول (وعرفـه ابن عرفـة بقوله : لقب لتمكين المبتاع من رد مبيعه على بائعه،لنقصـه عن حالة بيع عليها) (2) ولا يختلف الشافعية والحنفيـة عن غيرهم من ارباب المذاهب في فهمهم لمعنى الـرد بالعيب.فهذا الشربيني الخطيب يقارن بين خيار الشرط وخيار النقيصـة فيقول (الخيار هو طلب خير الامرين من امضاء العقد او فسخه.والاصل فـي البيع اللزوم،لان القصد منه نقل الملك،وقضية الملك التصرف،وكلاهما فـرع اللزوم.الا ان الشارع اثبت فيـه الخيار،رفقا بالمتعاقدين وهو نوعان : خيار تشه وخيار نقيصة.فخيار التشهي ما يتعاطاه المتعاقدان باختيارهمـا وشهوتهما من غير توقف على فوات امر في البيع وسببه المجلس او الشرط، وخيار النقيصة سببـه خلف لفظي،او تغرير فعلي،او قضاء عرفيّ،فمنه خيار العيب والتصرية والخلف،وتلقي الركبان ونحو ذلك) (3) وهذا الاوزجندي الحنفي

1) ابن ابي زيد القرواني-الرسالة ج 2 ص 251
2) النفراوي- الفواكه الدواني -ج 2 ص 251
3) الشربيني الخطيب -مغني المحتاج ج 2 ص 43

يحدد العيب بقوله (اذا اشترى شيئا ولم يعلم بالعيب وقت الشراء ولا علمه قبله ، والعيب يسير او فاحش فله الخيار، ان شاء رضي بجميع الثمن وان شاء رده) (1).

ويستند المشرع في اقراره لهذه الصيغة التجارية الى حديث الرسول (ص) حول تصرية الغنم قبل بيعها، وهي ترك حلابها حتى يعظم ضرعها، ويتوهم المشتري انها حلوب فيرتفع ثمنها. وهذا نص الحديث (لا تصروا الغنم، ومن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد ان يحلبها، ان رضيها امسكها، وان سخطها ردها وصاعا من التمر) (2) ويتضح من هذا المستند المجمع عليه ، ومن تعريفات الفقهاء الآنفة الذكر، ان الغاية من تشريع هذا الحكم، هي مواجهة الغش الحادث في المبايعات وحماية حقوق الشراة وحفظهم من الغرر ، ولهذا السبب ادرج مصنف المدونة الكبرى لمالك ، وجوه الرد بالعيب في باب التدليس (3) ومن السهل ان نفهم من خلال الحاح الفقهاء على مبدأ الرد بالعيب في تجارة الرقيق خاصة انهم كانوا يواجهون تيارا قويا من الانحراف في هذا الميدان التجاري، وان التجار

1) الاوزجندي - الفتاوى الهندية- ج 3 ص 66
2) الشافعي-الام-ج 3 ص 68 والمصادر السابقة-
3) مالك بن انس-المدونة الكبرى-ج 10 ص 132

لم يكونوا يعملون بتعاليم الشرع في معاملاتهم،فكان على المشرع اذن ان يضبط من هذه الصيغ القانونية ما يحمي الشراة من هذا الخطر بمنحهم حق الرد .

ج-العيوب الموجبة للرد :

وقد حدد الفقهاء العيوب الموجبة للرد،وميزوها عن غيرها من العيوب الطفيفة التي يعتبر الرد من اجلها من قبيل التعنت والتطاول على البائع.ويدل تحديدهم لهذه العيوب على ان الاغلبية الساحقة منها متصلة بالغش والمخادعة ومن اهمها تلك العيوب الخفية التي تتصل بحال الرقيق الجسدية والنفسية والاجتماعية،ويتفطن اليها المشتري ،ويطالب البائع شرعا بارشاده اليها ولكنه يتعمد اخفاءها طلبا للربح .ولذلك اجمعوا على ان كل تدليس من قبل البائع في اخفاء عيب من العيوب يعتبر موجبا للرد .وكانت احكامهم شديدة في هذه النقطة حتى ان بعضهم ومنهم الحنابلة،قد جوز للمشتري ان يرد العبد المغشوش على بائعه ، وان كان قد تعيب عنده بعيب جديد .وان يسترجع ثمنه دون تعويض لما اصابه من نقص حادث (1).

---

1) ابن قدامة-المغني-ج 4 ص 151

ويضرب بعضهم امثلة على العيوب الموجبة للرد فيقول :(وكل تدليس يختلف الثمن لاجله ، مثل ان يسود شعر الجارية او يجعده ، او يحمر وجهها ... يثبت الخيار لانه تدليس بما يختلف الثمن باختلافه ، فاثبت الخيار كالتصرية) (1) ومن الامثلة ايضا ان يصرّي البائع ثديي امة تباع للرضاعة ، ويقتنيها المشتري لتكون ظئرا ، فيتفطن بعد حين الى نضوب لبنها (2) وبصورة عامة كل تدليس يقصد من ورائه الزيادة في ثمن العبد او الجارية ، يخول للمشتري حق الرد بالعيب .

وليس من الضروري ان يكون سبب الرد عيبا ، بل يكفي ان لا يفي البائع بشرط اشترطه المشتري في الرقيق الذي يرغب في الحصول عليه ، كأن يطلب منه جارية ثيبا فيعطيه بكرا ، لكي يقع رد البضاعة . وذلك بالرغم من ان البكر اكثر قيمة من الثيب ، فالعبرة هنا بمصلحة المشتري ورغبته ، لانه قد يكون عاجزا عن البكر على حد قول ابن قدامة . يقول في ذلك :(واذا اشترط المشتري في البيع صفة مقصودة مما لا يعد فقده عيبا صح اشتراطه ، وصارت مستحقة يثبت له خيار الفسخ عند عدمها ، مثل ان يشترط مسلما فيبين كافرا ، او يشترط

---

1) المصدر نفسه - ج 4 ص 141

2) المصدر نفسه

الامة بكرا او جعدة .... فمتى بان خلاف ما اشترطه فله الخيار في الفسخ والرجوع بالثمن ،او الرضى به ولا شيء له ، لا نعلم بينهم في هذا خلافا ،لانه شَرَط وصفا مرغوبا فيه ، فصار بالشرط مستحقا) (1).

ويعرف الفقهاء هذه العيوب ايضا بانها " ما العادة السلامة منه " من امراض وعاهات،وكل ما ينقص قيمة الرقيق وثمنه ، بسبب خلل نفسي او عطب جسدي. يقول ابن قدامة في تعريف هذه العيوب:(هي النقائص الموجبة لنقص المالية في عادات التجار،لان المبيع انما صار محلا للعقد باعتبار صفة المالية، فما يوجب نقصا فيها يكون عيبا .والمرجع في ذلك الى العادة في عرف اهل هذا الشان وهم التجار ، فالعيوب في الخلقة كالجنون والجذام والبرص والعمى والعور والعرج والعفل والقرن والعقق والرتق والقرع والصمم والخرس وسائر المرض،والاصبع الزائدة والناقصة، والحول والخوص والسبل وهو زيادة في الاجفان، والتخنيث وكونه خنثى ، والخصاء والتزوج في الامة والبخر فيها ، وهذا كله قول ابي حنيفة والشافعي ولا اعلم فيه خلافا ....

.........وكذلك الدين في رقبة العبد اذا كان السيد معسرا. والجناية الموجبة للقود ،لان الرقبة صارت كالمستحقة لوجوب الدفع في الجناية

---

1) المصدر نفسه - ج 4 ص 154-155

والبيع في الدين ،ومستحقة للاتلاف بالقصاص ،والزنا والبخر عيب في العبد والامة جميعا ،وبهذا قال الشافعي ،وقال ابو حنيفة ليس ذلك بعيب في العبد ،لانه لا يراد للفراش والاستمتاع به بخلاف الامة ،ولنا ان ذلك ينقص قيمته وماليته ،فانه بالزنا يتعرض لاقامة الحد عليه ،والتعزير ولا يأمنه سيده على عائلته وحريمه ،والبخر يؤذي سيده ومن جالسه وخاطبه وساره ، واما السرقة والاباق والبول في الفراش،فهي عيوب في الكبير الذي جاوز العشر وقال اصحاب ابي حنيفة :في الذي ياكل وحده ويشرب وحده .وقال الثوري واسحق ليس بعيب فيه حتى يحتلم ،لان الاحكام تتعلق به من التكليف ووجوب الحدود ببلوغه فكذلك هذا....) (1).

هذه بعض الامثلة التي يسوقها الفقهاء على العيوب الموجبة للرد وفيها كما اتضح ما يتعلق بجسد الرقيق واخلاقه ،ومزاجه و وضعه الاجتماعي. وهي جميعا تتسبب في نقص قيمة الرقيق عند البيع ويدخل منها الضرر على المشتري ،فان اطلع عليها عند الشراء ورضيها ،جاز البيع وان اكتشفها بعد العقد واتمام الصفقة،كان له الحق في الرد .

---

1) ابن قدامة -المغني- ج 4 ص 152

ويورد لنا خليل بن اسحق قائمة لبعض العيوب الموجبة للرد شبيهة بما ذكره ابن قدامة منها.فهو يحددها (بما العادة السلامة منه كعور وقطع ولو انملة، وخصاء، واستحاضة، ورفع حيضة استبراء، وعسر وزنا وشرب وبخر وزعر وزيادة سن وظفر، وعجر وبجر، والدين او والد لا اخ ولا جد، وجذام أبا و جنونه، بطبع لا بمس جن، وكرهص وعثر و حرن، وعدم حمل معتاد، وكالديـن وتقويس الذراعين، وقلة الاكل في الحيوان البهيمي او العاقل، اذا كان ينقص عمله بسبب قلة اكله، واما كثرة الاكل فليست عيبا في الحيوان البهيمي، واما في العبد والامة فيظهر انها عيب حيث خرجت عن المعتاد، كما يؤخذ من تخيير ما استاجر رجلا باكله فيوجد اكولا) (1).

وما يعتبر عيبا في الكبير في الرقيق، قد لا يعتبر كذلك في الصغير منه لان الصغير لم يستتم ادراكه، وفي الامكان تقويمه ، اما الحد الفاصل بين الكبر والصغر في مجال العيوب فهو السن العاشرة. ويعلل ابن قدامة ذلك بقوله (وحد ذلك بالعشر لامر النبي صلى الله عليه وسلم بتاديب الصبي على ترك الصلاة عندها، والتفريق بينهم في المضاجع لبلوغها ، فاما من دون ذلك فتكون هذه الامور منه ، لضعف عقله ، وعدم تثبّته . وكذلك ان كان

---

1) خليل بن اسحق ـ المختصر - ص 50-70

العبد يشرب الخمر او يسكر من النبيذ ، نص عليه احمد لانه يوجب عليه الحد فهو كالزنا ، وكذلك الحمق الشديد والاستطالة على الناس لانه يحتاج الى التاديب، وربما تكرر فافضى الى تلفه ، ولا يكون عيبا الا في الكبير دون الصغير لانه منسوب الى فعله ، وعدم الختان ليس بعيب في الصغير لانه لم يفت وقته) (1).

د-شروط الرد واساليبه

وقد ضبط الفقهاء اساليب الرد بشكل يردع المتبايعين عن اغتنام الفرص على حساب بعضهم بعضا ، فاذا اكتشف المشتري برقيقه عيبا وعزم على رده ، لم يكن له ان يتصرف معه تصرف الراضي به ، والا بطل الخيار. فليس له ان يمسكه اطول من المدة الضرورية لكشف العيب، ولا ان يطيل صمته عن ذلك العيب رغبة في استغلال ما بيده من بضاعة كاستخدامه للعبد او الامة. ولهذه الاسباب حاول الفقهاء ضبط المدة التي يجوز فيها الرد (2) وحددها اغلبهم بثلاثة ايام واستشهدوا

1) ابن قدامة -المغني-ج 4 ص 153 انظر ايضا-الشربيني الخطيب-مغني المحتاج ج 2 ص 54

2) ابن ابي زيد القيرواني - الرسالة - ج 2 ص 251 - 252 - ابن قدامة - المغني ج 4 ص 143 وما بعدها.

بقول الرسول (من اشترى مصرّاة فهو فيها بالخيار ثلاثة ايام ، ان شاء امسكها وان شاء ردها ورد معها صاعا من التمر) فاذا انقضت هذه المدة كان على المشتري الاسراع في الرد ، ان عزم عليه لان تراخيه يدل على رضاه (1).

اما اذا كان العيب من النوع الذي لا يظهر الا بعد مضي مدة طويلة مثل الجنون والجذام وغيرهما من الامراض فقد خصص الفقهاء للرد مدة اطول ، سموها بعهدة السنة، وقد نال الرضى بالعيب من قبل المشتري اهتمام المشرع ايضا، فيخول الشافعية والمالكية والحنفية الامساك للمشتري ويضيف الحنابلة حقا آخر له ، وهو مطالبة البائع بدفع قيمة النقص الموجود في الرقيق اي دفع التعويض وجبر الضرر . ويشترط الفقهاء في العيب الموجب للرد ان يكون من العيوب التي يمكن الاطلاع عليها من غير تغيير لذات المبيع، اما ما لا يمكن الاطلاع عليه الا بالتغيير فلا رد للمشتري به لان فيه اتلافا لحقوق البائع .

ويذهب المالكية الى ان فسخ البيع بالعيب لا يحتاج فيه الى حكم الحاكم ولا رضى البائع سواء اكان ذلك قبل قبض المبيع او بعده ، وان خالفتهم في هذا الراي بعض المذاهب مثل الحنفية . يقول عبد الوهاب

(1) الاوزجندي - الفتاوى الهندية - ج 3 ص 75

البغدادي (الفسخ بالعيب غير مفتقر الى حكم الحاكم ولا رضى البائع قبل القبض وبعده ، ووافقنا ابو حنيفة فيه قبل القبض وخالفنا فيه بعد القبض فقال : لا يثبت الفسخ الا باحد امرين اما بحضورهما او حكم الحاكم ودليلنا هو قوله صلى الله عليه وسلم في المصرّاة : ان سخطها ردها فاطلق ولم يخصص ولانه معنى يقطع استدامة العقد . فاذا لم يكن رضى المتعاقدين شرطا فيه ، لم يكن حضورهما شرطا فيه . وهذا يقاس على الطلاق) (1).

وقد يتفق ان يحدث المشتري في تلك الاثناء بعبده او امته عيبا جديدا بالاضافة الى عيبه القديم الذي تقرر الرد بموجبه ، وفي مثل هاته الحال يقترح المالكية حلولا ثلاثة ، اقلها ان يكون العيب الحادث طفيفا ، لا ينقص من قيمة الرقيق ، ولا يغير من هيئته التي اشترى عليها مثل الوعك والرمد والصداع وذهاب ظفر . واذاك لا يكون له اعتبار في مسالة الرد ويحتفظ المشتري بحقه في رد عبده بعيبه القديم واسترجاع ثمنه (2)

---

1) عبد الوهاب البغدادي - الانصاف - ج 1 ص 267

2) ابن ابي زيد القيرواني - الرسالة - ج 2 ص 151 - 153

وثانيها اذا كان العيب الحادث مفسدا للرقيق اي منقصا لقيمته وثمنه او مغيرا لهيئته ، كقطع عضو منه ، او تزويج الامة ، ولم يقبل البائع الرد بسبب ذلك ، فيكون المشتري في هذه الصورة امام حلين : اما ان يمسك الرقيق الذي بيده ، ويطالب البائع بتعويض العيب القديم ، واما ان يرد الرقيق ويدفع للبائع تعويض العيب الحادث ، ويكون تقدير ارش العيب القديم بالنسبة الى قيمة العبد سليما ، اما تقدير ارش العيب الحادث فيكون بالنسبة الى قيمة العبد معيبا بالعيب القديم (1) قال خليل بن اسحق متحدثا عن هذا النوع من العيوب الحادثة ، وهو الذي يسميه بالمتوسط : (وتغير المبيع ان توسط فله اخذ القديم ورده ، ودفع الحادث وقوّما بتقويم المبيع يوم ضمان المشتري ، فيقوّم سالما من العيبين بعشرة مثلا وبالقديم بثمانية وبالحادث بستة فان رد دفع للبائع اثنين وان تماسك اخذ اثنين وان زاد الثمن او نقص فبنسبة ذلك منه) (2).

وثالثها ان يكون العيب الحادث مخرجا عن المقصود من المبيع اي متلفا له ، وليس منقصا لثمنه فحسب . وفي هاته الحال يكون العيب مفوتا

---

1) النفراوي ــ الفواكه الدواني-ج 2 ص 151ــ155

2) خليل بن اسحق ــ المختصر ــ ص 50- 70

للرد ،ولم يبق امام المشتري الا ان يطالب البائع بارش العيب القديـــم وان يمسك ما بيده من عبد او امــة ، ويكون تقدير الارش بالفرق الموجـــود بين قيمة العبد سليما وقيمتـــه معيبا (1) قال خليل في هذه الصـــورة الثالثة:(والمخرج عن المقصود مفيت،فالارش،فيقوم سليما من كل عيب لانـه اشتراه على وجه انه سالم.فاذا قيل قيمتـــه عشرة يقال : وما قيمته معيبــا بالقديم؟فاذا قيل ثمانيـــة،فانـــه يرجع من الثمن بنسبة ما نقصتـــه الثمانية عن العشرة،وهو الخمس.فاذا كان الثمن خمسة عشر رجع بثلاثة واذا كان الثمن مائـــة رجع بعشرين وهكذا) (2). ويوافق الحنابلة المالكية في هذه الصور المتعلقـــة بالرد ،عند طروء عيب جديد فضلا عن العيب القديـــم لكن الشافعية والحنفيـــة يخالفونهم ويرون حدوث العيب الجديد ،معطّلا للرد ، مهما كان نوع ذلك العيب.وليس للمشتري في نظرهم الا المطالبـــة بتعويض العيب القديم.

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات نجد الرد بالعيب نفسه ، يصبـــح مجالا للتحيل من قبل المشتري هذه المرة.وتواصل ذلك التحيل الى عصور متاخرة،اذ نجد روايات تفيد ان هذه الاساليب قد استعملت من قبـــل

---

1) النفراوي ـ الفواكه الدواني ـ ح 2 ص 151ـ156

2) خليل بن اسحق ـ المختصر ـ ص 50-70

الشراة للانتفاع بالرقيق مدة من الزمن ، ثم اتخاذ ادعاء العيب ذريعة لرده واسترجاع ثمنه .وقد افضى الامر في هذه الحال الى العبث بالاخلاق ،كالتمتع بالجواري بصورة وقتية ، ثم ردهن الى بائعهن.وهاتان روايتان يوردهما ابن المجاور في المستبصر، نورد هما لدلالتهما دون حاجة الى التعليق عليهما .

يقول ابن المجاور متحدثا عن صفة بيع الجواري : " تبخّر الجارية وتطيب وتعدّل ويشد وسطها، وياخذ المنادي بيدها ويدور بها في السوق وينادي عليها ويحضر التجار الفجار يقلبون يدها ورجلها وساقها وافخاذها وسرتها وصدرها ونهدها ويقلب (كذا) ظهرها ويشبر عجزها ويقلب لسانها واسنانها وشعرها ويبذل المجهود.وان كان عليها ثياب خلعها وقلب وابصر.وفي اخر الامر يقلب فرجها وجحرها معاينة من غير ستر ولا حجاب.فاذا قلب ورضي واشترى الجارية تبقى عنده مدة عشرة ايام زائد وناقص (كذا) فاذا رعى وشبع ومل وتعب وقضى وطره وانقطع وطره (كذا) يقول زيد المشتري لعمرو البائع باسم الله يا خواجا بيني وبينك شرع محمد بن عبد الله فيحضرا عند الحاكم فيدعى عليه العيب"(1)

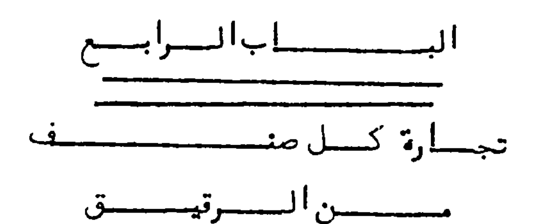
ويقول ايضا عن الرد بالعيب " حدثني الحسن بن علي حرور الفيروز كوهي قال : اني بعت جارية هندية بعدن على رجل اسكندراني بقيت عنده سبعة ايام

1) ابن المجاور ـ المستبصر ـ تحقيق اوسكار لفجرن ـ Oscar Löfgren ـ
طبعة ليدن 1950 ـ ج ع ـ ص 66

فلما شبع استعيب فيها واحضرني الى الحاكم وادعى علي العيب فقال الحاكم: وما عيبها قال : هي واسعة الرحم رهلة الفرج فقلت له : اذا كان ايرك صغيرا وانت تتباخل على الجارية بشرى الماء فما يصنع رحمها السمين الابيض المتوف الطيب ،فلما سمعها الحاكم قال لمن حضر : اخرجوهم فخرجنا ورحت الى شغلي وبقيت الجارية في كسبه ولم ادر ما فعل الدهر بهما " (1).

---

1) المصدر نفسه-ج 2 ص 66-67



الباب الرابع

تجارة كل صنف من الرقيق

الفصـــــــل الاول

تجـــــارة الرقيـــق المذكر

6 رواج رقيق الخدمة

انّ من عوامل نشاط تجارة الرقيق المذكر في هذا العصر اقتناء المسلمين له لاستخدامه في الميدان الاقتصادي من فلاحة وتجارة وصنائع وقد كان هذا الرقيق موجودا في المدن والعواصم والارياف والحقول على حد سواء. وكان يشترى ليشتغل لفائدة اسياده في المتاجر ودكاكين الحرف والمزارع والمراعي. كما كانت الدولة تقتني منه اعدادا وفيرة للقيام بأنشطة اقتصادية أيضا. ومن أشهر هذا الرقيق المجلوب لغايات اقتصادية الزنوج الذين كانوا يجلبون من الصومال وزنجبار الى العراق لتوفير اليد العاملة لكبار الاثرياء من اصحاب المصالح قصد خدمة السهول الملحية قرب البصرة حتى تصبح قابلة للزراعة وتتمّ الاستفادة من الاملاح المتجمعة (1) .

---

(1) الطبري - تاريخ الأمم والملوك . ج 3 ص1742

فقد جلبت جماعات كبيرة من الزنوج لهذا الغرض كان بعضها يتراوح بين ألف وخمسة آلاف (1) وقد يصل عددها الى اكثر من ذلك بكثير.فقد بلغ عدد احدى هذه الجماعات في منطقة "دجيل الاهواز" خمسة عشر الفا (2) كما استعمل عبيد القرى المجاورة للبصرة في هذه المهام الاقتصادية الفلاحية ايضا (3) .

ولئن كان استخدام مثل هذه المجموعات الكبيرة من الرقيق في خدمة الأرض يعتبر ظاهرة نادرة في تاريخ المسلمين الاقتصادي فانه لا مجال للشك في انّ الرقيق قد جلب للقيام بشتى المهام الاقتصادية كالعمل في المناجم والمزارع والاضطلاع بممارسة مختلف الصناعات والتجارات لفائدة الاسياد .

---

(1) ل . ماسينيون - L . Massignon - دائرة المعارف الاسلامية مقال زنج - ح 4 ص 1281 - 1282

(2) الطبري - تاريخ الامم والملوك - ح 3 ص 1750 . 1751

(3) المصدر نفسه

وقد قدم لنا ابن حوقل صورة حيّة عن استخدام السيد لعبده في التجارة وتنمية الأرباح وذلك من خلال ما رواه عن أحد التجار بما وراء النهر وهي أخبار تصوّر لنا مدى تعويل السادة على مماليكهم في الاشراف على مباشرة شؤنهم التجارية (1) كما عرضت لنا كتب الحسبة صورا عن اختبار الرقيق في شتى المهن والحرف والصنائع ممّا يدّل على أهمية هذه الايدي العاملة في حياة الاقتصاد الاسلامي اذاك (2) وكان شأن المغرب شأن المشرق في هذا المجال فقد كان للرقيق بالاندلس مثلا دور كبير في اقتصاد البلاد الفلاحي والصناعي وكانت لهم يد بيضاء في ازدهار الحضارة الاندلسية (3) .

---

(1) ابن حوقل - صورة الارض - الترجمة الفرنسية . ج -2- ص 380 - 382

(2) السقطي - آداب الحسبة - ص 47 - 50

(3) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 180 - 185 و ص 208 - 214 .

وقد نشطت تجارة الخدم في هذا العصر سواء منهم المختصون بخدمة القصور والبلاطات أو الذين يقع اقتنائهم لخدم الأسر في المنازل.

وكانوا يتألفون من رقيق مذكر ومؤنث على حدّ السواء. كما كانوا يتألفون من الخصيان أيضا . ويحسن أن نقدم بعض الامثلة على رواج تجارة هؤلاء الخدم بالمشرق والمغرب خلال هذا العصر. ففي عهد المكتفي بالله (289 ـ 295 هـ/ 902 - 908 م) كان بدار الخلافة ببغداد عشرة آلاف خادم (10.000) من سود وصقالبة وفي عهد المقتدر (295 - 320 هـ/ 908 - 932م) احدى عشر ألفا (11.000) منهم سبعة آلاف (7.000) من السود وأربعة آلاف (4.000) من الصقالبة وعدّ من بينهم اربعمائة حارس (400) وثمانمائة (800) فرّاش وكان بالبلاط اذاك نوعان من الخدم : "الخواص" وهم موكلون بخدمة الخليفة خاصة و "البرانية " وهم الذين يخدمون خارج الدار وليسوا متعلّقين بخدمة سيدهم في القصر (1) .

---

(1) الصابي (هلال) ـ رسوم دار الخلافة ـ ص8 ـ 25

وممـا ذكـر عـن الخليفـة الطائـع لله (363 - 381 هـ / 974 - 991 م) فـي استقبالـه لعضـد الـدولـة سنـة (367 هـ / - 977 - م) أنـه وضـع حـولـه مـن خـدمـه "الخـواص" مـائـة وعلـى جـانبـي السريـر الخـدم "المطيعيـة" وهـم شيـوخ الخـدم مـن الصقالبـة ومنهـم " خـالـص"و"طريـف" و "بـدر" و "آهيـف" و "سـابـور" و "ريـاص" و "موهـب"و "صلف" وعيرهـم (1) .

وكـان كذلـك شـأن تجـارة الخـدم بالمغـرب الاسـلامـي ويعـرف ذلـك مـن خـلال مـا يتهـاداه الملـوك والأمـراء منهـم فقـد أهـدى ابـراهيـم بـن أحمـد الأغلبـي (261 - 289 هـ / 875 - 902 م) سنـة (282 هـ / - 896 - م) مائـة خـادم الـى المعتضـد (279 - 289 هـ / 892 - 902 م) كمـا أهـدى زيـادة اللـه بـن الأغلـب (290 - 296 هـ / 903 - 909 م) سنـة (291 هـ / - 904 - م) مثـل ذلـك الـى المكتفـي (289 - 295 هـ / 902-908م) (2)

---

(1) المصـدر نفسـه - ص 80 - 81

(2) ابـن الزبيـر - الذخـائـر والتحـف - ص44

وكان لسكان المدن والعواصم من الخواص العديد من هؤلاء الخدم أيضا. وقد ذكر البكري عن سكان أودغست من العرب وبربر زناتة أن الرجل الواحد منهم كان يملك ألف خادم واكثر من ذلك (1) وكان الاندلسيون يقتنون رفيق الخدمة لاستخدامه في شتى مصالحهم، شأنهم في ذلك شأن ملوكهم الذين استكثروا من هؤلاء الخدم وجعلوهم متصرّفين في عدّة ميادين. وقد روي انّ المنصور بن أبي عامر (326 - 392 هـ/938-1002م) قد جلب السودانيين المشهورين بصبرهم على السير والعدو ليكون منهم فريقا من عمّال البريد. وكان يسمّى الواحد منهم "رقاصا" (2) وذلك قبل انتشار الحمام الزاجل في القرن الخامس هجري (3). هذه بعض الامثلة عن رواج تجارة هؤلاء الخدم مشرقا ومغربا وسوف نرى أهمّية الخدم من الرقيق المؤنث في الفصول القادمة.

---

(1) البكري - المغرب - ص168

(2) بروفنسال - Provençal. تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 2 ص255 احالة رقم 3

(3) المرجع نفسه - ج 3 ص177 - 179

٤) تجـــارة الغلمـــــان

أ- ظـاهـرة الـولـع بالغلمـــــان

لقد كان لبعض الظواهر الاجتماعية والخلقية اثر كبير في تنشيط بعض وجوه تجارة الرقيق ومن بينها ظاهرة الشذوذ الجنسي التي غزت المجتمع الاسلامي وتفشت خاصة في الطبقات العليا منه بشكل غريب. وقد تجسمت هذه الظاهرة التي عاصر استفحالها الفترة الزمنية التي ندرسها في الولع الجنسي بالغلمان وممارسة عادة اللواط التي حرمتها الشريعة . وقد وجدت هذه النزعة الشاذة تلبية لرغبتها في صغار السن من الرقيق خصوصا اذا كانوا يتمتعون بحظ وافر من الجمال . فكان الخواص يميلون بحكم حياتهم المترفة الى التمتع بالغلمان. ورغب الكثيرون منهم عمن بين ايديهم من جميلات الجواري لان عيشة البذخ قد حطتهم بما فيها من بطالة الى ضرب من الميوعة، والسعي وراء انواع الشهوات فكانوا يبحثون عن وسائل جديدة للمتعة كلما سئموا الوسائل القديمة وبذلوا في سبيل ذلك الاموال الطائلة . فليس من الغريب اذن ان يكون من نتائج هذا الشذوذ الاقبال على اقتناء الغلمان في اسواق الرقيق وجلبهم عن طريق التجارة لتزيين المجالس وتوفير اللذة فيها فروجوا بذلك تجارة هذا النوع من الرقيق .

وقد تعددت مدلولات مصطلح الغلمان في هذا العصر فاطلق على الرقيق المتخذ للخدمة في القصور وكذلك على المماليك المضطلعين بحراسة اصحاب الجاه والثراء، والمكونين للحرس الخاص بالخلفاء والملوك. وقد استعمل بعضهم في الجند ايضا. والمقصود بالغلمان هنا هو الرقيق الصغير السن المتخذ للمتعة واللهو والرقيق الذكر الذي كان على جانب من الجمال ومنه الخصيان الذين حظوا بعناية خاصة وكانوا يتزينون ويتعطرون ويلبسون فاخر الثياب ويظهرون التخنث (1). فكان اسيادهم لا يتحرجون من الاستمتاع بهم والعدول بهم عن وظيفتهم الاصلية وهي حراسة الحريم. ولم يكن تعدد مدلولات مصطلح ((الغلمان)) من قبيل الاتفاق والصدفة، وانما سببه ارتباط هذه الوظائف ببعضها بعضا فقد يتخذ ((الغلام)) الصغير السن للمتعة، فاذا ادرك البلوغ وكبر استعمل للخدمة والحراسة فاذا اتقن فنون الحرب استعمل في الجند. وكذلك الشأن بالنسبة الى الخصيان الذين يقتنون للخدمة ثم يصبحون اداة لهو اذا تمتعوا بحظ من الحسن.

وكان الغلمان المتخذون للمتعة من الرقيق الابيض والاسود على حد السواء (2)

---

1) فيليب حتي PH Hitti- تاريخ العرب ص 108

2) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 69.70

ب - اسباب الظاهرة

وقد اشار ادباء العصر الى بعض العوامل المؤدية الى ظهور الشذوذ الجنسي في المجتمع الاسلامي. فذكروا ان اللواط عادة مستوردة من بلاد المشرق، انتقلت مع جيوش العباسيين الذين جاؤوا من خراسان. واوضح الجاحظ في ((كتاب المعلمين)) الاسباب الداعية الى انتشار هذه الفاحشة في الخراسانيين فارجعها الى خروج الغلمان في البعوث مع العسكر، لان ابا مسلم الخراساني منع خروج النساء مع الجند خلافا لما كان جاريا في عهد بني امية فلما خرج الغلمان مع الجند طال مكثهم معهم ليلا نهارا وعند اللباس والتستر وهم جنود فحول فكانت ابصارهم تقع على خد كخد المرأة وردف كردفها وساق كساقها فتولدت هذه الفاحشة (1).

---

1) الجاحظ - مفاخرة الجواري والغلمان الرسائل ج 2 ص 123

آدم متز A.MEZ - الحضارة الاسلامية - ج 2 ص 166

و ص 182 - احمد امين - ظهر الاسلام - ج 1

ص 131

ولم يكن هذا العامل الذي يصفه الجاحظ هو الوحيد في الواقع والا لما سرت هذه العدوى خارج صفوف الجند، وخارج اقليم خراسان . فهذا الثعالبي يشير في ((المضاف والمنسوب)) الى انتشارها في بلاد الافغان خلال القرن الثالث للهجرة وتفاقمها في القرن الرابع (1) كما ان قصور الخلفاء قد صارت مسرحا لهذه الفاحشة ردحا طويلا من الزمن فكأن رجال البلاط سئموا النساء لكثرة مخالطتهم لهن فراحوا يبحثون عن اسباب جديدة لاثارة الشهوة، وابتكار اشكال اخرى من اللهو والقصف (2) ولا مناص في الجملة من ارجاع هذه الظاهرة الى اسباب نفسية واجتماعية بعيدة الغور ومن ان نلاحظ انها مرتبطة بدخول العناصر الاعجمية في المجتمع الاسلامي، إذ لم يكن لهذا الولوع بالغلمان شأن طوال العصور التي كانت السيادة فيها للروح العربية . ولذلك لا نجد في اهتمامات الفقهاء في تلك العصور لم يشير الى تلك الظاهرة اذ لم يكن في واقعهم الاجتماعي ما يدعوهم الى الحديث عنها .

---

1) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 166

2) صلاح الدين المنجد - بين الخلفاء ..... ص 45 - 50

وقد لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان ظاهرة السوق في المجتمع الاسلامي قد كان لها يد ايضا في نشر الولع بالغلمان. ذلك لان السادة المالكين الذين يتخذون البالغين من الرقيق المذكر ويتسرون بالجواري، قد كانوا عرضة لاستغلال الصبيان من الرقيق، خصوصا ان هؤلاء الصبيان قد كانوا يختلطون بغيرهم من الكهول الذين لا تربطهم بهم رابطة ابوة او اخوة وانما رابطة امتلاك وخدمة . فقد لا تكون اذن هذه الاوضاع اجنبية عن وجود العلاقات الشاذة وبذلك يمكن القول بان الرقيق، كان من عوامل ظهور الشذوذ كما اصبح الشذوذ نفسه دافعا من دوافع اقتناء الرقيق .

وقد تحدث الجاحظ عن بعض الاسباب التي كان الرأي العام يفضل من اجلها الغلمان على الجواري . وهو ما دعاه الى تأليف رسالة في ((مفاخرة الجواري والغلمان)) (1) ومما جاء فيها قوله :((ان من عيوب الجواري ان الرجل اذا اشترى الوصيفة الى ان يستبرئها محرم

---

1) الجاحظ - مفاخرة الجواري والغلمان -
الرسائل - ج 2 ص 104 - 113

عليه ان يستمتع بشيء منها قبل ذلك ... قال الشاعر : (في الغلام)

((فديتك انما اخترناك عمدا لانك لا تحيض ولا تبيض ..))

فاما الادباء والظرفاء فقد قالوا في الغلمان فاحسنوا ووصفوهم فأجادوا وقدّموهم على الجواري في الجد منهم والهزل ... قال (صاحب الغلمان) : لو نظر كثيّر وجميل وعروة ومن سميت من نظرائهم الى بعض خدم اهل عصرنا ممن قد اشتري بالمال العظيم فراهة وشططا ونقاء لون وحسن اعتدال وجودة قدّ وقوام لنبذوا بثينة وعزة وعفراء من حالق وتركوهن بمزجر الكلاب ..... وقال آخر :

((ان تزن محصنة تُرجَم علانية وان يلط عزب لا يرجم العزب))

وقال آخر :

((ايسرما فيه من مفاضلة أمنُك من طمثه ومن حبله ...))

وقال بعض اللوطيين : انما خلق الاير للفقحة مدور لمدورة ولو كان للحِرِ كان على صيغة الطبرزين ...))(1) ثم يتحدث عن التمتع بجمال الخصيان لانهم كانوا من اشهر الغلمان بالجمال فيقول ((وذكرت الخصيان وحسن قدودهم ونعمة ابشارهم والتذذ بهم وأن ذلك شيء لا تعرفه الاوائل))(2) .

1) المصدر نفسه-ح 2ص104 . 126
2) المصدر نفسه -ح 2ص 123

ج- موقف العلماء منها

وعندما تفشت عادة الاستمتاع بالغلمان في هذا العصر جلبت اهتمام الفقهاء فأدلوا بفتاويهم في هذا الشأن واختلفت آراؤهم في ذلك اختلافا واضحا. فذهب بعضهم الى اعتباره في حكم الزنا وجعلوا حده الرجم (1) وميز بعضهم الاخر بين اللواط بالغلام المملوك وغير المملوك فأسقطوا الحد عن الاول وأقاموه على الثاني لكن أغلبهم قد أفتى بان لا حد فيه واكتفوا بمجرد التعزير عليه من قبل القاضي (2) ويدل موقفهم هذا على مراعاتهم لاحوال عصرهم التى رسخت فيها هذه العادة الشاذة .

وقد تسربت هذه العادة الى العلماء انفسهم من فقهاء ومفسرين ومحدثين وصوفية، مع ما عرف به هؤلاء من التزام لحدود الشرع وصرامة فى الاخلاق. وقد نقلت عنهم اخبار عديدة تصف ولعهم بالغلمان واستهتارهم بهم. وقد روى ياقوت الحموي نبذة منها فمن ذلك ما رواه عن هيام الفقيه المشهور محمد بن داود الاصفهاني (3) باحد الغلمان

1) آدم متز A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 165
2) السبكي - الطبقات - ج 3 ص 18
3) توفي سنة (297 هـ / - 910 - م)

حتى كان ذلك سببا في مرضه ثم موته - ولما عاده احدهم في مرضه وسأله عن حاله اجاب ((حب من تعلم اورثني ما ترى . ثم قال : حدثني سويد بن سعيد الحدثاني عن ابي يحي القتات عن مجاهد من ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : من حب فعف وكتم ثم مات مات شهيدا . . . ثم مات من ليلته)) (1) وكان من نتائج تفشي هذه الظاهرة بينهم ان ادى الامر بالعلماء الاتقياء الى منع الشبان غير البالغين من حضور دروسهم حتى يتجنبوا اتهام الناس لهم بحب الغلمان فكان بعض الصبيان الراغبين في التعلم يتخذون لحًى صطنعة ليتمكنوا من حضور مجالس العلم (2).

ومع ذلك لم ينج اشهر رجال الدين بالزهد والتقوى من الاقبال على اقتناء الغلمان لغرض المتعة . ومن هؤلاء الصوفية . فقد تطرقت اليهم في هذا العصر آفة ((صحبة الاحداث)) وقد اشار الامام القشيري الى هذه الافة التي اصابتهم وروى عن ابي سعيد الخراز (3) انه قال ((رايت ابليس في النوم وهو يمرّ عني

1) ياقوت الحموي - الارشاد - ج 1 ص 308. 309

2) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 173

3) توفي سنة - (277هـ/890 م)

ناحية فقلت له : تعال مالك ؟ فقال ايش اعمل بكم ؟ انتم طرحتم عن نفوسكم ما اخادع به الناس فقلت : وما هو ؟ قال الدنيا . فلما ولّى عني التفت اليّ وقال : غيران لي فيكم لطيفة . فقلت: وما هي ؟ قال: صحبة الاحداث)) (1) وروي ايضا عن الواسطي (2) انه كان يقول ((اذا اراد الله هوان عبد القاه الى هؤلاء الانتان والجيف)) مشيرا بذلك الى صحبة الاحداث. (3)

هذه شهادات الصوفية انفسهم على انسياقهم مع تيار الولع بالغلمان وقد استمر زيغهم هذا الى عصور متأخرة. فهذا الهجويري احد صوفية القرن الخامس للهجرة يشهد بانهم لم يتورعوا عن جعل صحبة الاحداث قاعدة في مذهبهم (4) ومما شجعهم على المضي في هذا الاتجاه اعتقاد جماعة منهم انهم بوصولهم الى مرتبة ((الولاية)) قد سقط عنهم التكليف الشرعي واحلت لهم المحرمات وقد آخذهم ابن حزم على موقفهم هذا لانهم قالوا بان ((في اولياء الله تعالى من هو افضل من جميع الانبياء والرسل وقالوا : من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها ...)) (5) وهكذا يتضح مما سبق ان موقف العلماء ورجال الدين من الصوفية لم يعرقل مجرى هذا التيار بل ساعد على انتشاره وساهم في توفير المناخ الملائم لرواج تجارة الغلمان .

---

3) القشيري ـ الرسالة ـ ص24
4) آدم متز A.MEZ ـ الحضارة الاسلامية ـ ج 2ص35
5) ابن حزم ـ الفصل ـ ج 4 ص226
1) القشيري ـ الرسالة ـ ص22. 23
2) توفي ـ (320هـ/ 932م)

د- انتشارها بالمشرق والمغرب

وكان رجال البلاط اكثر الناس ولعا بالغلمان .وقد سمحت حياة الفراغ لبعض الخلفاء بالاستكثار من هذا النوع من الرقيق واشار المؤرخون الى ان اول من صدف عن الجواري منهم وعني باقتناء الغلمان وقدمهم وآثرهم وجعلهم لاوقات خلوته ومجالس انسه الخليفة الامين العباسي (193- 198 هـ/790 - 813 م) (1) ويذكر المسعودي انه بالغ في الشغف بهم حتى سعت ((ام جعفر)) الى صرفه عنهم واستمالته الى الجواري.فانتخبت مجموعة منهن والبستهم ثياب الغلمان لتحرز مغاتنهن ولتحد من استهتاره وشذوذه يقول في ذلك ((فلما رات ام جعفرشدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن والبستهن الاقبية والمناطق فماست قدودهن وبرزت اردافهن وبعثت بهن اليه فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن وابرزهن للناس من العامة والخاصة فاتخذ الناس الجواري المطمومات والبسوهن الاقبية والمناطق وسموهن الغلاميات)) (2).

---

1) صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلعاء ص45.50

2) المسعودي : مروج الذهب ج 8.ص299

وهكذا . حمل هذا الشغف اصحابه الى تغيير هيئة المرأة وتشبيهها بالغلام.وحدث تنافس في هذا المجال بين الذكور والاناث من الرقيق . فهذه ((عريب)) المغنية المشهورة التي كانت وصيفة الامين وعمرها اذاك سبع عشرة سنة تقول :((فكنت البس قباء اومنطقة واقوم على راسه وربما سقيته)) (1) وتواصلت هذه العادة في تشبه الجواري بالغلمان خلال القرن الرابع للهجرة وصرن يرتدين المناطق والاقبية.وقد وصف المسعودي اختلاف الجواري الغلاميات بين يدي الخليفة القاهر العباسي (320-322هـ/ 932-934م) نقلا عن احد جلسائه وهو محمد العبدي الخراساني فقال ((فبادر اليه جوار كثيرة قد هن واحد توهمتهن غلمانا بالقراطق والاقبية والطرز والاقفية ومناطق الذهب والفضة)) (2) وقد اثر هذا التشبه بالغلمان فى لباس الجواري وزينتهن فصرن يتخذن ((الشوارب الخضر)) وهي شوارب صغيرة تمتد فوق شفاه الجارية الغلامية (3) وفى شعر ابى نواس اشارة الى ذلك حين يقول :

((اصداغهن معقربات والشوارب من عبير))(4)

وتجلت هذه النزعة عند ((الغلاميات)) فى طريقة قص الشعر وتسريحه اذ

---

1) آدم متز A-MEZ-الحضارة الاسلامية-الشابشتي- الديارات- ح 2 ص 165

2) المسعودي – مروج الذهب ج 8 ص 300

3) الاصفهاني –الاغاني ح 13ص 128 – زكية عمر العلي - التريق والحلي ص 89 – 90

4) ابونواس– الديوان –ص 83

اصبحن يتعمدن قص ((الطرر)) و ((الاصداغ)) بطريقة افقية تسمى ((الطم)) ومن اجله سميت ((الغلاميات)) من الجواري باسم ((المطمومات)) (1) ومن اطرف ما يذكر في هذا الصدد ان ((ربطة)) بنت العباس بن علي زوجة المتوكل العباسي (232 - 247هـ / 847 - 861 م) قد فضلت الطلاق على ان ((تطم)) شعرها كما طلب منها المتوكل وذلك لكي لا تتشبه بالجواري (2).

واذا ما سلمنا بان الخليفة الامين كان من اول رجال السياسة ولعا بالغلمان فان هذه الظاهرة لم تكن خاصة به، بل انتشرت عدواها في اوساط رجال الدولة عموما، وعرف بها حتى اشهرهم بالحزم والجد والاستقامة في السلوك . ويمكن ان نكتفي بضرب مثال على ذلك من اخبار الخليفة المأمون (198 - 218 هـ / ~~813 - 833~~ م) الذي اشتهر بالعزوف عن اللهو وباهتمامه بشؤون الملك . ومع ذلك يذكر الثعالبي انه كان يتخذ الولدان بدلا من النساء ويلهو بهم صحبة وزيره يحي بن اكثم وقد عرف منهم غلامه ((متوف)) الذي روى لنا ما كان يدور في مجالس سيده مع يحي . يقول ((متوف)) : قال المأمون : ياأبا محمد اخبرني عن اظرف غلام مربك ؟ قال : نعم يا امير المؤمنين. احتكم اليّ غلام في نهاية الملاحة والظرف واللباقة فاخذته

1) زكية عمر العلي - التزيق والحلي - ص 89 . 90
2) الجاحظ - المحاسن والاضداد - ص 15

عيني وتعلقه قلبي فلم افصل في الحكم بينه وبين خصمه ايثارا مني للقائه ومعاودته اياي في حكومته . فدخل اليّ حين خلوة وثله لا يحجب عني فلما وصل اليّ قال : ايها القاضي اعدني على خصمي فقلت له : ومن يعدني على عينك يابنيّ؟ قال:شفتي وادناها مني . فلما شممت الخمر من فيه وبلغت حدا من القبل قلت له يابنيّ مابال شفتيك متشققتين ؟ فقال : احلى ما يكون التين اذا تشقق ؟ فقلت له وبدي في ثيابه : يابني ما أتحفك؟ فقال : كلما دق قصب السكر كان أحلى . فضحك المأمون ووقع له بمائتي دينار وقال : اوصلها اليه ولو على اجنحة الطير . وكان الغلام قد التحى وكان يحيي يعرف منزله فأوصلها اليه)) (1) .

وقد واصل المعتصم (218-227هـ/833-842م) سلوك اخويه الأمين والمأمون في اتخاذ الغلمان واشتهر بخلع العذار في عشقهم وامتلك منهم زهاء ثمانية آلاف (2) وكان للمتوكل (232-247هـ/847-861م) غلام مشهور يسمى ((شاهك)) وكان

---

1) الثعالبي ـ ثمار القلوب ـ ص 123 . 124 وص 148
صلاح الدين المنجد ـ بين الخلفاء والخلعاء ص 45 . 50
2) المرجع نفسه

وزيره الفتح بن خاقان يتعشقه ويهيم به (1) اما المعتز (252-255هـ/866-869م) فكان يغدق الاموال الكثيرة على غلامه ((يونس بن بغا)) ويشرب على وجهه ويقول فيه :

تغيب فلا افرح فليتك لا تبرح (2)

وقد اشتهر المعتمد (256-279هـ/870-892م) بحبه لغلامه ((بدر الجلنار)) (3) وكان الوزراء والامراء وغيرهم من الوجهاء والاثرياء وسائر افراد طبقة الخاصة ينسجون على هذا المنوال في اتخاذ الغلمان .

وقد ازدادت هذه الظاهرة استفحالا في القرن الرابع فهذا الامير سيف الدولة الحمداني (333-356هـ/944-967م) لم تشغله غزواته وحروبه عن الاهتمام بالغلمان وقد اشتهر بهيامه بغلام له يدعى ((ثمل)) (4) وهذا الامير البويهي بختيار (334-367هـ/943-978م) يغتم لغلام

---

1) الشابشتي - الديارات ص 4 . 5 . صلاح الدين المنجد بين الخلفاء والخلعاء ص 45 . 50
2) الشابشتي - الديارات ص 107
3) المصدر نفسه ص 66
4) مسكويه - تجارب الامم ج 6 ص 81

لـه تـركي وقـع في الاسر ويقـول ان ((فجيعته بهـذا الغـلام فـوق فجيعتـه بالمملكة والانسلاخ منها ومن النعمة)) (1) وقـد اقتـدى النـاس بسلوك حكـامهم وادى الامر بالمجتمع الاسـلامي اذان الى اقـامـة الملاهـي التي يقصدها الراغبون في الغلمـان مثـل الطهى الذي اقيم على شـاطئ دجلـة اذ كـان المـرء يجـد فيـه الظبي الغريـر)) الى جانب ((الظبيـة الغـريرة)) ولا يدفع قـاصـده في الليلة سـوى درهمين (2) وقـد وصف ادبـاء العصـر مثـل الهمذانـي (3) والتوحيـدي (4) انتشـار هـذه الظاهرة في المجتمع.

وقـد اكثـر شعـراء هـذا العصـر من التغني بالغلمـان وتجـاوزوا القـدر الذي بلغـه ابو نـواس . فبعـد ان كـان شعـر الحسـن بن هـانئ في الغلمـان يعتـبر بـدعـة وشـذوذا اصبـحت ((الغـلاميـات)) غـرضـا قـائـم الذات في الشعـر العربي نجـده عنـد ابي تمـام والبحتري والصنوبري وابي الفتـح البستي وكشاجـم وابن حجـاج وابن سكـرة والقـاضي التنوخي والثعالبي والصابي وأبي فراس الحمداني

1) المصـدر نفسـه ج 6 ص469 ابن الاثير ـ الكامل ج 8ص495
2) الثعالبي ـ يتيمـة الدهر ـ ج 1ص483
3) الهمذاني ـ المقامات ص
4) التوحيدي ـ الامتاع والمؤانسـة ـ ج 2 ص171 ـ 178

والوزير المهلبي وغيرهم . ومن اشهر قصائد ((الغلاميات))
في هذا العصر قصيدة سعيد الخالدي التي مطلعها :

((ما هو عبد لكنه ولد خولنيه المهيمن الصمد))(1)

واذا كان هؤلاء الشعراء يجمعون بين الغزل المؤنث والمذكر فان شعراء
آخرين مثل ((صعب)) و ((السلامي)) و ((الخبزأرزي)) (2) قد
اختصوا بالغزل بالغلمان ومما عرف عن نصر بن احمد الخبزأرزي
شاعر البصرة انه كان يشتغل بخبز الارز في حانوته بالمربد
وينشد الاشعار في الاحداث الذين يرتادون دكانه ومن
قوله في احدهم .

ودد تاني بكفه قلم او انني مدة على قلمه

يأخذني مرة ويلثمني ان علقت منه شعرة بفمه (3).

وكان لحركة الغلمان رواج ~~بالمشرق~~ ايضا بالمغرب الاسلامي وان لم يكن
به حسب ابن حوقل من الفواحش الطاهرة والعادات المنكرة مثل ما بالمشرق
(4) الا ان هذه الظاهرة قد غزت المجتمع الاسلامي المغربي ، وكان في

---

1) احمد امين – ظهر الاسلام ج 1 ص 140
2) الثعالبي - يتيمة الدهر ج 2 ص 133 وص 163
الشابشتي - الديارات ص 183 آدم متز AMEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 166
3) المسعودي - مروج الذهب ج 8 ص 374 الثعالبي -
يتيمة الدهر ج 2 ص 133
4) ابن حوقل - المسالك – ص 70 آدم متز – AMEZ
الحضارة الاسلامية ج 2 ص 175

سلوك الخلفاء والملوك ما شجع عليها ايضا . فمما يروى عن استهتار الحاكم بامر الله الفاطمي(386-411هـ/996-1020م) انه امر احد رجاله بان ياتي شيخا خليعا بمشهد منه ومن جلسائه ، ففعل الرجل وضحك الخليفة من قبح المشهد وطرب له (1) وكان للغلمان رواج ايضا بافريقية واشتهر منهم ((ملاح السودان)) الى جانب الغلمان البيض وكان امراء افريقية يهدون منهم الى ملوك المشرق فمن ذلك مثلا ما ذكره ابن الزبير في ((الذخائر والتحف)) من ان المعز بن باديس (398-454هـ/1008-1062م) قد اهدى الى الملك الظاهر(411-427هـ/1020-1035م) ((عشرين خادما من ملاح السودان صبيانا)) (2).

ولم تكن عواصم الاندلس في القرنين الثالث والرابع للهجرة تقل مجونا وخلاعة عن عواصم المشرق اذ ظهر فيهما الولع بالغلمان ويكفي ان نراجع كتاب ((طوق الحمامة)) لابن حزم

---

1) المرجع نفسه- ج 2ص 168

2) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 69 . 70

الاندلسي لندرك ابعاد هذه الخلاعة وهذا التهتك ومن الامور الدالة على انتشار اللواط وصيرورته امرا عاديا في هذا المجتمع ((حب الولد)) عند الخليفة الحكم الثاني (350-366هـ/961-976م) (1) والهجاء الموجه الى القاضي ابن سالم (2) وكذلك الحكاية التي رواها لنا كل من ابن حزم والضبي حول احمد بن كليب الشاعر والنحوي القرطبي المتوفى سنة (426هـ/1035م) حزنا وهياما بغلام من الطبقة الارستقراطية لم يكن يستجيب لحبه . وقد انتشرت هذه الاخبار حتى رواها المشارقة .(3) وبصورة عامة لم تكن عواصم المغرب لتخلو في هذا العصر من ((مخنث)) او ((خصي)) او ((حاو)) يبيع محاسنه لمن يغليه الثمن . ولعل من اشهر دواوين الغزل بالغلمان في الادب العربي ديوان الشاعر الاندلسي ابن قزمان الذي تناول فيه لأول مرة الغزل بالخصيان وفتيان الصقالبة الذين كانوا يعيشون في ظل الخلفاء وفي قصور الخاصة (4) ويبدو من خلال اشعاره واشعار غيره من شعراء المغاربة شدة الولع بالغلمان ورواج سوقهم في مختلف الاوساط.

---

1) بروفنسال L.Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2ص173 احالة رقم 4
2) المرجع نفسه ـ ج 2ص 218 احالة رقم 2
3) المرجع نفسه ـ ج 3ص444 . 448 عند مراجعة طوق الحمامة مجلة الاندلس سنة 1950 عدد 15 .ص357 .360 .368
3) L. Provençal - En relisant le «collier de la colombe» Revue Al-Andalus - 1950 N° XV - pp. 357 - 360 - 368
ياقوت الحموي ـ الارشاد ج 2ص 19 . 23 . ادم متز A MEZ . الحضارة الاسلامية ج 2ص 169 . 170
4) بروفنسال L.Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3ص444 . 448

3) صغفات رقيق الحرس والجند

ومن اهم عوامل نشاط تجارة الرقيق المذكر اقتناء الدول الاسلامية له لغايات عسكرية. فالرغم من ان فريضة الجهاد لم تكن واجبة حسب الاحكام الفقهية الا على الذكر البالغ الحر (1) ولم تكن واجبة على العبد لارتباطه بواجبه نحو مالكه ولعجزه المالي (2) فقد وجد ارباب السلطة في جواز استئذان العبد من سيده في الحرب للجهاد مخرجا وذريعة لتجنيد الرقيق (3) كما اعتمدوا ايضا على فتاوى الفقهاء في حالات النفير العام وهي حالات يصبح فيها حمل السلاح واجبا على الحر والعبد والمرأة على السواء (4).

وكانت ظاهرة اتخاذ الحرس الخاص في هذا العصر للاحتماء من انتقام عناصر الجند ونزاع العصبيات مجالا متسعا لشراء الرقيق. فنشأت مجموعات من هذا الحرس في شتى الدول والامارات حمل بعضها اسماء مكونيها او قوادها. فقيل مثلا " اليأنسية " نسبة ليأنس و " المفلحية " و " المسرورية " وهكذا (4)

---

1) ابن قدامة - المغني - ج 10 ، ص 366
2) نفس المصدر - ج 1 ، ص 332 قرآن - سورة النحل - آية: 75
3) الشيباني - السير الكبير - ج 1 ص 251-257
4) المصدر نفسه
5) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ، ص 271

ولمعت اسماء عديدة من بين رقيق الجند لعب اصحابها دورا كبيرا في قيادة العساكر وسياسة الدول مثل "مؤنس القائد بالعراق و "فائق "قائد السامانيين و"جوهر الصقلي" بالمغرب ومصر و "كافور الاخشيدي "بمصر و" سبكتكين " بالافغان (1) .

ويحسن بنا ان نقدم صورة لنشاط تجارة الرقيق العسكري بدول المغرب والمشرق الاسلاميين معتمدين على ما ورد في المصادر التاريخية وكتب الاخبار بين من اخبار تلك الدول ، مع الملاحظة ان اسماء مختلفة كانت تطلق على هذا النوع من الرقيق من "حشم " و "غلمان "و " خدم "وخصيان" وهي تسميات ذات مدلولات متعددة وان كانت تدل فيما تدل عليه على رقيق حامل للسلاح (2) وسوف نرى في سياق آخر معاني اخرى لهذه التسميات لاصلة لها بالرقيق العسكري . ولنبدا بتقديم بعض الامثلة عما كان المسارعة يقتنونه في هذا العصر من رقيق لتدعيم حرسهم وكتائب جندهم . فعند ذكر ابن الزبير في "الذخائر والتحف "ان المواكب التي اقامها نصر بن احمد بن نوح الساماني (301-332هـ/ 913 - 943م) لاستقبال

1) احمد امين . ظهر الاسلام - ج 1 ص 130 . 131 .
2) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة" - ج 3 ص 71 76
دوزي DOZY - ملحق المعاجم العربية" - ج 1 ص 291

رسل ملك الصين سنة (327هـ / -938 م) كانت مناسبة لوصف ما اقتناه السامانيون باقليم ما وراء النهر من رقيق لتكوين حرسهم الخاص ولتعزيز فرق الجند. فقد اقام نصر عند استقبال الرسل اربعين حاجبا بين يدي كل واحد منهم الف غلام تركي وعشرة غلمان متقلدين السيوف. وكان على يمين نصر منهم مائة وعلى شماله مائة بالاضافة الى ما حشده من جيوش المماليك بفرغانة وخجندة واشروسنة وسمرقند والشاش واسبيجاب والصغد وفاراب وبخارى (1) وقد وصف رسول القادر بالله (381-422هـ / 991-1031م) الى محمود ابن سبكتكين الغزنوي (ت 421 هـ / -1030 م) وهو ابو العباس الطوسي ما رآه بغزنة من الغلمان المسلحين عند استقباله، فقال: "ورأيت من الغلمان الاتراك الصبيان الذين برسم الحجر عدّة عظيمة في العدد والسلاح ذكر لي انها بضعة عشر الفا " (2).

وقد كانت تجارة عبدا الرقيق على اشدها في العراق مركز الخلافة العباسية ولعل تجارة الرقيق العسكري ببغداد قد كانت المثال الذي احتذاه الملوك والامراء بعواصم الدول الاسلامية الاخرى فبعد ان كان الاعتماد على العرب والفرس اتخذ الخلفاء العباسيون الرقيق التركي حرسا وجندا. وكان المأمون (198-218هـ / 813-833م) من اول من اتخذ لنفسه حرس تركي (3) وعمل المعتصم (218-227هـ / 833-842م) على

---

1) ابن الزبير – الذخائر والتحف ص 13-150

2) المصدر نفسه ص 151

3) فازيلياف – VASILIEV – العرب والروم – ص. 10 - 12

شراء افواج من رقيق الترك من بلاد ما وراء النهر وسهر على تدريبهم وتجنيدهم فتعاظم امرهم واقلقوا راحة ساكني بغداد فاختط لهم مدينة سامراء (1) وقد رأى الشاعر دعبل ابن علي الخزاعي (2) في ذلك مناسبة لهجاء الخليفة بقوله :

ملوك بنى العباس في الكتب سبعة	ولم يأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك اهل الكهف في الكهف سبعة	غداة ثووا فيه وثامنهم كلب
واني لازهي كلبهم عنك رغبة	لانك ذو ذنب وليس له ذنب
لقد ضاع امر الناس حيث يسوسهم	وصيف واشناس وقد عظم الخطب
واني لارجوا ان ترى من مغيبها	مطالع شمس قد يغص بها الشرب
وهمك تركي عليه مهانة	فانت لام وانت له اب(3)

فهذه الابيات فيها اشارة الى مشاهير هذا الرقيق العسكري مثل وصيف واشناس وغيرهما كبغا والافشين. وقد اشار الجاحظ في رسالته حول " مناقب الترك " الى مدى اقبال الدولة العباسية في عصره على اقتناء الرقيق وتجنيده والى ما اثار من حزازات بين هذا الرقيق وغيره

---

1) ابن طباطبا - تاريخ الدول الاسلامية - بيروت 1960 ص 231

2) شاعر شيعي عاش من سنة (148 هـ / 766 م) الى سنة 246 هـ / -860- م)

3) السيوطي - تاريخ الخلفاء - طبعة القاهرة د ت ص 335

من عناصر الجند (1) وقد تفاقم امر هذه التجارة مع المتوكل (232-247هـ/ 847-861م) وصار نفوذ الاتراك معه حاسما (2) فقد روي انه ترك بعد وفاته ثمانية آلاف من الغلمان والمماليك(3) وكان للمعتضد (279-289هـ / 892-901م) " الختارون " وهم حرس يبرز في مواكبه ويتألف من المماليك المسلحين وكان له المماليك " الحجرية " وهم حرس اختيروا من بين الفرسان الذين يحسنون الركوب والرمي ، ويقيمون في القصر والحجر تحت مراعاة الخدم والاستاذين وكانوا يسمون ايضا عسكر الخاصة (4) وقد كون المعتضد ايضا فرقة عسكرية من عبيد السودان (5) وقد وجد بدار الخلافة ببغداد في عهد المكتفي (289-295هـ/ 902-908م) عشرون الف غلام " دارية " اي مختصون بملازمة دار الخلافة وحماية الخليفة(6)

---

1) الجاحظ.رسالة في مناقب الترك.الرسائل ج 1 ص 62 ومابعدها
2) فازيليياف- vasiliev- العرب والروم ص10-12
3) ابن الزبير-الذخائر والتحف ص218-220
4) آدم متز. A-MEZ-الحضارة الاسلامية ج 1ص271
5) هلال الصابي - تحفة الامراء بتاريخ الوزراء نشر امدروز-Amadroz- بيروت 1904 ص11-12
6) هلال الصابي - رسوم دار الخلافة ص 3

ويذكر الصابي ان عدد رقيق النوبة ممن يقوم بحفظ دار الخلافة من الرجالة الصافية خمسة آلاف رجل. وهؤلاء جنود محاربون فيهم الرجالة والخيالة. وقد قوي نفوذهم ايام المقتدر (٢٩٥ـ ٣٢٠هـ/ ٩٠٧ -٩٣٢ م) (1) ويرى ان هذا الخليفة قد اتخذ احد عشر الف مملوك في شكل حرس خاص بقصره (2) وكان في جيشه فرق كاملة من المماليك (3) كما كانت امور الشرطة او " المعونة " بلغت ذلك العصر بيد احد الارقاء الاتراك المشهورين وهو نازوك التركي (4) وقد سار خلفاء بغداد في القرن الرابع للهجرة على هذا المنوال. فأستبد الرقيق د ونهم بالسلطة وصاروا لعبة في ايدي مماليكهم وتمكن البويهيون من السيطرة اذان على شؤون الحكم بالعراق .

وقد سار معظم الامارات والدول في هذا العصر على هذه السنة من شراء الرقيق الذكر من ابيض واسود لغايات عسكرية. فهؤلاء الزياديون

---

1) المصدر نفسه

2) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ

نشر وترجمة سالمون -Salomon. باريس 1904 ج 1 ص 51

3) هلال الصابي ـ تحفة الامراء بتاريخ الوزراء ـ

نشر آمد روز -Amedroz- .بيروت 1904 ص11ـ12

4) هلال الصابي ـ رسوم دار الخلافة ـ ص 9

الذين حكموا اليمن طوال القرنين الثالث والرابع للهجرة (204 هـ/ 820م- 402 هـ/ 1012م) يمارسون تجارة للرقيق الحبشي لهذه الغاية احترازا من عرب الجنوب وذلك بحكم انتمائهم الى الامويين وبالتالي الى عرب الشمال. ولكن هؤلاء العبيد الذين تكاثر عددهم قد استبدوا بالحكم دونهم آخر الامر، وتولى شؤون عاصمتهم " زبيد " عبد نوبي سنة (402 هـ/ 1012 م) هو حسين بن سلامة وآل الامر طيلة قرن ونصف اي من سنة (412 هـ/1021م) الى سنة (554هـ/ 1159 م) الى اسرة بني نجاح ذات الاصل الحبشي (1).

وكانت مصر في عهد الطولونيين مسرحا لهذه التجارة. فقد اكثر احمد ابن طولون (254 -270 هـ/ 868-884م) في اقتناء الرقيق لحرسه وجيشه من جنس الاتراك والسودان وكان هو ذاته من اصل تركي، ومن الغلمان الذين وقع تدريبهم على خطة السيف، واشترى افواجا من العبيد وكون فرقا عسكرية واضطر لكثرة كتائب هذا الجند الى تأسيس " الميدان " وهو قصر ملكي تحيط به قطائع الجند من كل جانب فكان لغلمان النوبة قطيعة وللروم قطيعة ولغيرهم ايضا. وقد اشتهر من هؤلاء الغلمان " لؤلؤ " الذي انقلب على سيده فيما بعد. وقد ذكر البلوي ان ابن طولون خلف بعد وفاته اربعة وعشرين الف غلام ابيض (2) وروي ايضا انه خلف خمسة واربعين الف اسود (3) وسار خمارويه

---

1) شلهود - J. Chelhod - مدخل الى تاريخ زبيد - ارابيكا - Arabica - سنة عدد ص 48-88

2) البلوي - سيرة احمد بن طولون ص22-26وص33-34 وص 51-56وص 349

3) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص227

الطولوني (270-282هـ/884-896م) على هذا المنوال فكان له حرس يقاتلون امام جنده واذا ركب مشوا خلفه وقد سماهم " المختارة " (1) كما عج بلاطه بالخصيان حتى تمرنوا له وكادوا يفتكون به فطن بهم سنة (282هـ/ -896م) (2) وبصورة عامة يمكن القول بأن هذه التجارة كانت مزدهرة ايضا في عهد الطولونيين بمصر حتى روي انه وجد بالفسطاط لعهدهم اربعة وعشرون الف غلام من الاتراك واربعون الف من السود (3)

وتواصل امر تجارة الرقيق العسكري في عهد الاخشيديين فروي عن الاخشيد (321-334هـ/935-946م) انه "كان له ثمانية آلاف مملوك يحرسه في كل ليلة الفان منهم " (4) وكان الجيش في عهد الاخشيديين يتألف من رقيق تركي وسوداني ومماليك من اجناس مختلفة وقد عظم هذا الجيش حتى بلغ عدده اربعمائة الف مقاتل في مصر والشام (5) ولما آل الحكم الى كافور (334-357هـ/946-968م)

ابو المحاسن - النجوم الزاهرة طبعة - ليدن ج1 ص295
آدم متز A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج1 ص271

2) ابن الاثير - الكامل ج7 ص329-320 - حميد الله - تحقيق كتاب الذخائر والتحف لابن الزبير ص50

3) لمبار Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص194-204

4) ابن خلكان - وفيات الاعيان ج5 ص55 - ابو المحاسن النجوم الزاهرة ج3 ص256 سيدة اسماعيل كاشف - مصر في عهد الاخشيديين ص120

5) المقريزي - خطط ج1 ص94 - ابن اياس - بدائع الزهور ج1 ص43 ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ج3 ص252 - ابن خلكان - وفيات الاعيان ج5 ص55 - سيدة اسماعيل كاشف - مصر في عهد الاخشيديين ص 257. 253 .

بعد الاخشيد ضم الى جيشه عددا كبيرا من السودان ليكونوا عدة له لا سيما وقد انقسم الجيش الى طائفتين "الاخشيدية" والكافورية" (1).

وقد اتبع الفاطميون اسلافهم بمصر في شراء الرقيق لتكوين طوائف الجند من الاتراك والسودان . وقد اشتهر العزيز بالله (365هـ/975م- 386 هـ/ 996م) الفاطمي خليفة المعز (341-365هـ/952-975م) باستكثاره من استخدام الاتراك والديلم خوفا على حياته من البربر. وقد ظهر التنافس بين الفريقين طيلة حكمه وحكم الحاكم بأمر الله (386 هـ/ 996م - 411هـ/1020م) والظاهر لاعزاز دين الله (411 - 427 هـ/1020-1035م) فلما تولى المستنصر (427 - 486 هـ/1035-1094م) استكثرت امه من شراء العبيد السود لانها كانت سوداء. واستكثر هو من شراء الاتراك فصار الجند طائفتين تتنافسان وتتحاربان مما اضطر معه الخليفة الى الاستنصار بجند الشام فأتاه امير الجيوش بدر الجمالي وهو ارمني الاصل فأقام بمصر جندا من الارمن (2) وكانت طوائف الجند الفاطمي المؤلفة من الرقيق

1) المقريزي خطط ص94 . سيدة اسماعيل كاشف . مصر في عهد الاخشيديين ص257 . 258

2) المقريزي - الخطط - طبعة بولاق 1270هـ (في جزأين) ج2ص12. زيدان. تاريخ التمدن الاسلامي ج4ص201 - 202

قد تعددت فصارت تنسب الى اسماء الخلفاء والوزراء فقيل لبعضها "الحافظية" و "الامرية" و "الجيوشية" و "الافضلية" وقد وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو الجند المصري في عهد المستنصر (427 - 486 هـ/1035 - 1094م) فتحدث عن فصائلة التركية التي كان يطلق عليها اسم "المشرقيين" وفصائله السودانية التي كانت تسمى "عبيد الشراء" (1).

هذه امثلة لما كان يروج بالمشرق الاسلامي خلال هذه الفترة من تجارة تهدف الى اقتناء الرقيق للخدمة العسكرية. ويمكن ان نقدم بعض الامثلة عن هذه التجارة بالمغرب الاسلامي، وخاصة بافريقية والاندلس، فبافريقية عمل الاغالبة منذ عهد مؤسس امارتهم ابراهيم بن الاغلب (184-196هـ/ 800 - 812م) على شراء الرقيق لاستعماله في الحرس والجند. فقد عمد ابراهيم الاول الى شراء الرقيق الاسود ليحتمي به من الجند العربي الذي كان يقوم بانتفاضات متواصلة مثل ثورته مع حميديس الكندي بتونس سنة (186 - هـ / 802 م) ومع عمران بن مخلد سنة (194 - هـ/810م) (2) مما اضطر الامير

---

1) عبد المنعم ماجد - نظم الفاطميين ورسومهم - ج 1 ص 193

2) جورج مارسي G.Marçais - بلاد البربر Berbérie - ص 74

مما اضطر الامير الى شراء زهاء خمسة الاف عبد من السودان والانعزال بهم بقصر العباسية خارج القيروان لحماية نفسه من صولات العرب والبربر (1) وقد زاد زيادة الله الاول (201-223هـ/817-838م) هذا الحرس تدعيما بشراء مجموعات اخرى من الرقيق وذلك بسبب اشتداد الصدام بين القصر والجند العربي اذ اندلعت ثورة منصور الطنبذي ودامت حوالي ثلاث عشرة سنة (2) وقد عزز هذا الامير جيشه بعناصر من العبيد السود واستعمله في خوض معارك " سبيبة " سنة (210 هـ/ - 826 م) وقد قال شعرا تعرض فيه الى هؤلاء العبيد منه قوله :

"امنت سبيبة كل قرم باسل | ومن العبيد جماجما ابطالا
وأذا ذكرت صائبا بسبيبة | وابكي حلاجل واندبي اعوالا
يا ويح نفسي حين اركب غاديا | بالقيروان تخالني مختالا
في فتية مثل النجوم طوالع | وتخالني بين النجوم هلالا
فاليوم اركب في الرعاع ولا ارى | الا العبيد ومعشرا انذالا" (3)

---

1) بلاذري – فتوح البلدان – نشره عبد الله وانيس الطباع – بيروت 1953 ص323– ونشره رضوان محمد رضوان في طبعة اولى مصر سنة 1350هـ/1932م ص235 - الطالبي - الامارة الاغلبية ص136- 138

2) جورج مارسي G. Marçais - بلاد البربر ص75

3) ابن الابار – الحلة السيراء - تحقيق حسين مؤنس الطبعة الاولى - القاهرة 1963 ج1 ص166-167 - الطالبي - الامارة الاغلبية ص187 . 188

أما أبو ابراهيم أحمد الاغلبي (242-249هـ / 856-863م) فقد جدّد عقد صفقات الرقيق لتدعيم الجند. وقد قال عنه ابن خلدون انه " جعل العبيد جندا " (1) ووجد ابراهيم الثاني (261-289هـ/875-902م) نفسه مضطرا الى اقتناء افواج جديدة من هؤلاء العبيد فجند منهم خمسة آلاف برقادة وتمكن بفضلهم من اخماد ثورة التميميين سنة (280 هـ/ 893 م) واعدام حوالي سبعمائة ثائر (2) وكان هجوم جيش ابراهيم الثاني على تونس سنة (280هـ/-893-م) بقيادة ميمون الخادم (3) وقد لقب بهذا اللقب اكثر من قائد لهذا الامير ومنهم صالح الخادم الذي اخمد ثورة قمودة ويسميه ابن عداري ميمون الحبشي (4) وقد قوي هؤلاء الخدم بسبب كثرتهم ونفوذهم فحاولوا التمرد على الامير لكنه فتك بهم سنة (264هـ/ -878-م) وعوّضهم بعبيد آخرين اشتراهم بمبالغ ضخمة مما جعل الخزينة تتأثر بثقل النفقات وبلغ

---

1) ابن خلدون - العبر ج 4 ص 429 الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 251

2) ابن عداري - البيان ج 1 ص 117 - 123

3) الطالبي - الامارة الاغلبية ص 293 . 296

4) ابن عداري - البيان ج 1 ص 123

بالامير الحال ان جعل من حلي نسائه دارهم ودنانير والتجأ الى فرض ضرائب ضجّ لها الاهالي (1) ولما زحف ابو عبد الله الشيعي داعية المهدي (ت298هـ/ + 911 م) على القيروان سنة (296هـ/ -909- م) هرب زيادة الله ابن الاغلب متوجها الى مصر وخرج معه بالف غلام دفع الى كل واحد منهم الف دينار (2) .

وقد ادت هذه الاوضاع الى تزايد عدد رقيق الشراء في الجند بافريقية زمن الاغالبة وكانت كثرتهم سببا في تمردهم لاحساسهم بالقوة.وكذلك كان الامر بصقلية فاستطاعوا ان يقتلوا سنة(257هـ/ -871- م) واليها محمد بن خفاجة كما قتلوا واليا آخر لها هو جعفر بن محمد (3) وادى التوسع في شرائهم الى تأصل العداء بينهم وبين سكان البلاد حتى ان ابن شرف الشاعر القيرواني المشهور يفسّر العداء القائم بين أهالي سوسة والقيروان بأن اصل سكان سوسة هم عبيد اهل القيروان استعطوهم للدفاع عن الساحل ضد الروم ثم انضم اليهم بعض

1) المصدر نفسه ج 1 ص 117 ـ الطالبي ـ الامارة الاغلبية ـ ص 282.284

2) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ص 227

3) ابن عذاري ـ البيان ـ ج 1 ص 115 ـ 117

" المرابطين " للجهاد واستقل اهل سوسة بمرور الايام .ويضيف ابن شرف وهو فقيه بالاضافة الى كونه شاعرا انه لا يجوز قبول شهادة قيرواني ضد سوسي والعكس بسبب هذا العداء القائم (1)

وكذلك كان الشأن بالنسبة الى تجارة الرقيق العسكري بسائر بلاد المغرب ويمكن أن نكتفي بمثال ذكره البكري حول اقتناء الرقيق الصقالبة بمدينة " نكور " الواقعة بين "وجدة" و " فاس " خلال القرن الثالث للهجرة يقول متحدثا عن تمرد هؤلاء الصقالبة على بعض حكام المدينة وهو سعيد ابن سعيد :" فلما توطد له الامر واستوسق دخل عليه عبيدهم الصقالبة فسألوه العتق فقال لهم: انتم جندنا وعبيدنا وانتم كالاحرار لا تدخلون في المواريث ولا تجري عليكم المقاسم فما طلبكم العتق ؟ فالحوا عليه في ذلك فأبى فنال منهم جفاء وغلظة وقد ملوا اخاه عبيد الله وعمه الرضا المكنى

1) التجاني - الرحلة - طبعة تونس 1927 ص 24 -
انظرا يضا - طبعة تونس 1958 مع مقدمة لحسن حسني عبد الوهاب - وقد نقل التجاني عن كتاب " الذيل " أو"صلة تاريخ الرقيق " وهو كتاب مفقود نقل عنه ابن عذاري والتجاني والبرزلي (راجع مواطن النقل عندهم في قائمة مصادر روجي ادريس - R

IDRIS بلاد البربر - Berbérie - طبعة - باريس - 1962)

بأبي علي وزحفوا بهما الى القصر فحاربهم سعيد من اعلى القصر بالفتيان والنساء حتى انهزموا وقامت عليهم العامة فأخرجوهم الى تربة فوق المدينة تعرف بتربة الصقالبة " (1) وكانت ظاهرة اتخاذ " الحشم " الى جانب " الجند " بالاندلس (2) سببا في ازدهار هذه التجارة وهو يتكون من الرقيق والمرتزقة. ومن عوامل اتخاذ " الحشم " ما كان عليه الجند الاندلسي من مستوى رديء لاحظه الرحالة ابن حوقل (3) وقد بدأت نشأة هذه الظاهرة منذ عهد الحكم الاول (180- 206 هـ / 796 - 822م) الذي اتخذ حرسا قارا من المماليك الافرنج والصقالبة يتراوح عددهم بين الفين وثلاثة الاف وقع شراؤهم بالمال من وراء الحدود الاندلسية وكانوا يسمون " الخرس " لعجمتهم. وكان يرأسهم القومس المسيحي ربيع بن تهود ولفو - Tuodulfo (4).

وقد ازداد اهتمام الدولة بشراء الرقيق وتجنيدهم في عهد عبد الرحمان الناصر (300- 350هـ/912-961م) ونسجوا بذلك على

---

1) البكري _ المغرب _ ص 93

2) د وزي - Dozy - ذيل المعاجم - Supp. ج 1 ص 291

3) ابن حوقل _ صورة الارض _ الترجمة الفرنسية ج _ 1 ص 11 - 17

4) المقري _ نفح الطيب _ طبعة بيروت 1949

ج 1 ص 320 بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة

ج 3 _ ص 71_76 - (علاوة على عناصر اخرى من أهل نربونة Narbonne)

منوال طوق بغداد وبيزنطة فبرز "فتيان الصقالبة" على راس كبريات المهام العسكرية والسياسية ومن اوائل هؤلاء الفتيان بدر بن احمد الذي تولى الحجابة بعد عتقه لسيده الامير منذ بداية عهده الى وفاته بعد تسع سنوات عام (309 هـ/921 م) وقد خلفه في مهامه ابناه عبد الله وعبد الرحمن وكان بدر بن احمد هذا هو الذي هزم "اوردنو" الثاني ordoño II في معركة ميدونية Mitonia (1) ومنهم ايضا نجدة الصقلبي الذي عهد اليه الخليفة سنة (328 هـ 939م) بقيادة الحطة على ملك ليون Léon (2) ومن هؤلاء الفتيان المشهورون "دري" و "افلح" و "طرفة" و "جعفر" وغيرهم وهم جماعة كانوا يسمون بابناء الخلفاء (3) ولدينا ثلاث احصائيات متعاقبة للرقيق الصقلبي بقرطبة في عهد الخليفة الناصر وهي (3750 و 6087 و 13750) رأس وتدل على ازدياد عشرة الاف عبد 10.000 في مدة خمسين سنة بمكان واحد بل في مدينة واحدة ونقطة واحدة من العالم الاسلامي (4) وقد اصبح هؤلاء الصقالبة منافسين لاهل البيوتات

---

1) المرجع نفسه - ج 3 - ص 193-194

2) بروفنسال Provençal - دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية - مقال صقالبة ص 251

3) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 193 - 4 ر 1

4) لمبار - Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص 194-204 - بروفنسال - Provençal - دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية - مقال صقالبة ص 251 - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 193-194

العربية في تولي المناصب وخاصة في عهد الحكم الثاني (350-366هـ/961-976م) وهشام الثاني (366-399هـ/976-1009م) (1) وقد اوغل الحكم الثاني في شراء الصقالبة وتجنيدهم حتى تعاظم امر الحرس الصقلبي في عهده . وصاروا رهن مشيئة رجليين من كبار الاعيان هما فائق النظامي صاحب البرد و الطراز جؤذر صاحب الصاغة والبيازرة وقد اخفى هذان الخصيان نبأ وفاة الحكم وحاولا الوقوف دون المناداة بوريث العرش خليفة وكان لا يزال طفلا لكن الوزيرين المصحفي وابن ابي عامر قاوماهما في ذلك فازدادت شهرتهما بما انزلاه بهما من عقاب وكان بقصر قرطبة اذاك زهاء الف مجبوب من الصقالبة قد شاركوا في شتى المؤامرات السياسية والعسكرية (2) وقد كان الحكم اكثر عناية من سابقيه بجلب الرقيق الاسود لاتخاذه حرسا واستعمال جندا. وكان هؤلاء السودان يشترون ويجلبون من بلاد السودان عن طريق المغرب وقد اطلق عليهم اسم " العبيد " وسموا ايضا باسم " الطنجيين " لان حشدهم كان يتم بطنجة قبل توجيههم الى الاندلس وكان الحكم الثاني هو الذي استكثر منهم وادخلهم في حشمه بعد ان كان

1) المرجع نفسه

2) بروفنسال Provençal - دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية مقال صقالبة ص 252

عددهم محدودا في عهد ابيه (1) .

وهكذا كانت تجارة الرقيق العسكري من غلمان وخصيان في اوج رواجها بالاندلس خلال هذا العصر. فما ان اطل القرن الخامس للهجرة حتى كان الصقالبة يكونون شبه حزب مناوئ للعناصر الاخرى وله قواده المشهورون مثل خيران الصقلبي (2) وقد سبق ان تصدى لهم الحاجب المشهور ابن ابي عامر (326 -392هـ/938 -1002م) ورام كسر شوكتهم باستقدام بربر المغرب والاعتماد عليهم (3) ولكن بعض هؤلاء الصقالبة الذين كانوا عبيدا ثم اعتقوا قد اتيح لهم ان يصبحوا ولاة وامراء على دويلات في عصر ملوك الطوائف مثل امارة دانية وبلنسية (4) .

---

1) ابن حيان ـ المقتبس ـ نشر وترجمة غرسية قومس García-Gómez ج 3 ص 212 . 213 من النص و ص 219 ـ 220 من الترجمة
ابن عذاري ـ البيان ـ ج 2 ص 147 ـ 152 ـ بروفنسا ل -Provençal-
تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 80 ـ 81
2) بروفنسا ل ـ Provençal ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ مقال صقالبة ص 292
3) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ج 4 ص 194 ـ 195
4) بروفنسال ـ Provençal ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية مقال صقالبة ص 251

1) الخصـــاء قبـل الاســـــلام

أ ـ الخصاء والحضــارات القـديـــــمه :

يعتبــر الخصـاء احـدى العادات التي كانت الشعوب الغابـرة تمارسهــا منذ اقـدم الحضارات . فقـد كانت معروفـة في حضارة بابل واشور وراجت عنــد قدماء المصريين ، والشعوب الافريقيـة القديمة (1) اذ كانوا يخصـون الزنوج المجلوبين من بلاد النوبة والسودان (2) كما كـانت الامـة اليونانية من اوائل الامم اتخاذا للخصيان (3) وانتقلت هذه العادة بعد ذلك الى الروم ثم الى الافرنج . ويقـــال ان اول من استنبط هذه العادة هي الملكة "سميراميس" - Sémiramis - ملكة اشور وذلك حوالي سنة العين 2000 قبل الميلاد . وقد اشتهر في التاريخ جماعة من الخصيـــان عـرفـوا بالسياسـة والشجـاعـة وتولـــوا مناصـب مـرمـوقـة في ازمنـة مختلـفة نـذكــر منهـم "نرسيس" -" Narcisse " - القائـــد الرومـــانــي المشهــــور في عهــــد جـوستينيـــان - « Justinien » - (95-77 هـ/ 527-565 م) خلال القـــرن الســادس للميــــلاد وكــذلــك "هـــرميـــاس" Hermias (القرن 4 - ق - م) حاكـم " اتارنيـــة " - ATARNée - في "ميسيـــا " والمشهور بأنـه هو الذي قـدم الفيلســوف ارسطو ذبيحة عن روحـه فضلا عما ذكـــره

1) عبد المنعم خفاجة.قصة الادب في الاندلس ج 2 - ص 83 - لاروس الكبير G.Larousse الموسوعـة ج 4 ص 800
2) عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه ص 96
3) جرجي زيدان-تمدن ج 5 ص 26 ـ 28

فيــه من قصائد . وقد عرف الخصيان باستبدادهم اواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا (1) .

وكان الاقباط بمصر قبل الاسلام يمارسون هذه العمليـــة . وقد اهدى المقوقس صاحب مصر الى الرسول خصيا يدعى "مابور" في جملة الهدية التي اهداها له جوابا عن رسالته التي دعاه فيها الى الاسلام وكان هذا الخصي في خدمة مارية القبطية المهداة الى الرسول (2). ولا ريب ايضا في ان الأمـّة الفارسية قد عرفت الخصاء واتخذت الخصيـان كغيرها من الامم القديمـة. وقد ذكر الجاحظ ان الصابئة بالعراق كانوا قبل الفتح الاسلامي يخصون ابناءهم ويوقفونهم على بيوت العبادة حـتى لا تؤذيهم الشهوة[3]، كما يذكر ان هؤلاء الصابئة واصلوا هذه العــادة بعد الاسلام وانه اتصل بجماعـة منهم وعرف بعضهم ومنهم ابو المبارك الصابي .

لكن الجاحظ يصرح بان الروم هم اول من ابتدعوا الخصـــاء الا ان رايه هذا لا يستند الى حجـة بعدما شرحناه من قدم هــذه

1) المصدر نفســه
2) ابن الزبير-الذخائر والتحف ص 7 ـ الكتاني-التراتيب الادارية ج 2 ص 445
3) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 125 ـ 128

العادة في تاريخ الانسانية (1) وكانت الامة الصينية تعرف الخصاء رغم شهرتها بالرأفة بالرقيق والعطف عليه ، ورغم قانون الامبراطور (كوانجون) الذي اصدره في القرن الاول للميلاد ، والذي ينص على ان (من قتل رقيقه اوعذبه فسوف يلقى جزاءه في جهنم) (2).

وكان العرب قبل الاسلام معرفة بالخصاء ايضا وكانوا يسلطونه على الاحرار والعبيد على حد سواء. ولعله كان يمثل عقوبة بالنسبة الى المخصي . ومن امثلة هذا الخصاء ما حدث للشاعر علقمة الخصي الذي اقام بعمان وطالت حياته الى عهد الخليفة عمر بن الخطاب . فقد روي ان الذي خصاه هو بعض ملوك اليمن . وكان يدعى قبل ذلك علقمة ابن سهل بن عمارة ثم سمي بالخصي ولذلك سمي علقمة بن عبدة الشاعر بالفحل تمييزا له عنه (3) وكان العرب يخصون البهائم ايضا لاسباب تتعلق بتربية المواشي . ولنا في نهي الرسول عن خصاء الخيل والابل والبقر (4) ما يدل على وجود هذه العادة قبل الاسلام ، وقد

---

1) المصدر نفسه ج 1 ص 124 ـ 125
2) احمد شفيق باشا ـ الرق في الاسلام ـ ص 85. وسترمارك westermarck أصل الآراء ج 1 ص 678 ـ 689
3) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 120 ـ 121
4) المصدر نفسه ـ ج 1 ص 178

كانت اغراض خصاء الدواب مختلفة عندهم ،ولكن اغلبها يهدف الى البحث عن الربح و توفير الكسب بتحسين نوع الماشية .وقد عرف العرب قبل الاسلام هذا النوع من الخصاء اذ كانوا يخصون فحولة الابل ويستبقون اجودها ضرابا واكثرها نسلا وهو من عمليات الاختيار في اللقاح ،ويذكر لنا الجاحظ ان غرضهم من خصاء البهائم والغنم هو توفير شحمها وجعل لحومها رطبة لان السفاد حسب قوله يورث الهزال والضعف .ويذكر لنا ايضا ان الديك يخصى ليرطب لحمه ويطيب ويعمل الشحم وكذلك الغنم (1) وكان للعرب هدف آخر من خصاء الخيل ، وذلك لكي يتجنبوا صهيلها ليلة البيات واذا نصبوا كمينا وارادوا الفرار. فاذا خصوا الخيل لم تصهل عند رؤيتها الاناث لزوال دواعي الغريزة وانعدام الفحولة (2).

والمهم ان عملية الخصاء هذه قد سلطت اذاك على بعض العبيد وقد

---

1) الجاحظ ـ الحيوان ج 1 ص 131
2) المصدر نفسه

حافظ العرب على هذه العادة الى زمن ظهور الدعوة المحمديـــــة .

وقد روت كتب الحديث خصاء زنباع الجذامي لعبده "سندر" عقابا لـه على زناه مع جارية له . فشكى سندر الى الرسول ما فعله به سيده فاعتقه (1) كما تذكر كتب السيرة ان العبد الذي رميت به مارية القبطية قد كان خصيا (2).

ولم تكن هذه الامم كلها اذن ترى باسا بخصاء الانسان سواء أكان حرا أوعبدا. وقد لاحظ الجاحظ هذه الحقيقة عندما اعتبر الخصاء امرا شائعا بين الاحرار والعبيد والعرب والعجم (3) لكننا نجد بعض التشريعات السماوية و الوضعية قد شهّرت بهذه العادة ومنعتها وان كان ذلك لم يحد من انتشارها على صعيد الواقع . فالديانة النصرانية تنادي بالرفق والرحمـة وتشنع بما في الخصاء من وحشية وشراسة ، كما ان الرومان شرعوا قوانـين تمنع خصاء الرقيق مثل قانون سنة 83م الذي شرع في عهد " دوميتيـان " « Domitien » (51 - 96م) ونص على عقاب مرتكب هذه الجريمـــة بحجز ممتلكاتـه وضاعف " هادريان " « Hadrien » (76 - 138م) في القرن الثاني للميلاد من هذه العقوبـة (4).

---

1) البغوي-مصابيح السنة ج 2 ص 32 ـ 33
2) ابن هشام ـ السيرة ـ ج 4 ص 49
3) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 53ـ 56 عبد المنعم خفاجة ـ قصة الادب ـ ج 3 ـ ص 80
4) كركوبينو ـ الحياة اليومية بروما ـ ص 77.
J- Carcopino- La vie Quotidienne ..... - Librairie Hachette 1939 - p 77

ب-اغراضه قديما :

كان للخصاء عند الشعوب القديمة اغراض شتى اهمها العقوبة على بعض الجرائم الاخلاقية والمدنية. فقد كان المصريون القدامى يعاقبون الزاني بخصيه (1) وقريب من هذا خصاء الصينيين لابناء المرأة الزانية اي للقطاء وابناء الزنا (2) وكان الآشوريون يجعلون الخصاء عقوبة للسارق والخائن كما كان الخونة عند البابليين والفرس ينالون نفس العقاب .

وقد كان العرب قبل الاسلام يخصون عبيدهم على سبيل العقاب ايضا ولا ينجو من ذلك بعض الاحرار احيانا. وقد ذكرنا بعض الامثلة عن الخصاء عندهم ومنها ما انزله بعض ملوك اليمن بعلقمة الخصي من عقاب (3) وكذلك عملية الجب التي سلطها زنباع الجزامي على عبده سندر لانه باغته في حالة زنا مع جاريته (4)

وقد تواصل هذا الغرض القديم للخصاء بعد الاسلام رغم نهي الشريعة الاسلامية عنه. فقد عاقب الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان

1) عبد السلام ترمانيني – الرق ماضيه – ص 97
2) المسعودي – اخبار الزمان - ص 95
3) الجاحظ – الحيوان – ج 1 ص120 – 121
4) البغوي - مصابيح السنة - ج 2 ص 32–33

المخنثين فكتب الى عامله بالمدينة لكي يخصيهم (1) كما امر في دمشق بخصي شاعر يدعى سمير الايلي لانه شبب بجاريته (2) وقد افضى الغضب بالسلطان السلجوقي طغرلبك الى خصاء وزيره منصور بن محمد الكندري الملقب بعميد الملك لانه كلفه بان يخطب له امراة ليتزوجها فخطبها لنفسه و تزوجها (3).

وقد وجد غرض آخر للخصاء في القرون الوسطى وهو التشدد في طلب العفة زهدا في الحياة وتعبدا. وقد ذكر الجاحظ هذه العادة عند الصابئة، وضرب على ذلك مثلا بابي المبارك الصابي (4) وكان النصارى من رهبان الاديرة يتعمدون نوعا من الخصاء لا يقطع فيه القضيب وانما تسل الخصيتان، لان غرضهم كان تجنب احبال النساء مع تمكين الخصي من قضاء الوطر ولان العادة عندهم ان يفتض الراهب العروس البكر كي تنالها البركة، ويكون ذلك بمحضر الزوج حتى يتاكد من ان الراهب هو الذي افتضها (5) وقد تواصلت عادة افتضاض الابكار باوروبا من قبل رجال الدين حتى القرن السابع عشر (6).

---

1) الاصفهاني ــ الاغاني ج 4 ص 269 طبعة القاهرة 1929
2) عبد السلام ترمانيني ــ الرق ماضيه ــ ص 98
3) ابن الاثير ــ الكامل ج 10 ص 32
4) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 125
5) القزويني ــ آثار البلاد واخبار العباد ص 587 طبعة بيروت 1960
الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 124 ــ لاروس الكبير ــ الموسوعة ج 4 ص 800
6) أ ــ وسترمارك ــ تاريخ الزواج ــ الترجمة الفرنسية ــ ج 1 ص 185 وما بعدها
6) E. Westermarck – L'Histoire du Mariage – (Traduction Française) Paris – 1934 (6 Tomes) T: 1 - p 155 et sv

ج) الاسلام والخصاء

وقد شدد الاسلام في منع الخصاء. ويندرج موقفه هذا في نطاق دعوته العامة الى الرفق بالعبيد ، وحسن معاملتهم والمحافظة على سلامتهم الروحية والجسدية. وقد نزلت آيات قرآنية عديدة في اقرار هذا المبدأ منها قوله تعالى (وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين و الجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا)(1) وقد بلغ المشرع من التاكيد على هذا الرفق في المعاملة حدا ادى به الى النهي عن ضرب العبيد ، او استعمال اي وجه من وجوه العنف معهم. فليس للسيد ان يضرب عبده الا في الحالات الشاذة مثل تركه للواجبات الدينية ، اما في ما عدا هذه الحالة فانه يمنع من ضربه ويعتق عليه ، اذا لم يمتثل لما امر به الشارع في هذا الباب ، فقد اورد الامام البغوي في مصابيح السنة الحديث الآتي (من ضرب غلاما له حدًّا لم ياته او لطمه فان كفارته عتقه) (2) وقال (ما من رجل

---

1) القرآن — سورة النساء — آية 36

2) البغوي — مصابيح السنة - ج 2 ص 32 — 33

يضرب عبده الا اقيد منه يوم القيامة)(1).

وكثيرة هي الروايات التي نهى فيها الرسول اصحابه عن الضرب فمنها نهيه لابي مسعود الانصاري عن ضربه لغلامه بالسوط وقوله له :(والله للّه اقدر عليك منك على هذا) (2) فاذا كان هذا شان المشرع مع الضرب للرقيق فان موقفه من منع التمثيل به وتشويه خلقته اشد. وقد نهى الرسول عن التمثيل بالعبيد واوجب العتق على من فعل ذلك. وروى ابن جريج ان زنباعا الجذامي وجد غلاما له مع جارية له ، فجدع انفه وجبّه. فاشتكى العبد الى الرسول فقال له : اذهب فانت حر. فقال العبد: يا رسول الله فمولى من انا ؟ فقال : مولى الله ورسوله. فلما مات الرسول ، جاء مولى الله هذا الى ابي بكر وطالب بوصية الرسول له ، فاجريت عليه النفقة. ولما مات ابو بكر طالب عمر بن الخطاب بالوصية فاقطعه عمر ارضا في مصر(3) ومن نهي الرسول عن الخصاء قوله :(خصاء امتي الصوم والصوم وجاء) (4) كما نهى

---

1) الحبيشي – البركة – ص 99
2) الغزالي – احياء علوم الدين- ج 2 ص 221 طبعة بيروت - راجع أيضا - ج 6 ص 1036 من طبعة القاهرة
3) احمد شفيق – الرق في الاسلام – ص 71 وما بعدها – البغوي - مصابيح السنة ج 2 ص 32 – 33
4) الكتاني – التراتيب الادارية – ج 2 ص 440 – 441

النبي جماعـة من الصحابة ارادوا ان يختصوا زهدا وورعا (1) وروي عنه قوله (من خصى عبدا خصيناه) (2) . وهكذا نهى الاسلام عن الخصاء لان فيه تعذيبـا للحيوان والانسان وقطعا للتناسل (3) ولذلك نجـد المحتسبين في البلاد الاسلامية في هذه العهود القديمة يزجرون من يقدم على خصي البهيمة او الادمي ويعاقبونه ، وقد يستخلصون منه العود او الدية ويستوفونها لمستحقه ، اذا لم يكـن المحصـي ملكا له (4) ومما يدل على تحريم الاسلام للخصاء نهيه عنه بصورة مطلقة سواء اتعلق الامر بالبهائم او بالادميين . فقد روى عبد الله وابو بكر ابنا نافع عن نافع انـه قال : (نهى رسول الله صلعم عن ان تخصى ذكور الخيل والابل والبقـر ويقـول: فيهـا نشاة الخلق ولا تصلح الاناث الا بالذكور) (5)

لكن من المسلمين من لم يعتمد في موقفه من خصاء الحيوان على هذا الحديث وجـوز هذه العملية مراعاة للمصلحـة العامة . واذا ما كنا نجد خلافا بين المسلمين في جواز خصاء الدواب او عدمه ، واعتقاد فريق منهم في مشروعية خصاء البهائم قياسـا على وسم ابل الصدقة بالنار ، وعلى القصواء والعضباء ناقتي الرسول التين كانتـا موسومتين ، ومراعاة للمصلحة من تجارة وكسب وغيرهما من المنافع (6) فاننا نجـد بالنسبة الى حرمة خصاء الادمي اجماعا بينهم .

1) الذهبي ــ سير اعلام النبلاء ــ القاهرة 1957 ج 1 ص 113 (انظر حديث ابن مظعون في تحريم الرسول للخصـاء)
2) رواه ابو داود ــ الشوكاني ــ نيل الاوطار ــ القاهرة 1961 ج 7 ص 15
3) ابن عمر التونسي ــ تشحيذ الاذهان ص 263ــ264
4) ابن الاخوة ــ معالم القربة ــ 187
5) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 178
6) المصدر نفسـه ج 1 ص 159ــ 160

3) تجارة الخصيان قبل القرن الثالث للهجرة

لكن كثرة اتخاذ الخصيان في الحضارة الاسلامية وازدهار تجارتهم والاقبال على جلبهم واستخدامهم في شكل مجموعات وفيرة العدد لم يظهر الا ابتداء من حكم بني امية .ولا عبرة بما نجده عند المسلمين قبل هذا العهد من افراد الخصيان الذين تلقوا بعضهم في شكل هدايا او امتدت حياتهم من اواخر العصر الجاهلي الى صدر الاسلام ،او اقبل على شرائهم بعض تجار العبيد .فكل هذه المظاهر لا تدل على وجود نشاط تجاري منتظم غايته هذا الصنف الخاص من البضاعة الادمية ونحن لا نكاد نعثر في المصادر التي بين ايدينا على ما يفيد ان المسلمين كانوا في بداية عهدهم يولون هذا الضرب من الرقيق عناية خاصة او يفردونه بالخدمة في أُسَرهم .بل الارجح ان بعض هؤلاء الخصيان القليلين قد كانوا غير متميزين عن السواد الاعظم من الرقيق الاسلامي وقتئذ .

ولا يتسنى الحديث في نظرنا عن وجود تجارة للخصيان لها عاداتها ومراكزها ومستهلكوها قبل العصر الاموي ، وذلك لان حضارة صدر الاسلام

قد كانت اقرب الى الفطرة والبساطة وابعد عن الترف والبذخ من حضارات الاسلام التاليـة .واذا علمنا ان بضاعـة الخصيان هي ضرب من الرقيـق الارستقراطي ، ونوع من الكماليـات التي ترغب فيها الاسر المترفـة واثـرياء القوم ،ادركنا بعد اوائل المسلمين عن هذا النمط من التصرف ، فمـتى ظهرت اذن عند المسلمين تجارة الخصيان باتم معنى هذه الكلمـة ؟ وما هي الظروف التي ساعدت على بروز نشاط تجاري من هذا القبيل ؟.

من العسير ان نحدد تاريخا مضبوطا لهذه الظاهرة في تاريـخ المسلمين ،لانها كغيرها من الظواهر الاجتماعيـة تنشأ على ايـدي الافراد ويتكامل كيانها تدريجيا الى ان تصبح عادة اجتماعيـة واضحـة الحدود .الا انـه بامكاننا ان نقول على وجه الاجمال ،ان المسلمين قد بدأوا يتوفرون على اقتناء الخصيان عندما انتقلت حضارتهم من طـور البداوة والفطرة الى طور الابهـة وعظمـة الملك .ولذلك يروى ان معاويـة ابن ابي سفيان هو اول من اتخذ الخصيان لخدمتـه (1) ومن المعروف عنـه اهتمامـه بعظمـة السلطان ورياشـه وتشبهه بعظماء الحضارة

---

1) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص 131 ــ عبد المنعم خفاجة -قصة الادب في الاندلس ج 2 ص 83

الفارسيــة والروميــة ، ولعله من الهام ان نلاحظ في هذا المجال ان رجال السلطة هم الذين كانوا السباقين الى اقتناء الخصيان وليس عامــة الناس لان منوال حياتهم يختلف عن منوال الحياة العاديــة ويتميز بهذه النعمة التي تمكنهم من استعمال هذه البضاعــة الارستقراطية .

لكن اتخاذ معاويــة للخصيان لا يكفي وحده دليلا على رواج هذه التجارة مهما بلغ هذا الخليفــة في اتخاذهم ،وذلك لسببين رئيسييــــن اولهما ان المسلمين لا يزالون اذاك حديثي عهد بالحضارة الجديدة ،ولم تنتشر بعد هذه العادة بينهم انتشارا يسمح بقيــام تجارة نشيطــــة في هذا المجال ،وثانيهما ان دور الخصيان لم يتبلور بعد في المجتمــع الاسلامي ، ولم تتضح بعد ميزتهم او بالاحرى تميزهم عن سائر الرقيق في المجتمع ،ونعني بهذه الميزة حراســة الحريــم .

ومما يدل على ان الاوضاع الاجتماعية في اوائل العصر الاموي لــم تالف بعد سنــة استخدام الخصيان في شؤون الحريــم ما يرويــه المسعودي بسنده الى المدائنــــي من ان فاختــة زوجــة معاويــة انكرت ان يدخل عليها زوجها خصيا وهذا نص الخبر (وذكر المدائني ان معاوية بن ابي سفيان

دخل ذات يوم على امرأته فاختة وكانت ذات عقل وحزم ومعه خصي وكانت مكشوفة الراس فلما رات معه الخادم غطت راسها، فقال لها معاوية: انه خصي. فقالت: يا امير المؤمنين، اترى المثلة به احلت له ما حرم الله عليه؟ فاسترجع معاوية وعلم ان الحق ما قالته فلم يدخل بعد ذلك على حرمه خادما الا كبيرا فانيا) (1).

هذا يدل اذن على ان المسلمين لم يستسيغوا بعد وظيفة الخصي، تلك الوظيفة التي ستتسبب في ازدياد الحاجة الى الخصيان في العصور الموالية. ويمكننا ان يقول ان نشأة تجارة الخصيان وازدهارها مرتبط عند المسلمين بظهور نظام الحريم في مجتمعاتهم. وهكذا يؤول البحث عن تاريخ ظهور هذه التجارة الى البحث عن تاريخ ظهور نظام الحريم في الحضارة الاسلامية. فمتى ظهر هذا النظام؟ يقول المستشرق "فون كريمر" ان نظام الحريم لم يظهر الا في عهد الوليد الثاني الخليفة الاموي (2) واذا سلمنا بهذا الراي فهمنا سر اكثار هذا الخليفة

1) المسعودي - مروج الذهب - ج 8 ص 148-149 طبعة باريس 1970
2) كريمر A-Kremer - الشرق في ظل الخلفاء - ص 171.
The orient under the Caliphes - P. 171

من اتخاذ الخصيان حتى جعل منهم أمناء في قصره (1) فالعلاقة طبيعية بين هاتين الظاهرتين. اذ لا بد من خصيان في ذلك العهد لحراسة مجموعة نساء الخليفة وجواريه، في وقت صارت الحرة فيه محتجبة عن الاعين بعد ان كانت قبل هذه الفترة سافرة تخالط الرجال. (2)

ويبدو ان المسألة متعلقة اساسا بتاريخ ظهور الاحتجاب بالنسبة للحرائر، وهو تاريخ مرتبط باوضاع المرأة في المجتمع العربي الاسلامي. ومهما يكن من امر الاسباب التي عملت على احتجاب الحريم واستتاره واحتياجه الى من يقوم على شؤونه، فان حقيقة تتجلى لاعيننا وهي ان الصلة متينة بين ازدهار تجارة الخصيان ورسوخ نظام الحريم في طبقة الخاصة من المجتمع، فالحريم نظام خاص بهذه الطبقة ولا نجده عند العوام. فطبيعي اذن ان يكون الخصيان عبيدا مكلفين بخدمة هذه الطبقة قبل غيرها، وهو ما يدعم ما ذهبنا اليها من انهم كانوا يمثلون رقيقا ارستقراطيا.

---

1) عبد المنعم خفاجة – قصة الادب في الاندلس – ج 2 – ص 86
2) زناتي – اختلاط الجنسين عند العرب – ص 76 – 77

من المسلم بـه اذن ان هذه الدلائل كلها تشير الى وجـود تجارة خصيان عند المسلمين قبل القرن الثالث والرابع للهجرة. ولا جدال ايضا في ان هـذه التجارة قد نمت خلال النصف الثاني من القـرن الاول وطيلة القـرن الثانـي للهجرة. ومن عوامـل هـذا النمـو تنافس الخلفـاء في الاستكثـار من هـذا الصنف من الـخدم رغبـة فـي جـلال السلـطان وعظمـة الملك. ومن الادلـة علـى ذلك مـا كان يرسلـه والي افريقيـة والمغرب عبيـدة بن عبد الرحمن القيسـي الى الخليفـة الاموي هشـام بن عبـد الملك من الخصيـان، فقد روى صاحب الذخائـر والتحـف ان هـذا الوالـي قد اهدى لهشام سنـة (114هـ) سبعمـائـة 700 منهم (1) واذا مـا دلـت هـذه الهديـة على شـيء فانمـا تـدل علـى رواج تجارة الخصيـان بالمغرب منذ ذلك العهد، وعلى ان هـذه المنطقـة من العالم الاسلامـي قد اشتهرت بهذا النوع من البضاعـة المجلوبـة امـا من الاندلس او من بلاد السودان كما سوف نبيـن ذلك.

---

1) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ـ ص 15

٤) تجارة الخصيان في القرنين الثالث والرابع

أ ـ عوامل التطـور

اما العصر الذي يهمنا اي القرن الثالث والرابع للهجرة فقد شهد نشاطا جديدا في هذه التجارة يفوق من وجوه عدة ما كان عليه الامر في العصور السابقة في هذا المضمار. ومن اسباب هذا التفوق زيادة استحكام نظام الحريم في ظل العباسيين وانتشاره في طبقة الخاصة. فاستتبع ذلك ازديادا في الحاجة الى هذا النوع من الرقيق، وذلك ان المراة المسلمة ما فتئت متمتعة بحريتها في عهود الاسلام الاولى وهي حرية تقليدية عند البدو منذ العصور القديمة. لكن الامر تغير تماما وخاصة خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة اذ صار نظام الحريم والفصل بين الجنسين امرا قارا ومطلقا وعاما، فبعد ان كانت المرأة في اوائل العهد العباسي تتبوأ مرتبة ممتازة في شؤون الدولة، وتتمتع بتاثير كبير فيها وتشارك في الحرب وتنظم الشعر وتناظر الرجال في الادب والموسيقى والغناء صارت هذه المرأة نفسها منذ القرن الرابع للهجرة في احط المستويات ينظر اليها على انها ذات كيد ودسائس واخلاق ذميمة وشهوات جامحة وهي الصورة التي نجدها في الف ليلة وليلة، وكان ذلك بداية تدهور بسبب المبالغة في

التسري وانحلال الاخلاق الجنسية والجري وراء الترف واللذة فحكم على المرأة بان تقتصر في دورها على خدمة زوجها وابنائها ثم غزل الصوف (1) وكان من نتائج هذه الاوضاع ان ازدادت الحاجة الى الخصيان لحراسة الحريم .

وقد سجل المؤرخون والاخباريون كثرة الخصيان في هذا العصر فمما ذكره البيهقي في هذا الباب ان والي نهاوند في عهد المامون قد ملك كثيرا منهم (2) ويذكرون ايضا ان عدد خدم المقتدر من الخصيان قد كان يقدر باحدى عشر الفا من الروم والسودان (3) كما كان اغلب خدم القصر في عهد الناصر بقرطبة والزهراء من الخصيان . وكان الخصي منهم يدعى غلاما كالفحل ، فاذا اظهر النجابة صار فتى ، ولو كان طاعنا في السن . فكل ما تذكره المصادر حول الغلمان والفتيان في خصوص الحديث عن خدم الناصر انما يرمز الى هؤلاء الخصيان في الاغلب وهذا يدل على كثرتهم (4).

1) Philip K. Hitti - Précis d'Hist des Arabes - Paris - 1950 - p: 103
فيليب حتي - تاريخ العرب - طبعة باريس 1950 ص 103
2) البيهقي - المحاسن والمساوي - ص 163
3) الصابي - رسوم دار الخلافة - ص 8
4) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج - 2 - ص 117 - 130

وكانت هذه الوفرة في عدد الخصيان تابعة للوفرة في عدد الجواري في القصور و دور الخاصة. فلا ريب ان عدد الرقيق المؤنث قد تزايد في هذا العصر بسبب نشاط تجارة الرقيق عموما، فكان لا بد من مضاعفة عدد الخصيان المشرفين عليهن (1) وقد ذكر ابن الخطيب في اعمال الاعلام ان عدد النساء من جوار وحرائر في عهد الناصر بالزهراء ستة آلاف وسبعمائة وخمسون الفا 6750 بينما يجعل ابن عذاري هذا العدد ستة الاف وثلاثمائة 6300 (2) وليس من همنا تحقيق وجه الصحة في هذه الارقام وانما نكتفي بما فيها من دلالة على ضخامة هذا العدد. ومن هذه الارقام ايضا ما ذكره ابن عذاري من ان عدد هؤلاء الخصيان في قصر الحكم الثاني ابن عبد الرحمن الناصر كان اكثر من الف مجبوب (3) ولم يكن هؤلاء الخصيان وقفا على قصور الخلفاء بالاندلس بل انتشروا ايضا في دور الخاصة مع الازواج والجواري وكان يشرف على الجميع قهرمان (4).

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 122 — 130

2) ابن الخطيب — اعمال الاعلام ص 47 - راجع ايضا = ابن عذاري - البيان المغرب ج 1 ص 247 — بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 122 — 130

3) ابن عذاري — البيان المغرب — ط — دوزي - Dozy ص 276 وما بعدها - وترجمة فانيان - Fagnan ج 2 ص 430 وما بعدها - انظر (د)المعارف الاسلامية - الطبعة العربية (ص 252)

4) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 399 — 402

وقد صار للخصيان ايضا في هذا العصر وظائف اخرى غير خدمة الحريم تسببت في ازدياد عددهم. وذلك لان رجال الدولة رغبوا في اصطناعهم فقلدوهم شتى المهام ووثقوا بهم واطمأنوا اليهم وكان من اسباب هذه الثقة وهذا الاطمئنان ان اغلب ابناء الامراء والخلفاء قد نشؤوا بينهم وتربوا على ايديهم فانسوا بهم لتفانيهم في خدمتهم. ثم لما تولوا شؤون السياسة استأمنوهم على الكثير من مهامها اذ لا تخشى منهم عصبية ولا أبناء يطمعون في كرسي الملك. فلا غرابة اذا ما راينا العباسيين يعهدون اليهم بشتى الوظائف لخضد شوكة الاتراك الذين استبدوا بالحكم ابتداء من عهد المتوكل على الله العباسي (1) ويمكن ان نرجع تقليد الخصيان لشؤون الدولة الى ما قبل هذا التاريخ. فمما يذكر عن الخليفة الامين انه اتخذ منهم صنفين سماهم الجرادية والغرابية وكان من بينهم خصيان

---

1) زيدان – تاريخ التمدن الاسلامي – ج 4 ص 162

من الحبشـــان (1)

ب.الجدال حول تجارة الخصيان :

وقد دعا ازدهار تجارة الخصيـــان في هذا العصر فريقـــا من الفقهـــاء وعلمـــاء الدين الـــى مراجعـــة النظر فـــي شرعيـــة هــــذه التجارة. فذهب بعضهم الى منـــع بيـــع الخصـــي وشرائـــه واعتبـــاره حرامـــا مثل عمليـــة الخصـــاء نفسها، بحجـــة ان اقتنـــاء الخصيـــــان يشجع علـــى تلك العمليـــة ويروجهـــا، فوجب اذن قطع السبب ليضمحل المسبّب. وذهب البعض الاخر الى مراعـــاة الواقع الاجتماعـــي والمصالح التجاريـــة، فلم ير بتجارة الخصيـــان باسا، واقر الفصل بين عمليـــــة الخصاء وهي حـــرام وبيـــع الخصـــي وشرائـــه بعد ذلك وهو حلال. ونشط الجدال حول هذا الموضوع ورام كل فريـــق حشد ما يسعــــه من الحجج العقليـــة والنقليـــة لتدعـــيم موقفـــه .

وقد كان الجاحظ كعادتـــه في مستوى هذه الاحداث فهو رجل العصر بدون منازع يتحدث بمنطق ذلك العصر ويعي مصالحه الاقتصاديــــة وضروراتـــه الاجتماعية. فردّ على الراي القائل بان الارباح المنجرة عـــن تجارة الخصيان والحاصلة من الفرق الكبير بين ثمن الفحل وثمن الخصـــي تشكل مشجعا على ترويج عمليـــة الخصاء، واعتبر انـــه را ي صادر عن بعض

---

1) ابن الاثير ــ الكامل ــ ج 6 ص 120
زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 161

(الملحدين المعاندين او بعض الموحدين من الاغبياء المتقوصين)

وذكر بان الرسول قد قبل في هدية المقوقس خصيا بعد ان عرفه واحاط علمه بانه خصي. وبذلك يتضح الفرق في نظره، بين ممارسة الخصاء وهو حرام وقبول الخصي وشرائه وبيعه وهو حلال (1).

ومن الواضح ان الموقف الذي سانده الجاحظ قد كان المتغلب في نهاية الامر، لانه كان اكثر ملاءمة للواقع بالرغم من بعده عن النظرة الانسانية. ولم يكن بامكان الموقف المعارض الصمود امام هذه الظاهرة التي سادت القرنين الثالث والرابع للهجرة وتواصل امرها بعد ذلك بقرون. ومن المفيد أن نذكر انها قد صادفت في غير هذا العصر الذي نهتم به من يساندها ويضفي عليها ما تحتاج اليه من اطار شرعي يمكنها من النمو

---

1) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 163 ـ 165

والاستمرار بالرغم من وجود المعارضين في شتى العصور، فمن العلماء المصرحين بحرمة اتخاذ الخصيان جلال الدين السيوطي في كتابه الذي الفه حول " حرمة خدمة الخصيان لضريح سيد ولد عدنان " (1) لكن نداءات هؤلاء العلماء لم تجد آذانا صاغية وكانت الغلبة دوما للموقف الثاني السائد لهذه الظاهرة. وها نحن اولاء نجد في القرن التاسع عشر للميلاد محمد بن عمر التونسي يرى ان بيع الخصي وشراءه بعد خصائه يعتبر بابا من ابواب الاحسان وعمل الخير يثاب عليه الانسان ثوابا عظيما لان الخصيان اذا لم يستخدموا حصل لهم حسب قوله الضرر من وجهين : الاول " مما وقع عليهم من الخصي الموجب لفقد اللذة العظيمة وقطع التناسل " والثاني من ضيق المعيشة (2).

1) محمد بن عمر التونسي – تشحيذ الاذهان – ص 263 – 264

2) المصدر نفسه .

ج-الاستكثار من الخصيــان :

والمهم ان هذا الجدال الفقهي حول شرعية الخصاء قد كان له دور فعال بالنسبة للعصر الذي يهمنا ،اذ فيــه اتجاه نحو التوفيــق بين واقع اجتماعي معين واحكام الشريعة الاسلامية بالرغم من التنافــر الموجود بينهما ،وفيــه محاولــة لتبرير الظاهرة الموجودة بسبب حاجــة المجتمع اليها ، ولم يكن عائقــا لرواج تجارة الخصيان بالرغم من تنديد بعض المدارس الفقهية بهذه التجارة.وفعلا نلاحظ تزايدا في اقتنــاء الخصيان والاستكثار منهم خاصــة في قصور الخلفــاء والامراء ورجــال الدولــة وغيرهم من الوجهاء والاثريــاء اذ استعملوهم في شتى المهــام المتصلــة بابهــة السلطان وترف الملك.

فقد جاء في اخبار الراضي باللــه للصولي ان المعتضد قــد كلف كبار الخصيان بالاشراف على الغلمــان الحجريــة وسماهم الاستاذين وكان الخصي "راغب" يشرف في عهد الراضي على تبادل الاسرى مع الروم (1) وقــد تفاقــم عدد هؤلاء الخصيان ببغداد في عهد المعتضد حتى كان

---

1) الصولي - أخبار الراضي - ج 1-ص 49 - و 169
(كان يطلق على الخصيان تسميات مختلفة منها : الطواشين والاستاذين والخدم - راجع برنشفيك -Brunschvig- مقال عبد - دائرة المعارف الاسلامية - ج 1 ص 34)

اهل هذه المدينة يسخرون منهم في الطرق ويعيرونهم بشتى الالقاب.وحدث من جراء ذلك شغب سنة(284هـ/898م)(1) .ولم يكن عدد الخصيان بمصر الطولونية قليلا.وكانت العادة ايضا تقليدهم شؤون ادارة القصر و تكليفهم بشتى المهام.وتسلم بعضهم اعلى المراتب في الدولة حتى تنمر لها وتآمر على اسياده فيها.واحسن مثال على ذلك ما فعله مؤنس بالخليفة المقتدر والخصي لؤلؤ بأحمد بن طولون وكذلك قتل بعض الخصيان لخمارويه بن طولون (2) وقد آنس الخصيان من انفسهم قوة في عهد خمارويه الطولوني حتى تآمروا عليه وقتلوه ،وقد تزايد عددهم في قصر المتوكل حتى صار 4000 اربعة الاف وبلغ في بلاط المقتدر 10،000 عشرة آلاف (3) فلما كانت دولة المماليك تجاوز عددهم هذه الارقام وسموا بالطواشية والاغوات وسمي مقدمهم بالاستاذ واصبح لهم نفوذ في الدولة كبير .

---

1) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي — ج 4 ص 164 — 165
2) المسعودي — مروج الذهب — طبعة باريس 1970 — ج 8 ص 147
زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي — ج 4 ص 164
ابن الزبير — الذخائر والتحف — ص 50
3) التنوخي — نشوار المحاضرة — ج 5 ص48 — الخطيب البغدادي — تاريخ بغداد — القاهرة 1931 ج1 ص 100

واذا ما بلغ الخصيان اوج المراتب بالمشرق فكان منهم مؤنس القائد العام لجند المقتدر وكان منهم يزمان اميرطرسوس (1) وكافـــور الاخشيدي امير مصر وشكر غلام عضد الدولة وفائق قائد السامانين (2) فان شأن الخصيان بالمغرب لم يكن يختلف عن شانهم بالمشرق اذ كانوا يقومون بجلائل الوظائف ويقررون مصير الدولة احيانا ، فمن الخصيان الذين اشتهروا في عهد الحكم الثاني وهشام الثاني الحاجب جعفــر بن عبد الرحمن الناصر وهو ينسبــه الى عبد الرحمن لانه هو الــذي اعتقــه (3) وقد ذكر ابن عذاري ان الحكم الثاني بالاندلس قد اتخـذ منهم حرسا فاشتهر منهم خصيان همــا فائق النظامي صاحب الــبرد والطراز وجؤذر صاحب الصاغــة والبيازرة وقد بلغ هذان من تصرفهما في شؤون القصر ان اخفيــا نبأ موت الحكم وحاولا الوقوف دون المناداة بوريث العرش خليفــة، وهو لم يزل بعد طفلا رضيعا. وكادا ينجحـــان

---

1) فازيلياف - Vasiliev - العرب والروم - ج 2 ص 9 - 10 وص 38 و 40 و 45
ماريوس كانار - M. Canard - المسلمون وبيزنطة - مقال عدد 15 ص 111 - 119

2) احمد امين - ظهر الاسلام - ج 1 ص 130 - 131

3) بروفنســال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 122 - 130

في مسعاهما لولا تصدي الوزيرين ابن المصحفي وابن ابي عامر ومقاومتهما لهما (1) وهكذا كان الخصيان الصقالبة بالاندلس يساهمون في الدسائس والمؤامرات السياسية ويستبدون بالحكم. وانتهى بهم الامر الى تكوين حزب مستقل عن العرب والبربر كان من زعمائه في وقت من الاوقات الخصي خيران وكاد امرهم يستفحل لولا سياسة المنصور بن ابي عامر في خضد شوكتهم (2).

وثمة عامل ثالث ساهم ايضا في الكلف بالخصيان والاقبال عليهم وتنشيط تجارتهم في القرنين الثالث والرابع وهو ما بدأ يستفحل في المجتمع الاسلامي ابتداء من اواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث من شذوذ جنسي وجد في صغار الخصيان مرتعا له ، وذلك لان الولع بالغلام وتفضيله على الجارية جعل الانظار تتجه الى هذا الصنف من الرقيق لما يمتاز به من الجمع بين صفات الذكورة والانوثة في وقت كانت الجواري تتشبهن فيه بالغلمان والغلمان يتشبهون بالجواري (3)

---

1) ابن عذاري – البيان المغرب – طبعة دوزي Dozy ص 276 وترجمة فانيان E-FaGnan ج 2 ص 430 - راجع في ذلك = بروفنسال - Provençal - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية مقال = صقالبة - ص 252

2) بروفنسال - Provençal - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية - مقال = صقالبة - ص 252

3) المسعودي – مروج الذهب – ج 2 ص 366 – زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 31

ولهذه الاسباب غلبت التسمية بالغلمان على الخصيان من الاطفال

فكأن الخصي قد كفى هؤلاء الشذاذ مؤونة البحث عن طلبتهم بما توفر فيه من حظوظ الجمال التي يبلغ منها مبلغ الغواني وزيادة حسب قول الجاحظ (1) فقد روي عن الخليفة العباسي الامين انه كان يستكثر من الخصيان ويغالي فيهم ويصيرهم لخلوته ومتعته وترفه ولهوه وكان يزيدهم بمثل زينة الجواري (2) ويدهمك معهم في القصف وقد وصفه شعراء عصره في مجالس انسه محاطا بالخصيان حتى هجاه بعضهم بقوله :

الا ايها المثوى بطوس ... غريبا ما تفادى بالنفوس
لقد ابقيت للخصيان هقلا ... يحمل منهم شؤم البسوس
فاما نوفل فالشأن فيه ... وفي بدر فيالك من جليس
وما للمعصمي شيء لديه ... اذا ذكروا بذي سهم خسيس
وما حسن الصغير اخس حالا ... لديه عند مخترق الكؤوس
لهم من عمره شطر وشطر ... يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظ ... سوى التقطيب والوجه العبوس
اذا كان الرئيس كذا سقيما ... فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس ... لعز على المقيم بدار طوس (3)

---

1) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 114 ــ 115 ــ مفاخرة الجواري والغلمان الرسائل ج 2 ص 123

2) احمد امين ــ ظهر الاسلام ــ ج 1 ص 130 ــ 131 زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 161 ابن الاثير ــ الكامل ــ ج 6 ص 120

3) ابن الاثير ــ الكامل ــ ج 6 ص 120 طبعة مصر في 12 جزء 1302 هـ زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 161

وقد ادى هذا الوضع زبيدة ام الامين الى ان تبعد ابنها عنهم فاختارت له من الجواري املحهن والبستهن لباس الغلمان فعرفن باسم (الغلاميات Les Garçonnes-) وقد وصف احد الشعراء جارية غلامية بقوله :

وصيفة كالغلام تصلح للامرين كالغصن في تثنيها
اكملها الله ثم قال لها لما استتمت حسنها : ايها (1)

ومما زاد في هذا الشغف الجنسي بالخصيان غلبة العنصر الصقلبي والتركي على البيض منهم. وقد عرفت هذه الاجناس بنصيب كبير من الجمال الخلقي بشقرة شعورهم وزرقة عيونهم وبياض بشرتهم (2) الا اننا لا نزعم ان كل الخصيان البيض قد استهدفوا الى مثل هذا الشغف كما نشير الى وجود اجناس اخرى منهم كالسودان والاحباش الذين لم ينص المؤرخون على صلتهم بهذا الميدان، وانما اكدوا اختصاصهم بالخدمة دون غيرها ووصلوا فيها الى اعلى الرتب، فاتخذهم الخلفاء والملوك زينة و ابهة لمجالسهم واصطحبوهم في مواكبهم حتى روي ان هارون الرشيد كان اذا خرج مشى بين يديه اربعمائة من الغلمان

1) عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ـ ص 100
2) راجع في ذلك = المكتبة الجغرافية العربية ج 3 ص 242 و ج 5 ص 84 و ج 6 ص 92 بروفنسال- مقال = صقالبة - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية - ص 251 - 252

يحملون قسي البندق يرمون بـه من يعارضه في الطريق (1) ويكفي للدلالة على تعاظم شان الغلمان في هذا العصر وضع الجاحظ رسالة في المفاخرة بينهم وبين الجواري (2). تلك ابرز العوامل التي عملت على كثرة اقتناء الخصيان وبالتالي على ازدهار تجارتهم في هذا العصر. وقد تزايد نشاط هذه التجارة باستفحال هذه العوامل فكان رواجها في القرن الرابع قد بلغ القمة في شتى بلاد العالم الاسلامي (3)

---

1) ابن الاثير ـ الكامل ـ ج 6 ص 34
2) الجاحظ ـ الرسائل ـ ج 2 ص 91 تحقيق عبد السلام محمد هارون القاهرة 1965
3) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 130

د - مراكـز تجارة الخصيـــان

ان مراكز تجارة الخصيان مرتبطة وثيق الارتباط بمراكز الخصاء ذاتها، شانها في ذلك شان ارتباط نقاط الانتاج بنقاط البيع. واذا ما كان الباعة ينقلون بضاعتهم احيانا الى اقاصي البلاد، بحثا عن الربح، فان مكان الانتاج يبقى دائما المستودع الكبير لرواج تلك البضاعـة وغزارتها. ومهما كان المستورد لها قادرا على استيعاب قدر كبير منها فان المصدر يبقى دائما صاحب النصيب الاوفـــر، فلا مناص اذن من ان نقدم الحديث عن مراكز الخصاء.

ان هذه المراكز هي مخاص اي اماكن تجرى بها عمليات الخصـــاء على الرقيق. فهي اذن مصانع وظيفتها "صناعة الخصيان" على حد تعبير دوزي (1) وقد كانت متعددة ومنتشرة خارج البلاد الاسلامية وداخلهـــا. ويفسر لنا هذا التعدد كثرة ما وجد بقصور الخلفاء طوال القرون الوسطى كلها من خصيان (2) ومن وجد منهم في بيزنطة وعواصم جنوب ايطاليـــا وفرنسا وغيرها، ويبدو ان اشهر هذه المراكز باوروبا هو مدينة فـردون verdun بفرنسا حيث كان التجار اليهود يشرفون على عملية الخصـــاء

---

1) دوزي - Dozy - تاريخ مسلمي اسبانيا ج 3 ص 59 - 62 - بروفنسال - د م الاسلامية الطبعة العربية ص 251 - مقال: صقالبة

2) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 122 - 130

و يسلطونها على الرقيق الصقالبــة الذين لم يتجاوزوا بعد شرخ الشباب (1) ثم يحملونهم الى الاندلس ويبيعونهم الى كبار تجار المسلمين او"الجلابــين" فيقوم هؤلاء ببيعهم في اسواق الرقيق داخل البلاد الاندلسيـة.

لكن الخصيان الصقالبـة لم يكونوا يخصون بهذا المركز الاجنبي فحسب بل ان اغلبهم حسب قول المقدسي (2) قد كان يخصى داخل البلاد الاندلسية فذكر ان الرقيق الصقالبـة يجلبون الى ميناء بجانـة (3) Pechina حيث يشتريهم السماسرة اليهود غالبا ثم يسوقونهم الى بلدة اخرى داخـل البلاد يرجح بروفنسال انها لوشنة Lucena وقد كان اغلب سكانها يهـودا في القرون الوسطى (4) وكانت هذه العملية تؤدي غالبا الى وفاة العبـــد لصعوبتهـا.

تلك اهم المراكز التي يخص بها رقيق الصقالبة اما اجناس الخصيان الاخرى فقد كانت تخص بغير هذه المراكز.فأين يخص الخصيان الســود مثلا ؟ ان الثابت انهم كانوا يخصون داخل بلاد السودان لا خارجهـــا

---

1) بروفنسال Provençal - دائرة المعارف الاسلامية" - الطبعة العربية" - مقال: صقالبـة" - ص 251
2) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 241 - خوان بيرنيط - مجلة المعهد المصري - رقم 1 مدريد ص 73 - 76
3) ابن خرداذبة - المسالك والممالك - بيروت 1889 - ص 112
4) بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 2 ص 132 - 130

ولذلك يشير مؤلف حدود العالم الى ان الخصيان السود كان يجلبون من المنطقة الكائنة بين النيل والمحيط (1) الا ان مصادرنا لا تحدد مدينة بعينها يقع فيها الخصاء بالنسبة للفترة التي تهمنا.

وقد وفر لنا ابن فضل الله العمري شهادة على وجود مراكز للخصاء بشرقي افريقيا خلال القرن السابع للهجرة ملاحظا ان بعض هذه الاماكن لا يعتنق اهلها دينا من الاديان وانهم كانوا يبتعدون عن عيون الرقباء، ثم يخص بالذكر مركز مدينة "وشلوا" ببلاد الحبشة. وهو مركز يقصده سراق الرقيق والنخاسون في اختفاء عن السلطة المسيحية التي كانت تمنع هذا النوع من العمليات. وبعد انجاز الخصاء يحمل العبيد الى مدينة "هدية" وهي اذاك مجتمع الخدم المجلوبين من سائر الانحاء فيعالج الخصيان من آثار جراحهم وتجرى عليهم عملية اخرى لتفتح مجرى البول بعد التئامه ثم يباعون باثمان باهضة وهذا نص ما يذكره العمري:

---

1) مؤلف مجهول ـ حدود العالم ـ ص 169 الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ص 77

(والى " هدية " تجلب الخدام من بلاد الكفارة ، حدثني الحاج فرج الفوى التاجر ان صاحب "امحرة" يمنع من خصي العبيد وينكر هذا ويشدد فيه . وانما السراق تقصد مدينة اسمها " وشلوا " بفتح الواو والشين المعجمة واللام ، واهلها همج لا دين عندهم فيخص بها العبيد . ولا يقدم على هذا في جميع بلاد الحبشة سواهم وكذلك التجار اذا اشتروا العبيد خرجوا بهم يعرجون الى " وشلوا " ليخصوهم بها لاجل الزيادة في الثمن . ثم يحمل كل من خصي الى مدينة " هدية " فتعاد عليه الموس مرة ثانية ليفتح مجرى البول ، لانه يكون قد انسد عند الخصي بالقيح ثم انهم يعالجون " بهدية " الى ان يبرو (كذا) لان اهل " وشلوا " ليس لهم معرفة بالعلاج ، فسألت الفوى : لاي شيء تختص بهذا " هدية " دون بقية اخواتها ؟ فقال لي : لانها اقرب هذه البلاد الى " وشلوا " وقد صار لاهلها دراية في علاج هؤلاء ، وقال : ومع هذا فالذي يموت منهم اكثر من الذي يعيش . واضر ما عليهم حملهم بلا معالجة من مكان الى مكان ولو عولجوا في مكان خصيهم كان اصلح لهم ولولا حملهم الى مكان يعالجون به ما سلم والله احد منهم) (1)

1) الشاطر بصيلي ـ تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط من القرن السابع الى القرن التاسع عشر للميلاد طبعة مصر ـ 1972 ص 509 (مستخرج من مخطوط مسالك الابصار لابن فضل الله العمري)

فهذه الشهادة وان كانت متاخرة تدل على ان مراكز خصاء السود قد كانت الى ذلك العهد خارج بلاد الاسلام. وقد اورد لنا القلقشندي في صبح الاعشى نفس الخبر (1) مؤكدا ان ببلاد الحبشة مركزين للخصاء هما " هدية " و شقلو " وان الزنوج كانوا يخصون بهما. ولدينا من النصوص ما يشير الى وجود مراكز اخرى للخصاء خارج بلاد الاسلام، ولا سيما تلك النصوص التي اوردها كل من الجاحظ والمقدسي حول خصاء الروم. فقد ذكرا ان الروم يخصون بعض ابنائهم ويوقفونهم على الكنائس لئلا تؤذيهم الشهوة في اوقات تبتلهم، فاذا اغار المسلمون على تلك الكنائس اخرجوا الصبيان منها، ويقول المقدسي ان هؤلاء الخصيان كانوا يرسلون الى الشام ثم انقطع سيلهم عندما تخربت الثغور (2) كما يذكر المقدسي ان " جزيرة الذهب " القريبة من قبرص قد كانت مركزا لخصاء اولاد الروم (3).

اما الجاحظ فانه وان ذكر امورا شبيهة بما ذكره المقدسي فيما بعد، مثل علاقة الخصاء بخدمة بيوت العبادة، فانه كان يعتبر ان الغرض

1) القلقشندي — صبح الاعشى — طبعة القاهرة 1928 ج 5 ص 328
2) المقدسي — احسن التقاسيم — طبعة بريل - Brill - 1906 ص 241
3) المصدر نفسه ص 242 - لاروس الكبير - L.G. Larousse - الموسوعة مادة : خصي Ennuque ج 2 ص 696

ـــ هو تجنب النسل والانجاب من الرواهب في الاديرة لان الرهبان كانوا يرومون قضاء الوطر مع تجنب الاحبال . ويؤاخذ الجاحظ الـــروم بتنكرهم للديانة المسيحية القائمة على الرافـة والرحمـة بممارستهم لعملية الخصاء (1) ولسنا هنا بصدد مناقشـة هذه المسألة الدينية وانمـــا نريد ان نثبت حقيقـة وهي وجود بعض مراكز للخصاء في ظل الامبراطورية البيزنطية خصوصا اننا نعلم ان الخصيان قد وصل بهم الامر الى التغلب على شؤون الدولة في بعض عهودها فاستبد بالحكم فيها اسطفـــــــان المعتق - S - L' Affranchi وكذلك سليمان الخصي (2).

وشبيه بهذا ما ذكره الجاحظ حول الخصيان الوافدين على العراق من بلاد الصين . فان في كلامـه ما يشير الى وجود مراكز لهذه الصناعـة في اطراف البلاد الاسيوية . ونحن نظفر بما يدعم هذه الحقيقـة عنــــد المسعودي في زمن لاحق اذ نراه يؤكد لنا ان اهل الصين يخصون كثيرا من اولادهم شأنهم في ذلك شأن الروم(3). وليس من الغريب ان تنتشـــر هذه المراكز في نواحي المعمورة لان عادة الخصاء كانت من العوائـــــد

1) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 124 ــ 125
2) زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 164
3) المسعودي ــ مروج الذهب ــ طبعة باريس 1970 ج 8 ص 148

القديمة كما راينا . واستمر وجودها عند اغلب الشعوب خلال هذا العصر وقبله وبعده ، فقد كان ملوك الافرنج اذا ارادو التقرب الى خليفة المسلمين بالاندلس اوغيرها اهدوه التحف، ومن بينها الخصيان كما فعل ملكا برشلونة وطركونة عندما اهديا عشرين خصيا الى المستنصر طلبا لتجديد الصلح (1).

ومن الجدير بنا ايضا ان نميز بين مراكز الخصاء التجارية كالتي ذكرناها بفرنسا والاندلس وبلاد الحبشة، وغيرها من المواطن التي وقع بها الخصاء في بعض الفترات لاغراض غير تجارية، مثل ما كان يحدث عند الصابئة بالعراق على حد قول الجاحظ ، فقد كان هؤلاء قبل الاسلام يخصون ابناءهم ليقفوهم على بيوت العبادة ويخصون انفسهم زهدا وتعبدا. وتواصلت هذه العادة عندهم بعد الاسلام وفي عصر الجاحظ نفسه، اذ تمكن من الاتصال ببعضهم والتعرف عليهم مثلما كان امره مع أبي المبارك الصابي (2) وهذه الظاهرة شبيهة بما وجد عند الروم وهي تختلف عن ظاهرة الخصاء التجارية التي وجدت بمراكز مشهورة في هذا العصر .

---

1) زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 5 ص 27 ــ 28
2) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 125 ــ 128

هذا اهم ما نعرفه عن مراكز الخصاء في هذه الفترة .وهي كما راينا منها ما هو خارج عن دار الاسلام ومنها ما هو مجاور لها او موجود بها. لكننا نلاحظ ان المشرفين على مراكز الخصاء سواء اكانت داخل دار الاسلام او خارجها لا ينتمون الى الاسلام وانما هم في الاغلب مجموعات يهودية (1) او وثنية مستوطنة بجوار المسلمين او خارج ديارهم. ولذلك لم توجد مراكز خصاء اسلامية لان الدين الاسلامي والسلطة الممثلة له يحرمان ممارسة الخصاء .

الا انه لا دليل لدينا على ان بعض المسلمين على الاقل لم يمارسوا في وقت من الاوقات هذه العملية المحرمة في دينهم والممنوعة في مجتمعهم. فالمخالفون للشريعة موجودون في كل زمان، وارتكاب الممنوع امر شائع بين اصحاب كل الملل. فهل ثمة ما يمنع ان يكون هذا المحرم قد ارتكبه افراد في يوم من الايام ؟ اضف الى ذلك ما في تجارة الخصيان من ارباح مغرية من الطبيعي ان تستهوي بعض تجار المسلمين وتستدرجهم الى

---

1) ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك ـ ص 112

الى مضاعفة ارباحهم باقتراف مثل هذه الاعمال . واذا ما علمنا ان النخاسين المسلمين قد كانوا على صلة وثيقة بالخصاة بحكم مهنتهم التجارية و ترددهم الى اماكن الخصاء ومراكزه القريبة منهم عسر علينا الا نتهم بعضهم بالمساهمة المتسترة او التواطؤ على الاقل، اذ مصالحهم تقتضي ان يعينوا على رعاية هذا المورد والسهر عليه حتى لا ينضب ما دام بالامكان الاختفاء عن اعين السلطة للقيام بمثل هذه المهمة ، وقد رجح بعض الباحثين هذا الراي . وقد ذكر محمد بن عمر التونسي في حديثه عن خصاء السودان ان المسلمين لا يخصون الا في النادر (1) كما ذكر احمد امين في كتابه ظهر الاسلام نقلا عن كتاب الحيوان للجاحظ ان المسلمين لم يكونوا يمارسون الخصاء الا قليلا وبصفة عرضية (2) .

---

1) محمد بن عمر التونسي ـ تشحيذ الاذهان ـ ص 263 ـ 264
2) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 130 ـ 131

٤ - اجناس الخصيـــــان

كان عنصر الخصيان من الرقيق في هذا العصر على ضربين الابيض والاسود (1) وكانت اجناس البيض والسود متنوعـة ايضا ، اذ كان من بين اجناس العنصر الابيض الصقالبـة والترك والروم واليونان والافرنج والفرس وغيرهم . بل ان الجاحـــظ ليحدثنا عن خصيان مجلوبين من الصين الى العراق في عهده فهل كانـوا من الصينيين ام من جنس آخر؟ هذا ما سنحاول البت فيـه بعد حين (2) لكن الثابت لدينـا ان الخصيان البيض كانوا كثيري الاجناس بسبب تنوع مصادرهـم. فاذا ما كنا قادرين على تحديد نسبيّ لاصناف المجلوبين منهم، تعذر علينـــا تحديد من طوحت بهم ظروف الحرب والسلم الى رقعة العالم الاسلامي المترامية الاطراف . كما ان مصدر الخصي لا يقطع باثبات جنســه لاختلاط هذه الاجناس في ظل الامبراطورية البيزنطية وان كانوا جميعا يحملون اسم الروم . . . وما قيل في شان الخصيان البيض يصح قولــه في السود منهم . فهم كذلك اجناس متنوعة لا يجمع بينهم احيانا الا سواد البشرة . فقد تعرض الجاحظ في كتاب الحـيوان الى الخصيان من السند والحبشة والنوبـة والسودان (3) كما اطلق مؤلف حدود

---

1) بروفنسال Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 177 ـ 179

2) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة - ص 33 - الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 138 ـ 141

3) الجاحظ - الحيوان - ج 1 ص 53 - 56 ـ احمد امين - ظهر الاسلام - ج 1 ص 130 ـ 131

العالم ولم يخصص،فجعل اجناس السود منهم راجعة الى الرقعة الجغرافية الكائنة بين النيل والمحيط الاطلسي (1).

لكن هذه الاجناس تختلف قلة وكثرة بقطع النظر عن الوانها ولذلك سوف نركز حديثنا على اشهرها واغزرها عددا واكثرها انتشارا. ومستندنا في اقرار اشهر هذه الاجناس اهتمام المؤرخين بها اهتماما خاصا في حين انهم يشيروا الى الاجناس الاخرى بصورة عرضية. فاكثر الخصيان البيض عددا هم الصقالبة بدون منازع،وقد اثرت هذه الكثرة في معنى كلمة "صقلب" اذ صارت تعني في بعض الاوقات الخصي دون غيره من الرقيق المنتمي الى هذا الجنس. و نحن نجد هذا الاستعمال بهذا المعنى عند كل من ابن حيان وابن بسام فهما يوردان هذه العبارة الدالة على هذا المعنى " اربعة غلمان احدهم فحل والثلاثة صقلب " وقد اعتمد دوزي على هذا الاستعمال ليستنتج منه ان اغلب الخصيان البيض قد كانوا من الصقالبة (2) وكانوا يجلبون من اوروبا الى الاندلس ثم يوزعون في شتى انحاء العالم الاسلامي كما يجلبون كذلك

---

1) مؤلف مجهول – حدود العالم ص 169 – الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 77

2) دوزي - ملحق المعاجم العربية Sup. aux Dict. Arabes - Dozy - الطبعة 3 ج 1 ص 663-664

الى دار الاسلام من الشرق الاوروبي (1) ومن اسباب هذه الكثرة في خصيان الصقالبة توفر مراكز الخصاء باوروبا والاندلس كما سوف نرى .

ويلي هذا الجنس من الخصيان البيض في كثرة العدد واهميته الخصيان الاتراك والروم (2) كما ذكرنا ان الجاحظ صرح بوجود خصيان مجلوبين في عهده من الصين . ولكنه لا يذكر لنا هل كان هؤلاء من جنس صيني ام لا ، الا انه بامكاننا ان نرجح انهم ينتمون الى هذا الجنس وذلك بالاعتماد على ما ذكره بعض الباحثين (3) من ان اغلب الارقاء في الصين كانوا من ابناء البلاد ، وقد بيعوا بسبب الفقر والعوز . ويمكن لنا ان نعتمد ايضا على ما لدينا من اخبار حول ممارسة الصينيين للخصاء واجرائه على بعضهم بعضا . ولعل من اكثر هذه الاخبار دلالة ما ذكره لنا المسعودي حول ظاهرة الخصاء في الصين ، اذ بين لنا في كتابه اخبار الزمان ان من القوانين الجاري بها العمل في هذه البلاد ، خصاء اللقطاء اي ابناء الزنا ، فاذا فجرت المرأة ثم انجبت نظر الحاكم في وليدها ، فان كان بنتا اعتبرت بغيا مثل امها ، وان كان

---

1) - راجع - المكتبة الجغرافية العربية ج 3 ص 242 و ج 5 ص 84 و ج 6 ص 92
2) المرجع نفسه - ماريوس كانار - M. Canard المسلمون وبيزنطة - فصل عدد 15 ص 111 - 119
3) اوسترمارك - Westermarck - (E) - اصل الاراء الاخلاقية وتطورها - L'origine et le développement des idées morales
طبعة باريس 1928 في جزاين ج 1 ص 678 - 689

ذكرا تم خصاؤه ووقع تسخيره لخدمة الملك. يقول المسعودي في ذلك: (ومن سيرتهم ان عمال الملك واصحاب خراجه وجيوشه خدم وذلك ان المرأة اذا لم تكن محصنة وارادت الفجور رفعت امرها الى الملك تذكر حالها فيدفع اليها خاتم نحاس من خواتم الملك فجعلته في عنقها ولبست المصبغات وعملت ما شاءت علانية واذا ولدت الذكور خصوا واستعملهم الملك في داره واعماله وان ولدت انثى كانت على رسم امها) (1).

فاذا صح كلام المسعودي فهمنا ان بضاعة الخصيان كانت متوفرة في الصين وانها كانت مستعملة في مجالات داخلية كخدمة قصر الملك، فليس من المتعذر ان تكون مادة تصدر كذلك الى الخارج، وان يكون الخصيان المجلوبون من الصين الى العراق من جنس صيني حقا. كما نلاحظ من خلال ما اورده المسعودي ان ظروف الخصاء بالصين مرتبطة بعادات اجتماعية معينة ونظرة خاصة الى ظاهرة الفجور. فكأن اللقيط كان يعتبر عندهم وارثا للفجور فيعمل على خصائه تجنبا ربما لتفشي تلك الظاهرة وهذه الدواعي تختلف عن دواعي الخصاء في مجتمعات اخرى .

---

1) المسعودي – اخبار الزمان – ص 95

اما الخصيان السود فلم يكونوا اقل رواجا في العالم الاسلامي من البيض ويبدو ان الاقبال عليهم كان اكثر في الشؤون المتعلقة بخدمة القصور و دور الخواص،لانهم كانوا يعتبرون اقل اغراء بالنسبة للحريم من البيض الموصوفين بحمرة الشعر وزرقة العيون .كما كانوا يعتبرون اكثر جلدا على الاعمال الشاقة من البيض.فكانت قصور الامراء وبلاطات الخلفاء تجمع غالبا بين الخصيان البيض والسود ، وتكون منهم فريقين متميزين،فكان للخليفة الامين منهم فرقتان هما الجرادية والغرابية (1) وفيهم العديد من الخصيان الحبشان وقد كثر عددهم ببغداد ،وصار اغلب الخصيان في البلاد من الطواشية السود . وهؤلاء هم الذين اثار اهل الحاضرة العباسية الشغب حولهم بسخريتهم منهم سنة(284 هـ)في عهد المعتضد العباسي مما حمل الخصيان على الشكوى الى الخليفة،فقام بحملة تاديبية لهؤلاء الثائرين الساخرين .

وقد وصف لنا المسعودي في مروج الذهب هذه الحادثة بدقة فقال :

(وفي هذه السنة(283 هـ) كان لاهل بغداد ثورة مع السلطان لصياحهم بالخدم السودان : " يا عقيق صب ماء واطرح دقيق يا عاق يا طويل الساق "

---

1) ابن الاثير-الكامل-ج 6 ص 120 طبعة مصر 1302 هـ — زيدان -تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 161

وذلك ان الخدم في دار السلطان منهم اجتمعوا فكلموا المعتضد بما يلحقهم في الازقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام فامر المعتضد بجماعة من العامة فضربوا بالسياط فشغب العامة لذلك ....)(1) وكان من هؤلاء الخصيان السود في البلاط الاموي بالاندلس عدد كبير يعمل جنبا الى جنب مع الخصيان الصقالبة (2).

1) المسعودي — مروج الذهب ج 8 ص 180 — 181 طبعة باريس الثانية 1970
2) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 177 — 179

و- عمليــة الخصـــــاء

وقد توفرت لنا من حسن الحظ بعض النصوص التي تصف عملية الخصاء وصفا مدققا . ومن اهم هذه النصوص ما ورد بقلم كل من الجاحظ في كتاب الحيوان (1) ورسالة فخر السودان على البيضان (2) والمقدسي في كتابه احسن التقاسيم في معرفة احوال الاقاليم (3) ويستفاد مما ذكره هذان المؤلفان ان عمليــــة الخصاء قد كانت من الصعوبة بمكان كبير، وان الخصاة لا ينجحون دائما في القيام بها،كما سوف نبين ذلك فيما يلي . ونفهم ايضا من خلال هذه النصوص ان هنالك اكثر من عملية جراحية واحدة في هذا الميدان . فمن انواع الخصاء التي يذكرهـا المقدسي قطع العضو التناسلي كاملا دفعة واحدة وهو ما يعبر عنه بالمسح في قوله (قال بعض : يمسح القضيب والمزودان في مرة واحدة) (4) ومنها ان تستخرج البيضتان اولا بعملية جراحية ثم يقطع القضيب بعد ان توضع خشبـة

1) الجاحظ — كتاب الحيوان — تحقيق عبد السلام هارون - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثالثة - 1388 هـ/ 1969م ج 1

2) الجاحظ — فخر السودان على البيضان — رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي بالقاهرة - 1384 هـ/ 1964م

3) المقدسي — احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم — تحقيق دي غوية De Goeje الطبعة الثانية - مطبعة بريل Brill - ليدن 1906

4) المصدر نفسه ص 242 — 243

في اصله يقول في ذلك:(وقال بعضهم : يشق المزودان وتخرج البيضتان ثم تجعل تحت القضيب خشبة ويقط من اصله) (1) فالطريقة الثانية تنجز على مرحلتين بينما تتميز الطريقة الاولى بالسرعة في الانجاز .

فهل وراء هذا الاختلاف سر من الاسرار ؟ وهل يعني ذلك ان الاسلوب الاول اكثر تطورا واقل ايلاما من الثاني ام العكس ؟ وهل وجدت الطريقتان في فترة واحدة من الزمن ام في زمنين متباعدين ؟ ان هذه النصوص لا تجيب عن شيء من ذلك ، اما الجاحظ فاننا نجد عنده اوصافا لهذه العملية تطابق الاسلوب الثاني ولم نعثر له على اشارة تفيد ان الطريقة الاولى قد كان معمولا بها ، فهو يذكر لنا ان الخصاة يجبون القضيب ثم يمتلخون الانثيين ويكون ذلك " بسل " الخصيتين بعروقهما بعد ان تشق عنهما " الصفن " وهي جلدة الخصيتين (2).

فقد يجوز للباحث ان يفترض اعتمادا على سبق الجاحظ زمنيا للمقدسي بقرن من الزمان على الاقل ،ان عملية الخصاء قد مرت باطوار وان المقدسي

---

1) المصدر نفسه
2) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 130 ــ 131

قد عاصر نوعا منها لم يكن معروفا لدى مؤلف كتاب الحيوان . ويذكر لنا الجاحظ نوعا ثالثا من الخصاء ينسبه الى الروم. فيشير الى انهم كانوا لا يقطعون القضيب ولا يتعرضون الا للانثيين ، لانهم ارادوا - حسب قوله - تجنب احبال النساء فقط واما خصاء الوطر فان خصيانهم من اقدر الناس عليه لصبرهم على المطاولة في الجماع (1) فهذا نوع آخر اذن معاصر لهذا العهد الذي ندرسه . واذا سلمنا بصحة ما يقوله الجاحظ ادركنا بسهولة ان المسلمين لا يمكن ان يرغبوا في مثل هذا النوع من الخصيان مما لا يشجع على انتشاره في اوساط الخصاء. بل ان الجاحظ يعتبر ان هذا النوع شاذ التجأ اليه الروم بالنسبة لسدنة بيوت العبادة حتى يعطلوا الانجاب في هذه البيوت .

وللخصاء مرحلة اخرى تلي قطع العضو التناسلي وهي معالجة مجرى البول ومقاومة انسداده بعد التئام الجرح. ويصف المقدسي هذا العلاج بقوله : (واذا خصوهم جعلوا في منفذ البول مرود رصاص يخرجونه أو قات البول الى ان يبرأوا كي لا يلتحم) (2) وقد يحوج الامر الى عملية جراحية اخرى بسبب هذا الانسداد . ولدينا صورة من ذلك بالنسبة لخصاء رقيق السودان لكنها متاخرة عن الفترة الزمانية

---

1) المصدر نفسه ج 1 ص 124 ـ 125
2) المقدسي ـ احسن التقاسيم ص 243

التي ندرسها ، اذ يرجع عهدها الى القرن السابع للهجرة ونحن نستخرجها من كتاب مسالك الابصار لابن فضل الله العمري ، زيادة في توضيح هذا الشان ، وان كنا لا نملك الدليل على مطابقتها للوسائل المعمول بها في القرون السابقة . فمما يذكره هذا المؤلف ان العبد الذي يتم خصاؤه بمدينة (وشلوا) يحمل بعد ذلك الى مدينة (هدية) لاجراء عملية فتح مجرى البول لانه ينسدّ بعد الخصاء . يقول العمري في ذلك :(وكذلك التجار اذا اشتروا العبيد خرجوا بهم يعرجون الى " وشلوا " ليخصوهم بها لاجل الزيادة في الثمن ثم يحمل كل من خصي الى مدينة " هدية " فتعاد عليه الموسى مرة ثانية ليفتح مجرى البول لانه يكون قد انسد عند الخصي بالقيح) (1) ، ويبدو ان الظروف الخاصة بهذا الخصاء في بلاد السودان هي التي احوجت الى عملية جديدة لعدم توفر وسائل العلاج على عين المكان . وهذا ما جعل المؤلف يذكر لنا موت كثير من الخصيان اثناء الانتقال من مكان الخصاء الى مكان العلاج .

---

1) الشاطر بصيلي – تاريخ وحضارات السودان – ص 509

ومن الغريب ان ما بقي لنا من نصوص حول خصاء الرقيق الاسود في العصر الذي يهمنا ،وحتى بعده بقرون، يبرز لنا الظروف السيئة التي تتم فيها العملية الجراحية ،كما يصف لنا نتائجها الوخيمة. فمنذ القرن الثالث للهجرة يشير الجاحظ الى ان الخصي الاسود (متى استقصي جبابه لم يتماسك بوله،فان لم يستقص الجباب فقلما يدخل الرجل منزله هذا النوع من الخصيان،واغلبهم بصرّته نفطة شديدة وضرب من الفتق قبيح المنظر من آثار الخصاء) (1) ويتعلق كلام الجاحظ بخصيان الحبشة والنوبة وغيرهما من بلاد السودان، ولا يسعنا ان ننسب هذه الظاهرة الى خصائص السودان الجسدية وتركيبهم العضوي، كما يعتقد الجاحظ. وليس بامكاننا الا ان نتساءل عن سبب ذلك،فهل الامر راجع الى تأخر معدات الخصاء و بدائيتها بالقياس الى ما توفر منها بالنسبة لخصاء الرقيق الابيض ؟ ام ان الظروف التي تلزم الخصاة بالتستر عن الاعين هي التي تضطرهم الى ارتجال العملية والمجازفة بحياة العبد ؟

---

1) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1ص119 ـ 120

لكن هلاك الخصيان لم يكن راجعا فحسب الى هذه الظروف الخاصة بل ان العملية في حد ذاتها، وفي اكمل صورها، قد كانت تشكل خطرا على حياة العبد. فبالرغم من توالي العصور واتخاذ العلاج المصاحب لعملية الخصاء نلاحظ ان اخطارها لم تضمحل. وقد وصف لنا محمد بن عمر التونسي عملية الخصاء لعبيد السودان في القرن التاسع عشر، و اوضح ما يتخذ فيها من تحريات ومواد طبية، ولكنه صرح بان موت العبد كان امرا متوقعا باستمرار. يقول في ذلك: (اخبرني بعضهم انه يؤتى بمن يراد الفعل به فيضبط ضبطا جيدا، و تمسك المذاكير وتستاصل بموسى حاد، ويوضع في ثقب مجرى البول انبوبة صغيرة من صفيح لئلا يلسد، ويكون قد سخن السمن على النار تسخينا جيدا حتى غلى، ثم يكوى به محل القطع، وبعد ان يكون محل القطع جرحا حديديا ينقلب جرحا ناريا، ثم يداوى بالتغيير عليه بالتفتيك والاربطة حتى يشفى او يموت ولا يشفى منه الا القليل)(1) كان الكثير منهم اذن يهلكون اثناء اجراء هذه العملية، كما يحدث احيانا ان تكون عملية غير تامة فيصير العبد نصف خصي او نصف فحل، لكن الغالب ان اكثر الرقيق الذي تجرى عليه هذه العملية كان مآله الموت

---

1) محمد بن عمر التونسي ــ تشحيذ الاذهان ــ ص 263

ولايلجو منهم الا القليل ، ولذلك كانت اثمان الخصيان مرتفعة (1) وقد روي ان من بين ثلاثين غلاما جرى خصيهم ليقوموا بخدمة حريم سلـــــطان مراكش مات ثمانية وعشرون (2).

واذا ما بحثنــــا عن الاسباب التي جعلت الرقيق يموتون من جراء هذه العملية (3) ادركنا انها راجعة بلاشك الى ان هذا الضرب مـن الجراحة كان يشكل صعوبــة كبيرة، بالرغم من توفر بعض المعدات والالات لمباشرتها. فمهما كان مستوى علم الجراحة متطورا في تلك العهود ، فانـه لم يكن يسمح باجراء هذا التشريح بسلام. كما ان الادوات الجراحيـــــة لم تكن من الجودة والتطور بالدرجة التي نتصورها اليوم لاسيما اذا ما وقــفنــا عند عبارة الجاحظ الاتيــة (حديدة مرهفة محماة تسمـــى الحاسمة او القاطعة) (4) او عبارة المقدسي (تجعل تحت القضيب خشبــة ويقط من اصله) او (مرود رصاص) (5) وهي كلها تشير الى هـــــــذه

---

1) بروفنسال- Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 122 ــ 130
2) مصطفى الجداوي ــ الرق في التاريخ-وفي الاسلام طبعة الاسكندرية 1963 ص 131
3) القلقشندي ــ صبح الاعشى ــ ج 5 ص 328
4) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 130 ــ 131
5) المقدسي ــ احسن التقاسيم ــ ص 241 ــ 243

المعدات التي تعتبر دون معدات الجراحة الحديثة في نوعها
وان كانت ارفع نوعا من الات خصاء البهائم والدواب المستعملة اذاك
مثل " الخيط " الذي يستعمل في (شدة التحزيق للبيضتين . . . حتى
تمنع من الغذاء وتجف وتسقط) (1) .

ونحن نجد في فنون ذلك الخصاء وانواعه ما يوحي بالالم في
الجملة مثل " السلّ " او " الامتلاخ " (2) و " القط " (3) و "المسح "(4)
وان كانت هي الاخرى دون " الوجاء " او"الوجر" اي رض البيضة ونخزها
دون قطع للقضيب،وهي طريقة مستعملة خاصة بالنسبة للبهائم (5)
وليس لدينا كذلك ما يدل على ان طرق تنفيذ هذه الاساليب الجراحية
لم تكن في حالة وعي العبد ، وان وسائل كانت تتخذ للتخفيف من الالم
لا سيما ان الجاحظ يصرح بان للخاصي في بعض الاحيان ظلما
" لا يفي به ظلم" "ويربي على كل ظلم" (6). كما يقول: (لااعلم قتلة

1) الجاحظ ــ الحيوان ج 1 ص 130
2) المصدر نفسه ج 1 ص 129 ــ 131
3) المقدسي ــ احسن التقاسيم ــ ص 241 ــ 243
4) المصدر نفسه
5) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 130
6) المصدر نفسه ــ ج 1 ص 129 ــ 130

اذا كان القتل قتلة مريحة ـ الا اصغر عند الله تعالى واسهل على هذا المظلوم من طول التعذيب والله تعالى بالمرصاد)(1).

ان كل هذه الدلائل تجعل عملية الخصاء اقرب الى التصرف الوحشي منها الى المجال الطبي. ومما يضاعف من توحش هذه العملية انها كانت تباشر في مواطن نائية غالبا عن اماكن العلاج والتمريض، وتجري في ظروف قاسية لان مباشريها قد يتعمدون الاختفاء عن اعين الرقباء ويهربون من مراقبة السلطة التي كانت تمنع هذا التصرف وتعاقب عليه، مما يضاعف من اخطار هذا الخصاء على حياة الرقيق ويكثر من حدوث الاخطاء المتسببة في فشل العمل الجراحي، مثل ما ذكر من "صعود احدى البيضتين الى جوفه (الخصي)" فاذا طلبت ورام الجراح البحث عنها "لم توجد في الوقت ثم تنزل بعد ما التحم الشق" (2) ويرى الجاحظ ان القتل بالنسبة للخصي اهون عليه من هذه الحالة لان احدى البيضتين اذا تعذر استئصالها، وبقيت بعد التحام الجرح، لم يكن الخصي رجلا ولا امراة فتخرج لحيته ولا يدخله اذاك احد على حريمه، ولا يمكنه مشاركة الرجال في الفحولة والانجاب (3)

---

1) المصدر نفسه
2) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ 241 ـ 243
3) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 129 ـ 130

ونحن نلاحظ ان الصور التي ذكرت لنا اماكن الخصاء قد اشارت من طرف خفي الى انها لا تكون غالبا في المدن الكبرى حيث الرقابة المشددة والاعين اليقظة فهي تجرى عادة بالقرى الصغيرة المجاورة للمدن الكبرى مثل "وشلوا" بالنسبة "لهدية" (1) و "لوشنة" بالنسبة لبجانة (2) وأما و"فردن" verdun فوضعها مختلف عنها (3) ولم يكن السر عادة في اختيار هذه الاماكن يعد ومجاورتها لا سواق الرقيق الشهيرة دون اهتمام بملاءمتها لمثل هذا العمل الجراحي. ولهذا السبب يذكر القمي ان الذين يخصون بوشلوا لا يقع علاجهم الا بهدية فيموت الكثيرون بين المدينتين بسبب انغلاق مجرى البول الذي لا يمكن فتحه على عين المكان (4) .

ولسنا ندري كذلك شيئا ذا بال عن الذين يقومون بعملية الخصاء فهل كانوا من الجراحيين حقيقة ام من الذين يدعوهم الحرص على الكسب الى تسليط العذاب على الاخرين في صورة وحشية بشعة ؟ من العسير الجواب عن هذا السؤال. لكن الامر الذي لا ريب فيه هو ان الذين يسمحون لانفسهم بممارسة امر غير مشروع لا يستبعد ان يقدموا على تنفيذه بوسائل غير شرعية ايضا. لكن الامر تطور فيما بعد وتغيرت ظروف الخصاء في العصور الحديثة اذ اصبحت ام القرى الاوسط في العصور المتاخرة تجري عملية الخصاء على الرقيق في المستشفيات ويتم بعملية جراحية (5) .

1) الساطر بصيلي ـ تاريخ وحضارات السودان ص 509
2) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ ص 241 ـ 243 بروفنسال ـ Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ج 1 ص 372 احالة رقم 2
3) هي من العواصم التجارية الكبرى ـ لاروس G. Larousse . الموسوعة ـ ج 10
4) الساطر بصيلي ـ تاريخ وحضارات السودان ص 509
5) مصطفى الحداوي ـ الرق في التاريخ وفي الاسلام ص 131 الاسكندرية 1963

ز- آثار الخصاء المادية والروحية

* **تاثير الخصاء في البنية الجسدية :**

وللخصاء انعكاسات على مظاهر البنية الجسدية بالنسبة للخصي وقد تعرض المؤلفون في هذا العصر الى تفصيل القول فيها وخاصة منهم المسعودي في كتابه اخبار الزمان والجاحظ في رسائله وكتاب الحيوان (1) وتتمثل هذه الانعكاسات في حدوث تغييرات في هيئة الانسان المخصي وسماته وملامحه وبشرته ولونه وهي تغييرات تجعله اقرب الى خصائص النساء الجسدية. فمن ذلك مثلا تساقط شعره الا شعر العانة والراس واشفار العينين لانها موجودة عند كل من الرجل والمرأة. اما بقية الجسد فتصير متجردة، بل انه (ليفضل المراة في الانجراد والزعر بان تجد المراة زباء الذراعين والساقين وبان تجد لها الشعر في ابطيها وليس الخصي كذلك) (2) وقد تحدث الجاحظ على اهم هذه التغييرات ولاحظ ما فيها من تشبه بخصائص الاناث فيقول ان صوت الخصي يتغير ويشعر جميع الناس بتغييره وليسوا في حاجة لمعرفة ذلك الى قيافة.

---

1) المسعودي - مروج الذهب ج 8 ص 148 طبعة باريس 1970 - أخبار الزمان طبعة - بيروت - 1966 - ص 95 - الجاحظ - الحيوان - ج 1 - من ص - 106 - الى ص 115

2) الجاحظ - الحيوان ج 1 ص 114 - 115

يقول الجاحظ (ويعرض له عند قطع ذلك العضو تغير الصوت حتى لا يخفى على من سمعه من غير ان يرى صاحبه انه خصي، وان كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام اخاه او ابن عمه او بعض اترابه من فحولة جنسه ..... وما اقل من تجده ناقصا عن هذا المقدار الا وله بيضة او عرق فليس يحتاج في صحة تمييز ذلك ولا في دقة الحس فيه الى حذق بقيافة بل تجد ذلك شائعا في طباع السفلة والغثراء وفي اجناس الصبيان والنساء) (1) ويبين الجاحظ ان هذه الصفات هي في جملتها قريبة من صفات النساء ويذكر ان الخصي يزداد بها جمالا ولكن هذا الجمال سريع الزوال .....

---

1) المصدر نفسه ج 1 ص 113

يقول في هذا الصدد (.... انك ترى الخصي وكأن السيوف تلمع في لونه وكأنه مرآة صينية وكانه وذيلة مجلوة وكأنه جمارة رطبة وكانه قضيب فضة قد مسه الذهب وكأن في وجناته الورد، ثم لا يلبث كذلك الا سنيات يسيرة حتى يذهب ذلك ذهابا لا يعود، وان كان ذا خصب وفي عيش رغد وفي فراغ بال وقلة نصب) (1) فطبيعي اذن اذا ما كان المسلمون يستملحون في بعض عهودهم هؤلاء الخصيان ويتسرّون بهم ما داموا صغار السن، فيستكثرون منهم في مجالس لهوهم قصد الترفيه والاستمتاع، وليس من الغريب والحالة هذه ان يتناول الغزل المذكر في بعض البلدان الاسلامية كالاندلس وصف الخصيان قبل غيرهم فقد كان هؤلاء موضوع هذا الغزل في اغلب الاحيان وديوان ابن قزمان حافل بهذا النوع من الغزل (2) وقد شجع هذا الولع بجمالهم على شرائهم فضلا عن حاجة الحريم اليهم.

---

1) المصدر نفسه ج 1 ص 106 ــ 108

2) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 399 ــ 402

★-تاثير الخصاء في الامزجة والاخلاق :

وللخصاء تاثير في مزاج الرقيق واخلاقه فضلا عن تاثيره في خلقته وبنيته الجسدية (1) ويتجلى هذا التاثير في تغير طباع الخصي من الشدة الى اللين ومن الخشونة الى الرقة فيصبح شبيها بالمرأة في ذلك ، ويفقد اخلاق الرجال شيئا فشيئا . وقد لاحظ الجاحظ هذه الظاهرة قائلا : (اذا قطع العضو الذي كان به فحلا تاما اخرجه ذلك من اكثر معاني الفحول وصفاتهم) (2) وقد اشار ابن بطلان ايضا الى هذا التحول في صفات الخصي النفسية فقال :(اخلاق الخصيان كالمشابهة لاخلاق النساء) (3) ويضرب الجاحظ مثالا حسنا على هذا التحول من الذكورة الى الانوثة او ما يقاربها بالاحباش الذين يخصون اذ تفتر حيويتهم ويذهب نشاطهم وتقل حركتهم والحال انهم عرفوا بكثرة النشاط وسرعة الحركة لما ينفردون به من حرارة الطباع حسب قوله (4) لكن الخصي بالرغم من اتصافه

---

1) الجاحظ ــ فخر السودان ــ الرسائل ج 2 ص 124
2) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 106 ــ 108 (يشير الجاحظ الى غزارة دموع الخصيان)
3) ابن بطلان ــ الرسالة ــ ص 365 ــ 366
4) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 119 ــ 120

باخلاق الصبيان والنساء (1) لم يفقد كل خصائص الذكور النفسية كما لا يتكيف طبقا للنموذج الانثوي الكامل. وانما تراه جامعا بين الخلقين والسجيتين متأرجحا بينهما، وان كان ينجذب احيانا الى احد هذين الطبعين اكثر من انجذابه الى الآخر ، وقد ادرك الجاحظ هذا التوسط في الطباع فقال :(وتصير طباعه مقسومة على طباع الذكر والانثى وربما لم يخلص له الخلق ولم يصف ، حتى يصير كالخلق من اخلاق الرجال ، او يلحق بمثله من اخلاق النساء ولكنه يقع ممزوجا مركبا فيخرج الى ان يكون مذبذبا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ....) (2).

---

1) المصدر نفسه ج 1 ص 135
2) المصدر نفسه ج 1 ص 106 ــ 108

ومهما يكن من امر فان اخلاق الخصي تتغير بعد خصائـــه وقد اثبت العلم الحديث اليوم ما لاحظـه هؤلاء العلماء بالامس.فقد جاء في موسوعـة لاروس الكبير تحت مادة خصاء ان عملية خصاء الرجـل تفضي الى تطبعه بطباع النساء وان خصاء النساء تكسبهن طبـاع الرجال،كما يصبح الخصي ذا تفكير صبياني يدل على غباوة (1) ونحن نجد في فتوى للفقيـه اللخمي (توفي 478هـ/1085م) رايا شبيهـا بهذا اذ يذكر ان الصقالبـة لهم عقول غبيـة لان الخصاء ينقص من الذكاء (2) .

وما من شك في ان نوع التربيـة التي يتلقاها الخصي ومعاشرته للنساء تميل بـه الى التطبع باخلاق الاناث.وقد ساعـد هذا الوضـع على اتخـاذ غلمـان من الخصيـان لممارسـة الشذوذ الجنسـي . لكن الجاحظ قد ذكر نتـائج اخرى لعمليـة الخصاء يعسر ان نرجعها لطبيعة تلك العمليـة،ولا يمكن ان تكون الا اثـرا من آثار الوضـع

---

1) لاروس الكبير-الموسوعـة ج 2 ص 696
2) البرزلي ـ مخطوطـ نسخـة-حسن حسني عبد الوهاب ج 2 ص 41

الاجتماعي الذي كان عليه الخصيان في المجتمع الاسلامي اذاك

ومنها انه كان يعتبر الخصاء متسببا في صبر الخصيان

على الركوب ومهارتهم في الحرب ومنميا لذكائهم خصوصا اذا كانوا

من الصقالبة، فتصبح لهم معرفة بابواب الخدمة وفطنة وحذق

بالرغم من شهرة الصقالبة بالحمق والبلاهة حسب قوله ، وتراه

يقارن بين صقلبي فحل وآخر خصي فيقول :

(...... ان اخوين صقلبين من ام واب لو كان احدهما توأم

اخيه ، انه متى خصي احدهما خرج الخصي منهما اجود خدمة

وافطن لابواب المعاطاة والمناولة ،وهو لها اتقن وبها اليق وتجده

ايضا اذكى عقلا عند المخاطبة ، فيخصّ بذاك كله ، ويبقى اخوه

على غثارة فطرته ، وعلى غباوة غريزته ، وعلى بلاهة الصقلبية وعلى سوء فهم

العجمية) (1) فهو هنا يصف وضع الخصيان في المجتمع الاسلامي ويتوهم

انه طبع فيهم وخلق ناجم عن الخصاء. وكل ما في الامر ان الصقلبي من غير

الخصيان يكون اقل اختلاطا بالاوساط العائلية واعجز عن حفظ اللسان

العربي من الخصي ولا يتاح له ان يتخلق باخلاق المسلمين وان يتفهم

عاداتهم كما يتاح للخصيان بسبب كثرة استخدامهم وتربيتهم .

---

1) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 116 ـ 118

الفصل الثالث

تجارة الرقيق المؤنث

لقد راجت تجارة الرقيق المؤنث في هذا العصر رواجا كبيرا وخاصة في المدن والعواصم لان حاجتها اليه كانت أكبر من حاجة القرى والارياف حيث يقتنى الرقيق المذكر خاصة (1) وكان المؤنث من الرقيق يقتنى لغايتين هما المتعة المعبر عنها بمصطلح "التسرّي" والاضطلاع بأعمال منزلية وعائلية وهي المعبر عنها بمصطلح "الخدمة" فتسمى الأمة المقتناة للمتعة "سرية" وتدعى المقتناة للخدمة "خادما" وقد شرع الفقهاء أحكاما للفصل بين اماء التسرّي واماء الخدمة مفادها عدم جواز الجمع بين الاستخدام والاستمتاع بالنسبة الى الامة الواحدة حفظا للحقوق وللسلوك الاخلاقي وكانت صفة الجمال في الجارية من اهم العوامل التي تجعلها مخصصة للمتعة بينما تعتبر صفات أخرى فيها عند تخصيصها بالاستخدام. (2)

---

(1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص208 . 214

(2) السقطي - آداب الحسبة . ص47 . 50 - ابن بطلان - رسالة في شري الرقيق ص356 ومابعدها

ومن أطرف ما يروى حول موضوع التمييز بين هذين النوعين ما ورد في رسالة "مفاخرة الجواري والغلمان" للجاحظ من أن رجلا نظر "الى جارية سرية ترتفع عن الخدمة فقال : ياجارية في يدك عمل ؟ قالت : لا ولكن في رجلي ." (1) الا انه ليس لدينا ما يثبت ان المالكين للرقيق قد احترموا هذه الحدود بين الاستخدام والاستمتاع .

4) اقتناء الخدم

وكان اقتناء "الخدم" من الاماء عادة راسخة في مجتمع هذا العصر سواء أكان ذلك بالنسبة الى حياة القصور أو دور الخواص وقد اهتم المحتسبون والنخاسون وأهل الاسواق عامة بضروب الاختصاص الموكولة الى الاماء من طبخ وغسل ورضاع وغزل ونسج وغيرها من الشؤون المنزلية وحرصوا على امتحانهن في هذه المشاغل كلها (2)

كما كانت ربات القصور يقتنين "الوصائف" ويتهادينهن وهن نوع من الخدم المضطلعات بخدمة الحظايا في القصور

(1) الجاحظ ـ مفاخرة الجواري والغلمان ـ الرسائل ـ ج 2 ص131

(2) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص47 ـ 50

فممّا يروى مثلا عن "ست الناس" وهي جارية محمد بن علي الماذرائي بمصر انها كانت تجلس في شباك من شبابيك قصره وحولها وصائفها قياما بالمذاب (1) وعادة اتخاذ الوصائف هذه كانت منتشرة في قصور الامراء والملوك واضرابهم من الوجهاء والاثرياء في العالم الاسلامي وغالبا ما تتخذ في القصور مديرة للخدم تدعى "قهرمانة" (2) وفي ذلك دليل على كثرتهنّ وحاجة مالكيهنّ الى من يشرف على شؤونهنّ. ومن أمثلة هذه الكثرة ماروي عن الخدم اللائي خرجن في جنازة ابن طولون (254 - 270 هـ/ 868-884م) اذكنّ خلقا عظيما "لايعرف عدده الا الله جلّ اسمه ... وقد كنّ صارخات فارتجت الارض لهن وعظمت الحال في قلوب من شاهدهن" (3) .

---

(1) سيدة اسماعيل كاشف . مصر في عهد الاخشيديين - ص255 . 256

(2) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3ص399 - 402

(3) البلوي - سيرة احمد بن طولون - ص345

ويمكن أن نعرض صورة مختصرة حول ظاهرة افتناء الخدم بالمغرب الاسلامي حيث كان الاقبال خاصة على اقتناء الاماء السود للقيام بالخدمات المنزلية وكذلك كان الأمر بالاندلس (1) فيذكر البكري أن بمدينة "أودغست" طبّاخات محسنات من الاماء السود تباع الواحدة منهنّ بمائة مثقال من الذهب وباكثر من ذلك وقد اشتهرن باتقان الوان عديدة وفاخرة من الاطعمة (2) وقد يتجاوز الأمر اقتناء الخدم الى استئجارهنّ ففي العائلات الثرية بالاندلس يقع استئجار الخدم وقد وصلت الينا امثلة من عقود الاستئجار هذه وفيها ذكر لمختلف الخدمات المنزلية كعجن العجين واعداد الأكل وكنس الغرف وتنظيم الفراش وحلب الشاء وغسل الثياب وغزل الصوف ونسجه وهي عقود سنوية يلتزم فيها السيد باطعام الخادم وايوائها وكسوتها وقد حفظ لنا هذه النماذج من العقود كل من الفيسي والجزيري (3) .

---

(1) المرجع نفسه - ج 3 ص 177 - 179 - نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي - ص 115 - 116

(2) البكري - المغرب - ص 168

(3) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 399 - 402

ع) رواج تجارة الجواري

وقد شرح الجاحظ الاسباب التي من اجلها صار اكثر الاماء احظى عند الرجال من اكثر المهيرات بان الرجل يكون قبل ان يملك الامة قد تامل كل شيء فيها وعرفه ما عدا حظوة الخلوة فيقبل على ابتياعها بعد وقوعها في نفسه اما الحرة فانما يستشار في جمالها النساء والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجل و موافقتهن قليلا ولا كثيرا والرجال بالنساء ابصر وانما تعرف المراة من المراة ظاهر الصفة فاما الخصائص التي تقع من نفوس الرجال فلا تعرفها .(1)

وقد كان شغف الخاصة بالجواري في هذا العصر مضرب المثل حتى قيل "انه لم يل الخلافة في الصدر الاول من امه امة حاشا يزيد وابراهيم ابني الوليد ولا وليها من بني العباس من امه حرة حاشا السفاح والمهدي والامين ولم يلها من بني امية بالاندلس من امه حرة اصلا " (2) وفي هذا القول بيان للتطور الذي حدث في المجتمع الاسلامي بخصوص رواج بضاعة الرقيق وحسبنا ان نراجع انساب خلفاء القرن الرابع للهجرة من العباسيين

1) الجاحظ - المحاسن والأضداد - ص 299
آدم متز - A - MEZ - الحضارة الاسلامية 2 ص 180
2) ابن حزم - نقط العروس - عن :
احمد امين - ظهر الاسلام ج 1 ص 124

وغيرهم وخلفاء الامويين باسبانيا المسلمة لنعلم ان امهاتهم كن في الاغلب من الصقلبيات ،وفي بعض الاحيان من التركيات او الروميات وغيرها من الاجناس التي ينتمي اليها الجواري اذاك (1) ولذلك تراهم يتبعون نسب امهاتهم فلا يتزوجون غير المملوكات الا نادرا .ونظرا الى غلبة هذا التصرف سميت زوجة احدهم بالحرّة تخصيصا لها (2)

وقد يكون من المفيد في هذا المقام ان نورد بعض الامثلة ممّا يرويه المؤرخون عن شغف الخاصة في المجتمع الاسلامي باتخاذ السراري .وهي امثلة لا يخلو بعضها من مبالغة ولكنها جدّ معبرة عن هذا الوضع الجديد الذي استفحل تدريجيا مع استحكام الحضارة وازدهارها .
فبالنسبة الى المشرق الاسلامي اشتهرت من امهات الخلفاء والامراء مجموعة من الجواري منهن "مراجل" الفارسية ام المأمون (198-218هـ 813-833م) و" ماردة " ام المعتصم (218-227هـ/833-842م) و"قراطيس" ام الواثق (227-232هـ/842-847م) " وشجاع " ام المتوكل (232-247هـ/847-861م)

---

1) ابن الجوزي ـ المنتظم ـ ج 5 - ص 121-141
آدم متز A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2ص 180
2) آدم متز A.MEZ الحضارة الاسلامية ج 2ص 180

و " قبيحة " ام المعتز (252-255هـ/ 866-869م) و"حبشية " أم المنتصر (247-248هـ/861-862م) و " شغب " التركية ام المقتدر (295-320هـ/908-932م) وكانت ام المستعين بالله (248-252هـ/862-866م) صقلبية وام المهتدي (255-256هـ/ 869-870م) رومية وام المكتفي (289-295هـ/902-908م) تركية وام المستضيء (566-575هـ/ 1170-1180م) ارمينية وام الناصر (575-622هـ /1180-1225م) تركية وغير هؤلاء ممن لم نذكر (1).

وتعج كتب التاريخ والادب بأخبار هيام هؤلاء الخواص بجواريهم وبما ينفقونه في سبيل رضاهن مما يعتبر احصاؤه متعذرا وايراده مخرجا لهذا البحث عن قصده. وانما يكفي للتدليل على ولع المشارقة بالرقيق المؤنث الجميل هذه الابيات التي جاءت على لسان المعتضد (279-289هـ/892-902م) في التفجع على جاريته " دريرة" :

---

1) صلاح الدين المنجد – بين الخلفاء والخلعاء ص 45 – زيدان – تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 153 – 154

" يا حبيبا لم يكن يعد له عندي حبيب
انت من عيني بعيد ومن القلب قريب
ليس لي بعدك في شيء من اللهو نصيب
لك من قلبي على قلبي وان بنت رقيب
وخيال عنك مذ غبت خيال لا يغيب
لو تراني كيف لي بعدك عول ونحيب
لتيقنت بأني فيك محزون كئيب
ما اس نفسي وان سليتها عنك تطيب
لي دمع ليس يعصيني وصبر ما يجيب "(1)

وكثيرة هي الاخبار التي تبرز لنا اعتداد ذي السلطان والجاه بعبودية لسلطان الجمال في الجواري بالرغم من عبودية هؤلاء الجواري (2) ومنها ما يبرز لنا كثرة ما يقتنيه هؤلاء منهن فمما يذكر ان المتوكل العباسي (232-247هـ/ 847-861م) كان له اربعة الاف جارية وطئهن جميعا (3) وان من الهدايا التي كان يتلقاها من عبد الله بن طاهر اميرخراسان ما اشتمل

---

1) السيوطي - تاريخ الخلفاء - القاهرة - (د ت) ص 372

2) ابن بسام - الذخيرة - القاهرة 1939 المجلد الاول - القسم الاول ص 33 الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 - ج 21 ص74 وج 22 ص 151 و 204 و 205 - 539 - 542 - 566

3) المسعودي - مروج الذهب - ج 7 ص 276 فيليب حتي - Ph Hitti - تاريخ العرب ص 109

في بعض المناسبات على أربعمائة وصيفة (1)

وكان غير هؤلاء من أمراء المشرق يسيرون على نفس المنوال في استكثارهم من اقتناء السراري فهذا نصر الدولة صاحب ميافارقين يتحدد بثلاثمائة وستين جارية على عدد أيام السنة (2) وكأن الفاطميين بمصر نافسوا غيرهم في هذا الميدان اذ يروى ان قصر الحاكم بأمر الله (386- 411 هـ / 996-1020م) قد كان يضم عشرة آلاف جارية (3) وبعض خلفاء الفاطميين على هذا النمط من التهافت في اقتناء السراري كلما تقدم الزمن فلما احتل صلاح الدين الايوبي (569-633هـ/1167-1193م) قصورهم وجد في القصر الكبير اثني عشر الف نسمة ليس فيهم فحل الا الخليفة واهله واولاده باستثناء الخدم والغلمان وقد مكث صلاح الدين يبيع هذا الرقيق طوال عشر سنوات (4).

ولم تكن الاوضاع بالاندلس والمغرب دون ذلك اعتبارا لأن الجواري الشهيرات بجمال الحسن الصقلي والافرنجي ولعل ما يروى عن علاقة عبد الرحمان بن الحكم (206-238هـ/822-852م)

1) الاصفهاني _ الاغاني _ طبعة بولاق 1285هـ
ج 1 ص 133
2) ابن خلكان _ وفيات الاعيان ج 1 ص 57
3) المقريزي _ الخطط _ طبعة بولاق 1270هـ
(في جزاين) ج 1 ص 36
4) المصدر نفسه ج 2 ص 405

بجاريته " طروب " وعلاقة عبد الرحمان الناصر (300- 350هـ/ 912- 961م) بجاريته " الزهراء " التي ابتنى لها قصرا تحت جبل العروس شمال قرطبة وسماه بأسمها هو احسن رمز لولع الاندلسيين بهذه البضاعة الثمينة واقبالهم على اقتنائها (1) هذا فضلا عما اشرنا اليه سابقا من امهات اولاد الخلفاء والامراء بالاندلس واقبال ذوي الجاه والثراء على التسري وكذلك الزواج بالاماء من صقلبيات وافرنجيات وغيرهن (2).

ومن العوامل التي كانت تحث الاسر الحاكمة على الاستكثار من الجوايا والسراري حرصها على الاستكثار من النسل بدافع عصبي ترى فيه تعزيزا لمركزها فكان افرادها يعتبرون كثرة الولد من باب حماية كرسي الملك من الاطماع المتواثبة عليه فتسابقوا الى احراز الجواري واستيلادهن حتى اننا نجد منهم من احصن عددا كبيرا منهن في آن واحد ولا غرابة بعد هذا اذا ولد لاحدهم خمسون او مائة ولد او أكثر من ذلك او اقل حسب ما يفيده احصار عدد المحصن ولا غروان يروى عن عبد الرحمن بن الحكم الاموي (206-238هـ/ 822-852م) أنه ولد له مائة وخمسون ذكرا وخمسون انثى (3) وعن تميم بن المعز الفاطمي

---

1) المصدر نفسه ـ ج ص 435

2) المقري ـ نفح الطيب ـ طبعة بيروت 1949 ج 1 ص 327 وج 2 ص 65 وج 6 ص 9

3) بروفنسال Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 177 ـ 179

(337-374هـ / 948 - 985م) انه انجب اكثر من مائة ذكر وستين انثى (1) وذلك لان امثال هؤلاء لم يشكوا في ان القوة تقوم على كثرة العدد وهي عقيدة عصبية قديمة متوارثة بينهم (2) .

وكان من نتائج كل ذلك ان ازداد نفوذ الجواري وخاصة منهن امهات الاولاد واستطاع بعضهن ان يشارك في الدسائس السياسية وان يستبد بالسلطة مثل ام المقتدر (295-320هـ / 908 - 932م) التي اهدته الى الحكم مرتين ومثل " حسن " الجارية الشيرازية التي قضت على الخليفتين المتقي (329-333هـ / 940 -944م) والمستكفي (333-334هـ / 944 - 946م) ومثل " صبيحة " ام المعتز (252 - 255 هـ/866-869م) وجارية المتوكل (232-247هـ / 847 -861م) وهي التي اوعزت لابنها ان يقتل اخاه المؤيد فقتله ثم خذلته بعد ذلك عندما طالبه الجند بارزاقهم فامتنعت عن اسعافه رغم ثرواتها الطائلة (3) وما ذاك الا نتيجة تغلب الرقيق المؤنث الجميل على نفوس رجال الدولة وطبقة الخاصة بصورة عامة .

وقد كانت الفئات الثرية المتوسطة الحال تنسج على منوال

---

1) ابن خلكان ــ وفيات الاعيان ــ طبعة مصر 1310هـ
2) المصدر نفسه ج 2ص 147 .
3) كمال مصطفي ــ مقدمة تحقيق الموشى لابي الطيب الوشاء
ص = ن ــ س

الوجهاء والملوك والامراء فالناس على دين ملوكهم كما يقال، فكانوا يفضلون اقتناء الاماء للتسري او الزواج على خطبة الحرائر والاقتران بهن وقد وصف الجاحظ هذه النزعة في "المحاسن والاضداد" بقوله: ((كان يقال: من اراد قلة المؤنة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالاماء دون الحرائر وكان مسلمة بن مسلمة يقول: عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج المهائر! وقال: السرور باتخاذ السراري ...)) (1).

وكان عنصر الجمال في الجواري عاملا اساسيا في رواج تجارتهن لانهن يتخذن للتسري قبل كل شيء او " للفراش والوطء " كما يقول الفقهاء. ولذلك كثرت العناية لدى ارباب هذه التجارة بالتأمل في دقائق الجمال ولطائف الحسن ووضعت لهذا الغرض مؤلفات في " نعوت " الرقيق كما وضعت في " عيوبه " لتنبيه الشراة وهدايتهم الى الجيد من السراري. ومن الرسائل الطريفة في هذا الباب رسالة احمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفي المتوفى سنة (350هـ/961م)(2)

---

1) الجاحظ المحاسن والاضداد طبعة بيروت
دار مكتبة العرفان دت ص 299

2) معاصر للخليفة عبد الرحمان الثالث(300-350هـ/912-961م)
وقد ذكره ابن الفرضي في تاريخه رقم 140 وقد وردت
الرسالة في مخطوطة للقيسي — (= راجع
بروفنسال L-Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 314-317

وقد اهتم فيها صاحبها بتفصيل نعوت الجارية الجميلة وكأنه يريد ان يرسم نموذجا للذوق الجمالي في هذا العصر ويلاحظ المتمعن في جملة النعوت المذكورة في هاته الرسالة وفي غيرها من رسائل الحسبة التى تعرضت الى هذا الموضوع بطريقة غير مباشرة لانها اهتمت بالعيوب خاصة وبعمليات التزييف والغش ان لهذا العصر نموذجا من الجمال المؤنث قد تأثر بالخصائص التى تتميز بها اجناس الرقيق المختلفة.اذ صار فيه بعض السمات المستطرفة مثل شقرة الشعر وزرقة العين واحمرار البشرة مع بياضها وان كان فيه احتفاظ بالسمات التقليدية التي كانت عنوانا للذوق الجمالي العربي مثل " الصفرة " واللمى " و " الدعج " والهيف " ونحافة الخصر مع بروز العجز والنهدين الى غير ذلك من السمات المعروفة (1) ولعل هذا الاحتفاظ هو الذي اوهم فيليب حتي بأن المثال الاعلى للجمال قد بقي على حاله ولم يتغير (2) بينما التغير موجود ويكفي ان نشير الى كثرة ما يتردد في الشعر من وصف الجمال باحمرار اللون حتى صار الحسن احمر كما قال الشاعر :

---

1) الجاحظ.المحاسن والاضداد ـ ص 25

2) فيليب حتي ـ Ph.Hitti ـ تاريخ العرب ـ ص 104

هجان عليها حمرة في بياضها   يروق بها العينين والحسن احمر(1)

وكان الحسن يشبه من اجل ذلك بالنار (2) الا ان الجارية توصف ايضا بانها "صفراء" وقد عدت جواري هذا العصر الى طلاء اجساد هن بالورس (3) تجملا كما قال الجاحظ (4).

وقد دعت تجارة الجواري اهل هذا العصر الى الجدال في مفهوم الحسن وفلسفوا الكلام فيه وحاولوا وضع قواعد له فنعرف منهم " جهابذة النقد " الذين تكلموا في الالوان وحسنها وسعوا الى الجمع بين المستحدث من الصفات والتليد منها فذكروا ان البياض يمازجه ((لونان يزيدانه حسنا الحمرة والصفرة فاما الحمرة فتعتري البياض من رقة اللون وصحة الدم واما الصفرة فتعتري البيض لاستتارهن وملازمتهن النعمة والخفض والدعة وتعتريهن ايضا لملازمتهن التضمخ بالطيب ويقال ان المراة اذا كانت عتيقة الحسن ناعمة البدن فان لونها يكون من أول النهار الى ابتداء العشية يضرب الى الحمرة ومن ابتداء العشية الى آخر النهار يضرب الى الصفرة)) (5).

---

1) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1ص 136
2) المرجع نفسه
3) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 50-52
4) الجاحظ ـ المحاسن والاضداد ـ ص 25
5) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 129
نقلا عن كتاب النساء لابي الفرج الاصفهاني ـ

وما قال هؤلاء ((الجهابذة)) في الالوان قالوه في كل عضو من جسد المرأة من الشعر والجبين والحواجب والعيون والانوف والخدود والشفاه والشعور والاعناق والمعاصم والاعضاء والانامل والنحور والصدور والاثداء واختلاف الاذواق في كبرها اوصغرها والخصور والسوق والاقدام وكانوا ((يقدمون المجدولة التي تكون بين السمينة والممشوقة ولابد تكون كاسية العظام)) (1) وفيه دليل على الذوق الجديد المختلف عن القديم الذي يرى في المراة ((بهكنة)) (2) وقد كان لاجناس الجواري دور في تغير هذا الذوق وخاصة منهن الصقلبيات ثم التركيات وغيرهن من الجواري البيض (3) وقد كانت الافرنجيات يحظين في الاندلس برواج كبير بسبب شقرة شعورهن وبياض الوانهن وكن انفس الجواري بالبلاط الاندلسي وحريم الخلفاء ووجهاء اهل قرطبة وكان ثمنهن باهضا جدا (4).

وقد نوه المقدسي بجمال الاتراك وخاصة منهم اهل الشاش وفرغانة واعتبرهم احسن الوانا من اهل اقليم المشرق كلهم. وقد جعل

---

1) الاصفهاني – كتاب النساء – عن احمد امين – ظهر الاسلام ج 1 ص 129 خليل بن اسحق – المختصر ص 265 وهو يقول: ان اخواص نهدي الجارية يعتبر عيبا فيها

2) الزوزني – المعلقات – ص 65 والكلمة واردة في بيت شعر لطرفة وهو قوله:

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب   ببهكنة تحت الخباء المعمد

3) الثعالبي – يتيمة الدهر – القاهرة 1934 ج 4 ص 116 وهو يشهد بافضلية الصقالبة على الاتراك

4) بروفنسال Provençal – تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 177–179

لهذا الجمال درجات وخص بالدرجة الثانية اهل نسف وطراز وباراب وهؤلاء لا نظير لنسائهم حسب قوله . ثم جعل في المرتبة الثالثة السمرقنديين والبخاريين والعراوزة اما اهل خوارزم فهم من البيض الحمر ولهم خلقة اخرى حسب تعبيره (1)

ويتحدث البكري حديث المعجب بجمال الجواري في اودغست ويصف خصائص جمالهن قائلا ((وبها جوار حسان الوجوه بيض الالوان ثنيات القدود لا تتكسر لهن نهود لطاف الخصور ضخام الارداف واسعات الاكتاف ضيقة الفروج المستمتع باحداهن كأنه يتمتع ببكر ابدا ، قال محمد بن يوسف : اخبرني ابو بكر احمد ابن خلوف الفاسي شيخ من اهل الحج والخير . قال : اخبرني ابو رستم النفوسي وكان من تجار اودغست انه راى منهن امراة راقدة على جنبها وكذلك يفعلن في اكثر حالهن اشفاقا من الجلوس على اردافهن وان ولدها طفلا يلاعبها فيدخل تحت خصرها وينفذ من الجهة الاخرى من غير ان تتجافى له شيئا لعظم ردفها ولطف خصرها)) (2).

1) المقدسي – احسن التقاسيم ص336

2) البكري – المغرب – ص 15 – 159

وكان مجتمع هذا العصر يرى الجمال ايضا في جنس الرقيق الاسود وقد ارتفعت اثمان الجواري السود بالاندلس لان الطبقة الارستقراطية كانت تحبذ اقتناء هن وترغب فيهن رغبتها في الجواري البيض فتتخذ الخاصة من المسلمين السراري منهن مما يدل على انعدام الاعتبار العنصري الخاص باللون في هذا العهد (1).

وقد كانت الجواري النوبيات مضرب المثل في الجمال اذ يتميزن بقسامة وجوههن ويوصفن بان شفاههن رقيقة وافواههن صغيرة واسنانهن ناصعة البياض وشعورهن مرسلة ويبلغ ثمن الجارية منهن ثلاثمائة دينار واكثر من ذلك وكان ملوك مصر يتخذون منهن امهات اولادهم كما اقبل الخاصة من اهل الاندلس على شراء هؤلاء النوبيات الجميلات وقد اشتهرت منهن الكثيرات كالجارية التي اشتراها الوزير ابو الحسن المعروف بالمصحفي بمائتين وخمسين دينارا فشغف بها لانه لم يشاهد قواما اكثر حسنا ولا خدودا اكثر لطفا ولا اسنانا انصع بياضا ولا اجفانا اكثر اتساعا وكان لها فضلا عن جمالها حسن منطق وكلام يسحر السامعين لانها من اللائي تلقين تربيتهن بمصر (2).

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 178 وص 205 - 214

2) الادريسي - نزهة المشتاق - ترجمة القسم الخاص بالمغرب والاندلس - لدوزي Dozy ودي غويه

في مجلد واحد - ليد 1964 - 1966 - ص 29 - كوك J. Cuoq
منتخبات - ص 108 - 140

وكان من اسباب الولع باتخاذ جواري المتعة واللهو ما برع فيه الرقيق المؤنث خلال هذا العصر من فنون التجميل والتبرج حتى صار فيه مضرب الامثال واصبحت جميلات الجواري هن اللائي يقتدى بهن في حسن المظهر من هندام وهيئة ظريفة. وقد اورد الوشاء جملة من اخبارهن الدالة على ما جلبنه من اوطانهن الاولى من ضروب التزيق كالاستعاضة بدقيق الكحل عن الشعيرات المتهافتات وتدقيق الحواجب واستعمال السواك من الاراك لتنظيف الاسنان وقد فتن الشعراء بهذا الاراك وتمنوا ان يكونوا مثله ليصلوا الى ثغر الحبيب وقد برعن ايضا في تصفيف الشعر على هيئات متنوعة واتخاذ العصائب المزركشة والموشحة بانواع الحجارة الكريمة هذا فضلا عن تفننهن في الخواتيم والفصوص والتعطر باصناف الطيب والتظرف بالالبسة الانيقة (1)

---

1) الوشاء - الموشى - ص 150 - 200
كمال مصطفى - مقدمة تحقيق - كتاب
الموشى - ص - ك ل - م

وقد كان العرف التجاري يعتمد صفة الجمال في التمييز بين اماء المتعة واماء الخدمة أو بين ((العليّة)) و ((الوخش)) من الجواري (1) بينما كانت الاحكام الفقهية تضيف مقاييس اخرى عقائدية فتعتبر من المميزات بين النوعين عقيدة الامة اذ لم يكن من المباح للمسلم ان يتسرى بغير المسلمات او الكتابيات من ملك اليمين امّا ((المجوسيات)) فلا يحل له ملكهن الا للخدمة. والمستند الفقهي في هذا التمييز ما نهى عنه الرسول في حياته من مناكحة مجوس اهل هجر فاعتمده الفقهاء اصلا من اصول تشريعهم في هذا الميدان يقول ابو يوسف :

((واذا وقعت المجوسية في سهم رجل فلا يحل له وطؤها. قد كره ذلك غير واحد من الفقهاء مع ما جاء عن النبي صلعم في مناكحة المجوس- حدثني قيس بن الربيع عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية قال : صالح رسول الله صلعم مجوس اهل هجر على ان يأخذ

---

1) ابن ابي زيد القيرواني -الرسالة ج2 ص219

منهم الجزية غير مستحل مناكحة نسائهم ولا اكل
ذبائحهم ... وحدثنا مغيرة عن حماد عن ابراهيم
قال : اذا سبيت المجوسيات وعبدة الاوثان عرض عليهن
الاسلام واجبرن عليه ووطئن واستخدمن فان ابين ان
يسلمن استخدمن ولم يوطأن . قال : وحدثنا مغيرة
عن حماد عن ابراهيم في اليهوديات والنصرانيات يسبين
قال : يعرض عليهم الاسلام فان اسلمن او لم يسلمن وطئن
واستخدمن واجبرن على الغسل . قال ابو يوسف : وهذا
احسن ما سمعنا في ذلك والله اعلم)) (1)

الا انه ليس من الثابت ان التجار على الاقل قد احترموا
هذه الاحكام الشرعية في التمييز بين الاماء . وليس لدينا
دليل كذلك على انهم كانوا يعلمون المشتري بديانة
الامة قبل بيعها والراجح ان هذه الاعتبارات لم
تكن تهمهم بقدر ما كانت الارباح مستأثرة باهتمامهم
فاذا كانت الجارية حسناء مرغوبا فيها للمتعة لم يكن

1) ابو يوسف ـ كتاب الخراج ـ ص 206 . 207

من صالح التاجر ابعاد الراغبين فيها بالاشارة الى تحريم وطئها لاسيما اذا تذكرنا ان النخاسين كانوا يستغلون جمال الامة وسيلة ترويج لتجارتهم وبذلك يبقى التمييز مناطا بعهدة المشتري وعمق ايمانه ومستواه العقائدي ولم يمنع هذا التشريع ان تكون قصور الامراء والاثرياء مسرحا لعديد الجواري من مختلف الملل و ان تكون"المجوسيات" من الحظايا والسراري اللائي يسمح لهن بالاحتفال بطقوسهن في الاعياد والمناسبات (1).

واذا كانت ظاهرة التسري من اهم عوامل نشاط تجارة الجواري فان ظاهرة البغاء غير الشرعية لم تكن اقل اهمية في تنشيط هذه التجارة. فبالرغم من تحريم الشريعة لظاهرة "التمعش" من البغاء استنادا الى قوله ((ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا لتبتغوا عرض الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم))(2) فان هذه الظاهرة لم تضمحل من المجتمع الاسلامي وازدادت رواجا في هذا العصر بسبب رسوخ عوائد المجون والخلاعة ومساهمة الرقيق في اذكاء هذه العوائد ونشرها. ففي الاندلس كان البغيات يستعملن في الخانات حيث يكون استقرارهن وكن يدفعن

1) كمال مصطفى - مقدمة تحقيق كتاب الموشى
لابي الطيب الوشاء ص - س - ع

2) قرآن - سورة النور -24 آية-33

منكوسا على تلك الخدمة اي البغاء. ولذلك كن يسمين ((الخراجيات)) ونحن نجد عبارة ((خراجيات الخانات)) في رسالة لابن شهيد الاندلسي وقد تعرض اليها ابن بسام في الذخيرة (1) وكان يوجد بقرطبة وبعض العواصم الاندلسية الاخرى دور للبغاء تسمى الواحدة منها ((دار الخراج)) ويذكر ابن عذاري ((دار البنات)) (2) ولم يتحرج الخليفة عبد الرحمان الناصر (300-350هـ/912-961م) من ان يصطحب معه في موكب رسمي من قرطبة الى مدينة الزهراء احدى البغيات في بعض الاعياد وان يخترق بها اسواق المدينة وهي بغي من دار الخراج تدعى ((وصيص)) وكان يحبها (3).

ويتضح من خلال كتاب احكام السوق ليحي بن عمر ان هذه الظاهرة قد قويت بافريقية في هاته الفترة مما دعا رجال الحسبة الى التصدي لها ومراقبتها وانزال العقاب ببعض النسوة اللائي كن يمارسنها او يشرفن على ممارستها (4) وقد دعت مظاهر تفشي هذه العادة بمصر الخليفة

1) ابن بسام ـ الذخيرة ـ ج 1ص207 ـ بروفنسال ـ Provençal
تاريخ اسبانيا المسلمة ـ ج 3ص444ـ443

2) ابن عذاري ـ البيان ـ ج 3ص10 بروفنسال
تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3ص444ـ 448

3) المرجع نفسه

4) يحي بن عمر ـ احكام السوق ـ ص133 - 135

الفاطمي الحاكم بامر الله (386-411هـ/996-1020م) الى التشدد في مراعاة آداب الشريعة فمنع النساء من المشي في الطرقات الا لضرورة قاهرة ورخصة من الشرطة(1) ويقول المقدسي ان النساء بمصر لا يتورعن عن الفجور وللمراة زوجان (2) وكانت سوق البغاء قد راجت بالمشرق الاسلامي ايضا بل ان ابن حوقل ليقول انه ليس في بلدان المغرب من الفواحش الظاهرة وتعاطي الامور المنكرة والفسق الشنيع مثل ما في المشرق (3) فقد بلغ من مخالفة عضد الدولة البويهي (ت 372هـ/982 م) للشريعة ان فرض على القحاب بفارس ضريبة مثلما كان يفعل الفاطميون بفرضهم للرسوم على بيوت الفواحش (4).

ويحكي لنا المقدسي انه في مدينة السوس عاصمة اقليم خوزستان ترى دور الزنا عند ابواب الجامع ظاهرة (5) وان نساء شيراز شهيرات

---

1) المقريزي - خطط - ج 2 ص 289 - الكندي الولاة - ص 210 - آدم متز - A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 176

2) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 200 - آدم متز - A.MEZ الحضارة الاسلامية - ج 2 ص 178

3) ابن حوقل - مسالك - ص70 ادم متز MEZ الحضارة الاسلامية ج 2 ص 175

4) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 441 - المقريزي خطط ج 1 ص 89 آدم متز MEZ الحضارة الاسلامية ج 2 ص 174

5) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 407 آدم متز - MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 175

بالفاحشة اما نساء هراة فهن ((يغتلمن اذا ازدهرت اشجار الغبيراء كما تغتلم السنانير)) (1).

وقد تحدث ابن بطلان عن دور البغاء بالمشرق وذكر ان المشرفين عليها كانوا من الروم المسيحيين وقد وصف ما رآه بالشام عند ذهابه الى مصر في اوائل القرن الخامس للهجرة فقال انه مما اختصت به مدينة اللاذقية ان المحتسب فيها كان يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة وينادي على كل واحدة منهن ويتزايد الفسقة منهن لليلة الواحدة ثم يؤخذن الى الفنادق التي يسكنها الغرباء بعد ان تأخذ كل واحدة منهن خاتما يسمى خاتم المطران ليكون حجة بيدها من تعقب الوالي لها لانه ان وجد خاطئ مع خاطئة من غير خاتم المطران عوقب وقد ذكر هذا النظام بعد ان عادت مدينة اللاذقية الى الروم (2).

وقد كان الرقيق المؤنث مادة اساسية لتجارة البغاء هذه فهن اللائي يخالطن الرجال بينما انعزلت الحرائر في دورهن خلال هذا العصر بحكم الاستهتار الذي ساد العلاقات الاجتماعية فسادت

---

1) ماريوس كانار- المسلمون وبيزنطة ـ ف15ص111ـ119

Schaht et Meyerhof- the Controversy between Ibn Butlan and Ibn Ridwan- Le caire - 1937 - P19

2) القفطي ـ اخبار الحكماء ـ ص298 آدم متز A. MEZ ـ الحضارة الاسلامية ج2ص175

الخشية على الاسرة من ان تتسرب اليها هذه الآفة وتركت الحياة العامة للحظايا من الجواري (1) وللاماء اللائي كن يتهافتن على الدرهم والدينار وان ادى ذلك الى المتاجرة بعرضهن.ومن طريف ما يحكيه ابو القاسم البغدادي ان غلاما وقع في هوى احداهن وصار يستدرجها بالمراسلات ويصف فيها عشقه وهيامه فلما استعصت عليه لانها لم تك تعرف سوى لغة الدينار كتب اليها في رقعة ((واذ قد منعتني زيارتك واستزارتك فمي بالله خيالك ان يطرقني ويبرد حرارة قلبي)) فقالت لرسولته ؛((قولي لهذا الرقيع يا مدبر انا اعمل بك ما هو خير لك من ان يطرقك خيالي احمل دينارين في قرطاس حتى اجيئك بنفسي)) (2)

---

1) المرجع نفسه ج 2 ص 176 177 وص 179 — 180

2) انظر الازدي — حكاية أبي القاسم البغدادي طبعة آدم متز - A. MEZ - ص 73

الفصل الرابع

تجارة الرقيق المولد

تجارة الرقيق المولد

1) الرقيق المولد

ان لكلمة مولّد اذا استعملت في سياق الكلام عن الرقيق مدلولات عدة يتفرع بعضها عن بعض ولكنها رغم تعددها تشترك في معنى اساسي هو التمييز بين الرقيق المجلوب من بلاد الاعاجم والرقيق الذي ولد ونشأ في الوسط العربي الاسلامي اوخالط هذا الوسط وتطبع باخلاقه وعاداته وتأدب بأدابه . يقول ابن منظور ((المولدة الجارية المولودة بين العرب ... وعربية مولدة ورجل مولد اذا كان عربيا غير محض ... وجارية مولدة تولد بين العرب وتنشأ مع اولادهم ويغذونها غذاء الولد ويعلمونها من الادب مثل ما يعلمون اولادهم وكذلك المولد من العبيد)) (1) فالمهم اذن لكي يكون الرقيق مولدا ان تكون له صلة ما بالمحيط الحضاري الاسلامي سواء أكان ذلك بالولادة او المنشأ والمربي او اختلاط الدماء ايضا . وقد ذكر بروفنسال -Provençal ان التسمية بالمولد كانت تطلق في الاندلس على فئات ثلاث يشترك

---

1) ابن منظور – لسان العرب ج 3 ص 981

اصحابها في خاصية واحدة هي الانصهار في المجتمع الاسلامي والتخلق باخلاقه وتبني ثقافته رغم الاصل الاجنبي فمنهم من اسلم طوعا وخضع للفاتحين ومنهم من قهر بالسيف ووقع استرقاقه ثم اسلم ومنهم اولاد اهل الذمة الذين اسلموا وكان هؤلاء من اصل قوطي او اسباني وكانوا يتكلمون العربية الى جانب الرومية وهم الذين وسموا بميسمهم الحضارة الاندلسية ومن هؤلاء المولدين من حافظ على لقبه الاصلي ومنهم من عربه مثل بني انجلينو = AnGeLino وبني سفريكو Savarico وبني قومس Gomez وبني قرلمان CarLoman وبني مرتين Martin وبني غرسية Garcia وبني بارون - Barun (1) .

فقد شاع اذن استعمال هذه التسمية للدلالة على تلقي تربية خاصة على النمط العربي الاسلامي تمكن هذه العناصر الاجنبية من التأقلم والتكيف في امزجتها ولغتها وعقليتها وتقاليدها وفقا لطابع المجتمع الجديد الذي احتضنها وتتمثل هذه التربية في استيعاب الثقافة الجديدة بفنونها وآدابها واذواقها والتخلص من العادات الاولى والطباع السابقة . وبذلك

---

1) بروفنسال -Provençal- تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 180 _ 185

يغادر الرقيق عجمته وسذاجته لان تلك العجمى والسذاجة الاصلية التي كان عليها عند جلبه من اوطانه قد كانت توقع الوحشة في نفوس مالكيه وتقف حاجزا دون التعامل والتجاوب معه خصوصا اذا كان من الرقيق المقتنى للحياة الخاصة والعائلية مثل الجواري . (1)

واذا ما استثنينا اصناف الرقيق المثقف الذي دخل في حظيرة الحياة الاسلامية فان سائر الاصناف قد كانت على حالة من البدائية قد تضاهي احيانا التوحش نظرا الى المستوى الحضاري الذي كانت عليه اوطانهم الاولى وهو مستوى يعتبر ساذجا بالقياس الى حضارتي العالم اذاك اي الاسلامية والبيزنطية . ومن ثم وجب الرفع من مستوى هذا الرقيق والسمو به عن مرتبته الاولى حتى يواكب الحضارة الجديدة ، ويقوم بدوره الكامل فيها ويعتنق الدين الجديد . وقد تحدث بعض الرحالة المسلمين عن البدائية التي كانت عليها جموع الرقيق الصقلبي او الاسود فهذا البكري يقول عن نساء بلد ((سامة)) من اعمال ((غانة)) ((الا ان المرأة تسترفرجها بسيور تظفرها وهن يوفرن شعر

---

1) كمال مصطفى - مقدمة تحقيق كتاب الموشى - ص : ط - ص

العانة ويحلقن شعر الرأس وحدث أبو عبد الله المكي انه رأى منهن امرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية فتكلمت بكلام لم يفهمه فسأل الترجمان عن مقالتها فذكر انها تمنت ان يكون شعر لحيته في عانتها فامتلأ العربي غضبا واوسعها سبا)) (1).

وشبيه بذلك ما ذكره الادريسي عن قبائل السودان القاطنين غربي بلاد ((لملم)) وجنوب بلاد ((غانة)) فهم ((ام كثيرة سودان عراة لايستترون بشيء وهم يتناكحون بغير صدقات ولا حق)) (2) اما ابن فضلان فقد وجد رحلته مناسبة لوصف الصقالبة وعاداتهم الجنسية ومعاملتهم لرقيقهم واشتراكهم في مجامعة الجواري بشكل فاضح (3) ومهما يكن من امر عادات هذا الرقيق ونصيبها من التمدن والتحضر فان عملية انصهاره في المجتمع الجديد قد حتمت اعادة تنشئته على منوال آخر يعتبر اكثر ملاءمة للمجتمع الاسلامي وانسب للقيام بشؤونه وخدماته .

---

1) البكري - المغرب - ص 178 - 179

2) الادريسي - نزهة المشتاق - طبعة رومة 1970 السفر الاول ص22

3) ابن فضلان - الرسالة ص150-153 - سامي الدهان - مقدمة تحقيق رسالة ابن فضلان ص 32-33

٤) رقيق المهن والصنائع

وقد نشطت حركة تعليم الرقيق وتخريج المولد منه في شتى الميادين الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والفنية والعلمية خلال هذا العصر وكان التجار حريصين على الرفع من مستوى بضاعتهم والمواجهة للطلب المتزايد عليهما كما ان متطلبات الحضارة في هذا العصر كانت تفرض وجود يد عاملة مختصة في شتى ميادين الحياة وازدهارا لمختلف الصناعات والفنون التي كانت عماد حياة الترف في القصور وبيوت الخواص.
فكان الرقيق يعلّم مهنا صالحة لكل هذه الشؤون فيعلّم تدبير المنزل ليكون منه الفرّاش والطباخ والخازن والوكيل او النقيب والبواب والملاح والركابي والسائس والوصيف وغير ذلك من المهن (1) وكان الرقيق يدرب على هذه الشؤون الاجتماعية ويمتحن مستواه فيها فللطباخات مثلا مستوى لابد من بلوغه في فن الطبخ ليكون لهن رواج في الاسواق ولترتفع بذلك قيمتهن عند الشراة .

---

1) زيدان – تاريخ التمدن الاسلامي – ج 5ص22 . 25

ومن النصوص الدالة على هذا المعنى قول ابن بطلان ((عمدة الطبيخ على طيب المرق وجودة المزاج فان اتفق للطباخة مع هذا جودة الصنعة وسرعة العمل فذاك غاية الامل وقل ما يتفق ان تكون كاملة في البوارد (1) والشواء والطبيخ والحلواء على اصنافها الثلاثة فهذا مما يعجز عنه قدر النساء والذي يمتحنون به الاسفيدباج (2) والديكبراكة (3) اما الاسفيدباج فلان الابازير مطيبة لها وكثرتها يسود مرقها واتقنها بياضها فلهذا يتعذر سلامتها . واما الديكبراكة فلانها لون سهل يتبين في التلطف في منع سهوكتها)) (4).

ومن مناهج هذا التعليم ما ينظر فيه الى الاستعداد الجسمي والنفسي في الرقيق حتى يمكنه النجاح في الاختصاص المقرر له فيختار للتدريب العسكري الشجاع الذي ((يكون قوي الشعر خشنه شديد العظام والاطراف والاصابع عظيم الصدر والاكتاف والرقبة عريض القص ضامر الورك معرق الجبهة قوي المفاصل

---

1) بقول مطبوخة في حوامض كالخل (عبد السلام هارون - تحقيق رسالة ابن بطلان ص386 . 387)

2) طعام يقال له ايضا ((اسفيدبا)) كما في معجم steingas اسفيدباج يصنع من اللحم و البصل والحمص والابازير (المرجع نفسه)

3) الارجح انها من الارامية ومعناها ((الديك المبارك)) وهي اكلة مشابهة للسابقة (المرجع نفسه)

4) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ص386 . 387

منتصب القامة ممسوح الاليتين بعيد ما بين المنكبين ممدود الحاجبين ازب الصدر والكتف والجبان بالضد)) (1) ويختار للتدريب على تربية الاطفال ((الحواضن والدايات)) اللائي يتمتعن بسلامة الجسم واعتدال المزاج وصحة اللبن وهن يختصون في ذلك باجراء فحوص عليهن وتحليلات طبية (2) ويختار للغناء والرقص والتخصص فيهما جميلات الصوت ورشيقات القوام عادة . وقد استدعى التحري في هذا التعليم ان يكون التوجيه نحو الاختصاص حسب جنس الرقيق عموما اي حسب الذكورة والانوثة . فيوجه الرقيق المذكر نحو جميع الحرف والصنائع بينما يقتصر الرقيق المؤنث غالبا على بعضها مثل ((الغناء والغذاء))(3) وما من شك في ان تعليم اللغة والتمرن على الخطاب قد كان مصاحبا لتخريج هؤلاء المولدين حتى يمكنهم الاندماج في الوسط المهني الذي يستعدون له (4).

وقد كانت الاسواق والمصانع مدارس لتعليم رقيق التجارة والصنائع . فهذا العصر الذي بلغت فيه التجارة الاسلامية اوجها وادركت فيه الصنائع نضجها قد لعب فيه الرقيق دورا اساسيا وكان معظمه بالمدن والعواصم يشتغل بدكاكين التجار ويعمل

---

1) المصدر نفسه ص365 . 366 يقول المؤلف ان تجريب هؤلاء يكون بافزاعهم

2) المصدر نفسه ص 387

3) المصدر نفسه ص 385

4) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 5 - ص 29

بحوانيت الحرفيين واصحاب المهن وقد برع الكثير من الرقيق المولد في هذه الميادين وصار بيده مصير الدورة الاقتصادية وقد تحدث ابن حوقل عن بعض هؤلاء المهرة في التجارة (1) . وتحدث كذلك عن الثروات التي كانت بايديهم .كما اشار الجاحظ الى مشاهير الصيارفة من الرقيق (2) . واشار غيره من المؤلفين الى النساخ بدكاكين الوراقين والى الحدادين وغيرهم من العبيد الذين تخصصوا في مختلف المجالات الصناعية والتجارية (3) .

واذا ما كان من العسير على الباحث ان يحيط بظروف تنشئة وتخريج هذا النوع من الرقيق المولد احاطة كاملة لان المصادر شحيحة في هذا الباب وقليلة العناية به فانه بوسعه ان يرسم صورة اوضح عن ظروف تعليم نوع آخر من الرقيق المولد ونعني به المختص في العلوم والمعارف ومجالات الفكر والفن لان المادة التاريخية متوفرة في هذا المضمار ولان هذه الميادين كان ينظر اليها في ذلك العصر على انها ارقى الصناعات واشرفها (4) فلنا صوره متكاملة مثلا عن انواع تخريج الرقيق المثقف ثقافة فنية كرقيق الغناء والطرب وخاصة منه "القيان" او الجواري المغنيات اللائي راجت تجارتهن رواجا عظيما .

---

1) ابن حوقل — صورة الارض — الترجمة العرنسية ج .2. ص 380 - 382
2) الجاحظ . فخر السودان على البيضان — الرسائل ج 1 ص 224 . 225
3) ابن قدامه — المغني — ج 4 ص 141 . 142
4) ابن خلدون المقدمة — طبعة بيروت - ص 430

3) تخريج القيان والمغنيين

أ- الولع بالغناء

لقد راجت تجارة القيان في هذا العصر رواجا عظيما كما قلنا وسر هذا الرواج انتشار الولع بالغناء وازدهار هذا الفن ورسوخه في المجتمع العربي الاسلامي وكذلك تأصل تقاليد الترف وعوائد البذخ المشجعة عليه. وقد عمت هذه الظاهرة كل الاصقاع في العالم الاسلامي من مشرقه الى مغربه خلال هذه الفترة بينما كانت قبل ذلك منحصرة في بعض الاقاليم المشرقية ولاسيما الحجاز ومركز الخلافتين الاموية والعباسية بالشام والعراق.

واذا ما كنا نجد خلال القرن الاول والثاني للهجرة بعض الخلفاء يعارضون هذا التيار مثل عمر بن عبد العزيز (98 - 102 هـ/ 717 - 720 م) وابي جعفر المنصور (136- 158هـ/ 754 - 775م) وغيرهما (1) فان النزعة الغالبة على حكام هذا العصر وساسته ومن لف لفهم من علية القوم الانغماس فيه واتخاذه مجالا لانسهم ولهوهم ورمزا لجلال ملكهم وابهة سلطانهم وتفاقم بذخهم

---

1) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 2ص 104

مما ولد نزعة لدى رجال الدين والتقى معارضة لهذا التيار ومشنعة بظاهرة الغناء وقائلة بحرمته. وان كان الدافع الاساسي لذلك ما كان يلابسه من ظواهر المجون والانحلال الخلقي (1) ومن هذا القبيل ما يروى عن احتجاج مروان بن أبي شحمة على اللهو والغناء الذي اغرق فيه امراء الاغالبة بافريقية. وذلك انه قصد قصر احدهم يوما فوجد على بابه خصيا بيده ناي فانتكه منه وكسره وعندما تظلم الخصي الى الامير اجاب مروان بانه وجد منكرا فغيره (2).

لكن هذه الاصوات المحتجة لم تستطع الوقوف في وجه هذا التيار العارم تيار تأثر المجتمع بفن الغناء وانواع الايقاع الموسيقي المختلفة وقد كانت الارواح الحساسة تبعث اصحابها على تمزيق الثياب والتمرغ في التراب ولطم الوجوه والوصول الى حالات من الصرع والجذب الصوفي من جراء التأثر. فترى احدهم يدق الحائط برأسه ويهيج ويزبد

1) يتشدد بعض الفقهاء في بيع الجارية للغناء ويروون في منع هذا البيع احاديث من الرسول ويستدلون ايضا ببعض الايات منها قوله تعالى ((ومن الناس من يشتري لهو الحديث)) قرآن- لقمان- آية عدد 31- (انظر - ابن قدامة المغني ج 4 ص 223 وابن الاخوة - معالم القربة ص 152 - 153)

2) ابو العرب الطبقات ص 196 جورج مارسي - G. Marçais بلاد البربر - La Berbérie .... ص 95

ويعض بنانه ويركل برجله (1) وترى غيره يحطق بعينيه ويستغيث ويحوقل والدمع منهمل على خديه (2) وقد شاعت في هذا العصر آراء واساطير حول ظاهرة التأثر بالغناء وتصنيف درجاته الى ما يسر وما يبكي وما يزيل العقل وما يغشى على صاحبه من وقعه (3) ويروى عن ((مخارق)) انه غنى يوما في منتزه وقد سنحت ظباء فجاءت اعجابا بغنائه . وتوسط دجلة يوما وغنى فلم يبق احد الا بكى. وكان غناؤه احيانا يسر من جماله كل قلب (4) . واتفق ان غنى الامير ابراهيم بن المهدي مرة في مجلس المأمون (198-218هـ/813-833م) فأحسن وكان في المجلس كاتب من كتاب طاهر ابن الحسين يكنى ابازيد قد بعثه في بعض اموره فطرب ابوزيد واخذ بطرف ثوب ابراهيم فقبله (5) فنظر اليه المأمون كالمنكر

---

1) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة ج 2ص183 - انظر الازدي - الحكاية - ص78 وما بعدها
2) المصدر نفسه
3) آدم متز A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2ص 250
4) المرجع نفسه
5) كان ابراهيم قد خرج على المأمون والقي عليه القبض

لما فعل. فقال له أبو زيد : ما تنتظر ! اقتله والله ولو قتلت إفتهم الأمون (1).

وقد دعت هذه الظاهرة علماء العصر وادباءه الى دراسة التأثير الموسيقي في النفس البشرية دراسة فلسفية وتحدث بعضهم مثل ابن مسكويه وأبي حيان التوحيدي وأبي سليمان السجستاني الملقب بالمنطقي عن مدلول ((الطرب)) وابعاده النفسية واثره في الحواس والملكات الذهنية وكانت تحليلاتهم لهذا الموضوع مدخلا لسيكولوجية الفن الموسيقي بالنسبة الى الفرد والجماعة ضربا من الدراسات النفسية والاجتماعية (2).

ب- رواج القيان والمغنين

وكان من نتائج هذا الاهتمام ان وضعت التآليف المختلفة في الغناء والمغنيين منها ((رسالة القيان)) للجاحظ وكتاب ((القينات)) لاسحق الموصلي وكتاب ((القينات)) للمدائني وكتاب ((القينات)) ليونس بن سليمان المغني كما كان من اهم التآليف في هذا الباب كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني وكتاب الموشى لابي الطيب الوشاء (3) ذلك لان تيار الغناء قد ازداد قوة بسبب ازدهار تجارة الرقيق من جوار وغلمان

1) طيفور - بغداد ص 192

2) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة - ج 3 - ص 80

3) لم يصلنا من هذه المؤلفات سوى ((رسالة القيان)) للجاحظ ((والاغاني)) للاصفهاني و ((الموشى)) للوشاء

فهؤلاء بمخالطتهم اوساط الغناء كانوا اداة انتشاره في الحياة العامة والخاصة. بل ان منهم من كان له يد في تطوير هذا الفن وغيره من الفنون المتصلة به كالشعر والرقص والعزف وابتكار الالات الموسيقية بفضل ما نقله من تراث حضارته الاصلية . فكان الرقيق عاملا اساسيا من عوامل ازدهار الغناء في هذا المجتمع الاسلامي بعد ان كان منحصرا في نخبة من اهل الاختصاص . وكأنما كانت الجارية المغنية او القينة اشبه شيء بالة تسجيل للاغاني بلغة اليوم او مستودع اصوات بلغة الامس وكانت بانتقالها من مالك الى آخر تساهم في شيوع هذا الفن وانتشاره وصارت بحكم وظيفتها هذه تعتبر من الضرورات الترفيهية التي يطمح ابناء المجتمع الى اقتنائها .

وقد ظهر هذا الولع باقتناء المغنين والمغنيات والتهافت على شراء القيان والراقصات والمهرة من الرقيق في شتى الفنون كالشعر والموسيقى عند رجال الدولة ووجهاء الناس وحاكتهم في ذلك الفئات الاجتماعية المختلفة . وكانت الاجواق بالقصور عنصرًا اساسيا في حياة اربابها وكانت تسمى ((الستار)) او ((الستارة)) لان الجواري يغنين خلفه عادة او بين يديه اذا استدعى الامر

ذلك (1) فهذا الامين (193 - 198هـ/ 790 - 813م) يأمر قهرمة جواريه بان تهيئ له مائة جارية صانعة فيصعدن اليه عشرا عشرا بايديهن العيدان ويغنين بصوت واحد (2) وهذا المأمون (198 - 218هـ/ 813 - 833م) يجتمع مع اسحق الموصلي وابراهيم المهدي وفي مجلسه عشرون جارية قد اجلس عشرا عن يمينه وعشرا عن يساره وهن يغنين (3) وذاك القاهر (320-322هـ/ 932 - 934م) الذي امر سنة (321هـ/ 933م) بتحريم الغناء وبيع الجواري المغنيات بابخس الاثمان يتراجع في قراره ويأمر من جديد بان يشترى له كل حاذقة في صنعة الغناء (4) وفي اواسط القرن الثالث الهجري نزل عبيد الله بن طاهر ضد المعتز (252-255هـ/ 866-869م) فاراه اشياء عجيبة منها انه اراه غناء ((سارية)) و زمر ((رنام)) الزامر ثم اراه آلة موسيقية عجيبة وادخله الى شبان وامران بجمع بين السمع والفصل فرأى تواشهما ثم سأله اي الاشياء اطرف فيما رأى فقال :

1) موريس لومبارد M. Lombard الاسلام في عظمته الاولى ص 194 - 204

2) ابن الاثير - الكامل طبعة مصر 1302هـ/ ج 6 ص 120

3) المصدر نفسه - ج 6 - ص 130

4) آدم متز A. MEZ الحضارة الاسلامية ج ص 247

غناء سارية (1) ومثل هذه الاخبار تروى عن الخلفاء والامراء بالمغرب والاندلس ومصر وما وراء النهر ويكفي ان نذكر بشهرة جواري عبد الرحمان الناصر (300-350هـ / 912- 961م) اللائي كن يرأسن في قرطبة جوقا كاملا من العازفات المغنيات . (2)

وكان ولع الوزراء والقواد وكبار الموظفين والاثرياء من الخاصة بالرقيق المختص في فن الغناء والمثقف ثقافة فنية لا يقل عن هذا المستوى الذي وصفناه . ومما يحكى عن الوزير ابي الحسن علي بن الفرات انه خلا للشراب في وزارته الاولى فحضر جماعة من كتابه وحضر من المغنيات بين يدي الستائر ومن ورائها مالا يحصى كثرة (3) وقد انتشر هذا الولع في سائر الفئات الاجتماعية وكان الناس يقتنون القيان والمغنين كل حسب طاقته كما كانوا يترددون على المحال العامة للغناء و ((بيوت القيان)) للسماع ولم يتحرج منها حتى العلماء والادباء والقضاة

1) الشابشتي ـ الديارات ـ ص 111
2) بروفنسال ـ Provençal ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 314 - 317
3) آدم متز ـ A.MEZ ـ الحضارة الاسلامية ـ ج 2 ص 250

والصوفية فابن فهم الصوفي يسمع مغنية اسمها ((نهاية))
جارية ابن المغني وابن فهلان التاجر يسمع غناء
((بلور)) جارية ابن اليزيدي وابو الحسن الجراحي القاضي
يسمع غناء ((شعلة)) وهذا المنطقي الفيلسوف الكبير
واستاذ ابي حيان التوحيدي يسمع غناء صبي موصلي
فتن الناس في عصره (1).

وكان من نتائج رواج هذه البضاعة والتهافت عليها
ان نشطت حركة تعليم الجواري الغناء واتخاذ بيوت لهن
في شتى الاحياء للسماع. وقد كثرت هذه البيوت ببغداد
في هذا العصر حتى قال ابو حيان التوحيدي ((وقد
احصينا ونحن جماعة في الكرخ اربعمائة وستين جارية 460
في الجانبين (جانبي بغداد) ومائة وعشرين حرة 120
وخمسة وتسعين 95 من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق
والحسن والظرف والعشرة هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل
اليه لعزته وحرسه ورقبائه وسوى ما كنا نسمعه ممن
لا يتظاهر بالغناء وبالضرب الا اذا نشط في وقت او ثمل في حال

---

1) التوحيدي ـ الامتاع والمؤانسة ـ ج 2 ص 183
احمد امين ـ ظهر الاسلام ج 1 ص 125

اوخلع العذار في هوى قد حالفه واضناه)) (1).

وقد زاد في الاقبال على رقيق الغناء ما كان يتصف به من وسامة وجمال اذ كان يختار لهذا الغرض جميلات الجواري ذوو القسامة من الغلمان لتزدان بهم مجالس الانس والشراب واللهو وليضاف الى لذة السماع لذة المشاهدة. فصار اساتذة الغناء وتجار الرقيق يخصون بالتعليم الرقيق الجميل حتى تتضاعف قيمته ويرتفع ثمنه (2) في حين كان الناس قبل هذا العصر يضنون بالحسان من الاماء. وهكذا صارت القيان من أنفس الرقيق لجمالهن وصنعتهن حتى تعذر اقتناؤهن على غير الاثرياء. ومما يروى في هذا المجال ان ابا عيينة ابن محمد بن أبي عيينة المهلبي هوى جارية يقال لها ((أمان)) فأغلى بها مولاها السوم وجعل يرددها الى اسحق الموصلي لتأخذ عنه الغناء فكلما ترقت في هذا الفن زاد في سومه فقال ابو عيينة :

قلت لما رايت مولى امان قد طغى سومه بها طغيانا

---

1) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة - ج 2ص183

راجع الا زدي - الحكاية ص 78 ومابعدها

2) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ج 5ص156

لا جزى الله الموصلي ابـــــــا اسحق عنا خيرا ولا احســانا

جاءنا مرسلابوحي من الشيـــــطان اغلى به علينا القيـــانا

من غناء كانه سكرات الحـــــب يصبي القلوب والاذانـــا (1)

وهكذا كان الاعجاب بغنــاء القيان ممزوجا بعشقهـن ولم يكـن من المستحـب في القينة وفي الجارية المثقفة بصورة عامـة ان تكـون قبيحـة المنظـر فقــد روي ان جاريتيـن عـرضتـا على المتـوكـل (232-247هـ/ 847 - 861م) ليشتريهمـا بحضـور وزيـره الفتح بن خاقـان فاختبرهمـا في قـول الشعـر فاجادتـا فامـر بشـراء واحـدة ورد الاخـرى لان بوجههـا نمشـا (2) ومـن طريف ما انشده الشاعر ابن زريـق الكوفي في قينـة قبيحـة المنظـر جيـدة الصـوت تـدعـى ((دبسيـة)) قــولـه :

ابا سعيـد اصخ لـي	ياسيـدي ونديمـي
منيت امس بامــر	من الامــور عظيـم
حصلت عند صديـق	حر طـريف كـريـم
اسقى على شـدو دبسيـة	مثنى همـومـي
فكنت حين تغنـي	لدى جنـان النعيـم

1) المصـدر نفسـه

2) التنوخي ـ نشوار المحاضرة ـ طبعة القاهرة بـدون تاريخ ج 6 ص 193 ـ 194

وإن نظرت اليها ففي العذاب الاليم
وإن شربت بصوت فالراح بالتسنيم
وإن شربت بلحظ فالمهل بالزقوم
فكان سمعي بخير ومقلتي في الجحيم(1)

كان اذن ((امرا عظيما)) الا تكون القينة جميلة وقد حفل شعر ابن الرومي بوصف القيان الجميلات مثل ((وحيد)) المغنية وغيرها ممن يتناسق صوتهن مع طلعتهن وهيئتهن ويحمل الاعجاب بغنائهن على عشق جمالهن يقول في ((وحيد)):

تتغنى كأنها لا تغني من سكون الاوصال وهي تجيد
مد في شأو صوتها نفس كاف كأنفاس عاشقيها مديد (2)

وقد كان من خصال القيان وأخلاقهن بالاضافة الى جمالهن وصناعتهن ما يغري بالاقبال على شرائهن ومن هذه الاخلاق براعتهن في استمالة المشترين وإثارة عواطفهم باظهار الانوثة

---

1) احمد امين - ظهر الاسلام ج 1 ص 138
2) ابن الرومي - الديوان - ج 2 - ص 762

والبدل حتى صون صدر غواية وفتون وقد الف الجاحظ رسالة اطنب فيها في وصف طباع القيان واساليبهن في الاغواء كما خصص لهن ابو الطيب الوشاء قسما من كتاب ((الموشى)) وصف خلاله عشقهن ومهارتهن في تصيد المعجبين بالحب الكاذب والهوى المتبدل وكل غايتهن الطمع في اهل اليسار واجتناب ذوي الافلاس والاقتار (1) فكانت القينة منهن ((اذا رات في مجلس فتى له غنى وكثرة مال ويسار وحسن حال مالت اليه لتخدعه ... ومنحته نظرها واشارت اليه بكفها وغمزته بطرفها وغنت على كاساته ومالت الى مرضاته حتى توقع المسكين في حبالها وتحويه بلطف تلقها وتستعين بالمكر والخداع ثم توسل اليه من يخبره عن سهرها وقلقها وتبعث اليه بخاتمها وخصلة من شعرها وكتاب قد نقطته بظرفها ونقطت عليه قطرات من دمعها وختمته بالغالية والعنبر ... حتى اذا حوت عقله وسلبت قلبه اخذت في طلب الهدايا من ثياب وحلي وشكت من غير الم لتتوالى عليها هداياه حتى اذا نفد اليسار وتلف المال واحست بالافلاس اظهرت الملل واعلنت البدل وتبرمت بكلامه وضجرت بسلامه واخذت في الجفاء والعتاب

---

1) الجاحظ ـ رسالة القيان ـ الرسائل ـ ج2 ص171 - 173

وصرفت عنها هواه ومالت الى سواه)) (1)

ويروي الوشاء اشعار الشعراء العصر في اغراء هؤلاء القيان وتاجرتهن بالعشق مما زاد في رواج سوقهن ويمكن ان نجتزيء بهذه الابيات من قول احدهم بعد ان وقع في حبائلهن :

صحوت وأبصرت الغواية من رشدي — وايقنت اني كنت جرت عن القصد

فلا يعشقن من كان يعشق قينة — فما هو منها في سعيد ولا سعد

تودك ما دامت هدايا ك جمة — وترفدك عشقا ما بقيت اخا رفد

اذا ما رأت في مجلس من تخاله — غنيا حبته بالتحية والود

فذا دأبها حتى يعود من الهوى — سقيم فؤاد ما يعيد ولا يبدي

فتقصد لا من حاجة لقصادها — ولكن لتكليف الهدية في القصد

فمن بين خلخال يصاغ وخاتم — ومن دملج يهدى على اثر العقد

فذا فعلها حتى اذا ما د مفلسا — تجنت وابدت جانب الهجر والصد

فقولا لمن يهوى القيان تفهما — مقالي فاني قد نصحت لكم جهدي (2)

ويرى الجاحظ انهن تطبعن بهذه الطباع بسبب ما تعودنه في اوساط الغناء والطرب من مخالطة الرجال والاتصال بهم والهزل معهم

---

1) الوشاء - الموشى - الباب 20.

2) المصدر نفسه

هزلا يصل الى حد الدعابة حتى امسى تعلّم الجارية للغناء مرتبطا وثيق الارتباط بتخرجها في فن ابراز المفاتن الجسدية وأفضى بها هذا السلوك الى الانحدار غالبا نحو تصرفات مريبة تخلب قلوب الشباب من الخاصة والعامة وتدفعهم الى التهافت عليها. يقول في ذلك : ((وكيف تسلم القينة من الفتنة او يمكنها ان تكون عفيفة وانما تكتسب الاهواء وتتعلم الالسن والاخلاق بالمنشأ وهي تنشأ من لدن مولدها الى اوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والاخابيث وبين الخلعاء والمجان . وتروي الحاذقة منهن اربعة الاف صوت فصاعدا يكون الصوت فيها بين البيتين الى اربعة ابيات اذا ضرب بعضه ببعض يكون عشرة الآف بيت ليس فيها ذكر الله الا عن غفلة ولا ترهيب عن عقاب ولا ترغيب في ثواب وانما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها منكبة عليها تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وانشادهم مراودة . وهي مضطرة الى ذلك في صناعتها لانها ان جفتها تفلتت وان اهملتها نقصت وان لم تستفد منها وقفت)) (1)

---

1) الجاحظ ـ رسالة القيان ـ الرسائل ج 2 ص 176

ويصفهن نفس المؤلف بأنهن شراك ابليس ويعتبر ذلك مدحا لهن ودليلا على سحرهن وكأنه هو الاخر قد تيمه حبهن (1) .

وكان تخريج الغلمان في الغناء وغيره من الفنون والاداب شبيها بتخريج القيان من الجواري . وكانت تراعى فيهم وسامة المظهر وجمال الصورة ايضا. وقد ذكر لنا ابو حيان التوحيدي انه كان في بغداد خمسة وتسعون غلاما جميلا يغنون للناس وانه كان بها صبي موصلي مغن ملأ الدنيا ((عيارة وخسارة وافتضح اصحاب النسك والوقار واصناف الناس من الصغار والكبار بوجهه الحسن وثغره المبتسم وحديثه الساحر وطرفه الفاتر وقده العديد ولفظه الحلو ودله الخلوب ... يسرقك منك ويردك عليك ... فحاله حالات وهدايته ضلالات وهو فتنة الحاضر والبادي))(2) كما حدثنا عن ((علوان غلام ابن عرس)) فانه اذا حضر ((والقى ازاره وحل ازراره وقال لاهل المجلس : اقترحوا

---

1) المصدر نفسه ج ٤ ص 176 - صلاح الدين المنجد - الخلفاء والخلعاء - ص 159

2) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة ج 2 ص 174

واستفتحوا فاني ولدكم بل عبدكم لاخدمكم بغنائي واتقرب اليكم بولائي ... لا يبقى احد من الجماعة الا وينبض عرقه ويهش فؤاده ويذكو طبعه ويفك قلبه ويتحرك ساكنه ويتدغدغ روحه)) (1) وقد وتفنن اهل العصر في تسمية هؤلاء الغلمان المغنين فسموا ((فاتن)) و ((رائق)) و((نسيم)) و ((وصيف)) و((ريحان)) وسموا بعضهم بأسماء الاناث مثل ((جميلة)) و ((بشر)) .(2)

والواقع ان تأثير القيان والمغنين في نفوس مشتريهم وسر رواجهم راجع الى جمعهم بين خصال عديدة جعلت منهم بضاعة نافقة في الاسواق ومن تلك الخصال طبعا المستوى الثقافي الذي كانوا يتمتعون به. فكان منهم الرواة للشعر والشاعرات ذوات الذكاء والبديهة ولم يبلغوا هذه المرتبة الا بالدربة والمران وبتعليم وتلقين ولذلك يحسن ان نشير الى حركة تعليم الرقيق ومناهجها التي كانت متبعة في هذا العصر

---

1) المصدر نفسه ـ ج 2 ص 178 ـ احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 132

2) المرجع نفسه

حتى يمكن لنا ان نفهم سر الشهرة التي احرزت عليها الجواري المولدات والغلمان المولدون وسبب رواجهم واقبال الناس على اقتنائهم مما تسبب في ارتفاع اثمانهم .

ج - مدارس تعليم الغناء

وقد ادى رواج الرقيق والتهافت على اقتناء الحاذق منه لفنون الادب والعزف والغناء والرقص وغيرها من الفنون والثقافات الى انتشار مدارس تقيين الجواري وتخريج المغنيين والى تنشيط مجالس تعليم الغناء ودور القيان لغاية تجارية هي الرفع من اثمان الرقيق وقيمته بتعليمه الفنون الرائجة في ذلك العصر (1) ولعل اعرق هذه المدارس ما نشأ منها بمدن الحجاز كالمدينة والطائف ومكة وغيرها لسبقها في الاهتمام بصناعة الغناء خاصة ولازدهار هذه الصناعة عند اهل الحجاز منذ القرن الاول للهجرة على ايدي الارسقراطية العربية ولا سيما المهاجرين والانصار في ظل دولة بني امية (2) وقد استمر اشعاع هذه المدرسة الحجازية في العصور

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بولاق 1285هـ
ج 12 ص 43 - الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي
ص 79/77

2) المسعودي - التنبيه والاشراف - ترجمة كارادي فو B. Carra de Vaux
ص397 احالة رقم 2 - مروج الذهب - ح 1 ص157
شكري فيصل - تطور الغزل - ص 352
H. Lammens - Les chantres des ommiades - J.A. - série IX - T. IV - p 447

الموالية وكان اغلب الرقيق المولد قبل القرن الثالث للهجرة يتخرج في فن الغناء من المدينة ويصدر بعد ذلك الى سائر النواحي بالعالم الاسلامي . وكانت الجواري المدنيات من اثمن ما يجلب الى قصور الامراء بالعراق والشام ومصر وافريقية والاندلس وهن اللائي نشرن فن الغناء والثقافة المشرقية بالمغرب الاسلامي (1).

وقد تواصل نشاط هذه المدرسة الاولى خلال هذا العصر في تخريج القيان والمغنين وقد ذاع صيت الجواري المغنيات الائي تخرجن منها ثم ارسلن الى العواصم الاسلامية الاخرى ومن امثلتهن ((محبوبة)) التي اهداها عبد الله ابن طاهر الى المتوكل (232-247هـ/ 847-861م) من خراسان وكانت قد نشأت وتعلمت بالطائف فحذقت الشعر والغناء (2) واشتهرت ((دنانير)) و ((بذل)) بحظوتهما عند خلفاء بني العباس لجودة غنائهما وقد تعلمتا بالمدينة (3) وقد

---

1) الاصفهاني ــ الاغاني ــ طبعة بيروت ج 1ص 48
365 محمد الطالبي ــ الامارة الاغلبية ص 33- 37
بروفنسال-Provençal- تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314-317

2) الابشيهي ــ المستطرف ج 2 ص154ــ155
ابن القيم-اخبار النساء ص 49 ــ 51

3) الاصفهاني ــ الاغاني ــ طبعة بولاق 1285 هـ
ج 16 ص137 وطبعة بيروت 1964 ج 18 ص14 . 16
محمد احمد برانق ــ البرامكة في ظل الخلفاء ص164

نبغت ((الجواري المدنيات)) ببلاط قرطبة وكن اول من احدث جوقا هناك (1) وهذا قليل من عديد الامثلة الدالة على تواصل نشاط هذه المدرسة .

لكن تخريج هؤلاء المغنين من غلمان وجواري لم يبق حكرا في هذا العصر على المدرسة الحجازية بل ظهرت مدارس اخرى في عواصم البلاد الاسلامية المختلفة فبعد ان كانت مدرسة المدينة هي المزود الوحيد ظهرت بمدن العراق مثل الكوفة والبصرة وبغداد مدرسة لتخريج هذا الرقيق المختص ولمواجهة الطلب المتزايد من شتى انحاء العالم الاسلامي . وقد عرفت مولدات البصرة وبغداد والكوفة شهرة كبيرة في اوساط الغناء وفي قصور الملوك والامراء وكبار الاثرياء (2) وقد قيل فيهن انهن ((ذوات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المخصرة والاصداغ

---

1) بروفنسال - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 1 ص 268 وج 3 ص 502 - 503

2) موريس لومبار - Maurice Lombard
الاسلام في عظمته الاولى ص 194 - 204
زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 5 ص 29

المزرفنة والعيون المكحلة ... مما يطول شرحه)) (1) وكان منهن ((متيم)) وهي صفراء مولدة من مولدات البصرة وبها نشأت وتأدبت وغنت واخذت عن اسحق الموصلي وعن ابيه من قبله وكانت من احسن الناس وجها وغناء وادبا (2) وكانت منهن ((فضل)) وهي من مولدات البصرة ايضا لم يكن في زمانها اشعر منها وقد اشتريت واهديت الى المتوكل (232-247هـ/ 847- 861م) (3).

وغير هؤلاء كثيرات ممن ارسلن خارج العراق مثل الجارية "عريب" التي اشتهرت بخراسان بعدان تعلمت بالبصرة وكان لها شأن مع الخلفاء ببغداد (4)

---

1) المسعودي – مروج الذهب ج 2ص154
زيدان-تاريخ التمدن الاسلامي ج 5ص30
2) الاصفهاني – الاغاني – طبعة بيروت 1964
ج 7ص280 2 كمال مصطفى – مقدمة لتحقيق كتاب الموشى ص: ط – ي
3) الاصفهاني – الاغاني – طبعة بيروت 1964
ج 19ص 257 2 كمال مصطفى – مقدمة لتحقيق كتاب الموشى ص: – ط – ص – ي
4) الاصفهاني -الاغاني – طبعة بيروت
1964 ج 21ص 58 – 88

ومثل المغنية البغدادية التي اشتراها تميم بن المعز لدين الله بمصر (ت 368هـ/978م) وقضت بجواره مدة ثم حنت الى بغداد (1) ويروى ان بعض التجار مثل محمد بن موسى الرازي كانوا يبيعون الجواري العراقيات النشأة والتربية للبلاط الاندلسي (2) وقد ذاع صيت المغنية البغدادية ((قمر)) التي اشتراها ابراهيم ابن حجاج (ت 298 هـ/ + 910 م) امير اشبيلية في آخر القرن الثالث للهجرة وقد جلبها من المشرق بثمن باهض (3) ونجد ذكرا للقيان البغداديات حتى في عصر المنصور بن ابي عامر (326-392هـ/ 938-1002م) الذي اشترى مغنية بغدادية انتقلت بعد ذلك الى حريم احد الوزراء بمالقة في السنوات الاولى من القرن الخامس للهجرة (4) وكان

---

1) انظر - الازدي - الحكاية - ص78 ومابعدها
آدم متز A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج2 ص251

2) بروفنسال - E.Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج3 ص502 . 503

3) المرجع نفسه ج1 ص367 . وج3 ص502
503 المقري - نفح الطيب - طبعة بيروت 1949
وج4 ص136 . 137 وج6 ص1

4) احمد الشرواني - حديقة الافراح - طبعة القاهرة 1302 هـ/ ص127 بروفنسال - E.Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية - ج3 ص502 . 503

وكانت قصور الاغالبة تشتمل على هذا النوع من الجواري ايضا خصوصا قبل ان تزدهر مدرسة القيروان (1) ولا مراء في ان هؤلاء المغنيات كن من الاماء ولدينا شهادة في حكاية ابي القاسم البغدادي ترجع الى سنة (306 هـ/ - 918 - م) ومفادها ان اغلب المغنين ببغداد كانوا من الرقيق (2).

وقد انتشرت مدارس اخرى لتخريج القيان والمغنين باقليم فارس وقد اشار الجاحظ في القرن الثالث للهجرة الى كثرة ما بمدينة الاهواز من ((صناجات)) و ((رقاصات)) وقال انهن يجلبن من هذه المدينة الواقعة باقليم خوزستان الى العراق وما ذاك الا لنشاط مدارس التعليم التي كان من اهتماماتها تعليم الرقيق العزف على الالات الموسيقية وكذلك تعليم الرقص (3) اما احسن الرقيق باقليم ماوراء النهر

---

1) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص 33 31

2) انظر الازدي - الحكاية ص101

3) الجاحظ - كتاب التبصر بالتجارة ص 41

فهو الذي كان يتلقى تربيته وتعليمه بسمرقند لازدهار حركة تخريج القيان والمغنين بها (1) وقد لاحظ ابن حوقل ان ببلاط السامانيين رقيقا وافر العدد وماهرا في فن الغناء (2) وهو رقيق قد تم تعليمه بعواصم ما وراء النهر مثل مدينة سمرقند ومدينة خوارزم (3)

ولم يكن المغرب الاسلامي دون المشرق في حركة تخريج المولدين وتزويد الاسواق بهم فهو وان كان قبل هذا العصر اقرب الى التعويل على بضاعة المشرق الاسلامي يستوردها او يرسل رقيقه الى مدارسه للتعلم بها فانه في هذا العصر قد صار يمارس هذه الصناعة ويصدر انتاجها بعد تحقيقه الاكتفاء الذاتي منها . وتدل هدية الملك الظاهر (411-427هـ/1020-1035م) بمصر الى المعز بن باديس الصنهاجي (398-454هـ/1008-1062م) على تأصل هذه الصناعة بمصر في هذا العصر وقد قال ابن رشيق شعرا في وصف هذه الهدية المشتملة على جوار من المغنيات والراقصات يقول :

1) ابن حوقل - صورة للارض الترجمة الفرنسية ج 2 ص 474

2) المصدر نفسه ج 2 ص 437

3) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 39

((... فيها القيان الطهيات كأنما | الحانهن على المعز ثناء
يصحيك من سكر المدام سماعها | وبه تصرع لبّها الندماء
لو غنت الصلدان وهو كلفظه | جبل اصمّ بدا له اصغاء
وراقص هيف الخصور كأنما | حركاتهن على الغناء غناء
لو ان موطئهن مقلة ارمد | لم يشك ان نعالهن خفاء ...)) (1)

وظهرت بافريقية والمغرب مدارس على نفس المنوال بالقيروان وسائر مدن هذا الاقليم فبعد ان كانت هذه البلاد مجرد ((ولايات صدّرة للجواري)) الجميلات في صورتهن ((الخام)) وبعد ان كان أمراؤها وكبراؤها يستوردون الرقيق المثقف المتعلم من مدارس الحجاز والعراق ومصر صاروا يمارسون صناعة تخريج المولدين وادرك التجار وسيلة الربح الوفير بتكوين الرقيق قبل بيعه، فنافسوا بذلك تجار المشرق وقدموا بضاعة نفيسة تضاهي ما كان يروج باقاليم البلاد الاسلامية الاخرى(2) وقد اضحت القيان المغربيات محل اعجاب والهام للشعراء وقد تغنى الشاعر احمد بن فتح المعروف بابن الخراز التاهرتي بقينة من مدينة البصرة

1) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص71 - 73
2) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 33 - 37

بالمغرب وهي مدينة كائنة بين طنجة وفاس فقال :

قبح الاله اللهو الاتينة ... بصرية في حمرة وبياض

الخمر في لحظاتها والورد في ... وجناتها والكشح غير مفاض

في شكل مرجي ونسك مهاجر ... وعفاف سني وسمت اباض

تاهرت انت خلية وبرية ... عوضت منك ببصرة فاعتاض (1)

وكذلك كان الامر بالنسبة الى الاندلس فابتداءا من فترة ظهور الخلافة بها لم يعد جلب القيان المتعلمات بالمشرق امرا شائعا فيها وانما قل ذلك حتى صار ظاهرة شاذة اذ صار الجواري والغلمان يتعلمون بالاندلس نفسها حيث رسخ زرياب قبل هذا العصر تقاليد فنية ومدارس غنائية قائمة الذات وتواصل الامر على هذا المنوال في عصر الطوائف اذ كان ملوكها يتنافسون في اقتناء ابرع القيان اللائي تعلمن على عين المكان شتى فنون الادب والغناء . وقد تحدث ابن بسام عن احد معلمي الرقيق من مغنيات واديبات وهو طبيب اندلسي يدعى ابن الكتاني عاش من اوائل القرن الخامس للهجرة وهو يفتخر بانه علم بمفرده اربع جوار نصرانيات وقد اشترى احداهن بثلاثة آلاف دينار هذيل ابن رزين امير منطقة ((سهلة)) فكانت اجمل زينة في حريمه . وكان

---

1) البكري ــ المغرب ــ ص 110

هذيل هذا حسب ما تذكره الاخبار ينفق الكنوز للحصول على اشهر القيان في البلاد (1) وهكذا بلغ تعليم الجواري بالاندلس من الجودة مستوى لم يعد الاندلسيون يرغبون معه في جلبهن من المشرق وتدل اخبار محمد بن موسى الرازي الذي اراد ان يتحف البلاط الاندلسي بقينة بغدادية التعليم على ان اهل البلاط لم يأبهوا لهذه الجارية رغم جودة اختصاصها لان شل هذه البضاعة قد توفرت لديهم (2).

د- برامج التعليم

وكانت برامج هذا التعليم تتمثل في تلقين الرقيق كل المعارف الكفيلة بأن تجعل منه اختصاصيا في صنعة الغناء ولما كان معظم الجواري والغلمان من الاعاجم غير العارفين بلغة العرب وآدابها وجب تعليمهم هذه اللغة اولا وتدريبهم على القراءة والكتابة وحسن الاداء بالاطلاع على مخارج الحروف وعلم الخط العربي وقواعد النحو والصرف حتى يمكن

1) هنري بيريس H. Pérès - الشعر الاندلسي ص 383 - 385 بروفنسال Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314 . 317.

2) بروفنسال Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 502 . 503

للمتخرج فيها بعد ان يتلقى دروسا في الشعر الذي كان من مواد الغناء الاساسية . وكانت الاشعار الغنائية وخاصة منها الاشعار الغزلية اهم ما يتعلمه الرقيق ليغني فيه . وقد عجت كتب الادب برواية هذه الاشعار التي وضعت فيها الالحان مثل كتاب الاغاني للاصفهاني والعقد الفريد لابن عبد ربه وغيرهما (1) ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التدريب على اداء اللحن وحفظ الاصوات وهي اقصى مراحل التعليم بالنسبة الى المغنين وهم يترقون فيها من مستوى الى آخر حسب حظوظهم من عدد الاصوات التي يحفظونها (2) .

ومن برامج هذا التكوين ايضا تخريج العازفين والعازفات على الالات من صناجين وصناجات وطنبوريين وطنبوريات وعوادين وعوادات (3) وزوامر وكراعات (4) وغيرهم من العازفين والموسيقيين وكان هناك مستوى ادنى من التعليم لابد ان يبلغه المتعلمون ويذكر

---

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ج 21 ص 61 - موريس لومبار M.Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص 194 - 204

2) الجاحظ - كتاب القيان - الرسائل - ج 2 - ص 176

3) الجاحظ - التبصر بالتجارة - ص 41 الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ج 22 ص 207 - 209

4) ابن بطلان - رسالة في شرى الرقيق - ص 388

ابن بطلان في هذا الصدد ان اختيار هذا المستوى يكون باتقان عشرة اصوات من جملة مائة صوت كانت مضبوطة ومعلومة (1) واذاك يصبح المتعلم قادرا على التصرف فيما يلقى عليه من الحان وعلى التمييز بينها. وكانت الالحان الطريفة تباع وتشترى بالمال وخاصة منها الحان كبار الموسيقيين كما تروى اخبار كثيرة في سرقة هذه الالحان واختلاسها بسبب التنافس بين شهيرات الجواري وكبار النخاسين والمغنيين (2) فمن ذلك ما يروى عن علي بن هشام احد قواد المأمون (198-218هـ/813-833م) من انه كان يرشو من يخرج له صوتا سمعه من ((قلم)) المغنية من دار زبيدة مولاتها وبلغ هذا الرشا مائة الف درهم تمكن به من الحصول على الصوت ومن طرحه على جواريه (3).

وهكذا اذا اجتمع العزف الجيد مع الصوت الحسن والشعر الصحيح الاداء كان ذلك غاية المطلوب في الغناء

---

1) المصدر نفسه

2) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ج 11 ص 269 - 270 وج 7 ص 286 وج 10 ص 147

3) المصدر نفسه ج 7 ص 286

ومعيار جودته وامتيازه يقول ابن بطلان ((اذا اجتمع للغناء ان يكون مطبوعا سليما من الخروج والنفور وكانت الجارية شحروية الصوت جيدة الصنعة والضرب صحيحة التأدية للشعر قد اخذت عن الحذاق وتزيدت من نفسها بجودة الطباع فهي الغاية القصوى في هذا الشأن فان اتفق لها مستمع عارف بالطرائق والضرب واللحن ومجرى الاصابع وقائل الشعر وما فيه من العروض والنحو وما في الصوت من ردات وترجيحات وشذرات ونقرات وتشبيعات كان اوفر في اللذة وانفق للصناعة)) . (1).

ويقع تخريج الرقيق في فن الرقص ايضا اذ وجدت الى جانب الجواري العازفات والمغنيات الجواري ((الرقاصات)) (2) ويختار منهن لهذا الفن كل ((مجدول الحشا وعريض الصدر)) (3) فيتم تدريبه على فنون من الرقص مختلفة مثل ((الدستبند)) و ((الايلا)) (4) وقد وصف المسعودي فنون

---

1) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص385

2) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة ـ ص 35

3) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة ـ ص41

4) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ 388

الرقص الرائجة اذاك وتحدث عن انواعها وعن الشمائل
والصفات المحمودة في الراقص وما يجب ان يتصف به من طبع
وخلق وعمل (1) وكان هذا الرقص يسمى باسماء الموسيقى
من خفيف ورمل وهزج وخفيف الثقيل الاول احيانا او يسمى
بأسماء خاصة مثل رقص الجمل او رقص الكرة ونحو ذلك (2) .

وكان تعليم هذا الفن الجواري خاصة امر ضروريا ومكملا لتعليم الشعر
والغناء والضرب على الالات لانها جميعا من مستلزمات مجالس
الشراب واللهو التي يقتني المترفون الرقيق المولد
من اجلها (3).

وتتعلم الجارية او الغلام فنونا اخرى تستدعيها مجالس
الانس والطرب التي تهيأ لها هذه البضاعة مثل البراعة في لعب
الشطرنج او النرد (4) وقد تتنوع هذه الفنون احيانا
فيكون منها فن السحر او اللعب بالسلاح كما نجد ذلك بالاندلس

---

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964
ج 22 ص 218

2) المسعودي - مروج الذهب ج 8 ص 100 - آدم متز
الحضارة الاسلامية ج 2 ص 249 - 250 احالة رقم 5

3) المرجع نفسه

4) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 71 . 73 موريس لومبار - M-Lombard
الاسلام في عظمته الاولى ص 194 - 204

شلا (1) لكن من مواد التعليم التي كانت تلقن للرقيق مالا علاقة له باللهو والطرب والفنون الجميلة . وانما يتصل بالعلوم والمعارف الانسانية المختلفة كالفلسفة وعلم التنجيم والعروض وعلوم اللغة والخط والطب والفلك والرياضيات والقرآن والحديث والعلوم الشرعية عموما (2) وليس ذلك بدعا في هذا العصر فقديما عرفت بلاط العباسيين في بغداد مجموعات من الجواري تناهز المائة جارية لكل واحدة منهن ورد عشر القرآن وقد اتخذت منهن ((ام جعفر)) جماعة فكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة (3) وكانت جواري الطبيب ابن الكتاني بالاندلس متعلمات في علم التنجيم والفلسفة واصناف من العلوم النقلية والعقلية (4) وقد يتجاوز الامر مواقف الجد الى مقامات الحزن والالم فيقع تعليم الجواري النواح في المآتم لانهن كن يستعملن نادبات ونائحات ايضا (5)

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت 1964 ج 21. ص 98

2) هنري بيريس H. Peres ـ الشعر الاندلسي ـ Poesie Andalouse ص 383 385 بروفنسال ـ Provençal ـ تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 317

3) المرجع نفسه ـ فيليب حتي PH. Hitti ـ تاريخ العرب ص 109

4) ابن خلكان ـ وفيات الاعيان ج 1 ص 190 زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 30

5) هنري بيريس H. Peres ـ الشعر الاندلسي Poesie Andalouse ص 383. 385 بروفنسال ـ تاريخ الاسبانيا الاسلامية ج 3 ص 317

هـ - اماكن التعليم

وكان تخريج هذا النوع من الرقيق يتم في بيوت كبار المغنين مثل اسحق الموصلي ومخارق وابراهيم بن المهدي وكبار الموسيقيين مثل زلزل الضارب وبرصوما الزامر وعبيدة الطنبورية (1) وغيرهم ولم يكونوا يكتفون بمهمة التخريج في الصناعة بل منهم من يعمل لحسابه الخاص فيشتري الرقيق الساذج بسعر منخفض ثم يعلمه ويبيعه باضعاف ما اشتراه به فيجمع بذلك بين ممارسة التعليم والنخاسة (2) وكان الاثرياء يرسلون بغلمانهم وجواريهم الى بيوت هؤلاء الاساتذة ليحذقوا صنعة الغناء وقد روى الغلام ((ينشو)) مولى ابي احمد بن الرشيد ما جرى له فقال ((اشتراني مولاي ابو احمد بن الرشيد واشترى رفيقي ((محموما)) فدفعنا الى وكيل له اعجمي خراساني وقال له : انحدر بهذين الغلامين الى بغداد الى اسحق الموصلي. ودفع اليه مائة الف درهم وشهريا بسرجه ولجامه وثلاثة ادراج من فضة مملوءة طيبا

---

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ج6 ص 25 - 28
وج 18 - ص 93 وج 22 ص 211

2) المصدر نفسه ج 5 ص 150 151 وج 18 ص 268

وسعة تخوت خز سوسي وثلاثين الف درهم للنفقة وقال للرسول : عرف اسحق ان هذين الغلامين لرجل من وجوه اهل خراسان وجه بهما اليه ليتفضل ويعلمهما اصواتا اختارها وكتبها له في درج)) (1) وكان اسحق كأبيه يمتلك العديد من الجواري ويتاجر فيهن بعد تعليمهن الغناء (2).

وقد عرفت بيوت مشاهير المغنيين بانها مجتمع الادباء والشعراء الذين يأتون لسماع الغناء واقتراح ما لديهم من فنون القريض (3) كما اشتهر اساتذة الغناء انفسهم بالتضلع في فنون اللغة والأدب (4) فساعد ذلك على تخريج الرقيق في فنون شتى لا يستقيم الغناء الا بها . وكان للنخاسين بيوت ايضا يحتفظون فيها بأجمل الرقيق ويجلبون اليها اهل الغناء والادب ليعملوا على تكوين الجواري وعلى صناعة القيان وكان النخاس المدرس لهذه المهمة يعرف باسم ((المقيّن)) او صاحب القيان وقد اشتهرت اسماء بعضهم مثل ((ابي عكل)) وذاع صيت بيوتهم مثل بيت ابن رامين وبيت ابن الاصبغ بالكوفة (5).

---

1) المصدر نفسه ج 5 ص 265
2) المصدر نفسه ج 5 ص 390 ((وقد اهدى منهن الجارية ((شجى)) للواثق بالله العباسي (227-232هـ/842-847م)))
وج 5 ص 306
3) المصدر نفسه ج 8 ص 339 . 341
4) المصدر نفسه ج 5 ص 245
5) المصدر نفسه - ج 18 ص 93

وقد نبغ من الرقيق المولد شهيرات القيان اللائي صرن بدورهن يعلمن هذا الفن ويجنين ثمرة ما تدره عليهن هذه الصناعة . وقد كان ((مخارق)) المغني المشهور مملوكا للمغنية عاتكة بنت شهدة فنبغ في هذا الفن وصار بدوره يساهم في تخريج المغنيين (1) وقد ذاع صيت قينتين ماهرتين بالعراق هما ((عريب)) و ((شارية)) وكانتا متنافستين ولكل منهما جواريها وانصارها فكانتا رمزا لمدرستين مختلفتين في فن الغناء (2) ومما يروى عن علي بن يحي المنجم انه قال :((خرجت يوما من حضرة المعتمد فصرت الى عريب فلما قربت من دارها اصابني مطر بل ثيابي الى ان وصلت الى دارها فلما وصلت اليها امرت باخذ ثيابي عني واتتني بخلعة فلبستها واحضرنا الطعام فأكلنا ودعت بالنبيذ واخرجت جواريها ثم سألتني عن خبر الخليفة في امسه ذلك اليوم وشربه وايش كان صوته ...))(3).

وكانت حظايا الخلفاء والامراء وكبار الاثرياء عموما يتلقين تعليمهن حيث يوجدن بقصور مالكيهن اي على عين المكان فيستدعى لهن اهل

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني طبعة بيروت 1964 ج 1 ص 253 وج 12 ص 44 وج 6 ص 248

2) المصدر نفسه ـ طبعة بيروت 1964 ج 14 ص 203 وج 10 ص 183 . 184

3) ابو الحسن الطلقي ـ الحدائق الغناء ص 99

الاختصاص مقابل اجرة وصلات سنية . ولنا في قصة تعلم الجارية المشهورة ((دنانير)) في قصور العباسيين احسن مثال على هذا النوع من تعليم الجواري من رقيق طبقة الخاصة (1) وقد كانت كل اشكال التعليم هذه متواجدة ومتعايشة فضلا عما كانت تحفل به مجالس الطرب والادب من فرص لتجويد القرائح وتحسين الصناعة ونشرها بين مختلف اصناف الجواري والعلماء . وهكذا نشطت حركة تخريج الرقيق في هذه الصنعة خلال هذا العصر وكان النخاسون اكبر المشجعين لها لان فيها تكمن ارباح تجارتهم ولذلك يرى بروكلمان ان المدارس التي فتحوها لتعليم الجواري قد قامت في نشاطها مدارس تعليم ابناء الخلفاء في القصور .(2) .

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت 1954 ج5 ص 62 و ص 81

2) بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ج 1 ص 98-99

و- نتائج التعليم

وقد كان من نتائج هذا التكوين ان نهضت مجموعات من الرقيق المؤنث والمذكر في شتى الصنائع والفنون وكان منهم من لم يكتف باتقان الصنعة المأخوذة عن اساتذتهم وانما اضافوا اليها ابتكارا وابداعا واشتهر منهم كبار الشعراء والمغنين والملحنين وذاع صيت شارية القيان اللاتي ((تروي الحاذقة منهن اربعة الاف صوت فصاعدا يكون الصوت فيما بين البيتين الى اربعة ابيات اذا ضرب بعضه ببعض يكون عشرة الاف بيت)) (1) وبلغ الامر باحداهن ان غنت ثلاثين الف صوت واعتنت بجمع تلك الاصوات في مصنفات (2) اما الشعراء من الرقيق فقد احرزوا نفس الشهرة بل كانت الجواري المغنيات شاعرات ايضا وكذلك الغلمان وقد روت كتب الادب جانبا لا يستهان به من هذا الشعر مثل العقد الفريد لابن عبد ربه ومثل المستطرف للابشيهي ونفح الطيب المقري والاغاني للاصفهاني وغيرها من امهات كتب الادب (3) ويكفي ان نجتزئ هنا بمثال واحد على بديهة هؤلاء الشعراء والشاعرات لان تعداد الامثلة لايقف عند حد ويتجاوز

---

1) الجاحظ رسالة القيان ـ الرسائل ج 2 ص 176

2) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت 1964
ج 1 ص 60 وطبعة القاهرة 1929 ج 7 ص 296

3) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج 8 ـ ص 115 - 116

بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ج 1 ص 151

الاحصاء ويتعلق هذا المثال بجارية شاعرة للمعتضد (279 - 289 هـ/ 892-902 م) يقال لها ((بدعة الكبرى)) فقد قال لها يوما :

"يابدعة اما ترين الشيب في لحيتي وراسي ؟ فقالت : ياسيدي عمرك الله حتى ترى ولد ولدك قد شابوا فانت والله في الشيب احسن من القمر" وفكرت طويلا حتى قالت هذه الابيات :

ماضرك الشيب شيئا ... بل زدت فيه جمالا

قد هذبتك الليالي ... وزدت فيه كمالا

فعش لنا في سرور ... وانعم بعيشك حالا

تزيد في كل يوم ... وليلة اقبالا

في نعمة وسرور ... ودولة تتعالى (1)

فهذا المثال قطرة من بحر الاشعار التي قيلت على السنة الرقيق وهي ان دلت على شيء فانما تدل على نمط هذا الشعر الذي له طابع السلاسة وسهولة اللغة لانه نشأ من الغناء وللغناء (2) وصار زينة اهل الظرف يكتبونه في مجالسهم وتكتبه الجواري على وجوههن ويطرزن به ثيابهن ليبررن به ظرفهن وثقافتهن وقد اطنب الوشاء في وصف هذه العادة واورد امثلة عديدة من هذا الشعر (3) منها

1) السيوطي - المستظرف من اخبار الجواري - ص12-14
2) احمد امين - ظهر الاسلام ج 1 - ص 125
3) الوشاء - الموشى - ص 222 . 241 كمال مصطفى مقدمة تحقيق كتاب الموشى ص : [illegible]

قـولـه ((قـرأت على جبيـن جـاريـة لنخـاس بغاليـة وقـد اخـرجهـا اللعـوض :

وشادن احسن خلق الله في كفه سيف رسول الله
قد كتب الحسن على وجهها سطرين بالعنبر باسم الله
على يدي رضوان منسوجة صنعة حسن في طراز الله
أنا غريق في بحار الهوى شهه قتيل في سبيل الله ....

واخبرنـي من رأى على جبين جـارية نخاس مكتوبا في سطـريـن :

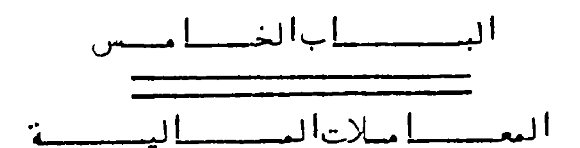
اذا حجبت لم يكفك البدر فقدها وتكفيك فقد البدر ان حجب البدر
وحسبك من خمر تفوتك ريقهـا وواللـه ما من ريقها حسبك الخمر))(1)

الى غيـر ذلـك من الاشعار التي كانت تكتب على المناديل او تطـرز بهـا الاقبيـة والـزنـانيـر والقـلانس وتـزخـرف بهـا آلات الطـرب عنوانـا على الظـرف وتـاهيـا بهـذه الثقافـة المتأنقـة (2)

---

1) الوشـاء ـ الموشى ـ ص239 ـ 240

2) المصـدر نفسـه ـ ص220 ـ 227


الباب الخامس
المعاملات المالية

الفصـــــــل الاول

المكـــــوس

المكوس على الرقيق

----

1) المكوس العامة

ان المتأمل في الاحكام الشرعية بدقة يلاحظ أن الرسوم الجمركية عموما غير جائزة في الشريعة الاسلامية لكن الفقهاء قد اضطروا الى الاجتهاد في هذا الموضوع حتى يجدوا مبررا لظاهرة "المكس" التي احتفظ بها المجتمع الاسلامي في معاملاته التجارية رغم استنكار الدين لها واقتصاره في ميدان الضرائب على الزكاة والجزية والخراج . وقد وجد هؤلاء الفقهاء مخرجا في اعتبار هذه الضرائب الجمركية داخلة في باب الزكاة واصطلحوا على تسميتها بالعشر وعلى عملية استخلاصها بالتعشير(1) ويوظف هذا المكس على الواردات من الرقيق كما يوظف على كل بضاعة بلغت قيمتها حدا معينا يحدده بعضهم بمائتي درهم(2) والرقيق بضاعة تتجاوز قيمتها هذا المقدار. والملاحظ أن هذه الضريبة كانت تعتبر شخصية اذ كانت تختلف باختلاف نوع التجار . فالتاجر المسلم لم يكن يدفع ما يدفعه التاجر الاجنبي او الذمي(3) ومن هنا كانت التسهيلات بالنسبة

---

1) آدم متز A. MEZ - الحضارة الاسلامية - ج 1 - ص 223

2) ابو يوسف - كتاب الخراج - ص 132 - 133

3) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية - ج 1 ص 236

الى تجار المسلمين اكبر كما لا يطالب التاجر بدفع هذا المكس الا مرة واحدة في السنة يصبح بعدها معفى من الاداء وله أن يطوف حيثما شاء من حدود البلاد عامها كاملا (1)

يقول ابو يوسف في كتاب الخراج " يؤخذ من المسلمين ربع العشر ومن أهل الذمة نصف العشر ومن أهل الحرب العشر من كل ما مر به على العاشر وكان للتجارة وبلغ قيمة ذلك مائتي درهم فصاعدا اخذ منه العشر وان كانت قيمة ذلك اقل من مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء "(2) وهكذا تكون المبالغ الموظفة من المكس بنسبة ٪ 2,5 او ٪ 5 او ٪ 10 حسب نوع التجار(3) وكان التعامل بالعشر مع غير المسلمين والذميين أي التجار الاجانب هو نوع من المعاملة بالمثل لان التاجر المسلم كان يدفع العشر على بضاعته بدار الحرب ومن الادلة على ذلك نص المعاهدة التي ابرمت بين امراء حلب والروم سنة (359هـ/ 969م) بعد موت سيف الدولة الحمداني (332 - 356هـ/ 944-967م) وقد جاء فيها على لسان كمال الدين بن العديم الحلبي "ان العشر الذي يؤخذ من بلد الروم يجلس عشار الملك مع عشار قرعويه وبكجور فمهما كان من التجارة . . يعشره

---

1) القلقشندي _ صبح الاعشى _ المطبعة العامرة _ دار الكتب _ ج 3 - ص 463

2) ابو يوسف _ كتاب الخراج _ ص 132 _ 133 وص 187 _ 188

3) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 182

عشار الحاجب وبكجور بعده وبعدهما يعشر ذلك كله عشار الملك "(1)

٢) المكوس الخاصة :

ذلك هو الاطار الذي كان يضبط ضريبة المكوس على التجارة عموما في تعامل المسلمين فيما بينهم وتعاملهم مع غيرهم وهو اطار يشمل تجارة الرقيق وله من التاثيرات فيها ماله في غيرها من التجارات الا ان المكوس على الرقيق وغيره من البضائع قد كانت في الواقع مختلفة عن هذا النموذج المبدئي الذي يحدده الاطار القانوني واكثر تعقيدا على صعيد التطبيق والممارسة ، وذلك لان الاسلام لم يقض على الكثير من الوسائل الاقتصادية القديمة التي جرت العادة باللجوء اليها لتمويل خزينة الدولة كما أن تعدد الدول الاسلامية نشأ عنه تعدد في صيغ التطبيق أضف الى ذلك ما حدث بالنسبة الى ضريبة المكس من تطور ابتداءا من النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة اذ فقدت طابعها الشخصي وأمست توظف على البضائع(2) فهذا عضد الدولة البويهي (324 - 372 هـ/ 936 - 983م) يفرض في آخر أيام دولته رسوما على بيع الدواب وغيرها من الامتعة(3) ولذلك قال الشاعر:

---

1) ابن العديم الحلبي — زبدة الحلب في تاريخ حلب — مخطوط المكتبة الوطنية بباريس — رقم 1666 ورقة 44

2) آدم متز - A.MEZ - الحضارة الاسلامية - ج 1 ص 236

3) ابن الاثير - الكامل - ج 9 - ص 125

افي كل اسواق العراق اتاوه وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم (1)

وقد عرفت مصر بكونها ارض المكوس وقد ابتدع فيها زمان الفاطميين ضرائب وظف على كل شيء حتى قيل انه لم يسلم منها الا الهواء (2) وقس على ذلك سائر الاقاليم الاسلامية اذ تطورت الجبايات (3) وصار المكس يتنوع بتنوع البضاعة وفي هذا ما يدعونا الى التساؤل عن نوع المكوس التي كانت توظف على الرقيق داخل العالم الاسلامي وخارجه ؟ .

3) مكـــوس الرقيـــــق

ان العينات القليلة التي توردها المصادر في هذا الشأن تدل على اختلاف مبالغ هذه المكوس من اقليم الى آخر ومن عهد الى عهد وتشير الى ارتفاع هذه المكوس حينا وانخفاضها حينا آخر . وقد ارتفعت الضريبة على الرقيق ببعض المدن الاوروبية المصدرة للرقيق كمدينة البندقية الى حد يتساءل معه المرء عن امكانية الربح بالنسبة الى التجار المستوردين له (4) وكان اليهود اثناء نقلهم للرقيق يدفعون ضرائب ثقيلة وذلك بالمانيا على الاخص حيث كان قانون الجمارك يقضي في بعض المدن بدفع اربعة دنانير على كل رأس وكان اسقف مدينة "خور" Chur يفرض على الرأس دينارين يدفعان في العبور بمدينة "فالينستات" Wallenstadt (5)

1) الجوهري _ الصحاح _ مادة : مكس
2) المقريزي _ خطط ج 1 ص 103 وما بعدها. آدم متز A.MEZ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 234
3) ابن خلدون _ المقدمة طبعة بيروت _ ص 279 - 280
4) كلود كاهن - Cl.Cahen - الشعوب الاسلامية - ص 339 - 344
5) آدم متز - A MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 301

ويشير المقدسي الى ارتفاع في المكوس على الرقيق التركي بحافة جيحون حيث يؤخذ على الغلام من سبعين الى مائة درهم وكذلك على الجارية يقول في ذلك "ويصعبون بحافة جيحون في الرقيق ولا يعبرون غلاما الا بجواز من السلطان ويأخذون مع الجواز سبعين الى مائة وكذلك على الجواري بلا جواز اذا كانوا اتراكا ويأخذون على المراة عشرين الى ثلاثين درهما وعلى الجمل درهمين وعلى فماس الراكب درهما (1) " ويتضح من هذا القول ان هذه المكوس قد اختلفت باختلاف جنس الرقيق ونوعه كما يظهر ارتفاعها ايضا بالقياس الى الضرائب الموظفة على البضائع الاخرى .

لكن المقدسي يذكر لنا امثلة اخرى من المكوس الموظفة على الرقيق باماكن اخرى من العالم الاسلامي وهي تبدو اقل ارتفاعا من الامثلة السابقة فيشير الى ان المكس على الراس الواحد من الرقيق بجزيرة العرب دينار واحد . كما يقارن بين هذا المكس وغيره من الضرائب الموظفة على بضائع اخرى كالاقمشة والتوابل والافواه فيبدو انخفاضه بالنسبة اليها يقول " والضرائب والمكوس يؤخذ بجدة من كل حمل حنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة وعلى سفط ثياب الشطوي ثلاثة دنانير ومن سفط الدبيقي دينارين وحمل الصوف دينارين وبعثر على كل حمل دينار وعلى سلة الزعفران دينار وكذلك على رؤوس الرقيق "(2) وهو يذكر ان المكس على الراس الواحد باقليم السند يساوي اثني عشر درهما بينما يوظف على الحمل ستة دراهم اي النصف(3)

1) المقدسي احسن التقاسيم – ص 340 - ادم متز- AMEZ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 225 226

2) المقدسي – احسن التقاسيم ص 104

3) المصدر نفسه ص 485

ونحن وان كان من العسير علينا الاحاطة بالعوامل الاقتصادية المتحكمة
في الجبايات الموظفة على الرقيق بشتى نواحي العالم الاسلامي فانه
باستطاعتنا ان نسلم بان وفرة هذه البضاعة او قلتها بمكان دون اخر
من الاسباب الاساسية في انخفاض المكس الموظف عليها وارتفاعه واذا علمنا
ان الاقاليم المجاورة لمصادر الجلب قد كانت اوفر حظا من هذه
المادة من غيرها امكننا على وجه التقريب ان نجتهد
في تحديد مناطق الارتفاع والانخفاض في هذه المكوس. وقد
لعب هنا قانون العرض والطلب دوره مما دعا السلط
الى التدخل احيانا بحذف بعض المكوس لتشجيع
حركة التوريد (1) ولا يخفى ايضا ان هذه
المكوس قد كان لها تاثير في ارتفاع
اسعار الرقيق كما سنرى

---

1) الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ـ ص 119 ـ
آدم متز ـ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 223 ـ 224
احالة رقم 3 ـ مما يروى عن الخليفة الواثق (227-232هـ/842-847م)
انه الغى المكوس البحرية سنة (232هـ/ 7ـ 846م) انظر
الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ـ ج 3 ص 1363 ومن الفقهاء من اجاز
للامام ان ينقص من ضريبة العشر او يزيد فيها او يحذفها اذا راى في ذلك
مصلحة ـ انظر ـ السرخسي ـ شرح السير الكبير ـ ج 5 ـ ص 2139 ـ 2141

الفصل الثاني

اسعار الرقيق

اسعـــــار الرقيـــق

ليس من اليسير على الباحث في تاريخ تجارة الرقيق ان يحدد سعر هذه البضاعة في عصر من العصور تحديدا مطلقا . وذلك لان صعوبات عدة تحول دون بلوغ هذا التحديد الدقيق ويمكن حوصلتها في ثلاثة اصناف.فأولها تغير اسعار هذه البضاعة بتغير الظروف والاوضاع التجارية والاجتماعية العامة . فثمن العبد او الامة رهين بعدة عوامل كقانون العرض والطلب واوضاع السلم والحرب وتكاليف الجلب والتوريد.وثانيها تنوع اصناف الرقيق واجناسه واختلاف مستوياته .فالرقيق انواع من مذكر ومؤنث ومثقف وجاهل وجميل وقبيح وصغير ومسن وفحل وخصي وسليم ومصاب وحاذق لصنعة وفاقد لها.ولهؤلاء جميعا اثمان متفاوتة في السوق الواحدة بتفاوت قيمة اصحابها فلا يجوز والحالة هذه ان نتحدث عن سعر موحد وثمن مطلق . وثالثها دلالة هذه الاسعار التي نجد بعضها مضمنا في اخبار الرقيق وروايات بيعه وشرائه فهي دلالة تفتقر الى الوضوح فضلا عن الشك في حقيقتها التاريخية . ولا مناص من تمحيص

تلك الاسعار ومقارنتها بغيرها من اسعار المواد التجارية الاخرى حتى نتأكد من دلالتها الصحيحة وحتى نعرف مقاييس الغلاء والرخص في بضاعة الرقيق خلال هذا العصر (1)

ان المتأمل في اثمان الرقيق يلاحظ ارتباطها بمجموعة من العوامل المحددة لمقاديرها والمؤثرة فيها بالزيادة والنقصان . فهي تتنوع وتتغير بتنوعها وتغيرها ولا بد من دراسة تلك العوامل حتى نتمكن من التعرف على اسعار بضاعة الرقيق وما يطرأ عليها من حين لآخر من ارتفاع او انخفاض فمن هذه العوامل ما يتصل ببعض القوانين التجارية التي تشمل شتى انواع التجارات ومختلف البضائع كقانون العرض والطلب وتكاليف التوريد وارتباطها بقرب مصادر الجلب او بعدها وكذلك المكوس الموظفة على هاته البضاعة فضلا عن مستوى المعيشة وتأثيره في غلاء الاسعار او رخصها . فهل لعبت هذه العوامل والاعتبارات الاقتصادية دورها بالنسبة الى تجارة الرقيق ؟

---

1) برنشفيك-Brunschvic- دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ج 1 ص 33

1) العوامل التجارية

أ- عامل العروض والطلب

وتخضع اسعار الرقيق لما تخضع له اسعار البضائع الاخرى من قوانين العرض والطلب التي تتسبب تارة في ارتفاع تلك الاسعار وطورا في انخفاضها حسب قلة العروض او كثرته وحسب تناقص الطلب او تفاقمه . ولذلك كان سعر الرقيق في بعض البلدان الاسلامية مرتبطا بحالة الثغور في الحرب والسلم وقد رتبها على تزويد الاسواق بهذه المادة التجارية او تضرب معنيهما في حاله السلم خاصة . وهكذا ارتفعت اثمان الرقيق الابيض بصورة ملموسة عند تخريب الثغور الغربية بالعالم الاسلامي وعندما انقطع رقيق الاندلس في القرن الرابع للهجرة (1)

اما في حالة وفرة الرقيق فان الاسعار تنخفض بصورة واضحة وقد يباع الرقيق في هذه الحالة بالجملة وكثيرا ما يحدث ذلك بالثغور حيث يباع السبي وتفرق الغنائم والاسهم على اصحابها وقد ينادى على الرأس بمائة درهم او الف درهم

---

1) آدم متز A.MEZ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 299

واقل واكثر . وقد روي ان العبد في واقعة الارك بالاندلس قد بيع بدرهم وبيع السيف بنصف درهم . (1) وشبيه بذلك ما روي عن فتح عمورية اذ نودي على الرقيق خمسة وعشرة عشرة لكثرته وطول مدة البيع (2) ومن اخبار العمري (3) ايضا انه هجم في عهد احمد بن طولون (254 - 270 هـ/ 868 - 884 م) على النوبة وسبى منهم سبيا كثيرا حتى كان الرجل من اصحابه يشتري الحاجة من ((البياع)) او من ((البقال)) بنوبي او بنوبية لكثرتهم بين ايدي اصحابه (4).

بـ العامل الجبائي

ولا مراء كذلك في ان للمكوس الموظفة على جلب الرقيق من بلاد اسلامية الى اخرى ومن البلاد غير الاسلامية ايضا دوراني اختلاف الاسعار وتفاوتها ذلك بسبب اختلاف هذه الجبايات في الزمان والمكان وتراكمها احيانا فالمملوك المجلوب من طريق البندقية

---

1) المقري ـ نفح الطيب ـ طبعة بولاق 1279 هـ في (4 اجزاء) ج 1 ص 209 ـ زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 44 ـ 46

2) فازيلييف vasiliev العرب والروم ـ ص 113 - 156

3) هو ابو عبد الرحمان عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب

4) البلوي ـ سيرة احمد بن طولون ـ ص 64 ـ 65

شلا يوظف عليه مكس معين فاذا انتقل الى بلاد الاسلام ومر من اقليم الى آخر وظفت عليه مكوس اخرى وهكذا الى ان يتضاعف ثمنه احيانا (1) وقد ترتفع نسبة المكس الواحد في ناحية من نواحي البلاد الاسلامية وتنخفض في اخرى بالرغم من وجود تشريع اسلامي ينص على العشر بالنسبة لعملية التوريد التجارية . وقد تحدث المقدسي عن ارتفاع في المكوس الموظفة على الرقيق التركي بحافة جيحون حيث لا يعبر الغلام الا بجواز من السلطان مع مكس من سبعين الى مائة درهم وتعبر الجارية بعشرين وثلاثين درهم (2) اما باقليم السند فيؤخذ على الرأس اثنا عشر درهما ويؤخذ بجدة دينار على الرأس من الرقيق (3) وتدل قائمة جباية الدولة العباسية التي ضبطها الوزير علي بن عيسى وزير المقتدر (295 -320هـ/ 908-932م) سنة (306هـ/ 918- م) على قيمة الاعشار الموظفة على التجارة الخارجية بما في ذلك عملية جلب

---

1) كلود كاهان - الشعوب الاسلامية - ص 339 - 344

2) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 340

3) المصدر نفسه ص 104 - وص 485

الرقيق (1) وهكذا كانت الاسعار تتأثر طبعا بهذه العوامل الجبائية ارتفاعا وانخفاضا .

ج-تأثير مستوى المعيشة

وكانت ظروف غلاء المعيشة ببعض الدول الاسلامية تنعكس على اثمان الرقيق كما تنعكس على غيرها من اسعار المواد التجارية الاخرى . ففي مثل هذه الظروف التي يتعذر فيها القوت احيانا على ابناء الطبقة المتوسطة مثلما حدث ذلك في ظل الدولة البويهية خلال القرن الرابع للهجرة (2) وخاصة في عهد الملك صمصام الدولة (372 - 376هـ/ 982 - 986م) (3) لا يمكن ان تكون اسعار الرقيق منخفضة او في متناول متوسطي الحال من ابناء المجتمع .

ع) المؤثرات الاجتماعية

وللاوضاع الاجتماعية تأثير في اسعار الرقيق لا يقل اهمية عن تأثير العوامل الاقتصادية التي كنا بصدد

1) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 2ص 114
2) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - 226- 236
3) التوحيدي- الامتاع المؤانسة ج ٤ ص ٢٤ - ٢٦

ذكرها. ويتضح ذلك فيما نلاحظه مثلا من انخفاض سعر العبد او الجارية لأسباب اخلاقية كشهرتهما بالسرقة او العصيان او الزنا. وقد كان الانحراف الخلقي سببا في كساد هذه البضاعة في غالب الاحيان. وقد روي عن الرسول انه نصح ببيع الامة الزانية ولو بظفير كناية عن انخفاض قيمتها (1) وهذا ما دعا التجار والشراة الى التثبت من سلامة خلق الرقيق الى جانب التأكد من سلامته الجسدية، ومما جعل رجال الحسبة يتتبعون الدلائل والسمات والملامح التي تشير الى المستوى الخلقي في العبد او الامة والى التعرف على مزاج الرقيق من خلال ما يبدو عليه من مظاهر وعلامات الخير او الشر (2).

ولهذه الاعتبارات كانت الجواري الافرنجيات والصقلبيات وغيرهن من جميلات الجواري اللائي لم يعرفن بعد شيئا من لغة من يشتريهن ابهض ثمنا من سائر الجواري البيض لان في ذلك ضمانا لسلامتهن من مخالطة الناس ولحداثة عهدهن بالمشتري وقد روى لنا السقطي كيف اشترى احد سكان البيرة بالاندلس

---

1) البخاري – صحيح – ج 3 ص 298. 299

2) ابن بطلان – الرسالة ص 366 – 367

جارية رومية مسيحية بذل فيها ثمنا مرتفعا و تسلمها من البائع على انها تجهل اللسان العربي فلما انصرف بها اكتشف حيلة بائعها اذ سمعها تخاطب بعض المارة بكلام خليع وبلسان عربي فندم وباعها بالمرية (1) .

وقد كان هنالك في الجملة عزوف عن شراء جارية غير عفيفة او عبد فاسق صيانة للعرض وحفاظا على سلامة الاسرة ومما يروى في هذا المجال ان احدهم ((اراد ان يشتري قينة وقد كان احبها فبات عند مولاها ليلة فامكنته من نفسها وكان الامتناع منه فانشأ يقول :

ما راينا بواسط كسليمى	منظرا لوتزينه بعفاف
بت في جنبها وبات فجيمي	جنب القلب طاهر الاطراف
فأقيمي مقامنا ثم بيني	لست عندي من فتية الاشراف))(2)

الا انه اذا كان من الطبيعي ان يقع التحري بخصوص الرقيق المتخذ للاسرة من آفة الانحراف الخلقي فاننا لا نظن ان الاوساط التي كانت تتخذ الرقيق للبغاء والتمعش منه والمتاجرة بعرضه

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية- ج 3 ص 314 — 317

2) ابن القيم الجوزية — اخبار النساء — ص 12

في هذا العصر تتوخى مثل هذا التحري في اقتناء هذا النوع من الرقيق بل المفروض ان يكون رائجا لديها ومرغوبا فيه ومن المتوقع ايضا ان يؤثر هذا الرواج في اثمانه بالارتفاع.

ومن الظروف الاجتماعية الشاذة التي تؤثر في اسعار الرقيق الاضطربات الاجتماعية والثورات وغيرها من الظروف الحرجة ففي ثورة الزنج بالعراق كان الحرائر من القرشيات والهاشميات يسبين ويباع الواحدة منهن بالدرهمين والثلاثة (1) بأسواق العراق . وكانت بعض الثورات بالمغرب وافريقية فرصة لبيع مجموعات من السبي بأثمان زهيدة مثلما حدث في عهد سحنون ابان ثورة تونس (2) ويروي ابن حوقل ان زعماء صنهاجة كانوا يشنون حملات تاديبية على البدو والمحيطين بمدينة قابس ليردوا هجوماتهم على هذه المدينة فكانوا يأسرونهم ويبيعون العشرة بثوب واحد (3) وكانت الانتفاضات

---

1) المسعودي - مروج الذهب ج 8ص60 ـ 61

2) المالكي ـ رياض النفوس ج 1 ص 280

3) ابن حوقل ـ صورة الارض الترجمة الفرنسية ج 1ص67

التي شهدتها منطقة النوبة مناسبة لبيع رئيس النوبة والبجة سنة (238هـ/852م) ببضعة دنانير في اسواق بغداد .(1)

3) العوامل الخاصة بالبضاعة

أ- الاعتبار العرقي

ولجنس الرقيق اعتبار في تحديد ثمنه وكقاعدة عامة يمكن ان نقول ان الرقيق الابيض اغلى ثمنا من الرقيق الاسود (2) فالبيض هم ارستقراطيو العبيد واغلاهم سعرا الاتراك والصقالبة (3) وقد كان يرد على بلاد الاسلام رقيق تركي من خراسان غال جدا وربما بيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار (4) ويرى ابن حوقل ان الرقيق

---

1) المصدر نفسه ج 1 ص

2) برنشفيك Brunschwig دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد ج 1 ص33

3) آدم متز A-MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 301

4) زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص39

التركي المجلوب الى خراسان ليس في انواع الرقيق ما يضاهيه في الثمن والجمال وانه وان العبد منه يباع بخراسان بثلاثة آلاف دينار ويضيف نفس المؤلف انه لم يسمع قط بهذا الثمن الا بالنسبة الى الرقيق الماهر في صنعة الغناء . وهكذا نراه يعتبر الاتراك المجلوبين من البلاد المحيطة باقليم ما وراء النهر من اغلى انواع الرقيق (1)

وكذلك كان شأن الرقيق الصقلبي والافرنجي والبربري (2) ويبدو ان الرقيق الصقلبي قد لاقى من الرواج بالاسواق الاسلامية ما جعله اكثر امتيازا في بعض الظروف من سائر اجناس الرقيق الابيض واصبح نموذجا للجيد من الرقيق وبذلك تجاوزت اثمانه اثمان الرقيق التركي وهذا الخوارزمي يقول في القرن الرابع للهجرة ان التركي يستخدم ضد غيبة الصقلبي (3) . وقد نشأ من اختلاط اجناس الرقيق ببعضها .....

1) ابن حوقل – صورة الارض – الترجمة الفرنسية ج 2 ص 433 و ص 447
2) بروفنسال Provençal – تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314 – 317
3) آدم متز A.MEZ – الحضارة الاسلامية ج – 2 – ص – 301 –

بعضا وغيرها من اجناس فئات الاحرار بالمجتمع الاسلامي نوع من الرقيق يدعى ((خلاسيا)) (1) او ((معلهجا)) او ((مذرعا)) (2) وهو يقابل - Métisse باللغة الفرنسية. وكانت اثمانه مرتفعة ايضا لانه من قبيل الرقيق الجيد في نظر اهل العصر ولاشك في ان لهذا الاختيار صلة بلون الرقيق وقامته وخصائصه الجسدية وكونه طويلا او قصيرا او ((خماسيا)) كما يقال (3).

ولم يكن ارتفاع اسعار الرقيق الابيض بالقياس الى اثمان الرقيق الاسود امر قائما على اعتبارات عنصرية، وانما هي ظاهرة عامة ترجع الى اعتبارات جمالية خاصة، وكذلك الى تفضيل استعمال السود في القيام بالخدمات العائلية او الاجتماعية والاقتصادية في الغالب ومن الدلائل على عدم وجود هذا الاعتبار العنصري ارتفاع اثمان الرقيق الاسود الجميل مثلما كان شأن السودانيات اللائي اتخذن للتسري بالاندلس وبلغت اثمانهن مبالغ لا تقل اهمية

---

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت ج 20 ص 286-287

2) الجاحظ - فخر السودان على البيضان - الرسائل ج 1 ص 210. راجع أيضا: مناقب الترك - الرسائل - ج 1 ص 10

3) ابن القيم الجوزية - اخبار النساء ص 15

قيمة الجواري البيض (1) كما كان الخصيان السود من الرقيق النفيس الذي يقتنى باثمان مرتفعة . وقد يبلغ العبد الاسود لخصاله وكفاءته قيمة مرتفعة ايضا. وقد روي ان الصاحب بن عباد كان يشتري العبد النوبي باربعمائة دينار (2) وسنوضح فيما يلي الاعتبارات الاساسية التي لعبت دورا كبيرا في ارتفاع اسعار الرقيق وهي اعتبارات لا علاقة لها بالنظرة العنصرية .

ب- عامل الجمال

وتختلف اثمان الرقيق باختلاف حظه من الوسامة والجمال ويعتبر في هاته الحال من الرقيق النفيس المقتنى من اجل المتعة والترف والزينة خصوصا اذا كان من الرقيق المؤنث الصغير السن(3) وتقدر قيمة الجارية او الغلام من هذا النوع بمبالغ مالية باهضة في الغالب لان هذا النوع من الرقيق يعتبر ارستقراطيا بالقياس الى غيره اذ يقبل على شرائه الوجهاء ورجال الدولة والخاصة من الاغنياء

1) بروفنسال- Provençal- تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314 - 317

2) آدم متز - A-MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 297

3) برنشفيك- Brunschvic- دائرة المعارف الاسلامية- مقال عبد ج 1 ص 33

ويبذلون فيه الاموال الطائلة ليرفهوا به من انفسهم وليجعلوا منه جزءا من مباهج حياتهم المترفة التي يعيشونها .

وكان التجار يفصلون في الاسواق بين المرتفعات من الجواري ووخش الرقيق لاختلاف النوعين في القيمة باختلافهما في الجمال الجسدي (1) واذا كانت الجارية المرتفعة صغيرة السن وكذلك الغلام ارتفع ثمنهما ايضا (2) وتعتبر الجارية البكر اثمن من الثيب فاذا اشترى احدهم بكرا وافتضها ثم طالب بردها على البائع لعيب فيها كان عليه ان يدفع ((الارش)) تعويضا لبكارتها لان الوطء ينقص من ثمنها (3) ولا يخفى ما لقيمة البكارة من علاقة بعقلية المسلمين وتاريخهم العقائدي وتقاليد حضارتهم اذ يروى عن الخليفة عمر رضي الله عنه قوله ((عليكم بالابكار الشواب فانهن اطيب افواها وانتق ارحاما)) (4) وتنخفض في مقابل ذلك قيمة الامة الحامل لان الحبل يمنع الوطء ويخشى منه التلف (5)

---

1) بروفنسال Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314 - 317

2) المرجع نفسه - ج 3 ص 208 - 214

3) ابن قدامة - المغني ج 4 ص 146 - 148

4) الجاحظ - مفاخرة الجواري والغلمان - الرسائل ج 2 ص 105

5) ابن قدامة - المغني ج 4 - ص 149

وقد ساهم ازدهار فنون التزيق والتبرج في تحسين مظهر هذا النوع من الرقيق ولاسيما المؤنث منه مما زاد في ارتفاع اثمانه. وتنوعت فنون التجميل وتطورت استجابة لمتطلبات ظاهرة الظرف التي تفشت في اوساط اهل الرخاء من الخاصة . فبرع الجواري في طم الشعر وقص الذوابة ومد الوفرة حول الاذن والعقرب على الجبين ووضع العصابة المزركشة على الرأس وتدقيق الحاجب واحداث البلج بينهما وهي كلها فنون تزيد في قيمة الجارية عند الشراء (1)

ولهذه الاسباب كلها ارتفع ثمن الجارية الجميلة فمنذ العصر الاموي اشتهرت ((الذلفاء)) جارية سعيد بن عبد الملك بغلاء ثمنها اذ اشتراها سعيد بالف درهم (2) وقد بلغت هذا الحد من القيمة بفائق جمالها الذي وصفه ابو زيد الاسدي لسليمان بن عبد الملك (96 - 98 هـ/ 715 - 717 م) كما يلي :

((كنت جالسا على باب اخيك سعيد بن عبد الملك واذا جارية قد خرجت الى باب القصر عليها قميص اسكندراني يبين منه بياض ثديها وتد وير سرتها ونقش تكتها وفي رجليها نعلان قد اشرق بياض

---

1) كمال مصطفى - مقدمة تحقيق كتاب الموشى - ص ك.ل.م

2) الاتليدي - اعلام الناس - طبعة مصر 1318 هـ 35 - ابن القيم الجوزية - اخبار النساء ص 83 - 88 - زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 2 ص 26

قد ميها على حمرة نعليها ولها ذؤابة تضرب الى حقويها وتسهل كالعثاكيل على منكبيها وطرة قد اسبلت على جبينها ولها صدغان كانهما نونان على وجنتيها وحاجبان قد تقوسا على محجري عينيها وعينان مطوّتان سحرا وانف كأنه قصبة در"))(1) ويروى ان سعيدا كان اول من بذل مثل هذا المقدار في ثمن جارية وهو يبلغ حوالى سبعين الف دينار (2).

ومن هذا القبيل ما يروى من أن الرشيد (170-193هـ / 786-790م) امر وزيره يحي بن خالد بدفع مائة الف دينار في جارية فاستكثر يحيي المال واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد واراد يحيي ان يبين له مقدار ما يحطه بيت المال من هذا الاسراف فجعل ذلك المال دراهم فبلغت حوالي الف الف وخمسمائة درهم 1.500.000 فلما راى الرشيد ذلك المال استكثره وادرك اسرافه (3) كما اشترى جارية من ابراهيم الموصلي بمبلغ ستة وثلاثين الف 36.000 دينار فباتت عنده ليلة ثم ارسلها الى الفضل (4) وطلب

1) ابن القيم الجوزية - اخبار النساء - ص83 - 88

2) الابشيهي - المستطرف ج 2 ص132

3) الطبري - تاريخ الامم والملوك - طبعة ليدن 1885 م (في 11 جزءا) ج 2 ص1338

4) المصدر نفسه - زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص119 - 120

محمد الامين (١٩٣ - ١٩٨ هـ/٧٩٠-٨١٣ م) من جعفر بن الهادي ان يبيعه الجارية ((بذل)) فابى فامر فاوقرا قاربه ذهبا فبلغت قيمة ذلك عشرين الف درهم 20.000.000 اي اكثر من مليون دينار واذا صح هذا الخبر كان اعظم ما وصلت اليه اثمان الجواري (1)

وقد واصل الخواص دفع مثل هذه المبالغ الخيالية في شراء الجواري الفائقات الجمال فقد بالغ الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ/٨٤٢-٨٤٧ م) في ثمن جارية فماطل وزيره ابن الزيات في دفع الثمن لاستكثاره اياه فقرر الخليفة مضاعفة المقدار (2) وقد عجز المعتمد (٢٥٦-٢٧٩ هـ/٨٧٠-٨٩٢ م) عن شراء الجارية ((شرة)) فاشترتها له ام المعتز بعشرة آلاف دينار واهدتها اليه (3) واشترى المعتصم في خلافة المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ/ ٨١٣-٨٣٣ م) جارية بخمسة آلاف دينار (4) وكثيرة هي الاخبار التي تروي لنا

---

1) ابن عبد ربه - العقد الفريد - طبعة مصر 1305 هـ ج 3 ص 43 - الاصفهاني - الاغاني - طبعة بولاق 1285 هـ/ ج 15 ص 145 زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 119 - 120

2) ابن الاثير - الكامل - طبعة مصر 1302 هـ (في 12 جزءا) ج 7 ص 13

3) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 (في 25 جزءا) ج 15 ص 327

4) المصدر نفسه - ج 20 ص 212 - 213

ما ينفقه رجال الدولة في القرنين الثالث والرابع للهجرة من مبالغ مالية كبيرة في سبيل شراء الجواري الجميلات.

ولكنه بالرغم من كثرة الروايات التي تذكر لنا هذه الاثمان الباهضة لا يمكننا الا ان نعتبرها من قبيل الاسعار والشاذة التي لا يقدر على دفعها الا الامراء وكبار التجار والوجهاء من رجال الدولة ، والتى لا تبذل عادة الا في ظروف معينة ولأسباب ذاتية وعاطفية احيانا كما تختص في الغالب بشهيرات الجواري اللائي يعتبرن ضرب المثل في الحسن فهن أشبه بملكات الجمال او ما يسمى بالكواكب ، ونجوم الحسن بلغة اليوم وذلك فضلا على عدم سلامة الروايات من المبالغات لابراز ظاهرة الشراء أو النعيم والترف أو ظاهرة التبذير والاسراف.

الا اننا لا نشك في أن ثمن الجارية الجميلة أرفع بكثير من ثمن العادية ولكنه في نظرنا قلّما يصل الى تلك الحدود التي اشرنا اليها سابقا ولدينا بعض الامثلة التي تشير باكثر واقعية الى ثمن الجارية الجميلة خلال هذا العصر وهو ثمن يقدر عليه اصحاب الطبقة المتوسطة من المجتمع كما يقدر عليه الاثرياء اذ لم تكن ظاهرة التسري والتمتع بالاماء مقصورة على حياة القصور والبلاطات والارجح ان معدل سعر الجارية

الجميلة قد كان يتراوح بين بضع شات من الدنانير و بضعة آلاف وإليك بعض هذه الامثلة :

ففي سنة (300 هـ / 912 - م) بيعت جارية ((جميلة حلواء)) بمائة وخمسين 150 دينارا (1) وقد شغف المعتز بالله (252 - 255 هـ / 866 - 869 م) سنة (296 هـ / 909 - م) بجارية جميلة بيعت بسبعة آلاف 7000 درهم (2) ويقول الاصطخري ان ثمن الجارية الجميلة في عصره يبلغ الف دينار واكثر (3) وقد طلبت جارية للخوارزمي بعشرة آلاف درهم فلم يجد بها (4) واخذت جارية الجهشياري منه لقاء غرامة قدرت سنة (366 هـ / 976 - م) بخمسة عشر الف دينار (5) وبيعت جارية جميلة حوالي سنة (300 هـ / 912 - م) بخمسة آلاف دينار بالرغم من ان اقدامها كانت كبيرة (6) ويذكر لنا الادريسي ان ثمن الجارية النوبية الجميلة يبلغ ثمنها ثلاثمائة دينار (7).

---

1) آدم متز A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 297
2) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226 - 228
3) آدم متز A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 298
4) المرجع نفسه
5) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226 - 228
6) المرجع نفسه
7) الادريسي - نزهة المشتاق - ترجمة القسم الخاص بالمغرب واسبانيا - لدوزي - Dozy - ودي غويه - De Goeje
ليد Leyde 1864 - 1866 ص 29

فهذه الامثلة من اسعار الجواري الجميلات سواء أكن من البيض والسود لان المسلمين يرون الجمال في النوعين معا (1) تدل على ارتفاع في الثمن بدون شك ولكنه دون مايدفعه الخلفاء والامراء واصحاب الثراء الفاحش وتدل في الوقت نفسه على ارتفاع في قيمة هذا الصنف من الجواري وكان الغلمان الذين يقتنون للمتعة لجمالهم يظاهون الجواري في اثمانهم.فقد روى الجاحظ ان الغلام الوسيم يشتري بالمال العظيم (2) وان الاقبال على التلذذ بالغلمان قد فاق في بعض الفترات الولع بالجواري فغلت اثمانهم وتجاوزت احيانا اثمان الاماء الجميلات حتى اعتبر بعض شعراء العصر ان التمتع بالجارية دليل على قلة المال وان الغني من قدر على اقتناء الغلام يقول :

((ليس لي في الحر حاجة نيكه عندي سماجة))
ما ينيك الحر الا كل ذي فقر وحاجة
فاذا نكتم فنيكوا امردا في لون عاجة))(3)

ولدينا بعض الامثلة على اسعار هؤلاء الغلمان في صورتها الباهضة فمن ذلك مايروى من ان ابا احمد بن الرشيد قد اشترى في عصر

---

1) بروفنسال Provençal ـ تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3ص177 179

2) الجاحظ ـ مفاخرة الجواري والغلمان ـ الرسائل ج 2ص105

3) المصدر نفسه ج 2ص 111 ـ 112

الخليفة المأمون العباسي (198-218هـ/ 813-833م) غلاما يدعى ((فائزا)) بثلاثمائة الف درهم فغضب المأمون وارتجع منه نصف المال واراد ان يسترد اكثر من ذلك فوجده قد انفقه فحجر عليه التصرف في ماله طيلة مدة خلافته وكان ذلك المال مردودا الى مخلد بن ابان (1) وتورد المصادر اخبار غلمان وقع شراؤهم ببضعة مئات من الدنانير واحيانا ببضعة آلاف (2) واذا ما اعتبرنا ما في هذه الامثلة المروية من مبالغات وشذوذ امكننا ان نعرف ان معدل سعر الغلام الجميل كان قريبا من معدل سعر الجارية الوسيمة .

ومن الرقيق النفيس بسبب اتخاذه لغرض المتعة الخصيان الذين يقتنيهم الخاصة من الناس لما يتصفون به من جمال او لحراسة الحريم وسواء أتعلق الامر بهذه المهمة او تلك فالغاية هي توفير اللذة لاهل الترف والبذخ وقد يتطور امرهم بعد ذلك فيستأمنون على مهام عسكرية او سياسية في الدولة.وقد وصف الجاحظ جمال الخصيان المحبب الى النفوس في عهده فقال ((وذكرت

1) الاصفهاني ــ الاغاني ــ طبعة بيروت
(في 25 جزءا) 1964 ــ ج
2) المصدر نفسه ج 23ص 31 وج 20 ص113

الخصيان وحسن قدودهم ونعمة ابشارهم والتلذذ بهم وان ذلك شيء لا تعرفه الاوائل)) وقال ايضا ((لانك ترى الخصي وكأن السيوف تلمع في وجهه وكأنه مرآة صينية وكأنه قضيب فضة قد مسه ذهب وكأن في وجناته الورد)) (1) وكانت هذه الوسامة سببا في ارتفاع اثمان الخصيان كما كانت صعوبة اجراء عملية الخصاء وندرة نجاحها سببا ثانيا في ارتفاع هذه الاثمان . وقد اعتبر الثمن الذي اشتري به الخصي* كافور الاخشيدي سنة (312 هـ / 924 م) وهو ثمانية عشر دينارا ثمنا منخفضا بالنسبة الى اثمان الخصيان الشائعة في ذلك العصر وخاصة ذوي الجمال منهم (2) وفي الجملة كان ثمن الخصي في العالم الاسلامي اضعاف ثمن العبد العادي شأنه في ذلك شأن ثمن الخصي في بيزنطة حيث كان يقدر باربعة اضعاف ثمن العبد العادي (3) وقد اعتبر الفقهاء قيمة الخصي في احكامهم المتعلقة بغصب الرقيق نرأيا ان الغاصب لعبد اذا ما خصاه بعد غصبه ولم يؤثر الخصاء

---

1) الجاحظ - مفاخرة الجواري والغلمان - الرسائل ج 2 ص 123
2) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج - 1 - ص 297
3) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 2 ص 122 - 130

في صحته لم يعتبر ذلك عيبا في المغصوب ولم يطالب الغاصب به عند ارجاعه الى مالكه وهذا شعور منهم بان الخصاء يزيد في قيمة الرقيق ولا ينقص منها (1).

ج-عامل الاختصاص

واذا ما كانت صفة الجمال عاملا من عوامل ارتفاع اثمان الرقيق فان مستوى الرقيق الثقافي او المهني او الفني يعتبر عاملا آخر في ارتفاع هذه الاثمان (2) وبما ان اصناف المهن والفنون والمعارف ليست ذات قيمة واحدة بالنسبة الى المجتمعات المختلفة بل تختلف باختلاف حاجتها اليها ورواجها فيها كانت قيمة الرقيق تتفاوت حسب نوع المهنة او الفن الذي يختص فيه. ومن ابلغ الصور على هذا التفاوت ما رواه الاصفهاني من تقدير ايمن ابن خريم لقيمة نصيب الشاعر بحضور الامير عبد العزيز بن مروان وهي صورة تفيدنا من حيث وجود هذا التفاوت في شتى العصور ولا عبرة بالاسعار المذكورة فيها من حيث هي لانها مستمدة من فترة زمانية سابقة لهذا العصر.

وقد جاء في كتاب الاغاني ان ثمن العبد يختلف باختلاف صناعته فالعبد الذي لاصناعة له يساوي مائة دينار فاذا كان راعيا للابل يحسن

1) خليل بن اسحق - المختصر - ص264

2) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية

مقال عبد ج 1 ص 33 موريس لومبار - الاسلام في عظمته الاولى

ص194 - 204

الغيام عليهـا تعـدر رفيمته بما ئتي دينار فاذا كـان عارفا بصناعـة النبـال والقسي بيـاع بأربعمائة دينـار فاذا كان يحسن روايـة الشعـر صارت قيمتـه ستمائـة دينـار (1) .

وقد لاحظ الاصطخري ان ثمن العبـد المختص في صناعـة ما قـد كـان مرتفعـا في عصـره (2) كمـا يـلاحظ البكـري ان الطباخـات السودانيات الماهـرات تباع الواحدة منهن بمائـة مثقال من الذهب واكثـر (3) ولا غـرو في ذلك فاليـد العاملة المختصـة هي الى اليوم ارفع ثمنـا من اليـد العاملة غيـر المختصـة .وطبيعي ان يكـون الرقيـق الحاذق لحرفة من الحرف اغلى سعـرا من غيـره لانـه اكثـر مردودا او انتاجـا واقدر على توفير الربح لمالكيـه في المجال الاقتصادي وعلى توفير الراحـة والمتعـة لهـم في مجـال حياتهـم الخاصـة.ومن الصناعـات التي ترفـع من مكانة هذا الرقيق روايته للشعـر واجادتـه للغناء . ولذلك نجـد الغلام ((زيـاد)) يبـاع في القـرن الثالثة للهجـرة بعشـرين دينارا أو نحـوهـا (4) بينمـا يشتري ابـو سعيـد الثغري لابي تمـام الطائـي الشاعر المشهور غـلامـا يدعى ((الفتح)) بثلاثمائة دينار لينشد شعره (5) وتسوق لنا المصادر امثلـة كثيرة تدل على ان الرقيق المولـد ،اي الذي تلقى تربيـة وتكوينـا ملائمـا للـوسط العربي الاسـلامـي وتثقـف بثقـافة ذلـك

1) الاصفهاني _ الاغاني _ طبعة بولاق 1285هـ في(20 جزءا) ج 1ص133 زيدان-تاريخ التمدن الاسلامي ج 5ص44 46
2) الاصطخري _ المسالك والممالك ص37 نجاة باشا-التجارة في المغرب الاسلامي ص114_115
3) البكري _ المغرب ص158
4) الاصفهاني _ الاغاني _ طبعة 1964 ج 20 ص286_287
5) المصدر نفسه ج 20 ص113

الوسط وتخلق باخلاقه احب الى نفوس الناس من الرقيق الذي احتفظ بعجمته وعاداته وتقاليده الاجنبية وكان بالتالي ارفع قيمة واغلى ثمنا .

واذا ما اجتمع الحذق في صنعة الغناء والجمال الفائق في شخص جارية او غلام تضاعف الثمن وازدادت القيمة ارتفاعا خصوصا اذا علمنا ان الغناء كان يعتبر في هذا العصر من انفس الصنائع وارقاها لما فيه من معرفة بالشعر والالحان وجودة الصوت ولما عرف به المجتمع العربي المسلم من تفضيل للفنون والعلوم على سائر الصنائع (1) ومن تهافت في هذا العصر على مواد الترف وادواته . وبذلك صارت اثمان القيان ارفع اثمان الرقيق المؤنث بدون استثناء لان الجارية المولدة اثمن من الجليبة (2) ولان القينة تجمع عادة بين جمال الجسد وجمال الصوت فضلا عن ثقافتها في ميدان الشعر والادب والغناء .

ويمكننا ان نقدم صورة وجيزة عن اثمان هؤلاء القيان الشهيرات او ((الكواكب)) بلغة اليوم مشيرين الى ان مقتنيهن كانوا في الغالب من الخلفاء

---

1) بن خلدون ـ المقدمة ـ طبعة بيروت ص 430

2) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 29

والامراء والوزراء وكبار الاثرياء من التجار والى ان هذه الاثمان لا يمكن ان تكون عامة بالنسبة الى كل القيان . فمما يروى في هذا الصدد ان الخليفة الواثق (227-232هـ/ 842-847م) اشترى الجارية المغنية ((قلم الصالحية)) من كاتبه صالح بن الرشيد بعشرة الاف دينار (1) وطلب الخليفة المعتصم العباسي (218- 227 هـ/ 833-842م) من محمود الوراق احد كبار النخاسين ان يبيعه قينة بسبعة آلاف دينار فامتنع (2) ودفع اسحق بن ايوب في ((بدعة)) مائة الف دينار فرفضت مولاتها بيعها (3) واشترى ابن رائق امير العراق قينة سنة (325هـ/ 937م) بثلاثة عشر الف دينار واعطى الفا لمن دله عليها حسب رواية ابن الجوزي. اما الصولي فيقدر السعر باربعة عشر الف دينار فاستعظم الناس ذلك (4) واشترى المأمون (198-218هـ/ 813-833م) ((عريب المغنية)) بخمسة الاف دينار (5) وعرضت على هذا الخليفة نفسه قينة ساومه النخاس في ثمنها

---

1) الاصفهاني-الاغاني-طبعة بيروت 1964 ج 13 ص348 زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج5 ص119 120

2) الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد-طبعة القاهرة -1931 ج 13 ص88

3) السيوطي – المستظرف في اخبار الجواري - طبعة القاهرة - بدون تاريخ ص 13

4) ابن الجوزي – المنتظم – ج 6 ص391 آدم متز الحضارة الاسلامية- ج 1-ص 298

5) النويري – نهاية الارب ج 5 ص64 – الاصفهاني الاغاني – طبعة بيروت 1964 ج 21 ص 75

بالفي دينار فقال المأمون : ان هي اجازت بيتا اقوله بيبيت من عندها اشتريتها بما تقول (1) وروي ان صالح بن الرشيد اشترى ((نهران)) من احد النخاسين بثلاثة الاف دينار (2) وكثيرة هي القيان اللائي وقع شراؤهن بمبالغ باهضة مثل ((حبشية جارية عون)) التي يقول عنها الجاحظ انها بلغت من الثمن مائة وعشرين الف دينار (3) كما بلغت قيمة احدى الجواري المغنيات سنة (300 هـ/ -912- م) مبلغ ثلاثين الف درهم وبلغت قيمة قينة اخرى سنة (330 هـ/ -941- م) مبلغ سبعة آلاف درهم (4) .

وما من ريب في ان هذه الامثلة بقطع النظر عن صحة المبالغ المروية تصور لنا ارتفاع اثمان القيان في هذا العصر حتى ان بعضهم مثل صالح بن عبد الوهاب قد اشترى ضيعة بثمن جاريته قلم الصالحية (5) ومهما يكن من امر فان الف دينار والفي دينار تعتبر سعرا عاديا بالنسبة الى الجارية المغنية (6) وهو سعر

---

1) السيوطي - تاريخ الخلفاء - طبعة القاهرة - بدون تاريخ ص 323

2) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ح 20 ص 28 و 29

3) الجاحظ كتاب القيان الرسائل ح 2 ص 177 . 178

4) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226 - 228

5) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ح 13 ص 349 . 350

6) آدم متز A MEZ - الحضارة الاسلامية ح - 1 - ص 298

يساوي اضعاف ثمن الجارية غير المتعلمة فقد تشترى الجارية بمائة دينار فاذا تعلمت وحذقت فن الغناء بيعت بخمسمائة او الف او الفي دينار او اكثر من ذلك احيانا (1) وفي ذلك بيان للفرق بين اثمان سائر الجواري واثمان القيان . وقد كان كذلك الشأن بالنسبة الى قيمة الجواري المغنيات في غير هذا العصر من العصور الموالية فهذا ابن بطوطة يصف لنا شراء اهل ((تاكدة)) ببلاد السودان وكثرة رقيقهم ويقول انه من النادر ان نجد منهم من يبيع رقيقا مثقفا واذا حدث ذلك فباثمان باهضة جدا (2).

4) معدل اثمان الرقيق

لكن اسعار الرقيق الممتاز لا تقدم لنا صورة شاملة عن اسعار الرقيق في هذا العصر وخاصة الرقيق العادي المستعمل في الخدمات المنزلية والفلاحية والتجارية وفي شتى انواع الصنائع وكذلك الرقيق المستعمل في الخدمات

---

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بولاق 1285 هـ ج 3 ص 154 زيدان - التمدن الاسلامي - ح 5 ص 30 ابن القيم الجوزية - اخبار النساء - ص 113-114

2) ابن بطوطة - الرحلة ج 4 ص 439 - 440 كوك Cuoq منتخبات ص 324 - 378

2) Sanguinetti et Defrémery - Voyages d'Ibn Batoutah Paris 1859-1869 (4 Volumes)

- Ismaël-Hamet - Chronique Mauritanie sénégalaise - P 40

العسكرية . ولا يخفى اهمية هذا النوع من حيث الكم اذا كان للنوع الاول اهمية من حيث الكيف والواقع ان اسعار الرقيق النفيس تعتبر اسعارا شاذة بالنسبة الى سعر الرقيق العادي (1) وهي فضلا عن ذلك ليست في متناول كافة طبقات المجتمع . كما ان انخفاض اسعار بعض الرقيق في حالات خاصة وظروف استثنائية يعتبر ظاهرة شاذة ايضا لا يمكن الاستناد اليها لمعرفة السعر العادي لهذه البضاعة المتداولة بين الناس .

وفي هذا ما يدعونا الى التساؤل عن ثمن العبد العادي او الامة بقطع النظر عن الاختلافات التي اشرنا اليها سابقا بين اصناف الرقيق ودون اعتبار ايضا للحالات الاستثنائية وتنوع الاسواق في البلاد الاسلامية . والملاحظ ان هذا الثمن لم يكن يختلف في اغلب الاحيان عن ثمن بعض الدواب كالبغال مثلا فبأسواق عمان كان يدفع في العبد الزنجي ما بين خمسة وعشرين وثلاثين دينارا وهو نفس السعر المستعمل ببيزنطة في هذا العصر (2) وقد راينا سابقا ان الصاحب بن عباد لما دفع

1) موريس لومبار - M. Lombard
الاسلام في عظمته الاولى ص194 ــ 204 ــ برنشفيك Brunschvig
دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد ج1 ص 33
2) آدم متز A MEZ - الحضارة الاسلامية ج1 ص 297

في عبد نوبي اربعمائة دينار استكثر الناس ذلك (1) وقد بيع كافور الاخشيدي بثمانية عشر دينارا سنة (312 هـ/ -924- م) بالرغم من كونه خصيا كما راينا (2) وقد بيعت جارية سندية حبلى خلال القرن الثالث للهجرة بعشرين دينارا فلما اراد والد الجنين ان يشتري ابنه بعد ان زنا بالامة طلب قوم الامة في الولد خمسين دينارا (3) وروي عن اسحق الموصلي انه اشترى غلامه الخلاسي ((زياد)) بعشرين دينارا او نحوها (4)

ونحن نظفر بامثلة عديدة حول الاسعار المتداولة للرقيق العادي في هذا العصر وهي اسعار متقاربة في الجملة وتمثل بضعة عشرات من الدنانير. ففي سنة (282 هـ/ -896- م) تورد المصادر اخبار غلام بيع ببغداد بثلاثين دينارا (5) وعرضت

1) المرجع نفسه
2) المرجع نفسه
3) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ج 14 ص 188
4) المصدر نفسه ج 20 ص 236 237
5) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226- 228

جارية ((ساذجة)) للبيع في عهد الامام احمد بن حنبل فكانت قيمتها ثلاثين دينارا (1) وقد يرتفع هذا الثمن العادي لسبب من الاسباب تتعلق بالبضاعة او بمشتريها الى مائة دينار او اكثر من ذلك او اقل ولكن دون ان تصل الى مبالغ باهضة جدا كما راينا في حديثنا عن الرقيق الممتاز ومن هذه الصور ما روي من ان احد تجار مصر في عهد احمد بن طولون (254-270 هـ/ 868- 884 م) قد اشترى غلاما بمائتي دينار (2) وفي الجملة وفي غير هاته الحالة كان الثمن المتعارف للرقيق العادي يتراوح بين ثلاثين وسبعين دينارا أي ما يقابل الدخل الادنى الشهري لصانع من صناع بغداد (3)

فهذه الامثلة يمكن ان تقارن باسعار الدواب في هذا العصر ويكون لها اذاك من الدلالة ما يفيد ان المشتري لعبد او ناقة او بغل او حمار كان يواجه تكاليف متقاربة وانه في كل هذه الاحوال انما يقتني ادوات خدمة او انتاج .....

1) ابن قدامة ـ المغني ـ ج 4 ص 223

2) البلوي ـ سيرة احمد بن طولون ص 213 ـ 221

3) نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ص 114 ـ 115

متشابهة القيمة . فمن اخبار بيع الدواب بالعراق في القرن الرابع للهجرة ان ثمن الناقة كان حوالي ثلاثمائة درهم (1) وقد بيع حمار سنة (329 هـ/ -940 - م) بعشرة دنانير (2) وقد ترتفع اثمان الدواب الجيدة كما يرتفع سعر العبيد الممتازين فابن حوقل يذكر لنا ان البغال الجيدة بميورقة كان يباع الواحد منها بثمن يتراوح بين مائة وخمسمائة دينار (3) وروي ان حصانا اصيلا لبكجور مولى الامير سيف الدولة الحمداني (332- 356هـ/ 944- 967م) قد بيع سنة (381 هـ/ -991- م) بمبلغ الف دينار (4) .

فهذه الامثلة وغيرها من اسعار الدواب في صورة انخفاضها او ارتفاعها يمكن ان تقارن باسعار الرقيق مع اعتبار علاقة الدراهم بالدنانير في قيمتهما المالية المتغيرة (5) ويمكن ان نستنتج منها معدل السعر المتداول بالنسبة الى الصنفين وهو يكاد يكون

---

1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226-228
2) المرجع نفسه
3) ابن حوقل - صورة الارض - الترجمة الفرنسية ج 1 ص 114 بروفنسال .Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 285
4) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226 - 228
5) كان صرف الدينار في النصف الاول من القرن الثالث للهجرة يساوي خمسة عشر درهما (انظر دائرة المعارف الاسلامية مقال - درهم ودينار)

واحدا كما نرجح انه كان في متناول الطبقات المتوسطة من المجتمع خصوصا اذا اطلعنا على اسعار الاقوات والمواد الغذائية في هذا العصر. ففي ايام قدامة بن جعفر مثلا كان ثمن الكر من الحنطة والشعير بالعراق ثلاثين دينارا (1) ويمكننا القول بان دخل ابناء الطبقة المتوسطة يمكنهم من اقتناء الخدم في منازلهم وحقولهم ومتاجرهم و ورشاتهم دون ان يحدث ذلك ضيقا في مستوى عيشهم لكن ابناء الطبقة الضعيفة التي تجد عسرا في اقتناء الاقوات لم يكن بوسعها اتخاذ الخدم من العبيد او الاماء .

---

1) الكر العراقي يساوي اربعين اردبا (انظر زيدان-تاريخ التمدن الاسلامي ج ص 70 - 71)

البـــــــاب السادس

اهـــل الســـوق
الباعـــة والشـــراة

الفصـــــل الاول

النخـاســون

النخاسون

1) النخاسة

النخاسون تسمية اطلقت على تجار الرقيق كما سميت تجارتهم بالنخاسة على وزن فعالة المستعمل للدلالة على الحرف والمهن المختلفة. والاصل في النخاسة حسب ما جاء في لسان العرب تجارة الدواب فيقال لتاجر الدواب نخاسا. ثم شملت التسمية تاجر الرقيق فقيل له نخاسا ايضا وان كان الاغلب في الاستعمال الدلالة على بائع الدواب (1) وواضح ان هذا التطور في مدلول الكلمة راجع الى وجوه الشبه الموجودة بين هذين النوعين من التجارة.

ويحتاج تاجر الرقيق او النخاس الى معرفة بأسرار مهنة النخاسة والى ضرب من التجربة في ممارستها وربما الى اختصاص في بعض المعارف الصالحة للنجاح فيها وهي معارف نشأت عبر العصور من مجموعة من التقاليد والتجارب والعادات ونمت بفضل بعض العلوم ايضا. فمن ذلك ضرورة معرفة النخاس للعلل والامراض التي يمكن ان تصاب بها بضاعته حتى يمكنه الاحتياط لها وحتى يتسنى له تحديد قيمتها في البيع والشراء والتمييز بين الجيد والرديء من الرقيق على الصعيدين النفسي والجسدي (2) كما يحتاج الى معرفة بالاجناس البشرية وقدرة على التمييز بينها وما يرغب فيه الناس منها. وعليه ايضا ان يعلم خصائص الرقيق المهنية ويدرك مستواه في الصناعة او الحرفة التي يتعاطاها حتى يمكنه ضبط ثمنه وتحديد قيمته.

1) ابن منظور ـ لسان العرب ـ

2) ابن الاخوة ـ معالم القربة ـ ص 152. 153

وهكـــذا يتضـح ان مهنـة النخاسـة يشترط فيهـا تكـويـن معيـن لصعـوبـة ممـارستهـا فيحتاج صاحبهـا الى بعض المعارف الطبية والمهنية والى الاخذ بطرف من علم كـان له رواج في تلك العصور هو علم الفراسة الذي يستدل به على احـوال الرقيـق النفسية ويستعان به على معرفـة جنسه وكـذلك علم القيافـة الذي يستخـدم في التعرّف على العلاقات النسبية بين الرقيـق . ولقد تبيّـن لنـا من خـلال الفصـول السابقة انّ النخاسين قد كـانـوا ملمّيـن ببعض المعارف الصيدليـة من خـلال معرفتهـم بانواع العقاقيـر والمساحيـق وطريقـة المـزج بينهـا لكـي يقـع استعمـالهـا في تحميـل الرقيق الذي يعرضونـه بالاسواق وفي علاج العلل او اخفائهـا عن المشترين (1) .

وقـد مهـر النخاسـون في هـذه الفنـون ولكنهـم استعملـوهـا غالبـا كـما راينـا لغايات الغش والتضليـل اكثـر من استعمـالهـا في صالح المشتريـن وهذا مـا حمـل رجال الدين من فقهـاء ومحتسبين على اشتراط صفة الامـانة والثقـة في النخاس ونبّهـوا الى ضـرورة مراقبتـه في مهنتـه (2) وتـدل هـذه العنايـة بسلوك النخاس على انـه كـان محـل "شك" وتهمـة وهـذا مـا يدعـونـا الى الحديث عـن قيمـه النخاس الاجتماعيـة فمـا هي النظرة السائدة في مجتمع هذا العصـر الى شخصيـة النخـــــاس ؟ .

---

1) السقطي ــ آداب الحسبة ــ ص 47 . 51

2) ابن الاخـوة ــ معالم القربة ــ ص 152 الونشريسي.
المعيار ــ ج 8 ص 226 (فتوى ابي عمران الفاسي (ت 430 هـ/ 1033 م))

أ- قيمه النخاس الاجتماعيــة

وقد اشتهر النخاس فــي الاوســاط الاجتماعيــة الاسلاميـــــة سمعــة معينــة وذلك انــه كان موضع تشنيع كتاجر الحبل (1) ومحل ازدراء واحتقــار رغــم الحاجــة الــى خدماتــه ورغــم المكانـــــة التي يحتلهــا فــى المحــال التجاري . وصارت كلمــه " نخاس " تستعمل بمثابــه أحد نعوت الشــتم والثلب . فقــد روي ان محمـــــد ابن الاشعث صاحب شرطــه مصــر شــتم من علــى المنبــر احـــــد القــواد قائــلا " النخاس الكذاب " (2) ويعتــبر الجاحظ النخاسين من شرار الخلق مرجعــا ذلك الــى طبيعــة المهنــة فيقول " وكمــا ان اصحاب الخلقــان (3) والسماكــين والنخاسين والحاكــة فــي كل بلــد من كل جنس شــرار خلق اللــه فى المبايعــة والمعاملــــــة معلمنــا بذلك ان ذلك خلقــة فــى هــذه الصناعــات وبنيــه فــي هــذه التجارات حين صاروا من بيــن جميع الناس كذلك " (4)

---

1) ادم متز . A. MEZ - الحضارة الاسلاميه ج - 1 - ص 302

2) المرجع نفســه - الكندي - الولاة . ص ١٣٤

3) هم باعــه الثياب القديمــه جمع خلق وهو البالي

4) الجاحظ - مناقب الترك - رسائل الجاحظ ج 1 ص 32

ومن اسباب استقرار هذه النظرة ما عرف به النخاسون من انتهاك لحرمة الاخلاق ولتعاليم الدين واستعمالهم لشتى وسائل الخداع والغش في سبيل الاحراز على الثروة. يقول السقطي " فاما هؤلاء فقوم خطبهم جليل وامرهم ليس بالمختصر ولا القليل وذلك انهم يتصرفون بين الانساب والاموال ويأتي مفسدوهم بما لا يقتضي الشرع ولا تقره نفس مؤمن ولا ترتضيه بحال ولهم في شانهم خدع ومكر يعاملون الناس بها ويداخلونهم بحسبها " (1) فالراي العام يوجه اليهم اتهامين على الاقل اولهما التحيل في ممارسة تجارة الرقيق بما يدر عليهم الاموال، حتى ان رجال الدين كانوا ينظرون الى ارباحهم باحتراز كبير بل ان العامة انفسهم ليستقبحونها ويعتبرونها من باب الكسب الحرام. ولعل هذه النظرة لم تكن خاصة بالمسلمين وحدهم ولا مقصورة على هذا العصر الذي ندرسه بل هي نظرة نجدها عند رجال الكنيسة منذ القديم وقد حدثنا البكري عن كنيسة قائمة في عصره على الطريق الرابطة بين مصر وبرقة يقال لها " اباميني " قد رسم على جدرانها

1) السقطي — آداب الحسبة — ص 47 — 50

صورة تاجر الرقيق ورقيقه معه وبيده خريطة مفتوحة الاسفل وهي تعني ان تاجر الرقيق لا ربح له (1) ولهذه الصورة دلالة رمزية وهي لا تعني خسارة النخاس في ميدان التجارة وانما تدل على ان مكاسبه تذهب سدى لانها من أبواب الحرام. واما الاتهام الثاني فهو فساد الخلق بمخالطتهم للرقيق المؤنث وللغلمان مما يجعلهم محل شبه اخلاقية عديدة كممارسة الزنا والفاحشة او التوسط للغير في ممارسة البغاء السري ، وقد راينا في الفصول السابقة كيف كانوا يتواطؤون مع " الامينة " بالاسواق على تجاوز حدود الشرع في البيوعات.

كانت لهذه السمعة اذن صلة بسلوك هؤلاء التجار في واقع معاملاتهم مما دعا رجال الحسبة الى التشدد في مراقبتهم والى اشتراط جملة من الخصال الاخلاقية في متعاطي هذا النوع من التجارة كالامانة والعفة والصيانة فذكروا انه "ينبغي الا يتصرف في سمسرة العبيد والجواري الا من ثبتت عند الناس امانته وعفته وصيانته وان يكون مشهور العدالة لانه يتسلم جواري

---

1) البكري ــ المغرب ــ ص 3

الناس وغلمانهم وربما اختلى بهم في منزله ... " (1) لكن النخاسين الذين كانوا محل انتقاد من حيث سلوكهم وربما احتقار من اجل تهافتهم على الربح متوخين في ذلك انتهاك القيم الخلقية قد كانوا محسودين من حيث غناهم وثروتهم (2) بل الغريب انهم كانوا موضع تزلف من قبل الناس بسبب هذه الثروة .

وقد يجتمع الجاه مع المال لدى النخاس فترتفع قيمته الاجتماعية بحكم ارتفاع قيمة البضاعة الموجودة بين يديه اولا اذ لا جدال في ان قيمة التاجر مرتبطة بقيمة بضاعته في نظر الناس وثانيا بحكم تعامله مع طبقة معينة من الوجهاء ونحن نعني بالقيمة هنا منزلته في السلم الاجتماعي وانتماءه الى فئة محظوظة من الفئات الاجتماعية. ولا ريب في ان اغلب النخاسين قد عاشوا في نعيم وترف وامكنهم ان يخالطوا علية القوم بحكم مهنتهم وهي مهنة كبار التجار. فكان الكثير منهم على صلة وطيدة بالبلاط ومعرفة بشيء غير قليل من اسراره اما بصورة مباشرة اوعن طريق جواريه وغلمانه. ومن كانت هذه

1) ابن الاخوة – معالم القربة – ص 152–153
2) برنشفيك – دائرة المعارف الاسلامية – مقال عبد - ج 1 - ص 33

حاله لم يقف دون تحقيق اية رغبة يصبو اليها ما دام بيده المال الوفير والجاه العريض وكان محط آمال من يحيطون به ومحسودا في نظر العوام ، ثم لا يخفى ان من كان منهم مالكا لحسان القيان ورائعات الجواري يصبح من المرغوب في مخالطتهم والاتصال بهم لما في حوزتهم من بضاعة مغرية ،وقد ساهمت كل هذه الاعتبارات في جعل مهنة النخاس من اهم المهن في المدن الاسلامية .

وقد وصف لنا الجاحظ المنزلة التي يتمتع بها النخاس " المقين " اي بائع القيان ومربيهن في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه . فبين لنا حرص الخاص والعام على ربط الصلة معه وزيارته في بيته ومجاملته عند الحاجة وتملقه اذا استدعى الامر بالهدايا والتحايا مما يجعل له كثيرا من الدالة على معاشريه ومما يعلي من مقامه في نظرهم .وقد شبه الجاحظ هذا النوع من النخاسين بالخليفة لانه محل تقدير وتملق يقول في ذلك (1):

---

1) الجاحظ ــ رسالة القيان ــ رسائل الجاحظ ج 2 ص 177ــ178

" ومن فضائل مالك القيان ان الناس يقصدونه في رحله
بالرغبة كما يقصد بها الخلفاء والعظماء. فيزار ولا يكلف الزيارة
ويوصل ولا يحمل على الصلة ويهدى له ولا تقتضى منه الهدية
وتبيت العيون ساهرة والعيون ساجمة والقلوب واجفة والاكباد متصدعة
والاماني واقفة على ما يحويه ملكه وتضمه يده مما ليس في
جميع ما يباع ويشترى ويستفاد ويقتنى بعد العقد النفيسة. فمن
يبلغ من الثمن ما بلغته حبشية جارية عون مائة الف دينار
وعشرون الف دينار ؟... ويرسلون الى بيت مالكها الهدايا من
الاطعمة والاشربة ، فاذا جاؤوا حصلوا على النظر وانصرفوا بالحسرة
ويجتني مولاها ثمرة ما غرسوا ويتملى به دونهم ويكفى مؤونة
جواريه ، فالذي يقاسيه الناس من عيلة العيال ويفكرون فيه من
كثرة عددهم وعظيم مؤونتهم وصعوبة خدمتهم هو بمعزل عنه
لا يهتم بغلاء الدقيق ولا عوز السويق ولا عزة الزيت ولا فساد النبيذ
قد كفي حسرته اذا نزر والمصيبة فيه اذا حمض والفجيعة فيه
اذا انكسر ثم يستقرض اذا اعسر ولا يرد ويسال الحوائج فلا يمنع
ويلقى ابدا بالاعظام ويكنى اذا نودي ويفدى اذا دعي ويحيا

بطرائف الاخبار ويطلع على مكنون الاسرار ويتغاير الربطاء عليه ويتبادرون في بره ويشاحون في وده ويتفاخرون بايثاره ولا نعلم هذه الصفة الا للخلفاء ".

الا ان هذا الاعتبار الذي يتمتع به النخاس ليس في الواقع سوى اعتبار ظرفي لانه مرتبط بالحاجة اليه ولانه يتعدى شخصه الى ما يرغب فيه الناس من بضاعته المغرية ولذلك كانت علاقته بغيره قائمة في الاغلب على النفاق والمجاملة للحصول على المرغوب و مشوبة بالغبطة والحسد لما يتمتع به من ثروة رغم ما يعرف عنه من عبث بالقيم . وبذلك يمكننا ان نفهم هذه الازدواجية التي استقرت في الراي العام الاسلامي حول قيمة النخاس .

ب. ثـروة النخـاس :

وقد اغدقت تجارة الرقيـق على النخاسين ثروات طائلـة لان الغنم فيها كان كبيرا في اغلب الاحيان ولان تجارتهم من اربح التجارات بسبب رواج بضاعـة الرقيق في شـتى ميادين الحياة الاقتصاديـة و تـزايـد الطلب لها فـي مختلف الخدمات الاجتماعيـة .وقد كانت ارباحهم ضخمـة خصوصـا اذا تاجروا بالرقيـق الممتاز اي ذلك الرقيق الرفيـع فـي جنسـه وجمالـه وتكوينـه المهـني اوالفـني والثقـافـي (1) وهـو من الـنوع الذي ترتفـع اثمانـه ويـدر على باعتـه الربح الجزيل ، وقـد كانت الدولـة واعيـة دائمـا بقيمـة هذه التجـارة ودورهـا الفعـال في ميدان الاقتصـاد مما جعلها تولي عامـلا خاصـا علـى هـذه الشـؤون هو قـيم الرقيـق (2).

ومن اسباب ثـراء النخاسين علاقـة تجارتهم بظاهرة الترف والبذخ في المجتمعات الاسلاميـة .وقد اشار كل من الجاحظ في كتاب التبصـر بالتجارة والدمشقـي فـي كتاب الاشارة الى محاسن التجارة الـى ان

1) نجاة باشا . . التجارة في المغرب الاسلامي ص 114–115
2) بروكلمان . . تاريخ الشعوب الاسلاميـة - ج ١ ص ١٥٤

النخاسة هي ضرب من تجارة الترف التي يتهافت عليها كبار الموظفين والاثرياء ورجال البلاط ويرصدون لها الاموال الطائلة لاقتنائها (1) ومن الطبيعي ان تزداد ثروة النخاسين اذا كانوا من من المزودين للبلاط ببضاعتهم وذلك بسبب كثرة ما يطلبه منها وبسبب ما يدفعون فيها من اثمان باهضة لا تخضع عادة لنظام الاسعار العادية او لحوالة الاسواق .

ولا ريب في ان النخاسين قد انتفعوا من عاملين هامين في ممارسة هذه التجارة اولهما ما كانوا يتوخونه من حيل وخدع لترويج بضاعتهم واستدرار اكثر ما يمكن من ارباح .وقد شرحنا وسائلهم هذه في فصول سابقة وبينا اساليب الغش التي مهروا فيها والتي مكنتهم من شراء البضاعة بالرخص وبيعها بالغلاء(2) وثانيهما ما اتصفت به اسعار الرقيق من تحرر وقبول للمساومة وعدم خضوعها في حالات عديدة للمراقبة بسبب ممارسة هذه التجارة خارج الاسواق الرسمية .وقد وجد هذا التحرر مساندة على

1) الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي- ص 77 - 79
2) انظر الفصل المتعلق بالغش والتدليس من هذه الدراسة ص 654-670

الصعيد العملي من قبل رجال الدولة انفسهم اذ كانوا يبذلون في سبيل ما يروق لهم من الرقيق الجيد مبالغ خيالية.

ويبدو ان حركة التوريد او الجلب للرقيق هي التي لعبت دورا اساسيا في ثراء " الجلابين " من النخاسين وهم كبار تجار الرقيق الذين يستفيدون من الفارق الموجود بين سعر الجلب وسعر البيع ويبدو ان بعض الاجراءات الجبائية الاسلامية قد ساعدتهم وشجعتهم على عملية التوريد هذه . فقد كان المسلمون والذميون من التجار يتمتعون ببعض التسهيلات بالقياس الى التجار الاجانب اذ كانوا لا يؤدون الا ربع العشر او نصفه بينما يدفع " الحربيون " اي التجار الاجانب العشر كاملا على ما بلغت او تجاوزت قيمته مائتي درهم .كما كان يسمح لهم بتكرار عمليات التوريد مع الاقتصار على دفع الضريبة مرة واحدة في السنة ولم يكن هذا الامتياز شاملا للتجار الاجانب الذين كانوا يجبرون على دفع العشر مع كل عملية توريد . يقول ابو يوسف في كتاب الخراج :

" فاما الحربي خاصة فاذا اخذ منه العشر وعاد ودخل في دار الحرب ثم خرج بعد شهر منذ اخذ منه العشر فمر على

العاشر فانه ياخذ منه اذا كان ما معه يساوي مائتي درهم اوعشرين مثقالا من قبل انه حيث عاد الى دار الحرب فقد سقطت عنه احكام الاسلام " (1) ويزيدنا ابو يوسف توضيحا عندما يقول ان ما يؤخذ من التجار المسلمين هو على سبيل الصدقة في نظر المشرع اما ما يؤخذ من التجار الاجانب فسبيله سبيل الخراج . وان القصد من فرض العشر على تجار دار الحرب هو المعاملة بالمثل مع الامم الاجنبية التي كانت تعشر تجار المسلمين ايضا (2) ولا يخفى ايضا ان نقل التجار لبضاعة الرقيق بين شتى الاقاليم الاسلامية قد كان يوفر لهم فرصا عديدة للفوز بالاسعار التي تناسب طموحهم وتقتضيها حاجة الاقليم الى نوع من الرقيق المتوفر في الاقاليم الاخرى .

لقد ساهمت اذن كل هذه العوامل مجتمعة في تكوين ثروات بايدي اغلب النخاسين مع وجود تفاوت في ذلك بينهم طبعا شانهم في ذلك شان سائر التجار. وقد امكن للكثيرين منهم ان يعيشوا عيشة

---

1) ابو يوسف ـ كتاب الخراج ـ ص 133
2) المصدر نفسه ـ ص 134 ـ 135

الملوك (1) منذ اقدم العصور اذ يروى ان عبد الله بن جدعان وهو احد مشاهير النخاسين قبل الاسلام قد كان احد اربعة من قريش يملك كل واحد منهم قنطارا من الذهب (2) اما بالنسبة الى العصر الذي يهمنا فان رحالة كابن حوقل شهد بثراء اهل خوارزم بسبب رواج تجارة الرقيق عندهم وممارستهم لها (3) كما شهد المقدسي بان اهل عدن قد اثروا بفضل تجارة الحبش والخدم (4) ونجد عند البكري شهادات شبيهة بذلك و خاصة بالنسبة الى تجار اودغست (5) وقس على ذلك سائر التجار بمختلف المدن التابعة لشتى الاقاليم الاسلامية.

ولعل من احسن الاوصاف لنعيم هؤلاء التجار وسعة عيشهم هذه العبارات الواردة على لسان الجاحظ حين يقول

---

1) بروكلمان — تاريخ الشعوب الاسلامية - ج 1 ص 93
2) ابن الزبير — الذخائر والتحف ص 201
3) ابن حوقل - صورة الارض - الترجمة الفرنسية ترجمة كريمر وفيات Kramers et Wiet. طبعة باريس 1964 ج 2 ص 463
4) المقدسي — احسن التقاسيم ص 97—98
5) البكري — المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب - تحقيق دي سلان De Slane الجزائر 1857 ص 158—159 و ص 3

في وصف بعضهم:" فالذي يقاسيه الناس من عيلة العيال ويفكرون فيه من كثرة عددهم وعظيم مؤونتهم وصعوبة خدمتهم هو بمعزل عنه : لا يهتم بغلاء الدقيق ولا عوز السويق ولا عزة الزيت ولا فساد النبيذ قد كفي حسرته اذا نزر والمصيبة فيه اذا حمض والفجيعة فيه اذا انكسر ثم يستقرض اذا اعسر ولا يرد ويسال الحوائج فلا يمنع ويلقى ابدا الا بالاعظام ويكفى اذا نودي ويفدى اذا دعي ويحيا بطرائف الاخبار ويطلع على مكنون الاسرار . . . . " (1) ولا ينبغي لنا ان نغتر فنعتبر ان الثراء الفاحش قد كان من نصيب كل النخاسين فهم لا شك مختلفون ومتفاوتون من حيث الدخل شانهم في ذلك شان سائر التجار ، فتجارة الرقيق الشعبي العادي لا تدر من الارباح ما تدره تجارة الرقيق الاستقراطي الجيد . كما ان احوال التجار تختلف باختلاف مقادير الرقيق في الاسواق قلة وكثرة وباختلاف تكاليف جلبه من مصادره المتنوعة .

---

1) الجاحظ ـ رسالة القيان ـ رسائل الجاحظ ج 2 ص 177ـ178

٤) انـــواع النخاسيــــن

أ- تجار الســـوق الداخليـــة

لقد كان النخاسون اصنافا شأنهم في ذلك شأن سائر التجار فمنهم من يقتصر على البيع والشراء بالاسواق الداخلية وهؤلاء هم اشبه شيء بتجار البيع بالتفصيل بالنسبة الى التجارات الاخرى. ومنهم من يتولى مهمة تجارية على نطاق اوسع فينقل بضاعة الرقيق بين مختلف البلاد الاسلامية. ومنهم من يتولى عملية التوريد لهذه البضاعة من وراء حدود العالم الاسلامي. وسبب اختلاف هذه الاصناف هو تفاوت ما بأيدي اصحابها من رؤوس اموال تمكنهم من الخوض في هذا الميدان التجاري .

اما النوع الاول من النخاسين فهم المقتصرون على الاسواق الخاصة بالرقيق ويمكن أن نعتبر من بينهم كل من له مهمة بهذه السوق من ((قيّم)) و ((امينة)) و ((كاتب)) يسجّل الصفقات المبرمة (1) وكان هذا النوع من النخاسين يشترون الرقيق من اصحابه ليبيعوه بثمن اغلى ممّا اشتروابه وقد يكون لاحدهم بيت خاص يعرض فيه ما يشتريه لتجارته من الجواري فتراه مثلا يشتري الرقيق الواقع في الميراث ليبيعه بارباح اكثر(2) وكان الناس يودعون عبدهم عند هؤلاء النخاسين ليبيعوه لهم بمقابل وبذلك تصبح مهمّتهم اقرب الى مهمّة الوسطاء السماسرة منها الى مهمة

1) بروفنسال — تاريخ اسبانيا الاسلامية ج - 3 - ص 314-316

2) ابن القيم الجوزية — اخبار النساء — ص 113. 114

التجار المالكين لبضائعهم وقد يتولون ايضا بيع ما يجلبه اليهم غيرهم من تجار التوريد. ونحن نجد في فتوى لابن ابي زيد القيرواني ما يدل على طبيعة عمل هذا النوع من النخاسين (1) الذين كانوا يتقاضون اجرة على عملهم سواء ابيعت البضاعة او لم يقع بيعها. وقد وجدت مجادلات كثيرة من قبل الفقهاء في شأن الاجرة التي يتقاضاها هؤلاء الوسطاء كما كان هؤلاء النخاسون السماسرة يعقدون شركات فيما بينهم (2).

ولا يقتصر هذا الصنف من النخاسين في نشاطهم التجاري على ارتياد الاسواق والمتاجرة فيها، بل اننا نجد لهم نشاطا خارج الاسواق ايضا فكثيرا ما كانوا يعقدون صفقات مع الخواص وكان تعاملهم هذا جاريا في الغالب مع طبقة الخاصة من رؤساء واصحاب جاه وسلطان ومال . اذ كانت عادة هؤلاء ان يكلفوا النخاس مثلا باختيار جارية بعينها من صاحبها فيقوم بربط الصلة بين البائع والمشتري . وقد روى لنا ابن بطلان في رسالته اخبارا تفيد ان بعض الملوك والخلفاء كانوا يكلفون النخاسين ببيع رقيق معين لوزرائهم وولاتهم قصد التجسس عليهم او اغتيالهم ويحذر المؤلف بسبب ذلك رجال الدولة من شراء جارية او عبد من رقيق السلطان حتى لا يتعرضوا الى ما يكرهون (3)

---

1) الونشريسي - المعيار - ج 8 ص 199 . 211 . 212
2) المصدر نفسه - ج 5 ص 176 . 177 وج 3 ص 198 . 199
(انظر فتوى ابن ابي زيد القيرواني (ت 386 هـ/ 996 م) والقابسي (ت 403 هـ/ 1012 م) وابي بكر بن عبد الرحمان (ت 432 . 435 هـ/ 1040 . 1043 م) وابي عمران الفاسي (ت 430 هـ/ 1038 م)
3) ابن بطلان - الرسالة - ص 358 - ومابعدها

وليس هذا هو المثال الوحيد الذي يقوم فيه النخاس بدور الوسيط او السمسار فان كتب التاريخ والادب تروي العديد من الاخبار حول توسط نخاس بين صاحب جارية او غلام ورجل من الخاصة متيم يرغب في الشراء ولا يجد اليه سبيلا. وقد يتساءل المرء عن الربح الذي ينتظر النخاس في هاته الحال : انه من غير الممكن ان يقاس بمقياس اسعار السوق اذ لديه مجال متسع للربح في هذه الوساطة لا يقدر الا بمدى الرغبة في البضاعة المطلوبة . وهكذا يصبح هذا النوع من النخاسين اشبه شيء ((بالوكلاء من السماسرة الطوافين)) (1).

ويمكن ان نضيف الى هذا النوع من النخاسين اولئك المغنين الذين كانوا يقتنون الجواري ويعلمونهن الغناء لترتفع بتلك الصناعة قيمتهن ويصبحن من القيان اللائي يقتنين باثمان باهضة . فهم بذلك يمارسون تجارة رابحة اذ يشترون بثمن ويبيعون باخر اكثر ارتفاعا من الاول ويغنمون من تجارتهم ارباحا طائلة فكانوا يجعلون بيوتهم مدارس لتعليم الجواري وتخريج القيان منتهزين بذلك فرصة رواج هذه البضاعة وكثرة طلبها والتهافت عليها من قبل فئات عديدة من مجتمع ذلك العصر (2).

---

1) الونشريسي ـ المعيار ـ ج 8 ص 199 . 212

2) ابن قتيبة ـ عيون الاخبار ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ـ دار الكتب المصرية ـ (1348هـ/ 1930 م) ج 10 ص 99 . 100

الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بولاق ج 10 ص 135

ب- تجار الاقاليم

وكان من بين النخاسين صنف شان ابلغ اثرا في ترويج بضاعة الرقيق واقدر على ترويد الاسواق الاسلامية الداخلية بهذه المادة التجارية ونعني بهم تجار الاقاليم اي اولائك النخاسين الذين ينقلون الرقيق من مقاطعة اسلامية الى اخرى ويقومون بمهمة تبادل هذه البضاعة الآدمية بين الاسواق والامارات والدول الاسلامية . وقد كان هؤلاء التجار يقصدون الثغور ويرافقون الغزاة في حروبهم ليشتروا منهم ما يقع من اسر وسبي وغنائم ثم ينقلونها الى اقليمهم الذي انطلقوا منه ليبيعوها بالاسواق بأسعار مربحة وقد تعرض الفقهاء الى الاحكام التي يحق للنخاس بقتضاها شراء اسرى الغنائم ونجد شرحا مفصلا لهذه الاحكام عند صاحب كتاب السير الكبير في فصل بعنوان ((باب التجار وغيرهم ما يحل لهم من الغنيمة))(1).

ولعل المهمة الكبرى التي اضطلع بها هذا الصنف من التجار هي عملية توزيع الانواع المختلفة من الرقيق بين شتى البلدان الاسلامية من المشرق الى المغرب مخترقين بذلك الحدود والحواجز الجغرافية والسياسة التي كانت قائمة بينها في هذا العصر.فكان تجار العراق يعقدون علاقات تجارية مربحة مع البربر بشمال افريقيا واهم ما يطلبونه منهم الذهب والرقيق وكانوا يشاركون مسلمي المغرب في نشاطهم التجاري ، وقد استقرت منهم

---

1) الشيباني ـــ السير الكبير ـ ج 4 ص 1181

جالية بسجلماسة (1) وكان تجار البصرة والكوفة وبغداد يقصدون سمرقند ويستقرون بها في شكل جالية تجارية ايضا لها دور فعال في تجارة الرقيق (2) وقد اشتهر التجار البصريون بكثرة تجوالهم بين الاقاليم وقد نوه كل من الجاحظ والرحالة ابي بكر الهمذاني بهذه الخاصية عند تجار البصرة كما روي ان خالد بن صفوان وهو بصري قد قال لعبد الملك بن مروان (66 - 85 هـ/ 685-705م) منذ القرن الاول للهجرة مفتخرا بتجارة البصرة ((نحن اكثر الناس عاجا وساجا وخزا وديباجا وبرذونا وهملاجا وخريدة مغناجا)) ولذلك سميت البصرة في ذلك العهد ((خزانة العرب)) (3).

والواقع ان نشاط تجار البصرة ليس سوى مثال على نشاط غيرهم من تجار المدن والعواصم الاسلامية الاخرى في مجال ربط العلاقات التجارية بين الاقاليم في شتى انحاء العالم الاسلامي. وفي اقوال الجاحظ وابي بكر الهمذاني ما يدل على ذلك. يقول الجاحظ: ((ليس في الارض بلدة واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من اطراف الدنيا الا وانت واجد به البصري والمدني)) (4) ويقول الهمذاني في كتاب البلدان: ((وابعد الناس نجعة في الكسب بصري

1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 150. 154

2) المرجع نفسه .

3) سعيد الافغاني - اسواق العرب - ص 405

4) الجاحظ - البخلاء - طبعة مصر 1323هـ، ص 160

وحميري ومن دخل فرغانة القصى شرقا والسوس الاقصى غربا فلا بد ان يرى فيها بصريا او حميريا)) (1) ففي هذين القولين شهادة على نشاط تجار عواصم اسلامية اخرى ويمكن ان نضع في نفس السياق تجوال تجار القيروان ببلاد المشرق وترحال تجار بلاد فارس نحو المغرب والاندلس وقس على ذلك نشاط التجار بسائر الاقاليم وكذلك نشاط وكلائهم بشتى الاقطار .

فهذا احد تجار الري باقليم فارس وهو المسمى محمد بن موسي الرازي يرتحل الى افريقية في عهد ابراهيم بن الاغلب (261 - 289 هـ/ 875 - 902م) ويؤم الاندلس سنة (271 هـ/ 884م) مصحوبا بجارية يونانية الاصل متعلمة للغناء والادب وحافظة لدواوين من الشعر الجاهلي والمخضرم والاندلسي وكانت غايته ان يبيعها للامير محمد الاول (238 -273هـ/ 852 -886م) بالاندلس ثم نراه يرجع الى المغرب ويمارس التجارة بسجلماسة ويعود من جديد الى الاندلس ليموت بها سنة(277هـ/ 890 م) (2) وامثال هذا التاجر من تجار الاقاليم كثيرون وقد كان لهم كما قلنا دور كبير في ترويج بضاعة الرقيق ونشرها وتوزيعها بين شتى انحاء العالم الاسلامي

---

1) ابن الفقيه الهمذاني - كتاب البلدان - طبعة ليدن - 1886
ص 51 الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي
ص 133 . 137

2) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية
ج 3 ص 314-317

ح- النخاسون الجلابون

اما النخاسون الجلابون اي القائمون على توريد الرقيق من مصادر خارجة عن حدود العالم الاسلامي فامرهم لا يختلف كثيرا عن سائر تجار التوريد من المسلمين وذلك لانهم لم يكونوا يقتصرون على جلب الرقيق بل كانوا يجلبون معه بضائع اخرى في آن واحد حتى يمكنهم تحقيق الربح واسترجاع تكاليف تجهيز القوافل التجارية وتكاليف السفر خصوصا اذا ادركنا طول المسافات التي يقطعونها وصعوبة المسالك التي يجوبونها وهي مسالك لم تكن دائما مأمونة من الخطر فسواء اكان اتجاههم نحو بلاد السودان بافريقيا او الى الهند والصين او نحو بلاد الخزر والبلغار او نحو سواحل فرنسا وايطاليا وسواء اكان سفرهم برا او بحرا فهم يواجهون صعوبات جمّة وتكاليف باهضة. وقد وصف لنا الرحالة والجغرافيون رحلات القوافل التجارية عبر الفيافي مدة طويلة من الزمن في ظروف قد لا يتوفر فيها حتى الماء أحيانا فضلا عن وجود قطاع الطرق بالسبل البريّة والقراصنة بالمسالك البحرية.

وقد ذكر صاحب كتاب حدود العالم ان التجار بمصر كانوا يقضون ثمانين يوما على ظهر الابل ليصلوا الى بلاد السودان ولا يوجد على طول هذه الطريق الا مكان واحد به ماء وعلف (1) ويصف ابن حوقل الطريق التجارية بين مصر وغانة وهي طريق جنوبية صحراوية عسرة تتعرّض القوافل خلالها الى قطاع الطريق والعواصف الرملية الهوجاء فتهلك في كثير من الاحيان ولذلك

1) مؤلف فارسي مجهول – حدود العالم – الطبعة الانكليزية ترجمة – ف – مينورسكي – V- Minorsky
لندن 1937 ص 165

وقع التخلي عن هذه الطريق وصارت القوافل تسلك طريق سجلماسة (1) ويلاحظ الادريسي نفس الظاهرة في وصفه لمجابات عديدة ببلاد السودان قليلة المياه يعسر السفر فيها وتشتد فيها الحرارة (2) ومن هذه المجابات صحراء "نيسر" التي يمر بها المسافرون الى اودغست وغانة وهي صحراء يقضي بها التجار اربعة عشر يوما دون ان يجدوا ماء او يخترقونها في الخريف فيسيرون فحرا الى مطلع الشمس ثم ينيخون في القيلولة لشدة الحر ثم يسيرون بعد العصر الى العتمة ثم ينيخون الى الفجر وهكذا دواليك (3) وكانت التجارة الخرساء التي وصفها لنا المسعودي في غانة واسحق بن الحسين في الحبشة (4) تشكل صعوبة اخرى ايضا اذ يذكر المسعودي ان لاهل غانة حدا لا يتجاوزه من يقصد ارضهم من التجار وعلى ذلك الحد تقع المعاملات التجارية فيضع التجار بضاعتهم وياتي السودان ويضعون عليها مقابلها من الذهب فان وافق التجار اخذوا الذهب وتركوا البضاعة وان لم يوافقوا فعلوا العكس وان ارادوا الزيادة في الذهب هموا بالانصراف واذاك يزيد السودان في كمية الذهب وقد يحدث ان يغدر بهم التجار واذاك يلاحقونهم ومن ظفروا به قتلوه .

---

1) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ طبعة كريمر - J.H. Kramers
ليدن - Leyde - 1938 ج 1 ص 90 . 103

2) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ ترجمة القسم الخاص
بالمغرب واسبانيا ـ دوزي - Dozy - ودي غوية J. De Goeje
ليدن - Leyde - 1864 . 1866 ص 161

3) المصدر نفسه ـ ص 108

4) المسعودي ـ اخبار الزمان ـ مقتطفات من ترجمة
يوسف كمال في - Monumenta - القاهرة - ليدن ـ 1926 . 1951
ج 3 ص 629 اسحق بن الحسين - آكام المرجان - الترجمة الايطالية -
كوداتزي - A. Codazzi - روما 1929 عن كوك ص 29 . 30

فهذه نماذج من الصعوبات التي كان يواجهها تجار التوريد ببلاد السودان وقد كانوا يواجهون اشباهها في متجارتهم مع البلاد الاسوية والاوروبية وقد وصف ابن فضلان في رسالته نماذج اخرى من هذه الصعوبات في سفرهم الى بلاد البلغار والخزر (1) ولم تكن رحلاتهم البرية والبحرية الى الهند والصين والى جنوب ايطاليا وفرنسا تخلو من مشاق المسافات الطويلة وويلات القرصنة . ولذلك نفهم انه لم يكن من صالح هؤلاء التجار ان يقتصروا على جلب بضاعة واحدة هي الرقيق خصوصا اذا ادركنا ما يكلفهم جلبه من مؤونة وعناية لا تستوجبها البضائع الجامدة واذا علمنا انهم كثيرا ما يتورطون في سرقة رؤوس من هذا الرقيق وتهريبه من بلاده عن طريق الاختطاف وليس عن طريق الشراء متواطئين في ذلك مع اهل البلاد نفسها .

لم يكن اذن امر هؤلاء النخاسين الجلابين يختلف عن امر تجار التوريد لشتى البضائع وكان منطق الربح يفرض عليهم ان يجلبوا مع الرقيق بضائع اخرى هي غالبا التبر المستورد من بلاد السودان وبضائع

---

1) ابن فضلان - الرسالة - ص 83

الترف والتوابل المستوردة من البلاد الاسوية الا انه من واجبنا
ان نعرف الى اي حد قد اعتمد النخاسون المسلمون .
على انفسهم في جلب الاجناس المختلفة من الرقيق
الذي زوّد الاسواق الاسلامية والى اي مدى كانت استعانتهم
بالنخاسين الاجانب. ان الجواب عن هذا السوءال مرتبط
في الواقع بحدود الرقعة التي انتشرت فيها التجارة
الاسلامية وبالعلاقات التي كانت سائدة
اذاك بين العالم الاسلامي وسائر بلاد العالم
ومن المفيد ان نلاحظ منذ الآن ان النخاسين المسلمين
قد بذلوا معظم جهودهم في جلب الرقيق الافريقي
والاسوي وان التجار المسلمين قد صرفوا عنايتهم
خاصة نحو الشرق والغرب والجنوب وقلما
توغلوا في الشمال فلم يكن لهم دور كبير
مثلا في جلب الرقيق الاوروبي وكأنهم فوضوا هذه
المهمة الى نخاسين اجانب كما سوف نرى .

3) النخاسون اليهود

أ- اليهود الرهادنة :

ومن اشهر النخاسين الذين قاموا بمهمة توريد الرقيق الاوروبي الى العالم الاسلامي التجار اليهود الذين عرفوا باليهود الرهادنة وقد كانوا من الجلابين للرقيق الصقلبي خاصة ولعل اهم نص بقي لنا عن هؤلاء التجار وعن تنقلاتهم في انحاء العالم المعروف اذاك هو ما نجده في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة الذي وصف لنا نشاطهم في منتصف القرن الثالث الهجري اي التاسع الميلادي وهو يسميهم " الراذانية " (1) بينما يسميهم ابن الفقيه " الراهدانية" (2) وقد اختلف الباحثون حول معنى هذه التسمية اذ يرى " دي غوية " De Goeje ويسانده في ذلك " هايد " Heyd انها تدل على كثرة تنقلاتهم وتعني " المهاجرين الذين يجوبون البلدان"(3) ويرى " كليمان هوار " Clement - Huart ان كلمة " راهدانية " من الفارسية " راه - دان " بمعنى العارف بالطرق والمسالك (4) لكن هذا

---

1) ابن خرداذبة — المسالك والممالك — ط. دي مينار B DeMeynard - ص 514-515

2) ابن الفقيه — مختصر كتاب البلدان — ص 252

3) دي غوية - De. Goeje - ~~تاريخ العرب~~ المكتبة الجغرافية العربية — الفهرس ص 251
هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق. Hist du Com du Levant - ج 1 ص 127

4) كليمان هوار - Cl. Huart - تاريخ العرب ج 2 ص 109 — 110

المعنى لا يعيننا على تحديد اصل هؤلاء اليهود اما " باربيي دي ميثار"

Barbier de Meynard - فيرى انه لقب يدل على اصلهم (1) وقد ارجع

هايد - Heyd - نسبة هؤلاء التجار الى الغرب وذلك لان ابن خرداذبة

يرسم طرق رحلاتهم من الغرب الى الشرق ثم يرسم خط رجعتهم

من الشرق الى الغرب (2) والارجح انهم اصيلو اوروبا الغربية وعلى

وجه التحديد من وادي الرون La vallée du Rhône (3)

فالتسمية بالرهادنة - Radanites - هي نسبة الى هذا الوادي الذي

استقروا به - Rhodanien (4) ثم كون هؤلاء اليهود مجموعات انتشرت

على خط نهر الموز La Meuse ونهر الصون - La Saône - والرون

- Rhône - وتفرقوا بين مدينة فردان - Verdun - ونربونة Narbonne (5)

وتجمعوا في المدن التجارية دون غيرها مثل مرسيليا - Marseille -

وآرلس Arles وجنوة Gênes وغيرها من المدن الغربية المشهورة

---

1) بربيي دي ميثار Barbier de Meynard - كتاب المسالك والممالك Le Livre des Routes
المجلة الاسيوية - J A - سلسلة عدد 6 ج 5 ص 512

2) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق Hist de Com. du Levant - ج 1 ص 127 _ 128

3) صورد ال - Sourdel - حضارة الاسلام القديم - - باريس 1968 ص 317 _ 323

4) المرجع نفسه

5) هايد - Heyd - تاريخ تجارة المشرق Hist du Com du Levant - ج 1 ص 125 _ 126

بالتحارة اذاك (1) وقد وجدت حاليات يهودية في مدن مقاطعة سكسونيا الشرقية La Saxe orientale مثل مدينة مجديبورغ MeGdebourG ومرزبورغ Merzibourg وكان نشاطهم مركزا على تجارة الرقيق (2).

ب- مادة تجارتهم :

وكانت الغزوات الكبرى بالغرب سببا في ثروة هؤلاء اليهود فبينما كانت الشعوب تتحارب كانوا يجيئون ويذهبون دون ان يجلبوا على انفسهم الريبة ويحرزون الارباح الطائلة دون ان يتعرضوا لخطر وكان نشاطهم الاقتصادي يكاد ينحصر في التجارة (3) ولا سيما تجارة الرقيق التي مكنتهم من تزويد العالم الاسلامي بهذه البضاعة ومن ان يكونوا على اتصال مستمر بالمسلمين ووسطاء تجارة بينهم وبين العالم الاوروبي، اذ كانوا يبيعون لهم الرقيق الذي يجلبونه من اوروبا ويشترون من عندهم بضائع الشرق ومنتوجاته ليبيعوها لملوك القبائل الجرمانية، ويذكر ابن خرداذبة ان البضاعة التي كان هؤلاء

---

1) المرجع نفسه
2) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 263 - 269
3) هايد Heyd - تاريخ تجارة الشرق Hist-du Com du Levant ج 1 ص 125 - 126

اليهود يحملونها من الغرب الى الشرق تتمثل في الخصيان والرقيق المذكر والمؤنث والفراء والسيوف والحرير اما ما يرجعون به من الشرق الى الغرب فالمسك والكافور و الصبر L'aloès و القرفة" La cannelle وغيرها (1) ولم يقتصروا في معاملاتهم هذه على تلك البضاعة بل كانوا يتاجرون ايضا بالبضائع الاسلامية من اقمشة ومنتوجات حريرية وذهب وتوابل وادوية (2).

لقد امكن لهؤلاء اليهود اذن ان يتاجروا بعدد وفير من الرقيق وان يصدروه الى البلاد الاسلامية متحدين بذلك تعاليم الكنيسة ومستغلين العداء القائم بين الشرق والغرب وقد ذكر الاسقف "آجوبار" AGobard. انهم كانوا يسرقون اولاد النصارى الفرنسيين او يشترونهم من آبائهم ويبيعونهم الى مسلمي اسبانيا (3) وروي ان القديس " ادلبارت" Adelbert قد اعتزل منصبه الاسقفي سنة (379 هـ/989م) بسبب عجزه عن عتق جميع المسيحيين الذين اشتراهم تاجر رقيق يهودي (4) وفي هذا

---

1) ابن خرداذبة — الممالك والمسالك .ص 512-515 -(ط - دي ميناردDe Meynard)
2) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 268— 269
نجاة باشا — التجارة في المغرب الاسلامي ص 104 — 107
3) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 - ص 301
4) المرجع نفسه .

دليل على وفرة ما بايديهم من هذه البضاعة ،كما كانوا يشرفون على عمليات الخصاء للرقيق حرصا منهم على تنمية ارباحهم فيحملون الرقيق من براغ Prague ويرجعون به عن طريق نهر الرون وقطلونية الى ثغر بجانة بالاندلس حيث يقع الخصاء (1) او بمركز " فردان " - verdun - الذي كان يزودهم بالخصيان ايضا .

ج-الوساطة بين الشرق والغرب :

ومما ساعدهم على قيامهم بهذه الوساطة التجارية معرفتهم بلغات الشعوب التي كانوا يمرون بها ويتعاملون معها فهم يتقنون لغات الشرق والغرب مما لعب دورا كبيرا في تمهيد السبل التجارية لهم ومن هذه اللغات التي كانوا يتكلمونها العربية والفارسية والروسية والافرنجية والاندلسية والصقلبية (2) ولا غرو فقد كان من اليهود مترجمون رسميون في خدمة النصارى يقومون بترجمة المعاهدات التجارية المبرمة بين المسلمين والمسيحيين الى عصور متاخرة ولدينا امثلة من هذه المعاهدات المبرمة في العهد الحفصي مع السلط الاوروبية وممن اشتهر بترجمة المعاهدات من اليهود المسمى موشي التونسي الذي كان كاتبا لبلدية

1) خوان بيرنيط - هل هناك اصل عربي اسباني لفن الخرائط البحرية ص 73 وما بعدها .

2) ابن خرداذبة - المسالك والممالك - ص 92 - و153
زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 40

جنوة باللغة العربية سنة (- 664 هـ/ 1267م) وبذلك نفهم ان ممارسة التجارة قد احوجت اليهود الى معرفة لغات عديدة سواء في هذا العصر او العصور المتاخرة عنه (1).

ومما سهل على هؤلاء التجار الاضطلاع بهذا النشاط التجاري الواسع ومكنهم من ان يكونوا مزودين حقيقيين للعالم الاسلامي بالرقيق اختصاصهم بعمليات الصرف وغيرها من العمليات البنكية المتنوعة خصوصا ان تجارة الرقيق تستدعي رؤوس اموال عظيمة وتحويلات نقدية مستمرة اضف الى ذلك ان انتشار اهل ملتهم من البلاد الاوروبية والاسلامية قد مكنهم من الحصول على ما شاؤوا من اموال للقيام بمعاملاتهم تلك رغم الحدود والحواجز التي كانت مضروبة بين " دار الاسلام" و " دار الحرب " (2).

وليس من المستبعد ان يكون هؤلاء اليهود قد تمتعوا بضمانات في نشاطهم التجاري العالمي وذلك على غرار الضمانات التي احرز عليها التجار اليهود في عصور متاخرة لسلامة اشخاصهم وتجاراتهم ومن امثلة

---

1) نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ص 104 ـ 107

2) المرجع نفسه .

هاتـه التاميـات ما نصت عليـه المعاهدة المبرمـة سنـة (758هـ/1360م) بين مملكـة آراغون والبلاد التونسيـة من بنود تتضمن الالتزام بالسهر على سلامـة التجار اليهود وبضائعهم من قبل الطرفين المتعاقدين (1) وقـد تحدث الفقهاء في القرن الرابع للهجرة عن احكام الحربـي الذي يدخـل دار الاسلام للتجارة وراوا ان حكمـه هو حكم المستأمن وحددوا شـروطا لتعاملـه واقامتـه فيها ضمانات لتجارتـه وللمجتمع الاسلامي (2).

ومهما يكن من امر فقـد دخل هؤلاء اليهود البلاد الاسلاميـة في هذا العصر وتنقلوا في شتى المواني والمدن التابعة لبلاد الاسـلام مشرقـا ومغربـا وكان لهم دور وفنـادق واحيـاء يستقرون بها وامكن لهم ان يتجاوزوا حدود دورهـم المتمثل فـي توريـد الرقيق للسوق الاسلاميـة الى الاتصال بالبلاط العباسي والبلاط الفاطمـي خاصـة وصاروا يتعاملـون مباشرة مع ذوي السلطان ويجلبون لهم ما يرغبـون فيـه من رقيق ، وقـد كان الامراء والخلفاء مضطرين احيانـا الى التعويل على خدمـات اخرى لهؤلاء اليهود لمتانـة صلتهم بالبلاد الاوروبيـة ولوجود مصارف لهم بالبـلاد المسيحيـة فاعتمدوا عليهـم فـي مهام تبـادل الاسرى مع الروم وفدائهم

1) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية — مقال عبد - ج 1 ص 33-34

2) كنـار - M. Canard - المسلمون وبيزنطة - فصل 12 - ص 54

منهم خصوصا انهم كانوا عارفين بالتقييم المادي للبشر بحكم متاجرتهم بالبضاعة الآدمية (1) وكان هؤلاء التجار يقومون بالمهمة نفسها لدى الملوك المسيحيين وقد واصل اليهود القيام بدورهم هذا الى العصر التركي ومن المعلوم ان يهود " القرانة " بتونس هم الذين كانوا يكلفون بهذه المهمة (2).

وقد اثارت حظوتهم التجارية هذه غيرة العديد من اصحاب مهنتهم من المسلمين حتى هجا بعضهم الملوك والامراء لانهم جعلوا قصورهم اسواقا لتجار اليهود ومن اسباب هذه الغيرة ايضا انهم كانوا من ذوي الثراء الواسع وهم في ذلك لا يقاسون بالنخاسين المسلمين لان اليهود كما هو معلوم من المرابين سواء أتعلق الربا بتجارة الرقيق اوغيرها من التجارات في حين كان الربا محرما على المسلمين واذا علمنا ان هؤلاء اليهود كانوا يتعاملون مع نخاسين مسلمين ادركنا كم كانوا يغنمون من هذا الوضع وكيف فرضوا ارادتهم على الاسواق .

وقد اعتمد هؤلاء التجار اعتمادا كبيرا على شبكة متصلة الحلقات من المجموعات اليهودية التي كانت تربط الدورة التجارية بين العالم الاسلامي

---

1) آدم متز - A-MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص301

2) نجاة باشا — التجارة في المغرب الاسلامي- ص 104 — 107

والعالم المسيحي وهي مجموعات انتشرت بالمغرب والمشرق الاسلاميين ، كما وجدت باهم المدن التجارية الاوروبية. وقد امكن لبعض افراد هذه الجاليات اليهودية من ان يلعبوا دورا تجاريا كبيرا في هذا المجال ومن ان يتصلوا برجال الدولة ومنهم من تمكن من تبوأ بعض المناصب السياسية ذات الخطر ، فقد كان بمصر مثلا جالية يهودية على غرار ما وجد في البلدان الاسلامية الاخرى وكان يشتغل بعض افرادها وكلاء للتجار العراقيين وكان منهم يعقوب بن كلس الذي صار وزيرا للخليفة الفاطمي العزيز (365-386هـ/ -975-996 م) وقد كان يهوديا بغداديا بدأ حياته في القاهرة وكيلا للتجار (1) وقد اعتمد التجار اليهود على هذا النوع من ذوي الجاه من اهل ملتهم كما اعتمدوا على ذوي المال منهم للقيام بوظيفتهم التجارية كما سنوضح ذلك فيما يلي .

---

1) عبد العزيز الدوري — تاريخ العراق الاقتصادي — ص 150 — 254

د- رحلاتهم التجارية :

لقد كان لهؤلاء التجار جولات واسفار طويلة بانحاء العالم في هذا العصر وقد اشتهر امرهم باعتبارهم وسطاء بين الشرق والغرب فكانوا يجوبون البر والبحر بانواع التجارات وخاصة منها تجارة الرقيق وكانت الغاية القصوى لهذه الجولات الهند والصين. وقد وصف لنا ابن خرداذبة الطرق البحرية التي يمر بها هؤلاء التجار اليهود (1) فذكر انهم كانوا يغادرون بلاد الافرنج بحرا ويصلون الى " الفرما " بمصر ويخترقون السويس في خمسة ايام ثم يعبرون بحر القلزم ويمرون امام ميناء " الجار " وهو ميناء المدينة وامام ميناء " جدة " وهو ميناء مكة ثم يتوغلون بعد ذلك في المحيط الهندي متجهين نحو الصين كما كانوا يسلكون طريقا بحرية ثانية فيتصلون بالقارة الاسيوية عن طريق مصب نهر الأورونت L'embouchure de L'oronte فيحلون بسوريا ويذهبون الى انطاكية وحلب فينزلون عن طريق الفرات الى بغداد مستعملين القناة الرابطة بين دجلة والفرات ومن هناك يدخلون المحيط الهندي عن طريق دجلة والخليج الفارسي. وكان هدفهم جميعا هو الوصول الى نهر

---

1) ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك - ص 92 وص 153

الهندوس L'Indus ليمروا عن طريقه الى الصين برا (1)

والملاحظ ان اكبر قسم من هذين الطريقين يقطعه هؤلاء اليهود بحرا وعند رجوعهم من الشرق الى الغرب يتبعون هذين الطريقين ايضا لكنهم لا يرجعون جميعا الى فرنسا وانما يقف بعضهم ببضاعتهم في القسطنطينية . وربما كانت لبعضهم سفن تنقلهم على متن الانهار والبحار فضلا عن استقلالهم لبواخر الدول التي يمرون بها فقد ذكر "جريجوار دي تور" - Grégoire de Tours - عن احدهم انه كان يملك اسطولا يخترق المسافة من " نيس " Nice الى " مرسيلية " (2) كما كانت لهم سفن ترسو بموانئ " نربونة " - Narbonne - في زمن الكارولنجيين (3) .

ويشير ابن خرداذبة الى الطرق البرية التي يقطعها هؤلاء اليهود في سفرهم الى العالم الاسلامي وذهابهم الى الصين فيذكر انهم ينطلقون من فرنسا او اسبانيا ويخترقون المانيا

---

1) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان ص 252 - كليمان هوار - Cl. Huart تاريخ العرب - Histoire des Arabes - ج 2 ص 109 - 110

2) هايد - Heyd - تاريخ تجارة المشرق ج 1 ص 125 - 126

3) المرجع نفسه ج 1 ص 128

والبـلاد السلافيـة ويصلون الـى " اتـل " عاصمـــة الخـزر علـى مصـب نهـر الفلجـا ثـم يجتـازون بحـر الخزر - La mer Caspienne ويقصـدون " بلخ " باقلـيم مـا وراء النهـر ثـم يواصلـون طريقهـم الـى الصـين بواسطـة بـلاد " التغزغز " - Ouigoures - بآسيـا الوسطـى (1) كمـا كانـوا يسلكـون طريقـا بريـة ثانيـة الـى الصـين وهـي ذهابهـم عـن طريـق مضيق جبـل طارق بعد انطلاقهـم من فرنسـا واسبـانيـا الـى شمـال افـريقيـا ثـم سـوريـا والعـراق ومقاطعـات بـلاد فـارس الجنوبيـة وكرمـان الـى ان يبلغـوا الهـنـد والصـين (2)

ويذكـر ابـن الفقيـه ايضـا تنقـلات هـؤلاء التجـار الذيـن كانـوا يمثلـون همـزة وصـل بـين العالم الاسلامـي

---

1) المرجـع نفسـه ج 1 ص 77
ابن خرداذبـة ـ المسالك والممالك ـ ص 93-

2) المصـدر نفسـه

وبقية انحاء المعمورة فيحدد لنا طرقهم على النحو الذي وضعه ابن خرداذبة (1) وقد امكن لهم ان يتجولوا في الاقاليم الاسلامية مستعينين في اسفارهم بالمجموعات اليهودية المنتشرة من اسبانيا الى الصين لانهم كانوا يحتاجون في رحلاتهم الى معلومات جغرافية لم تكن اذاك متوفرة الا في العالم الاسلامي وخصوصا في النقطة المركزية منه اي بغداد (2) ولاشك ايضا في انهم قد استعانوا بمجموعات يهودية استقرت بمناطق عديدة من الغرب واستطاعوا ان يحلوا بمدن تجارية كبرى مثل نربونة - Narbonne - ومرسيليا - Marseille - وآرلس - Arles - وجنوة Gênes ونابولي - Naples - وبلرم Palerme وغيرها. (3).

---

1) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان ص 252

2) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق Hist du Comm du Levant ج 1 ص 127 - 128

3) المرجع نفسه ج 1 ص 125 - 126

لقد اتضح اذن ان نشاط التجار اليهود قد كان حثيثا في هذا العصر وانهم قد لعبوا دورا كبيرا في تزويد العالم الاسلامي بالرقيق ، لكن الاوروبيين قد بدأوا منذ بداية القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد يستغنون شيئا فشيئا عن وساطة اليهود الرهادنة فصار الكتلانيون والبندقيون والجنويون واهل بروفنسا يمارسون بانفسهم التجارة مع العالم الاسلامي ولذلك نجدهم فيما تلا من عصور يبرمون معاهدات مع الدولة الحفصية مثلا تهدف الى تمكين التجار النصارى من الاستقرار ببعض الموانئ المغربية والاتجار فيها (1).

وهكذا توقف نشاط اليهود الرهادنة بعد ان كان على اشده خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ونفدت

---

1) لوترنو - R. Le Tourneau - المغرب الاسلامي من القرن السابع الى نهاية القرن الخامس عشر - ص 165
L'occident musulman du 7e à la fin du 15e siècle - AIEO - 16 - ALGER - 1958 - P. 165

بضاعة الرقيق الصقلي التي كانت من اهم بضائعهم (1)
وشرع التجار الايطاليون يتعاملون مباشرة مع العالم الاسلامي
غير مقتصرين على الناحية المغربية منه كما كانوا
خلال القرن الثالث والرابع وانما لفتوا انظارهم نحو
المشرق وعقدوا علاقات تجارية مع الفاطميين بمصر
وتغيرت بذلك الدورة الاقتصادية بين العالمين الاسلامي
والمسيحي او بين الشرق والغرب واتخذت اشكالا
جديدة مغايرة للاوضاع التي كانت عليها في هذا العصر
ونحن لا نعني بذلك ان المجموعات اليهودية المنتشرة في
المعمورة قد انقطعت عن المتاجرة مع المسلمين بل تواصلت معاملتهم معهم
الى عصور متاخرة فيهود مرسيليا Marseille وايطاليا مثلا
كانوا خلال القرن الثالث عشر للميلاد يتاجرون مع افريقية كما ان يهود
افريقية كانوا يتعاملون مع تجار سردينيا - sardaigne - اذاك (2)

---

1) كلود كاهان - Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية في التاريخ الوسيط ص 357

2) برنشفيك - Brunschvig - بلاد البربر الشرقية في ظل الحفصيين
ج 1 ص 409 - وما بعدها
نجاة باشا — التجارة في المغرب الاسلامي ص 104 — 107

4) النخاسون الـــــروس

أ- اصلهـــم الروســـي :

كان هؤلاء الروس من اصل اسكندنافي وهم يتالفون من المجموعـــات السويديـــة التي نزحت منذ منتصف القرن التاسع للميلاد من السويد وانتشـــرت على ضفاف خليج فنلندة والبحيرات المجاورة وامكن لها ان تختلط شيئا فشيئـــا بالصقالبـــة وتتمصر في جنسهم وقـــد انشات على طول الطريق التجارية الرابطة بين بحر البلطيق والبحر الاسود والتي يمر بها نهر الدنيبر محطات تجاريـــة وعسكريـــة ستصبح بعد ذلك مدنا وحاميات للسفن التجاريـــة من غارات البرابرة ومن اشهر هذه المحطات " نوفجرد " NOVOGOROD و " سمولنسك " - SMOLENSK و " ليوبتش " LIOUBETCH و " كييف " KIEV و " بريسلاف " PEREIASLAV وقد اشتهر منها في القرن العاشر للميلاد مركز كييف لانـــه ملتقـــى القوافل التجاريـــة الاتيـــة من بحر الخزر وبحر " ازوف " AZOV والبحر الاسود ومن اشهر امراء هذا المركز " اسكولد " ASKOLD و " اولغ " - OLEG - و" ايغور " IGOR وقد بسطوا نفوذهم على صغار الامراء السويديين وكونـــوا امارة كبرى خلال القرن الرابع للهجرة سميت اذاك امارة روسيـــة لانها استقرت بالارض التي ستنشأ عليها روسيـــا فيما بعد (1) .

---

1) لويس هالفن - Louis Halphen - البرابرة من الغزوات الكبرى الى الفتوحات التركية في القرن الحادي عشر للميلاد - ص 318 - 320
Les Barbares des Grandes invasions aux Conquêtes Turques du XIe Siècle

وقد وصف الجغرافيون العرب ثلاث جماعات من الروس فذكروا امارة "كويابة " وهي " كييف " Kiev واشادوا بنشاطها التجاري وسموا الجماعة الثانية " الصلاوية " وهم السكان الاصليون لنوفجرد Novogorod اي " السلوفيني " Sloveni اما الجماعة الثالثة فهم الارثانية ويعيش ملكهم في " ارثا " Erza ووصفوهم بانهم همج يقتلون الغرباء (1) ويبدو انهم يعنون بهذه الجماعة الثالثة الفرع الشرقي للشعب الفنلندي " موردفا " Mordova وهو الذي يعيش في حوض "سورة " Soura احد روافد نهر الفولجا الى الغرب من " قازان " Kazan ومدينتهم " ارزا " Erza هي التي يسميها العرب " ارثا " (2) ومهما يكن من امر فان دولة اسكندنافية روسية قد نشأت في هذا العصر على يد مؤسسها السويدي " روريك Rurik واستقرت بجوار منابع الفولجا وسيطرت على روافده وتعاملت مع الشعوب المجاورة له (3) ولذلك نجد الاصطخري وابن حوقل يجعلان الروس بين البلغار والصقالبة ويرى المسعودي في مروج الذهب يطلق على البحر الاسود اسم بحر الروس لانهم الشعب الوحيد الذي يمخرعباب هذا البحر ويعيش على شاطيء من شطانه (4).

---

1) ابن حوقل — المسالك والممالك — الاصطخري — المسالك والممالك — الادريسي نزهة المشتاق عن منتخبات -لاسكندر صايبل A. Seipel - اخبار امم المجوس ص 56—86

2) مينورسكي-V.Minorsky-د ائرة المعارف الاسلامية.الترجمة العربية مقال : روس ص 226

3) كليمان هوار CL. Huart - تاريخ العرب - Histoire des Arabes ج 2 ص 105 — 107 هايد Heyd تاريخ تجارة الشرق - Hist du Com du Levant ج 1 ص 60 — 61 وص 67 — 69

5) المسعودي — مروج الذهب — ج 2 ص 15 - ف - مينورسكي- د ائرة المعارف الا سلامية.الترجمة العربية مقال روس - ص 226

ب- خاصيتهم التجارية :

وكان هؤلاء الروس يسمون " الفارنجيين " Varègues ومعناها التجار لان اهم انشطتهم تتمثل في التجارة اذ لم يكن لهذا الشعب الذي بعد عن موطنه اكثر من الف وخمسمائة كلم ليكتفي بالاستقرار في " كييف " Kiev وانما كانت له اهداف تجارية اوسع من ذلك (1) وقد عرفهم العرب بهذا الاسم ايضا فدعوهم " ورنك " وهو تعريب للكلمة الروسية القديمة Varegue ومعناه "عضو في اتحاد للتجار ارتبط بالقسم " من الكلمة الاسكندنافية " فار " Var اي العهد او العقد وقد وردت هذه التسمية عند ابي الفداء و البيروني وفسرت بانها تدل على الشعب الذي انتشرت مجموعاته من البحر البلطي (البلطيق) الى شمال الصقالبة حتى وصل الى جوار البلغار المسلمين (2) وهكذا بسط هؤلاء " الورنك " Varègues نفوذهم على السلاف وانشؤوا مستودعات محصنة تدعى " جورود " (Gorods) وصارت هذه المستودعات

---

1) لويس هالفن - Louis Halphen - البرابرة ص318-320

2) مينورسكي - V. Minorsky - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية - مقال روس - ص: 228
ابو الفداء - الجغرافية - طبعة رينو Reinaud ص 35
البيروني - التفهيم - طبعة رايت - R. Wright - 1934 - ص 121

بعد ذلك مدنا ذات حضارة في وقت لم يكن الغرب يعرف فيه سوى الاقتصاد الفلاحي (1)

وقد اكد فازيلياف - Vasiliev - بحق ان هنالك تماثلا بين النرمان و " الفاراق " Varègues الذين انشؤوا اول دولة روسية (2) فالنرمان كانوا يغزون الامبراطورية الكارولنجية والفاراق كانوا يغزون الامم المجاورة لهم وخاصة الامم السلافية وكانوا جميعا غزاة وتجارا في آن واحد ولم يكونوا مجرد قراصنة بل كانوا يسعون الى انشاء قواعد وجاليات تجارية في الخارج وكان من اهم الموانيء التي انشؤوها ميناء " فولين " Volin على البلطيق وهو اذاك من اكبر الموانى باوروبا حسب قول مؤرخ عربي (3).

---

1) لويس برييي - Louis Bréhier - الحضارة البيزنطية - ص 202
هـ - بيران - H. Pirenne - المدن في العصر الوسيط - بروكسال Bruxelles 1927 ص 46 - 52
ايك - ECK - التجارة المتوسطية بعد الغزو العربي - المجلة التاريخية للجنوب الشرقي الاوروبي - بوخارست 1941 ص 37 - 38
H. Pirenne - Les villes au Moyen âge - Bruxelles 1927 p 46-52
ECK - le Commerce Méditerranéen après l'invasion arabe - Revue Historique du Sud est Européen - Bucarest - 1941 - p 37-38

2) لويس برييي - Louis Bréhier - الحضارة البيزنطية La civilisation Byzantine ص 202 . فازيلياف Vasiliev الهجوم الروسي - The Russian Attack - ص 3 ومابعدها

3) لويس برييي - L. Bréhier - الحضارة البيزنطية ص 203 ايك - ECK - التجارية المتوسطية ص 35

ج- مـادة تجارتهـم :

وقد وصف الرحالـة المسلمون بضائع هؤلاء التجار واهمها الفراء وجلود السمور الاسود والعسل الذي كان يعوض السكر والرصاص والرقيق (1) وكانوا يحصلـون على بضاعـة الرقيق عن طريق الشراء والجلب او الاغـارة والغزو اذ كانوا ينظمون حملات على بلاد الصقالبـة ويعيشون على ما يحرزونه من غنائم وقد عرف العرب من بين هذه الحملات ما شنـه "سفياتوسلاف" sviatoslav على شعوب اوروبا الشرقيـة (البلغار والبرطاس والخزر) من هجومـات.ويجعل ابن حوقل تاريخ هذه الحملات سنـة (358 هـ/ 968- 969م) بدلا من عام (355 - هـ/ 966م) كما جاء في الحوليات الروسيـة غير ان بارتولد Barthold قد بين بحق ان هذا التاريخ يشير فـي الواقـع الى البحث الذي قام بـه ابن حوقل عن هذه المسالـة في جرجان (2) وقد وصف ابن رستة هذه الحملات التي كانت توفر للتجـار

---

1) الاصطخري - المسالك والممالك - المكتبة الجغرافية العربية - دي غوية - De Goeje ليدن 1927 ص 226- ابن خرد اذبـة - المسالك والممالك - عن الاسكندر صايبل A. Seipel اخبار امم المجوس ص 49
لويس بيرييي - Louis Bréhier - الحضارة البيزنطية ص 202

2) مينورسكي V-Minorsky - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية - مقال روس ص 227

الروس الرقيق الصقلبي بقوله " الروس يغزون الصقالبة ويركبون السفن حتى يغزوهم ويسبوهم ثم يحملونهم الى خزران وبلكار حيث يبيعونهم وليس للروس مزارع انما ياكلون مما يستوردونه من ارض الصقالبة .والروس يحسنون الى ما يملكونه من رقيق"(1) .

وبذلك كان اغلب الرقيق الذي يجعل منه هؤلاء الروس مادة لتجارتهم هو الرقيق الصقلبي ولكن ذلك لم يمنع من ان يوجد بايديهم من حين لاخر رقيق من صنف اخر خصوصا انهم كانوا يحاربون الروم والبلغار والخزر وياسرون منهم الا ان هذه الانواع تعتبر غير ذات بال بالقياس الى وفرة ما يحرزون عليه من الرقيق الصقلبي الذي يصدرونه الى العالم الاسلامي .

وقد قدم لنا ابن فضلان في رسالته وصفا لمتاجرة الروس بالرقيق في " اتل " itil عاصمة الخزر وقد كان شاهد عيان لتلك المبايعات وذلك خلال سفارته الى ملك البلغار من قبل الخليفة المقتدر (295-320هـ/908-932م) فحكى في رسالته ما عاينه منذ انفصل عن بغداد الى ان عاد اليها

---

1) ابن رستة ـ الاعلاق النفيسة ـ المكتبة الجغرافية العربية ـ ج 7 نشر دي غوية - De Goeje ليدن 1892 ص 145
الاسكندر صايبل - A - Seippel - اخبار امم المجوس ص 51

وجاء في هاتـه الرسالـة ما يلي : " ورايت الروسيـة وقد وافوا بتجاراتهـم فنزلوا على نهر اتل ..... وهو نهر كبير ويبنون على شاطئـه بيوتـا كبارا من الخشب ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والاقل والاكثر ولكل واحد منهم سرير يجلس عليـه ومعـه جواريـه الروقـة للتجـارة فينكح الواحد جاريتـه ورفيقـه ينظر اليـه وربمـا اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحذاء بعض وربمـا يدخل التاجر عليهم ليشـتري من بعضهم جاريـة فيصادفـه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي اربـه .. وساعـة موافاة سفنهم الى هذا المرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبـز ولحم ولبن وبصل ونبيـذ حتى يوافـي خشبـة طويلـة منصوبـة لها وجـه يشبـه وجـه الانسـان وحولها صور صغار وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في الارض فيوافـي الى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقـول : يارب قد جئت من بعد ومعي من الجواري كذا وكذا راسا ومن السمـور كذا وكذا جلدا ..... " (1)

---

1) ابن فضلان ـ الرسالة ـ ص 150 ـ 153 ـ الاسكندر صايبل A. Seipel اخبار امم المجوس ـ ص 90 ـ 91

د- اتصالهم بالعالم الاسلامي :

لقد كان هؤلاء التجار الروس يزودون العالم الاسلامي اذن ببضاعة الرقيق ويسلكون طرقا نحو هذا العالم وصفها لنا الرحالة والجغرافيون المسلمون وقد كانوا في الواقع همزة وصل بين تيارين تجاريين احدهما التجار المتجه نحو البلطيق والبلاد الاسكندنافية وثانيهما التيار المتجه نحو البحر الاسود وبحر الخزر وكانوا بحكم استقرارهم بين القسطنطينية وبغداد يتلقون تاثير حضارتين حضارة الخلافة العباسية والحضارة البيزنطية ويقومون بدور المزود التجاري لهما وكانوا يبيعون ما يجلبونه من فراء وعسل ورقيق من بلاد الصقالبة للتجار المسلمين و البيزنطيين في آن واحد وان النقود البيزنطية والعربية التي عثر عليها في روسيا لدليل على هذا التبادل التجاري (1)

لقد اتجه التجار الروس اذن نحو القسطنطينية ونحو البلاد الاسلامية في آن واحد ذلك ان التيار التجاري المنطلق من الشمال والمتسرب

---

1) لويس بيرييي - Louis Brehier - الحضارة البيزنطية - La civilisation Byzantine - ص 202
هـ - بيران - H. Pirenne - المدن في العصر الوسيط - Les villes au Moyen Age -
بروكسيل - Bruxelles - 1927 - ص 46 - 52
ايك - ECK - التجارة المتوسطية اثر الغزو العربي - Le Commerce Mediterranéen après l'invasion Arabe
المجلة التاريخية لجنوب شرقي اوروبا - Revue historique du Sud Est Européen -
بوخارست - Bucarest - 1941 - ص 37 - 38

عن طريق " الدنيبر " Dniepr كان يرمي الى غاية محددة هي البحر الاسود ثم البوسفور - Bosphore - والقسطنطينية ولذلك نرى امراء " كييف " Kiev يسعون الى فتح السوق البيزنطية على مصراعيها ويستعملون من اجل السلاح ان لزم الامر ، وفعلا نراهم يقومون خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد بخمسة هجومات على الامبراطورية البيزنطية ليفرضوا على الاباطرة معاهدات تجارية ترضي مطامحهم وذلك سنوات (246 هـ/ 860 م) و (294 هـ/ 907 م) و (330 هـ/ 941م) و (333 هـ/ 944م) و (360 هـ/ 971م) وهددوا القسطنطينية وفرضوا ارادتهم وحققوا علاقات تجارية بين بلاد البلطيق وعاصمة البوسفور (1) .

هكذا دخل الروس الامبراطورية البيزنطية للمتاجرة ومن المرجح ان تجار "كييف " Kiev قد استقروا بالقسطنطينية لاول مرة بعد الغزو الروسي سنة (349 هـ/ 960م) ثم نقلوا بعد ذلك الى ربض القديس " ماماس " Faubourg de saint-Mamas حيث استقر التجار البلغار في القرن

---

1) لويس هالفن - Louis. Halphen - البرابرة من الغزوات الكبرى الى الفتوحات التركية في القرن الحادي عشر للميلاد - ص 318 - 320
Les barbares des Grandes invasions aux Conquêtes Turques du XI siècle

العاشر للميلاد (1) ولم تكن الحروب الناشبة بين الروس والبيزنطيين لتحول دون هذه العلاقات التجارية خصوصا اذا علمنا ان هدنات عديدة قد ابرمت بين الطرفين وكانت غايتها المصالح التجارية مثل معاهدة " اولاغ " OLeG مع ليون السادس - Léon VI (273-300 هـ/886-912م) سنة (299 هـ/ 911م) ومعاهدة " ايغور " - IGOr - مع الامبراطور رومانوس ليكابانوس - Romain Lécapène (307-333 هـ/ 919 -944م) سنة (-333- هـ/ 945م) ومعاهدة " سفياتوسلاف " - SviatosLav - مع يوحنا الدمستق Jean Tzimiskès(-366 هـ/ 969-976م) سنة (360 هـ/ 971م) ومعاهدة " اياروسلاف " IarosLav مع الامبراطور قسطنطين التاسع (434-445 هـ/1042-1055م) سنة (436 هـ/ 1046 م) وهي كلها معاهدات تنص على اتفاقيات تجارية عقدت بعد هجومات الروس (2) وعلى كل فقد سمحت هذه الظروف بدخول النخاسين الروس الى العالم البيزنطي والى القسطنطينية على وجه الخصوص وكانت اهم البضائع التي

---

1) لويس بيريبي - Louis Brehier - الحضارة البيزنطية ص 85
أ - فازيلياف - Vasiliev - الهجوم الروسي على القسطنطينية سنة 860 للميلاد
The Russian Attack of Constantinople in 860 - كامبردج - Cambridge - 1946 ص 229

2) لويس - بيريبي - Louis Brehier - الحضارة البيزنطية ص 203

يدلبونها اليها الفرو والريش وكان دخولهم اليها في الغالب عن طريق ميناء "تشيرسون" في القرم (1) .

اما اتصال التجار الروس بمسلمي الشرق فيرجع في الواقع الى القرن الثاني للهجرة كما تدل على ذلك القطع النقدية لكن ازدهار هذه التجارة كان في اواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع للهجرة وذلك عندما انشأ الروس الاسكندنافيون مملكة "روريك" - RURIK - وانشاوا مراكز تجارية في "اتل" ITIL على بحر الخزر واتصلوا بالبلغار المسلمين (2) وكان هؤلاء التجار الروس يسيطرون بسفنهم على تجارة نهر الفولجا - VOLGA - فيحملون بضائعهم ومنها الرقيق الى بلاد الخزر فيبيعونها في "اتل" - ITIL - عاصمة الخزر او بغيرها من المدن الواقعة على ضفاف بحر قزوين (3) وقد يواصلون طريقهم بهذه البضاعة فيجتازون بحر الخزر ويدخلون بلاد

1) ارشيبالد لويس - A.Lewis - السيادة الاسلامية ص73 - 74
2) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق ج1 ص67-66
3) المسعودي - مروج الذهب ج2 ص9 و11 كليمان هوار - Cl.Huart - تاريخ العرب - Histoire des Arabes - ج2 ص105 107
هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق ج1 ص60 61

الاسلام عن طريق جرجان ثم ينقلون بضاعتهم على الابل الى ان يوافوا بها بغداد ، وقد وصف ابن خرداذبة سفن الروس في بحر الخزر وذكر انهم كانوا اذا دخلوا بلاد الاسلام ادعوا انهم نصارى ودفعوا الجزية كاهل الذمة واصطحبوا معهم خدما صقالبة ليترجموا عنهم يقول في ذلك :

" الروس جنس من الصقالبة يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود من اقصى صقلبة الى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم وان ساروا في نهر الصقالبة (تنيس) مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون الى بحر جرجان فيخرجون في اي سواحله احبوا وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الابل الى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون انهم نصارى فيؤدون الجزية " (1) ويفهم من كلام ابن خرداذبة وابن الفقيه (2) ان هؤلاء التجار كانوا يتجاوزون هذه المدى في رحلاتهم ويتوجهون الى الهند والصين .

لكن ابن خرداذبة الذي وصف لنا الطريق البحرية التي يمر بها التجار الروس يذكر لنا طرقا برية تذهب تارة من طنجة الى دمشق وبغداد

---

1) ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك ـ عن الاسكندر صايبل A.Seippel
اخبار امم المجوس ص 49

2) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ـ ص 271 ـ مينورسكي - V. Minorsky
دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ مقال روس ص 225

والبصرة ثم الى الهند والصين وطورا من المناطق الواقعة شمالي رومة مرورا ببلاد الصقالبة للوصول الى حاضرة الخزر وبلخ وبلاد التغزغز والصين (1) فهل معنى ذلك ان هؤلاء التجار الروس الشرقيين هم انفسهم الذين كانوا يجوبون هذه الطرق كلها شرقا وغربا وبحرا وبرا ؟ وهل نفهم من ذلك ان تزويدهم للعالم الاسلامي بالرقيق قد كان عبر هذه المسالك كلها ؟

الواقع اننا لا نجد دليلا واضحا على ذلك والارجح ان ابن خرداذبة الذي اعتبر الروس " جنسا من الصقالبة " قد استعمل مصطلح "روس" في معنى ومدلول اوسع اي للدلالة على امم الشمال الاسكندنافيين الذين نزحوا شرقا وغربا وجنوبا فكان منهم شرقا " الفاراق " -Les . Varegues- وهم الذين استوطنوا "كييف" Kiev وصدروا رقيق الصقالبة الى مسلمي الشرق وكان منهم غربا " الفيكنك " LesVikings وهم " المجوس " الذين استوطنوا السويد Suède والنرويج Novège وهجموا على بريطانيا وايرلندا وداهم خطرهم الاندلس مرات وكان منهم جنوبا النرمان Normands الذين انتشروا في اواسط اوروبا (2) وقد اطلق الرحالة والجغرافيون المسلمون

---

1) ابن خرداذبة ــ المسالك والممالك.ص 154 ـ مينورسكي ـ دائرة المعارف الاسلامية ــ الترجمة العربية مقال ــ روس ص 225

2) لاروس الكبير ــ الموسوعة ــ ج 10 ص 820

كلمة " مجوس " على هذه الامم الشمالية كلها وقد يكون ذلك لاشتراكهم في طقوس عقائدية مثل عبادة النار او احراق الموتى (1) كما جمع هؤلاء الرحالة والجغرافيون بين كلمتي " مجوس " و " روس " في مناسبات عديدة مثلما نجد عند ابن فضلان في رحلته الى بلاد الصقالبة (2) وعند اليعقوبي في حديثه عن هجوم المجوس المعروفين بالروس على اشبيلية سنة (229 هـ/ 843-844م) (3) وعند المسعودي في ذكره للحوادث التي جرت بالاندلس حوالي عام (300هـ/ 912-913م) (4) فلا غرو اذن اذا ما وجدنا نفس هذا الاستعمال عند ابن خرداذبة.

ومهما يكن من امر فان التجار الروس الشرقيين قد كانوا يزودون العالم الاسلامي بالرقيق الصقلبي بصورة مباشرة كما راينا اذ وصلوا الى بغداد كما كانوا يزودونه بطرق غير مباشرة وذلك من خلال تعاملهم مع البلغار اذ كان العرب على صلة ببلاد البلغار ولهم معها علاقات

---

1) مينورسكي- Minorsky - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية - مقال روس ص 223 - نلاحظ ان المسلمين اطلقوا على الفرس أسم مجوس ايضا

2) ابن فضلان - الرسالة - ص163- 164

3) اليعقوبي - كتاب البلدان - المكتبة الجغرافية العربية ج 7 ص 354

4) المسعودي - مروج الذهب - ج 1 ص 364 - 365

تجارية وهذا ابن حوقل يذكر لنا ان التجار الروس كانوا

يقصدون بلاد البلغار ويتاجرون فيها وذلك قبل ان يخربوها

سنة (358هـ/ - 969 - م) (1) وكانوا يجلبون اليها

ما بايديهم من فراء ورقيق وهي بضاعة كانوا يبيعونها

هناك اما للعرب مباشرة لوجود تجار عرب بتلك البلاد

واما للبلغار انفسهم وقد كانوا اذاك يتاجرون مع العرب (2)

وقد يصل الروس ببضاعتهم الى بلاد الخزر ويتسلمها

منهم التجار المسلمون هناك. وقد ذكر ابن حوقل ان مصب

التجارة الروسية في " خزران " لم يزل على

حاله تلك في عهده اي القرن الرابع للهجرة (3) .

---

1) ابن حوقل ـ المسالك والممالك ـ الاصطخري ـ المسالك والممالك ـ عن الاسكندر صايبل A Seippel
اخبار امم المجوس ـ ص 56 وص 73 ـ 75

2) هايد - Heyd - تاريخ تجارة المشرق ـ ج 1 ص 62

3) ابن حوقل ـ المسالك والممالك ـ عن الاسكندر صايبل A.Seippel
اخبار امم المجوس ص 73 ـ 75

5) التجـــــــار البلغـــــار

وممن لعب دورا فعالا ايضا في ترويج تجارة الرقيق الصقلبي وتصديره نحو الاسواق الاسلامية البلغار وهم شعب تكونت منه دولة على نهر الفولجا منذ اوائل القرون الوسطى (1) وينتمي هذا الشعب الى الجنس التركي التتري (2) وذلك قبل نزوحه نحو شبه جزيرة البلقان وانصهاره في الجنس السلافي (3) وقد عرف المسلمون هذا الشعب واتصلوا به وكان يطلقون عليه اسم ((برجان)) احيانا كما نجد ذلك عند اليعقوبي وياقوت الذي اورد في معجمه هذه الكلمة ضمنة في بيت من الشعر (4) وقد دخل المسلمون ((بلغار)) عاصمة البلغاريين وقد كانت هذه المدينة توجد بين قازان (5) وسمبرسك (6) وهي اذاك مستودع تجاري بين آسيا وشمال اوربا. وقد حدد الجغرافيون العرب مواقع هذا الشعب فقالوا انها تجاور بلاد الخزر من جهة وبلاد الصقالبة من جهة اخرى وانه لا يفصلها عن الخزر الا شعب ((البرطاس)) او ((البرداس)) الفنلندي الاصل (7)

1) وبارتولد - مقال بلغار - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية - ص88
2) Turco-Tatare
3) ك - هوار - تاريخ العرب - ج 2 ص105 . 107 . هايد ج 1 ص60 . 61
4) و - بارتولد - مقال بلغار - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية ص90
5) Kazan
6) - Simbirsk - انظر - ك - هوار - تاريخ العرب ج 2 ص105 . 107
و - هايد ج 1 ص60 . 61 ج - لوبون - حضارة العرب ص439 . 441
7) و - بارتولد - مقال بلغار - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية - ص93 . 94

وقد كانت لهؤلاء البلغار تجارة مع الصقالبة المجاورين لهم وكانوا يجلبون من عندهم انواعا من البضائع مثل الفراء واللبود والرقيق والعنبر كما كان التجار الروس ياتون الى عاصمتهم ويبيعون لهم الرقيق والفراء فيبيع البلغار هذه البضاعة بدورهم الى العرب القاطنين بمدينتهم او الوافدين عليهم لغرض التجارة وقد يصدرونها عن طريق نهر الفولجا الى اتل عاصمة الخزر حيث يوجد التجار المسلمون فيشترون منهم تلك المواد التجارية (1). فقد وجدت اذاك جاليات اسلامية باتل وبلغار كما تدل على ذلك الكتابات الكوفية الموجودة بروسيا (2). وهكذا كان التجار البلغار يقومون بدورهام في ايصال بضاعة الرقيق الى الاسواق الاسلامية. وكانت اكثر صلاتهم التجارية بمملكة السامانيين لاسباب جغرافية. فكانوا يزودون البلاد الاسلامية بالرقيق عن طريق هذه الامارة التي كانت تبسط نفوذها اذاك على ما وراء النهر (3)

ومما يسر هذا النوع من المعاملات التجارية بين مسلمي الشرق وبلاد البلغار اعتناق البلغار للاسلام فقد وصفهم ابن رستة بانهم مسلمون صالحون عندهم مساجد ومدارس ومؤذنون وائمة وذكر ان ملابسهم ومقابرهم تشبه ملابس المسلمين ومقابرهم (4) وقد تحدث عنهم ابن فضلان في رسالته

---

1) هايد ج 1 ص 60 . 61 . 62 - ك - هوار - تاريخ العرب ج 2 ص 105 . 107 .

2) و - بارتولد - مقال بلغار - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية ص 96 . 97 .

3) كان البلغار كاهل خوارزم يغطون روؤسهم بالقبعات المرتفعة التي يسميها العرب القلانس - انظر - و - بارتولد - مقال بلغار - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية - ص 91 . وص 96 .

وذكر انهم اسلموا قبل ذهابه اليهم سنة (309هـ/210هـ/ 921م.922م)
وكانت المهمة التي ارسله الخليفة المقتدر من اجلها اليهم هي تفقيههم
في الدين وتعليمهم شرائع الاسلام وقد وصف لنا هذا الرسول ما بذله من
جهد في تعديل امور الخطبة في المسجد وفي فصل النساء عن الرجال
في السباحة (1) . وقد كان من نتائج انتشار الاسلام بين
افراد هذا الشعب ان تراجع فرع آخر منه
حتى وصل الى نهر ((اتل)) الاوسط وذلك
بسبب ضغط الاعداء عليه لانه قد
اعتنق الاسلام وظل مدة طويلة من الزمن يجسم
طلائع المسلمين في ناحية الشمال - وقد حدثنا
المقدسي ايضا عن المعالم الاسلامية
بمدينة ((بلغار)) فوصف مسجدها
الجامع الذي كان يقوم في سوقها (2)
وهكذا يسر انتشار الاسلام في تلك
الربوع المعاملات التجارية بينها وبين
ربوع الشرق الاسلامي .

---

1) ابن فضلان ص117 . 118 وص 120 . وص134
2) و - بارتولد - مقال بلغار - دائرة المعارف الاسلامية
الترجمة العربية - ص90 . و 95

6) النخاسون النصارى

ومن النخاسين الذين كانوا يقومون بعملية تصدير الرقيق الاوروبي الى العالم الاسلامي النخاسون النصارى فقد كان تجار دلماسيا - Dalmatie والبندقية من اهم القائمين على هذه العملية عن طريق حوض البحر الابيض المتوسط. فكان الايطاليون والفرنسيون هم تجار البندقية ومرسيليا يحملون بانفسهم ما يجمعونه من رقيق مسيحي وغير مسيحي الى اسواق البلاد الاسلامية (1) وقد توسع نشاط هؤلاء التجار خاصة ابتداءا من القرن الرابع للهجرة عندما تقلص دور اليهود الرهادنة اذ بدأ الاوروبيون من كتلانيين وبندقيين وجنوبيين يستغنون عن وساطة اليهود واصبح تجار بروفنسا - Provence - يتاجرون مباشرة مع المغرب الاسلامي وقد استمر نشاطهم التجاري هذا حتى عصور متأخرة اذ تشهد بذلك المعاهدات العديدة المبرمة بين الدولة الحفصية والدول الاوروبية وهي معاهدات تنص على كيفية تنظيم الاتصال بين التجار النصارى وبلاد المغرب وضمان اقامتهم في موانئه ومدنه (2).

---

1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد - دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 33
نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي - ص 115. 116
2) ر - ل - تورنو - المغرب الاسلامي - ص 165
R. Le Tourneau - L'occident musulman du 7e à la fin du 15e siècle
AIEO - ALGer - 1958 - T 16 - P 165 -

7) النخـــاســون المسلمـــون

لقـد امكـن للنخاسيـن المسلميـن الجلابيـن للرقيـق من البلاد المجاورة للعالم الاسلامـي ان يتوغلـوا في بلاد السودان وان يصلـوا الى مناطـق عـديـدة من القارة الافريقية ليتمكنـوا من جلب الرقيـق الاسـود فقصدوا اشهـر المدن التجارية بغربي افريقيا وشرقيهـا واواسطهـا وتنقلـوا بين الامارات والممالك والقبائل الموجودة اذاك . وقد يسرلهـم ذلك بفضـل ازدهـار التجارة الصحراوية الاسلاميـة (1) وكـان هؤلاء النخاسـون ينطلقـون من جهـات مختلفـة نحـو الصحـراء الافريقيـة وخاصة من افريقية والمغـرب ومن جنوب مصر واليمن و موانـيء الخليج الفـارسـي .

وقـد كـان للقبائـل البربريـة بافريقيـة والمغرب دور اساسي في الاضطلاع بمهمـة جلب الرقيق الاسود وخاصة منها تلك القبائل المجاورة لبلاد السودان والقاطنـة على تخـوم الصحراء . وقد وصف لنـا اليعقـوبي هـذا الدور الذي لعبـه بربـر زويلـة وكـوار قائـلا ((ووراء ذلك (اي ودان) بلد زويلـة مما يلي القبلة وهم قـوم مسلمون اباضية كلهـم يحجون البيت الحرام ... ويخرجـون الرقيق السودان من الميريين والزغـاويين والمرويين وغيرهم من اجناس السودان لقربهـم منهم وهم يسبونهم.وبلغنـي ان ملوك السودان يبيعـون السودان من غير شيء ولا حرب ... ووراء زويلة على خمس عشرة

---

1) كلود كاهان - Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية - ص349 - 357

مرحلة مدينة يقال لها كوار بها قوم من المسلمين من سائر الاحياء اكثرهم بربر وهم ياتون بالسودان ...)) (1)

ويبدو انه منذ الحملة التي نظمت انطلاقا من السوس الاقصى نحو اودغست سنة (116 هـ/ 734 م) وهي حملة يقول عنها المؤرخون انها كانت ناجحة لم يرجع العرب الى تلك المنطقة وعوضهم البربر فسيطروا على الطرق والاسواق .وقد حدثنا نفس المؤلف عن النشاط التجاري الذي اضطلعت به بعض قبائل صنهاجة وخاصة منها ((انبية)) لوجودها على الطرق المؤدية من سجلماسة الى اودغست مما سمح لها بان تساهم في جلب الرقيق من بلاد السودان(2) كما حدثنا ابن حوقل الذي زار سجلماسة واودغست سنة (340 هـ/ 951 م) عن القبائل البربرية التي كانت تمارس التجارة الصحراوية في هاتين المدينتين وبينهما فذكر قبائل نفوسة التي كانت تتقاضى اموالا على التجارة التي تمر بها لوجودها على الطريق الرابطة بين المدينتين كما ذكر ايضا دور سكان اودغست وهم بربر صنهاجة في هذا الميدان (3)

وقد تواصل نشاط التجار البربر فيما بعد فهذا البكري يحدثنا عن تاجر وحيد قبل عهده باودغست يقال له ابورستان من جبل نفوسة من الاباضية ويفهم من حديثه عنه أنه كان من تجار الرقيق ، ويضيف ان السلطة باودغست كانت

1) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ المكتبة الجغرافية العربية دي غوية - De Goeje - ليدن-1892 ج 7 ص 345

2) نفس المصدر ـ ص 360

3) ابن حوقل ـ صورة الارض ج 1 ص 90 . 103

لرجل من صنهاجة يدعى تين يورتان بن وسنوين نزار وكانت مدة ملكه من (350هـ/ 961 م) الى سنة (360 هـ/ 971 م) كما يقول ان اكثر من عشرين من ملوك السودان يرضخون له ويدفعون له الجزية وكان يسبي منهم الكثير. ويتعرض البكري ايضا الى انتشار البربر من صنهاجة في اودغست وبينها وبين بلاد السودان ويصف قبائل لمتونة على بعد عشر مراحل من بلاد السودان مشيرا الى اضطلاعهم بفريضة الجهاد في تلك البقاع (1) وقد تجاوز البربر المسلمون هذا الحد من توغلهم في ارض السودان اذ بلغوا غانة التي يقول عنها البكري انها كانت سنة (460هـ/1067. 1068م) تتكون من مدينتين يسكن احداهما المسلمون (2)

وقد كان تجار تاهرت في عهد الائمة الرستميين يتاجرون مع بلاد السودان. وقد ذكر ابن الصغير سفارات وقعت بين الطرفين في اطار تسهيل العلاقات التجارية (3) على ان سيطرة البربر المسلمين على هذا النوع من التجارة مع بلاد السودان الغربية والوسطى لا يعني عدم وجود تجار عرب وان كان عددهم قليلا فسجلماسة على حد قول ابن حوقل نجد فيها تجار العراق والبصرة والكوفة وكذلك تجار بغداد وقد اكتسبوا ثروات طائلة من تجارتهم (4) ويقول المهلبي الذي توفي سنة (380هـ/ 990م) ونقل عنه ياقوت في معجمه ان اودغست يقصدها

---

1) البكري المسالك والممالك - طبعة دي سلان Deslane 1965 ص 159

2) المصدر نفسه ص 163. 165 - 175

3) ابن الصغير - تاريخ الائمة الرستميين بتاهرت - ص 108 - كوك Cuoq - منتخبات - 19-20

4) ابن حوقل - صورة الارض ج 1 ص 90. 103

التجار من كل صوب وان سكانها قد اسلموا في عهد عبد الله المهدي (1) ومن المعلوم ايضا ان بعض القبائل البربرية المهتمة بالتجارة مع بلاد السودان قد اختلطت بالعرب فالبكري يشير الى ان باودغست عند ما هجم عليها المرابطون بربرا من زناتة وعربا وكان لهم كثير من الرقيق حتى ان الواحد منهم يملك اكثر من الف راس من العبيد (2) ويحدثنا نفس المؤلف عن الامويين الذي استقروا بعد ان طاردهم العباسون ببلاد كانم وهي بلاد توجد بعد صحراء زويلة (3).

واذا ما كان التجار البربر هم المسيطرون على تجارة بلاد السودان الوسطى والغربية فان عرب المشرق هم الذين كانت بيد هم تجارة بلاد السودان الشرقية فقد كانوا ينطلقون من جنوب مصر ويتوغلون في بلاد النوبة والبجة مرورا بمدينة اسوان ووادي العلاقي وكان اغلب التجار بتلك النواحي ينتمون الى قبائل عربية استقرت بمعادن التبر ومارست تجارة الرقيق في الوقت نفسه فاكثر ((من بالعلاقي قوم من ربيعة من بني حنيفة من اهل اليمامة انتقلوا اليها بالعيالات والذرية ووادي العلاقي وما حواليه معادن للتبر وكل ما قرب منه يعتمل فيه الناس لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون في الحفر ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الاصفر ثم يسبك)) (4) ومن هذه القبائل المهتمة بتجارة الرقيق والتبر بلي وجهينة وبنوسليم وقوم من مضر وكان التجار المسلمون يصلون بتجارتهم الى مدينة علوة ببلاد النوبة والى مدينة هجر ببلاد البجة (5)

---

1) ياقوت الحموي - معجم البلدان - مادة - اودغست - راجع ايضا ابو الفداء - جغرافية - ترجمة رينو - Reinaud - طبعة باريس 1848 ج 2 ص 174 175

2) البكري - المسالك والممالك - طبعة - دي سلان De slane 1965 ص 170. 173

3) المصدر نفسه ص 10. 11

4) اليعقوبي - كتاب البلدان - المكتبة الجغرافية العربية - طبعة دي غوية DeGoje 1892 ص 334

5) المصدر نفسه ص 335. 337

وكان التجار العرب يقصدون سواحل شرق افريقيا انطلاقا من الحجاز واليمن فيدخلون بلاد الحبشة وبلاد الزنج انطلاقا من عدن وزبيد ومدن الحجاز وقد وصف لنا المقدسي دور تجار عدن في ربط الصلة ببلاد السودان (1) امّا تجار العراق فكانوا يخرجون من بغداد والبصرة وسيراف وسائر موانيء الخليج الفارسي وكذلك كان يفعل تجار عمان اذ كانوا يركبون البحر ويخترقون المحيط الهندي محاذين جنوب الجزيرة العربية الى ان يصلوا الى سواحل شرق افريقيا (2).

---

1) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 97 - 98

2) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 145-150

وكان التجار المسلمون يذهبون الى بلاد الروس ويتاجرون مع البلاد الاسكندينافية وكانت القوافل تربط بين اذربيجان وبلاد الفولجا والبلطيق فيتوغل اولئك التجار في البلاد السلافية ويصلون الى ممالك البلطيق والمناطق المجاورة لنهر الفولجا الاعلى والاوسط وكذلك نهر الدنيبر - Dnieper حيث عثر على كنوز من النقود العربية منها ما هو بويهي ومنها ما هو عباسي ومنها ما هو ساماني واغلب هذه النقود يرجع تاريخه الى الفترة المتراوحة بين سنة 909م وسنة 914م (1) ويبدو ان التجار السامانيين كانوا اكثر ترددا من غيرهم الى تلك المناطق الشمالية وذلك ان القطع النقدية المعثور عليها بروسيا والسويد يرجع اكثرها الى الدولة السامانية التي سيطرت على ما وراء النهر وخراسان منذ الربع الاخير من القرن الثالث الى نهاية القرن الرابع للهجرة . وتحمل تلك النقود اسماء مدن شمل سمرقند وبخارى والشاش ((طشقند)) وبلخ ونيسابور وغيرها وفي هذا دليل على تجارة السامانيين مع الروس والشعوب الاسكندنافية (2) وقد ذكر كل من الاصطخري وابن حوقل ان التجار المسلمين كانوا يدخلون مدينة "كويابة" كييف Kiev الروسية للتجارة .

يقول الاصطخري ((الروس ثلاثة انواع صنف هم اقرب الى بلغار وملكهم يقيم بمدينة تسمى كويابة وهي اكبر من مدينة بلغار وصنف ابعد منهم يسمون الصلاوية وصنف يسمون

---

1) ك . هوار - تاريخ العرب ج 2 ص 105 . 107 - هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق - ج 1 ص 60 . 61 - صورة الارض ص 317 . 323 .

2) هايد - ج 1 ص 59

الارثانية وملكهم مقيم بارثا والناس يبلغون في التجارة الى كويابة فاما ارثا فهم يقتلون من يدخل ارضهم من الغرباء)) (1).

وكان التجار المسلمون ينطلقون ايضا من اقليم ارمينية الى روسيا، ويدل على ذلك القطع النقدية التي يرجع جزء منها الى البلاد الواقعة على الساحل الجنوبي لبحر الخزر مثل جرجان وطبرستان والديلم وتحمل هذه النقود اسم مدينة برذعة الواقعة في منطقة الران (2) وقد اشار الادريسي الى دخول التجار المسلمين من ارمينية الى كويابة فقال ((وكويابة هي مدينة الترك المسمين روسا والروس ثلاثة اصناف احدها بروس وملكهم يسكن مدينة كويابة والصلاوية وملكهم يسكن مدينة صلاوة والارثانية وملكهم بمدينة ارثا . ويبلغ تجار المسلمين من ارمينية الى كويابة)) (3).

لكن التجار المسلمين لم يكونوا يذهبون دائما الى تلك البقاع البعيدة فغالبا ما تراهم يكتفون بالذهاب الى مراكز تجارية مثل اتل الواقعة على مصب نهر الفولجا او باب الابواب (دربند) الواقعة على بحر قزوين او الجرجانية جنوبي بحر ارال فيشترون منها بضاعة الرقيق التي يجلبها الروس والبلغار الى تلك المناطق (4) الا انهم لم يقنعوا دائما بهذه الوساطة

---

1) الاصطخري _ المسالك والممالك _ وكذلك ابن حوقل _ المسالك والممالك _ الاسكندر صايبل _ ص 56

2) هايد ج 1 ص 59

3) الادريسي _ نزهة المشتاق عن الاسكندر صايبل ص 86

4) صودال _ ص 317 . 323

ونراهم يصعدون نهر الفولجا ويصلون الى بلغار خصوصا ان ملكها وشعبها كانوا قد اعتنقوا الاسلام (1) ويذكر ابن حوقل في هذا الصدد ان التجار الخوارزمية كانوا يذهبون كثيرا الى بلغار والصقالبة كما كانوا يغيرون عليهم ويسبونهم (2) فكانت سفن المسلمين التجارية تصل الى بلاد البلغار وتدفع العشور - وكان البلغار يتعاملون بالنقود الفضية التي تأتيهم من بلاد المسلمين ويدفعونها ثمنا للبضائع التي يستوردونها من بلاد الروس والصقالبة - ويرى بارتولد ان اختفاء العملة الفضية في اواسط آسيا في القرن الخامس الهجري وفي جهات اخرى من العالم الاسلامي في عهد متأخر نوعا ما قد ظهر اثره في بلاد البلغار (3).

ولعل من احسن الادلة على متانة الروابط بين الخلافة الاسلامية بالمشرق وبلاد البلغار سفارة ابن فضلان في القرن الرابع للهجرة من قبل الخليفة المقتدر الى مدينة البلغار. فقد غادر هذا الرسول بغداد في الحادي عشر من صفر عام 309 هـ (21 جوان عام 921 م) ووصل الى عاصمة البلغار على نهر اتل يوم السبت الثاني عشر من المحرم عام 310 هـ (12 ماي عام 922 م) وكانت الطريق التي سلكها هذا السفير هي نفس الطريق التي كانت تسلكها تجارة الرقيق اذ نراه يمر بالجرجانية بالقرب من المدينة

1) ك - هوار - تاريخ العرب ج 2 ص 105 - هايد ج 1 ص 61.60
2) ابن حوقل - المسالك والممالك عن الاسكندر صايل ص 75.73
3) بارتولد - دائرة المعارف الاسلامية. مقال بلغار - الترجمة العربية ص 97

المعروفة بـ ((كنيهة او كتح)) في خيوة ويذهب من خوارزم الى المجون الا دنس لنهراتل ثم يدخل منه الى ارض الخزر ثم البرطاس الى ان يصل الى مدينة البلغار وقد ارسل الخليفة رسلا اخرين الى ملك البلغار منهم سوسن الرسي الذي كلفه بالمهام السياسية بينما كلف ابن فضلان بالمهام الدينية وبارس الصقلابي وتكين التركي (1).

وهكذا لم تنقطع العلاقات في هذا العصر بين مسلمي بغداد ومدينة بلغار فقد وجد ابن فضلان عند وصوله اليها خياطا بغداديا في بلاط الملك واستقى منه بعض المعلومات عن المملكة وشعبها (2) وقد اضاف المسعودي في مروج الذهب ان احد ابناء ملك البلغار قد حج الى مكة في عهد المقتدر اي قبل عام (320هـ/932م) فاغتنم الفرصة ومر الى بغداد وقدم فروض الطاعة للخليفة (3).

ولم تكن هذه العلاقات الدينية والسياسية الا اطارا رسميا لعلاقات امتن واهم وهي العلاقات التجارية فالتجار المسلمون قد كانوا سفراء دائمين الى هذه البلاد وخاصة منهم التجار السامانيون الذين كانوا اوثق اتصالا ببلغار من غيرهم (4).

---

1) سوسن الرسي هو مولى نذير الحرمي وكان كما يبدو من نسبه من بلاد الروس وقد جلب رقيقا ثم تعلم العربية وحسن اسلامه وصار حاجبا للمكتفي (289-295هـ/902-908م) وبارس الصقلابي هو غلام اسماعيل بن احمد حاجب خراسان واسمه ونسبه دليلان على اصله. وتكين التركي كان حدادا في خوارزم وقد وقف على بيع الحديد في بلد الكفار وهو الذي اقنع نذير الحرمي بايصال كتاب ملك الروس الى الخليفة المقتدر بالله.
انظر - سامي الدهان - مقدمة رسالة ابن فضلان ص 23.24 ابن فضلان الرسالة ص 68.69.و.و.بارتولد - مقال بلغار - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية ص 92.

2) ابن فضلان ص 124.

3) بارتولد - مقال بلغار - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية ص 96

4) المرجع نفسه ص 96.97

لكن هؤلاء النخاسين الذين امكنهم ان يصلوا بتجارتهم الى بقاع مختلفة من بلاد السودان ونواح شتى من القارة الافريقية واستطاعوا ان يتجولوا على سواحل وموانيء الهند والصين وان يتغلغلوا في بلاد الاتراك وبلاد الخزر والبلغار وان يساهموا بتجارتهم في ربط الصلة بين بيزنطة والعالم الاسلامي وان يتاجروا مع جنوب ايطاليا وفرنسا لا نجدهم يتوغلون في القارة الاوروبية الا قليلا ولا ينزحون نحو الشمال الا غرارا بل نراهم يخوضون عملية جلب الرقيق من اوروبا الى النخاسين الاجانب غالبا وخاصة منهم اليهود كما رأينا .

ويبدو على العموم ان مسلمي شمال افريقيا واسبانيا قد تاجروا قليلا مع الغرب اللاتيني مفضلين ترك مثل هاته التجارة بايدي المدن الاطالية القائمة اذاك وايدي اليهود الذين جابوا الطرق من فرنسا الشمالية وبراغ الى اسواق الرقيق الاسبانية ولم يكن المسلمون يرون ضرورة للسفر الى البلاد الاوربية والرحالة المسلم الوحيد الذي زار ((ماينز)) « Mainz » في اوائل القرن العاشر للميلاد ووصف بدهشة السلع المعروضة للبيع هو من شواذ القاعدة فيما يظهر (1) وربما كان استغلال التجارة الصحراوية والشرقية قد استنفد طاقات التجار المسلمين كما يمكن ان تكون غاراتهم على السواحل المسيحية وغارات اعشاش القرصنة من امثال ((فركسينتوم)) قد كفتهم مؤونة الاضطلاع بالمتاجرة مع الغرب الاوربي (2) .

1) صابي - Sabbe - بعض النماذج من تجار القرنين التاسع والعاشر للميلاد المجلة البلجيكية - 1934 عدد XIII ص 178 - 180
Sabbe - Quelques types de Marchands des IX et X siècles in Revue Belge - 1934. N: XIII

2) ارشيبالد لويس - Archibald Lewis - دراسات اسلامية ص 32 . 83

8) مشاهير النخاسين

الملاحظ اننا لا نجد اهتماما من قبل المؤلفين القدامى بتراجم هذا النوع من الرجال لان الراي العام لم يكن ينظر اليهم نظرة تقدير واحترام ولانهم لم يكونوا يمثلون فرعا من فروع الثقافة ولعل اصحاب الحرف والمهن جميعا لم يحظوا بعناية كتاب التراجم لان هؤلاء المؤلفين لم يكونوا يعيرون اهتماما الا لارباب العلم والفكر اما اصحاب الاعمال اليدوية كالنجارين والحدادين والتجار فلم يعتنوا بهم . وليس من الغريب ان تكون ثمة صلة بين موقفهم هذا وما استقر في المجتمع الاسلامي من عادات تكرّم رجال العلم واهل الصنائع الفكرية وتفضلهم على غيرهم من الممتهنين للصناعات اليدوية وهي عادات قديمة لم يتخلص منها المجتمع الاسلامي تخلصا تاما في شتى عصوره ولهذه الاسباب يجد الباحث عسرا في التعرف على تجار الرقيق في العصر الذي نهتم بدراسته وفي غيره من العصور الاسلامية ايضا .

واذا ما تعرّض المؤرخون والاخباريون واصحاب كتب الطبقات الى بعض النخاسين في عصر من العصور ففي سياق حديثهم عن مشاغل لا علاقة لها بتجارة الرقيق وفي معرض كلامهم عن جوانب اخرى من شخصيات اولئك النخاسين ، لا صلة لها بموضوع النخاسة مثلما فعلوا في تعرضهم لعبد الله بن جدعان التيمي الذي كان تاجر رقيق قبل الاسلام وبعده اذ

كانت الغاية من ذكره في كتبهم اعتباره ضمن الصحابة ورئاسته لقريش في حرب الفجار (1) اما بالنسبة الى عصرنا فان الصدف التي جعلت من بعض النخاسين اناسا مساهمين في بعض ميادين العالم والمعرفة في طور من اطوار حياتهم قد دعت اصحاب التراجم الى الحديث عنهم في عداد الزهاد او الشعراء او الفقهاء وبذلك اتيح لنا التعرف على عدد قليل منهم ومن زاوية ضيقة لا تلقي اضواء كافية على دورهم في مهنة النخاسة . كما ان حديث كتب التاريخ والادب عن شهيرات الجواري قد اشار بطرق غير مباشرة الى بعض مشاهير النخاسين الذين ارتبطت اسماؤهم بفن تخريج القيان وبيعهن وشرائهن .

ونظرا لما قدمنا من معطيات لا يسعنا الا ان نقدم بعض الامثلة على من عرف بالمشرق والمغرب من النخاسين دون ان يكون غرضنا الاستقصاء او التعريف الكامل لتعذره في مثل هاته الحال. ففيما يخص المشرق تشير المصادر الى وجود تفاوت في القيمة والشهرة بين النخاسين، والى وجود درجات اختصاص في مهنة النخاسة . فمن تجار الرقيق بالمشرق من كانت له الرئاسة في هذه المهنة ويعتبر مستشارا فيها و مرجعا يرجع اليه في الدقيق من امورها . ويذكر كل من ابن بطلان والسقطي نخاسا وجد قبل عصريهما آلت اليه هذه الرآسة بالمشرق وتجاوزت شهرته حدود المشرق الى المغرب وهو نخاس يكنى ((أبا عثمان))

---

1) شمس الدين الذهبي — سير اعلام النبلاء — طبعة مصر 1957 ج 2 ص 10. 16 المسعودي- مروج الذهب طبعة مصر 1304 هـ في جزئين ج 1 ص 282 زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي- ج 4 ص 19. 21 - الزبيري - نسب قريش ص 291 292 — الزركلي — الاعلام ج 4 ص 204

تروى عنه اقوال ماثورة في التمييز بين الجيد والرديء من الرقيق لخبرته وطول تجربته. يقول السقطي : ((حكي عن ابي عثمان رئيس النخاسين بالمشرق والشأن اليه هنالك لكثرة الخبرة والمداولة على القوم ...)) (1) ومن اقواله المشهورة قوله : ((اذا وجدت المرأة بنت تسع حجج كتامية الام صنهاجية الاب مصمودية المنشأ قد جلبت الى المدينة واقامت بها ثلاث حجج وبالعراق عشر حجج فتلك التي جمعت حسن الجنس الى كمال القصد وقليل ان تخفى في اجفان العيون)) (2) من الواضح اذن ان ابا عثمان هذا من مشاهير النخاسين الا ان المصادر لا تسعفنا بمعلومات اضفى عن ظروف حياته المهنية .

وتشير المصادر الى بعض تجار الجواري والقيان بالمشرق وخاصة منهم اولئك الذين اهتموا بتعليم الاماء قبل بيعهن ومعظم هؤلاء من مشاهير المغنين . وقد اشتهر في هذا العصر ((ابن رامين)) الذي كان صاحب قيان يقصد بيته الشعراء والتجار لولعهم بما احتوى عليه من شهيرات الجواري اللائي ذاع صيتهن بالعراق مثل سلامة الزرقاء (3) ولم تستنكف بعض

---

1) السقطي – آداب الحسبة – ص 50

2) المصدر نفسه – ص 51 . 52 . ابن بطلان – رسالة في شري الرقيق – ص 374

3) ابن قتيبة – عيون الاخبار – دار كتب المصرية القاهرة . 1348 هـ / 1930 م الطبعة الاولى ج 10 ص 99 . 100

الاصفهاني – الاغاني – طبعة بولاق – ج 10 ص 135

النسوة ايضا من فتح بيوتهن سوقا للجواري المغنيات ومنهن ((بربر)) التي
كانت لها دار معروفة يتردد عليها اصحاب الشغف بالاماء من شعراء
ونخاسين وغيرهم وقد كان الشاعر مطيع بن اياس يتردد الى هذه الدار لاعجابه
باحدى جواريها التي كانت تدعى ((جوهر)) (1) وقد اورد صاحب
كتاب الاغاني اخبارا كثيرة عن مشاهير المغنين الذين كانوا يمارسون تجارة
الرقيق ويختارون منه اجوده ليشرفوا على تعليمه ثم بيعه بارفع
الاثمان (2)

وقد عرف بالمشرق ايضا وبالعراق على وجه الخصوص محمود بن حسن
الوراق (3) الذي مارس النخاسة في مرحلة من مراحل حياته ثم تخلى عنها
وسلك طريق الزهد وقد نقلت المصادر اخباره باعتباره شاعرا مجيدا وان كانت
قد اشارت الى ممارسته لتجارة الرقيق في وقت ما . وقد يشير المؤرخون احيانا
الى بعض النخاسين الذين اتصلوا برجال السلطة لاهتمامهم في الغالب بتاريخ
الملوك والاسر الحاكمة . اذ تحدثوا من حين لاخر عن تاجر رقيق مشهور مثل محمد
ابن موسى الرازي اصيل مدينة الري وكان محمد هذا من كبار التجار المتجولين بالآفاق
فقد سافر الى افريقية في عهد ابراهيم بن الاغلب (261 - 289 هـ / 875 - 902 م)
وكان ابراهيم على علاقة طيبة مع محمد الاول الاندلسي (238-273هـ/852-886م)
فارسل اليه محمد الرازي مصحوبا بمجموعة من الهدايا فصار محمد صديقا للامير
الاندلسي ومكث عنده مدة من الزمن ثم رجع الى العراق.لكن المودة التي توثقت

---

1) فلهاوزن -Wellhausen- J - الدولة العربية.تعريب ابي ريدة - 1953 ص264
2) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت - 1964 - ج18ص 93
3) توفي سنة (230هـ/ - 845 - م) - (الزركلي - الاعلام)

بين الرجلين قد دعت الامير الى استقدام صديقه التاجر مرة اخرى سنة (271هـ/ 884م) فلبى نداءه وقدم عليه بجارية يونانية الاصل من عائلة امراء متقنة للغناء والادب وحافظة لفصيح الشعر قديمه وحديثه واراد بيعها لصديقه لكن بلاط الامير لم يول هذه الجارية اهمية كبرى فغضب التاجر وغادر الاندلس قاصدا سجلماسة حيث تاجر بالرقيق هناك. وعندما توفي الامير محمد الاول سنة (273هـ/ 886م) وتولى المنذر (273-275هـ/ 886-888م) مكانه تلقى الراني الدعوة من البلاط الاندلسي مرة اخرى فسارع بالذهاب الى قرطبة ولكن مقامه بها لم يدم طويلا لان المنذر لقي حتفه امام حصون ((ببشتر)) فقرر التاجر العودة الا انه مرض بألبيرة وتوفي بها سنة (277هـ/ 890م) (1).

امّا فيما يخص النخاسين بالمغرب فان بعض الاحداث الكبرى التي جرت بافريقية في عهد الامام سحنون من خلاف بينه وبين الامير الاغلبي حول ما وقع من سبي للحرائر في الحملة على تونس قد كانت مناسبة لاهتمام بعض المؤلفين بمن ساهم في المتاجرة بذلك السبي من غزاة ونخاسين ولهذه الاسباب نجد ذكرا عند المالكي في رياض النفوس لبعض الاسماء مثل ((حاتم الجزيي)) الذي اعطى ما بيده من سبايا مقابل سبعة دنانير تحت الضغط المسلط من قبل القاضي ورجال الحسبة. ومثل النخاس المسمى ((منصور)) الذي انتزع المحتسبون من يده بعض الحرائر اللائي جلبهن من تونس للبيع كما جرى ذكر بعض القادة مثل ((زوكاي بن زريخ)) الذي جلب سبيا من جزيرة ابن شريك (2) لكن المصادر قلما حدثتنا عن هؤلاء النخاسين لذاتهم

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 502-503

2) المالكي - رياض النفوس - ج 1 ص 280 . 281. 282

وقلما اولتهم عناية خاصة بهم ومن هذه الاحوال النادرة حديث الرحالة البكري عن نخاس مشهور باودغست وجد قبل عهده يقال له ابورستان النفوسي وهو تاجر بربري الاصل كما تدل على ذلك نسبته وقد كان من الاباضية (1) ويذكر ابن حوقل الذي زار سجلماسة سنة (340هـ/ 951م) و وجد بها تجار العراق والبصرة والكوفة وبغداد انه صادف بينها وبين اودغست بربر نفوسة من صنهاجة يتقاضون اموالا على التجارات المارة بهم ومنها تجارة الرقيق (2) ويتعرض كل من ابن حوقل والبكري الى نفس الظاهرة بالنسبة الى بربر مسوفة الذين انتشروا بوادي درعة بين سجلماسة وغانة وكانوا يتقاضون مكوسا على تجارة بلاد السودان (3) فقد كانت قبائل البربر في الجملة مسيطرة على طرق هذه التجارة وقد شاركهم العرب كما راينا سابقا في ممارسة تجارة رقيق السودان .

---

1) البكري _ المسالك والممالك _ طبعة دي سلان - De slane - 1965 ص159

2) ابن حوقل _ صورة الارض طبعة ليد - Leyde - 1938 — نشره كريمر _ J. H. Kramers - في جزأين ج 1 ص90 . 103
(opus Géographicum autore Ibn Haukal)

3) البكري المعرب ص 149
ابن حوقل - صورة الارض = الترجمة الفرنسية _ لفيات Wiet وكرامرز Kramers
ج 1 ص48_52

الفصل الثاني

شراة الرقيق

شـــــراة الـــرقيــق

واذا ما تساءلنا عن شراة الرقيق في هذا العصر لاحظنا ان حظوظهم من هذه المادة التجارية كانت متفاوتة حسب اوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية كتفاوت حظوظهم من المواد التجارية الاخرى وخاصة منها مواد تجارة الترف ووسائل الانتاج . وذلك لان مجتمع هذا العصر قد اتسعت خلاله الفوارق الاجتماعية بين الفئات حسب مواردها وامكاناتها المادية ولان توزيع الثروة لم يكن بصورة عادلة مما آل الى تجمع الثروات بين ايدي فئة اثرت ثراءا فاحشا وحرمت منها اخرى عاشت في فقر مدقع وقد انعكس هذا الواقع في آداب العصر بصورة واضحة (1) وبما ان الرقيق كان مادة ضرورية في هذا المجتمع وكان متفاوت الاثمان ايضا راينا من المفيد ان نتساءل عن حظوظ الفئات الاجتماعية منه كما وكيفا.

---

1) الهمذاني ـ المقامات ـ طبعة 1346هـ/1928م (مصر)
التوحيدي ـ الامتاع والموانسة ج1ص 105 - ج2ص 26
آدم متز A.MEZ الحضارة الاسلامية- ج2ص 209ـ267

1) طبقـــــة الخـاصـة

من البـديهي ان نقـول ان سراة القوم واثريـاء هـــم هـم الذي كـانـوا اكثـرا قتنـاءالـه من غيرهـم بحـــكم ثرواتهـم الضخمـة ومـا تتطلبـه حياتهم المترفـة من خدمات يسخرون الرقيـق للقيـام بهـا ومـن متـع ومـلاذ يتخـذون الجواري الحسـان والغلمـان المقـدودين مـادة لهـا وسيلـة لتحقيقهـا . وكثيـرة هـي الروايـات التى تصور لنا وجود القوم عنـد خروجهـم فتصفهـم محفوفين بكوكبـة من الغلمـان ابهـة وخيلاء وربمـا استعمـل احد هـم خـدمه للدفـاع عنـه عند الحاجـة ولا براز قوتـه وجبروتـه حتى امسى الا ستكثـار من هؤلاء الرقيق عنوانـا للجاه والثروة ولم يكن هـذا السلوك خاصـا بالمسلمين في هـذا العصـر اذ نجـد وجهـاء الروم البيزنطيين يتوخونـه ايضـا مما دعـا الوعـاظ الى النهي عنـه فـي شتى العصور وامتـدادا من القرن الخامس الى القرن الرابـع عشـر الميلاد ويمكننـا ان نذكـر على سبيـل المثال بالقديس ((يوحنـا كريزوستوم)) - saint Jean chrysostome - (القرن الخامس) وبالقديس ((ايزود ور تسالونيك)) Isodore de thessalonique القـرن الرابـع عشـر) الذين ثارا ضد كبرياء هؤلاء الوجهـاء الذين كـانـو يتبخـترون في شوارع المـدن بعـديـد مـن الـرقيـق (1)

1) لويس بريي - Louis Bréhier -
الحضارة البيزنطيـة civilisation Byzantine - ص 15

وطبقة الخاصة هي اكثر الطبقات الاجتماعية حظا في هذا المجال وهي تتكون من رجال البلاط وكبار الموظفين كالوزراء ورؤساء الكتاب وقواد الجند والولاة وكبار التجار (1) ومن الطبيعي ان يكون الخلفاء والامراء واسرهم في مقدمة رجال هذه الطبقة لان طاقتهم الشرائية تتجاوز كل الحدود وتقدر على شراء انفس انواع الرقيق والآلاف المؤلفة منه وقد راينا امثلة مما يبذله رجال البلاط من نفقات طائلة لهذا العرض لان حياة القصر الملكي تتطلب العديد من الوظائف والخدمات التي يعول فيها على الرقيق في المقام الاول لاسباب سياسية ومهنية وفنية متنوعة . وكان رجال البلاط يكلفون اعوانا للقيام بمهمة شراء ما يرغبون فيه من رقيق شأنهم في ذلك شان حكام الدولة البيزنطية الذين كان لهم تجار مكلفون بشراء الرقيق من المناطق الحدودية وخاصة من القوقاز (2)

---

1) الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ص225

2) لويس بريبي - L. Bréhier - المؤسسات Les institutions

ص 252 :

وكان ولاة الاقاليم وامراؤها يذهبون مذهب الخلفاء والوزراء والملوك والحجاب وقواد الجند وامهات الاولاد بالبلاط الملكي في الاستكثار من مادة الرقيق ويكلفون اعوانا لجلبه واقتنائه مثلما كان يعمل عبد الله بن طاهر امير خراسان اذ كلف رجلا يدعى ((ابا السمراء)) ليشتري له بعض الجواري من بيوت النخاسين وجرت بينهما مكاتبات في ذلك (1) وكان الرقيق في متناول ايدي هؤلاء الولاة والعمال قبل ان يكون في متناول غيرهم اذ منهم من يلي عملا او ولاية تكتظ بالرقيق لقربها من مصادره واسواقه الاجنبية مثل ولاة دولة السامانيين بما وراء النهر فكانوا ينتقون منه أجوده ويهدون منه الى الخلفاء والملوك ما يرونه لائقا بمقامهم . ويمكن ان نضرب مثلا بما تركه ابوالحسين علي بن احمد الراسبي والي جند نيسابور والسوس وماذارايا من رقيقه الخاص بعد موته سنة (301هـ/ 913م) فقد خلف 114 اربعة عشر ومائة من خدم السودان وثمانية وعشرين ومائة و12 من الغلمان البيض وتسعة عشر 19 من الخدم الصقالبة والروم واربعين 40 غلاما بآلاتهم وسلاحهم ودوابهم (2) وقد تكثر مادة الرقيق في ولاية احدهم كثرة تجعله يرسل الجواري الى مركز الخلافة في شكل

---

1) ابن القيم الجوزية - اخبار النساء ص 113-114

2) احمد امين - ظهر الاسلام - ج 1 ص 105-106
الثعالبي - يتيمة الدهر ج2 ص 106

رؤوس من الرقيق واحسن شال على ذلك ولاة خراسان (1).

وقد اورد صاحب المحاسن والمساوي اخبارا حول ما كان يشتريه ولاة المأمون (198 - 218 هـ/ 813 - 833م) وقضاة من الرقيق فقد روي عن بشر بن الوليد انه قال : ((كنت عند المأمون فقال ولينا رجلا قضاء دمشق واجرينا عليه الف درهم اشار علي به محمد ابن سماعة فأقام بها اربعة عشر شهرا فوجهنا من يتتبع امواله في السر والعلانية ويتعرف حاله فاخبرانه وجد ما ظهر من ماله في هذا المقدار من دابة وغلام وجارية وفرس واثاث قيمته ثلاثة آلاف دينار وولينا رجلا نهاوند فاقام بها اربعة وعشرين شهرا فوجهنا من يتتبع امواله واخبرنا ان في منزله خدما وخصيانا بقيمة الف وخمسمائة دينار)) (2).

وبصورة عامة يمكن القول بان طبقة الخاصة هي التي كانت تمثل اعظم المالكين للرقيق فكبار التجار كانوا ينعمون بالشرف الذي ينعم به رجال الدولة بل انهم كانوا يستمدون اكبر نصيب من ثرواتهم من تعاملهم مع الطبقة

---

1) الدوري - مقال : نظام الضرائب في خراسان - ص 79
2) البيهقي - المحاسن والمساوي - ص 163

الحاكمة وبذلك كانت الدولة على حد قول ابن خلدون هي السوق الاعظم . وهي ((ام الاسواق كلها واصلها ومادتها في الدخل والخرج فان كسدت وقلت مصارفها فاجدر بما بعدها من الاسواق ان يلحقها مثل ذلك واشد منه وايضا فالمال انما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم اليه ومنه اليهم فاذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله في عباده)) (1).

ان هذا القول ليصح تماما بالنسبة الى تجارة الرقيق فالدولة هي فعلا السوق الاعظم لهذه التجارة في هذا العصر لان احوال الترف والنظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي التي تحف بالدولة الاسلامية كانت تقتضي في مرحلة من مراحل حياتها اقتناء مادة اساسية وضرورية لحياتها وهي مادة الرقيق ((الموالي والصنائع)) (2).

---

1) ابن خلدون _ المقدمة _ ص 204

2) المصدر نفسه _ ص 124 _ 125

٤) الطبقـــة المتـــوسطـــة

وكانت الطبقة المتوسطة من المجتمع وهي التي تشمل عامة التجار والموظفين وأصحاب الملكيات الصغيرة والاراضي تقتني الرقيق وتستعمله في خدماتها الخاصة او المهنية لكن امكانات ابناء هذه الطبقة المادية لم تكن تسمح لهم باقتناء مجموعات كبيرة من الرقيق وانما كان يكتفي الواحد منهم بعدد محدود حسب حاجياته العائلية أو ما تستدعيه تنمية موارده الاقتصادية في ميدان التجارة او الصناعة او الفلاحة وسائر الانشطة الاجتماعية . واذا ما تأملنا في مستوى الدخل المادي بالنسبة الى افراد هذه الطبقة وفي مقدرتهم الشرائية امكننا ان نعرف الى اي مدى يمكنهم ان يمتلكوا هذه البضاعة .

فمن الامثلة التي تصور لنا مستوى عيش هذه الفئة الاجتماعية في هذا العصر ما ذكره سبط ابن الجوزي من ان فقيها ولد سنة (252 هـ / 866 م) قد قرر ان يضمن مستقبل ابنه فعمل على تخصيص دينار له في كل يوم طيلة حياته ادراكا منه ان ذلك المبلغ يكفي الرجل المتوسط الحال ويتيح له كما فكر في ان يدخر له ملغا يعادل ذلك للمشتري (1) وهكذا نستنتج منه ان ثلاثين دينارا في

---

1) المقريزي - إغاثة الأمة - ص 85

الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 246-248

الشهر كانت تكفي لمعيشة عائلة من الطبقة المتوسطة في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع للهجرة . وروي ان احد التجار قد افلس وذلك عام (301هـ / 913 م) فاعطاه الوزير علي بن عيسى اربعمائة دينار فدفع مائتين منها لدائنيه واشتغل بالباقي ولم تنته السنة الا وكان عنده الف دينار (1) وبذلك يكون صافي ربحه خلال سنة ثمانمائة دينار .

فهذه الصورة عن مستوى الدخل الشهري تدل على تمكن صاحبه من اقتناء بعض الرؤوس من الرقيق وذلك بالمقارنة بين معدل سعر هذه البضاعة ومعدل الدخل. وقد اورد القاضي التنوخي بعض الاخبار التي تصور لنا ما يقتنيه ابناء الطبقة المتوسطة من رؤوس الرقيق فمن ذلك خبر رجل بدد ثروته ثم ورث ثلاثين الف دينار فعزم على الانفاق بها طيلة حياته وتوزيعها على ابواب معينة بحصص مقدرة وهو ذا يصف لنا حسن تدبيره بقوله :((اعتقدت ان لا ابذر وان ادبرها واعيش بها الى ان اموت وانفقها على اقتصاد . فعمرت هذه الدار واشتريت جميع ما فيها من فرش وآلة وثياب ومركوب وجوار وغلمان بخمسة

---

(1) الدوري – تاريخ العراق الاقتصادي ص246 – 248

آلاف دينار وجعلت تحت الارض خمسة آلاف دينار عدة للحوادث وابتعت ضياعا ومستغلات بعشرة الاف دينار تغل في كل سنة مقدار نفقتي ... ويفضل لي في كل سنة الى وقت ورود الغلات شيء آخر حتى لا احتاج اقترض ولا استدين)) ويقول التنوخي ان الدار كما وصفها صديق له تحتوي على ((اربعة غلمان قد جعل خدمتين الى كل واحد منهما وخادم شيخ ... جعله بوابا وشاكري وهو سائسه)) (1).

وواضح من خلال ما سبق ان الخدم والغلمان والجواري كانت من الضروريات التي يمتلكها رجل من الطبقة المتوسطة لتنقيم شؤونه العائلية والمهنية. وهذه رواية ترجع الى العقد الثالث من القرن الرابع للهجرة وتصف كالرواية السابقة احوال هذه الطبقة ومفادها ان رجلا افلس ثم ورث اربعين الف دينار فحاول ان يدبر اموره باقتصاد وحدث بذلك صديقه فقال ((فعمرت هذه الدار بالف دينار واشتريت من الالة والفرش والثياب والجواري ما تراه وغيره بسبعة الاف دينار وسلمت

---

1) التنوخي – الفرج بعد الشدة ج 2ص 17
آدم متز - A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2ص209
الدوري – تاريخ العراق الاقتصادي ص255 – 256

الى بعض التجار الثلاثة الاف دينار يتجر لي فيها)) وكان لهذا الرجل ثلاثة غلمان وخادم اقامه على حرمه وشيخ بواب ووكيل يتسوق له (1)

كان اذن لابناء هذه الطبقة ما يمكنهم من اقتناء الرقيق واستخدامه للمتعة والخدمة وذلك بمقدار يتفاوتون فيه ولكنه دون ما كان يتمتع به ابناء طبقة الخاصة من قدرة على استعمال مجموعات ضخمة من الرقيق في حياة الترف والاستثمار الاقتصادي او الابهة والقوة العسكرية ... ولا بد ان نتساءل ايضا من حظ طبقة العامة من هذه البضاعة وان نقارن بينها وبين الطبقة المتوسطة والخاصة في هذا المجال حتى يكتمل تصورنا لعملية توزيع هذه المادة التجارية بين شتى اصناف الفئات الاجتماعية في هذا العصر .

3) طبقة العامة

ان طبقة العامة هي الطبقة الفقيرة في بنية هذا المجتمع وهي تشتمل على الفلاحين واهل الحرف والصناع والباعة المتجولين والمكدين وهؤلاء من الكادحين في سبيل الحصول على القوت ويمثلون اليد العاملة التي تعتمد عليها الحياة الاقتصادية فلم يكن بامكانهم ان يعولوا على غيرهم في القيام بشؤونهم ولذلك

---

1) التنوخي - نشوار المحاضرة - ج 1 ص 91 - 93
الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص255 - 256

كانوا ابعد الناس عن اقتناء الرقيق واعجزهم عن امتلاكه بل كان مستوى عيشهم دون مستوى عيش بعض الفئات المسترقة التي تعيش في كنف ارباب الطبقة الارستقراطية . ويحسن بنا ان نلقي نظرة على معدل دخل افراد هذه الطبقة حتى تكون لنا فكرة عن قدرتها الشرائية

فيحدثنا التنوخي مثلا عن دخل الباعة المتجولين و ((من يبيع بيعا يسيرا مثل نقلي وهداري ومن راس ماله دينار ودينارين وثلاثة)) ويبين لنا ان واردهم كان ضئيلا (1) وان منهم من كان يبيع على قارعة الطريق اشياء رخيصة بدرهم او درهمين (2) وان من البقالين من لم يكن لديه من الوفر مائة فلس (حوالي خمسة دراهم) نقدا (3) وتدل اخبار الزجاج النحوي على اوضاع الصناع المادية في أواخر القرن الثالث للهجرة اذ كان وهو شاب يشتغل بخرط الزجاج ويكسب ((في كل يوم درهم ودانقين او درهم ونصف)) وقد اراد ان يدرس النحو على المبرد الذي كان ((لا يعلّم النحو مجانا ولا يعلّم باجرة الا على قدرها)) فقال الزجاج للمبرد ((اريد ان تبالغ في تعليمي وانا اعطيك في كل يوم درهما واشرط لك اني اعطيك اياه ابدا الى ان يفرق الموت بيننا استغنيت عن التعليم

1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص246-248
2) المرجع نفسه -
3) المرجع نفسه -

او احتجت اليه)) فوافق المبرد (1) ويفهم من ذلك ان الزجاج لم يكن قادرا على دفع الاجرة العادية التي تبلغ الدرهمين او الثلاثة في اليوم .

وفي دخل الاجراء ايضا صورة لهذا المستوى المادي ففي سنة (397هـ/ 1006م) اشتغل احد الزهاد بالحراسة عند احد اليهود وطلب ان تكون اجرته ثلاثة ارطال خبز ودانقي فضة في اليوم (2) وجاء رجل فقير الى البصرة في اواسط القرن الرابع للهجرة وطلب عملا من صاحب حانوت فاستخدمه كاتبا لحساباته مقابل اجرة نصف درهم في اليوم اضافة الى طعامه وكسوته (3) فهذه كلها اشارات الى مستوى الدخل بالنسبة الى ابناء هذه الطبقة وهو مستوى لم يكن يسمح لهم باقتناء الرقيق .

واذا ما كان رجال الفكر من ادباء وعلماء وشعراء واطباء يعيشون في الغالب على فتات موائد طبقة الخاصة ويحظون احيانا ببعض الامتيازات فنجد عند بعضهم الجارية او الخادم فانهم كانوا في بعض الفترات وخاصة في القرن الرابع للهجرة باقليم العراق يعيشون

1) التنوخي - نشوار المحاضرة - ج 1 ص 274

2) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص249 - 250

3) المرجع نفسه -

معيشة الخصاصة والفقر وقد وصفهم ابو حيان التوحيدي كما وصف نفسه في حال يرثى لها من جراء غلاء المعاش في ظل البويهيين (1) وفي سنة (352 هـ/963 م) ذكر ابن ابرونا طبيب الوزير المهلبي احد وزراء البويهيين انه كان قبل ان يستخدمه الوزير يدور من باب الى آخر ليعالج المرضى ويأخذ دانقا ونصفا او ربع درهم من كل مريض يعالجه (2) وتزداد حالة هؤلاء سوءا في اوقات الازمات الاقتصادية فيصبحون رغم علمهم وثقافتهم في فقر مدقع يجبرهم على الارتحال من بلاد اسلامية الى اخرى بحثا عن موارد الرزق وقد نقل لنا ابن خلكان وصف حالة بعضهم شمل كبير فقهاء المالكية عبد الوهاب البغدادي المالكي وذكر كيف ضاقت به سبل المعيشة في بغداد اذ لم يجد قوت يومه فخرج منها طالبا للرزق وعند ما شيعه اكابرها قال لهم ((لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم))

ثم انشأ يقول :

---

1) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة ج 1 ص 105 - ج 2 ص 26

2) مسكويه - تجارب الامم - ج 2 هامش ص 198

سلام على بغداد في كل موطن — وحق لها مني سلام مضاعف

فوالله ما فارقتها عن قلى لها — واني بشطي جانبيها لعارف

ولكنها ضاقت علي بأسرها — ولم تكن الارزاق فيها تساعف

وكانت كخل كنت اهوى دنوه — واخلاقه تنأى به وتخالف

فلما وصل الى مصر مات لاول ما وصلها من اكلة اشتهاها فزعموا انه قال وهو يتقلب ((لا اله الا الله اذا عشنا متنا))
(1) فاذا كانت هذه احوال العلماء فما بالك باحوال المكدين والمتسولين الذين لم يكونوا يجدون قوتهم اليومي الا بصعوبة

وهكذا يتبين لنا ان طبقة العامة لم يكن لها من مستوى العيش ما يمكنها من اقتناء الرقيق ولم يكن لها من الدخل ما يسمح لها باستعماله . وتفيد اخبار هذا العصر ان بعض افراد هذه الطبقة لم يصلوا الى الحد الادنى من العيش المقبول ففي سنة (282هـ/895 م) اراد الخليفة المعتضد (279 - 289هـ/ 892 - 902م) اغراء لص ليعترف بسرقة فقال له :((متى اقررت اجريت لك في كل شهر عشرة دنانير تكفيك لاكلك و شربك

---

1) ابن خلكان – وفيات الاعيان ج 1ص 431

وكسوتها وطيبها) (1) فعشرة دنانير هي رمز لهذا الحد الادنى وهي بالقياس الى اسعار الرقيق لا تمثل طاقة شرائية كفيلة بمواجهة تكاليف هذه المادة التجارية .

4) اهل الذمة وتجارة الرقيق

ولاهل الذمة دور في تجارة الرقيق لايقل اهمية عن دور المسلمين وذلك لأنّ المشرّع الاسلامي قد اعتبر "الذمة" عقدا بين المسلمين والكفار شرطه دفع الجزية ونتيجته المساواة في الحقوق وقد أشار الرسول الى ذلك في قوله "فاذا قبلوا عقد الذمة فأعلمهم ان لهم ماللمسلمين وعليهم ما على المسلمين" (2) ومن تلك الحقوق المعاملات التجارية التي يعتبرها الاسلام جائزة مع الكفار . فالبيع أو الشراء حق للمسلم والكافر وما لا يجوز لأحدهما فيه لا يجوز للآخر مع استثناء التعامل بالربا والخمر والخنزير فانها لا تجوز للمسلم فقط ولذلك يجب استثناؤها من عقود اهل الذمة .

1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص246 - 248

2) الشافعي - الأم - ج 4 - ص 173

أما بخصوص تجارة الرقيق فاننا نلاحظ ان الفقهاء قد أقروا حق اليهود والنصارى في شراء الرقيق وبيعه وملكه واستخدامه ورهنه ومؤاجرته وعتقه والتصرف فيه كغيرهم من مواطنيهم المسلمين وحرصوا مع ذلك على منع شراء الكافر للعبد المسلم ويدخل في معنى "الكافر" هنا من كان من أهل الذمة. وهم يعتمدون في ذلك على ماجاء في القرآن من رفض لسلطان الكافر على المسلم. قال تعالى " ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا " (1) وبناءا على ذلك قال جمهور الفقهاء من الشافعية والحنابلة والمالكية بعدم جواز امتلاك النصارى واليهود للرقيق المسلم أو الصغير السن (2)

---

(1) قرآن - سورة النساء آية - عدد 141

(2) ابن قدامة - المغني - ج 4 ص 41

وبجواز امتلاكهم للرقيق النصراني أو اليهودي مع اشتراط البلوغ فيه لان العبد الصغير يمكن لمالكه أن يغير عليه دينه بالتهديد والغصب (1) أما اذا كان مرفوعا بأحد والديه النصرانيين او اليهوديين فلهم شراؤه وامتلاكه . (2)

ويرى هؤلاء الفقهاء ان أهل الذمة اذا تجاوزوا هذه الأحكام بأن اشتروا عبدا مسلما أو صغيرا منفصلا عن أقاربه وكذلك اذا أسلم من في ملكهم من رقيق أجبروا على البيع او الهبة او العتق كما قالوا بفصل العبد المدبر عن سيدة الذمي مدة تدبيره وبان يؤاجر عند غيره وليس لسيده منه الا ثمن المؤاجرة الى أن يموت (3)

(1) السعطي – آداب الحسبة – ص 52 – خليل بن اسحق – المختصر – ص 3 – 5

(2) المصدر نفسه

(3) مالك بن أنس – المدونة الكبرى – ج 8 – ص 19

وقد استكرهوا ايضا مؤاجرة عبد مسلم لذمي ولو مدّة قصيرة (1) .

وهكذا فان هذا التشريع قد كان يخول لأهل الذمة أن يمارسوا على الاقل تجارة الرقيق المعتنق لدياناتهم وقد كان لهم بذلك دور لايستهان به في تنشيط هذه التجارة فهم الذين كانوا يشترون في الغالب ما يبيعه الغزاة بالثغور من أسرى غير مسلمين يدفعهم الى ذلك عاملان أساسيان أولهما رغبتهم في انقاذ أهل ديانتهم من ايدي المسلمين وثانيهما ما يواجههم من صعوبة افتناء رفيق مسلم (2)

(1) المصدر نفسه - خليل بن اسحق - المختصر - ص 349

(2) المصدر نفسه - السرخسي - شرح السير الكبير - ج 4 - ص

ومن الأمثلة المشهورة على هذا الدور الذي اضطلعوا به شراؤهم لعدد كبير من الاسرى المسيحيين الذين آسروا في ثورة ابن حفصون بالاندلس (1) .

لكن أهل الذمة لم يكونوا يجدون صعوبة دائما في اقتنائهم للرقيق المسلم وذلك لأنّ مخالفة الاحكام الشرعية في هذا المجال قد كانت أمرا واقعا ممّا دعا رجال الحسبة الى التشدّد في مراقبة تلك المخالفة والتنبيه اليها في مؤلفاتهم يقول السقطي "ولا يبيعون صبيّا ولا صبية من احد من أهل الذمة اليهود أو النصارى الا ان يكونا مع امّهما من تهوّد هما .... " (2) وقد اضطرّت السلطة الى التدخل في الموضوع أحيانا مثلما فعل المتوكل (232-247هـ/ 847-861م)

---

(1) بروفنسال - Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ج - 3 - ص208 - 214

(2) السقطي - آداب الحسبة - ص 52

حين اتخذ سنة (236 هـ/ 850م) وسنة (240 هـ/ 854م) بعض التدابير الخاصة بأهل الذمة ومنها أن يميّزوا رفيقهم بعلامتين من اللون الأصفر احداهما من قبل والاخر من دبر (1) وتذكر المصادر بعض الأمثلة على وجود رقيق مسلم بيد النصارى بالمغرب الاسلامي اذ نجد في فتوى لأبي الفرج التونسي (ت 443 هـ/ 1051م) حديثا عن مسيحي توفي وخلف عبدا مسلما مدبّرا (2) .

لكنّ مخالفة الاحكام الشرعية لم تكن المنفذ الوحيد الذي خوّل لأهل الذمة شراء الرقيق المسلم بل كان لهم في اختلاف الفقهاء ايضا مجال لممارسة تجارة الرقيق المسلم خصوصا في النواحي التي انتشر فيها المذهب الحنفي من العالم الاسلامي

(1) فيليب حتي Philippe - HITTi تاريخ العرب ص 115

(2) الونشريسي - المعيار - طبعة فاس 1314 هـ (في 12 مجلدا) ج 9 ص 140 - 141

- روجي ادريس - H.R.IDRIS بلاد البربر ج 2 ص 576 وص 685 احالة رقم 493

وذلك لأن الحنفية كانوا يجوّزون خلافا لسائر المذاهب الفقهية شراء الكافر للعبد المسلم مقرّين بذلك تشريعا أكثر تلاؤما مع العمليات التجارية وأوثق صلة بالواقع الاجتماعي. وقد استشهدوا على موقفهم هذا بقوله تعالى "وأحلّ الله البيع" (1) واعتبروه مبدأ عاما لا تمييز فيه بين مسلم وكافر كما استشهدوا بأن الكافر له أهلية العقد والتصرّف وبأن الرقيق مال يتعامل به. واستندوا الى ماكان يجري في واقع المعاملات التجارية بخصوص رقيق أهل الذمّة الذي يبقى على ملك أسياده اذا أسلم ويرثونه اذا مات (2)

---

(1) قرآن - سورة البقرة - آية عدد 275

(2) السرخسي - المبسوط - ج 3 ص130

وهكـــذا يمكننـــا أن نستخلـــص أنّ اهـل الـذمـة فـــد امتلكـــوا الـرقيـــق المسلـــم علـى الاقـــل فـــي النـــواحـــي الـــتي انتشـــر فيهـــا المـذهـب الحنفـــي . وانهـــم قـــد شـــاركـــوا فـــي تنشيـــط تحـــارة الـرقيـــق بشـــتى احنـا ســـه ومعتقـــداتـــه فـــي حـــين كـــانـــت القـــوانـــين فـــي الـــدولـــة الـرومـانيـــة البـــوزنطيـة تحـــرّم علـــى غـــير النصـــرانـــي أن يتخـــذ رقيقـــا مـــن النصـــارى (1)

---

(1) آدم متـــز - A.METZ - الحصـارة الاسـلاميـة ـح 1 ص296

5) شـــــراء الرقيـــق للـــــرقيـــق

لقد كان استهلاك المجتمع الاسلامي لمادة الرقيق عظيما فلم يكن الأحرار وحدهم شراة للرقيق بل ان نسبة كبيرة من الرقيق في المجتمع الاسلامي كانت تشتري الرقيق ايضا . وبعبارة اخرى كانت هذه البضاعة فضلا عن استهلاكها من قبل الاحرار مستهلكة من قبل المسترقين انفسهم فصارت اشبه بالبضاعة التي تستهلك نفسها بنفسها. واذا مادل هذا الوضع على شيء فانما يدل على تفاقم الحاجة الى هذه المادة وتزايد الطلب باستمرار.

ذلك ان التشريع الفقهي قد جوز في صور عديدة ملك الرقيق للرقيق ففي خصوص العبد القن اي المطلق العبودية نرى المالكية يخالفون الحنفية والشافعية والحنابلة في قولهم بحقه في الملكية اعتمادا على قول الرسول (من اعتق عبدا وله مال فمال العبد له الا ان يستثنيه السيد) (1) ونراهم يوسعون من نطاق هذه الملكية فيجوزون للعبد ان يشتري امة من ماله وان يتسرى بها

---

1) الترمذي - صحيح - ج 6 ص 3

دون اذن سيده . يقول مالك :(يجوز ان يتسرى العبد في ماله ولا يستأذن سيده) (1) كما يقول :(وان كانت للعبد سرية قد ولدت منه علم السيد بذلك ام لم يعلم فان سرية العبد للعبد وان اولاده ارقاء لسيده) (2) .

ويذهب الظاهرية نفس المذهب في الاعتراف بحق الملكية للعبيد ويستند ابن حزم في ذلك الى خبر رواه مسلم بن عاصم عن ابن عباس قال :(حجم النبي عبد لبني بياضة فاعطاه النبي اجره وكلم سيده فخفف عنه ضريبته) (3) ويستنتج من هذا الخبر ان مال هذا العبد الحجام ملك له وان من حق العبد ان يشتري بماله ويبيع منه ما شاء بغير اذن سيده . يقول في ذلك :(وبيع العبد وابتياعه بغير اذن سيده جائز) (4) ثم انه يجوز اعتمادا على كل ذلك ان يتخذ العبد سرية له وان يستولدها فتصبح ام ولده واذا ما اعتق بقيت في ملكه (5) .

---

1) مالك بن انس - المدونة الكبرى ج 2 ص 210

2) المصدر نفسه ج 3 ص 217 وج 14 ص 44 . 45

3) ابن حزم - المحلى ج 9 ص 53

4) المصدر نفسه ج 9 . ص 52

5) المصدر نفسه

ولئن كانت بقية المذاهب لا تتوافق على هذا الراي بالنسبة للعبد القن فان ذلك لا يمنع من ان يكون المذهب المالكي والظاهري قد شهدا بعض صور التطبيق لموقفهما في مجال الواقع الاجتماعي بالنسبة للحيز الجغراني الذي انتشرا فيه . ثم ان تلك المذاهب الرافضة لملكية العبيد الاقنان كانت موافقة على ملكية غيرهم من العبيد اي اولائك الذين وجدت فيهم شائبة حرية ولم يكونوا مطلقي العبودية وكان وضعهم القانوني يجعلهم في مرتبة وسطى بين العبودية والحرية . ومن هذا النوع العبد المبعض مثلا . فالعبد المبعض اي من تحرر جزء منه دون سائره يجمع الفقهاء على انه يملك بقدر نصيبه من الحرية ويحرم بقدر نصيبه من الرق يقول ابو جعفر الطوسي (العبد اذا كان بعضه حرا وبعضه مملوكا فانه يرث بحساب الحرية ويحرم بحساب الرق) (1) وما الارث هنا الا صورة من صور ملكية هذا العبد اذ يرى الشافعية مثلا ان له الحق في ملك العبيد بما يكسبه من مال بجزئه الحر فاذا ما ملك امة جاز له ان يستخدمها الا انه لا يجوز له وطؤها لان الوطء على حد قولهم يكون بكامل البدن لا بجزئه

---

1) البغدادي - الاشراف ج 2 ص 39

فلا يجوز له ان يتسرى لان بقيه بدنه مسترق لا يملك (1)
لكن الرقيق لا يشترى لغاية الوطء فحسب فاماكان هذا البعض
اذن شراء و لغايات اخرى كالخدمة والمؤاجرة وغيرها .

ويتفق الفقهاء ايضا على ان العبد المكاتب له الحق في العمل
والكسب لحسابه وبالتالي في الملكية مادام مكلفا بجمع مال مكاتبته
لسيده وفاء ابالعقد الذي بينهما ورغبة في التحرر فهو عبد في
طريقه الى الحرية اطلقت يده في الكسب وبقيت رقبته . ولذلك عرفت المكاتبة
عندهم بانها (اطلاق يد في الحال ورقبة في المآل) (2) وقد اعتبر
ابن رشد صحة الملكية وارتفاع الحجر عن المكاتب في تصرفاته شرطا
من الشروط الواجب توفرها فيها فقال :(واما المكاتب فاتفقوا على ان من شروطه
ان يكون مالكا صحيح الملكية غير محجور عليه (3) كما يرى مالك
ان المكاتب يحرز ماله بالمكاتبة فيصير مالكا حقا (4) وتخول
له هذه الملكية ان يكون مطلق التصرف في شراء ما يريد من الرقيق
وليس لسيده ان يمنعه من ذلك ويرى الشافعي ان ليس للسيد ان يمنع
مكاتبه من شراء ما يريد من العبيد الا اذا كان يشتري منهم من

---

1) الشربيني الخطيب - مغني المحتاج ج 2ص102
2) الاوزجندي - الفتاوي الهندية ج 5 ص 2
3) ابن رشد - بداية المجتهد ج 2ص 317
4) مالك بن انس - المدونة الكبرى ج 3ص250 . 251

يعتقون عليه من ذوي قرباه لان ملك ذوي الارحام المحرمة حرام وسبب المنع اذاك هو ردع المكاتب من اتلاف مال هو في حاجة اليه لدفع بدل الكتابة وعتق رقبته اما في غير هاته الحال فله ان يتسرى بالجواري ويستولدهن ويشتري العبيد ويستخدمهم (1).

وما يقال في العبد المبعض والمكاتب يجوز قوله في العبد المأذون له في التجارة اذ يجمع الفقهاء على ان له الحق في عقد صفقات البيع والشراء وممارسة كل الاساليب الكفيلة بتنمية راس مال سيده بالارباح ومن بين هذه الاساليب شراؤه للرقيق واستعمالهم في التجارة كما يسمح له الفقهاء بان ياخذ من ذلك المال لنفقته الخاصة وان يبتاع رقيقا لنفسه ليتسرى بالاماء. للرقيق اذن من الوجهة القانونية الحق في شراء الرقيق وامتلاكه ولا مراء في ان هذا الحق لم يكن نظريا فحسب وانما كان واقعا يمارسه العبيد في المجتمع الاسلامي.

---

1) الشافعي - الام - ج 7 ص 385 . 386

القسم الثالث

آثار تجارة الرقيق الاجتماعية ومآلها بعد القرن الرابع للهجرة

الباب الاول

آثار تجارة الرقيق الاجتماعية

الفصل الاول

الآثار الايجابية

تجارة الرقيق وآثارها في المجتمع الاسلامي

لقد حاولنا في الفصول السابقة من هذا البحث ان نجيب قدر الامكان وفي حدود ما سمحت به المصادر المتوفرة لدينا عن جملة من التساؤلات حول الظروف والملابسات التي حفت بتجارة الرقيق عند المسلمين خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ونعتزم في خاتمة هذا البحث ان نتحسس آثار هذه التجارة وما خلفته من نتائج على صعيد المجتمع الاسلامي وان نتساءل عمّا اذا كانت قد قدّمت عطاءا ايجابيا الى الحضارة الاسلامية ام تسبّبت في عرقلة مسيرتها ونموها. وهو ما يؤدي بنا الى تقييم هذا النشاط التجاري وتحليل ابعاده الاجتماعية والحضارية

الاثـر الايجابـي

لا مجال لانكار الدور الايجابي الذي اضطلع به الرقيق في بناء الحضارة الاسلامية والمهام الجليلة التي قام بها في شتى الميادين ومن ابرز هذه المهام طبعا تعزيزه لقوى المسلمين العسكرية واستماتته في الدفاع عن حمى دار الاسلام وقد شهد التاريخ الاسلامي في هذه الفترة ابطالا ممتازين في الفنون الحربية وقواد للجند كان لهم الفضل في توسيع رقعة العالم الاسلامي وقد كان العديد منهم من رقيق الترك أو الصقالبة أو السودان أو غيرهم من الاجناس المسترقة المنضوية تحت لواء الاسلام (1) وقد اضافوا

1) آدم متز - A.MEZ - الحضارة الاسلامية -ج 1- ص 311

جميعا تجارب حضاراتهم الاصلية في فنون القتال و تعبئة الجيوش الى تجارب المسلمين وامكن بفضل هذا التلاقح ان تبلغ القوى الاسلامية اشدّها وان تكون في مستوى العصر وقادرة على مواجهة اعدائها ومنافسيها وعلى تحقيق التوازن بين القوى المسيطرة على العالم في ذلك العصر.

وقد حقق الرقيق بشتى اجناسه هذا التلاقح الحضاري في مختلف ميادين الحياة لانه قد جلب معه مميزات حضارات اخرى متنوعة الاتجاهات وادخل في صلب الحضارة الاسلامية ضروبا من الفنون والثقافات والعلوم والصنائع التي اختصت بها الشعوب المغلوبة فكان ذلك كله بمثابة الغذاء والمدد الحضاري الذي تمكن المجتمع الاسلامي من هضمه واستيعابه واستعان به على التجدد المستمر واثراء تراثه ومدنيته حتى امسى لبعض الاقاليم الاسلامية طابعها الحضاري الخاص كما كان الشأن بالنسبة الى المجتمع الاندلسي الذي يشهد بتأثره بالعنصر الصقلبي في كثير من وجوه التمدّن (1).

وممّا اعان الرقيق على ان يلعب مثل هذا الدور الهام انتماء بعضه الى مدنيات وحضارات عريقة ودراية الكثير منه بالاعمال

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 177-179

الفنيـة المختصـة وامتيازه بمواهب وملكـات تحتاج اليهـا الحضارة الاسلامية اذاك فقـد كـانت الدولـة وطبقات الخاصـة تنتخب منـه ذوي الموهبـة والاختصاص لتنتفـع بـه في الاضطـلاع بخـدمـات جليلـة في مختلـف الميـادين كميـدان العلم والتعمير والطب وغيرهـا من الميادين الثقافيـة والصناعيـة وربمـا الفنيـة ايضا وقـد كـان ذلـك شبيهـا بمـا كـان يحـدث في رومـا اذ كـان الاثـرياء واولو الجـاه يشتـرون النخبـة الممتـازة من الرقيـق وفيهـم المثقفـون والاطبـاء والموسيقـيـون والمهندسون فيعهـدون للمثقفيـن بتربيـة اولادهـم ويعتنـي الاطباء بشؤونهـم الصحيـة ويشرف المهندسـون على بناء قصـورهم . وهكـذا استطـاع هـذا الرقيـق ان يحمـل الى رومـا حضارات مختلفـة امتزجـت فيمـا بينهـا واخرجـت حضـارة رفيعـة هي حضـارة رومـا في العالم القـديـم (1).

وقـد كـان الشأن في البلاد الاسلاميـة قريبـا من ذلك اذ ظهـرت هـذه التقاليـد في اصطفـاء النخبـة من الرقيـق منـذ القرن الاول للهجـرة وازدادت رسوخـا بعـد ذلك حتى صـارت سنـة ثابتـه وتقاليـد منظمـة في القرنين الثالث والرابع للهجـرة . فمن هـذا الرقيـق الممتاز مثلا ما انتخبـه الاغالبـة

---

1) موريس لنجلي - M - Lengellé - الرق ـ ص 35

36 ـ عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ص 49

50

لضرب السكة اذ استخدموا نخبة منه في دار السكة وقد كتبت اسماء افرادها على القطع النقدية فكان من بينهم ((موســـــــــــــى)) وقد كتب اسمه اسفل ((ابراهيم الاول)) (184 - 196هـ/ 800 - 812 م) و ((مســـرور)) اسفل ((زيادة الله الاول)) (201 - 223هـ/ 817 - 838 م) وقد كتب كذلك اسم ، ((خلف)) اسفل ((ابو العباس))(226 -242هـ/ 841 -856 م) و ((خلف)) هذا هو الذي ينسب اليه البكري بناء سور مدينة سوسة (1) كما كتب اسم ((حسن)) اسفل ((ابو الغرانيق)) (250 -261هـ/ 863 - 875م) و ((بلغ)) و ((شاكر)) اسفل ((ابراهيم الثانــي)) (261 - 289 هـ/ 875 -902م) و ((خطاب)) اسفل ((زيادة اللــه الثالث)) (290 - 296 هـ/903 - 909م) ولم تذكر القاب هؤلاء فهم موالي الامير ورقيقه الذين يثق بهم ثقة كاملة ويفوض اليهم القيام بمهمة ضرب السكة(2).

ولا شك في ان هذا الرقيق قد كان ماهرا في الاضطلاع بمهام اخرى فهذا الجاحظ يذكر ان الناس كانوا يرغبون في اقتناء اصناف منه لمهارتها في رعي الابل (3) وكذلك لبراعتها في الخدمة داخل البيوت خصوصا اذا كانت من الخصيان وقد اشار نفس المؤلف الى كثـــرة

---

1) جورج مارسي - G - Marçais - بلاد البربر الاسلامية والمشرق في العصر الوسيط ــ ص 87 1946

2) المرجع نفسه ــ ص 32

3) الجاحظ ــ كتاب الحيوان ج 3 ص 434

الخصيان من الروم بالرغم مما يوجد عند النصارى من ايمان باللطف والرحمة (1) وتعرض لخصائص اخرى تميز بها هذا الجنس منها ما هو منقول عن ارسطو ومنها ما يعتبر نتيجة تجارب وممارسة وملاحظة (2) واشار ايضا الى اصناف اخرى من الرقيق امتازت بمهارتها في فنون الصرف والمعاملات المالية مثل رقيق السند (3) وبوسعنا ان نستنتج من جملة هذه الملاحظات وغيرها مما اوردته كتب الحسبة ان جانبا لا يستهان به من الايدي العاملة المسترقة قد كان قادرا بما توفر لديه من مهارات وقدرات واختصاصات على ان ينمّي الحضارة الاسلامية ويطورها .

وفي الجملة يمكننا القول بان الحياة الاقتصادية الاسلامية قد كانت تعتمد اساسا على الايدي العاملة المسترقة لان المجتمع كان في حاجة الى هذه الطاقة المستمدة من كد الرقيق لاستخدامها في المصانع والمناجم والمزارع . فهو مجتمع يستمد قوته من هذه الطاقة البشرية التي تمثل الدورة الدموية في حياته اليومية وفي بناء صرح مدنيته وازدهاره وانه لشبيه في هذا المجال بالمجتمعات الحديثة المصنعة التي تسعى الى

---

1) المصدر نفسه - ج 1 ص 124 - المسعودي - مروج الذهب - ج 8 ص 148

2) الجاحظ - كتاب الحيوان ج 2 ص 260 و ج 4 ص 229 كتاب البخلاء - ترجمة بلاّ ch. Pellat - ص 259

3) الجاحظ - فخر السودان - الرسائل - ج 1 ص 224 - 225

جلب المواد الخام والايدي العاملة والطاقة الضرورية لاقتصادهـا من البلاد الضعيفة اقتصاديا او المتخلفة حضاريا بلغة اليوم . ذلك هو الدور الذي لعبته الحضارة الاسلامية وكذلك البيزنطية في هذا العصر تجاه غيرهما من حضارات الشعوب الاخرى قصد المحافظة على مكانتهما الاقتصادية والعسكرية والسياسية في العالم الوسيط.

وقد استطاع المجتمع الاسلامي ان يستفيد من تجارة الرقيق استفادة كبرى في نشاطه التجاري وتوازنه الاقتصادي والمالي وان يجعل من مادة الرقيق عملة صالحة للمبادلات مع انحاء العالم : فقد كان المسلمون بحكم وضعهم الجغرافي والحضاري يسيطرون على طرق التجارة نحو الشرق الاقصى ونحو اوروبا وافريقيا ويشرفون على المسالك البحرية الرابطة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط . فتسنى لهم بذلك ان يقوموا بدور الوسيط التجاري بين الهند والصين والعالم البيزنطي والاوروبي . وقد اضطلع بهذا الدور كل من مسلمي الشرق عن طريق الخليج الفارسي ومناطق آسيا الوسطى ذهابا نحو القسطنطينية ومسلمي المغرب عن طريق البحر الاحمر ومصر وافريقية ذهابا الى جنوب ايطاليا (1) وقد امكن بهذه الصورة ان تصل بضائع الشرق الى الغرب اما مباشرة او عن طريق بيزنطة والمدن الايطالية (2) فكانت البلاد الاوروبية

---

1) جوستاف لوبون - G - Lebon - حضارة العرب ص435 - 436

2) ارشيبالد لويس - A. Lewis - السيادة الاسلامية ص 65 . 66 . وص 72 . 23 وص 81

وكذلك الافريقية تتلقى بديلا تجاريا عن الرقيق الذي تصدّره الى العالم الاسلامي ويتمثل هذا البديل فيما تزوّدها به البلاد الاسلامية من مصنوعات محلية وكذلك فيما تنقله اليها من مواد الترف الشرقية التي كانت اوروبا وبيزنطة تستهلكانها بكميات كبيرة . وهكذا وجد تيار تجاري كان الرقيق يستعمل فيه عملة صالحة للمبادلات (1).

وقد استفادت من هذا التيار التجاري ايضا البلاد المصدّرة للرقيق وذلك باحرازها على بديل تجاري هام وضروري لاقتصادها المحلّي وهو البديل المتمثل في بضائع الشرق الثمينة وصادرات العالم الاسلامي (2) وقد عزا ارشيبالد لويس - Arshibold Lewis - استقرار الاوضاع الاقتصادية وسلامتها بالمانيا الى هذا التبادل المذكور عن طريق المدن الايطالية كما عزا استمرار الفوضى الاقطاعية بفرنسا الى بعدها عن هذا التبادل واكّد ان البلاد الايطالية قد افادت كثيرا من وساطتها التجارية بين العالم الاوروبّي والعالم الاسلامي لكنّ هذا الازدهار الذي شمل ايطاليا لم يشمل بلاد اوروبا الغربية الاخرى فالشاطيء المسيحي الممتدّ من برشلونة الى نهر التيبر Tibre قد توقفت به العمليات التجارية التي ازدهرت في عهد شرلمان Charlemagne (165- 199 هـ/768-814م) و لويس التقي Louis Le Pieux (199 - 225 هـ/ 814 - 840م) وبقيت برشلونة Barcelone ونربونة Narbonne و مرسيلية Marseille وجنوة Gêne وحتى بيزا - Pise - مراكز قليلة السكان لا تكاد تحمي نفسها من الغارات المتقطعة التي كان

---

1) الطالبي ـ الامارة الاغلبية ص396 وما بعدها

2) جوستاف لوبون - G.Lebon - حضارة العرب ص439 . 441

صوردال - Sourdel - حضارة الاسلام القديم ص317 . 323

يشنها المسلمون من اسبانيا وفركسينتوم - Fraxintum - قاعدتهم الامامية .
ولم يكن كذلك لجزر سردينيا Sardaigne وكورسيكا Corse
اهمية تجارية كالتي تمتعت بها صقلية وجزر البليار واسبانيا يقول ارشيبالد
لويس A.Lewis - متحدثا عن هذا الوضع :

((قد يوضح ذلك شيئا من تساؤلنا لماذا حافظت المانيا في اواخر القرن
التاسع واوائل القرن العاشر على قدر من النظام والحكم ولم تكابد ما
كابدته فرنسا من الفوضى الاقطاعية . ان الالمان حافظوا على ارتباطات هامة
مع الشرق عن طريق ايطاليا وناهيك بعلاقاتهم مع بلدان البلطيق اما فرنسا
فقد كانت اقل حظا من ذلك كله ومع هذا يجب ان نعترف بان مدى هذه
التجارة انما كان جد محدود . فقد كانت ممرات الالب كافية
لسلع الترف الشرقية كالحرير والعطورات والتوابل اضف الى ذلك الاسلحة
والرقيق التي كان يسهل شحنها من البندقية على ان ذلك لم يكن للتصدير بكميات
ضخمة . وقد تكون مثل هذه التجارة التي تتوفر عبر هذه الطريق
في وضع يسمح للبندقية وللمبارديا بان تكونا على مستوى نقدها الذهبي
وان تتمتعا بالكثير من الازدهار الا انها لم تستطع ان تغير من الطابع الاقتصادي
للاحداث في بقية انحاء اوربا الغربية . ان اوروبا الغربية لم تستطع ان تخلي وراءها
وضعيتها الزراعية ومستوى نقدها الفضي الكارولنجي وان تتكتل اقتصاديا
للتعامل مع العالمين الاسلامي والبيزنطي المتقدمين في البحر الابيض المتوسط الا بعد
ان توفرت طرق تجارية اسهل واقرب منالا مثل طريق وادي الرون واصبحت عملية اجتيازها
ثانية ممكنة من الوجهة التجارية)) (1) .

---

1) ارشيبالد لويس - A - Lewis - السيادة الاسلامية ص82

ولا يخفى ايضا ان افواج الرقيق المختلفة الجنسيات قد استفادت من هذه التجارة بانصهارها في صلب المدنية الاسلامية واعتناقها للدين الجديد بعد ان كان الكثير منها عرضة في بلاده الاصلية الى ويلات الجوع والجهل والخصاصة وفريسة لضروب من العدوان فكان دخولها في حظيرة العالم الاسلامي في شكل رقيق نوعا من الكفالة لها والاخذ بيدها خصوصا اذا علمنا ان رقيق المسلمين قد كان في اغلب الاحيان عاملا في نطاق الاسرة وقلما عرف النمط الاستغلالي الاقطاعي الذي يفرض عليه اعمال السخرة ويحط من قيمته الاجتماعية والانسانية (1) كما ان المجتمع الاسلامي قد فتح امامه آفاقا للتحرر والترقي في السلم الاجتماعي والمساهمة في شتى ميادين الحياة حتى برع منه الكثيرون وتألقت اسماؤهم في شتى الميادين

---

1) جوستاف لوبون - Gustave Le bon - حضارة العرب ص293 - 296

الفصل الثاني

الآثار السلبية

الأثـــر السلبـــي

لكنّ هذا الدور الايجابي الذي لعبته تجارة الرقيق على مختلف الاصعدة قد كان مصحوبا في الوقت نفسه ببعض الظواهر السلبية التي جنتها الحضارة الاسلامية من جراء ممارسة هذا النشاط التجاري . فقد راينا كيف وجد المسلمون في عملية جلب الرقيق حلا لمشكل الطاقة الضرورية لبناء كيانهم الاقتصادي والاجتماعي الا ان هذا الحل الذي سمحت به ظروفهم اذاك في شيء من اليسر لم يكن امرا متاحا بصورة مستمرة وبنفس السهولة في العصور الموالية . وقد كان لا بد للطاقة من ان تكون في تجدد مستمر ومن ان تتواصل عملية التوريد لكنّ هذه العملية قد تصاعدت تكاليفها شيئا فشيئا بحكم تغير ظروف المسلمين وتطور علاقاتهم بغيرهم من الشعوب المحيطة بهم والمزودة لهم بالرقيق . وقد ساهم هذا الوضع في اختلال الميزان التجاري تدريجيا خصوصا في الوقت الذي لم تكن الصادرات فيه تعادل الواردات مما اضطرت الدول الاسلامية معه الى البحث عن التوازن بتصدير العملة الصعبة وكان من نتائج هذه الحال ان شوهد نزيف قوي في الذهب (1) ثم ان المرء ليتساءل بالاضافة الى ذلك عمّا اذا لم يكن امر هذه الطاقة المستمدة من الايدي العاملة المسترقة قد شكل حلا لاوضاع المسلمين الاقتصادية والاجتماعية صرف انظارهم في الوقت نفسه عن اكتشاف الالة الكفيلة بتعويض المجهود الانساني واحداث منعرج حاسم في وسائل الانتاج . فهل كانت تجارة الرقيق بعبارة اخرى حائلا دون اقتراب المسلمين من عهد التصنيع وعاملا من عوامل تأخر حلول هذا العهد . ذلك هو السؤال المطروح (2)

1) نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ـ ص 118 . 119 .

2) كلود كاهان ـ Cl.Cahen ـ الشعوب الاسلامية ـ ص 339-344

٩) التصدع السياسي

ولقد رأينا كيف كان هدف ارباب السلطة من تجنيدهم للرقيق كسر شوكة العصبيات المنافسة لهم وحماية مراكزهم من صولاتها ورأينا كيف استكثروا من هذا الرقيق في جيوشهم وحرسهم الخاص واعتمدوا في ذلك على اجناس شتى من الارقاء ومنحوهم ثقتهم وفوضوا اليهم احيانا كثيرة النظر في امورهم واقصوا الجنس العربي عنهم . لكن الخلفاء والملوك الذين بحثوا عن مناعتهم في ظل مسترقيهم قد سقطوا آخر الامر فريسة لحماتهم اذا استبدوا بالنفوذ والحكم دونهم واعانهم على ذلك ابناء جنسهم من الجواري والغلمان بدسائسهم التي كانوا يدبرونها داخل البلاط فصار صاحب الامر العوبة في ايديهم يأتمر بامرهم ويخشى صولتهم وصاروا يمنعونه من التصرف في السياسة العامة ولا يتركون له من النفوذ سوى ما يتعلق بشؤون حياته الخاصة . فكان من جراء ذلك ان استسلم الخلفاء لمجونهم واهملوا شؤون رعاياهم واذا ما اتفق ان بدر من احدهم عزم على مسك مقاليد الامور بحزم ردعوه بالعنف وساموه شر العذاب وخلعوه وقتلوه وربما مثلوا به فسملوا عينيه ثم ولوا مكانه من وافق هواهم من ابناء اسرته . وقد وصف احد شعراء العصر حال الخليفة في هذه الظروف بقوله :

خليفــــة في تقفـــص بين وصيف وبغـــــا
يقـــول ما قـــالا له كما يقـول الببغـــــاء

ويكفـــي ان نذكر بان المتوكل (232 - 247 هـ/ 847 - 861 م) والمستعين (248 - 252 هـ/ 862 - 866 م) والمهتدي (255 - 256 هـ/ 869 - 870 م) قـد قتلوا بايدي عبيدهم وان القاهر (320 - 322 هـ/ 932 - 934 م) والمتقـي (329 - 333 هـ/ 940 - 944 م) والمستكفي (333 - 334 هـ/ 944 - 946 م) والراشـد (529 - 530 هـ/ 1135 - 1136 م) والطائع (363 - 381 هـ/ 974 - 991 م) قـد شـل بهم مما ليكهم حتى يتضح لنا مدى تجبـر الرقيق المستبد (1) وقـد اشار ابن بسـام الى ان قتل الملوك بايدي رقيقهم قد صار امرا مألـوفا فقال : ((ان قتل الملوك والائمه بايدي عبيدهم واصحابهم كثير يشق احصاؤهم)) (2) وقد بلغ الرقيق في الدولة البويهية درجة من السطـوة والتغلب صاروا معها يفرضون على الخليفة رسما لمبايعته فلا تتم تلـك المبايعة الا بمقابل مقادير معينـة من المال فاذا كان الخليفـة عاجزا عن ادائها ثاروا عليه وخلعوه واقتحموا حريمه (3) ولم يقف الامـر عند حد السيطرة على الخليفة بل تعدى هذه الحدود الى اثارة البلبلـة

1) السيوطي - تاريخ الخلفاء - طبعة القاهرة (د . ت) . ص 397 - الذهبي - العبر في اخبار من غبر الكويت 1963 ج 2 ص 11.9

2) ابن بسام - الذخيرة - القسم الاول - القاهرة - 1939 ج 1 ص 83

3) ابن الجوزي - المنتظم - ج 7 ص 148 - وص 157

في اوساط الرعايا والهجوم على الاحياء ونهبها وقتل اهلها وسبي نسائها (1) وادى بهم العبث الى ان سمحوا لكبار اللصوص بان يعيشوا فسادا في عاصمة الخلافة وان يفرضوا على سكانها اداء خمسة وعشرين الف دينار شهريا وكان ((ابن حمدي)) من اشهر اللصوص الذين تواطؤوا معهم على هذا الصنيع (2) .

وقد تفطن العلامة ابن خلدون الى هذا الاثر السلبي الذي تركه الرقيق على النظام السياسي وذلك عند حديثه عن الطور الثاني للدولة ذلك الطور الذي يتنكر فيه صاحب الامر لاهل عصبيته وينفرد بالامر دونهم ويدافعهم عنه بالرأي مستعملا في ذلك الموالي والصنائع فاكد ان هذا السلوك ((مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التي كان بناء الغلب بها)) (3) وقد اوضح رأيه هذا بمثال اقامه على المقارنة بين دولة بني امية ودولة بني العباس فقال : ((واعتبر ذلك في دولة بني امية كيف كانوا انما يستظهرون في حروبهم وولاية اعمالهم برجال العرب مثل عمرو بن سعد ابن ابي وقاص وعبيد الله بن زياد بن ابي سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب ابن ابي صفرة وخالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة وموسى بن نصير وبلال بن ابي بردة بن ابي موسى

---

1) المصدر نفسه . ج 8 ص 228 . 229 _ الذهبي _ العبر ج 3 ص 140 . 141 التنوخي _ نشوار المحاضرة ج 1 ص143

2) السيوطي _ تاريخ الخلفاء ص396

3) ابن خلدون _ المقدمة ص131

الا شعري ونصر بن سيار وامثالهم من رجالات العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيهما ايضا برجالات العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوبخت وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل بغا ووصيف واتامش وباكناك وابن طولون وابنائهم وغير هؤلاء من موالي العجم فتكون الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه سنة الله في عباده والله تعالى اعلم))(1).

ويرى ابن خلدون ان من نتائج الاستظهار بالموالي والصنائع تداعي اركان الدولة وهرمها لان هؤلاء الموالي لا تربطهم بصاحب الامر رابطة نسب تحملهم على الاستماتة في الذب والمدافعة كما يستميت اهل العصبية في ذلك بسبب رابطة الدم (2) بل تراهم ينقلبون على السلطان فيحجرون عليه ويستأثرون بتسيير الامور دونه ويوهمونه بان الملك هو الجلوس على السرير ومجالسة النساء والجواري والتمتع بالترف وعوائده فيحجبونه بذلك عن رعيته ويفرضون عليه اراداتهم(3) فتصاب الدولة بمرض لابرء لها منه . ويرى العلامة ايضا ان هذه العناصر المستبدة بالحكم من موال وتبيع لم تحسن التصرف فيه بل هي في رايه عاجزة عن تاسيس الدول القوية لانعدام العصبية في صفوفها ولكونها اشتاتا تابعة لساداتها

---

1) المصدر نفسه

2) المصدر نفسه ص 131 . 132

3) المصدر نفسه . ص 133

ومالكيها ولفقدانها شرعية التصرف في السلطة . يقول في ذلك : ((فاذا ذهب الجيل الاول والثاني واخذت الدولة في الهرم لم تستقل اولئك الصنائع والموالي بانفسهم في تاسيس الدولة وتمهيد ملكها لانهم ليس لهم من الامر شيء انما كانوا عيالا على اهلها ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الاسلام))(1)

وهكذا تتطابق نظرية ابن خلدون حول اسباب هرم الدول وتداعيها مع واقع التاريخ الاسلامي او قل هي مستوحاة ومستمدة من ذلك الواقع التاريخي وفيها دلالة واضحة على الاثر السلبي الذي تركه عنصر الرقيق في الساحة السياسية الاسلامية ويمكن الاكتفاء في هذا السياق بضرب مثال على ذلك من سلوك الارقاء الاتراك في ظل الخلافة العباسية فقد ظهر جبروتهم بعد اثني عشر سنة من تاريخ جلبهم وكان من اسباب استبدادهم تفويض الخلفاء عظائم الامور اليهم وتكليفهم باهم الشؤون في سياسة الدولة . فبعد ان كان ((ايتاخ)) التركي غلاما طباخا رفع المعتصم (218 - 227هـ/ 833- 842م) منزلته وزادها الواثق (227 - 232 هـ/ 842 - 847 م) بعده تدعيما فضمت اليه من اعمال السلطان اعمال كثيرة وعهد اليه الخلفاء

---

1) المصدر نفسه ص 124 .125

بقتل فرمائهم ومنافسيهم مثل اولاد المأمون (198 - 218هـ/ 813 - 833م) ومحمد بن عبد الملك الزيات وغيرهم ثم ضموا اليه الجيش والمغاربة والاتراك والموالي والبربر والحجابة ودار الخلافة (1) وقد كان شأن الخلفاء مع قواد الاتراك الاخرين شأنهم مع ((ايتاخ))
فصارت امور الدولة بايديهم واستغلوا هذه الفرصة لقهر الاجناس الاخرى ولانتكاك السلطة من اسيادهم فحجروا على الخلفاء ومنعوهم من التصرف ولم يتركوا لهم اكثر من السكة والخطبة (2).

وهكذا امسوا الحاكمين الحقيقيين في الدولة يولون من شاؤوا ويعزلون من شاؤوا واذا استشعروا مقاومة من احد عملوا على قتله والتنكيل به مثلما فعلوا مع المتوكل (232 - 247هـ/ 847 - 861م) عندما اراد التخلص منهم بقتل ((وصيف وبغا)) وغيرهما من قواد الاتراك ففطنوا لمخططه وقام كل من ((باغر)) و((بغا الصغير)) بقتله غيلة (3) ومنذ ذلك الحين توالت اعتداءاتهم على حرمة الخلافة حتى روي عن المعتز (252 - 255هـ/ 866 - 869م) انه كان لا ينام الا ومعه سيفه فلما سئل عن سبب ذلك قال ((اني لا اخاف ان ينزل عليّ بغا من السماء او يخرج علي من الارض)) (4) ولم تقتصر مفاسد الاتراك على تعطيل دواليب الحكم وتخريب المؤسسات السياسية بل كانوا

1) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج 11 ص 33
2) ابن طباطبا ـ الفخري في الاداب السلطانية ص 38
3) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج 11 ص 63
4) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج 2 ص 336

يختصون اموال الرعايا ويصادرون ذوي الثروة منهم واستعملوا هذا الاسلوب مع الامراء والوجهاء والكتاب والولاة ظلما وعدوانا ومن اشهر من تعرض لمصادراتهم ((قبيحة)) ام المعتز (252-255هـ/ 866-869م) وزوجة المتوكل (232-247هـ/847-861م) فقد نهبوا اموالها وقتلوا ابنها فهربت الى مكة وشوهدت متضرعة الى رب البيت من ظلمهم (1) ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات وعمر بن فرج الرخجي وابراهيم بن الجنيد النصراني واحمد بن ابي دؤاد وبختيشوع وغيرهم (2) وقد كان بهم نهم كبير الى الاموال وتبذير لها واسراف في الشهوات فقد قال لهم المهتدي (255-256هـ/869-870م) قبل قتله ((خبروني ويحكم هل تعلمون انه وصل الى من دنياكم هذه شيء ؟ اما انك تعلم يا بايكباك ان بعض المتصلين بك ايسر من جماعة اخوتي وولدي ؟ تعرف ذلك فانظر هل ترون في منازلهم فرشا اووصائف او خدما اوجواري اولهم ضياع وغلات ؟ سوأة لكم ؟)) (3) وقد صرح المستعين (248-252هـ/ 862-866م) بما كانوا يبتزونه منه من اعطيات وارزاق فقال لهم :((انتم اهل بغي وفساد واستقلال للنعم الم ترفعوا الى في اولادكم فالحقتهم بكم

---

1) ابن الاثير - الكامل - ج 7 ص 70
2) الطبري - تاريخ الامم والملوك ج 11 ص 68
3) المصدر نفسه ج 11 ص 194

وهم نحو من الفي غلام ؟ وفي بيناتكم فأمرت بتصييرهن في عداد المتزوجات وهن نحو اربعمائة آلاف امرأة وفي المدركين والمولودين وكل هذا قد أجبتكم اليه وادررت لكم الارزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة ومنعت نفسي لذتها وشهوتها كل ذلك ارادة لصلاحكم وانتم تزدادون بغيا وفسادا وتهددا وايعادا)) (1).

وقد تسببوا ايضا في آفات اجتماعية باعتدائهم على الاخلاق العامة وهتكهم لحرمات النساء وقد اورد القاضي التنوخي روايات تصف انحراف الجند التركي واقترافه للفواحش فمن ذلك ما رواه عن خياط بسوق الثلاثاء فقد مر ذات يوم بتركي جالس على باب داره وقد اجتازت امامه امرأة جميلة فتعلق بها وهو سكران يروم ادخالها منزله وهي ممتنعة تستغيث ولا احد يغيثها وتقول ((ان زوجي قد حلف بالطلاق الا ابيت خارج بيته فان بيتني هذا اخرب بيتي مع ما يرتكبه مني من المعصية ويلحقه بي من العار)) قال الخياط : ((فجئت الى التركي ورفقت به وسألته تركها فضرب راسي بدبوس كان في يده فشجني وآلمني وادخل المرأة داره فجمعت جمعا وجئنا فضججنا على بابه فخرج الينا في عدة من غلمانه فاوقع بنا الضرب فذهبت الى بيتي ولم ازل افكر في هذه المرأة ...))(2) وادهى من ذلك اعتداؤهم على زوجة المتوكل

---

1) المصدر نفسه ج 11 ص 98

2) التنوخي ـ نشوار المحاضرة ج 1 ص 152

(234-247هـ/ 847-861م) بعد ابتزاز اموالها اذ صرحت بأن صالح ابن وصيف التركي قد نال من عفافها وابتهلت في مكة قائلة ((اللهم اخز صالحا هتك ستري وقتل ولدي وشتت شملي واخذ مالي وغربني عن بلدي وركب الفاحشة مني)) (1) .

وقد اشار عبد الله بن المعتز في ملحمته المشهورة الى جل المفاسد التي اقترفها الاتراك ولخصها في هذه الابيات :

كل يوم ملك مقتول	او خائف مروع ذليل
او خالع للعقد كيما يعفى	ودان ادني للردى وادنى
وكم امير كان راس جيش	قد نغصوا عليه كل عيش
وكل يوم شغب وغضب	وانفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل	فغصبوها نفسها في المحفل ......
... ويطلبون كل يوم رزقا	يرونه دينا لهم وحقا
كذاك حتى افقروا الخلافة	وعودوها الرعب والمخافة (2)

وقد شعر ادباء العصر بابعاد هذه الكارثة ولنا في ديوان البحتري اصداء حية لوعي الناس بجلل المصاب وصورة لحنينهم الى العهود الاسلامية السابقة

---

1) ابن الاثير – الكامل – ج 7 ص 70

2) ابن المعتز – الديوان – ص 154 153

مقتنعين بان الاتراك قد خربوا هذه الحضارة وبأنهم لم يكونوا ذوي مدنية كالفرس(1) يقول البحتري في حالة خشوع امام ايوان كسرى رمز عظمة الفرس

حضرت رحلي الهموم فوجهت الى ابيض المدائن عنسي

اتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس

ذكرتنيهم الخطوب التوالي ولقد تذكر الخطوب وتنسي

ثم نراه ينفي عن نفسه التعصب للفرس ويذكر بانه ليس من جنسهم وبان اهوال عصره هي التي جعلته يتذكر محاسن السلطان الفارسي :

ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي

غير نعمى لاهلها عند اهلي غرسوا من زكائها خير غرس

ايدوا ملكنا وشدوا قواه بكماة تحت السنور حمس

واراني من بعد اكلف بالاشرا ف طرا من كل سنخ واس (2)

وما قيل في الرقيق التركي يمكن ان يقال في اجناس الرقيق الاخرى مثل الصقالبة الذين تعصبوا للدولة فتغلب عليهم الحاجب المنصور (326-392هـ/938-1002م) بالعصبية البربرية (3) فقد كان للرقيق بمختلف اجناسه

---

1) احمد امين - ظهر الاسلام - دار الكتاب العربي بيروت 1388هـ/ 1969م ج 1 ص 44 . 45

2) البحتري - الديوان : ج 1 ص 190 - 194

3) المقري - نفح الطيب - ج -1- ص 274

ونوعه المذكر والمؤنث يمد في تخريب كيان الدولة والميل برجالها الى الانحراف وذلك بسبب اشرافه على حياة الخلفاء الخاصة وتصرفه في شؤونهم الداخلية . فقد كان لرجال السلطة العديد من السراري مع والغلمان الذين امسكوا بزمام ساداتهم وقادوهم نحو اللهو والعبث حتى اهملوا امور الحكم وتركوها نهبا لدسائس الجواري والخدم فمما يروى عن المتوكل (232 - 247 هـ/847 - 861م) انه امتلك اربعة آلاف سرية وانه وطئهن جميعا (1) وكان للامير نصر الدين امير ديار بكر وميافارقين ثلاثمائة جارية وكان يخلو كل ليلة من ليالي السنة بواحدة منهن ولم يكفه ذلك بل واصل شراء الجواري بارفع الاثمان (2) ويروى ان ابا الفتوح بلكين الصنهاجي (ت 373 هـ/ + 984 م) نائب المعز العبيدي(341 -365هـ/ 952 - 975م) كان له اربعمائة سرية وان الملك الناصر محمد بن قلاوون (684 - 741هـ/ 1285 - 1341م) كان عنده الف ومائتا سرية (3) .

وقد تسبب ذلك في ظهور التنافس بين امهات الاولاد من اجل ضمان ولاية العهد لابنائهن ومن اشهر الامثلة على هذا التنافس ما جرى بين ابناء الرشيد (170 - 193 هـ/ 786 - 790م) رغم تحريه في وصيته بجعل

---

1) الذهبي ــ العبر ــ طبعة الكويت 1963 ــ ج 2ص 322

2) المصدر نفسه ج 2ص 362

3) ابن تغري بردي ــ النجوم الزاهرة ج 9ص 210

الامر تماما للامين (193 - 198هـ/ 790 - 813م) والمأمون (198 - 218هـ/ 813 - 833م) والقاسم (173 - 208هـ/ 790 - 823م) لكن الفتنة قامت بين الاخوة واجج نارها الرقيق باذكائهم نار العداء بين العنصرين الفارسي والعربي فكان قاتل الامين طاهر بن الحسين الذي اقطعه المأمون بعد ذلك خراسان فانشأ دولة انفصلت عن الخلافة تدريجيا . وقد كانت اعمال الدس والجوسسة التي قام بها المحظوظون من رقيق البلاط عاملا هاما في اعانة الاجناس الاجنبية على دحر العنصر العربي وافتكاك السلطة من يده ((فسقط اسم العرب من الديوان)) (1) وقد تواصل التناحر بين مختلف الاجناس ذلك لان الاكثار من امهات الاولاد قد ادى الى كثرة الابناء الطامعين في العرش فافضى بهم الامر الى التعصب والتقاتل واثارة الاجناس ضد بعضها بعضا فهذا المنتصر (247 - 248هـ/ 861 - 862م) يتآمر على ابيه المتوكل (232 - 247هـ/ 847 - 861م) ويقتله لانه عهد بالامر لاخيه المعتز (252-255هـ/ 866 - 869م) ارضاء لامه ((حبشية)) ويشارا لها على ((قبيحة)) ام المنتصر (2) ويعتبر هذا المثال بسيطا بالقياس الى امثلة اخرى من التناحر بين ابناء امهات الاولاد ذلك التناحر الذي اضر بكيان الدولة مثلما اضر بكيان الاسرة كما سنرى

---

1) السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص 258 ، 259

2) ابن شاكر الكتبي - فوات الوفيات - طبعة القاهرة 1923 ج 1 ص 202

ع) التصدع الاجتماعي

وقد أسفرت تجارة الرقيق عن آفات اجتماعية اوهنت المجتمع العربي الاسلامي كما تسببت قبل ذلك في وهن المجتمع اليوناني والرماني وغيرهما من المجتمعات القديمة وذلك لان الرقيق باختلاطه وامتزاجه بالاسرة قد حطم كيانها واحدث بها تصدعا وانحلالا . ففي المجتمع اليوناني راجت سوق اللهو والمجون بالجواري وظهرت ((العازفات على القيثارة)) مصدر غواية للشباب بعهرهن واشتهرت كذلك ((الخليلات الموحيات)) Les Maitresses inspiratrices اللائي كن يسمين ((الهيتار)) Hitaire فتهافت اليونانيون بما فيهم المثقفون والفلاسفة على هؤلاء العاهرات (1) واعرضوا عن الحرائر فقبعن في بيوتهن ولم يكن يسمح لهن بمقابلة الرجال فصرن فريسة لمرض السحاق وعرفن باسم ((اللسبوسيات)) Lesbiennes - وقد تحدث الشاعر اليوناني ارسطوفان Aristophane عن امرأة تدعى ((سافو)) Sapho قد اسست في جزيرة ((لسبوس)) Lesbos مدرسة لتعليم الحرائر الساحقة (2) فكان ذلك عاملا من عوامل انحلال الاسرة اليونانية .

---

1) ول ديورانت - W. Durant - قصة الحضارة - تعريب زكي نجيب محمود ومحمد بدارن - القاهرة - 1956 ج 2 مجلد 2 ص104 - تور طانيني الرق لماضيه وحاضره - ص 42

2) ول - ديورانت - W. Durant - قصة الحضارة - ج 1 مجلد 2 ص281

كمـــا تسبب الرقيق في انحلال الاسرة الرومانية اذ اهتم الرومان باللهو بالجواري والاماء وتخلوا من الزواج وعزفوا عن النساء الحرائر فعمدن الى عقد علاقات مع العبيد (1) وقد ادى هذا الوضع بالامبراطور اوغسطس Auguste (63-ق م / 14 - م) الى اتخاذ جملة من التدابير والقوانين لحفظ الاسرة الرومانية من الانحلال فمنع الحرائر من الخروج الى الاستعراضات الرياضية ومنع الاحداث من ارتياد دور اللهو وفرض الزواج على الرجال والنساء وسن عقوبات على الزنا واعفى من الضريبة كل من انجب ثلاثة ابناء ولكن هذه التدابير لم تستطع الوقوف في وجه التيار ولاسيما ان الامبراطور لم يكن في سيرته الخاصة قدوة للناس(2) وقد اصيب المجتمع الاسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة بنفس هذه الافات الاجتماعية التي اصيبت بها المجتمعات الرومانية واليونانية وتعرضت الاسرة الاسلامية الى نفس المصير .

---

1) المرجع نفسه ج 2 مجلد 3ص29 وص 317

2) ك جرنبارج- K.GrimberG - التاريخ العالمي الترجمة الفرنسية في (12 جزءا) باريس1963 ج 3ص 134

ففي عصور الاسلام الاولى كانت الاولوية في حماة الرجل للمرأة الحرة ويمكن ان نصور هذه الاولوية من خلال هذه الرواية التي اوردها ابن قيم الجوزية في كتابه ((اخبار النساء)) وهذا نصها ((ضرب البعث على رجل من اهل الكوفة فخرج الى اذربيجان فاشترى فرسا وجارية وكان مملكا بابنة عمه فكتب ليغيرها :

الا بلغا ام البنين باننا فنينا واغنتنا الغطارفة الجرد

بعيد مناط المنكبين اذا جرى وبيضاء كالتمثال زينها العقد

فهذا لايام العدو وهذه لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

فلما ورد كتابه دعت بالدواة وكتبت اليه :

اذا شئت فناني غلام مرجل ونازعته في ماء معتصر الورد

وان شاء منهم ناشئ مد كفه الى كبد ملساء او كفل نهد

فما كنتم تقضون حاجة اهلكم شهودا فتقضوها على النأي والبعد

فعجل علينا بالسراح فانه منانا ولا ندعو لك الله بالرد

ولا قفل الجند الذي انت فيهم وزادك رب الناس بعدا على بعد

فلما ورد كتابها لم يزد على ان ركب الفرس واردف الجارية ولحق بها فكان اول شيء بدأها به ان قال لها : بالله اكنت فاعلة ما قلت ؟ فقالت: الله في قلبي اعظم واجل وانت في عيني احقر واذل من ان اعصي الله فيك . ثم قالت له كيف ذقت طعم الغيرة؟ فوهب لها الجارية ورجع الى مكانه)) (1)

1) ابن القيم الجوزية _ اخبار النساء _ ص 93 ، 94

لكن هذه اللحمة العائلية قد بدأت تتفكك عراها عندما اقبل المسلمون على الجواري والغلمان واغرقوا في اللهو والمجون فأحست الحرة من جراء تطور هذه الاوضاع بانها امست في المقام الثاني ولم تعد تثير اهتمام الرجال وقد اوردت كتب الادب اخبارا كثيرة عن خوف الحرائر من العنس بسبب تقدمهن في السن دون وجود خاطب لهن فدعا هن ذلك الى هتك حجابهن والتصدي لمن يشبب بهن من الشعراء حتى يمكنهن التزوج (1) ومن هاته الاخبار ما روي بالاندلس في عهد الحاجب المنصور (326-392هـ/938-1002م) من ان الاباء كانوا يجهزون بناتهم ترغيبا للرجال في الزواج بهن وخوفا من كسادهن (2) لكن الحرة لم تستطع الصمود طويلا امام هذا التيار فدفع بها الكبت الى الغواية والانحراف ومحاكاة الاماء في لهوهن وخلاعتهن . ومما رواه التنوخي في هذا الصدد ان صاحب شرطة بغداد ايام المأمون (198-218هـ/813-833م) والمعتصم (218-227هـ/833-842م) وهو اسحق ابن ابراهيم المصعبي قد هم بقتل خمس من بنات الوزراء والرؤساء ضبطن مع رجال على ريبة لكن احد شيوخ بغداد حال دون ذلك والقى اللوم على ابائهن واشار عليه بان يكتم هذا العار وان يزوجهن من خمسة ابناء لاحد قواده (3)

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة القاهرة - 1929 ج 1 ص 377
2) خالد الصوفي - تاريخ العرب في اسبانيا في عهد المنصور - القاهرة - (د ت) ص 115
3) التنوخي - نشوار المحاضرة ج 3 ص 101-103

والواقع ان الرقيق قد كان له دور اساسي في اشاعة الانحراف والتفسخ الخلقي في مختلف الاوساط وكان محور حياة اللهو والخلاعة فعجت به مجالس الانس ودور الغناء والملاهي الليلية وتفشت بسببه ظاهرة البغاء بالرغم من تشدد الشريعة في منعها وصرامتها تجاه العزوبة وتأكيدها على تحريم الزنا (1) فكان من الجواري من بلغ بهن المجون الى حد ممارسة الخنا والدعارة واشتهر من الاماء المغنيات من كانت تشتغل في النهار بدينارين وفي الليل بدينار واحد (2) وقد سبق ان راينا كيف وصف الجاحظ اساليب القيان في اغواء الشبان واقتناصهم (3) وكيف لعب الغلمان دورا هاما ايضا في نشر الشذوذ الخلقي (4) ولأن المراة الحرة لم تستطع ان تجاري الرقيق في هذا التيار لموانع اجتماعية عديدة فكان هناك رد فعل من جانبها تمثل هذه المرة في الانطواء والتستر عن اعين الناس تساميا عن الحياة المتذلة والخليعة التي كان يحياها الجواري كما بادر ارباب الاسر الى حماية بناتهم وزوجاتهم من اخطار هذا الوضع .

---

1) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 173

2) الاصفهاني - الاغاني - ج 19 ص 136

3) الجاحظ - رسالة القيان - الرسائل ج 2 ص 171 . 175

4) راجع الفصل الخاص بالغلمان من هذا البحث - ص 754 - 771

وهكـذا تجسّم رد الفعل في ظهور نزعة رجعية رمت بالمراة الحرة الى قعر بيتها ونادت بحرمانها حق المشاركة في حياة الناس وعمد رجال الدين والوعاظ نحو التزمت في وعظهم فحرموا النظر الى المراة وجعلوا هذا التحريم من اركان الدين وعقد فريق منهم مناظرة في حكم النظر الى قلامة ظفر المرأة وانتهوا الى ان القلامة اذا كانت في اصبع اليد جاز النظر اليها واذا كانت في اصبع الرجل لم يجز لان النظر الى القدم غير جائز (1) وفي هذا العصر نجد رجلا كالجاحظ يرى ان المرأة يكفيها من العلم القراءة للقرآن ولا يحسن ان تستمع الى شعر الغزل واحاديث الطرب (2) .

ولسنا نجد بعد شهادة الجاحظ احسن من شهادة المعرّي الذي يرى ان المرأة حسبها الغزل والردن قابعة في ركن بيتها وهو يقدم لنا في ديوانه ((اللزوميات)) صورة سوداء عن المرأة في عصره (3)

ويرى الغزالي ان من واجب المرأة ان تكون ملازمة لمغزلها والا تكثر من الصعود الى سطح الدار والتطلع منه وان تكون قليلة الكلام لجيرانها والا تخرج من بيتها الا باذن زوجها فاذا خرجت فلتكن في حالة رثة ولتسلك طريقا خاليا من المارة (4)

---

1) ابن خلكان ـ وفيات الاعيان ـ القاهرة ـ 1948 ج 4 ص 215
2) الجاحظ ـ كتاب الحيوان ـ ج 3 ص 291
3) المعرّي ـ اللزوميات ـ ج 1 - ١٧٧ - ١٤٢
4) الغزالي ـ احياء علوم الدين ـ القاهرة ـ (د ت) ج 2 ص 61

وقد كانت كل هذه المواقف بمثابة ردّ فعل على تيار الانحلال الذي تسبب فيه الرقيق ورأى فيها اصحابها علاجا للاوضاع المترديّة اذاك وحماية للحياة العائلية والخلقية عموما لكنّ تلك التدابير المتشددة قد اساءت الى المرأة في حد ذاتها حتى صار بعضهم يقول اذا رأى امرأة تتعلم : ((افعى تسقى سمّا)) (1) كما عزلتها عن المجتمع وحكمت عليها بالجهل واورثتها الكبت فصارت تتحيل على هذا الضيق بفرصة الخروج الى الحمام واثار الشعراء منذ ذلك العصر الى ((علّة الحمام)) فقال البحتري يهجو ابن قلّاش صاحب البريد بزوجته التي تدعي الذهاب الى الحمام عند لقاء عشيقها :

دهتك بعلة الحمام خشف — ومال بها الطريق الى سعيد

ارى اخبار بيتك عنك تخفى — فكيف وليت اعمال البريد (2)

وقد نقل الجاحظ قول بعضهم في النهي عن ذهاب النسوة الى الحمام . ومنه هذان البيتان من الشعر :

اذا كنت ذا عرس تضن بوصلها — فلا تخرجنها تبتغي ليلة القدر

ولا تدخل الحمام عرسك انني — اخاف من الحمام قاصمة الظهر (3)

وقد عيّر المتنبّي ايضا النساء الحضريات بخروجهن من الحمام صقيلات ((العراقيب))(4)

---

1) القلقشندي – صبح الاعشى – القاهرة 1928 – ج 4 ص 215
2) الخالديان – الاشباه والنظائر – القاهرة 1965 ج 2 ص 64
3) الجاحظ – كتاب الحيوان – ج 3 ص 290
4) المتنبي – الديوان – ص 447

تلك هي بعض وجوه التصدع التي احدثها الرقيق في كيان الاسرة الاسلامية وفي الاخلاق العامة بصورة اشمل وقد تصحب جلبه في انواع اخرى من التصدّع الاجتماعي كالثورات والانتفاضات والحروب الاهلية . ولنا شاهد على ذلك فيما قام به الزنج المستوردون من سواحل شرق افريقيا من حروب اهلية طاحنة دامت اربعة عشر عاما واربعة اشهر اي من سنة (255هـ/ -869- م) الى سنة (270هـ/ -884- م) وكانت حروبا عنصرية مدمّرة زعزعت اركان الدولة العباسية وتناحر فيها السود والبيض مما اذكى روح العنصرية بينهما وقد انضمت الى هؤلاء الزنوج في فتنتهم الفرقة السودانية في الجيش العباسي فتفاقم البلاء وازهقت شتات الالاف من النفوس لا سيما ان قائد الثورة قد اعتنق مذهب الازارقة في قتل الصغير والكبير والذكر والانثى (1) وقد وصف المسعودي جانبا من هذه المجازر بقوله :

((وقد كان (اي صاحب الزنج)اتى بالبصرة في وقعة واحدة على قتل ثلاث مائة الف من الناس . . . . . وقد تكلم الناس في مقدار ما قتل في هذه السنين من الناس فمكثر ومقلل فاما المكثر فيقول انه افنى من الناس ما لا يدركه العدد ولا يقع عليه الاحصاء ولا يعلم ذلك الا عالم الغيب فيما فتح من هذه الامصار والبلدان والضياع واباد اهلها والمقلل يقول أفنى من الناس خمس

---

1) المسعودي ــ مروج الذهب ــ ج 8 ص 31

مائة الف نفر وكلا الفريقين يقول ذلك ظنا وحسابا اذ كان شيئا لا يدرك ولا يضبط)) (1) هذا فضلا عن الحرائق التي اشعلتها هذه الثورات في المدن مثل الاهواز والبصرة وعبادان والابلة وواسط حيث ساءت احوال الاهالي وخضعوا لحالة طوارئ فضيعة اختفوا خلالها في دورهم مدة طويلة وكانوا لا يظهرون الا ليلا لصيد الكلاب وذبحها واكلها وكذلك الفئران والسنانير ثم لم يجدوا بعد ذلك مناصا من ان يأكلوا بعضهم بعضا .

فقد ذكر صاحب مروج الذهب ان هؤلاء الأهالي ((كانوا اذا مات الواحد منهم اكلوه ويراعي بعضهم موت بعض ومن قدر منهم على صاحبه قتله واكله وعدموا مع ذلك الماء العذب . وذكر عن امرأة منهم انها حضرت امرأة تنزع ومعها اختها وقد احتوشوها ينتظرون ان تموت فيأكلون لحمها . قالت المرأة : فما ماتت حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها واكلناه ولقد حضرت اختها قد جاءت الى النهر ونحن على مشرعة عيسى بن أبي حرب وهي تبكي ومعها راس اختها فقيل لها ويحك مالك تبكين قالت اجتمعن على اختي فما تركوها تموت حسنا حتى قطعوها وظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئا الا راسها هذا وهي تشتكي ظلمهم لها في اختها ومثل هذا اكثر واعظم مما وصفنا)) (1) وقد وصف الشاعر ابن الرومي اهوال

---

1) المصدر نفسه ج 8 ص 61

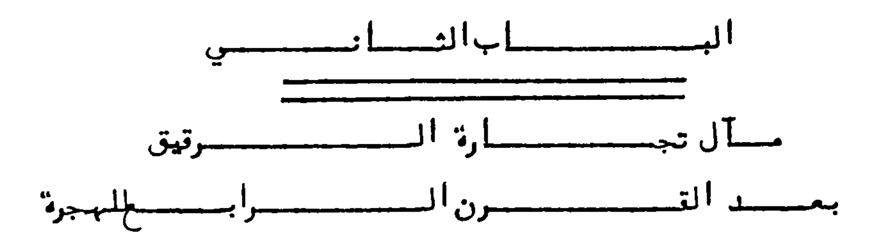
2) المصدر نفسه ج 8 ص 59 . 60

ثـــــورة الزنــج وما احــدثتــه من ضـار وكـــوارث ذلك في قوله :

كم فتاة مصونة قد سبوهـــــــا	بارزا وجهها بغير لثـــــام
من رآهن في المساق سبايـــــا	داميات الوجوه للاقـــــدام
من رآهن في المقاسم وسط الــز	نج يقسمن بينهم بالسهـــــام
من رآهن يتخذ ن امــــــــاء	بعـد ملك الاماء والخـــدام
رب بيع هناك قد ارخصــــــوه	طالما قـد غلا على الســوام
اين تلك القصور والد ور فيهـــــا	اين ذاك البنيان ذ و الاحكـام
بدلت تلكم القصور تــــــلالا	من رمـاد و من تـراب ركـــام . . . (1)

---

1) ابن الرومي ـ الديـــــــــوان ـ ج 5 ص 2111



الباب الثاني

مآل تجارة الرقيق

بعد القرن الرابع للهجرة

تطور الاوضاع بعد القرن الرابع

وقد اخذت تجارة الرقيق منذ اواخر القرن الرابع للهجرة منعرجا جديدا حتمه تطور الاوضاع العالمية وتغير ظروف المسلمين وعلاقاتهم بغيرهم من الامم والشعوب . وقد تجلى هذا المنعرج بالدرجة الاولى في عملية تزويد العالم الاسلامي بمادة الرقيق اي في مسألة تمويد هذه البضاعة من مصادرها التي ذكرناها خلال بحثنا هذا . ذلك لان انتشار المسيحية والاسلام سواء بالقارة الاوروبية او الافريقية او الاسيوية قد كان من نتائجه تضاؤل تصدير الرقيق وايذان معينه بالنضوب مما سيضطر معه المسلمون الى مواجهة مشكل التزود من جديد والبحث عن مصادر جديدة لحل مشاكلهم الاقتصادية (1) ولا يخفى ان انتشار النصرانية والاسلام قد كان عاملا اساسيا من عوامل القضاء على هذه التجارة في صورتها الرسمية على الاقل وحافزا للشعوب المعتنقة لهما على معارضة هذا النوع من التبادل التجاري . هذا بالاضافة الى ما في الدينين من ممانعة الاصحاب الملة الواحدة من استرقاق اخوانهم في العقيدة .

---

1) برنشفيك – دائرة المعارف الاسلامية . مقال عبد – ج 1 ص 33-34

فمنـــذ القـرن الرابـع للهجـرة العاشـر للميلاد اخـذ مصـدر الرقيـق الصقلبي في التضاؤل حتى انقطعت مادتـه تـدريجيا اذ مـا فتئت المسيحيـة ان انتشـرت بين البرابرة تحت تاثير الامبراطوريـة البيزنطيـة او الكارولنجيـة فتتصـر البلغـار شيئـا فشيئا لاسيما فـي عهـد القيصـر ((بوريس)) Boris (358 -361 هـ/969 - 972 م) و ((سيميـون)) Siméon (280-315 هـ/ 893 - 927 م) وامكـن ايضـا للامـة المجريـة ان تعتنـق هـذا الدين تحت تاثير دعاة مـن المانيا وان تنشئ كنيسة مجرية بفضل مجهـودات ((جيزة)) Géza (او ((جيشـة : Geycha)) (361 - 387 هـ/ 972 - 997 م) دوق المجريين وذلك في اواخر القرن العاشر للميلاد . وكذلك بفضل مجهودات ابنـه ((فايك)) Vaïk (387-429 هـ/ 997.1038 م) الذي ستجعل منه الكنيسة وليا صالحا . وهكذا تمسح هذا الشعب وبارك البابا سلفستر الثاني - Sylvestre II - (389 -393 هـ/ 999 - 1003 م) تتويج احد ملوكه . وانتشرت المسيحيـة ايضا في ربوع جرمانيـا في ظل الامبراطـور ((اتون)) otton (324 - 362 هـ/936 -973 م) الذي صار مثلا المسيحية الغربية حتى قيل اذا كان القرن التاسع قرن الامبراطور شرلمان charlemagne (165 - 199 هـ/ 768 - 814 م) فـان القرن العاشر هو قرن الامبراطور ((اتون)) - otton - وبتنصـر هذه الامبراطوريـات تنصرت في ظلها العناصر السلافية وكان هذا الحدث

ايـــــــــذانا بخـــروجها من طـور البرابـــرة الى طـــــــور الشعــــــوب المتحضـــــــرة (1).

ثم ان انتشار الاسلام ببلاد الاتراك وافريقيا السوداء قد كان من اثره ان تناءت الجهات التي كان يقتنص فيهما الرقيـق فتسبب ذلك ازمة في ميدان الشغــل كان لا بـد من بحث عن حلول لهـا (2) فمن المعلوم بالنسبة الى بلاد السودان ان الاسلام قـد دخـل الى مملكـة ((غـانـة)) منـذ بـدايـة القـرن الاول الهجري السابع الميلادي وكانت قبائل لمتونة هـي التي ادخلتـه وبدأ منـذ ذلـك الحيـن في الانتشار الى ان صار بغـانـة على حـد قـول البكري اثنا عشـر 12 مسجدا في القـرن العاشـر للميلاد . وقـد سيطـرت قبـائـل صنهـاجـة على هـذه المنطقـة بعـد لمتـونـة وهيمنت علـــى تجـارة ((اودغست)) في اواسط القرن العاشر للميلاد وقد دان لهـم في هـذا العصر ثلاثـة وعشـرون 23 ملكـا من السودان ودفعـوا الجزيـة لملكهـم . ثم جاء بعـد ذلك عهـد المرابطين فسيطروا على المنطقـة . وكـانت مملكـة ((كوكو)) GOGO في منطقـة النيجـر الاوسط تشتمـل على عـدد كبير من المسلمين اذ يصـف لنـــا البكـري عـاصمتهـا منقسمـة الى نصفين احـدهما للمسلمين والاخر للوثنيين (3).

---

1) لويس هالفن - البرابرة - L. Halphen - Les Barbares ص 328 - 329 وص 344 - 346

2) نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي - ص 116

3) البكـــري - المسالك - ص 183 - حمتتاي - Hametiti - اخبار موريطانيا السينغالية ص 5 . 6

وكان انتشار الاسلام في هذه المناطق قد صادف نجاحا كبيرا وتغلغل بين قبائل السود بسرعة فائقة وسر هذا النجاح ان الدعوة الاسلامية لم تكن قائمة على العنف وانما اكتست صبغة سلمية تمثلت في المعاملات التجارية والاستقرار بربوع بلاد السودان لاغراض اقتصادية والمصاهرة بين البيض والسود (1).

وكان الشأن كذلك بالنسبة الى الاتراك بآسيا الوسطى اذ انتشر الاسلام شيئا فشيئا بين القبائل التركية مما عسر معه استرقاق افرادها وكان لابد من مزيد التوغل في المناطق النائية من بلاد الاتراك للظفر بهذا النوع من الرقيق (2) وهو ما تسبب في ارتفاع تكاليف التوريد لهذه البضاعة اما الاجناس المختلفة الاخرى التي كانت تجلب عن طريق القرصنة او الفتوحات فقد ضعفت مقاديرها ايضا بحكم تراجع الهيمنة البحرية الاسلامية (3) فمنذ اوائل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بدأ المسلمون يفقدون ما كان لهم من سيادة على المسالك البحرية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة فتناقص بذلك نشاطهم البحري الذي كان

---

1) المرجع نفسه - ص 35 -

2) نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي - ص 118 . 119

3) ارشيبالد لويس - السيادة الاسلامية - ص 80 وما بعدها

يستعمل من حين لآخر في اقتناص بضاعة الرقيق على سواحل البلاد المجاورة لهم . ثم ان عمليات الفتح العسكرية قد صارت اكثر ندرة من ذي قبل مما انقطع معه مورد الغنيمة وبالتالي مورد الرقيق فاذا اعتبرنا بالاضافة الى هذه الملابسات الجديدة ان مادة الرقيق المتداولة عند المسلمين قد كانت مهددة دوما بالنقصان والاستهلاك لاسباب مختلفة كالتحرير والاباق وغيرهما من الاسباب ادركنا ان المورد الوحيد القار هو الولادة في الرق اي المورد الواشي وهو غير كفيل وحده بسد حاجة المجتمع المتزايدة الى هذه المادة الضرورية لحياته . فلامناص اذن والحالة تلك من ان يبحث المسلمون من جديد عن حل مناسب لمواصلة التزود بهذا النوع من الطاقة اللازمة لمسيرتهم الحضارية وان يحلوا ايضا مشكل ارتفاع تكاليف تمويد هذه اليد العاملة المسترقة شلما واجهوا هذه القضية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ووجدوا لها الحلول المناسبة لعصرها .

*- قائمة المصادر والمراجع

(1) المصادر

ابن آدم = كتاب الخراج - طبعة ليدن - Leiden 1895م

ابن الابار = الحلة السيراء - تحقيق حسين مؤنس - الطبعة الاولى - القاهرة 1963

الابشيهي = المستطرف في كل فن مستظرف - مطبعة المشهد الحسيني - بيروت - لبنان - 1368 هـ وطبعة بولاق 1308 هـ

الاتليدي = اعلام الناس - طبعة مصر 1318 هـ

ابن الاثير = الكامل في التاريخ - تصحيح عبد الوهاب النجار - ادارة الطباعة المنيرية - مصر 1357هـ وطبعة ليد leyde نشر طورنبرغ c.J.Tornberg - 1851-1876م وطبعة مصر 1302 هـ

= اسد الغابة في معرفة الصحابة - طبعة - مصر - 1280 هـ

ابن الاخوة = معالم القربة في احكام الحسبة - تحقيق روبن ليفي = مطبعة دار الفنون - كيمبردج 1937 "Reuben-levy"

الادريسي = نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - نشر مجموعة من المستشرقين طبعة رومة 1970م

opus Geographicum- sous la direction d'E.Cerulli, F.Gabrieli G. Levi della vida, l. Petech, G. Tucci, etc ....
(Institutus universitaris orientale di Napoli)

وطبعة نشر دوزي ودي غويه - ليدن 1866

ارسطو = كتاب السياسة - تعريب احمد لطفي السيد. القاهرة . 1947م

الاردي = حكاية ابي القاسم البغدادي - نشر آدم متز - هيدلبرج 1902م

الازرقي = اخبار مكة - طبعة مكة - 1352هـ - وطبعة ليبزج Leipzig 1858م

ابن اسحق (خليل) = المختصر في الفقه - نشره وترجمه .ن. سانيات N.Seignette باريس 1911م

الاصطخري = المسالك والممالك - نشر دي غويه M.J.De Goeje المكتبة الجغرافية العربية عدد الطبعة الثانية - مطبعة بريل - ليدن 1927م وطبعة القاهرة - 1961م

* اعتمدنا اكثر من طبعة للمصدر الواحد واشرنا الى ذلك في الهوامش - وفي صورة الامساك عن الاشارة فالمقصود اولى الطبعات ورودًا بالقائمة

الاصفهاني (جمزة) = تاريخ سني ملوك الارض والانبياء _ باعتناء _ غوتوالـــد _ بترسبـــورغ 1844: 1848م

الاصفهاني (ابو الفرج) = الاغاني _ تحقيق ومراجعة عبد الله العلايلي وموس سليمان واحمد ابو سعيد طبعة دار الثقافة _ بيروت _ 1955: 1964م وطبعة القاهرة 1929 م بالنسبة الى الجزء الثالث والجزء الرابـــع وطبعة بولاق 1285 هـ وطبعة القاهرة 1323 هـ/ 1905م

الاصفهاني (ابو نعيم) = حلية الاولياء _ طبعة القاهرة 1933

ابن ابي اصيبعة = عيون الانباء في طبقات الاطباء _ نشر مولر Müller كونيزبرج Königsberg 1882م

افلاطون = الجمهورية _ تعريب الدكتور فؤاد زكرياء _ القاهرة 1968م

ابن انس (مالك) = المدونة الكبرى _ رواية الامام سحنون _ الطبعة الاولى _ مطبعة السعادة _ مصر 1323 هـ

= الموطأ _ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي _ دار احياء الكتـــب العربية _ عيسى البابي الحلبي وشركاؤه 1370هـ/ 1951م

الانطاكـي = تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق _ المطبعة العامريـــة القاهـــرة 1291 هـ/

الاورجنـــدي = الفتاوي الهندية _ الطبعة الثانية _ مطبعة بولاق مصر 1310 هـ

ابن ايـاس = بدائع الزهور في وقائع الدهور _ نشر محمد مصطفى _ طبعـــة القاهرة 1960، 1961 م

البحتـــــري = الديوان _ طبعة دار صادر بيـــروت 1385هـ/ 1966م

البخـــاري = الصحيح _ مطبعة مصطفى بابي الحلبي _ مصـــر 1345هـ وطبعة ادارة الطباعة المنيـــرية _ مصـــر _ د _ _

البـــرزلـي = جامع مسائل الاحكام _ مخطوط المكتبة الوطنية بتونس _ الجزء الثاني الخاص بالبيوع رقم 5430و 5372و 3175

= المختصـــر _ مخطوط المكتبة الوطنية بتونـــس رقم 3178 و 3179

ابن بسـام = الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة _ طبعة القاهرة 1939م

ابن بطـــلان = رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد
تحقيق عبد السلام هارون -
- نوادر المخطوطات - المجموعة عـ4ـدد الطبعة الاولى - القاهرة
1954م
= رسائل ابن بطلان - نشرها ماير هوف Meyerhof وشاخت
Schacht (ضمن خمس رسائل تبادلها مع ابن رضوان) بعنوان
مناظرة ابن بطلان وابن رضوان القاهرة 1937م
The Controversy between Ibn Butlan and Ibn Ridwan

ابن بطوطـــة = تحفة النظار - نشره وترجمه دي فريمري C. Defrémery
وصاحبه سانجينيتي B.R. Sanguinetti بعنوان رحلة ابن بطوطـــــة
Voyages d'Ibn Batouta باريس 1853 - 1869م وطبعة
بيـــروت 1964م

البغدادي (الخطيب) = تاريخ بغداد - مطبعة السعادة - مصر 1931م
وطبعة اخرى نشر وترجمة سالومون Salomon باريس 1904م

البغدادي (عبد الوهاب) = الاشراف على مسائل الخلاف - مطبعة الارادة - مصر د. ت

البغــوي = مصابيح السنة - مطبعة بولاق مصر 1294هـ

البكـــري = المسالك والممالك - نشر وترجمة دي سلان M.G. De Slane
الجزائر 1911 - 1913م وطبعة باريس 1965م
= المغرب في ذكر بلاد افريقيه والمغرب - جزء من كتاب المسالك
نشر دي سلان - MG De Slane الجزائر 1857م (وهو جزء
خاص بشمال افريقيا وبلاد السودان)

البـــلاذري = فتوح البلدان - نشر رضوان محمد رضوان - الطبعة الاولى مصر
1350هـ/1932م وطبعة عبد الله وانيس الطباع بيروت 1958م
= انساب الاشراف (الجزء الاول) تحقيق محمد حميد الله - دار
المعارف - مصر 1959م

البلوي (ابو محمد عبد الله) = سيرة احمد بن طولون - تحقيق محمد كرد علي مطبعة الترقي
دمشق 1358هـ

البلوي (يوسف) = الف باء - طبعة مصر 1287

البهلوي (ابومحمد بن بركة) = كتاب الجامع - تحقيق عيسى يحيى الباروني القاهرة. د. ت

البيــــرونـــــي = الجماهر في معرفة الجواهر - نشر كونكو - حيدر آباد الدكـن 1355هـ

= التفهيم - طبعة رايت .R. Wright 1934م

البيهقـي = المحاسن والمساوي - نشر. ف. شوالي . كيسن . 1902م

التوحيدي = الامتاع والمؤانسة - تحقيق احمد امين واحمد الزين مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - بيروت - صيدا - 1953م

الترمـذي = صحيح - نشر عبد الواحد محمد التاني - الطبعة الاولى - الجزء السادس - المطبعة المصرية بالازهر 1350هـ 1931م

ابن تغري بردي = النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة 1930م وطبعة القاهرة 1932م وطبعة جوينبول Juynboll ليد - Leyde - 1855-1861م

ابو تمام = الديوان بشرح الخطيب التبريزي - تحقيق محمد عبده عزام سلسلة ذخائر العرب عدد 5 دار المعارف بمصر 1951م وطبعة القاهرة 1965م

التنوخـي = الفرج بعد الشدة - طبعة القاهرة - 1904م

= نشوار المحاضرة او جامع التواريخ - تحقيق عبود الشالجي - دار صادر بيروت 1971 1973م وطبعة القاهرة - د. ت.

التونسي (محمد بن عمر) = تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان - تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد - مراجعة محمد مصطفى زيادة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة 1965م

التيجانـي = الرحلة - نشر حسن حسني عبد الوهاب - تونس 1378هـ/ 1958م وطبعة تونس 1927م

ابن ثابت (حسان) = الديوان - مطبعة الدولة التونسية - تونس 1281هـ

الثعالبي = ثمار القلوب - طبعة القاهرة 1326هـ

= لطائف المعارف - تحقيق ابراهيم الابياري وحسن كامل الصيرفي دار احياء الكتب العربية مصر 1960م وطبعة دي يونج De Jong ليتايا 1867م

= يتيمة الدهر – طبعة دمشق 1303هـ وطبعة القاهرة 1934م

الجاحظ = البخلاء – طبعة مصر 1323هـ

= التبصر بالتجارة – تحقيق حسن حسن عبد الوهاب – دار الكتاب الجديد 1966م

= الحيوان – تحقيق عبد السلام محمد هارون – دار الكتاب العربي بيروت – الطبعة الثالثة 1388هـ/ 1969م

– وطبعة مصطفى بابي الحلبي واولاده – القاهرة مصر 1958م

= رسائل الجاحظ – تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي – القاهرة 1964–1965م

وطبعة ثالثة لنفس المحقق – دار الكتاب العربي بيروت 1388هـ/ 1969م

= المحاسن والاضداد منشورات دار مكتبة العرفان – مطبعة الساحل الجنوبي – الشياح – لبنان – بدون تاريخ

ابن الجراح = الورقة – طبعة دار المعارف بمصر 1953م

الجرجاني = التعريفات – مكتبة لبنان – بيروت 1969

الجصاص = احكام القرآن – طبعة القاهرة بدون تاريخ

ابن جعفر (قدامة) = الخراج وصنعة الكتابة – المكتبة الجغرافية العربية المجلد 6 نشره دي غوية De Goeje. ليدن 1889م

الجهشياري = الوزراء والكتاب تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي – مطبعة مصطفى بابي الحلبي واولاده القاهرة 1938م

ابن الجوزي = المنتظم في تاريخ الملوك والامم – الطبعة الاولى مطبعة دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد الدكن 1358هـ

الجوهري = تاج اللغة وصحاح العربية – تحقيق احمد عبد الغفور عطار القاهرة دار الكتاب العربي – بدون تاريخ

ابن حبيب = اسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام . تحقيق عبد السلام محمد هارون – سلسلة نوادر المخطوطات – العدد 6 مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة 1954م

ابن حبيب = المحبر – دائرة المعارف العثمانية – حيدر اباد الدكن 1942م

الحبيشي (الوصابي) = البركة في فضل السعي والحركة – الطبعة الاولى مطبعة الشرق مكتبة الخانجي - مصر 1354هـ

ابن الحسين (اسحق) = آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان – (المؤلف لانعرف عنه شيئا سوى انه كان حيا سنة 340هـ/ 950م والف باسبانيا هذا الكتاب) نشره وترجمه الى الايطالية كوداني A-Codazzi - في = Rendiconti della Reale Accademia dei Lincei - سلسلة 6 - عدد 5 - ص 373-463 - رومة 1929 م

ابن حزم = الفصل في الملل والاهواء والنحل – نشر عبد الرحمن خليفة مطبعة محمد علي صبيح واولاده ميدان الازهر مصر 1347هـ

ابن حزم = المحلّى – طبعة القاهرة -1347 هـ

الحلّي (ابو القاسم) = شرائع الاسلام في مسائل الحلال والحرام – مطبعة الاداب النجف 1969م

ابن حماد = اخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم – نشر و ترجمة فوندرهايدن M vonderheyden بعنوان = تاريخ الملوك العبيديين Histoire des rois 'obeidites الجزائر باريس 1927 م

الحموي (ياقوت) = معجم البلدان – دار بيروت للطباعة والنشر- بيروت –1955 1957م وطبعة وستنفلد F.Wüstenfeld ليبزج . Leipzig- 1866 : 1870م

الحموي (ياقوت) = ارشاد الاديب الى معرفة الاديب (المعروف بمعجم الادباء) تصحيح د . س . مرجوليوث - Margoliouth - مصر 1923م

الحميري (ابوعبدالله) = الروض المعطار في خبر الاقطار – نشره بروفنسال E Levi Provençal بعنوان : به الجزيرة الايبيرية في العصر الوسيط – مؤسسة دي غوية M.G. De Goeje ليد Leyde 1938م
La Peninsule Ibérique au moyen age d'après le K. al-Rawd al-Mitar

ابن حوقل = المسالك والممالك – المكتبة الجغرافية العربية نشر دي غوية ليد - Leyde - 1873م

= صورة الارض نشره كرامرز J.H. Kramers طبعة ليد Leyde 1938م
(opus Geographicum auctore Ibn-Haukal)

وترجمة الاستاذ ماك ... فيات G. Wiet طبعة 1964م

ابن حيان = المقتبس نشره غرسية قومس Garcia . Gomez وليفي بروفنسال E. Lévi . Provençal في "الاندلس" ×1×× — مدريد 1954م ص 295 - 315

الخالديان = الاشباه والنظائر — الجزء الثاني ،طبعة القاهرة 1965

الخراساني (ابوغانم الاباضي) = المدونة الكبرى — تحقيق محمد بن يوسف اطفيش الاباضي الجزائري - دار اليقظة العربية للتاليف والترجمة والنشر في سوريا ولبنان 1394هـ/ 1974م

ابن خرداذبة = المسالك والممالك — المكتبة الجغرافية العربية (6) نشر دي غوية M.J. De Goeje ليد Leyde 1889م ونشره ايضا بربيي دي مينار Barbier de Meynard بعنوان كتاب المسالك Le livre des routes في المجلة الاسيوية - J. A. - سلسلة ع6 ـ د 5 ص512

الخزاعي (دعبل) = الديوان — تحقيق الدكتور عبد الكريم الاشتر — دار الفكر بدمشق د . ت .

الخطيب (محمد الشربيني) = مغني المحتاج الى معرفة معاني الفاظ المنهاج - المكتبة التجارية الكبرى - مصر د . ت

ابن الخطيب = اعمال الاعلام — نشر حسن حسني عبد الوهاب طبعة بالرمو 1910

ابن الخطيم (قيس) = الديوان تحقيق ناصر الدين الاسد مكتبة دار العروبة سلسلة كنوز الشعر ع2 ـ د الطبعة الاولى القاهرة 1381هـ/ 1962م

ابن خلدون = العبر طبعة بيروت 1959م وقد نشر دي سلان De slane - النصوص المتعلقة بالمغرب وترجمها بعنوان تاريخ البربر Hist des Berbères طبعة الجزائر 1852 — 1856م

ابن خلدون = المقدمة — طبعة — بولاق — القاهرة — 1274هـ وطبعة كاترمار E. Quatremère باريس 1858 — 1868م - وطبعة ببروت . 1966م

ابن خلكان = وفيات الاعيان — طبعة بولاق 1299هـ وطبعة مكتبة النهضة المصريه تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد — القاهرة 1948م وطبعة مصر 1310هـ

ابن دريد = الاشتقاق - تحقيق عبد السلام هارون - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة 1958

الدمشقي (شمس الدين) = نخبة الدهر في عجائب البر والبحر — نشره مهرن Mehren

بعنوان Cosmographie de chems ed-din ad-dimichqi
طبعة بترسبوغ - st - Petersbourg - 1866م

الدمشقي (ابو الفضل جعفر بن علي) = الاشارة الى محاسن التجارة _ طبعة القاهرة 1318هـ

الدميري = حياة الحيوان _ طبعة بولاق _ 1284هـ

الذهبي = سير اعلام النبلاء _ تحقيق ابراهيم الابياري _ سلسلة ذخائر العرب ع19 _ د د _ طبع معهد المخطوطات العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر 1957م

الذهبي = العبر في اخبار من غبر _ تحقيق فؤاد سيد _ سلسلة التراث العربي طبعة الكويت 1963

ابن رستة = الاعلاق النفيسة _ المكتبة الجغرافية العربية ع _ 7 _ د د _ الطبعة الثانية _ مطبعة بريل لدين 1892

ابن رشد (الحفيد) = بداية المجتهد ونهاية المقتصد _ طبعة بيروت _ د . ت

الرصاع (ابو عبد الله) = شرح حدود ابن عرفة _ الطبعة الاولى المطبعة التونسية _ تونس 1250هـ

الرضي (الشريف) = الديوان طبعة دار صادر بيروت . د . ت

ابن الرومي = الديوان _ تحقيق حسين نصار _ مطبعة دار الكتب مصر 1973 : 1979م

الزبيدي (محمد مرتضى) = تاج العروس من جواهر القاموس _ المطبعة الخيرية القاهرة 1307 هـ

ابن الزبير (القاضي الرشيد) = الذخائر والتحف تحقيق محمد حميد الله مع تقديم و مراجعة لصلاح الدين المنجد _ سلسلة التراث العربي _ دار المطبوعات والنشر بالكويت _ الكويت 1959م

الزبيري (مصعب بن عبد الله) = نسب قريش _ طبعة مصر 1953م

ابن ابي زرع = الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس _ نشره طورنبرج - Tornberg - مع ترجمة لاتينية بعنوان
Annales Regum Mauritaniae
ابسالا - Upsala - 1843 - 1846 م

الزرقاني = شرح موطأ الامام مالك _ مطبعة الاستقامة _ القاهرة 1954 م

الزهـــــري = كتاب الجغرافية ـ نشره الحاج صادق في مجلة الدراسات الشرقية -BEO- المعهد الفرنسي بدمشق -I.F.D- ج 21 سنة 1968م ص1: 132

الزوزنـــــي (ابو عبدالله) = شرح المعلقات السبع ـ طبعة دار الثقافـــــة بيروت ـ لبنان ـ 1388هـ/ 1969م

السبكي (تاج الدين) = طبقات الشافعية الكبرى المطبعة الحسينية بالقاهرة مصر 1324هـ/

السجستاني (ابو داوود) = السنن ـ تحقيق محمود محي الدين عبد الحميـــد مطبعة مصطفى محمد مصـــر ـ د. ت

السرخسي (شمس الدين) = المبسوط ـ الطبعة الثانية دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ـ د. ت.

السرخسي (محمد بن احمد) = شرح كتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني تحقيق عبد العزيز احمد نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية مطابع شركة الاعلانات الشرقية 1972

ابـــن سعد (محمد) = الطبقات الكبرى ـ دار صادر بيروت ـ الجزء الخامس والسادس 1957 1958م

ابن سعيـــد = بسط الارض في الطول والعرض نشره خوان فرنيت خينيس Juan Vernet - Ginès تطوان 1958م

ابن سعيد = المغرب في حلى المغرب ـ طبعة ليدن 1898 - 1899م وقد نشر القسم الاول من الجزء الخاص بمصر زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيدة اسماعيل كاشف القاهرة 1953م

السقطي (ابو عبد الله المالقي الاندلسي) = في آداب الحسبة نشره كولين وبروفنسال G-S-COLIN - et - E. Lévi - Provençal مكتبة ارنست لورو - ERNEST - LeRoux - باريس 1931

ابن سلام (ابو عبيد القاسم) = الاموال ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ القاهرة 1353هـ

السمعاني (عبد الكريم بن ابي بكر) = الانساب ـ تحقيق عبد الرحمان بن يحي المعلمي ـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية الهند 1962م

السهيلي (ابو القاسم) = الروض الانف ـ المطبعة الجمالية بمصر 1332هـ/ 1914م

السيوطي = تاريخ الخلفاء تحقيق محمد عبد المتين مطبعة

المجتبائي _ دهلي 1345هـ وطبعة القاهرة د . ت

السيوطي = المستظرف في اخبار الجواري _ طبعة القاهرة د . ت

الشابشتي (ابو الحسن علي بن محمد) = الديارات تحقيق كوركيس عواد - الطبعة الثانية منشورات مكتبة المثنى ببغداد مطبعة المعارف ببغداد 1386هـ/ 1966م

الشافعي = الام - تحقيق محمد زهري النجار _ مكتبة الكليات الازهرية الطبعة الاولى 1381هـ/ 1961م وطبعة القاهرة 1322 هـ/ 1904: 1905م

الشريشي = شرح المقامات الحريرية - القاهرة - 1300هـ/1883م

الشرواني (احمد) = حديقة الافراح طبعة القاهرة 1302 هـ

الشوكاني = نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار _ طبعة القاهرة 1961م

الشيباني (محمد بن الحسن) = كتاب السير الكبير _ تحقيق عبد العزيز احمد - نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية _ مطبعة شركة الاعلانات الشرقية 1972م

الشيزري (عبد الرحمن بن نصر) = نهاية الرتبة في طلب الحسبة _ تحقيق ومراجعة السيد باز العريني دار الثقافة _ بيروت _ لبنان _ د ت

الصابي (هلال) = تحفة الامراء بتاريخ الوزراء _ نشر آمدروز طبعة بيروت 1904م

= رسوم دار الخلافة _ تحقيق ميخائيل عواد - مطبعة العاني بغداد 1383هـ/ 1964م)

ابن الصغير = اخبار الائمة الرستميين _ نشره وترجمه موتيلنسكي - A.de.C.Motylinski بعنوان تاريخ ابن الصغير

Chronique d'Ibn Saghir sur Les Imams Rostémides de Tahert

اعمال المؤتمر العالمي للمستشرقين الرابع عشر 1908م ص 172

الصولي (محمد بن يحيى) = اخبار الراضي والمتقي (تاريخ الدولة العباسية) نشره وترجمه ماريوس كانار - Marius Canard - منشورات معهد

الدراسات الشرقية (IEO) بكلية الاداب بالجزائر الجزائر 1946م

ابن طباطبا (ابن الطقطقي) =الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية مطبعة محمد علي صبيح واولاده القاهرة 1962م وطبعة مصر 1317هـ وطبعة بيروت 1960م

الطبري (محمد بن جرير) = اختلاف الفقهاء ـ تحقيق يوسف شاخت -J. Schacht- طبعة ليدن Leyden 1935م

= تاريخ الامم والملوك نشره دي غوية De Goeje طبعة ليدن Leyden 1885م واعيد الطبع سنة 1901 وكذلك طبعة ـ المطبعة الحسينية بمصر د.ت وطبعة مصر 1326هـ

= جامع البيان عن تأويل آي القرآن تحقيق محمد محمود شاكر طبع دار المعارف بمصر 1958م

طيفور (احمد بن ابي طاهر) = كتاب بغداد تحقيق ـ هـ ـ كلر - H. Keller - ليبزق Leipzig 1908م وطبعة اخرى بتحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري وعزت العطار الحسيني مكتبة الخانجي ـ القاهرة 1949م

العبادي (ابو بكر بن علي) = الجوهرة النيرة شرح مختصر القدوري ـ الطبعة الاولى المطبعة الخيرية 1322هـ

ابن عبد الحكم = فتوح مصر ـ نشره كاملة باعتناء شارل توراي ch.Torrey ليدن Leiden 1922م

= فتوح افريقية والاندلس ـ نشره جزئية باعتناء ا ـ كاتو A.Gateau المكتبة العربية الفرنسية (-B.A.F.-) عدد 2 بعنوان Conquête de l'afrique du nord et de l'Espagne الجزائر 1947م

ابن عبد ربه = العقد الفريد ـ تحقيق احمد امين واحمد الزين وابراهيم الابياري ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1941 وطبعة اخرى بتحقيق محمد سعيد العريان مطبعة

الاستقامة ـ القاهرة 1359هـ/ 1940م وطبعة مصر 1305م

ابن العديم (كمال الدين) = زبدة الحلب في تاريخ حلب مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1666

ابن عـــذاري = البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب ـ نشره كولـن G.S.Colin. وبروفنسال E.Lévi-Provençal ج 1: 2 ليد Leyde- 1948: 1951م ونشر بروفنسال الجزء 3 طبعة باريس 1930م واحلنا ايضا على طبعة دوزي التي ترجمها أـ فانيان E.Fagnan طبعة الجزائر 1901: 1904م

ابو العرب = طبقـات علماء افريقيـة ـ نشره ابن شنب ـ منشورات كلية الاداب بالجزائر ـ الجزائر 1914

ابن العربي المالكي = عارضة الاحوذي بشرح صحيح الترمذي ـ طبعة دار العلم للجميع 1353هـ

العسقلاني (ابن حجر) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز المطبعة السلفية القاهرة 1980م

العقبـاني = تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر ـ تحقيق علي الشنوفي ـ مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي بدمشق ج 19، 1967

ابن عمر (يحي) = احكام السوق ـ تحقيق د: عبد الوهاب مراجعة فرحات الدشراوي ـ الشركة التونسية للتوزيع 1975م

العمري = مسالك الابصار في ممالك الامصار ـ مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5867، و5868

عياض (القاضي) = ترتيب المدارك وتقريب المسالك ـ تحقيق محمد احمد بكير نشر دار مكتبة الحياة بيروت 1967م

العيني (بدر الدين ابو محمـــد) = عمدة القارئ شرح صحيح البخاري ـ ادارة الطباعة المنيرية ـ القاهـرة د . ت.

= رمز الحقائق شرح كنز الدقائق المطبعة الميمنية بمصر د . ت

الغرناطي (ابو حامد) = تحفة الالبـاب ونخبة الاعجاب ـ نشره وترجمه فران G.Ferrand. المجلة الاسيوية ـ J.A ـ 1925م، 1ع 148 ، ص 195، 207

الغزالي (ابو حامد) = احياء علوم الدين - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت لبنان د.ت الجزء الثاني - وطبعة دار الشعب - القاهرة د.ت الجزء السادس

الغزالي (محمد) = هداية المريد في تقليب العبيد - سلسلة نوادر المخطوطات القاهرة 1951م

ابو الفداء = تقويم البلدان نشر رينو - M - Reinaud - و دي سلان - De Slane - طبعة باريس 1840 - ترجم قسم منه في الجزء الثاني من جغرافية أبي الفداء - لرينو - Reinaud - باريس - 1848

ابن فضلان = رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة (309هـ/ 921م) تحقيق الدكتور سامي الدهان مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1379هـ/ 1960م

ابن الفقيه = مختصر كتاب البلدان - نشره دي غويه - M.J. De Goeje - طبعة ليد Leyde المطبعة الجغرافية العربية ع5 - د طبعة ليد - Leyde - 1886

ابن قتيبة = المعارف - تحقيق ثروت عكاشة منشورات وزارة الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة - طبعة دار الكتب 1960م وطبعة مصر 1300هـ

= عيون الاخبار - الطبعة الاولى - دار الكتب المصرية القاهرة 1348هـ/ 1930م

ابن قدامة = المغني - الطبعة الثانية - دار المنار 1367هـ على مختصر الخرقي تحقيق محمد رشيد رضا - الطبعة الثالثة - دار المنار - 1367 هـ

القرآن الكريم =

القزويني = آثار البلاد واخبار العباد - نشره وستنفلد F. Wüstenfeld بعنوان EL - Cazwini's Kosmographie - وتنجن - Göttingen - 1848م وطبعة بيروت 1960م

القشيري = الرسالة القشيرية - دار الكتاب العربي بيروت - لبنان د.ت

القفطي = اخبار العلماء باخبار الحكماء (تاريخ الحكماء) نشره ليبرت J. Lippert
ليبزج – Leipzig – 1320هـ/ 1903م

القلقشندي = صبح الاعشي – منشورات جامعة القاهرة طبعة دار الكتب د.ت
وطبعة القاهرة 1928م الجزء الخامس

القيرواني (ابن ابي زيد) = الرسالة نشرها وترجمها – ليون بارشي L. Bercher
المكتبة العربية الفرنسية - الجزائر 1945 وطبعة على هامش
الفواكه الدواني شرح رسالة ابن ابي زيد القيرواني للنفراوي المالكي
الطبعة الاولى مطبعة السعادة مصر 1331هـ

= النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الامهات مخطوط المكتبة
الوطنية بتونس رقم 191 ورقم 5196

ابن قيم الجوزية = اخبار النساء – منشورات دار مكتبة الحياة - سلسلة من التراث العربي
بيروت د.ت

كاتب الشونة (ابو علي احمد بن الحاج) = مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية
تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل - نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي
الجمهورية العربية المتحدة . د.ت

الكاساني = بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع – دار الكتاب العربي بيروت د.ت
وطبعة القاهرة 1910م

الكتاب المقدس = طبعة بيروت 1903م

الكتاني = التراتيب الادارية دار احياء التراث العربي - بيروت - لبنان د.ت

الكتبي (ابن شاكر) = فوات الوفيات – طبعة القاهرة 1923م

ابن كثير = البداية والنهاية في التاريخ - مطبعة السعادة بمصر [illegible]

= تفسير القرآن العظيم – دار احياء الكتب العربية مطبعة عيسى البابي
الحلبي وشركاه – مصر د.ت
وطبعة بيروت 196[illegible]م

الكندي (محمد بن يوسف) = كتاب الولاة وكتاب القضاة طبعة روكس – Rhuvon Gues
سلسلة جب - Gibb - التذكارية عدد 19 لندن 1912م وطبعة دار صادر
بيروت للطباعة والنشر بيروت 1379هـ/ 1959م

المالقي (ابو الحسن) = الحدائق الغناء في اخبار النساء ـ تحقيق عائدة الطيبي ليبيا ـ تونس ـ الدار العربية للكتاب 1978م

المالكي = رياض النفوس ـ نشر حسين مؤنس ـ الطبعة الاولى ـ الجزء الاول القاهرة 1951م

الماوردي = الاحكام السلطانية ـ الطبعة الثالثة ـ مصطفى بابي الحلبي بمصر 1973م

المباركبوري (القاضي اطهر) = رجال الهند والسند ـ حيدراباد الدكن ـ 1304هـ

المتنبي = الديوان ـ تحقيق لجنة التاليف والترجمة والنشر تصحيح عبد الوهاب عزام ـ القاهرة 1363هـ/ 1944م

ابن المجاور = المستبصر ـ نشره لوفجرين Oscar Löfgreen ـ ليدن Leiden 1936م

مجهول (ق 3 هـ) = اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده ـ تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي بيروت دار الطليعة 1971م

ابو مخرمة = تاريخ ثغر عدن ـ تحقيق لوفجرين ـ Oscar Löfgreen ـ طبعة ليدن ـ Leiden ـ 1936م

المروزي = طبائع الحيوان (ابواب في الصين والترك والهند) تحقيق ف ـ مينورسكي V. Minorsky لندن 1942م

المسعودي = مروج الذهب ـ نشره وترجمه ـ ب ـ دي مينار C.B. De Meynard و ـ ب ـ دي كورتاي Pavet de Courteille طبعة باريس 1861 ـ 1877م وطبعة بولاق 1383هـ وطبعة مصر 1304هـ ـ وطبعة باريس ترجمة كارادي فو B.C. De Vaux سلسلة المؤلفات الشرقية MDCCCXCVII

= التنبيه والاشراف ـ نشره دي غويه De Goeje المكتبة الجغرافية العربية عدد 8 ليد Leyde 1894م وطبعة من تحقيق الصاوي ـ مصر 1357هـ

= اخبار الزمان ـ دار الاندلس ـ الطبعة الثانية بيروت 1386هـ 1966م

مسكويه = تجارب الامم ـ نشر آمدروز H.F. Amedroz و مرغوليوث D.S. Margoliouth القاهرة واكسفورد ـ Oxford ـ 1920 ـ 1921م

مسلم = صحيح مسلم بشرح النووي - نشر محمود توفيق - مطبعة حجازي بالقاهرة - د.ت

ابن المعتز = طبقات الشعراء - تحقيق عباس اقبال - طبعة لندن 1939م

= الديوان - تحقيق محي الدين الخياط - المكتبة العربية بدمشق - د.ت

المعري = لزوم ما لا يلزم او اللزوميات - تحقيق امين عبد العزيز - الطبعة الثانية مطبعة التوفيق الادبية مصر 1342هـ/ 1923م

المقدسي = احسن التاسيم في معرفة الاقاليم - نشر دي غوية De Goeje المكتبة الجغرافية العربية ع3 - د د طبعة بريل - ليد Leyde 1877م والطبعة الثانية 1906م

المقريزي = المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار - طبعة بولاق 1270هـ وطبعة القاهرة 1324-1326هـ وطبعة احرى نشرها فيات G.Wiet بعنوان الخطط المقريزية - في مذكرات اعضاء المعهد الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة - MIFAO عدد 5 - القاهرة 1911 - 1927م كما نظرنا ايضا في طبعة بولاق 1853م

= اغاثة الامة بكشف الغمة - نشره مصطفى زيادة والشيال القاهرة 1940م والطبعة الثانية - القاهرة 1957م

المقري = نفح الطيب - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - دار الكتاب العربي - بيروت 1959م وطبعة بولاق 1279 هـ

ابن منظور = لسان العرب - طبعة بولاق 1300 - 1307هـ

الميداني = اللباب - (شرح مختصر القدوري) الطبعة الاولى - المطبعة الخيرية 1322هـ

ابن ناجي = معالم الايمان - طبعة تونس 1320هـ/ 1902م

ناصر الدين = نبذة في تاريخ الصحراء القصوى - وثائق نشرها اسماعيل حمت Ismaël Hamet وترجمها بعنوان Chroniques de la Mauritanie Sénégalaise باريس 1911

ابن النديم = كتاب الفهرست - طبعة فلوجل FLÜGEL ليبزج Leipzig 1871م

النفراوي (المالكي) = الفواكه الدواني شرح رسالة ابن ابي زيد القيرواني-الطبعة الاولى مطبعة السعادة مصر 1331هـ

النهروالي (قطب الدين) = الاعلام باعلام بيت الله الحرام - تحقيق وستنفيلد Wüstenfeld طبعة ليبزج -Leipzig- 1857م

ابو نـواس = الديوان - وضعه ورتبه محمود كامل فريد - طبعة القاهرة د.ت

النووي (ابو زكريا يحيى) = المنهاج - المكتبة التجارية الكبرى - مصر د.ت

النـويـري = نهاية الارب في فنون الادب نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب بالقاهرة د.ت

ابن هشام = سيرة الرسول - طبعة على هامش الروض الانف للسهيلي المطبعة الجماليه مصر 1332هـ/ 1914م - وطبعة القاهرة 1946-1955م

هلال (بن يحيى الراي) = احكام الوقف - طبعة حيدر آباد الدكن - 1356هـ

الهمداني (بديع الزمان) = المقامات الطبعة الرابعة على هامش رسائل الهمداني - مصر 1346هـ/ 1928م

الهمداني (رشيد الدين فضل الله) = جامع التواريخ - عربه عن الفارسية محمد صادق نشأت ومحمد موسي هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد - تحقيق يحيي الخشاب دار احياء الكتب العربيه مصر 1960م

الوشاء (ابو الطيب) = الظرف والظرفاء او الموشى تحقيق كمال مصطفى. مصر 1372هـ/1953م

الونشريسي = المعيار - المطبعة الحجريه - فاس 1314 - 1315هـ

اليعقوبـي = كتاب البلدان - المكتبة الجغرافية العربية ج7 - نشر دي غويه -De Goeje- طبعة ليدن Leiden مطبعة بريل 1891م

= كتاب التاريخ - نشره هوتسما M.Th. Houtsma - طبعة ليد Leyde 1883م

ابو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) = كتاب الخراج - طبعة بولاق 1302هـ وقد ترجمه الى - فانيان E. Fagnan بعنوان - Le Livre de l'impôt Foncier - باريس 1921م

2) المراجــع :

أ ـ باللغة العربيــــــة

الافغـاني (سعيد) = اســـواق العرب في الجاهلية والاسلام ـ الطبعـة الثالثـة ـ دار الفكر للطباعـة والنشـر والتوزيـع ـ بيـروت ـ لبنان ـ 1394هـ/ 1974م

الالوسي (محمد شكري) = بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ـ طبعة ـ القاهرة 1924م

أمين (احمـد) = ظهـر الاسـلام ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1957 وطبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعـة الخامسـة 1388هـ/ 1969م

بارتولد (و) W. Barthold =دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة العربية ـ تعريب محمد ثابت الفندي واحمد الشنتناوي وابراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس 1352هـ/ 1933م . مقال بلغار، ج4 ص88، 102
ومقال : خزر: ج -8- ص305: 311
ومقال : سلاف : ج -12- ص253: 256

باشا (نجاة) = التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع الى القرن الثامن هجري منشورات الجامعة التونسية ـ 1976

باشميل (محمد احمد) = غزوة بدر الكبرى ـ الطبعة الثالثة ـ دار الفتح للطباعة والنشر ـ بيروت 1966

بروفنسال (ليفي) E. Lévi-Provençal = دائرة المعارف الاسلاميه ـ الطبعة العربيه 1352هـ/ 1933م
مقال : صقالبة = ج -12- ص 250: 252

بروكلمان (كارل) C. Brockelmann = تاريخ الشعوب الاسلامية ـ تعريب نبيه امين فارس ومنير البعلبكي الطبعة الثانيه ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1953م

براني (محمد احمد) = البرامكة في ظل الخلفاء = دار المعارف بمصر د. ت

بلتاجي (محمود) = منهج عمر بن الخطاب في التشريع ـ طبعة دار الفكر العربي 1970

بيرنيط (خوان) = هل هناك اصل عربي اسباني لفن الخرائط البحرية ـ تعريب مختار العبادي ـ مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية العدد الاول. السنة الاولى ـ مدريد 1372هـ/ 1953م

ترمانيني (عبد السلام) = الرق ماضيه وحاضره ـ سلسلة عالم المعرفة ـ ع23 ـ دد الكويت 1979م

الجداوي (مصطفى) = الرق في التاريخ وفي الاسلام. طبعة الاسكندرية 1963

جروهمان (م) A-Grohman = اوراق البردي العربية في دار الكتب المصرية ـ 6 اجزاء القاهرة 1934 ـ 1962م

حسن (ابراهيم حسن) = تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ـ مكتبة النهضة المصرية. القاهرة 1958م

= تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب الطبعة الثانية. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. 1958م

= المعز لدين الله بالاشتراك مع طه احمد شرف دراسة تعتمد المجالس والمسايرات للقاضي ابن حنيفة النعمان ـ طبعة القاهرة 1367هـ/ 1948م

= النظم الاسلامية ـ بالاشتراك مع علي ابراهيم حسن ـ مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1959م

حسن (محمد عبد الغني) = بطن السند ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية عشر 1979م

حميد الله = مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي ونشرها بعنوان = وثائق دبلوماسية - (Documents sur la diplomatie musulmane à L'époque du Prophète et des Khalifes orthodoxes)

القاهرة 1941م واعيد الكتاب في طبعة ثانية بمطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة 1958م

الخربوطلي (علي حسني) = عشر ثورات في الاسلام ـ الطبعة الاولى. دار الاداب بيروت 1968م

خفاجة (محمد عبد المنعم) = قصة الادب في الاندلس ـ طبعة مكتبة المعارف بيروت 1962م

الدوري (عبد العزيز) = تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري الطبعة الثانية -دار المشرق بيروت لبنان 1974

= نظام الضرائب في خراسان في صدر الاسلام مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد -11-1384هـ/ 1964م ص75-87

ديورانت (ول) W. Durant = قصة الحضارة تعريب زكي نجيب محمود ومحمد بدران الجزء الثاني -القاهرة -1956م

رستم (اسد) = الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب - طبعه دار المكشوف الطبعة الاولى - بيروت لبنان 1955 - 1956م

الركابي (جودت) = في الادب الاندلسي - طبعة الثانية - دار المعارف مصر 1966م

زحيلي (وهبة) = آثار الحرب في الفقه الاسلامي - الطبعه الثانيه-دار الفكر بيروت 1962م

الزركلي = الاعلام -قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين دار العلم للملايين بيروت لبنان الطبعة الرابعه 1979م

زناتي (محمود سلام) = اختلاط الجنسين عند العرب - دار الجامعات المصرية 1959م

زيدان (جرجي) = تاريخ التمدن الاسلامي - مطبعة الهلال بالفجالة مصر الطبعه الاولى -الجزء الثاني- 1903م والجزء الرابع 1905م والجزء الخامس 1906م

تاريخ مصر الحديث - مطبعة المقتطف - مصر 1958م

شاخت (يوسف) J - Schacht = مقال ام ولد - دائرة المعارف الاسلامية الترجمه العربية ج ص640

شعيب باشا (احمد) = الرق في الاسلام -رد مسلم على الكاردينال لافيجري - تعريب احمد زكي باشا -الطبعة الثانية-مطبعة الاعتماد بمصر د . ت

شابين (اسكندر) A - Seippel اخبار ام الحوس من الارمان وورنك والروس - نصوص جمعها المصنف ونشرها - طبعة مدينة اوسلو 1928م

واعيد الطبع بالاوفست بمكتبة المثنى ببغداد

الصوفي (خالـــد) = تاريخ العرب في اسبانيا في عهد المنصور طبعة القاهرة د.ت

الصينـي (بدر الدين) = العلاقات بين العرب والصين ـ الطبعة الاولى ـ مكتبة النهضة المصريـــة القاهرة 1950م

العبادي (احمد مختار) تاريخ البحرية الاسلامية بالاشتراك مع عبد العزيز سالم ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف ـ 1969م

عبد الباقي (محمد فؤاد) = المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ـ مطابع الشعب 1378هـ

عبد الحليم (الشاطر بصيلي) = تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط من القرن سابع الى القرن التاسع عشر للميلاد الهيئة المصرية العامـــة للكتاب مصـــر 1972م

العدوي (ابراهيم احمد) = المسلمون والجرمان ـ الطبعة الاولى ـ دار المعرفة 1960م

العسكري (سليمان ابراهيم) = التجارة والملاحة في الخليج العربي ـ طبعة القاهرة 1972م

علي (جواد) = تاريخ العرب قبل الاسلام ـ مطبعة المجمع العلمي العراقي 1376هـ/ 1957م

العلي (زكية عمر) = التزيين والحلي عند المرأة في العصر العباسي ـ منشورات وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية ـ سلسلة الكتب الحديثة رقم 99 دار الحرية للطباعة ـ بغداد 1396هـ/ 1976

العلي (صالح احمد) = التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول للهجرة ـ الطبعة الثانية ـ دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت 1969م

فازيليف A-vasiliev = العرب والروم ـ ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ـ مراجعة فؤاد حسنين دار الفكر العربي د.ت

فلهاوزن J-wellhausen = تاريخ الدولة العربية ـ تعريب ابو ريدة مراجعة حسين مؤنس الطبعة الثانية طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة 1968م

فنسنك A-J-wensinck = مفتاح كنوز السنة ـ تعريب محمد فؤاد عبد الباقي ـ مصر ـ د ت

فيصل (شكري) = تطور الغزل بين الجاهلية الاسلام من امرئ القيس الى ابن ابي ربيعة ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الرابعة بيروت 1969م

= حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ـ مطابع دار الكتاب العربي. مصر-1952

كاشف (سيدة اسماعيل) = مصر في عهد الاخشيديين ـ دار النهضة العربية. الطبعة الثانية القاهرة 1970م

كانار (ماريس) M. Canard = نخب تاريخية وادبية جامعة الاخبار الامير سيف الدولة الحمداني خزانة الكتب العربية الجزء الثامن الجزائر 1934م

الكبيسي (حمدان عبد المجيد) = اسواق بغداد دار الحرية للطباعة بغداد 1399هـ/ 1979م

كتابجي (زكريا) = الترك في مؤلفات الجاحظ ـ طبعة دار الثقافة بيروت لبنان 1972م

الكواكبي = الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ـ طبعة بيروت 1975م

لسترانج (ج) G. Le Strange = بغداد في عهد الدولة العباسية ـ تعريب بشير يوسف فرنسيس الطبعة الاولى ـ المطبعة العربيه ببغداد 1355هـ/ 1936م

لعبال (موسى) = الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ـ نشأتها وتطورها ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ الطبعة الاولى 1971م

لويس (ارشيبالد) A. Lewis السيادة الاسلاميه ـ دراسات اسلاميه تعريب عدد من الدكاترة . باشراف نقولا زيادة ـ دار الاندلس للطباعة والنشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة ـ للطباعة والنشر بيروت لبنان 1960 ص 25 ـ 84

ماجد (عبد المنعم) = ظهور الخلافه الفاطمية وسقوطها ـ طبعة القاهرة 1968م

= نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ـ طبعة القاهره 1953، 1955م

متز (آدم) A. MEZ - = الحضارة الاسلاميه في القرن الرابع الهجري ـ او عصر النهضه في الاسلام ـ تعريب محمد عبد الهادي ابي ريده ـ دار الكتاب العربي بيروت البنان ـ الطبعة الرابعة 1387هـ/ 1967م

المدور (جميل بن نخلة) = حضارة الاسلام في دار السلام مطبعة المقتطف مصر 1888م

المنجد (صلاح الدين) = بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي ـ دار الحياة بيروت 1957م

مينورسكي (ف) V.Minorsky = مقال روس ــ دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ج 10 ص 229

الندوي (محمد اسماعيل) = تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ــ دار الفتح للطباعة والنشر بيروت ــ صندوق البريد 4295

هارتمان (ر) R.Hartmann = مقال بربرة ــ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ج 3 ص 522: 524

هوار (كليمان) cL.Huart مقال ديلم ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ الطبعة العربية ج 5 ص 367

ب ــ بغير العربية

Barthold(W) = Turkistan down tothe Mongolinvasion- London1928
= Article = Turc - Encyc - of Islam-T 6 P-901

Bianquis(th) = La prise du pouvoir par les fatimides en Egypte (Annales Islamologiques) XI - Le caire 1972

Braunstein(ph) et delort(R) = venise, portrait historique d'une cité-Edition du seuil - Paris VI 1971

Bréhier (L) = La civilisation Byzantine . in-l'évolution de l'humanité-synthése collective dirigée par henri BERR - Paris XIVe- 1950
= Les Institutions de l'empire Byzantin - in-l'evolution de l'humanité - synthése collective dirigée par Henri BERR- Paris XIVe 1949

Brunschvig(R) = article " 'Abd" - EI - 1e- Edition -Ej Brill leyde 1934 - T=I PP 25-41
=Ibn- 'Abd-el -Hakam et la conquete de l'afrique du Nord par les arabes - Etude critique - AIEO-VI 1942- 1947-PP = 108-155
=La Berbérie orientale sous les Hafsides - Paris 1940-1947

Cahen(cl) = Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale Ed-de l'Institut français de Damas-Damas-1977
= L'Histoire économique et sociale de l'orient musulman médiéval - studia Islamica - 1955-III-PP93-115
= Le commerce dans le monde musulman à son apogée UNEF , FGEL, 1968. 1974. PP 14.36

Canard (M) :-Byzance et les musulmans du proche orient - variorum Reprint London 1973

- Say f-al- Daula-Recueil de Texte relatifs à l'Emir Sayf-al Daula le Hamdanide avec annotations, cartes, et plans - Bibliothèca-Arabica VIII publiée par la faculté des Lettre d'Alger - Alger 1934.

Carcopino (J) - La vie Quotidienne à Rome - L'Apogée de l'empire-librairie Hachette - 1979 - corbeil - Essonnes (S. et O) 1959 .

Cenni (C) - Monumenta Dominationis Pontificiae - Rome 1760-1761

Chelhod (J) - Introduction à l'histoire sociale et urbaine de zabid-Arabi T 25 - fasc I Février 1978 Leiden - P P 48- 88

Coindreau (R):- Les corsaires de salé - Publications de l'Institut des Etu Marocaines - T - XLVII - Paris 1948.

Guoq (J) :- Receuil des sources arabes concernant le Bilâd al-sudān depuis le VIII siècle jusqu'au XVI siècle-thèse pour le doctorat d'université-Rome 1973

Dachraoui (F):- Le califat fatimide au Maghreb - Tunis STD 1981

Decugis (H) :- Les Etapes de droit - Paris 1946

Defrémery (C):- Anciens peuples du caucase - J.A. 1849

Delafosse (M): Histoire du sahara - Hespéris - 1930 - P.58

De Manteyer(G - Pinet) : La provence du Ier au XII siècle - Paris 1908

De sacy (S) :- Le livre de l'Indication et de ladmonition -Notice Publiée avec les prairies d'or - T9-PP 301 - 376 - société Asiétique Paris 1877.

De-vallve :- La ville d'alméria à l'Epoque Musumane - Extrait des cahie de Tunisie - 1970 -T- VIII N° 60.70

Devaux (B-carra): Le livre de l'Avertissement et de la révision trad Française- société asiatique - collection d'ouvrages orier - Paris - MDCCCXCVII

Devisse (J) :- Routes de commerce et échanges en afrique occidentale en relation avec la Méditerran ée (Revue d'histoire économique et sociale 1972) Tedgaoust - 1970 -I- PP 109 - 166 -

Doehaerd (R) :-Méditerran ée et Economie occidentale pendant le haut moyer age - cahiers d'histoire Mondiale -I- 1954 - PP 571 - 593

Dozy (R) :- Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'andalousie par les almoravides - 711/1110/ Nouvelle Ed. vue et remise à jour par E -L - Provençal - Leyde 1932

- Supplément aux dictionnaires Arabes - Leyden 1881

Duchesne (L) :- Liber pontificalis -edition posthume - Paris 1955 - 1957.

Duri (A.A) :- Article Baghdad - EI - Nouvelle edition - T I PP 921.936.

ECK -Le commerce mediterranéen après l'invasion arabe (R.S.E)
(Revue historique du sud Est Européen) Bucarest 1941 p 34;
ELLUL(J)-Histoire des Institutions de l'Antiquité(P.U.F) Paris 1961
EVetts -Histoire des Patriarches d'Alexandrie. T I(inpatrologia orientalis.I V et X)
Fagnan(E)-Kitab al Istibçar,l'Afrique Septentrionale au XII siecle de notre ére,traduction-dans=Recueil des notes et mémoires de la société archéologique de Constantine 1900
-Ibn al Athīr,Annales du Maghreb et de l'Espagne-traduction d'Extraits;Alger 1901
Ferrand(G)-Voyage du marchand arabe Suleyman en Inde et en Chine; Paris 1922
Forand(P)-Early Muslim relations with Nubia;in Der Islam XL VIII 1971
Garcin(J.C)-Un centre musulman de la haute Egypte Médiévale=Qūs thése de doctorat -Ed- de l'institut Français d'Archéologie orientale(IFAO) 1974
Gosse;(Ph)-Histoire de la piraterie-trad-P-Teillac-Ed-Payot-Paris 1933
Grand Larrousse Encyclopédique-Librairie Larousse Paris 1961
Grimberg(K)-Histoire Universelle Paris 1963
Halphen(L)-Les Barbares des grandes invasions aux conquêtes turques du XI siécle- P.U.F. cinquiéme éd 1948
Hamidullah-Muslim Conduct of state-Lahore 1945
Hartmann(R)-Article Barbara-E.I.Nouvelle Edition-T.I p 1207
Hasan(yusuf-F)-the Arabs and the Sudan From the Seventh to early Sixteenth century Edinburg 1967
Hees(R.L)-the Itinerary of Benjamen of Tudela=a twelfeth century jewish description of north Est Africa J-A-H 1964 T-6-pp 15-24
Heyd-(W)-Histoire du commerce du levant au moyen âge publié par Furcy Raynaud-Ammesterdam 1959
Hitti(Ph-K)-Précis d'histoire des Arabes-trad de M.Planiol Bibliothéque historique Payot-Paris 1950
Huart(CL)-Histoire des Arabes Paris-1912

SUWAR- al Akālīm(anoyme persan),texte persan et traduction dans les actes du 14 éme congrés international des orientalistes III-Alger 1905 pp 22-27

Idris(H-R)La Berbérie orientale sous les Zirides-X et XII siécles Publication de l'Institut d'Etudes orientales-Faculté des lettres et sciences humaines d'Alger N°XXII Paris 1962

-Fêtes chrétiennes célébrées en Ifriquia à l'époque Zi ride: Revue Africaine N°440-441-Année 1954 pp 261-276

Jaubert(A)-Géographie d'Edrisi-Paris-1836-1840

Jeannel(J)-La Piraterie-thése de droit Paris-1903

Kamal(Y)-Monumenta cartographica Africae et Aegypti-Lecaire-Leyde 1926-1951

Kremer(A)-the orient under the caliphs,translated by.S.khuda-Bukhush calcuta-1920

Lammens(H)-Le berceau de l'Islam-Rome 1914

-L'Arabie occidentale avant l'hégire-Beyrouth-1928

-La Mecque à la veille de l'hégire-Beyrouth-1924

-AḤābich-J-A-1916-pp 425-482

-Les chantres des ommeyades-J-A-.Série IX-T-IV p 227

Lane-pool(S)-Ahistory of Egypt in the middle Ages(in W.M.F.Petrie, Ahistory of Egypt-T VI London 1901)

Lebon(G)-La civilisation des arabes-Ed-IMAG-Italie-Syracuse SNED-161/69

Lengellé(M)-L'esclavage-"que-sais-je?") Presses Universitaires de France Paris 1955

Le Tourneau(R)-L'occident musulman du 7é à la fin du 15é siécles A.I.E.O.-16 Alger 1958-pp-147-176

Lewicki(T)-L'Etat Nord Africain de Tahart et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIIé et au IXé siécles incahiers d'Etudes Africaines N°8-1962-pp 513-535

Lokkegaard(F)-Article-Bakt-Ei-1é Ed-TI p-996

Lombard(M)-L'Islam dans sa premiére grandeur(VIIé-XIé siécles) Paris-1971

Lopez(R.S)Naissance de l'Europe Paris 1962

Marçais(G)-La berbérie musulmane et l'orient au moyen âge collection Les grandes crises de l'Histoire dirigée par J.Calmette

-F-Aubier-Editions Montaigne-Paris 1946

Massignon(L)-article Zandj-EI-1éEditions-IVpp 1281-1282

Mauny(R)-un Itinéraire transsaharien du M.A.(Bulletin de liaison Saharienne)1953-N°12-pp 31-41

Mehren(A.F.)Manuel de la Cosmographie du M.A. Copenhague 1874

Mendelson(I)-Slavery in the ancient Near East-Newyork 1949

Miles(G.C)-Articles-Dirham et Dinar-EI.

Minorsky(V)-Hudūd-al-ʾĀlam,Texte persan Publié sous le titre=the Regions of the,a persian géography 373/982-Ed-V-Barthold trad-v-Minorsky-London-1937

Monier(R)-Manuel Elementaire de droit Romain Paris 1947

Monod(th)-Majābat-al-Koubra-Contribution à l'Etude de "l'empty quarter" ouest Saharien-Mém-IFAN-N°52-Dakar-1958

Monteil(V)-al-Bakrī(cordoue 1068)Routier de l'Afrique blanche et noire du Nord-Ouest(traduction des passages concernant l'Afrique occidentale)dans B.I.F.A.N-TXXX Ser-B-1968 pp 39-116

Nestor-chronique dite de Nestor-trad-sur le rexte Slavon-russe-par Louis Leger-Publications de l'école des langues orientales Vivantes Paris 1884

Pellat(ch)-Le livre des Avares Paris 1952

Pérés (H)-La poésieAndalouse en Arabe classique au XIé siécle Paris 1937.

Pirenne(H)-Mahomet et Charlemagne-Paris 1937
-Les Villes au Moyen age- Bruxelles-1927

Poupardin(R)-Le Royaume de Povence sous les carolingiens-Paris 1901
-Le Royaume de Bourgogne-Paris 1907

Provençal(E.Lévi)-Histoire de l'Espagne musulmagne Ed-G.P.Maisonneuve Paris-et E.J-Brill-Leiden-1950-1953-T I II III
-En relisant le"collier de la colombe"Revue Al.Andal us 1950 N°XV pp357-368

Reinaud(I.T)-Relation des voyages faits par les Arabes et les Persans dans l'Inde et la Chine-Paris-1845

Sabbe : Quelques types de Marchands des IX et X siècles in Revue Be
1934 - N° XIII

Salomon (R) : L'Esclavage en droit comparé Juif et Romain - Paris - 1

Sayous (A.E.) : Le commerce des Européens à Tunis depuis le XII siècle jusqu'à la fin du XVI - Paris 1929.

Schacht (J) : The origins of Muhammadan Jurisprudence - oxford - 1950

Schaube (A) : Handelsgeschichte der Romanischen Vôlker... Munich-Berl 1906

Schlumberger (G): Un empereur Byzantin au Xe siècle - Nicéphore phocas-Pa: 1890

Sourdel (D et J): La civilisation de l'Islam classique - Paris 1968

Steingass (F) : Persian-English Dictionary - London - 1930

Talbi (M) :- L'Emirat aghlabide - Ed - Faculté des Lettres de Tunis Adrien - Maisonneuve - Paris VI - 1966

- Interêt des oeuvres Juridiques traitant de la guerre p l'histoire des Armées médièvales Ifriquiennes - cahier Tunisie XV - 1956 - P.290

Théophanes continuatus : Chrongraphia - Ed - E. BEKKER - Bonn 1838 - dans volume XXXIII du corpus scriptorun Historiae Byzantinae Texte grec et traduction latine - PP1 - 484 - (voir ous Ed Deboor Leipzig 1883)

Vasiliev (A) : The Russian attack of constantinople - in 860 cambridge1

Wallon (H) : Histoire de l'Esclavage dans l'antiquité - 2 Ed - Paris Hachette et Cie - 1879

Watt (W.M) :- Mahomet à la Mecque - trad de F. Dourveil Payot - Paris 1958

- Mahomet à Médine - trad - S.M. Guillemin et F. Vaudou Payot - Paris 1959

Westermarck (E) :- L'Histoire du Marige - trad française - Paris 1934

- L'origine et le developpement des idées morales - Paris 1928

Wiet (G) :- Précis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues TII - Le caire 1932

- Les pays - le caire 1937 - (voir aussi - stéles funérai: T IV).

فهرس المواضيع

المواضيع	الصفحات

القسم الثاني

القسم الثالث